مجموعة الببليوجرافيا التاريخية

الكتب والمكتبات في العصور الوسطى

الشرق المسلم ■ الشرق الأقصى

تأليف

الدكتور شعبان عبد العزيز خليفة

الناشر

الدار المصرية اللبنانية

الكتب والمكتبات

في

العصور الوسطى

الشرق المسلم ■ الشرق الأقصى

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت . ص . ب 2022 برقيا دارشادو . القاهـرة . ت : 3923525 - 3936743 . فاكس : 3909618

رقم الإيداع : 3692 / 1997 — الترقيم الدولى 7 - 329 - 270 - 977

تجهيزات فنية : الإسـراء ت : 3143632 — طبع : المحنى ت : 4827851

الطبعة الأولى : محرم 1418 هـ مايو 1997 م — الطبعة الثانية : شوال 1421 هـ يناير 2001 م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهــداء

* إلى الزهرة التــى تفتحــت فــى حياتــى

فعطرتها بأريجهــا الفــواح.

* إلى الشعـــلة التــى أضـــاءت حياتــى

بنـــــورهـــا الوهـــــاج.

* إلى ولدى **شريف شعبان خليفة**

الذى عشق الكتب والقراءة منذ نعومة أظفاره.

* لقد آثرت أن أقدم لك باقة مــن الورد

فــى ســلة قديــمة.

علــى أن أقدم لك باقــة من العشــب

فــى ســلة جديــدة.

والله.. والله.. والله.. لن يفهم الحاسب الإلكترونى وملفاته الآلية، ولن تفهم أقراص الليزر إلا على ضوء لفافة البردى وكراس الرق.

شعبان خليفة

مقدمة

إنتهينا فى كتابنا الأول: الكتب والمكتبات فى العصور القديمة إلى اعتناق التقسيم العام للعصور إلى قديمة ووسطى وحديثة، أساساً لمعالجة موضوعنا الكتب والمكتبات. والعصور القديمة كما حددناها هناك تبدأ منذ ظهور الإنسان العاقل على الأرض ولأغراض الببليوجرافيا التاريخية تبدأ العصور القديمة منذ إختراع الكتابة حيث أنها الأصل فى ظهور الكتاب ومن ثم المكتبات، وتنتهى مع القرن الخامس الميلادى، حين سقطت الامبراطورية الرومانية ودخلت فى ظلام العصور الوسطى الأوربية. وقلنا فى تبرير ذلك أن البشرية لا تنتقل من عصر إلى عصر بين يوم وليلة أو بين سنة وأخرى بل يكون الانتقال تدريجياً يحتاج على الأقل إلى ربع قرن.

ومن هذا المنطلق فإن العصور الوسطى تبدأ مع القرن السادس الميلادى وتنتهى كما ذهبنا هناك مع القرن الخامس عشر الميلادى؛ ومن ثم فإنها تشغل تسعة قرون كاملة. والأوربيون يقسمون عصورهم الوسطى إلى عصور وسطى باكرة وعصور وسطى متأخرة: الوسطى الباكرة تمتد من القرن السادس حتى القرن الثانى عشر، وتتسم تلك الفترة فى أوربا بالتخلف العام فى جميع نواحى الحياة حتى أنها وصفت بالعصور الوسطى المظلمة، ومن هنا لم يكن فيها نهضة فكرية أو إنسانية عامة. أما العصور الوسطى المتأخرة فإنها تمتد من القرن الثالث عشر وحتى نهاية الخامس عشر على مدى ثلاثة قرون كاملة. وتعتبر هذه القرون الثلاثة برمتها بمثابة مقدمة للنهضة الأوربية الشاملة وإرهاصات لها.

أما بالنسبة للمسلمين فإن العصور الوسطى يجب أن تنقسم إلى عصور وسطى إسلامية وعصور وسطى مسيحية؛ وحيث يعتبر القرن السابع الميلادى كله إرهاصاً للنهضة الاسلامية الشاملة التى يمكن اعتبارها قد تبلورت فى القرن الثامن الميلادى، وامتدت على مدى سبعة قرون ولفظت أنفاسها وبثت روحها فى النهضة الأوربية فى نهاية العصور الوسطى الأوربية المتأخرة.

ونظرا لأن الشرق الأقصى (الصين واليابان وكوريا) له تقسيماته التاريخية الخاصة فإننا لا نستطيع أن ندخله فى الإطار العام للعصور التاريخية حسب تقسيمنا لها حتى يمكن معالجة الكتب والمكتبات فى تلك المنطقة التى غالبا ما تفلت من شبكة التأريخ الببليوجرافى رغم دورها الفعال فى هذا المضمار. كما أن تلك المنطقة لم تخرج عن عزلتها التى فرضتها على نفسها إلا فى نهاية القرن التاسع عشر بالنسبة لليابان وكوريا، والنصف الثانى من القرن العشرين بالنسبة للصين. ولذلك سوف نعالج الكتب والمكتبات فى الشرق الأقصى على مدى التاريخ هنا فى هذه الحلقة.

وسوف نعالج فى هذه الحلقة الثانية الكتب والمكتبات عند المسلمين ثم فى الشرق الأقصى ثم أوربا ثم عند البيزنطيين فى العصور الوسطى. ونظراً لضخامة المادة العلمية فسوف نوزعها على مجلدين. يدور أولهما حول الكتب والمكتبات عند المسلمين، والكتب والمكتبات فى الشرق الأقصى. ويدور الثانى حول الكتب والمكتبات فى أوربا والدولة البيزنطية.

والله من وراء القصد،

شعبان عبد العزيز خليفة

الجيــزة فــى ١٩٩٧

الباب الأول

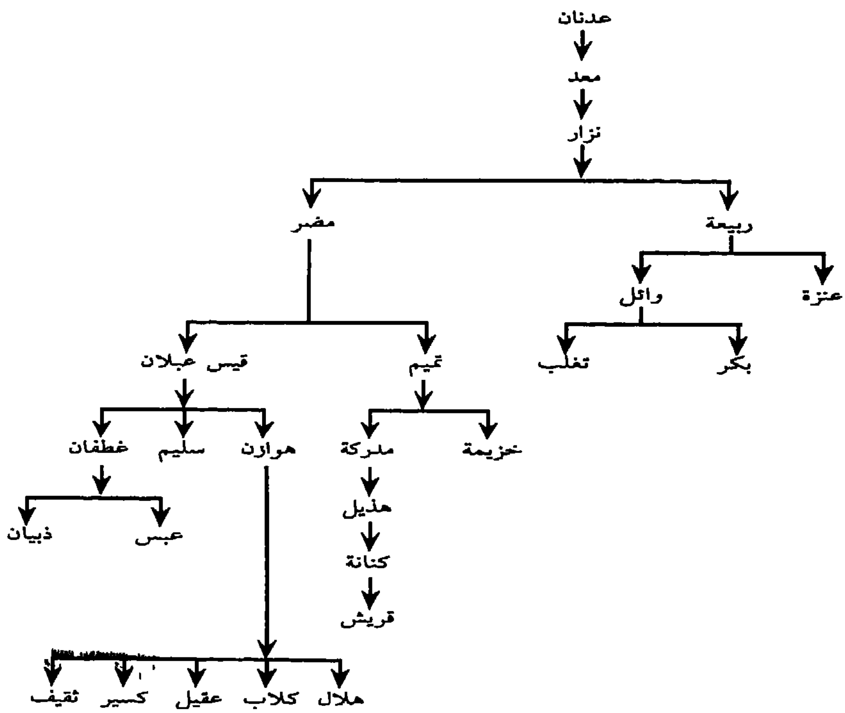
الكتــاب الإســلامى

الكراس الأول

الأرض التى نبت فيها الكتاب الإسلامى

كلمة عربى هى كلمة آرامية (آرابى) معناها ساكن الصحراء. وقد أطلقها الآراميون على سكان الصحراء الذين عاشوا فى الجنوب منهم. ومن ثم نسب المكان واللغة والكتابة وغير ذلك إلى هذه الكلمة فقيل جزيرة العرب واللغة العربية والخط العربى وما إلى ذلك. إذن فالتسمية أتتهم من الخارج، من شمالهم وليس من داخلهم.

وينتمى عرب الشمال إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وقد انحدرت منه القبائل العربية الشمالية على النحو الآتى:



العرب المستعربة (عرب الشمال)

وقد أطلق على الفترة التى عاشها عرب الشمال قبل الإسلام إسم «الجاهلية». ذلك أنه لم يكن للعرب فى تلك الفترة علم ولا أدب ولا فن مكتوب، وكانت الأشعار والأخبار يتم تداولها وتناقلها شفاهة عن طريق التواتر رغم أنهم قد عرفوا الكتابة - كما سنرى تفصيلا فيما بعد - بفترة طويلة قبل الإسلام. وكانت حضارتهم بدوية وعيشتهم بسيطة تتسم أساساً بالترحل وراء الكلأ. وكان ارتباط العربى بالقبيلة هو أساس تكوينه النفسى والعاطفى. وكان الصبر والحزم وحب الحرية والكرم وحسن الضيافة والشجاعة والثأر من أهم صفات العربى فى تلك الفترة.

ورغم أنهم كما رأينا كانوا من سلالة سيدنا إبراهيم وإسماعيل إلا أن دياناتهم على وجه العموم كانت الشرك وعبادة الأصنام ولهم الكهنة والكاهنات والسدنة خدمة الهيكل وكانوا يعتقدون فى القيافة والعرافة والعرافين ويعتقدون فى الجن. وقد دان بعضهم باليهودية فى الحجاز خاصة. كما كان للنصرانية نوع من الإنتشار سواء بين البدو أو الحضر وخاصة فى جنوبى الجزيرة وعلى حدود العراق والشام (الغساسنة). وينتمى هؤلاء النصارى إلى الكنيسة السريانية المونوفيزية فى الشمال، وإلى النسطورية فى الشمال الشرقى وإلى نصرانية الحبشة المشوبة باليهودية فى الجنوب والغرب.

ولم تكن هناك فى الشمال دول بل كان عرب الجاهلية عبارة عن قبائل متحالفة أحيانا، ويغير بعضها على بعض أحيانا أخرى وتتحارب لأتفه الأسباب. وقد تكوّن فى الشمال دولتان حضريتان إستقرت إحداهما على حدود الفرس (المناذرة) وكانوا حلفاء لهم. واستقرت الثانية على حدود البيزنطيين (الغساسنة) وكانوا حلفاء لهم.

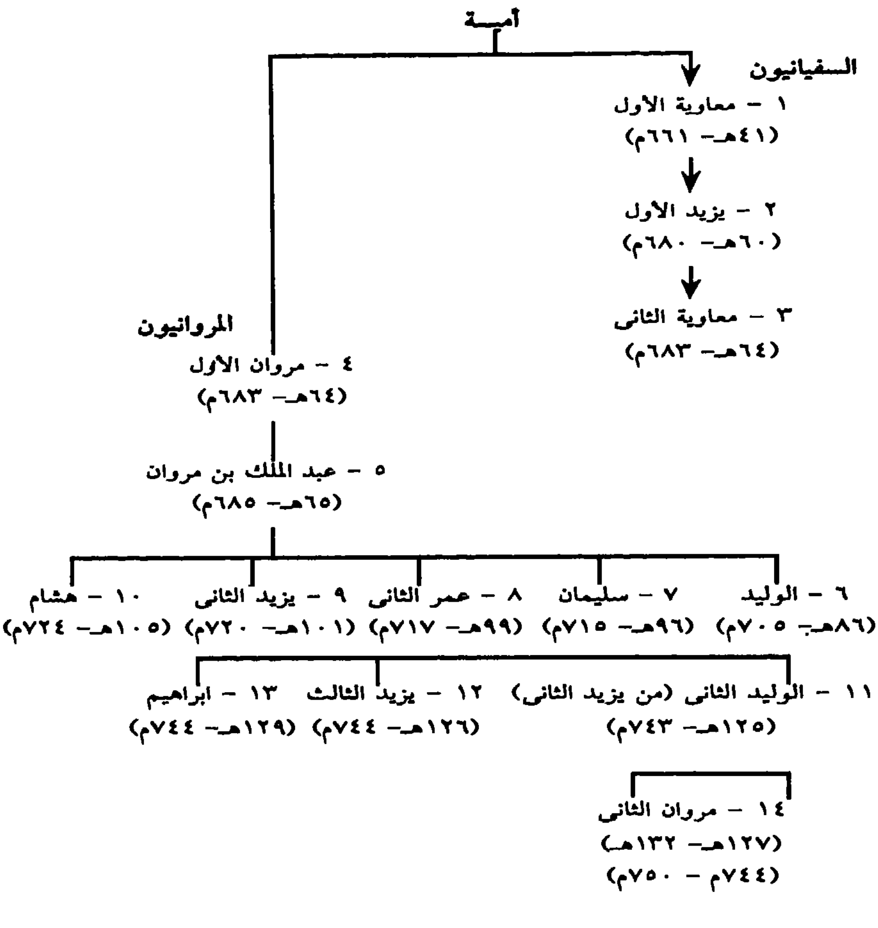
كان الشعر أهم مظاهر الفكر عندهم. وقد انقسم الشعراء إلى فئات منهم **الشعراء الصعاليك**. وكان من بينهم الشنفرى؛ تأبط شراً؛ عروة بن الورد؛ ومنهم **شعراء المعلقات** وعلى رأسهم إمرؤ القيس؛ طرفة بن العبد؛ زهير بن أبى سلمى؛ لبيد بن ربيعة؛ عمرو بن كلثوم؛ الحارث بن حلزة؛ عنترة بن شداد. وكان هناك **شعراء البلاط**: علقمة الفحل؛ المتلمس؛ المثقب العبدى؛

النابغة الذبيانى؛ الأعشى الأكبر؛ عدى بن زيد؛ أبو أذينة. وكان هناك كذلك **الشعراء الفرسان**: المهلهل؛ عبد يغوث؛ الحصين بن الحُمام؛ عامر بن الطفيل؛ حاتم الطائى؛ عمرو بن معدى كرب؛ دريد بن الصمة؛ عبيد بن الأبرص؛ السموأل؛ الأسود بن يعفر؛ كعب بن سعد؛ أمية بن أبى الصلت.

وقد ولد رسول الله ﷺ ٥٧٠/ ٥٧١م فى عام الفيل. وتوفى ٦٣٢م وجاء بعده الخلفاء الراشدون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى (١١هـ - ٤٠هـ/ ٦٣٢ - ٦٦١)، رضى الله عنهم.

ويمثل الجدول الآتى فترة الدولة الأموية (٤٠هـ - ١٣٢هـ/ ٦٦١ - ٧٥٠م).

الأمويون فى الشام والأندلس



الأمويون فى الأندلس

١ - عبد الرحمن الداخل ١٣٨ هـ - ١٧٢ هـ / ٧٥٦ م - ٧٨٨ م

٢ - هـــــشام ١٧٢ هـ - ١٨٠ هـ / ٧٨٨ م - ٧٩٦ م

٣ - الحـــــكم ١٨٠ هـ - ٢٠٧ هـ / ٧٩٦ م - ٨٢٢ م

٤ - عبد الرحمن الثانى ٢٠٧ هـ - ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ م - ٨٥٢ م

٥ - محـــمد الأول ٢٣٨ هـ - ٢٧٥ هـ / ٨٥٢ م - ٨٨٦ م

٦ - المـــنذر
٢٧٣ هـ - ٢٧٨ هـ
٨٨٦ م - ٨٨٨ م

٧ - عبد الله
٢٧٥ هـ - ٢٩٩ هـ
٨٨٨ م - ٩١٢ م

محمد

٨ - عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)
٢٩٩ هـ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م

عبيد الله ← عبد الرحمن

عبد الملك ← محمد

سليمان ← الحكم ← ١٢ - سليـــمان (المستعين بالله) (٣٩٩هـ - ٤٠٣هـ) (١٠٠٩م - ١٠١٣م)

عبد الجبار ← ١١ - محمد الثانى (المهدى) (٣٩٩هـ - ١٠٠٩ م)

٩ - الحكم الثانى (المستنصر بالله) (٣٥٠ هـ - ٣٦٥ هـ) (٩٦١ م - ٩٧٦ م) ← ١٠ - هشام الثانى (المؤيد بالله) (٣٦٦ هـ - ٣٩٩ هـ) (٩٧٦ م - ١٠٠٩ م)

١٣ - عبد الرحمن الرابع (المرتضى) بن محمد عبد الملك (٤٠٨ هـ - ١٠١٨م)
١٤ - عبد الرحمن الخامس (المستظهر بالله) بن هشام (٤١٤هـ - ١٠٢٣ - ١٠٢٤م)
١٥ - محمد الثالث (المستكفى بالله) بن عبد الرحمن بن عبيد الله (٤١٤هـ - ٤١٦هـ) / ١٠٢٣م - ١٠٢٥م

١٦ - هشام الثالث (المعتد بالله) بن عبد الرحمن الرابع بن محمد بن عبد الملك (٤٢٠هـ - ٤٢٢هـ) / ١٠٢٩م - ١٠٣١م.

وبعد ذلك جاء ملوك الطوائف (١٠٣١ - ١٠٨٦) ثم المرابطون (١٠٨٦ - ١١٤٧م) ثم الموحدون (١١٤٧ - ١٢٣٥) ثم بنو نصر ١٢٣٥ - ١٤٩٢م.

أما الدولة العباسية التى قامت على أنقاض الدولة الأموية فى المشرق فإن خلفاءها يمكن تسجيلهم على النحو الآتى:ـ

١ - السفاح	١٣٢ هـ / ٧٥٠ م	٢ - المنصور	١٣٦ هـ / ٧٥٤ م
٣ - المهدى	١٥٨ هـ / ٧٧٥ م	٤ - الهادى	١٦٩ هـ / ٧٨٥ م
٥ - هارون الرشيد	١٧٠ هـ / ٧٨٦ م	٦ - الأمين	١٩٣ هـ / ٨٠٩ م
٧ - المأمون	١٩٨ هـ / ٨١٣ م	٨ - المعتصم	٢١٨ هـ / ٨٣٣ م
٩ - الواثق	٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م	١٠ المتوكل	٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م
١١ - المنتصر	٢٤٧ هـ / ٨٦١ م	١٢ - المستعين	٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م
١٣ - المعتز	٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م	١٤ - المهتدى	٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م
١٥ - المعتمد	٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م	١٦ - المعتضد	٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م
١٧ - المكتفى	٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م	١٨ - المقتدر	٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م
١٩ - القاهر	٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م	٢٠ - الراضى	٣٢٢ هـ / ٩٤٣ م
٢١ - المتقى	٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م	٢٢ - المستكفى	٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م
٢٣ - المطيع	٣٣٤ هـ / ٩٤٦ م	٢٤ - الطائع	٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م
٢٥ - القادر	٣٨١ هـ / ٩٩١ م	٢٦ - القائم	٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م
٢٧ - المقتدى	٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م	٢٨ - المستظهر	٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م
٢٩ - المسترشد	٥١٢ هـ / ١١١٨ م	٣٠ - الراشد	٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م
٣١ - المقتفى	٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م	٣٢ - المستنجد	٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م
٣٣ - المستضئ	٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م	٣٤ - الناصر	٥٧٥ هـ / ١١٨٠ م
٣٥ - الظاهر	٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م	٣٦ - المستنصر	٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م
٣٧ - المستعصم	٦٤٠ - ٦٥٦ هـ ١٢٤٢ - ١٢٥٨ م		

ولتركيز الخلفية التى عملت فيها الكتب والمكتبات الإسلامية يصور الجدول الآتى أهم الخطوط التاريخية:

١ - النبى والدعوة

مولد النبى فى مكة ٥٧٠ / ٥٧١ م

زواج النبى من خديجة ٥٩٥ م

بدء الدعوة ٦١٢ م

معركة بدر ٢ هـ / ٦٢٤ م

معركة أحد ٣ هـ / ٦٢٥ م

معركة الخندق ٥ هـ / ٦٢٧ م

معركة مؤتة ٧ هـ / ٦٢٩ م

فتح مكة - معركة حنين ٨ هـ / ٦٣٠ م

حجة الوداع. وفاة النبى ١١ هـ / ٦٣٢ م

٢ - الدولة الإسلامية

أ - الخلفاء الراشدون ١١ - ٤٠ هـ (٦٣٢ - ٦٦١ م)

ب - الخلفاء الأمويون ٤٠ - ١٣٢ هـ (٦٦١ - ٧٥٠ م)

جـ - الخلفاء العباسيون ١٣٢ - ٦٥٦ هـ (٧٥٠ - ١٢٥٨م)

- العصر الذهبى ١٣٢ - ٢٣٢ هـ (٧٥٠ - ٨٤٧م)
- الانحطاط ونشأة الدويلات ٢٣٢ هـ - ٦٥٦ هـ والسقوط (٨٤٧ م - ١٢٥٨ م)

٣ - الأسر الحاكمة فى الدويلات الإسلامية

(عربية - تركية - فارسية - هندية) القرن ١٣ - ١٦م

* سوريا ومصر

الحمدانيون (حلب)	القرن العاشر الميلادى
الطولونيون (مصر)	٨٦٨ - ٩٠٥ م
الإخشيديون (مصر)	٩٣٥ - ٩٦٩ م
الفاطميون (مصر وسوريا)	٩١٠ - ١١٧١ م

الأيوبيون (مصر وسوريا)	١١٧١ - ١٢٥٠ م
المماليك البحرية	١٢٥٤ - ١٣٨٢ م
المماليك البرجية	١٣٨٢ - ١٥١٧ م

* **الأمويون فى الأندلس**

الإمارة	٧٥٦ - ٩٢٩
الخلافة	٩٢٩ - ١٠٣١
ملوك الطوائف	١٠٣١ - ١٠٨٦
المرابطون	١٠٨٦ - ١١٤٧
الموجدون	١١٤٧ - ١٢٣٥
بنو نصر	١٢٣٥ - ١٤٩٢

* **المغرب**

الأدارسة (فاس)	٧٨٨ - ٩٧٤
الرستميون (تاهرت)	٧٦١ - ٩١١
الأغالبة (القيروان)	٨٠٠ - ٩٠٩
الزيريون	القرون ١٠ - ١٢
المرابطـون	القرون ١١ - ١٢
بنو حماد	١٠١٤ - ١١٥٢
الموحدون	١١٤٧ - ١٢٦٩
المرينيون	١٢٤٨ - ١٤٦٥
بنو عبد الواد	١٢٣٥ - ١٥٥٤
الوطاسيون	١٤٦٥ - ١٥٥٣

* **العراق - إيران - آسيا الوسطى**

بنو طاهر (خراسان)	٨٢٠ - ٨٧٣
الصفاريون (العراق - خراسان)	٨٧٣ - ٩٠٢
البويهيون الفرس (العراق - ايران)	٩٣٢ - ١٠٥٥

السامانيون الفرس (ما وراء النهر - تركستان - خراسان)	٩٠٢ - ١٠٠٤
الغزنويون الأتراك (أفغانستان - الهند)	٩٧٨ - ١١٨٧
الغوريون الفرس (أفغانستان - الهند)	١١٤٨ - ١٢١٥
السلاجقة الأتراك (العراق - آسيا الصغرى - كرمان - سوريا)	١٠٣٧ - ١٣٠٠
المغول فى آسيا الوسطى.	القرن ١٣ - ١٤٠٥
إيلخانية المغول (ايران).	١٢٥٦ - ١٣٣٦
جلاثر - مغول (العراق - اذربيجان)	١٣٣٩ - ١٤١١
قرة قويونلو الترك (العراق - اذربيجان).	١٣٧٥ - ١٤٦٨
آق قويونلو (دياربكر - تبريز).	القرن ١٤ - ١٥٠٢

* **الهــــند**

الغزنويون الأتراك (لاهور).	حوالى ١٠٠٠ - ١١٨٧م
الغوريون الفرس.	١١٤٨ - ١٢١٥
خلجى الأتراك (دهلى).	١٢٩٠ - ١٣٢٠
تغلق الأتراك (دهلى).	١٣٢١ - ١٤١٢
البهمانيون (الدكن).	١٣٧٤ - ١٥٢٧
خلجى (مالوه).	١٤٣٦ - ١٥٣١.

الكتابة العربية

عرف العرب قبل الإسلام الكتابة ومن الثابت تاريخياً أن ما يعرف بالكتابة العربية قد اشتقت من الكتابة النبطية خارج شبه جزيرة العرب فى القرن الثالث الميلادى ثم دخلت الكتابة إلى جزيرة العرب. وكان الأنباط عربا من قريش رحلوا إلى الشمال واستقروا وكونوا دويلة لهم فى جنوبى الشام (الأردن الآن) وكانت عاصمتهم البتراء وقد ازدهرت هذه الدويلة بحكم موقعها الجغرافى كمركز هام تلتقى فيه القوافل للتجارة، تلك القوافل الآتية من الشرق للغرب

ومن الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب. هؤلاء الأنباط تحضروا وتمثلوا الحضارات الأخرى التى سبقتهم وعاصرتهم فاشتقوا لأنفسهم خطاً عرف بالخط النبطى، إشتقوه من الخط الآرامى الذى كان موجوداً فى تلك المنطقة، واشتقت منه خطوط عديدة من بينها الخط النبطى. وبحكم احتكاك عرب الحجاز بالأنباط سواء بسبب صلة الرحم أو التجارة، إشتق العرب الخط الذى أطلقنا عليه بعد ذلك اسم الخط العربى من هذا الخط النبطى. ولكن بقى الخط الجديد خارج حدود جزيرة العرب يستخدم فقط هناك فى الشام. وبصرف النظر عن الأساطير التى حاقت بانتقال ذلك الخط من الشام إلى الحجاز فإن البحث المتأنى يكشف عن أن ذلك الخط قد اتخذ سبيلين أو أحدهما إلى جزيرة العرب فى الشمال:

الأول: البتراء ← الحيرة والأنبار ← دومة الجندل ← المدينة ← مكة.

الثانى: البتراء ← العلا ← مكة ← المدينة ← الطائف.

والمشكلة فى تحديد الطريق الذى سلكه الخط إلى الحجاز تتأتى من أن الكتابات بهذا الخط قبل الإسلام نادرة جدا بحيث يجعل متابعة انتقال هذا الخط مسألة صعبة فأقدم نقش يدلنا على خروج الحرف العربى من بطن الحرف النبطى هو نقش أم الجمال الأول وهو شاهد قبر مكتوب باللغتين اليونانية والآرامية ويعود تاريخه إلى ٢٥٠م أو ٢٧٠م فى قول آخر. والجزء النبطى الآرامى منه يمثل آخر صورة للخط النبطى عند انتقاله لتدوين العربية. وهذا النقش عثر عليه فى موضع يعرف بأم الجمال من أعمال حوران.

ويأتى بعد هذا النقش نقش آخر هو نقش النمارة، وهو الآخر شاهد قبر عثر عليه على قبر أحد ملوك الحيرة، وقد وجد فى جنوب شرقى دمشق واسم هذا الملك إمرؤ القيس وقد كتب هذا النقش بحروف مربوطة وبلغة عربية سليمة ويعود تاريخه إلى سنة ٣٢٨م، ويعد هذا العمل حتي الآن أقدم نص مكتوب باللغة العربية الشمالية.

ثم يحالفنا الحظ مرة ثالثة فنعثر على نقش زبد الذى وجد فى جنوب شرقى حلب وقد كتب بثلاث لغات: اليونانية - السريانية - العربية، ويرجع تاريخه إلى ٥١٢م. وبعده يأتى نقش أسيس (عُزَيز) الذى وجد جنوبى دمشق فى جبل يقال له الآن عُزيز ويرجع تاريخه إلى سنة ٥٢٨م وقد خلفه لنا أحد أتباع الملك الغسانى الحارث بن جبلة وهذا التابع اسمه إبراهيم بن المغيرة الأوسى. وهذان النقشان أيضا بلغة عربية سليمة.

يأتى بعد ذلك نقش حران ذو اللغتين اليونانية والعربية والذى يعود تاريخه إلى سنة ٥٦٨م وقد عثر عليه أيضا فى جبل الدروز جنوبى دمشق، وكان منقوشاً على حجر يعلو باب كنيسة حران اللجا. وخطه أقرب إلى الخط العربى من أى نقش آخر.

وأخيرا نقش أم الجمال الثانى الذى يرجع إلى القرن السادس الميلادى. وهو آخر النقوش التى عثرنا عليها وتؤكد خروج الخط العربى من بطن الخط النبطى، خارج شبه جزيرة العرب. وأن هذا الإشتقاق قد بدأ منذ منتصف القرن الثالث الميلادى واكتمل مع السادس الميلادى. ولكن دخول هذا الخط إلى الحجاز لابد وأن يكون قد تم فى القرن الخامس الميلادى أو على الأكثر بداية السادس؛ لأن الرسول الكريم عندما بعث، كان فى مكة والمدينة من يكتب بهذا الخط ويقرأ به.

وبينما عرب الشمال دخل إليهم هذا الخط فى نحو القرن الخامس أو السادس الميلادى كان عرب الجنوب قد عرفوا خطاً آخر فى وقت مبكر فى القرن الثالث عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد أطلق عليه اسم خط المسند أو الكتابة العربية الجنوبية تمييزا لها عن الكتابة العربية الشمالية التى أتينا عليها. وأصل خط المسند هو اليمن وما حولها ولكنه عرف فى شمالى شبه الجزيرة العربية وغربيها وجنوبى سوريا؛ ذلك أن أهل اليمن (معين وسبأ وحمير) كانوا أهل هجرة وارتحال ومن ثم هاجر خط المسند معهم. ونستطيع أن نميز من خط المسند ثلاث مجموعات خطية: ـ

أ - مجموعة خطوط المسند الجنوبية وهى الأصل والأساس.

ب - مجموعة خطوط المسند الشمالية وهى التى هاجرت مع اليمنيين إلى الشمال.

جـ - مجموعة خطوط المسند الحبشية (الاثيوبية) وهى مشتقة من اليمن بحكم الصلات العميقة التى كانت قائمة بين اليمن واثيوبيا.

أ - وتضم مجموعة الخطوط الجنوبية: الخطوط المعينية والسبئية والحميرية والقتبانية والحضرمية والأوسانية. وقد حفلت شبه جزيرة العرب بآلاف النقوش والآثار التى تحمل تلك الخطوط التى تتميز إلى حد ما عن خطوط المسند الشمالية. ورغم أن تلك النقوش تمتد من القرن التاسع قبل الميلاد إلى السابع الميلادى، إلا أن نشأة الخط المسند نفسه كما أشرت ترجع إلى عدة قرون قبل ذلك التاريخ وهى أقدم بعشرين قرنا تقريباً من الخط العربى الشمالى.

وتتميز خطوط المسند الجنوبية بشكلها العمودى المنتصب والمحدد. وتبدو للناظر متوازنة منمقة ومزخرفة والكلمات تكتب بحروف منفصلة متفرقة وتتجه من اليمين إلى اليسار فى أغلب الأحوال وتعتمد على الصوامت ولم تعرف الحركات والحروف اللينة. وقد جرت عادة الكتاب أن يفصلوا بين الكلمات بخطوط عمودية.

ومما لا شك فيه أن مجموعة خطوط المسند الشمالية قد خرجت من بطن تلك الجنوبية ويميل الباحثون إلى الإعتقاد بأنها قد اشتقت أو تطورت من المسند الحميرى دون سائر الخطوط الجنوبية، وربما كان ذلك صحيحاً إلى حد ما حتى الآن فقط إلى أن تأتى أدلة جديدة.

ب - وتضم مجموعة خطوط المسند الشمالية: الخط اللحيانى والخط الثمودي والخط الصفوى -وقد انتشر الخط اللحيانى فى منطقة العلا وما حولها فى شمالى الحجاز وقد انبثق هذا الخط من المسند الحميرى بفعل الهجرات التى حدثت من جنوبى الجزيرة إلى شمالها الغربى فى القرن التاسع قبل الميلاد.

وقد كشف عن نقوش كثيرة كتبت بهذا الخط، ويرجع قسم كبير منها إلى الفترة من ۷۰۰ ق.م - ٤٠٠ ق.م. وتعرف تلك الكتابات بالنقوش الديدانية لأن قسما كبيرا منها يرجع إلى عهد ديدان. بيد أن أغلب نقوش هذا الخط ترجع إلى الفترة من ٤٠٠ ق.م - ۲۰۰ ق.م. وقد سمى هذا الخط باللحيانى نسبة إلى إحدى القبائل العربية البائدة التى جاورت المعينيين فى شمال غربى الجزيرة وورثتهم ووقفت فى وجه التوسع النبطى. وقد بدأت عملية كشف هذه النقوش سنة ١٨٨٩م.

أما الخط الثمودى. فينسب إلى قبيلة ثمود البائدة لورود إسمها وتكراره فى تلك الكتابة. وقد كشف عن ألفى نقش بهذا الخط فى مناطق مختلفة متفرقة تغطى رقعة جغرافية واسعة ما بين نجد والحجاز وسيناء وحوران والصفاة (إلى الشرق من دمشق). وهذه النقوش غير محددة التواريخ على وجه اليقين ولكن منها ما كتب بخط ثمودى قديم ومنها ما كتب بخط ثمودى جديد وهى جميعا تغطى نحو عشرة قرون: من القرن الخامس قبل الميلاد حتى القرن الرابع الميلادى. ومن المحتمل جدا أن يكون هذا الخط قد ولّد من المسند فى القرن السادس قبل الميلاد.

والخط الصفوى ينسب إلى منطقة الصفاة فى حوران أيضا وقد اكتشف بهذا الخط ما يزيد على ألفين وخمسمائة نقش فى الصفاة وبادية الشام والفرات وترجع إلى الفترة من القرن الأول الميلادى وحتى الرابع الميلادى. وهذا الخط شديد الشبه بالثمودى، ويرجح بعض علماء الكتابة أنه قد تحدَّر من الثمودى وليس من المسند مباشرة.

جـ - والخط الاثيوبى أو الذى يسمى أحيانا الجعزى فقد اشتق من المسند بحكم الصلات العميقة والتأثير الإيجابى من جانب اليمن العربى على ذلك الجزء من إفريقيا. وترجع الكتابة الاثيوبية إلى القرن الثالث الميلادى وقد ازدهرت أيما ازدهار فى فترة مملكة اكسوم. ولقد وصلتنا آثار كثيرة تحمل تلك الكتابة. والخط الاثيوبى القديم يشبه إلى أبعد حد المسند اليمنى من حيث

الشكل كأنه هو هو، كما كان يركز على الصوامت دون حركات. إلا أنه مع القرن الخامس الميلادى تطورت الكتابة الاثيوبية فدخلتها الحركات والتشكيل واستمر الأمر كذلك حتى الآن مع بقاء الشكل العام للحروف كما هو. ويطلق على هذه الكتابة اليوم إسم الكتابة الأمهرية بعد إضافة حروف جديدة. لقد أضافت الكتابة الحبشية المطورة، الحركات إلى الحروف فصارت كما لو كانت كتابة مقطعية، وربما يرجع ذلك إلى تأثر الكتابة الحبشية بالكتابة اليونانية إبان التبشير المسيحى فى اثيوبيا.

تعايش الخطان العربى الشمالى والعربى الجنوبى فترة محدودة من الزمن لا أعتقد أنها تزيد على ثلاثة قرون وربما تقل، وذلك أن الاسلام عندما انتشر فى شبه جزيرة العرب حمل معه بالضرورة الخط العربى الشمالى الذى كتب به القرآن وكتبت به رسائل الرسول الكريم وكان من الضرورى أن ينتشر هذا الخط وأن يختفى ولو بالتدريج الخط العربى الجنوبى وهو ما حدث بالفعل حيث لا نعثر على آثار بالخط المسند بعد القرن السابع الميلادى.

* * *

ويمكننا الآن أن نؤكد مطمئنين على أن الخط العربى الشمالى قد تكون فى الفترة ما بين القرنين الثالث والسادس للميلاد. وأنه دخل الحيرة والحجاز فى نهاية الخامس أو أوائل السادس لأنه كان معروفا فى منتصف السادس، ذلك أنه الرسول الكريم عندما بعث كان هناك فى مكة والمدينة بل والطائف أيضا من يكتب بهذا الخط. وقد استخدم الرسول ﷺ بعضهم فى كتابة القرآن الكريم ممن عرفوا بكتاب الوحى.

إذن عرفت الكتابة فى الحجاز قبل الإسلام يدلنا على ذلك استخدام الرسول لها فى كتابة الوحى كما يدلنا على ذلك قرائن أخرى عقلية ونقلية.

فقد كان أهل الحجاز، أصحاب تجارة وكان التجار يحتاجون إلى الكتابة لتقييد معاملاتهم التجارية وحساباتهم، كما كانت الكتابة ضرورية لتقييد العهود

والمواثيق الخاصة بتأمين طرق القوافل التجارية وحمايتها والجبايات التى تجبى مقابل ذلك. كما أن الحجازيين كانوا أهل حروب وكانت نتائج تلك الحروب عادة ما تتمخض عن اتفاقيات وتحالفات وكان من المهم تسجيل تلك الإتفاقيات والتحالفات.

كذلك حرص العرب الحجازيون أيضا على تسجيل الأحداث الهامة التى كان لها تأثير فى حياة الناس وحتى لا تتعرض للنسيان فى زحمة الحياة. كما عرف العرب نوعا من الرسائل المتبادلة بينهم، ولما كانت تجارة الرقيق شائعة بينهم فإن نوعاً من تسجيل تلك المعاملات عرف عندهم باسم «مكاتبات العبيد». وكانت مكاتبة العبيد تتضمن تحرير سند ملكية العبد كما كانت تتضمن صكوك إعطائهم حريتهم وعتقهم بعد تسديدهم ثمن حريتهم على أقساط من قبلهم.

وعرف العرب الشماليون تدوين بعض الأشعار والأخبار قبل الإسلام يدلنا على ذلك ما تواتر من أنهم كتبوا أشهر القصائد الشعرية على القباطى المصرية بماء الذهب وعلقوها على أستار الكعبة فيما عرف بالمعلقات. والأغلب أنها سبع قصائد من أشهر وأثمن الشعر الجاهلى، جعلت فى الطبقة الأولى من جمهرة أشعار العرب؛ وأصحابها فى الأعم الأغلب هم: إمرؤ القيس؛ طرفة بن العبد؛ زهير بن أبى سلمى؛ لبيد بن ربيعة؛ عمرو بن كلثوم؛ الحارث بن حلزة؛ عنترة بن شداد. وقد قيل فى أسباب تسميتها بالمعلقات آراء كثيرة لعل أقواها أنها كانت معلقة على ستر الكعبة أو أن النساء كن يعلقنها على صدورهن، وأيا كان سبب التسمية فقد كانت مكتوبة على رق أو قباطى بالخط الذى عرف فيما بعد بالخط العربى.

لم تقتصر معرفة الكتابة قبل الإسلام على الحواضر فى شبه جزيرة العرب الشمالية وانما عرفت أيضا فى البادية فتذكر لنا المصادر العربية القديمة أسماء بعض البدو الذين عرفوا الكتابة بالخط العربى قبيل الإسلام ومن بينهم: اكثم بن صيفى، حكيم تميم وخطيبها المفوه وابن أخيه حنظلة بن الربيع، والمرقش

الأكبر ولبيد بن ربيعة. وكثيرا ما كشف شعر العرب الجاهلى عن معرفتهم الكتابة فيقول المرقش الأكبر:

الـدار قفـر والرسـوم كـما ** رقـش فـى ظـهر الأديم القلم

ويقول الأخنس بن شهاب التغلبى:

لابنة حطان بن عوف منازل ** كما رقش العنوان فى الرق كاتب

كذلك وردت نصوص متفرقة فى المصادر العربية القديمة تدل عرضا على معرفة العرب فى الجاهلية للخط العربى الشمالى. ورغم أن بعض الروايات التى كتبت عن انتقال الخط من الشام إلى جزيرة العرب قد شابها الخلط والخيال أحيانا إلا أنها تنطوى على حقيقة أن العرب قد عرفوا الخط قبل الإسلام أيا كان الذى نقله من الشام وأدخله إلى جزيرة العرب.

* * *

إذن بعث الرسول الكريم ﷺ فى مكة والكتابة العربية معروفة فيها. وقد حددت المصادر عدد من يعرفون الكتابة والقراءة قبيل البعثة المحمدية بأنهم سبعة عشر شخصا فى مكة وعشر أشخاص فى المدينة. وفى قناعتى أن الأرقام فى هذا الصدد لا معنى لها بل المهم كل المهم هو الدلالة، هو المؤشر فربما كانت الأرقام أعلى أو أقل ولكنها على أية حال تكشف عن وجود الكتابة قبيل الإسلام. والبلاذرى يترجم لسبعة عشر شخصاً من قريش يعرفون الكتابة والقراءة العربية من بينهم عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله وعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفّان ويزيد بن أبى سفيان وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة عامر بن الجراح وغيرهم من الرجال. كذلك كان هناك نساء تجدن الكتابة والقراءة العربية من بينهن الشفاء بنت عبد الله العدوية التى علمت السيدة حفصة أم المؤمنين الكتابة والقراءة بعد البعثة المحمدية؛ وعائشة بنت سعد التى تعلمت الكتابة عن أبيها. وقيل أن أم سلمة وعائشة زوجتا الرسول كانتا تقرآن ولا تكتبان.

وقد قيل أن الكتابة العربية دخلت يثرب (المدينة) قبل أن تدخل مكة، وكان عدد من يكتبون ويقرأون فيها أكثر من عددهم فى مكة وقدِّر ببضعة عشرات ولهذا قلت من قبل أن العدد لايهم إنما المهم هو المؤشر. وكانت قبائل الأوس والخزرج من أشهر القبائل في يثرب فى مجال الكتابة والقراءة. وقد ورد فى الأثر أن بعض اليهود كانوا قد افتتحوا الكتاتيب فى المدينة لتعليم الصبية الكتابة. ودخلت الكتابة أيضا إلى الطائف قبيل الإسلام وكانت قبيلة ثقيف من أشهر القبائل العربية هناك فى مجال الكتابة.

والحقيقة التى لا مراء فيها ولا جدال أن الكتابة العربية كانت من دعائم نشر الاسلام وحفظ مبادئه. كما كان الإسلام فى نفس الوقت من أخطر دعائم نشر الكتابة واللغة العربية خارج وداخل جزيرة العرب ولولاه لاندثرت الكتابة العربية واللغة العربية كما اندثرت لغات سامية وخطوط سامية كثيرة.

ولقد وجد فى عهد الرسول الكريم أسباب أخرى لدعم دور الكتابة العربية والعمل على نشرها فقد نص القرآن الكريم على ضرورة الكتابة فى حالة التداين فقال عز من قائل **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين لأجل مسمى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾**. كذلك كان لابد من تسجيل وإثبات الزكاة التى تجمع والمغانم التى يغنمها المسلمون من الكفار.

وقد ألمح الإخباريون العرب إلى عدد من الكتاب الذين كتبوا للرسول الكريم ﷺ، سواء كتاب الوحى أو غيره ومن بينهم على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم.

فى عهد الرسول ﷺ قام بإرسال عدد من الرسائل إلى ملوك وأباطرة وأمراء الأمم المجاورة يدعوهم فيها إلى الدخول فى الإسلام. من بين تلك الرسائل التى وصلنا خبرها.

١ - رسالته إلى قيصر ملك الروم.

٢ - رسالته إلى كسرى ملك الفرس.

٣ - رسالته إلى النجاشى ملك الحبشة.

٤ - رسالته إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر.

٥ - رسالته إلى جيفر وعبد إبنى الجلندى ملكى عمان.

٦ - رسالته إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين.

٧ - رسالته إلى الحارث بن أبى شمَّر الغسانى ملك تخوم الشام.

٨ - رسالته إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن.

٩ - رسالته إلى ثمامة بن أثال وهوذا بن على ملكى اليمامة.

هذه الرسائل وصلتنا نصاً ولم تصلنا أى منها خطاً. ولكنها جميعا ترجع إلى عصر النبوة. إلى جانب تلك الرسائل النبوية وصلتنا بعض النقوش التى يمكن أن تعود أيضا إلى العصر النبوى ويؤرخها البعض بسنة خمس للهجرة. هذه النقوش محفورة على الصخر فى جزء من جبل سلع بالقرب من المدينة المنورة. وقد قرئ منها ثلاثة نصوص بينما كثير منها لم يقرأ بسبب عوامل التعرية التى أصابت حروفها وطمست معالمها حيث أن هذه العوامل قد فعلت فعلها فى السفح الغربى للجبل مكان النقوش.

وقد وصلتنا من عصر الخلافة الراشدة آثار مكتوبة يقينية بإجماع الآراء، أقدمها يرجع إلى زمن الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠هـ (٦٤٠م) وآخرها يرجع إلى زمن على بن أبى طالب سنة ٤٠هـ (٦٦٠م) وهذه الآثار متنوعة: برديات، نقوش ، مسكوكات. والنقوش العائدة إلى فترة الخلافة الراشدة هى أساساً شواهد قبور. إلى جانب تلك النقوش وصلتنا من العهد الراشدى برديات عربية. وقد وصلنا من مصر برديتان كلتاهما مؤرخة بسنة ٢٢هـ أى بعد فتح مصر بسنة واحدة أولاهما محدودة الأهمية فهى قصيرة النص وحتى هذا النص القصير مشوه وناقص والكلمات القليلة المقروءة فردية لا تشكل جملة مفهومة. وأهم الكلمات المقروءة تاريخ الكتابة وهو سنة ٢٢هـ. والبردية الثانية طويلة وكاملة وهى مكتوبة باللغتين العربية واليونانية والنص اليونانى ترجمة

للنص العربى. والبردية عبارة عن إيصال بتسلم خمس وستين شاة. وإلى جانب البرديات وصلتنا مسكوكات كثيرة مكتوبة بالعربية.

لقد استخدم العرب فى النصف الأول من القرن الهجرى الأول نوعين من الخطوط: **الخط الكوفى** نسبة إلى مدينة الكوفة. وقد استخدم هذا الخط فى الآثار وفى الأغراض التذكارية وفى سك النقود ونقوش الحجارة والمعادن. وفى المصاحف الكبيرة حتى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى). **والخط النسخى الحجازى** وهو أقدم من الكوفى. ويشير كامل البابا إلى خط ثالث أطلق عليه اسم خط التحرير وقال بأن هذا الخط هو خط لين مدور أطلق عليه إبن النديم الخط المدنى ثم سمى بعد ذلك بالخط الدارج وقد استخدم فى تحرير العقود والمراسلات وكل ما يقضى السرعة فى التدوين واليد المسرعة لا تستطيع الحفاظ على الخطوط والزوايا كما حال الكوفى. ويبدو أنه الخط المستخدم فى برديتى سنة ٢٢هـ؛ وبردية أخرى وصلتنا وترجع إلى سنة ٩٠هـ.

ويبدو أنه طوال القرن الأول الهجرى وربما ردحاً طويلاً من القرن الثانى الهجرى لم يكن هناك فى العربية كتاب كامل بالمعنى المفهوم للكتب سوى **القرآن الكريم** مدون فى صحائف عملاً بقول رسول الله ﷺ «لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن ومن كتب عنى شيئا سوى القرآن فليمحه» ويبدو أن ذلك قد انسحب إلى الكتب الأخرى فلم يدون منها شئ لفترة طويلة واقتصر الأمر على النقوش والبرديات والمسكوكات.

ولما كانت الكتابة العربية قد اشتقت أساساً من كتابة لا إعجام فيها فقد كان من الطبيعى أن تأتى هى الأخرى خلوا من الإعجام - أى النقط والشكل - وقد استمرت الكتابة العربية منذ اشتقت فى منتصف القرن الثالث الميلادى وحتى القرن السابع الميلادى فى غير حاجة إلى إعجام، وذلك لأن الكتابات كانت قليلة عموماً وكان عدد القراء محدوداً وكانوا يعتمدون على السياق فى فهم ما يقرأون ولأن العرب كانوا يسيطرون على اللغة العربية سيطرة تامة فإنهم لم

يكونوا يلحنون فيها. وكان بإمكانهم تمييز الحروف ونطقها النطق الصحيح وإعراب الكلمات الإعراب السليم. إلا أن الوضع قد انقلب تماما بعد الثورة العارمة التى جاء بها الإسلام وانتشاره شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً فى نهاية القرن السابع الميلادى. دخل الموالى فى الاسلام وأخذوا يتعلمون اللغة العربية وبدأ خطر حقيقى على اللغة العربية والكتابة العربية. وأخذ هذا الخطر يهدد القرآن الكريم نفسه إذ كان طبيعياً أن يلحنوا فى لغة غير لغتهم تعلموها لغرض محدد هو قراءة القرآن والتفقه فيه وليس لاستخدامها فى الحياة اليومية. ولقد أدرك العرب المسلمون فداحة ذلك الخطر وكان لابد من إدخال إصلاحات على الخط الذى يكتبون به لغتهم المعرضة للخطر.

وبدأ الاصلاح بالشكل أولاً ثم تبعه النقط. أما علامات الترقيم فقد جاءت متأخرة جدا فى مرحلة تالية. والمقصود بالشكل وضع علامات على الحروف لنطقها النطق السليم بالفتح أو الكسر أو الضم أو التنوين ومن ثم فهمها الفهم السليم، كما أن هذه العلامات تساعد على الإعراب السليم للكلمات. وقد بدأ الشكل بالنقط أولاً ثم تحول فيما بعد إلى الحركات المألوفة لنا الآن. ويقال أن أول من وضع الشكل هو أبو الأسود الدؤلى (توفى سنة ٦٧هـ) وأخذ عنه يحيى بن يعمر العدوانى (المتوفى ١٢٩هـ)، ونصر بن عاصم الليثى (المتوفى سنة ٨٩ أو ٩٠هـ).

ولما كانت قوالب الحروف تتشابه رسماً وتختلف نطقا كما هو الحال فى الباء والتاء والثاء والدال والذال... فالحروف (بـ) قد تقرأ بنت، ثبت، نبت، بيت، لذا كان من السهل على غير العربى أن يقرأها قراءة خاطئة ولذلك كان من الضرورى إدخال اصلاح آخر على الخط العربى وذلك بتمييز الحروف المتشابهة قالباً المختلفة صوتاً عن طريق ما عرف بالنقط. وحتى لا يختلط النقط للشكل والنقط لتمييز الحروف استبدلت نقط الشكل بالحركات (الألف، الواو، الياء وتضعيفها للتنوين) واستقرت النقط لتمييز الحروف. وكان لابد بعد ذلك من إعادة ترتيب الحروف بدلاً من الترتيب الأبجدى إلى الترتيب الهجائى.

ويقال أن النقط بدأ على استحياء شديد فى القرن الأول الهجرى ثم توسع فى القرن الثانى وأصبح ظاهرة ملازمة للكتابة العربية فى القرن الثالث الهجرى. وكانت مسألة الإعجام برمتها تتوقف على الكاتب نفسه ووجهة نظره فيمن يكتب لهم أو إليهم. ومن اليقينى أن القرآن الكريم كان أول كتاب يدخله الشكل والنقط لأسباب جوهرية.

ولم تعرف الكتابة العربية من علامات الترقيم طوال عصر الخطاطة سوى النقطة للفصل بين الجمل وكان القرآن هو أول كتاب تستخدم فيه النقطة للفصل بين الآيات. وعنه أخذت الكتب العادية. وكانت النقطة فى بداية الأمر عبارة عن معين أو دائرة أو دائرتين متماستين. أما نظام الترقيم الكامل فلم يعرف إلا فى بداية القرن العشرين عندما أدخله العلامة أحمد زكى شيخ العروبة سنة ١٩١٢ وأقرته وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٣٢م وعممته فى الكتب الدراسية وعنها أخذته كل الدول العربية الأخرى.

لم تعرف الكتابة العربية كما رأينا سوى ثلاثة خطوط أو أقلام أو أشكال - كما ألمحنا سابقا - فى القرن الأول الهجرى؛ إلا أنه اعتباراً من القرن الثانى الهجرى ومع تعدد أغراض الكتابة والتدوين واتخاذ الخط العربى عنصراً زخرفيا جماليا تفرعت الكتابة العربية إلى خطوط وأقلام وصلتنا تسميات نحو مائة منها، بل إنه داخل الخط الواحد نصادف عدة أشكال فالكوفى مثلاً نجد منه الكوفى الهندسى والكوفى المورق والكوفى المزهر...

وفى نهاية القرن العشرين استجابت الكتابة العربية بعد تردد بسيط لمطالب الحاسب الآلى، كما استجاب الحاسب الآلى لخصائصها وأقلامها المتعددة. ولم يقف عند حد الخط النسخى المستخدم فى المطابع بل تخطاه إلى عدة خطوط وأقلام حسب الحاجة وحسب البرنامج المعد.

الأرقام عند العرب

على الرغم من أن العرب قد عرفوا الكتابة كما رأينا قبل الإسلام فى شمالى الجزيرة العربية فى مكة والمدينة والطائف، وأن الإسلام حمل هذه الكتابة معه

عندما انتشر فى سائر أنحاء شبه الجزيرة وحملها معه إلى الشام والعراق ومصر وشمالى إفريقيا، رغم هذا فإن العرب لم يعرفوا الأرقام بأسلوبها الرمزى إلا فى القرن الثالث الهجرى، أى بعد انتشار الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية بقرنين على الأقل، مما يوحى بأنهم قد أخذوها من أحد الشعوب التى فتحوها بعد الاسلام؛ ولم يخترعوها اختراعاً وربما يكونون قد طوروها أو أدخلوا عليها نوعاً من التعديلات أو التحويرات.

وفى العصر الجاهلى كان العرب يعبرون عن الأرقام بكلماتها مثل واحد، اثنان وعشرون، ثلاثة وسبعون، مائة، خمس وعشرون وثلاثمائة، ألف، ألف ألف (للمليون) وربما استمر ذلك خلال القرن الأول للهجرة، وقد ظهر إلى جانب التعبير اللفظى عن الأرقام، التعبير عن الأرقام بالحروف، حيث أعطى لكل حرف قيمة عددية معينة على النحو الآتى بالترتيب الأبجدى للحروف وليس الترتيب الهجائى الذى لم يظهر إلا فى القرن الثانى الهجرى على النحو الذى أتينا عليه فيما سبق:ـ

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩

ى	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص
١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠

ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ
١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠

غ
١٠٠٠

وعندما كانوا يريدون كتابة رقم كبير كانوا يرصون الحروف الدالة على كل رقم بجوار بعضها البعض مثلا رقم: ثلاث وخمسون وسبعمائة يكتب على النحو الآتى:

(جنذ) حيث ٣ هى ج، ٥٠ هى ن، ٧٠٠ هى ذ.

كما استخدم الشعراء والمؤرخون هذه الطريقة فى كتابة الأرقام لتأريخ الأحداث والميلاد والوفاة وبناء المنشآت والمساجد والقصور والقبور وأطلق على هذا الأسلوب فى كتابة الأرقام اصطلاح (حساب الجمَّل) وعلى سبيل المثال نذكر بيت الشعر الآتى الذى قاله أحد الشعراء تأريخاً لحرق حاكم ظالم عاش فى عصر المماليك، أمعن فى ظلمه واستبداده فأقدم الشعب على حرقه حياً:

حَرْقُهُ بالنار نور ** وهو فى التاريخ: ظلمة

ويكون التاريخ الذى وقع فيه الحادث هو ٩٧٥هـ (٩٠٠ظ + ٣٠ل + ٤٠م + ٥هـ) مع ملاحظة أن التاء المربوطة تحسب هاءً.

ومن الواضح أن حساب الجمَّل هذا لم يكن يصلح إلا فى الأحوال التى تتطلب تسجيل الأرقام فقط بينما لا يصلح أبدا فى العمليات الحسابية مثل الجمع أو الطرح أو القسمة أو الضرب وبالتالى كان على العرب بعد الثورة الاسلامية العلمية العظيمة التى جاء بها الإسلام أن يجدوا طريقة أخرى فى الأرقام تستخدم فى العمليات المختلفة الحسابية. وفعلاً وجدنا فى القرن الثالث الهجرى - وربما كان ذلك دون أن يصلنا، فى نهاية القرن الثانى - عند العرب نوعين من الرموز للتعبير عن الأرقام ولم يقل لنا العرب أنفسهم من أين أتوا بهما هل اخترعوهما، هل اقتبسوهما، هل اخترعوا أحدهما وطوروا واحداً من الآخر؟ وهذان الرمزان ربما نجدهما مستخدمين فى الكتاب الواحد فى آن واحد. وهذان الرمزان هما:

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	٠
1	2	3	4	5	6	7	8	9	0

وقد أطلق العرب على الثانى اسم أرقام الغبار أو أرقام التخت، ربما لتمييزه عن الأول ودلالة على أنه جاء بعده. وربما يكون العرب قد قالوا لنا من أين أتوا بهذه الرموز الرقمية ولكن احترقت أقوالهم مع احتراق الكتب الإسلامية فى القرون المتعاقبة ومن ثم فإننا إزاء هذه الأرقام أمام ثلاثة إحتمالات لا رابع لها:

أ - أن كلا الترقيمين غير عربى وأن العرب أخذوهما من الشعوب التى فتحوها أو اختلطوا بها بعد الإسلام كما أخذوا علوماً كثيرة بعد الفتح ويعضد ذلك أن الأرقام بهذه الكيفية لم تظهر عندهم كما ظهرت الكتابة قبل الإسلام بل تأخرت إلى القرن الثالث الإسلامى. ويميل الباحثون إلى الهند كمصدر لتلك الأرقام.

ب - أن كلا الترقيمين عربى، إخترعهما العرب وأن أحدهما تطور عن الآخر وكانت لكل منهما استخداماته الخاصة بنفس الأسلوب الذى تعددت به الخطوط المشتقة من الكتابة العربية.

ج - أن أحد الترقيمين وهو الأول أجنبى صرف دخل إلى العالم العربى بعد الفتح وأن الآخر وهو الثانى (الغبار - التخت) قد تطور عنه أو اخترعه العرب اختراعا وارادوا تمييزه عن المستورد فسموه بهذا الاسم.

وسوف أحاول اختبار كل احتمال من هذه الاحتمالات الثلاثة.

ذهب بعض الباحثين إلى إمكانية أن يكون العرب قد أخذوا الترقيم بشكليه السابقين عن الهنود. وتقول المصادر فى هذا الصدد أن أول اتصال للعرب مع الأرقام الهندية كان سنة ٧٧٣م (١٥٦هـ) وكان ذلك فى بغداد زمن الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور حين حضر إليها فلكى هندى يدعى كانكا ومعه كتاب (سند هند) وهو يبحث فى الرياضيات والفلك وكانت تلك الأرقام مستخدمة فيه. وكان الفلكى العربى محمد بن إبراهيم الفزارى قد ترجم هذا الكتاب إلى العربية ومن ثم اضطر إلى استخدام تلك الرموز الرقمية بشكليها. ثم قام بوضع كتاب آخر فى الموضوع عرف بعنوان (سند هند كبير) إذ يبدو أنه قد توسع فيه توسعاً عظيماً. ويستنتج الباحثون من ذلك أن يكون الفزارى من هذا المنطلق هو أول من أدخل الأرقام الهندية إلى العالم العربى. ويبدو إن كانت هذه الرواية صحيحة أنه لم يستخدمها بقية القرن الثانى الهجرى سواه ولم تنتشر انتشاراً يجعل منها ظاهرة وقد ساعد على عدم انتشارها أن التدوين كان فى خطواته الأولى أنذاك.

ويقال أن أقدم إشارة لأرقام الهند جاءت فى نص لراهب سريانى كان فى دير قنسرين يدعى ساويرس سيبخت ففى كتاب له وضعه سنة ٦٢٢م. يبدى الكاتب عجبه لأن الناس يحفلون ويهللون فقط لكل ما هو رومى كأن ليس من شئ حسن عند غير الروم «مع أن الهنود على سبيل المثال يستطيعون بتسعة رموز فقط أن يكتبوا أى عدد كان» بيد أن هذا الراهب لا يسجل تلك الإشارات أو الرموز كأنها كانت شيئاً معتاداً فى ذلك القرن بدليل أنها وصلت إليه فى تلك المنطقة البعيدة عن الهند.

ويبدو أن تلك الآراء كانت مجرد إرهاصات لدخول الأرقام الهندية إلى العالم العربى إذ يعتقد رغم ذلك أن الخوارزمى هو أول من وضع كتابا فى الحساب الهندى ولعله أول كتاب بالعربية على الاطلاق فى هذا العلم؛ إلا أن هذا الكتاب لم يصلنا. وتوالت من بعد الخوارزمى الكتب العربية فى الحساب الهندى. وأول ما وصلنا منها كتاب (الفصول فى الحساب الهندى لأحمد بن إبراهيم الإقليدسى وقد ألفه سنة ٣٤١هـ فى دمشق أى فى القرن العاشر الميلادى. ومن بين تلك الكتب أيضا (كتاب أصول حساب الهند) لمؤلفه كوشيار بن لبان الجيلى، وكتاب (التكملة فى الحساب) لعبد القاهر بن طاهر البغدادى.

والبيرونى نفسه يذكر أنه كان فى الهند عدة أشكال للأرقام «وأننا أخذنا عن الهنود أحسن ما عندهم».

ويشير الإقليدسى إلى الشكل الثانى للأرقام الذى أخذه العرب أيضا عن الهنود وهو ما أطلق عليه أرقام الغبار أو التخت. فيذكر أن الحساب الهندى عرف فى العالم الإسلامى ومعه التخت (اللوح) والرمل. ويقال أن هذا الشكل شاع بين التجار فى الأسواق حيث ينثر الرمل على التخت ثم تتم العمليات الحسابية على الرُقم بالاصبع أو بقلم من بوص. كما يقال أنه شاع بين الطبقات الدنيا لارتفاع أسعار الورق والحبر والأقلام. ويتذكر الكبار منا الذين تعلموا فى

الكتاتيب لوح الإردوار الذى كان يكتب عليه بنوع من الطباشير وهو امتداد لتخت الغبار هذا. والسبورة الموجودة فى أيامنا هذه ما هى إلا شكل موسع لهذا اللوح.

ومن واقع تلك النصوص فقط يمكن القول بأن الشكلين من أشكال الأرقام هذه عرفت فى الهند وأن العرب أخذوهما فى وقت ما من الهنود بين النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى والنصف الأول من القرن الثالث للهجرة.

أما أصحاب الإحتمال الثانى الذى يقول بأن كلا الترقيمين عربى فإنهم يبنون رأيهم على أساس أن الهند عندما فتحها العرب واتصلوا بأهلها كانت تعيش فى الألف المظلمة ولم يكن لديها علم ولا فن ولا أدب تعطيه للعرب على عكس ما كان لدى اليونان والرومان والمصريين وبالتالى لا يمكن أن يكون العرب قد أخذوا تلك الأرقام من الهند. يؤكد ذلك أيضا أننا لا نجد فى الكتابات السنسكريتية السابقة على الكتب العربية شيئاً من تلك الأرقام الهندية أو الغبارية. وأن أقدم كتاب هندى يحتوى على تلك الأرقام يرجع إلى سنة ٨٧٣م، وهو معاصر أو لاحق لأقدم الكتب العربية التى تشتمل على تلك الأرقام.

وبعض الحجج يأتى من مؤلفين غربيين ولا يمكن إتهامهم بموالاة العرب ومعاداة الهند، ومن بينهم البارون **كرادى فو** مؤلف كتاب (مفكرو الإسلام) الذى وقف على نص بعنوان (الحساب الهندى بالطريق الهندسى) وقال بأن الهندسى هنا نسبة إلى الهندسة ثم وضع نظريته الشهيرة بأن العرب هم أصحاب هذا الابتكار وأنهم بنوا أرقامهم على أساس الزوايا: فالواحد زاوية واحدة؛ والاثنان زاويتان والثلاثة ثلاث زوايا وهكذا حتى التسعة. وأنه مع السرعة فى الكتابة والتقدم فى الزمن خرج الشكل المبسط (الذى نسميه الآن بالهندى) من بطن هذا الشكل المربع المضلع الهندسى واختفت الزوايا. وإن كان هناك من يقول بأن كرادى فو قد أخطأ وأن الهندسى هو نسبة إلى الهندوس وليس إلى الهندسة ومن ثم يكون الهندوس هم أصحاب هذا الشكل من الأرقام.

وثمة رأى آخر فى نفس هذا الاتجاه للعالم (فوبكى) يؤكد أن العرب هم أصحاب الشكلين وهو يؤيده بحصى بوثيوس التى كانت تتخذ شكل الأرقام الهندسية (الغبار). وبوثيوس هذا قسيس بيزنطى عاش فى القرن التاسع الميلادى، عمل فى روما وفى القسطنطينية. وقد وضع للمدارس كتابين أحدهما فى الحساب والآخر فى الهندسة اعتمد عليهما رجال الكنيسة فى تدريس الرياضيات طوال العصور الوسطى وفى كتاب الهندسة وصف للحصى (المكعبات) - التى كان يستعملها بوثيوس ومن ثم رجال ألكنيسة المدرسون - التى نقش على كل منها شكل من أشكال الأرقام التى تستخدم فى تدريس الحساب، وهى نفس الأرقام العربية. وقد نسبها فوبكى إلى العرب. وحصى بوثيوس هذه هى ما نصادفه اليوم فى مكعبات البلاستيك التى تكتب عليها الأرقام أو الحروف لتعليم الصبية المبادئ الأولية فى العد والأبجدية.

كذلك فإن زيجريد هونكه المستشرقة الألمانية الشهيرة التى وضعت كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» تنسب الأرقام إلى العرب وتقول بأن أعظم هدية قدمها العرب إلى الغربيين هو الصفر.

أما أرباب الإحتمال الثالث فإنهم يقسمون البلد إلى بلدين فينسبون الشكل الأول من الأرقام للهنود والثانى للعرب. ويقولون بأن الهنود كانت لديهم عدة أشكال للأرقام، أكثرها قرباً من العرب ما شاع فى منطقة السند (الباكستان الآن) أخذها العرب وحوَّروا فيها وإن بقيت فى الباكستان حتى اليوم على أصولها لم تتحوَّر وهذا وحده دليل على أنها هندية.

ولحاجة التجار فى الأسواق كان من الضرورى تطوير نظام يفى بحاجتهم إلى التسجيل والمحو الآنى السريع. فجاء نظام أرقام الغبار الذى يكتب بالحجر الجيرى على اللوح أو بقلم من غاب على الرمل المنثور فوق التخت والتى بنيت على فكرة الزاويا.

وهناك من يلح فى التأكيد على عروبة هذا الشكل تماماً دون تأثر خارجى، ولكى يبعدها تماماً عن الهند، قال بأن أهل المغرب هم الذين اخترعوا هذا الشكل ولقربهم من أوربا أخذته عنهم وسمَّاها الأوربيون بالأرقام العربية، ولم تأخذ الشكل الهندى من المشرق العربى لبعدها عنه وما يزال هذا الشكل موجوداً فى المغرب العربى مستخدما لديهم حتى الآن دون الشكل الهندى ويُستدل فى هذا الصدد بقول البيرونى من «أن الغربيين اقتبسوا الطريقة المغربية عن طريق عرب الأندلس».

وقد ذكر أبو الريحان البيرونى (توفى ٤٤٠هـ) أيضا أنه ألف عدة كتب من بينها: «كيفية رسوم الهند فى تعلم الحساب»؛ «تذكرة فى الحساب والعدد بأرقام السند والهند»؛ «تذكرة فى أن رأى العرب فى مراتب العدد أصوب من رأى الهند». ونستشف من قوله فى هذه الكتب أنه كان للعرب إسهامهم الخاص وتفكيرهم الخاص الذى أنتج شكلاً مختلفاً للأرقام عن الشكل الهندى، وهو رأى كونه البيرونى بعد الإطلاع على فكر الأمتين الهندية والعربية فى هذا الصدد.

ومن الطريف جداً أننا قد عثرنا فى شيراز على نقش يرجع إلى القرن العاشر الميلادى يمزج بين الشكلين فى واحد مما يدل دلالة قاطعة على أن كلا الشكلين كان مستخدماً فى المشرق العربى ولم تكن أرقام الغبار وقفاً على المغاربة، بل وكانت الأرقام الهندية مستخدمة فى الجزائر وليبيا إلى بداية الستينات مما يكشف عن أن الأرقام الهندية لم تكن بمنأى عن عرب المغرب العربى أيضاً.

وربما يكشف الزمن القادم عن قرائن جديدة تدحض أحد تلك الإحتمالات أو هى جميعاً وتقيم احتمالاً جديداً أو تقوى أحد تلك الاحتمالات وتغلبه على ما عداها.

وأيا كان الإحتمال فإن الأرقام العربية بشكليها - أيا كان أصلها - تقوم

على تسعة رموز أو علامات أساسية والصفر الذى يعنى الفراغ من جهة ويعطى الرمز الواحد قيمة عددية متغيرة بحسب المنزلة التى ينزل فيها. ومن هنا فإن نظام الأرقام العربية هو نظام عشرى.

ولما كان الصفر هو أعظم هدية قدمها العرب للعالم وليس الرموز التسعة فقط فإن لنا معه وقفة نتأمله فيها ونتتبع تطوره.

تكشف بعض النصوص الأثرية عن أن أول من استعمل الصفر هم البابليون وكان له نفس الوظيفة فى رياضيات اليوم وإن لم يكن له نفس شكل اليوم إذ كان عبارة عن هرمين صغيرين متجهين لليسار على قاعدة واحدة. وقد استخدمت هذه العلامة فى البداية لدى البابليين للفصل بين الكلمات والجمل. وبعد ذلك استخدمت لسد الفراغات بين الأرقام وكانوا فى بعض الأحيان يتركون الفراغات بدون هذه العلامة.

وقد ورد الصفر فى النصوص الفلكية من العهد السلوقى واستخدمت لحفظ المنازل الخالية من الأرقام للإبقاء على القيمة العددية.

كذلك استخدم الصينيون الصفر فقد عثرنا عليه على بعض قطع النقود التى كانت مستعملة عندهم فى العصور القديمة ولكن تاريخ البدء بالعمل به فى الحساب البحت غير معروف على وجه اليقين.

وعرف الصفر أيضا لدى الهنود الحمر، إذ عثر على تقويم يعرف بتقويم مايا يرجع إلى ما قبل اكتشاف كولومبس لأمريكا، استخدم فيه الصفر على شكل صدفة مجوفة.

وفى الهند عثر على نصوص ترجع إلى القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد وكانت هذه النصوص تعالج مسائل حسابية ورياضية رسم فيها الصفر.

كذلك عرف البيزنطيون الصفر حيث نجده فى جداول بطليموس الفلكية التى ترجع إلى القرن الثانى الميلادى.

بيد أنه يبدو أن هذه الأصفار جميعا لم تكن تستخدم لملء المنازل أو الخانات الخالية بين الأرقام وإنما فقط لتعنى العدمية أو اللاشئ فى حاصل الطرح وربما الضرب.

أما عند العرب فقد عرف الصفر قبل الإسلام وقبل الأرقام الهندية والغبارية على السواء كلفظ للدلالة على «لا شئ» مثل صفر اليدين. أما للدلالة الحسابية فلم يستخدم إلا مع ظهور الأرقام. وكل الكتب العربية القديمة مثل فصول الإقليدسى وأصول كوشيار وتاريخ اليعقوبى وتكملة ابن طاهر البغدادى وفهرست ابن النديم كلها تذكر الأرقام التسعة والصفر وهو «دارة صغيرة» ولكنه عند الكتابة يوضع فوقه خط صغير $\bar{0}$ وربما يلتصق الخط برأس الدائرة مع السرعة δ. وكان يستخدم للدلالة على الناتج اللاشئ فى حاصل الضرب أو الطرح أو القسمة، كما يستخدم فى ملء المنازل الخالية من الأرقام ومن ثم يعطى الرقم الواحد قيمة عددية متغيرة بحسب المنزلة التى ينزلها.

وربما يكون للعرب الفضل فى تغيير شكل الصفر ولكن ليس لهم فضل فكرته أو ابتكاره.

* * *

وبينما كان العرب فى العصور الوسطى يستخدمون الأرقام العشرية أيا كان شكلها أو تسميتها، وما أدخلوه عليها من تعديلات وتطويرات فى القرنين الثامن والتاسع الميلادى كانت أوربا تستخدم الأرقام الرومانية التى تخلو من الصفر ولكل رمز قيمة عددية ثابتة مهما كانت المنزلة التى ينزلها الرقم. ولما بدأت أوربا يقظتها فى العصور الوسطى المتأخرة (من القرن الثانى عشر إلى القرن الخامس عشر) إنفتحوا على العرب والعلوم العربية وبالتالى إنفتحوا على الأرقام العربية ضمن ما انفتحوا من العلوم وكان ذلك عن أكثر من طريق:

١ - عندما فتح العرب الأندلس فى أوائل القرن الثامن الميلادى واستقروا فيها نحو ثمانية قرون أنشأوا خلالها المدارس والأكاديميات والمكتبات وحلقات

الدرس ومصانع الورق وملأوا الدنيا تأليفاً وترجمة وتدريساً، كانت الأندلس محط أنظار الدارسين من أوربا وقبلة للمتعلمين. ومن بين هؤلاء الدارسين تتوقف المصادر أمام إسمين لهما باع طويل فى نقل الأرقام العربية من الأندلس إلى أوربا: الاسم الأول هو (هاتو) الذى كان يتردد على بلاط الحكم الثانى أمير قرطبة الذى كان يجمع حوله العلماء والباحثين؛ وقد اطلع هاتو هذا على الأرقام العربية والحساب العربى وأعجب بهما أيما اعجاب، وبعد عودته إلى برشلونة أغرى تلميذه (جربرت) بالارتحال إلى قرطبة لتعلم العلوم هناك فأمضى عدة سنوات يدرس ويتعلم على أيدى الأساتذة العرب وكان من بين ما تعلم الأرقام العربية والحساب. وعندما عاد إلى بلده أخذ يعلم قومه هذه العلوم.

فى سنة ٩٧١م رحل جربرت هذا إلى روما حيث اشتغل معلماً ومستشاراً للقيصر (اوتو الأكبر) ثم عُيِّن كبيرا للأساقفة ثم أصبح بابا روما سنة ٩٩٩م تحت الاسم البابوى (سلفستر الثانى). وكان هذا الرجل كما رأينا من أوائل من تعلموا الأرقام العربية وعلَّموها واستخدموها وطالبوا باستخدامها. ومما يذكر عن سلفستر الثانى هذا اعجابه الشديد بمكتبة دار العلم التى أنشأها الحاكم بأمر الله وكانت أحسن مكتبة فى زمانها وقال عنها قولته الشهيرة التى تناقلتها المصادر «إنه لمن المعلوم تماماً أنه ليس هناك أحد فى روما له من المعرفة ما يؤهله لأن يعمل بواباً لتلك المكتبة وأنىَّ لنا أن نعلم الناس ونحن فى حاجة لمن يعلمنا؛ إن فاقد الشئ لا يعطيه».

وقد ألَّف جربرت فى ذلك الوقت كتابا فى الحساب ووضع طريقة سهلة لتعليم الأرقام العربية، إلا أن الوقت فيما يبدو لم يكن قد حان لانتشار تلك الأرقام فى ختام القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر الميلادى.

٢ - عندما فتح العرب قبرص وصقلية وجنوب إيطاليا فى أوائل القرن التاسع الميلادى أى بعد الأندلس بقرن من الزمان تقريباً، حدث أيضا ما حدث

فى الأندلس من إنشاء المدارس والمكتبات وحلقات الدرس والبحث ونشر العلم، كما نقلوا الأرقام العربية إلى تلك المناطق وكذلك صناعة الورق وأدوات الكتابة أيضاً. وهنا كما حدث فى قرطبة يبرز اسم (ليوناردو البيزى) وكان والده رئيساً للمركز التجارى فى بجاية العربية الجزائرية وقد توسعت تجارته توسعا عظيما فاستدعى إبنه لمساعدته ولكى يسيطر على اللغة العربية والحساب العربى عهد به أبوه إلى معلم عربى يدعى (سيدى عمر) قام بتعليمه العربية وفروع الحساب من جمع وطرح وقسمة وضرب وكسور. كذلك ارتحل ليوناردو إلى القاهرة والإسكندرية ودمشق لاستكمال دراساته والاطلاع على ما فى مكتباتها من كنوز. وقد ألف كتابا فى الحساب كان أول فصوله كما تذكر زيجريد هونكه عن الأرقام العربية والصفر الذى يمكن بمساعدته كتابة أى رقم مهما كان.

ولما عاد ليوناردو إلى إيطاليا حاملاً علوم العرب وعلى رأسها علوم الحساب التى أجادها وبرع فيها قابل القيصر فردريك الثانى وقد حضر المقابلة لفيف من العلماء نقل إليهم ما تعلمه من العرب. ويعتبر ليوناردو من العلماء الذين ساهموا بطريق مباشر فى نقل الأرقام العربية إلى إيطاليا ومنها إلى أنحاء متفرقة من أوربا.

٣ - عندما تفتح الأوربيون على العلم العربى وأفاقوا من ظلام العصور الوسطى الباكرة، أخذوا فى ترجمة أمهات الكتب العربية فى مجالات عديدة وكان من بينها بطبيعة الحال مجال الرياضيات والفلك وخاصة كتب الخوارزمى الذى كان له باع طويل فيهما وكانت مؤلفاته عظيمة القيمة. ومن المعروف أنه واضع علم الجبر وهو الذى أعطاه اسمه، كما أنه مطور علم الحساب والأرقام الهندية وكتابه الأول فى علم الحساب ضاع ولم يصل إلينا إلا أن ترجمته اللاتينية هى التى بقيت لنا وهى التى توفر عليها المستشرق الإنجليزى (اديلار من باث)؛ وكان ذلك فى القرن الثانى عشر الميلادى. كما ترجمت له كتب

فى الجبر والمقابلة والحساب وقد درست تلك الكتب ومن ثم وجدت لها أنصاراً وأتباعاً عرفوا بالخوارزميين وإلى جانب كتب الخوارزمى ترجمت كتب أخرى فى قرون تالية كان لها جميعا فضل انتشار الأرقام العربية فى أوربا؛ ومن أوربا انتشرت فى جميع أنحاء العالم باسم (الأرقام العربية).

بذلك الخط الذى سمى العربى وبتلك الأرقام التى سميت العربية كتب الكتاب الذى سمى أيضاً بالكتاب العربى.

❁ ❁ ❁

الكراس الثانى

التدوين وطرق التأليف عند العرب

كان العرب فى جاهليتهم أهل ثقافة شفوية وعلم شفوى شأنهم فى ذلك شأن اليونان فى القرون الأولى للتاريخ. وكانت المعلومات تنتقل من مكان إلى مكان فى جزيرة العرب ومن جيل إلى جيل عن طريق التواتر رغم أنهم كما رأينا عرفوا الكتابة قبل الإسلام ومن ثم لم يخلفوا لنا كتبا مكتوبة بالمعنى المألوف للكتاب. وكان النقل الشفوى للمعلومات عندهم يعرف باسم الرواية والشخص الذى ينقل المعلومات يعرف باسم الراوية.

ولما جاء الإسلام كان أول كتاب بالمعنى الإصطلاحى يكتب ويدون هو القرآن الكريم ويبدو أنه استمر الكتاب الوحيد المدون طوال القرن الأول الهجرى وردحاً طويلاً من القرن الثانى، ربما حتى سقوط الدولة الأموية. قد يكون عدم وجود كُتب مدونة طوال تلك الفترة راجعا إلى حديث رسول الله ﷺ الذى نهى فيه عن كتابة أى شئ عدا القرآن الكريم حين قال «لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن ومن كتب عنى شيئاً سوى القرآن فليمحه»؛ وواضح من نص الحديث أن النهى كان عن المعلومات التى تصدر عن الرسول خلاف القرآن ولم يكن على إطلاقه، أى لم يكن لينسحب على المعلومات والعلوم الأخرى، أى أنه انصرف إلى الحديث النبوى. وقد يكون القوم قد فهموه على إطلاقه ومن ثم لم يدونوا كتبا فى أى موضوع. رغم تواتر كتب الموضوعات الأخرى طوال تلك الفترة شفاهة. وقد يكون عدم وجود كتب مدونة فى تلك الفترة التى امتدت لنحو قرن ونصف راجعاً إلى أنها كانت امتداداً للعصر الجاهلى فلم ينتقل القوم بين يوم وليلة من الثقافة الشفوية إلى الثقافة المكتوبة واحتاجوا إلى فترة طويلة للتعود على مسألة تدوين المعلومات، إذ كانوا يعتبرون التدوين إهانة

للذاكرة القوية وملكة الحفظ التى جبلوا عليها وساعد على ذلك أن المعلومات التى كانوا يتداولونها كانت ما تزال محدودة لا تحتاج إلى تقييد ولم يكونوا قد انفتحوا تماماً على الأمم الأخرى وتشربوا علومها وتشبعوا بها ومن ثم يحتاجون إلى تدوينها.

وأضيف سبب آخرلعدم وجود كتب مدونة فى تلك الفترة الطويلة وهو أن الدولة الإسلامية سواء فى العصر الراشدى أو فى العصر الأموى قد انصرفت إلى توطيد أركان الإسلام والتوسع فى الفتوحات والحروب ولم يكن لدى الحكام وقت لتشجيع العلم والتأليف ولم يكن لدى المحكومين حافز على تحصيل العلم ونشره حتى لقد وصف العصر الأموى بالجدب الفكرى والإمحال الثقافى. وفى ظل هذا الجدب الفكرى والإمحال الثقافى لم يكن هناك ما يبرر التدوين وكتابة الكتب وتقييد العلم.

ولكن فى ظل الاسترخاء والرفاهية التى صاحبت الدولة العباسية، وكذلك حالة الازدهار فى الأندلس، وانتشار العلوم والمعارف وظهور منهج البحث العلمى لدى المسلمين كان لابد من التدوين وتقييد العلم الذى أصبح ظاهرة فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى وبدأ التدوين بالتأليف الجديد ثم قفل راجعا إلى الخلف لتدوين الروايات التى لم تكن قد دونت من قبل والتى ظلت فترة طويلة تنتقل شفاهة وليس معنى أن يصبح التدوين ظاهرة أن تختفى الرواية والتواتر ولكنهما ظلا جنباً إلى جنب فترة أخرى طويلة من الزمن؛ حتى اختفى التواتر وساد التدوين.

ويجب ألا ننكر كلية وجود بعض الكتب المدونة لدى العرب على الأقل فى نهاية القرن الأول الهجرى فهناك من الشواهد العقلية ما يؤكدها وإن كان عددها قليلاً محدوداً ولم تكن كتباً بالمعنى الدقيق وإنما أقرب للرسائل صغيرة الحجم أو المقالات كما كان العرب يحبون أن يطلقوا عليها كما سنرى فيما بعد.

القرآن الكريم أول كتاب مدون فى الإسلام

نزل القرآن الكريم باللغة العربية الفصحى وقد أشار القرآن نفسه فى العديد من المواضع على تلك الحقيقة وأكد عليها فى سورة يوسف، الآية الثانية؛ سورة

الرعد الآية السابعة والثلاثون؛ وفى سورة طه الآية الثالثة عشرة وسورة فصلت الآية الثالثة وسورة الزخرف الآية الثالثة كذلك وفى سورة الشورى، الآية السابعة، وسورة الأحقاف الآية الثانية عشرة. كما أكد القرآن نفسه على أن لغته سليمة أصيلة على نحو ما ورد فى سورة الزمر فى الآية الثامنة والعشرين ﴿قرآنا عربياً غير ذى عوج﴾ وأنه بلسان عربى مبين كما ورد فى سورة النحل الآية الثانية بعد المائة والشعراء الآية الخامسة والتسعون بعد المائة أيضاً. وقد جاء أنه كتاب مبين فى أربعة عشر موضعا وأنه البلاغ المبين فى سبعة مواضع.

وأن ينزل القرآن الكريم باللغة العربية الفصحى يعنى أنها كانت اللغة السائدة بين أهل الجزيرة وأنها عامة عندهم، وهى الأداة التى تجمعهم وتوحدهم فكريا وهى اللغة التى نظم فيها الشعراء شعرهم والخطباء خطبهم والبلغاء أمثالهم وحكمهم وأقوالهم المأثورة ومن جهة ثانية فإنها لغة القوم الذين توجه إليهم القرآن بما فيه من معلومات وتشريع، ومن جهة ثالثة يؤكد القرآن كفاءة اللغة العربية وقدرتها على الوفاء بالتعبير عن أى موضوع واستيعاب مفردات أى تقدم علمى وذلك لكثرة مفرداتها ومرونتها وقابليتها للإشتقاق والتصريف وتفاعلها مع اللغات الأخرى أخذاً وعطاء.

وسيادة اللغة العربية الفصحى لم تمنع من وجود اختلافات فى لغة القبائل العربية سواء فى نطق حروف الإمالة أو تبديل حروف بعض الألفاظ أو استعمال كلمات محلية تناسب البيئة الاجتماعية أو الطبيعية أو الثقافية، بيد أن هذا الاختلاف الذى نسميه لهجات كان محليا جدا محدوداً فى نطاقه ضعيفا فى أثره لا يمنع الفهم الكامل الصحيح للمتحدثين والمتخاطبين، وظلت اللغة العامة الفصحى هى السائدة، وساعد القرآن الكريم على تثبيت مكانتها ونشرها فعمت بعد تعريب الدواوين واستخدمت فى سجلات المالية والخراج وأصبحت لغة العلم والتجارة والحياة واستعملها الأعاجم من غير العرب ومن ثم أصبحت هى لغة التأليف والإنتاج الفكرى.

وإذا كانت لغة القرآن الكريم هى العربية فقد كتب القرآن الكريم بالخط الذى كان موجودا فى مكة والمدينة خلال فترة الوحى وهو الخط العربى. ويذكر العلماء والثقاة أن عدد كتاب الوحى بلغ تسعة وعشرين كاتباً أشهرهم الخلفاء الراشدون ومعاوية بن أبى سفيان والزبير بن العوام وسعيد بن العاص وعمرو ابن العاص وأُبىٍّ بن كعب وزيد بن ثابت، إلا أن المصادر تؤكد على أن أكثر الكتَّاب إرتباطاً بكتابة القرآن كان معاوية بن أبى سفيان وزيد بن ثابت. ويبدو أنه منذ المرحلة الأولى لنزول الوحى بدئ فى تدوين القرآن وكان من المؤكد أن المؤمنين لم يتوانوا منذ البداية ومن خلال المحن والاضطهادات التى تعرضوا لها عن تسجيل الآيات القرآنية التى وصلتهم. وإسلام عمر بن الخطاب يعود كما نعلم إلى قراءته لآيات مكتوبة من أول سورة طه وجدها مدونة عند أخته.

كان تدوين القرآن العظيم يتم على مواد طبيعية موجودة فى البيئة التى عاش فيها المؤمنون الأوائل مثل سعف النخيل ورقاق الحجارة والعظام ولحاء الشجر العريض وغير ذلك من المواد. ومن هنا فإن القرآن المدون لم يكن فى بادئ الأمر مجموعاً فى مجلد واحد على الهيئة التى نراه عليها اليوم، فقد نزل القرآن على دفعات منجماً، وكانت الدفعات تتفاوت حجومها بين سورة كاملة أحيانا وآية واحدة أحيانا أخرى وربما إلى جزء من الآية. وكان الرسول ﷺ يتلو ما ينزل عليه فى المرة الواحدة ويعلمه للسامعين ليرووه عنه وينشروه ويدونه من يدون منهم فقد حرص الرسول ﷺ كلما جاءه الوحى وتلاه على الحاضرين أن يمليه فوراً على كتبة الوحى ليدونوه على أى شئ كان فى متناول أيديهم كالرق أو الخشب أو صفائح الحجارة والعظام.

ولم تكن تلك المخطوطات القرآنية فى هيئتها الأولى تشكل مجموعة متجانسة ومنظمة ومرقمة ومتتابعة بل ولم يكن لدى النبى الكريم نفسه نسخة كاملة مكتوبة من القرآن، بل ولم يكن لدى أى مؤمن ممن تحلقوا الرسول نسخة كاملة منه، وإنما كانت قطع القرآن الكريم متفرقة ومبعثرة بين العديد من بيوت المؤمنين والمؤمنات ولم يكن هناك فى بداية الأمر ترتيب محدد للقرآن. وإنما

كانت بعض الآيات تضاف هنا أو تجمع إلى جانب آيات هناك حسب أوامر الرسول الكريم. ويجب التأكيد على أن غياب التتابع بين الآيات المكتوبة فى تلك المرحلة لم يحل دون معرفة المؤمنين الشفوية لموضع كل آية جديدة من كل سورة على وجه القطع واليقين وفى كل مرحلة من مراحل الوحى. وكان لابد من انتظار إكتمال الوحى كله لترتيب القرآن كاملاً وإخراجه وحدة واحدة وهو ما لم يتم إلا قبيل وفاة الرسول حين اتخذ القرآن شكله النهائى فى صدور الحفاظ وإن لم يتم كذلك فى المخطوطات الأولى، على عهد الرسول الكريم.

ولقد كان حول الرسول مئات من الصحابة كان حولهم مئات من التابعين يحفظون القرآن عن ظهر قلب ويعرفون تمام المعرفة كل سورة فى هيئتها المؤقتة والنهائية. وكان «حفظة القرآن» يدركون المهمة العظيمة التى يقومون بها فقاموا بها خير قيام. والرسول ﷺ أكدَّ أنه فى شهر رمضان من كل عام كان يقوم بمراجعة عامة للآيات التى نزل بها الوحى ويتلوها بحضور جبريل عليه السلام وأنه فى العام الأخير من حياته راجع عليه جبريل القرآن مرتين مما جعله يتنبأ بدنو الأجل.

وبعد وفاة الرسول ﷺ قامت حروب الردة المشهورة والتى قتل فيها مئات من المؤمنين منهم سبعون من الحفاظ فيما تذكر المصادر، وخشى على القرآن من تناقص أعداد الحفظة له فاقترح عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق جمع القرآن فى طرس واحد. ولم يكن هدفه حفظ القرآن المدون من الضياع وإنما أيضا إقراره فى شكله النهائى الذى فى صدور الرجال، أى أن ترتب سوره وآياته المكتوبة بنفس النسق المحفوظ فى صدور الحفاظ. وشكلت لجنة لهذا الغرض يرأسها زيد بن ثابت الذى تهيب فى بداية الأمر جسامة العمل وعظم المسئولية ولكن أبا بكر أصر عليه وقال يخفف من روعه «إنك رجل ذكى، وكنت تكتب الوحى فى عهد الرسول فقم بجمع القرآن». وكان اختيار زيد بن ثابت هو الإختيار الصحيح لأنه لم يكن مجرد كاتب من كتاب الوحى ولكنه حضر بنفسه آخر تلاوة قام بها الرسول ﷺ للقرآن كله. وقد وضعت لجمع

القرآن المكتوب فى عهد أبى بكر قاعدة أساسية ألا يجمع أى مخطوط من القرآن إلا بعد شهادة إثنين من المؤمنين على أنه من إملاء الرسول مباشرة وأنه جزء من التنزيل فى صورته النهائية. وأنه لم يكتب من ذاكرة أى من الحفاظ خارج املاء الرسول عند نزول الوحى.

وبعد جمع القرآن المدون بعد كل هذه الإحتياطات سلمه زيد بن ثابت إلى أبى بكر الصديق الذى احتفظ به طوال خلافته وعهد به قبل موته إلى عمر بن الخطاب المرشح للخلافة ثم قام عمر بن الخطاب بتسليمه إلى ابنته حفصة أم المؤمنين قرب دنو الأجل لتسلمه للخليفة الذى يجئ بعده لأن الخليفة الثالث لم يكن قد بويع قبل وفاته.

ومن هنا يمكننا القول أنه قد جمعت فى عهد أبى بكر الصديق نسخة كاملة واحدة رسمية من القرآن الكريم، احتفظ بها عمر بن الخطاب وسلمت إلى عثمان بن عفان بعد أن أصبح خليفة للمسلمين. هذه النسخة الرسمية كانت مطابقة تماماً من حيث ترتيب الكتابة لما هو محفوظ فى صدور المسلمين. هذه النسخة الرسمية لم تمنع وجود نسخ أخرى كاملة أو قطع من نسخ غير كاملة لدى الأفراد. وقد ذكرت المصادر أن نسخة القرآن هذه كتبها زيد بن ثابت على رق لطول بقائه ولأنه الأدوم.

ولما جاء الخليفة الثالث عثمان بن عفان وبدأ التوسع فى الفتوحات الإسلامية التى وضعت فى مسارها فى عهد عمر بن الخطاب كان لابد من نشر نسخ من القرآن المدون وحمل الناس على قراءة واحدة له. ولذلك عمد عثمان بن عفان إلى كتابة القرآن الكريم فى مصحف واحد عرف **بالمصحف الإمام**، نسخ منه نسخاً أخرى بعث بها إلى الأمصار: الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة، لتصبح بعد ذلك أساساً لاستنساخ المصحف فى ربوع الدولة الإسلامية وظل الناس يقرأون فى مصحف عثمان ما يزيد على أربعين عاماً حتى كان زمن عبد الملك بن مروان (٦٥هـ) فكثر التصحيف فى القراءة لأن مصحف عثمان لم يكن

منقوطاً كما نعرف ففزع الحجاج إلى كتابه يسألهم أن يميزوا بين الحروف المتشابهة وأن يقرأوا القرآن قراءة نحوية صحيحة فدخل الشكل ثم بعد ذلك النقط.

منذ ذلك الحين بدأت عملية نشر المصحف نشراً وظيفياً أولاً أى بغرض تسهيل عملية قراءة القرآن، وتخصص فيها كتاب محددون كان بعضهم يتقاضى أجراً عن ذلك. يقول السجستانى فى كتابه (كتّاب المصاحف) أن أبا حكيمة العبدى كان ينسخ القرآن وكان على بن أبى طالب يمر عليه وهو ينسخ هو وزملاؤه فينظر فيما ينسخون فيعجبه خطهم فيقول لهم «هكذا نوروا ما نوّر الله»، كما روى أن عبد الرحمن بن عوف استكتب رجلاً من أهل الحيرة مصحفاً فأعطاه سبعين درهما. ويقال أن المصاحف فى تلك الفترة كانت تكتب على جلود الظباء.

بعد ذلك النشر الوظيفى للمصحف أخذ المسلمون يتأنقون فى كتابة المصاحف وتجميلها وفى تحسين خطوطها، كما أخذوا يستخدمون المصاحف الجميلة الأنيقة داخل المساجد والجوامع وأكثر من هذا بدأوا يستخدمون آيات القرآن الكريم فى زخرفة وتزيين جدران المساجد وخاصة من الداخل. ويذكر ابن النديم فى الفهرست أن أول من كتب المصاحف فى الصدر الأول من الإسلام ويوصف بحسن الخط هو (خالد بن أبى الهياج) وكان يكتب للوليد بن عبد الملك المصاحف والشعر والأخبار ويقال أن عمر بن عبد العزيز طلب إليه أن يكتب له مصحفاً بنفس الخط الذى فى قبلة مسجد النبى ﷺ فكتب له مصحفاً تنوق فيه فأقبل عمر بن العزيز يقبله ويستحسنه واستكثر ثمنه فرده عليه».

ولعله من نافلة القول أن نذكر بأن مصحف عثمان هو المتداول فى جميع أنحاء العالم الإسلامى منذ نحو أربعة عشر قرنا. وقد أكد (و. موير) أن المصحف الذى جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون

أى تحريف. ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أى تغيير يذكر (اللهم إلا فى النقط) بل نستطيع أن نقول إنه لم يطرأ عليه أى تغيير على الإطلاق فى النسخ التى لا حصر لها والمتداولة فى البلاد الإسلامية الواسعة. ومن هذا المنطلق أيضا يؤكد (نولدكه) أن النص القرآنى فى مصحف عثمان جاء على أحسن صورة من الكمال والمطابقة لما فى صدور الرجال. وتأسيساً على ذلك يؤكد (لو بلوا) أن القرآن هو اليوم الكتاب الربانى الوحيد الذى لم يطرأ عليه أى تغيير.

إذن دون القرآن بالخط العربى السائد فى حينه وبالطريقة التى كان عليها ولم يدخله من حيث الكتابة تغيير يذكر حتى بعد الطباعة تؤكد الطبعات المختلفة على أنها بالرسم العثمانى وقد حفل القرآن نفسه بالإشارة إلى الكتابة وأدواتها وإلى الكتب كمنتج نهائى لها فقد ذكر **القلم** فى سورة القلم الآية الأولى وفى سورة العلق الآية الرابعة وسورة لقمان فى الآية السابعة والعشرين وآل عمران الآية الرابعة والأربعين. كذلك ذكر من بين مواد الكتابة القرطاس فى سورة الأنعام الآية السابعة والآية الواحدة والتسعين **والرق** فى سورة الطور فى الآية الثانية. كما ذكر **المداد** فى سورة الكهف فى الآيتين التاسعة والعاشرة.

أما الكتاب فقد ذكر فى القرآن الكريم بصور متعددة: **الكتاب المسطور** فى سورة الكوثر فى الآية الثانية عشرة وفى سورة الأحزاب فى الآية السادسة وفى سورة الاسراء فى الآية الثامنة والخمسين. وذكر الكتاب على أنه **الألواح** فى سورة الأعراف الآية الخامسة والأربعين بعد المائة. **والسجل** الذى يطوى الكتب فى سورة الأنبياء فى الآية الرابعة كما ذكر على أنه **الصحف** فى سورة المدثر الآية الثانية والخمسين، والصحف الأولى فى سورتى طه الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة؛ والأعلى فى الآية الثانية وصحف ابراهيم وموسى فى سورتى الأعلى الآية الثالثة عشرة والنجم الآية التاسعة والثلاثين. وأن القرآن الكريم فى «صحف مكرمة» فى سورة عبس الآية الثالثة عشرة وفى «صحف مطهرة» فى سورة البينة الآية الثانية.

وذكر القرآن **الكتابة** بصيغة فعل الأمر فى ست وعشرين آية، وبالمعنى العام أى التقييد فى سبع آيات ووردت كلمة كتاب بلفظها فى تسع وعشرين آية والذين اوتوا الكتاب فى اثنتين وثلاثين آية، وبمعنى الكتب المقدسة فى الأديان السماوية فى ثمان وثلاثين آية كما ذكرت الكتب المقدسة بأسمائها كالتوراه والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم فى عدة آيات ووردت كلمة الكتاب للإشارة إلى القرآن الكريم فى كثير من الآيات وأوجب القرآن الكريم كتابة العقود كالدين (البقرة، آية ٢٨٢) وعقد الزواج (البقرة ٢٣٥) ومكاتبة العبيد عند تحريرهم (النور آية ٣٣). .

والقرآن الكريم أساساً هو كتاب هداية وجل آياته تتعلق بالعقيدة الدينية والشريعة والنظرة الكونية الشاملة، بالإضافة إلى اهتمامه بالتوجيه السلوكى والأخلاقى للانسان فى حياته العامة واليومية والشخصية، كما يهتم بالمبادئ المتعلقة بالنظم والعلاقات الإجتماعية والتطورات التاريخية، كما يحفل بالقصص للعظة والعبرة وفيه إشارات كثيرة تتعلق بالعلوم البحتة والتطبيقية وخاصة فيما يتعلق بالكون والفلك والشمس والنجوم والأرض والأبراج والسنين والشهور والأيام والساعات والحساب بما فى ذلك الأرقام: الآحاد والعشرات والمئين والألوف وكسور الآحاد كالنصف والثلث والربع والخمس والسدس. وفيه ذكر للعمليات الحسابية كالجمع والقسمة والطرح والمضاعفة أى الضرب. ووردت فى القرآن إشارات إلى مظاهر المناخ المختلفة كالهواء والرياح والعواصف والأمطار والمياه والأنهار والبحار. وفيه علم النبات ونموه وبعض المحاصيل كالنخيل وثمره والأعناب والزيتون والرمان. وفيه علم الحيوان بأسماء الحيوانات وأسماء أعضائها. وفيه علم الأجنة وتطور الجنين وفيه علم الأحياء، وأعضاء جسم الانسان. وفيه علم اللغة.

إذن فالقرآن لم يأت تحديا لغوياً وحسب وإنما جاء كذلك تحديا علمياً وداعياً إلى المعرفة والتوسع فى كل إشارة جاءت فيه. ولقد حض فى كثير من المواضع على استعمال العقل فى التفكير وأثنى على ممارسيه ودعا إلى المعرفة ووضعت

فيه آيات كثيرات للتعبير عن مظاهر المعرفة ودرجاتها. ومن هذه التعبيرات **الرأى** فى ٣٣٢ موضعا، **البصر** بمعنى البصيرة فى ١٤٩ موضعا **والنظر** بمعنى البصيرة والتبصر أيضا فى ٩٩ موضعا **وعرف** فى ٢٤ موضعاً.

وجاءت كلمة **العقل** بلفظها ثمان وأربعين مرة **والفكر** تسع عشرة مرة **واللب** بمعنى العقل ست مرات. كما ذكر القرآن الكريم من أساليب الحوار: **الجدل** تسعاً وعشرين مرة **والحجاج** تسع عشرة مرة **والمشاقة** مرة واحدة.

ووردت كلمة **العلم** بلفظها ومشتقاتها فى ثمانمائة آية فيها ما يتصل بذات الله (٥٨٦ مرة). ومنها ما يتصل بالبشر والناس (١٨٤ مرة). كما ذكر القرآن الكريم **الذين أوتوا العلم** فى تسع آيات **والراسخون فى العلم** فى آيتين، وأشاد بالعلماء فى آيتين ﴿**انما يخشى الله من عباده العلماء**. . فاطر ٢٨﴾؛ ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات**. . المجادلة ١١﴾. كما ذكرت الحكمة بلفظها فى ست عشرة آية منها عشرة قرنت بالكتاب، وآية قرنت بالملك وأخرى قرنت بلقمان الذى أوتى الحكمة (لقمان ٢). وقال سبحانه وتعالى ﴿**يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيراً**﴾ (البقرة ٢٦٩) وقد أوحى إلى الرسول من الحكمة (الإسراء ٣٩) وطلب إليه أن ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾ (النحل ١٢٥).

ووصف الله ذاته بأنه ﴿**عزيز حكيم**﴾ خمساً وأربعين مرة، و﴿**عليم حكيم**﴾ أربعا وثلاثين مرة و﴿**حكيم خبير**﴾ أربع مرات و﴿**علّى حكيم**﴾ مرتين كما وصف تعالى ذاته فى آيات منفردة بأنه ﴿**تواب حكيم**﴾ و ﴿**حكيم خبير**﴾ و﴿**واسع حكيم**﴾.

وقد حفل القرآن الكريم بتكريم الإنسان من حيث هو نوع وبالفرد والأخلاق من حيث هو اللبنة الأولى فى المجموع، وحفل بإصلاح حاله وتنميته واعتبره كيانا خاصاً مسئولاً عن تصرفاته الدينية والأخلاقية والقانونية. وأوجب عليه الالتزام بقواعد أخلاقية أساسية يومية وعامة منها الصدق والأمانة والصبر والشرف والوفاء بالعهد وحب الخير للناس والمجتمع.

وتوقف القرآن الكريم أمام حرية الإنسان وتحريره توقفاً طويلاً فدعا إلى ممارسة الفرد لإرادته وحريته فى التفكير والتدبير والسلوك. ولذلك تقوم الدعوة الإسلامية على الإقناع والإقتناع والنقاش الحر والجدل البناء . يقول القرآن الكريم ﴿وجادلهم بالتى هى أحسن﴾، ﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾. والحرية فى القرآن من هذا المنطلق حرية واسعة مطلقة لا يحدها إلا الضرار بالناس أو تهديد أمن المجتمع وسلامته أو المساس بأسس الشريعة والعقيدة. وهى حرية مادية ومعنوية كحرية العمل والتكسب والتنقل والاستمتاع المشروع بمباهج الحياة، كما تشمل حرية التمحيص والتفحيص ودراسة الآراء والأفكار والمعتقدات ومقاومة السلطان الظالم الفاسد.

وفى قناعتى الشخصية أن القرآن الكريم هو الذى شكلّ أسس البحث العلمى وأطر الإنتاج الفكرى فى الدولة الإسلامية لقرون عديدة تلت إلى أن وهنت الدولة الإسلامية وفسدت أحوالها واختل منهج البحث العلمى فيها.

وأختتم هذه الفذلكة عن القرآن الكريم ببعض الأرقام عن سوره وآياته وحرؤفه حسبما وردت فى المصادر التى توافرت لى:

المصدر	السور	الآيات	الحروف
أبيّ بن كعب	ــــــــ	ستة آلاف ومائتان وعشرة	ــــــــ
عطاء بن يسار	مائة وأربع عشرة سورة	ستة آلاف ومائة وسبعون	ثلاثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفاً
عاصم الجمهورى	مائة وثلاث عشرة سورة	ستة آلاف ومائتان وستة وعشرون	ثلاثمائة ألف وواحد وعشرون الف وخمسمائة وثلاثون

وقد أعطى عطاء بن يسار عدد الكلمات فى القرآن وجاءت عنده سبعة وسبعين ألفا وأربعمائة وتسعة وثلاثين كلمة.

والحقيقة أن الفروق فى الأرقام الموضحة لا ترجع إلى نقصان أو زيادة بل ترجع إلى إعتبارات أخرى هى وجهة نظر الشخص لمفهوم الآية والكلمة

والحرف فالبعض يعتبر بسم الله الرحمن الرحيم التى تبدأ بها كل سور القرآن أية ومن ثم يحصيها على هذا النحو والبعض يعتبرها مدخلا إلى السورة ولا يحسبها آية فى الاحصاء. وأيضا القضية فى حالة الحروف الاستهلالية فى بعض السور البعض يحصيها على أنها حروف متفرقة والبعض يحصيها على أنها كلمة وهكذا يجب أن يرد الخلاف فى العدد.

* * *

ظهور الكتاب الإسلامى

الكتاب فى مفهومنا عبارة عن رسالة فكرية تسجل على وسيط خارجى قابل للتداول والتناول بين الناس برمز معين. ومن ثم لكى يتحقق ذلك فلابد من وجود ثلاثة أقطاب تتفاعل فيما بينها لكى تؤدى إلى تلك المخرجات التى نسميها الكتب وهذه الأقطاب هى: المؤلف والناشر والموزع. وقد رأينا أن أول كتاب اسلامى يحقق هذا المفهوم هو القرآن الكريم رغم أنه لم ينشر إلا فى عهد عثمان بن عفان. ذلك أن الصورة العامة فى جزيرة العرب لم تكن تسمح بظهور هذا المفهوم للكتاب.

فقد كانت شبه جزيرة العرب أرضا واسعة شاسعة، مناخها صحراوى قليل الأمطار وهى متنوعة فى طبيعة أرضها وثرواتها ونشاطات أهلها فنجد فيها سلاسل الجبال الطويلة والهضاب الواسعة والوديان الكثيرة المتسعة وفيها مناطق مستوية تغطى بعضها الكثبان الرملية وفيها الرمال المتحركة والأرض الصلبة. تتوافر فى بعض مناطقها مياه جوفية تمد الآبار والينابيع وعيون الماء بما يكفى لقيام الزراعة: زراعة النخيل والحبوب والخضر والفاكهة وفيها مناجم غنية ببعض أنواع المعادن وخاصة الذهب والفضة. وكانت تلك العوامل من أسباب ازدهار الحياة الاقتصادية والعمرانية فى بعض المناطق دون البعض الآخر وخاصة مناطق الأطراف الساحلية حيث ظهر منذ فترة طويلة قبل الإسلام عدد من المدن كانت مراكز حضارية ذات نشاط تجارى للسلاح والعبيد والسلع كما ظهر على شواطئها موانئ لنقل البضائع وتصنيع السفن وإصلاحها وتموينها ورسوها.

وقد بقيت جزيرة العرب بعيدة عن أى حكم أجنبى مباشر فلم تحتلها أو تسيطر عليها دولة أجنبية تفرض عليها ثقافتها أو حضارتها ونظمها كما حدث مثلا بالنسبة للشام والعراق وشمالى إفريقيا ومصر. ولم تتعرض الجزيرة العربية إلا للقليل من الغزوات الأجنبية لم تتعد الأطراف وظل هذا حالها حتى اليوم ولم تستطع أية غزوة أجنبية أن ترسخ حكمها فترة طويلة فى تلك الأطراف. ولم تكن الأحوال الجغرافية والمناخية مشجعة على الهجرة إليها أو الاستقرار فيها بل كانت على الدوام منطقة طرد للسكان فخرجت منها الموجة تلو الموجة، إلى الهلال الخصيب وجنوبى العراق. ولم يكن يهاجر إليها ويستقر فيها إلا أعداد قليلة نسبياً، استقرت أساساً فى مناطق الأطراف القريبة من الفرس والتى تكثر فيها السفن المبحرة إلى البلاد النائية.

ولم تكن جزيرة العرب منطقة منعزلة مغلقة تماماً عن العالم الخارجى فإن موقعها الجغرافى بين بلاد الهند والشرق الأقصى وإفريقيا من جهة وبلاد البحر المتوسط من جهة ثانية، جعل كثيرا من التجارات تمر بها، لأنها أقصر الطرق مما دفع بعض أهلها إلى ممارسة الملاحة وتسيير قوافل التجارة وكانت لهم رحلة الشتاء ورحلة الصيف وليس ثمة شك فى أن تجاراتهم كانت أوسع مع الأقاليم المجاورة، غير أنها لم تقتصر على هذه الأقاليم وإنما امتدت إلى مناطق أبعد. ومن الثابت تاريخيا أن أهل عمان قاموا منذ قرون قبل الإسلام بالملاحة فى بحر العرب والمحيط الهندى ووصلت سفنهم إلى إفريقيا الشرقية وربما إلى الهند والصين وهم الذين أرشدوا الأوربيين فيما بعد إلى العبور إلى الهند، يؤيد ذلك توافر الإشارات إلى التجارة مع الهند، وعدم وجود أية إشارة أو دليل على العكس أى على وصول سفن هندية أو إفريقية إلى بلاد العرب. وتذكر المصادر إحتفاظ العرب حتى القرن الأول قبل الميلاد بسر معرفة تبدل الرياح الموسمية التى كانت لها أهمية كبرى فى سير السفن.

وامتد النشاط التجارى العربى نحو الغرب فشمل البلاد الواقعة حول حوض البحر المتوسط حيث وصلت سفن الفينيقيين إلى سواحل أسبانيا وشمالى

إفريقيا وأقاموا مستوطناتهم ومن بينها مستوطنة قرطاجنة فى تونس وكشفت شواهد القبور فى شمالى إفريقيا وجنوبى فرنسا على أن تجار اليمن وصلوا إلى تلك المناطق.

كذلك امتد النشاط التجارى العربى إلى بلاد الفرس، وهناك من الأدلة ما يؤكد امتداد التجارة اليمنية إلى تلك المناطق. كما أن الجيوش العربية التى تقدمت فى زمن الخليفة عثمان بن عفان لفتح خراسان كان يتقدمها أولاد عرب يعرفون مسالك الطرق التى تيسر لهم الوصول إلى خراسان.

وليس ثمة شك فى أن عدداً من هؤلاء التجار العرب كانوا يقيمون دائماً فى البلاد التى يتاجرون معها، وكان العدد الأكبر من التجار يقيمون إقامة مؤقتة وكان لهم مقامهم الدائم على أرضهم فى موطنهم الأصلى بجزيرة العرب.

ومن المؤكد أن العلاقات التجارية أعطت الفرصة لنفر غير قليل من التجار العرب لتناول وتداول السلع والمنتجات والمحاصيل غير العربية والإحتكاك المستمر بتلك الدول والمجتمعات والإطلاع على أوضاع الحياة والنظم والمعاملات والقوانين السائدة هناك. كما أتاحت لهم خبر المعاملات وسبرغور تلك الحضارات واقتباس ما لزم اقتباسه من مفردات لغوية من أسماء السلع ومصطلحات النظم وبعض أنماط السلوك والعلوم، فضلاً عن زيادة الثروة والجاه وتوطيد مركز التجار.

ولابد من القول بأن ذلك كله كان له أثره فى نظم الحياة العربية وفى نشاط الحركة الثقافية والفكرية وإن كان ذلك بقدر محدود يسير لا يحدث انقلاباً فكرياً فى الجزيرة العربية وإن مكنّ من دخول الكتابة إلى الجزيرة العربية على نحو ما قدمت من قبل.

فى ميدان العقائد والأديان عبد أهل الجزيرة الأصنام والتى وجدت فى الأقاليم المجاورة مثل الإله بعل، عشار، اللات، العزىّ، مناة وأغلب الظن أنها دخلت إلى الجزيرة من الدول المجاورة وليس العكس حسب الآراء التى تقول

بأن الأصنام خرجت من جزيرة العرب إلى المناطق المجاورة وتشير الإحتمالات إلى العراق كمكان لتصدير عبادة الأصنام إلى الجزيرة العربية.

عرفت الجزيرة العربية أيضا بعض الأديان التى ظهرت وانتشرت فى الأقاليم المجاورة وهى المسيحية واليهودية والمجوسية. وقد ذكر القرآن الكريم الدين المسيحى والدين اليهودى بصور متعددة فى كثير من آياته. وذكر المجوسية فى آية واحدة مما يدل على انتشار المسيحية واليهودية وقلة أنتشار المجوسية. ومن المعروف أن المسيحية أرسلت بعثات تبشيرية إلى عدة مناطق فى شبه جزيرة العرب إلا أن تلك البعثات لم يكن لها دور اجتماعى ثقافى علمى يذكر فى حياة العرب، فالمسيحية لم تنتشر إلا بين عدد محدود من الناس ولم تتمكن من نفوسهم تمكنا عميقا بحيث تصبح ظاهرة ولم تحدث ثورة كما أحدثت عند غير العرب فى الشام وأوربا ومصر.

من هذا المنطلق يمكننا القول بأن جزيرة العرب كانت لها إتصالاتها مع العالم الخارجى، وكان لأهلها رحلات خارجية إلى كثير من البلاد الأخرى وقد تعرضت لثقافات أجنبية بيد أن هذه المؤثرات لم تكن عميقة أو واسعة بحيث تحدث تأثيراً أساسيا فى سكان الجزيرة. ولذلك كانت جزيرة العرب فى حاجة إلى أن تأتى الثورة من داخلها تغير من نظمها الإجتماعية والسياسية والفكرية.

لقد كانت شبه جزيرة العرب عند ظهور الإسلام مفككة سياسياً فلم تتكون فيها دولة كبيرة تسيطر عليها أو على أجزاء واسعة فيها، وإنما كان فيها عدد من الحكام يسيطر بعضهم على أقاليم جغرافية محدودة كالذى كان فى اليمن واليمامة وعمان. كما اتخذت بعض المدن مثل مكة والمدينة نظماً خاصة بها وكان النظام القبلى سائداً فى عمومها وكان البدو الرحل عماداً لاقتصادها، وكانوا يغيرون على بعضهم البعض ويقتصر سلطان شيخ القبيلة على القبيلة التى ينتمى إليها فقط.

ولـم يصلنا كما ألمحت من قبل إلا النزر اليسير من الوثائق المكتوبة التى تكشف لنا عن حياة العرب وربما كان الشعر هو أساس معلوماتنا عن الحياة بمختلف جوانبها فى جزيرة العرب، بما لا يكفى لتكوين صورة حقيقية وواضحة الحدود والمعالم والأبعاد لذلك استحقت تلك الحقبة أن يطلق عليها اصطلاح العصر الجاهلى. وبالتالى لم يصلنا منه كتب بالمعنى الذى ذهبنا إليه.

وكما رأينا لم ينتج لنا العصر الراشدى سوى الكتاب الأعظم القرآن الكريم وهو الكتاب الذى أرسى قواعد العلوم وحث على العلم ووضع اطار البحث العلمى وأخلاقياته. وقد وصلتنا إشارة عن وجود بعض الكتب فى العصر الأموى أقرب إلى الرسائل أو المقالات ذات الموضوع الواحد كما سنرى ذلك فيما بعد عند حديثنا عن المكتبات عند المسلمين.

يوصف العصر الأموى على وجه العموم بأنه عصر إمحال وجدب فكرى ولم يكن عصر إنتاج فكرى ولـم يكن فيه مؤلفون ذوو شأن وخطر. وإن كان الدكتور محمد ماهر حمادة - يرحمه الله - يرى أن الصورة فى العصر الأموى لم تكن بتلك القتامة، ويرى أن أول من أمر بتدوين القصص والأخبار والتواريخ هو معاوية بن أبى سفيان، ذلك أن معاوية بعد أن استتب له الأمر أراد أن يكون عنده من يحدثه عن الزمن الماضى وما كان يحدث فيه وهل كان فيه ما يشبه ما كان فيه. وقيل لمعاوية ساعتها أن بحضرموت رجلاً معمراً اسمه آمد بن آبد الحضرمى فأتى به كما ورد عليه من اليمن أيضاً عبيد بن شرية الجرهمى وهو أيضا من المعمرين وكان آية باهرة فى معرفة تاريخ اليمن وملوك العرب والعجم يرويها مشفوعة بالقصائد الرنانة فأمر معاوية كتابه أن يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شرية فى كل مجلس سمر فيه معاوية. وكان معاوية يعجب أيما إعجاب بما يلقيه عليه عبيد بن شرية الجرهمى ويستزيده من إيراد الشعر لأن الشعر كما قال معاوية ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها والحاكم بينها فى الجاهلية فكان بدء تدوين التاريخ على يد معاوية. كذلك فإنه من غير المعقول أن تكون العلوم والمؤلفون والمترجمون الذين وجدوا فى العصر

العباسى قد نبتوا من فراغ وظهروا فجأة دون مقدمات ودون جذور لهم فى العصر الأموى وهناك الكثير من الأدلة العقلية والشواهد التى تثبت وجود كتب ومكتبات فى العصر الأموى وتؤكد أن الترجمة والتدوين والتأليف بدأت فى ذلك العصر وإن لم تمثل ظواهر يعتد بها وتؤثر فى المسار العام للحركة الفكرية الإسلامية.

عندما جاء العصر العباسى تفجرت ينابيع الفكر تدريجياً وكانت هناك ثلاثة روافد رئيسية تمد هذه الينابيع بثمارها:

أ - الرافد الأول تمثل فى **التراث العربى** الذى كان يتم تداوله شفاهة قبل الإسلام وفى العصر الأموى ومطلع العصر العباسى ومن ثم بدأ تدوينه كتابة وتمثل هذا التراث فى الشعر والتاريخ والأنساب والأمثال والأخبار...

ب - الرافد الثانى تمثل فى **التأليف** حيث فتح الإسلام شهية المسلمين لإنتاج فكرى خصب وخلق جيلاً بعد جيل من المؤلفين الذى سيطروا على منهج البحث العلمى واطلعوا على علوم الأمم الأخرى وتمثلوها ونسجوا على غرارها وربما تفوقوا عليها.

ج - الرافد الثالث تمثل فى **الترجمة**، حيث قام العرب بترجمة الكتب الأجنبية عن لغات مختلفة كاليونانية والسريانية والرومية والفارسية والهندية وغيرها. وكان المصطلح الذى يستخدمه العرب فى عملية الترجمة هذه هو النقل والمترجمون كان يطلق عليهم مصطلح النقلة.

* * *

حث الإسلام على طلب العلم وحث فى نفس الوقت على التأليف ووضع العلم فى خدمة خلق الله للانتفاع به واستعاذ رسول الله من علم لا ينتفع به. ولقد حدد حاجى خليفة التأليف الأصيل بسبعة أنواع فقال إن التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عاقل إلا فيها وهى:

١ - إما شئ لم يسبق إليه فيخترعه.

٢ - أو شئ ناقص يتممه.

٣ - أو شئ مغلق يشرحه.

٤ - أو شئ طويل يختصره دون أن يخل بشئ من معانيه.

٥ - أو شئ متفرق يجمعه.

٦ - أو شئ مختلط يرتبه.

٧ - أو شئ أخطأ فيه مصنفه فيصلحه.

والنوع الحقيقى من التأليف هو الأول الذى يصل إلى مرتبة الاختراع وما عداه يأتى دونه وفى مرتبة تالية. ويقول حاجى خليفة فى نفس السياق «وينبغى لكل مؤلف كتاب فى فن سبق إليه أن لا يخلو من خمس فوائد استنباط شئ كان معضلاً أو جمعه إن كان مفرقا أو شرحه إن كان غامضا أو حسن نظم وتأليف وإسقاط حشو وتطويل».

ومن واقع دراستى المستفيضة لفهرست ابن النديم يمكننا تحديد المسئولية الفكرية فى الكتاب الإسلامى على نحو ثلاثين مسئولية نسردها على الوجوه الآتية:

١ - التأليف

٢ - التصنيف

٣ - العمل

٤ - الصنعة

٥ - الرواية

٦ - الإختيار

٧ - الإختصار

٨ - النقض - الرد

٩ - الشرح

١٠ - التعاطى

١١ - المجالس

١٢ - المحاسبات

١٣ - المناظرات - المداعبات

١٤ - الإلحاق - التتمة - الوصل - الزيادة.

١٥ - النحلة والإنتحال.

١٦ - الحفظ

١٧ - السماع

١٨ - القراءة

١٩ - الأخذ

٢٠ - التفسير

٢١ - النقل

٢٢ - الإصلاح

٢٣ - الحكاية

٢٤ - المكاتبات - الترسلات

٢٥ - الإستدراك

٢٦ - التبصرة - الحاشية

٢٧ - الإنتزاعات

٢٨ - الأمالى

٢٩ - الجمع

٣٠ - التجريدات

وهذه المسئوليات رغم الفروق القائمة بين فئاتها المختلفة تندرج تحت واحد من أقسام التأليف السبعة التى أشار إليها حاجى خليفة والتى أتينا عليها سابقاً. والتأليف ليس من الضرورى أن يكون مكتوباً مدونا بل يمكن أن يقع مشافهة على عكس التصنيف الذى هو علامة على التدوين. ولذلك حث علماء

المسلمين على التأليف عامة وعلى التصنيف خاصة ومن هنا يقول ابن الجوزى فى صيد الخاطر:

«رأيت من الرأى القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة لأنى اشافه فى عمرى عدداً من المتعلمين واشافه بتصنيفى خلقا لا يحصون ما خلقوا. ودليل هذا انتقاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من شيوخهم فينبغى للعالم أن يتوفر على التصانيف إن وفق للتصنيف المفيد فإنه ليس كل من صنف صنف. وليس المقصود جمع شئ كيف كان وإنما هى اسرار يطلع الله عز وجل عليها من شاء من عباده فيجمع ما شتت أو يشرح ما أهمل؛ هذا هو التصنيف المفيد. وينبغى اغتنام التصنيف فى وسط العمر لأن أوائل العمر زمن الطلب وآخره كلال الحواس وربما خان العقل والفهم من قدر عمره وأن يكون التقدير على العادات الغالية لأنه لا يعلم الغيب فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل إلى الأربعين ثم يبتدئ بعد الأربعين بالتصانيف والتعليم هذا إذا كان قد بلغ ما يريد من الجمع والحفظ وأعين على تحصيل المطالب. فأما إذا قلت الآلات عنده من الكتب أو كان فى أول عمره ضعيف الطلب فلم ينل ما يريده فى هذا الأوان أخر التصنيف إلى تمام خمسين سنة ثم ابتدأ بعد الخمسين فى التصنيف والتعليم إلى رأس الستين ثم يزيد بعد الستين فى التعليم ويسمع الحديث والعلم ويعلل التصانيف(*) إلى رأس السبعين فإذا جاوز السبعين جعل الغالب عليه ذكر الآخرة والتهيؤ للرحيل فيوفر نفسه على نفسه إلا من تعليم يحتسبه أو تصنيف يفتقر إليه فذلك أشرف العدد للآخرة».

ويقول ابن جماعة فى «تذكرة السامع» فى نفس هذا الاتجاه أن الاشتغال بالتصنيف والجمع من تمام الفضيلة وكمال الأهلية فإنه - أى المصنف - يطلع على خفايا الفنون ودقائق العلوم للاحتياج إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة.

(*) اى يصححها.

ويؤكد الخطيب البغدادى من فوائد التصنيف أنه يثبت الحفظ ويذكى القلب ويشحذ الطبع ويجيد البيان ويكسب جميل الذكر وجزيل الأجر ويخلده إلى آخر الدهر.

كذلك حمد التصنيف بالشعر إلى جانب الحث عليه بالنثر وعلى سبيل المثال ما قاله السرى بن أحمد الكندى:ـ

كن للعلوم مصنفاً أو جامعاً * * يبقــى لـك الذكـر الجميل مخلداً.

كم أديب ذكره بين الـــورى * * غض وقد أودى به صرف الردى.

ويبلغ الحث على التأليف والتصنيف أقصاه فى قول السبكى «ينبغى للمرء أن يتخذ كتابة العلم عبادة سواء توقع أن تترتب عليها فائدة أم لا».

ولكن على الجانب الآخر نجد ابن خلدون يحذر فى مقدمته من كثرة التأليف فى الموضوع الواحد فيقول ما نصه:

«إعلم أنه مما أضر بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف واختلاف الإصطلاحات فى التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم إلى حفظها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفى عمره بما كتب فى صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور ولابد دون رتبة التحصيل فيمثل ذلك من شأن الفقه فى المذهب المالكى بالكتب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمى وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل... وهى كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضى فى واحد منها».

وكما اهتم المؤلفون المسلمون بالمحتوى العلمى للكتب التى يضعونها فإنهم حفلوا أى احتفال بالقالب الذى يضم تلك المعلومات ولا أعنى به هنا الوسيط الذى تكتب عليه المعلومات وإنما أعنى بها اللغة التى تكتب بها المعلومات

والأسلوب الذى تصاغ به وطريقة العرض التى تسرد بها المحتويات وتتتابع. أنظر إلى الجاحظ ينبه إلى اختيار الأسلوب السلس المستطاع فهمه والذى يعبر عن مقصود المؤلف والبعد عن الألفاظ السوقية ويحذر من الحشو والإطالة التى لا مبرر لها. يقول الجاحظ:

«وليس الكتاب إلى شئ أحوج منه إلى إفهام معانيه حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الرواية، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن الألفاظ السفلية والحشو ويحيطه من غريب الألفاظ ووحشى الكلام. وليس له أن يهذبه جدا وينقحه ويصفيه ويروقه حتى لا ينطق إلا بلب اللب وباللفظ الذى قد حذف فضوله وأسقط زوائده حتى عاد خالصا لا شوب فيه فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه إلا بأن يجدد لهم أفهاما مراراً وتكراراً لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم».

وفى نفس هذا الاتجاه يقول ابن المدبر فى الرسالة العذراء:

«وأدر الألفاظ فى أماكنها واعرضها على معانيها وقلبها على جميع وجوهها حتى تقع موقعها ولا تجعلها نافرة قلقة فمتى صارت كذلك هجنت الموضوع الذى أردت تحسينه واعلم أن الألفاظ وأماكنها كرقع الثوب الذى إذا لم تتشابه رقاعه تغير حسنه».

إننا إذا استعرضنا المؤلفات الإسلامية الباكرة أمكننا تمييز أربع طبقات من المؤلفين: **مؤلفون** لديهم علم غزير ويقدرون على تقديم هذا العلم والتعبير عنه؛ **ومؤلفون** تعبيرهم أكبر من علمهم فهم يطيلون ويسهبون فى معلومات قليلة محدودة فهم يجيدون العرض ولا يجيدون التصنيف والتأليف. **ومؤلفون** لديهم معلومات غزيرة حسنة ولكن لا يجيدون عرضها وبسطها وتوصيلها للقراء والمستفيدين؛ **ومؤلفون** لا علم عندهم ولا أسلوب أو طريقة عرض لديهم. وهم فى حقيقة الأمر ليسوا بمؤلفين بل هم أدعياء. ويبدو أن طبيعة البشر واحدة فى الزمان والمكان فهذا الأمر ينطبق فى كثير من الأزمنة والأمكنة.

ولقد حذر الثقاة من الفئات الثلاثة الأخيرة وإن كان بدرجات متفاوتة وحذروا من الفئة الأخيرة بشدة وخاصة فى مسائل الدين والفقه والشريعة. يقول ابن جماعة فى هذا الصدد محذراً من مؤلفات من لا علم لهم ولا معرفة بما يؤلفون «وأما من لم يتأهل لذلك فالانكار عليه نتيجة لما يتضمنه من الجهل وتقرير من يقف على ذلك التصنيف ولكونه يضيع زمانه فيما لم يتفقه به ويدع الإتقان الذى هو أحرى منه». ويقول السخاوى عن البلقينى «بلغت مصنفاته ثلثمائة كتاب وكان يكتب فى كل فن سواء أتقنه أو لم يتقنه» ويقول نفس المؤلف عن قاسم بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩هـ «أن كلامه أوسع من علمه».

ويقول خليل بن أيبك الصفدى فيما كتبه عن محمد بن هلال غرس النعمة «كان يجازف فى تاريخه ويذكر ما ليس بصحيح» كذلك عاب ابن حجر العسقلانى على ابن دحية الكلبى الأندلسى المتوفى سنة ٦٣٣هـ نفس المجازفة فى العلم حيث قال «كان مع فرط معرفته بالحديث وحفظه الكثير له متهما بالمجازفة فى النقل وبلغ ذلك الملك الكامل فأمر أن يعلق ويصنف شيئاً على كتاب الشهاب فعلق كتابا تكلم فيه عن أحاديثه وأسانيده فلما وقف الكامل على ذلك قال له بعد أيام قد ضاع شئ من ذلك الكتاب فعلق لى مثله فجاء فى الكتاب الثانى مناقضة للأول فعرف السلطان عنه صحة ما قيل عنه وعزله من دار الحديث».

ومن المؤلفين الأدعياء من كان يوقع نفسه فى حرج شديد بسبب ادعائه العلم حتى ليخترع أسماء كتب لا وجود لها ومن هؤلاء نذكر صاعد البغدادى الذى جازف ووضع أسماء بعض الكتب الوهمية وقد أراد المنصور أن يختبره فى ذلك فسأله عن عنوان كتاب لفّقه من عنده: هل رأيت فيما وقع لك من الكتب كتاب «الكواكب والزوابل» الذى ألفه مبرمان بن يزيد فقال نعم رأيته ببغداد فى نسخة لأبى بكر دريد بخط كراع النمل فقال له المنصور أما تستحى يا أبا العلاء من هذا الكذب، هذا كتاب (خطاب) عاملنا يذكر فيه أن الأرض قد قلت وزبلت فأخذت من قوله ما سألتك.. فأخذ صاعد يحلف إنه صادق القول.

ومن الصنف الثانى الذى لديه معلومات غزيرة صحيحة ولكن لا يحسن التعبير عنها، أسد بن موسى المروانى المتوفى سنة ٢١٢هـ والذى قال عنه النسائى «ثقة لو لم يصنف كان خيراً له».

وقد أخذ خليل بن أيبك الصفدى على معاصره شيخ الربوة محمد بن على أبى طالب تهوره فى العلم وجرأته فى الإقدام على التأليف دون تمكن ونص كلامه عنه: «من أذكياء العالم له قدرة على الدخول فى كل علم وجرأة على التصنيف فى كل فن، رأيت له عدة مصنفات حتى فى الأطعمة وفى أصول الدين على غير طريقة اعتزال ولا أشاعرة ولا حشوية لأنه لم يكن له علم وانما كان ذكيا فيوما أجده وهو يرى رأى الحكماء، ويوما أراه يرى رأى الأشاعرة، ويوما أراه يرى رأى الإعتزال ويوما أراه يرى رأى الحشوية. وكان يتكلم فى الأوفاق، ويتكلم عن أسرار الحروف، ويعرف الرمل جيدا، وله فى كل شئ يتكلم فيه تصنيف، وكان يتكلم فى علم الكيمياء ويدعى فيها أشياء والظاهر أنه كان يعرف ما يخدع به العقول ويلعب بألباب الأغمار».

* * *

وكان المؤلف المسلم يحب مراجعة وتنقيح ما يكتب إما بعد كتابته مباشرة أو بعد طرحه فى السوق وتداول الناس له وابداء رأيهم فيه، بل وأكثر من هذا كان بعض المؤلفين يطلب من غيره النظر فيما يكتب ليقول له رأيه وخاصة فى حالة المؤلفين المبتدئين ممن لا خبرة طويلة لهم والذين يتلمسون لهم طريقاً إلى الشهرة والمعرفة. وقد كتب المؤلفون العرب فى هذا الصدد قطعاً من النصائح الذهبية بعد خبرة طويلة فى التأليف فيقول ابن جماعة «ولا تخرج تصنيفك إلا بعد تهذيبه وتحريره والنظر فيه» وقد نصح النووى نفسه قبل أن ينصح المؤلفين فكان يراجع أعماله مراجعة دقيقة قبل طرحها على الناس، كما أن السجستانى مؤلف كتاب غريب القرآن ظل يكتب فيه لمدة خمس عشرة سنة وكان يراجعه معه أستاذه ابن الأنبارى.

كما أن الجاحظ وهو من هو فى التأليف والفكر يطالب دائما بمراجعة ما كتب المؤلف وتنقيحه بصفة مستمرة ويعقد المقارنة بين الكتاب والولد، فالكتاب كالولد جميل كأجمل ما يكون فى عين أبيه وإن كان قبيحا فى عيون الآخرين لأن الوالد يرى فقط محاسن إبنه ولا يرى مقابحه. ويقول الجاحظ فى هذا الصدد أن صلة الكاتب بما يكتب أقرب رحماً من صلة الوالد بولده وربما أضره ما يكتب ولم يضره أحد من أولاده. والجاحظ هنا ينطلق من تجارب عملية فإنه نتيجة السرعة وعدم المراجعة وقع فى بعض الأخطاء العلمية كما حدث له فى مواضع متفرقة من كتاب البيان والتبيين.

وهذا هو ياقوت الحموى يأخذ مثل هذه المآخذ على كتاب الأغانى للأصفهانى فيذكر: «وقد تأملت هذا الكتاب وعنيت به وطالعته مراراً وكتبت منه نسخة بخطى فى عشر مجلدات ونقلت منه إلى كتابى الموسوم بأخبار الشعراء فأكثرت وجمعت تراجمه فوجدته يعد بشئ ولا يفى به فى غير موضع منه لقوله فى أخبار أبى العتاهية [وقد طالت أخباره هاهنا وسنذكر خبره مع عتب فى موضع آخر] ولم يفعل. وقال فى موضع آخر [أخبار أبى نواس مع جنان إذا كانت سائر أخباره قد تقدمت] ولم يتقدم شئ. . . وما أظن إلا أن الكتاب قد سقط منه شئ أو أن يكون النسيان غلب عليه والله أعلم».

وابن النديم فى الفهرست ترك فراغات كثيرة وعد بأن يملأها بالمعلومات الناقصة فيما بعد ولكنه لم يفعل ونشر الكتاب على الناس، وهو يطبع الآن بهذه الفراغات التى لم يراجعها ولم يلغها أو يسددها. وقد بلغت تلك الفراغات حسب دراستى لها تفصيلا ٢٦١ فراغاً منها ما يتعلق بنماذج لم يحصل عليها فى حينها فترك لها مكانا لاستيفائها فيما بعد، ومن الفراغات ما يتعلق بتواريخ الميلاد وتواريخ الوفاة، ومنها ما يتعلق بأسماء الكتب أو أسماء الأشخاص أو أسماء المدن أو البيانات العادية.

وابن المدبر ينصح المؤلفين أيضا فى نفس هذا الاتجاه فيقول للواحد منهم «إذا منيت بحب الكتابة وصناعتها وتأليفها وجاش صدرك أو نفسك الى تأليف الكلام المنشور فلا تدعوك الثقة بنفسك والعجب بتأليفك أن تهجم به على أهل الصناعة فإنك تنظر إلى تأليفك بعين الوالد لولده والعاشق إلى عشيقه ولكن إعرضه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجاً بغيره فإن أصغوا إليه وأدنوا له وشخصوا بالأبصار واستعادوه وطلبوه منك فاكشف عن تلك الرسالة أو الخطبة واشهر اسمك وانسبه إلى نفسك وإن رأيت عنه العيون منصرفة والقلوب عنه واهيَة فاستدل به على تخلفك على الصناعة وتقاصرك عنها واسترب رأيك عند رأى غيرك من أهل الأدب والبلاغة.

والنصيحة بمراجعة العمل قبل طرحه على الناس وضع طبيعى لأنها سعى نحو الكمال ذلك أن المؤلف قد تعرض له الفكرة فيسجلها بسرعة حتى لا ينساها أو تضيع منه تداعياتها وقد صوروا إلحاح الفكرة على المؤلف بضرب السياط ويقول الجاحظ فى هذا المعنى: «وليعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعترى المؤدى عند ضربه وعقابه فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة لأنه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطبع فأراه السكون فى الإقلال، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة فزاد غضبه فأراه الغضب أن الرأى فى الإكثار، وكذلك صاحب القلم فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو مقدار سطرين فيكتب عشرة والحفظ مع الإقلال أمكن وهو مع الإكثار أبعد».

وكان بعض الكتّاب يعيد النظر فى كتابه ويصدر منه إصدارات أو نسخات أو ما كانوا يطلقون عليه فى ذلك الزمان «**عرضات**» وهى بمثابة الطبعات فى زماننا هذا وقد كان ذلك أمراً طبيعياً لمحاولة المؤلف الزيادة أو التنقيح أو التهذيب أو الحذف من الإصدارة الأولى للعمل. وهناك المئات من الكتب الإسلامية التى خضعت لعمليات التنقيح بعد النشر ومن ثم إصدار عرضات أو إصدارات مختلفة منها أتيت على جانب منها فى دراستى للفهرست لابن النديم.

يقول ابن النديم عن كتاب البيان والتبيين للجاحظ «هذا الكتاب نسختان أولى وثانية والثانية أصح وأجود ويقول عن كتاب الخراج للكوذاتى أنه نسختين أولاهما عملها فى سنة ست وعشرين والثانية سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أى بين الإصدارتين عشر سنوات. كما يقول عن كتاب النوادر لأبى عمرو الشيبانى أنه ثلاث نسخ كبيرة ووسطى وصغيرة».

ولعل أحسن مثال على ما ذهبنا إليه كتاب الجمهرة لابن دريد «مختلف النسخ، كثير الزيادة والنقصان لأنه أملاه بفارس وأملاه ببغداد من حفظه فلما اختلف الإملاء زاد ونقص ولما أملاه على غلامه تعلم من أول الكتاب. والبقية التى عليها المعول هى النسخة الأخيرة وآخر ما صح من النسخ نسخة أبى الفتح عبيد الله بن أحمد النحوى لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه».

والنص الطويل الآتى الذى أورده ابن النديم تحت كتاب **الياقوت فى اللغة** لأبى عمر الزاهد يشرح مفهوم العرضة وكيف تتم الزيادة والحذف والتنقيح بين النسخات المختلفة: ـ

«وكان أبو عمر محمد بن عبد الواحد صاحب أبى العبّاس ثعلب ابتدأ بإملاء هذا الكتاب كتاب الياقوت يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة ست وعشرين وثلاثمائة فى جامع المدينة مدينة أبى جعفر إرتجالاً من غير كتاب ولا دستور فمضى فى الإملاء مجلساً مجلساً إلى أن انتهى إلى آخره وكتبت ما أملاه مجلساً مجلساً.

«ثم رأى الزيادة فيه فزاد فيه أضعاف ما أملى وارتجل يواقيت أخر واختص بهذه الزيادة أبو محمد الصفار لملازمته وتكرير قراءته لهذا الكتاب على أبى عمر فأخذت الزيادات منه ثم جمع الناس على قراءة أبى إسحق الطبرى له فسمى هذه القراءة الفذلكة فقرأ عليه وسمعه الناس.

«ثم زاد فيه بعد ذلك فجمعت أنا فى كتابى الزيادات كلها وبدأ بقراءة الكتاب عليه يوم الثلاثاء لثلاث ليال بقين من ذى القعدة سنة تسع وعشرين

وثلاثمائة إلى أن فرغت منه وحصرت النسخ كلها عند قراءتى: نسخة أبى إسحق الطبرى ونسخة أبى محمد بن سعد القطربلى ونسخة أبى محمد الحجاجى.

«وزادنى فى قراءتى عليه أشياء فتوافقنا فى الكتاب كله من أوله إلى آخره ثم ارتجل بعد ذلك يواقيت أخر وزيادات فى أضعاف الكتاب واختص بهذه الزيادة أبو محمد وهب لملازمته ثم جمع الناس ووعدهم بعرض أبى إسحق الطبرى عليه هذا الكتاب، وتكون آخر عرضة يتقرر عليها الكتاب فلا يكون بعدها زيادة وسمى هذه العرضة المحرابية. واجتمع الناس يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى من سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة فى منزله بحضرة سكة عنبر فأملى على الناس ما نسخته.

«قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد: هذه العرضة هى التى تفرد بها أبو إسحق الطبرى وآخر عرضة اسمعها بعده فمن روى عنى فى هذه النسخة بعد هذه العرضة حرفاً واحداً فليس هو من قولى وهو كذاب على وهى من الساعة إلى الساعة من قراءة أبى اسحق على سائر الناس وأنا أسمعها حرفاً حرفاً.

«قال أبو الفتح: وبدأ بهذه العرضة يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة».

ورغم النصائح التى كانت تسدى للمؤلفين بالبعد عن الحشو والإطناب والإستطراد إلا أن كثيرا من المؤلفين ربما بسبب تزاحم الأفكار فى رؤوسهم كانوا يلجأون إلى الاستطراد وينسون الهدف الأساسى من كتابهم فتضيع الفكرة الأساسية بين زحام الأفكار الجانبية الثانوية. وقد حذر الجاحظ من الحشو والإطناب بدون مبرر على النحو الذى عرضت له من قبل. ويبدو أن الانحطاط العام الذى حدث فى الإنتاج الفكرى فى العصر المملوكى قد أفرز هذه الظاهرة وبشدة فكثر الإطناب والحشو والإستطراد والتأليف الموسوعى على النحو الذى ذكره ابن حجر العسقلانى كثيرا، ومن الأمثلة التى ساقها عن أحد معاصريه:

محمد بن قاسم النويرى الذى ألف كتابا عن موضع حادث الإفرنج فى الإسكندرية سنة ٦٧٠هـ واستطرد فيه من شئ إلى شئ وبدأ بفتح مدينة الإسكندرية على يد عمرو بن العاص واستمر حتى الحادث «فكان خبر الواقعة فى جانب ما ذكر كالشامة».

وكانت الكتب المليئة بالحشو هذه سببا فى ملل الناس فيتركونها. وقد بلغت بعض الكتب أكثر من أربعمائة مجلد كما هو الحال فى كتاب الفنون لابن عقيل. وكان ابن القيم طويل النفس ويبالغ فى الإيضاح فيسهب جدا.

وكراهية الحشو والتطويل تجئ من أنهما مدعاة للخطأ والتسطيح والبعد عن العمق على نحو ما لاحظه الذهبى على ابن الجوزى المكثر فى التأليف، المطنب فيها والمسهب حيث كان ابن الجوزى لهذا السبب «كثير الغلط فيما يصنف فإنه كان يفرغ من الكتاب ولا يعتبره وله وهم كثير فى تواليفه يدخل عليه الداخل من العجلة والتحويل إلى مصنف آخر ومن أن جل علمه من كتب صحف ما مارس فيها أرباب العلم كما ينبغى».

على أن مسألة الخطأ فى التأليف مسألة قائمة فى كل العصور وتأتى غالبا من عدم الإحاطة. وكثير من المؤلفين يعترفون بهذا إذ يبدلون أقصى جهدهم ومع هذا لا يأتى الكتاب خاليا من الأخطاء وهو أمر ملازم لطبيعة النفس البشرية البعيدة عن الكمال فالإمام الشافعى يقول «الفت هذه الكتب ولم آل فيها ولابد أن يوجد فيها الخطأ لأن الله تعالى يقول **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾** فما وجدتم فى كتابى هذا مما يخالف الكتاب والسنة فقد رجعت عنه».

***

وقضية ندم المؤلفين على تأليف كتاب معين وطرحه فى السوق والرغبة الشديدة فى سحب الكتاب من التداول قضية قديمة ظهرت أيضا بين المؤلفين المسلمين، ذلك أن المؤلف ربما يؤلف العمل فى ظروف نفسية أو إجتماعية أو

عقلية غير مواتية وبعد تداول الكتاب بين الأقران والقراء يكتشف المؤلف أن بالكتاب خللاً يسئ إلى تاريخه العلمى فيود لو سحبه من أيدى الناس. كان ذلك أمنية لدى بعض المؤلفين قديما من الصعب تحقيقها. ولكن مؤلف اليوم محظوظ إذ يكفل له القانون الآن هذا الحق ويؤمنه: حق سحب الكتاب من التداول. والجاحظ نفسه ندم على بعض كتبه وود لو سحبها كما وصلنا خبر عبد الحق بن هارون السهمى المغربى المتوفى سنة ٤٦٦هـ صاحب كتاب (النكت والفروق على كتاب المدونة)، والذى كان يعتبر بمثابة كتاب دراسى يرجع إليه طلاب العلم والشباب، حيث يقال عن هذا الكتاب أنه «ندم بعد ذلك على تأليفه ورجع عن كثير من اختياراته وتعليلاته فيه واستدرك كثيراً من كلامه فيه وقال **لو قدرت على جمعه وإخفائه لفعلت**».

ومن الطريف على الجانب الآخر من القضية أن بعض المؤلفين كان يصب جام غضبه ولعناته على من يحرف أو يغير فى كتابه أو ينهبه أو ينسبه لنفسه أو لغيره أو يطمس معالمه سواء كان ذلك من النساخين أو غيره من المؤلفين، حدث هذا فى معجم البلدان لياقوت الرومى. كما جاء أيضا فى حرد المتن بكتاب مروج الذهب للمسعودى حيث يقول هناك ما نصه:

«فمن حرف شيئاً من مبناه أو طمس واضحة من معانيه أو بدله أو انتحله أو اختصره أو نسبه إلى غيرنا أو أضافه إلى سوانا أو أسقط منه ذكرنا فعليه من غضب الله وسرعة نقمته وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره ويحار له فكره وجعله مثلة للعاملين».

وقد صادفنا مثل هذه اللعنات فى كتب العصور القديمة وخاصة فى الكتاب اليهودى على نحو ما فصلناه فى كتابنا (الكتب والمكتب فى العصور القديمة).

أوقات التأليف وبيئته

أمدتنا المصادر الإسلامية بنصوص طريفة حول سلوك المؤلفين المسلمين أثناء عملية التأليف والأوقات المفضلة عندهم لتسجيل المعلومات وكيفية تسجيلها ولحظات الإشعاع والتنوير ومدى إعتمادهم على المراجع أو على الذاكرة.

من حيث الأوقات المفضلة والمستحبة نجد ابن جماعة يقسم أوقات الحفظ والكتابة فيقول أن أجود الأوقات للحفظ الأسحار وللبحث الأبكار وللكتابة وسط النهار وللمطالعة والمذاكرة الليل».

وإذا كان ابن جماعة قد جعل وسط النهار للكتابة فإن كثيراً من المؤلفين كانو يمارسون نشاطهم الفكرى أساساً فى الليل فهذا هو ابن دقيق العيد لا ينام الليل إلا قليلاً يقطعه بمطالعة وذكر وتهجد وكانت أوقاته كلها معمورة. وكان الفقيه موسى بن أحمد الوصابى المتوفى ٦٢١هـ، أكثر تأليفا بالليل لكثرة اشتغاله بالتدريس نهاراً. وعندما ترجم ابن حجرُ العسقلانى للأذرعى فى الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة وهو المتوفى سنة ٧٨٣هـ ذكر أنه كان يكتب فى الليل على شمعتين أو أكثر وأن بعض مشايخه كان يكتب فى الليل كراساً تصنيفاً وفى النهار كراساً تصنيفاً لا يقطع ذلك. وكان ابن سيد الناس إذا فتح له باب فى العلم انقضت تلك الليلة فى تلك المادة حتى فى شعر المتأخرين والمعاصرين. وكان أبو عبيدة يقسم الليل أثلاثا فيصلى ثلثه وينام ثلثه ويضع الكتب ثلثه الآخر. كما كان الإمام الشافعى يجزئ الليل ثلاث أجزاء: الثلث الأول للكتب والثلث الثانى للصلاة والثلث الثالث للنوم.

بعض المؤلفين لا يحدد وقتاً بل يقتنص لحظات الإشراق فى نفسه والتنوير فى عقله سواء بالليل أو النهار وعلى سبيل المثال ذكر عن الإمام البخارى أنه كان بمنزله ذات ليلة وكان معه زميل له لاحظ أنه قام وأسرج السراج ليتذكر أشياء ويعلقها فى ليلة واحدة ثمانى عشرة مرة. وقال محمد بن حاتم الوراق كنت أرى البخارى يقوم فى ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة. وفى كل مرة يأخذ القداحة فيورى ناراً ويسرج ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها ثم يضع رأسه. ويقول ابن سينا فى هذا الاتجاه أيضا: كنت أرجع إلى دارى بالليل وأضع السراج بين يدى واشتغل بالقراءة والكتابة ومهما غلبنى النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب وريثما تعود إلى قوتى ثم أرجع إلى القراءة».

وكان بعض العلماء يتناولون بعض المنبهات أو المسليات وربما المكيفات مثل أبو مسلم القشيرى صاحب صحيح مسلم. وكان قد نبه على حديث لم يصل إليه علمه فانصرف إلى داره وأوقد السراج وقال لمن فى الدار لا يدخلن أحدكم البيت، فقيل له: اهديت لنا سلة فيها تمر فقال قدموها إلى فقدموها إليه فكان يبحث عن الحديث ويأخذ تمرة بعد تمرة يمضغها فأصبح وقد فنى التمر ووجد الحديث.

وكان طاش كوبرى زادة «صاحب مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم» يتعاطى نوعاً من المكيفات أثناء عمليات التأليف وقد تسبب إدمانه لها فى ذهاب بصره فى أواخر حياته. كما كان محمد بن عمران المرزبانى المتوفى سنة ٣٨٤هـ يضع المحبرة وقصعة نبيذ أمامه فلا يزال يكتب ويشرب.

ويقال أن الشاعر بن محمد النامى المتوفى ٣٩٩هـ إذا أراد أن ينظم الشعر خلا خلوة طويلة أياما وليالى فإذا صاح فى داره جارية أو غلام كاد أن يقتله وانقطع تفكيره وخاطر الشعر عنه، وإذا أراد أن يعمل قصيدة جمع كل ما للعرب من الشعر على وزن تلك القصيدة وجعله حوله ونظر فيه حتى يجتلى معانيه وكانت القصيدة تتم له فى سبعة أشهر وربما أكثر من ذلك.

ويطالب ابن المدبر المؤلف ألا يضع نفسه فى قالب لا يخرج منه عند التأليف بل يطلب إليه أن يقتنص اللحظة المناسبة فهو يقول فى عبارة بليغة: «وابتغ لكتابك فراغ قلبك وساعة نشاطك فتجد ما يمتنع عليك بالكد والتكلف لأن سماحة النفس بمكنونها، وجود الأذهان بمخزونها انما هو مع الهوة المفرطة فى الشر والمحبة الغالبة فيه أو الغضب الباعث منه ذلك».

ومما يذكر عن الفارابى أنه يهوى تأليف الكتب بين الأنهار والأشجار فقد قال عنه خليل بن أيبك الصفدى فى الوافى بالوفيات أنه لما قدم دمشق كان يلازم غياض السفرجل وربما صنف هناك وقد ينام فتحمل الريح تلك الأوراق

وتنقلها من مكان إلى مكان ويقال أن السبب فى وجود نقص فى بعض مصنفاته أنه كان لا يصنف إلا فى الرقاع لا فى الكراريس ومن هنا كانت الريح تطير أوراقه. وربما كان من هنا تحذير ابن جماعة للمؤلف وطالب العلم بقوله «ليس محموداً الحفظ بحضرة النبات والخضرة والأنهار وقوارع الطريق وضجيج الأصوات لأنها تمنع من خلو القلب غالبا».

ويحكى عن البخارى أنه كان يصلى صلاة استخارة كلما جلس لتسجيل الأحاديث، وأيضا كلما انتهى من حديث توضأ وصلى ركعتين. وذكر نفس الشئ عن المزنى كان إذا فرغ من مسألة فى كتابه المختصر صلى ركعتين.

وكان بعض المؤلفين يفرح فرحاً شديداً كالأطفال أو أشد عندما تعن له فكرة أو يقع على موضوع مبتكر فهذا هو أبو بكر محمد النسفى المتوفى سنة ٤٢٤هـ، يحكى أنه بات ليلة مهموما من شدة التفكير وضيق الحال فوقع فى خاطره فرع من فروع الفقه فراق له وقام يرقص فى داره ويقول أين الملوك وأبناء الملوك فسألته زوجته عما به فأخبرها بصيده الثمين ففرحت له.

وكان المؤلفون المسلمون فيما يتعلق بالتأليف ينقسمون إلى فئتين: فئة تعتمد على ذاكرتها فهى تقرأ المصادر المختلفة وتستوعبها وتهضمها ثم بعد ذلك تفرزها بأسلوبها وطريقة عرضها الخاصة بحيث تضفى عليها طابعا شخصياً وتعلق وتحلل وتنقد ومن ثم يتسم عملها الجديد بالجدة والإبتكار والأصالة. وفئة تعتمد على النقل من المصادر اعتماداً مطلقاً أثناء عملية التأليف، وإذا أبعدت عنها المصادر توقفت عن التأليف لأن المعلومات لا تعلق بذهنها أو تستوعب فيها.

ورغم أن الفئة الثانية كانت هى الغالبة على التأليف الإسلامى، إلا أن التقدير والإحترام كان دائماً للفئة الأولى التى تهضم وتفرز ما تهضمه عسلاً مصفى. وتشير المصادر إلى القاضى أبى بكر الباقلانى كنموذج رائع على الفئة الأولى والذى قال عنه أبو بكر الخوارزمى عبارته الرائعة بأن كل مصنف فى

بغداد إنما ينقل من كتب الناس إلى تصانيفه إلا الباقلانى فإن صدره يحوى علمه وعلم الناس؛ وقال عنه على بن محمد الجزرى، يهم القاضى أبو بكر الباقلانى بأن يختصر ما يصنعه فلا يقدر على ذلك لسعة علمه وكثرة حفظه. وكان له أسلوب محدد فى تسجيل معلوماته فقد ذكر عنه أن «ورده فى كل ليلة كان عشرين ترويحة ما يتركها لا فى حضر ولا فى سفر وكان إذا صلى العشاء وقضى ورده وضع الدواة بين يديه وكتب خمساً وثلاثين ورقة تصنيفا من حفظه وكان يذكر أن كتابته بالمداد أسهل من كتابته بالحبر فإذا صلى الفجر دفع إلى بعض أصحابه ما صنفه فى ليلة وأمره بقراءته عليه وأملى عليه الزيادات فيه».

وعلى درب الباقلانى نجد العلامة على بن عبد الكافى السبكى المتوفى سنة ٨٧٦ هـ يكتب مؤلفاته دون الرجوع إلى كتب أخرى بل إنه يسجل النصوص الطويلة من حفظه. ويقول السبكى الإبن مؤلف طبقات الشافعية شارحاً طريقة أبيه فى التأليف أنه كان يكتب من حفظه وكان يفكر كثيرا ثم يكتب وربما كتب المتن من شرح المنهاج ثم نظر الكتب ثم وضعها من يده وانصرف إلى مكان آخر وجلس ففكر ساعة ثم كتب. وكثير من مصنفاته اللطاف كتبها فى درج ورق المراسلات يأخذ أوصالها ويثنيها طولاً ويجعل منها كراساً ويكتب فيه لأنه ربما لم يكن عنده ورق كراريس فيكتب فيها من رأس القلم وما ذلك إلا فى مكان ليس فيه لا كتب ولا ورق النسخ. ويحكى ابن رافع عن السبكى أيضا أنه سبقهم إلى البستان ولما جاءوا بعده وجدوه نائماً ولما نهض من نومه ودخل الخلا ظهر لهم كراس كان تحت رأسه فإذا هو جزء من شرح المنهاج كتبه عن ظهر قلب فى نحو عشر صفحات وعندما تصفحوها عجبوا لها لكتابته إياها من حفظه من كلام الرافعى والروضة وأكثر من هذا مما يحفظه عن سليم والمحرر وابن الصباغ.

كان إبن سينا أيضا من المؤلفين الذى يعتمدون على الفهم والاستيعاب ثم التأليف يقول عنه تلميذه الجوزجانى: طلبت منه اتمام كتاب الشفاء فاستحضر أبا غالب وطلب الكاغد والمحبرة فأحضرهما وكتب الشيخ فى قريب من عشرين

جزءاً على الثمن بخطه رؤوس المسائل وبقى فيه يومين حتى كتب رؤوس المسائل كلها بلا كتاب يحضره ولا أصل يرجع إليه بل من حفظه وعن ظهر قلبه ثم ترك الشيخ تلك الأجزاء بين يديه وأخذ الكاغد فكان ينظر فى مسألة ويكتب شرحها فكان يكتب فى كل يوم خمسين ورقة حتى أتى على جميع الطبيعيات والإلهيات.

هذه مجرد نماذج مشرقة من مؤلفين اعتمدوا على الفهم الصحيح والإستيعاب ثم التأليف المعتمد على النقد والتحليل والتأويل وليس على النقل والوصف فقط. ولكن على الجانب الآخر كان هناك من يعتمد على النقل دون أى جهد شخصى. وعلى سبيل المثال فقط يقول السخاوى فى معرض ترجمته للعينى عند حديثه عن كتابه شرح البخارى: إعتمد فيه على شرح ابن حجر العسقلانى بحيث ينقل منه الورقة بتمامها وربما اعترض لكن قد تعقبه شيخنا العسقلانى. وعن ابن سبط العجمى «مؤلفاته ممتعة ومحررة دالة على تتبع زائد واتقان وهو قليل المباحث فيها كثير النقل». كذلك كان المؤلف على بن حسين بن زكنون المتوفى سنة ٨٣٧ هـ فى كتابه الدرارى حيث يصفه السخاوى أيضا فى الضوء اللامع بقوله: وكتابه هذا فى مائة وعشرين مجلداً وطريقته فيه أنه إذا جاء لحديث الإفك - مثلا - يأخذ نسخة من شرحه للقاضى عياض فيضعها بتمامها وإذا مرت به مسألة فيها تصنيف مفرد لابن القيم أو شيخه ابن تيمية أو غيرهما وضعه بتمامه ويستوفى ذلك الباب من (المغنى) لابن قدامة أو نحوه».

* * *

وسواء كان المؤلفون من الفئة الأولى أو من الفئة الثانية فقد كان هناك حرص عام على الأمانة العلمية بنسبة المعلومات والأفكار إلى أصحابها، سواء على وجه الإجمال أو إسناد الإقتباسات على وجه الخصوص ولم يكن هناك شذوذ عن تلك القاعدة إلا فى حالة الانتحال وسوف نعود إليه تفصيلاً فيما بعد. ولم يكن جمع المصادر والرجوع إليها لمجرد إثبات حقوق الآخرين والأمانة العلمية وحسب وإنما كان أيضا لإضفاء الصبغة العلمية على العمل الذى يقدمونه؛ بذكر المصادر التى استقوا منها المادة العلمية وأيضا لمن أراد

الإستزادة فى الموضوع والتبحر فيه. وغالبا ما يأتى ثبت المصادر والإشارة إليها فى مقدمة الكتاب. كما تأتى الإقتباسات والإشارة إلى مصادرها فى علامات التنصيص فإنه كان يبدأ الاقتباس بعبارة تشير إلى المؤلف وربما إلى عنوان كتابه أيضا مثل يقول فلان ثم ينقل النص وعندما ينتهى النص المقتبس ويريد المؤلف أن يخرج منه إلى كلامه هو يكتب كلمة انتهى أو اختصارها اهـ، وأحيانا اه.

وكان حرصهم على جمع المصادر قبل الكتابة أمراً مألوفاً كما ورد فى كثير من الكتب التى عالجت الموضوع وللجاحظ فى هذا الصدد نص جميل ورد فى كتاب الحيوان حيث يقول:

«ولا يعلم حتى يكثر سماعه ولابد أن تكون كتبه أكثر من سماعه. ولا يعلم ولا يجمع العلم ولا يختلف إليه حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذّ عنده من الإنفاق من مال عدوه. ومن لم تكن نفقته التى تخرج فى الكتب عنده أكثر من إنفاق عشاق القيان لم يبلغ من العلم مبلغا رضيّاً وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب ايثار الأعرابى فرسه باللبن على عياله».

ورغم أن أبا البقاء العكبرى كان ضريرا، إلا أنه كان إذا أراد التصنيف أمر باحضار كل المصادر المتعلقة بموضوعه وطلب أن تقرأ عليه وبعد أن يستوعبها يبدأ فى إملاء المعلومات على تلامذته وطلب إليهم إثبات المصادر التى يستقى منها معلوماته.

وكان الثقاة والراسخون فى العلم يتغامزون على من يعتمد على مصدر واحد أو عدد قليل من المصادر فهذا هو الرامهزى ينكر على بعض علماء عصره فى القرن الرابع الهجرى اعتمادهم على مصدر واحد أو قلة منها فقال «واقتصروا على ابتياع صحف درسوها واستعدوا فى الشغب عليها فإن حفظ أحدهم فى السنن شيئاً فمن صحيفة مبتاعة كفاه غيره مؤونة جمعه وشرحه وتبويبه من غير روايه ولا دراية فإن تعلق شئ منها يسير خلط الغث بالسمين والسليم بالجريم، ثم فخم ولفق من المسائل ما شاء وأنها والسنن المأثورة ضدان فإن قلت عليه

إسناد حديث تحير فيه المفتون وصار كالحمار فى الطاحون وإن شاهد المذاكرة نسمع ما ليس فى وسعه الجريان، فلجأ إلى الإزراء بفرسانه واعتصم بالطعن عن الركض فى ميدانه».

وكان هناك على الجانب الآخر من لا يذكر مصادره وربما يسوؤه أن يطلب منه أحد ذكر تلك المصادر. ومن الطرائف التى ذكرها جلال الدين السيوطى فى الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة والمتعلقة بهذا الموقف ما ورد تحت العلامة عمر بن أبى الحرم الدمشقى المتوفى سنة ٧٣٨هـ. إذ كان يتباحث مع بعض طلابه فى إحدى النقاط وطلب واحد منهم إليه أن يذكر له المصادر التى نقل منها واعتمد عليها فتضايق الشيخ وخلع نعله وكشف رأس الطالب وصار يضربه وهو يقول هذا هو المصدر الذى طلبته.

* * *

والرواية فى الكتاب الإسلامى هى أيضا كتب مؤلفة بمنهج علمى ومنطق وطريقة عرض ولكنها كتاب غير مدون ينتقل من جيل إلى جيل ومن مكان إلى مكان شفاهة. وكما أشرت من قبل وجدت قبل الإسلام وفى صدر الإسلام قبل أن يظهر التدوين ويعم، وانتشرت أيضا مع التدوين فترة طويلة من الزمن إلى أن اختفت وعم الكتاب المدون وساد. وقد حرص الرواة على نقل هذه الكتب بنصها فى الزمان والمكان ولكن إذا كانت الأحاديث النبوية نفسها قد نقلت أحيانا بغير نصها الذى قال به الرسول الكريم ويذكر الحديث بمعناه وليس بلفظه، وإن كانت هناك أحاديث قد دست على الرسول ولم يقل بها سواء كان ذلك عن حسن نية أو سوء قصد، إذا كان ذلك كذلك بالنسبة لأحاديث الرسول فإن الوضع بالنسبة للأعمال الأخرى أكثر حرجاً. ولذلك فإن كتب المرويات كانت أكثر عرضة للتغيير والتبديل فى نصها وأيضا فى معلوماتها رغم عمليات الإسناد والعنعنة. ومن الطبيعى أن يتفاوت حجم التغيير والتبديل ودس المعلومات أو بترها حسب سلسلة الرواه أنفسهم. ولهذا

فإن الأعمال التى وصلتنا من العصر الجاهلى كالشعر والأمثال والأخبار والخطب، كذلك الأعمال التى وصلتنا شفاهة من القرن الأول الهجرى وربما أيضا وإلى حد كبير الأعمال التى وصلتنا من القرن الثانى الهجرى، تلك المرويات يجب أن نتوقف أمامها طويلاً وندقق فى تفاصيلها؛ ولا يجب أن نأخذها قضية مسلماً بها على أنها النص الذى قال به صاحبه عندما قاله.

ولعله من نافلة القول أن نذكر بأن الكتاب الواحد ربما يرويه أكثر من شخص واحد فى نفس الزمان ونفس المكان، وربما تكون هناك اختلافات بينهم فى الرواية سواء بالنص أو المعنى. ومثال ذلك «كتاب نوادر الأعرابى رواها عنه إثنا عشر إنساناً. وربما يتخصص راوٍ معين فى رواية أعمال مؤلف واحد لا يتخطاه إلى غيره فمما يذكر ابن النديم عن أبى مالك عمر بن كركرة أنه كان راوية أبى البيداء الرياحى. ومن الممكن أن يتخصص راوٍ فى موضوع واحد أو شكل واحد مثل عباد بن كسيب الذى «كان راوية للشعر عالما بأخبار العرب».

وإذا كان الراوية كذابا فهو مأساة فى توصيل المرويات كما كان الحال بالنسبة لنزرح العروضى الذى قال عنه ابن النديم «كان نزرح حافظاً راوية وكان كذاباً كثيرا ما يحدِّث بالشئ عن رجل وعن غيره. وكان يونس النحوى يقول عنه: إن لم يكن نزرح أروى الناس فهو أكذب الناس».

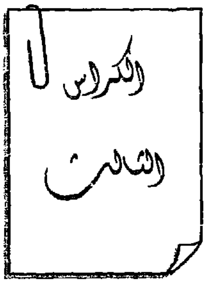
ومن الحقائق البالغة الخطورة فى عصر المرويات أنه إذا لم يهيأ للكتاب راوية ينقله في الزمان والمكان مات الكتاب كما حدث لكتاب العين الذى وضعه الخليل بن أحمد الفراهيدى حيث يقول ابن النديم عنه «ولم يرو هذا الكتاب عن الخليل أحد؛ ولا روى فى شئ من الأخبار أنه عمل هذا البتة» ولذلك لم يصل إلينا كتاب الخليل ولم يلحق بعصر التدوين فاندثر. ذلك أن الراوية فى عصر المرويات هو الناسخ فى عصر الخطاطة والمطابع فى الطباعة، هو أداة النشر والتوصيل فإن انقطعت أداة النشر والتوصيل مات الكتاب فى حلق مؤلفه وفى صدره. وليست قصة كتاب العين سوى أنموذج واحد لمئات من الكتب ماتت ولم تصل إلينا لأنه لم يقيض لها راوية يرويها.

كذلك لابد من التأكيد على أن الراوية ليس من الضرورى أن يكون مؤلفا ولكنه يقينا كان لابد وأن يكون دارساً محيطا بأبعاد ما يروى ويتعمق فيه وإلا كان كالببغاء يردد فقط ما يروى دون أن يعرف محتواه. يقول ابن النديم عن أبى سليمان الجوزجانى أنه أخذ عن محمد بن الحسن وكان ورعا دينا فقها محدثا وينزل فى درب أسد وتقرأ عليه كتب محمد بن الحسن؛ . . . ولا مصنف له وإنما روى كتب محمد بن الحسن.

ولخطورة الرواية وعلو شأنها فى عصر المرويات فإنها تعتبر رافداً هاماً من روافد الكتاب الإسلامى وهى كالتراث بالنسبة لعصر التدوين.

أما الرافد الثالث للكتاب الإسلامى إلى جانب التأليف والرواية فقد كانت الترجمة أو ما اصطلح المسلمون الأوائل على تسميته بالنقل وهى بطبيعة الحال نقل الكتب الأجنبية إلى اللغة العربية إما بنصها فقط دون أى تدخل من المترجم أو مع شرح وتعليق على النص الأصلى. وباعتبار الترجمة رافداً هاماً من روافد الكتاب الإسلامى فلابد من الوقوف أمامها طويلاً وملياً.

❁ ❁ ❁



الترجمة والنقل إلى ومن العربية

سيادة اللغة من سيادة الدولة وخاصة السيادة السياسية، تلك حقيقة نصادفها عندما ساد الإغريق بعد الاسكندر الأكبر، سادت اللغة اليونانية، وعندما ساد الفرس، سادت اللغة الفارسية وعندما ساد الرومان سادت اللغة اللاتينية، وعندما ساد العرب سادت اللغة العربية، وفى عصرنا عندما ساد الإنجليز ومن بعدهم الأمريكيون سادت اللغة الإنجليزية وانتشرت.

وعندما انتشر الإسلام شرقاً وغرباً إنتشرت معه اللغة العربية وسادت بسيادته، واتسعت هذه اللغة لكثير من المفردات من اللغات الأخرى التى كانت منتشرة قبلها وهى اللغة اليونانية، اللغة الفارسية، اللغة السريانية، اللغة اللاتينية (الرومية) والهندية إلى حد ما. ولأنها كانت لغة القرآن عمد الكثيرون ممن دخلوا فى الإسلام إلى تعلمها ولأنها كانت لغة التأليف برع كثيرون منهم فى التأليف بها ورغب فى التأليف بها لأنها الأوسع انتشاراً؛ ومن ثم فمن يؤلف بها سوف يقرأ أكثر وتتداول كتبه على نطاق أوسع، وهو أمر يحدث فى أيامنا الآن عندما يؤلف مؤلف من دولة نامية باللغة الإنجليزية أو الفرنسية حتى يجد رواجا أوسع. وللغنى الفكرى فى الدولة الإسلامية كان لابد من الإنتفاع بفكر الدول الأخرى ومن هنا كانت الترجمة من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، ونادراً ما كان يحدث العكس أى الترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى. ولعله من الجدير بالذكر أنه كان هناك اتجاه إلى ترجمة القرآن الكريم فى ذلك الوقت إلى اللغات الأعجمية ولكن العرب لم يقرُّوا ذلك كما لم يقرّوا أداء الفرائض بغير لغة القرآن.

إنَّ من كان يعرف اللغة العربية من الأعاجم كانت لديه الفرصة لأن يسمع ويتباحث مع عدد أكبر من العلماء وكانت لديه الفرصة لأن يقرأ عدداً أكبر من الكتب وأكثر تنوعاً، كما يحدث اليوم عندما يتعلم طلاب الدول النامية وعلماؤها لغات الدول المتقدمة.

لقد كانت الظروف كل الظروف مهيأة فى الدولة العباسية للتأليف وبنفس القدر مهيأة لنقل علوم الأعاجم إلى اللغة العربية ولعل هذا هو ما حدا بالببليوجرافى العظيم ابن النديم أن يقول فى مقدمة الفهرست القصيرة «**هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها فى أصناف العلوم....**».

ويقول إبن النديم فى الفن الأول من المقالة السابعة كان خالد بن يزيد ابن معاوية يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلاً فى نفسه وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل بمدينة مصر [الاسكندرية] وقد تفصح بالعربية وأمر بنقل كتب الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى. وهذا أول نقل فى الإسلام من لغة إلى أخرى».

ويعود إبن النديم تحت نفس الشخص فى المقالة العاشرة ليقول «الذى عنى بإخراج كتب القدماء فى الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية. وكان خطيباً شاعراً فصيحاً ذا رأى. وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء وكان جواداً».

وفى الفن الأول من المقالة السابعة المشار إليها سابقاً أسماء النقلة من اللغات إلى اللسان العربى. وربما كان النقل لا يتم مباشرة إلى اللغة العربية فأحيانا كان يتم النقل إلى لغة وسيطة ثم منها إلى اللغة العربية. إذ كانت بعض الكتب تنقل مثلا من اليونانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية. وقد حفل فهرست ابن النديم بالكثير من ذلك.

من جهة أخرى يقول د. محمد ماهر حمادة أن عمل خالد بن يزيد ابن معاوية فى النقل تعاصر مع عمل آخر فى النقل أمر به مروان بن الحكم مؤسس الفرع المروانى من السلالة الأموية ذلك أن ابن جلجل يذكر فى كتابه **طبقات الأطباء والحكماء** عند كلامه عن (ماسرجويه) الطبيب البصرى الذى عاش فى الدولة الأموية وتوفى أيام مروان بن عبد الحكم (٦٤ - ٦٥هـ)؛ أنه ترجم كتاب أهرن بن أعين القس إلى العربية. وكان أهرن هذا من الأطباء المعدودين الذين عاشوا فى الاسكندرية فى عصر هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) فى صدر الإسلام ووضع كتابا باللغة اليونانية ثم نقله إلى السريانية إلى أن قام بنقله إلى العربية ماسرجويه المذكور. ومن ثم يكون النقل إلى العربية قد تم إما فى زمان مروان بن الحكم أو قبل ذلك بفترة وجيزة طالما أن المترجم قد توفى فى زمن مروان بن عبد الحكم. ويذكر ابن جلجل فى نفس الترجمة أن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) وجد هذا الكتاب فى خزائن الكتب الأموية وأنه استخار الله فى إخراجه إلى المسلمين وبثه فى أيديهم؛ فلما تم له ذلك أربعين صباحاً أخرجه إلى الناس وبثه فى إيديهم.

وقد استمر النقل زمن الخلفاء الأمويين وصدر الخلافة العباسية فيعدد المؤرخون من النقلة زمن هشام بن عبد الملك ومن بينهم جبلة بن سالم كاتب هشام وكان ينقل من العربى إلى الفارسى. ونقل بعضهم شيئاً من تواريخ الأمم عن الفارسية لهشام بن عبد الملك. ولم يلبث مركز الترجمة والنقل أن انتقل من دمشق إلى بغداد بعد سقوط الدولة الأموية؛ زمن المنصور والرشيد والمأمون.

ورغم تلك الحقيقة التى تقول بأن المسلمين ترجموا أول ما ترجموا إلى العربية من اليونانية إلا أن الرأى الغالب هو أن المسلمين ترجموا أولاً عن الفارسية وربما كان ذلك صحيحاً فى عصر الدولة العباسية فقد اتجهت الدولة العباسية أولاً إلى تراث الفرس فترجموا منه عيون ما وصلهم وبحكم أن دولة

بني عباس قد قامت أساساً على اكتاف الفرس. ومهما يكن من أمر فسوف أتناول هنا جذور عملية الترجمة والنقل من اليونانية والفارسية والهندية بشئ من التفصيل لنرى كيف سد هذا الرافد جانبا مهما من جوانب الكتاب الإسلامى فى تلك الفترة الخصبة من حياته.

الترجمة والنقل عن اليونانية

كان اليونان أو الإغريق يسكنون شبه الجزيرة اليونانية والجزر المحيطة بها وجزءاً من المدن على أطراف آسيا الصغرى الغربية. وكان اليونانيون فى بادئ تاريخهم عبارة عن مجموعة من الدويلات المنقسمة على نفسها أشبه ما يكون بالقبائل. وكما ذكرت فى أكثر من موضع كانت ثقافتهم وعلمهم فى البداية ثقافة شفوية وعلماً شفوياً ينتقل فى الزمان والمكان - كالعرب فى جاهليتهم - عن طريق التواتر. وكانت علومهم ومعارفهم فى البداية هى الشعر والأساطير والأخبار وظل هذا هو حالهم حتى القرن الخامس قبل الميلاد وكانت أثينا على وجه خاص هى مركز الثقافة والعلم والمعرفة. ولما احتك اليونانيون بالمصريين أخذوا منهم علوما كثيرة ومعارف جمة. وظهر بدءاً من القرن الرابع قبل الميلاد عدد من المفكرين والفلاسفة، وأبرزهم سقراط وأفلاطون وأرسطو. ومن المعروف أن اليونانيين قد أخذوا الأبجدية عن الفينيقية المأخوذة عن الأبجدية السينائية.

وعندما بدأ الإسكندر المقدونى بحكم مقدونيا أخذ يتوسع ويتوسع فأخذ يضم كافة المدن والدويلات اليونانية ويوحدها ثم مد ملكه إلى أواسط آسيا شرقاً وليبياً ومصر غرباً وفى ظل الاسكندر الأكبر وخلفائه من السلوقيين فى الشرق والبطالمة فى الغرب نمت العلوم واتسعت حيث نهل الإغريق من العلوم المصرية والعراقية والفارسية والتى ظهر على أعقابها ما عرف بالحضارة الهللينية. وكما أشرت من قبل كان للسيادة السياسية والتوسع العلمى أثر مباشر

فى سيادة اللغة اليونانية باعتبارها لغة الإمبراطورية اليونانية. وبالتالى كتب بها العلماء من جنسيات مختلفة وليس فقط من الجنس الإغريقى كما حدث على سبيل المثال فى عصرنا الحديث عندما قامت الإمبراطورية البريطانية التى لا تغرب عنها الشمس ولجأ المؤلفون والمفكرون فى الدول الواقعة تحت الإحتلال البريطانى بالكتابة والتأليف باللغة الإنجليزية وعن الهند حدّث ولا حرج فى هذا السبيل حيث، اتخذها الهنود لغة أساسية فى التعليم والتأليف ودواوين الدولة. كذلك كان الحال فى اليونانية فى ظل الإمبراطورية وإن انقسمت. وحتى بعد زوال الحكم اليونانى وتغلب الرومان عليهم ظلت اليونانية لغة للعلم فترة طويلة إلى جانب اللغة اللاتينية وإن كانت السطوة للرومان.

ولابد من التأكيد على أن اليونان - كالعرب - إستفادوا فائدة جمة من علوم الدولة التى فتحوها واستقروا فيها وأضافوا إليها وحفظوها من الإندثار وهذا هو حال الدنيا وتطور العلم فيها فانظر فى أيامنا دولة عظيمة مثل الولايات المتحدة التى ورثت علم العالم كله وهاجر إليها العلماء من كل حدب وصوب وتخيل ما كان عليه الحال فى الامبراطورية اليونانية وتمثل كيف هضمت علوم الأمم وكتبتها بلغتها ولابد من التوقف هنا أمام عبارة سارتون الشهيرة فى كتابه العظيم تاريخ العلم «من سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ فى بلاد الإغريق فإن المعجزة اليونانية سبقتها آلاف الجهود العلمية فى مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما من الأقاليم والعلم اليونانى **كان إحياءً أكثر منه اختراعاً**». ومن يريد تتبع العلوم التى نهل منها اليونانيون فليرجع إلى صوان الحكمة للبيهقى ومنتخب صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى وأخبار الحكماء للقفطى وغيرها من الأمهات. فليس مجاله هنا.

وقد نقل ابن النديم فى الفهرست عن أبى سهل بن نوبخت فى كتاب النهمطان عبارات طويلة يجب أن نتوقف أمامها قليلاً:

«... الشرق وخاصة بابل، كانت العلوم فيه مزدهرة والكتب عنها كثيرة بما

فى ذلك التنجيم والأدوية وظل ذلك حتى مجئ الإسكندر وقضائه على دولة الأخامينيين وإهلاكه ما كان من صنوف البناء من أنواع العلم الذى كان منقوشاً مكتوبا فى صخور ذلك وخشبه بهدم كل ذلك واحراقه وتفريق مؤتلفه ونسخ ما كان مجموعاً من ذلك فى الدواوين والخزائن بمدينة اصطخر وقلبه إلى اللسان الرومى والقبطى ثم أحرق بعد فراغه من نسخ حاجته منها ما كان مكتوبا بالفارسية وكتاب يقال له الكشتج، وأخذ ما كان يحتاج إليه من علم النجوم والطب والطبائع فبعث بتلك الكتب وسائر ما أصاب من العلوم والأموال والخزائن والعلماء إلى بلاد مصر... فدرس ذلك العلم بالعراق وتمزق واختلفت العلماء وقلت وصار الناس أصحاب عصبية وفرقة».

ويؤكد ذلك ما قاله المبشر بن فاتك من أن الإسكندر أحرق كتب دين المجوسية وعمد إلى كتب النجوم والطب والفلسفة ونقلها إلى اللسان اليونانى وأنفذها إلى بلاده وأحرق أصولها».

ومن هذه الإشارة وإشارات كثيرة غيرها أريد أن أؤكد أنه ليس كل ما كتب باليونانية هو بالضرورة يونانى وكتابه يحملون الجنسية اليونانية بل لا أبالغ إذا قلت أن معظم المؤلفات التى كتبت باليونانية فى زمن الإسكندر الأكبر أو خلفائه أو حتى فى ظل الرومان كانت لمؤلفين غير إغريق؛ والسبب فى ذلك أن الحكام اليونانيين كانوا يرعون الفكر والتأليف ويثيبون عليه ولذلك زحف نحوهم المؤلفون من كل حدب وصوب من بلاد الفرس، ومن العراق والشام ومصر القديمة يكتبون باليونانية فى مقابل الأجر والمكافأة ولم يكن المؤلفون من تلك الأنحاء بحريصين فى ظل الأمبراطورية على إبراز النعرات الإقليمية لهم - كما حدث تماما فى ظل الإمبراطورية العربية الإسلامية - ومن هنا اعتبرت كل هذه المؤلفات إغريقية ودليلاً على عبقريتهم وإسهاماتهم. ولقد قام سارتون فى تاريخ العلم بتقصى أصول عدد من المصادر المكتوبة باليونانية وجذور عدد كبير من مشاهير المؤلفين الذين كتبوا باليونانية وحسبوا على الإغريق وأثبت أنهم جاءوا من أعراق غير يونانية بالمرة مما يؤكد ما ذهبت إليه.

ولقد ظلت اللغة اليونانية من حسن حظها لغة الكتابة والتأليف الدولية ربما حتى نهاية القرن الخامس الميلادى وكانت لغة الديانة المسيحية فى قرونها الأولى، أى أنها كانت لغة دولية ولغة الكتاب الدولى لما يقرب من ثمانية قرون.

لم يكن الإنتاج الفكرى اليونانى طوال تلك القرون بالشئ الهين وإن كان صغيرا إذا قيس بحجم الإمبراطورية اليونانية والرومانية من بعدها، ويكفى القول هنا أن مؤلفاً واحداً مثل أبقراط كان له أكثر من مائة كتاب وآخر مثل جالينوس كان له أكثر من مائة وخمسين كتاباً.

ويكشف ابن النديم بحسه الببليوجرافى الراقى عن أن الكتاب اليونانى يتفاوت فى حجمه وعدد صفحاته فهناك **الكتاب** وهناك **الرسالة** وهناك **المقالة**. وقد تنوعت موضوعات الكتاب اليونانى تنوعا عظيماً ما بين الآداب والعلوم الإجتماعية والتاريخ والفلسفة والطب والصيدلة والهندسة والكيمياء.

ويبدو أن عوامل الزمن قد فعلت فعلها فى الكتاب اليونانى ذلك أن الإمبراطورية الإسلامية عندما ازدهرت فى القرن الثامن الميلادى وبحث المسلمون عن ذلك الكتاب ليترجموه لم يجدوا سوى عدد محدود منه وفى نسخ محدودة أيضا رغم أن قسماً كبيراً من الدول التى كانت خاضعة للحكم اليونانى كانت ضمن الامبراطورية الإسلامية؛ مما اضطر المسلمين إلى أن يجوبوا بلاد اليونان نفسها وبيزنطة فى سبيل البحث عن تلك الكتب وصوائف الخلفاء العباسيين مشهورة معروفة بإهتمامها بغنائم الكتب اليونانية. وربما ساعد على قلة ما وجده المسلمون من كتب يونانية، أن اللغة اليونانية كانت قد بدأت فى الإنحسار التدريجى كلغة تأليف وإنتاج فكرى منذ أواخر القرن الخامس الميلادى وإن بقيت لغة للدواوين عند فتح العرب الأمصار التى كانت خاضعة للحكم الرومانى ومن قبله اليونانى، وتراجع الجاليات اليونانية التى كانت تقيم فى تلك المناطق وعودة الكثير منها إلى بلادها الأم.

وتذكر المصادر أنه رغم وجود عدد من مراكز العلم اليونانى قبل القرن السادس الميلادى مثل: نيقوميديا؛ انقرة؛ قيسارية؛ آنطاكية؛ وافاميا؛ الإسكندرية وغيرها إلا أنه عندما تكونت الدولة الإسلامية وتوسعت لم يكن هناك سوى الإسكندرية كمركز وحيد يعنى بالدراسات العلمية باللغة اليونانية وأكثر من هذا كان هذا المركز قائماً على عدد محدود من العلماء وكان أقرب إلى المدرسة منه إلى الأكاديمية وقد قام عمر بن عبد العزيز فى نهاية القرن الأول الهجرى بنقله من الإسكندرية إلى أنطاكية بقصد أن يكون قريبا منه وأن يبعث النشاط فيه وفى مدة حكمه القصيرة (نحو سنتين فقط) برز بعض المفكرين منهم طبيبان هما: عبد الملك بن ايجر وأهرن، وقد ترك كل منها كتاباً فى الطب.

* * *

وقد ألمحت من قبل إلى أن خالد بن يزيد بن معاوية عندما خاب أمله فى الوصول إلى الحكم اتجه إلى الاشتغال بالعلم وكان أول من شكل لجنة للترجمة من اليونانية إلى العربية فى موضوع محدد هو علم الصنعة ويقصد به هنا علم الكيمياء. وإن كان ابن النديم قد ذكر موضوعات أخرى ترجمت فيها كتب يونانية أو جرت محاولة لترجمتها لنفس الشخص أيضا فقد ذكر ابن النديم أن «الذى عنى باخراج كتب القدماء فى الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء... ويقال انه صح له عمل الصناعة وله فى ذلك عدة كتب ورسائل. وله شعر كثير فى هذا المعنى رأيت منه نحو خمسمائة ورقة ورأيت من كتبه: كتاب الحرارات؛ كتاب الصحيفة الكبير؛ كتاب الصحيفة الصغير؛ كتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة».

ومن هنا يكون أول موضوع نقل فيه العرب عن اليونان هو موضوع الكيمياء. وقد حصر ابن النديم فى المقالة العاشرة من الفهرست وهى آخر مقالات الببليوجرافيّة كتب الكيمياء (أخبار الكيماويين والصنعويين) ومعظم الأسماء التى وردت لمؤلفين يونانيين، وبالتالى تكون أعمالهم قد ترجمت إلى

اللغة العربية. ويحدد ابن النديم هنا أن «إصطفين القديم» نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها ولم يحدد لنا الكتب التى قام إصطفين هذا بنقلها أو الأصول التى ترجمها. بل ولا نجد فى أى من المصادر أسماء الكتب التى نقلت لخالد بن يزيد، إلا أن بول كراوس أشار إلى وجود مخطوطة فى برلين من كتاب (سر الأسرار) تأليف بولينياس ورد فى بدايتها إشارة إلى أن الكتاب ترجم لخالد بن يزيد.

ومن الكتب اليونانية التى ترجمت كما أشرت فى زمن عمر بن عبد العزيز كتاب كناش اهرن ولم يصلنا اسم مترجمه وبالتالى يكون قد ترجم فى العصر الأموى. وقد ذكر نالينو فى **تاريخ علم الفلك عند العرب** «كتاب فى أحكام النجوم» منسوبا إلى هرمز الحكيم منه نسخة فى مكتبة الامبروزيانا كتب فى نهايتها أن الترجمة تمت «فى ذى العقدة سنة ١٢٥ للهجرة» ولم يذكر هذا العمل فى مصدر آخر.

وقد سجل ابن النديم فى الفهرست أسماء المترجمين عن اليونانية مباشرة وجاء فى مقدمتهم اصطفين القديم الذى سبق وأشرنا إليه كمترجم لخالد بن يزيد، ثم ذكر بعده البطريق كأول مترجم فى الدولة العباسية، ترجم للمنصور؛ وأورد بعده اسم ابنه أبو زكريا يحيى بن البطريق.

وفى العصر العباسى كان الخليفة المنصور ثانى خلفاء بنى العباس هو أول من اهتم بأمر الترجمة والنقل ليس فقط من اللغة اليونانية وإنما أيضا من الرومية والفهلوية والفارسية والسريانية. ورغم ما قيل من أن سبب اهتمامه بالترجمة أنه كان ممعوداً فاستدعى لمعالجته من جنديسابور الطبيب جورجيوس إبن جبرائيل وكانت له خبرة واسعة بالتطبيب فعالج المنصور وشفاه من مرضه ومن ثم أصبح طبيبه الخاص فيما يقول ابن أبى أصيبعة ونقل للمنصور كتباً كثيرة من كتب الإغريق إلى اللغة العربية؛ رغم هذا السبب فان المنصور كان من الخلفاء المثقفين الذى يهتمون بالعلوم والفنون والآداب، ليس فقط الثقافة

العربية الأصيلة من لغة وشعر وأدب وتاريخ ودين: فقه وحديث وتفسير؛ وانما أيضاً العلوم الأجنبية فقد قال عنه المسعودى فى مروج الذهب «كان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم. . . وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى العربية منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السندهند؛ وترجمت له كتب ارسطاطاليس من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الارثماطيقى؛ وكتاب إقليدس وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية وأخرجت للناس فنظروا فيها وتعلقوا إلى عملها».

وذكر ابن النديم أن من بين المترجمين فى زمن أبى جعفر المنصور أيضا البطريق ويبدو أنه ليس إسما شخصيا وإنما وظيفة دينية (البطريرك) وإبنه أبا زكريا يحيى بن البطريق. وقد قال ابن النديم عن البطريق أنه كان له نقل كثير جيد إلا أنه أقل جودة من نقل حنين بن اسحق وقد وجد ابن النديم بنقله كتبا كثيرة فى الطب كتبها أبقراط وجالينوس، ويردف ابن النديم أن البطريق الأب هذا نقل إلى عمر بن الفرخّان كتاب **الأربعة** لبطليموس.

وتجمع المصادر على أن العصر الذهبى للنقل من سائر اللغات وعلى رأسها بطبيعة الحال اليونانية هو عصر هارون الرشيد وابنه المأمون «ذلك أن النقل أصبح فى زمانهما عملا رسميا تتولاه الدولة وتنفق عليه من موازنتها وتحشد له أعظم النقلة والعلماء والمفكرين وتؤسس له المؤسسات العلمية ويرتحل فى طلب الكتب العلمية والفلسفية والطبيعية ويراسل الملوك والحكام من أجلها».

أسس هارون الرشيد مؤسسة كبرى للقيام بعملية النقل هذه، أو بنص الفهرست «النقل والملازمة» ثم تطورت هذه المؤسسة فى زمن إبنه المأمون وأصبحت أكاديمية للبحث العلمى وجمع الكتب وقد عرفت هذه المؤسسة باسم (بيت الحكمة) وكانت تحوى قاعات للدرس وقاعات لخزن وتنظيم الكتب وقاعات للنقل والترجمة وقاعات للتأليف إلى جانب مرصد فلكى والنشاط

الفلكي الذى مارسه الفلكيون. لقد جاءت من هذا المنطلق على غرار مكتبة الإسكندرية وتمثلتها. ومن بين المشرفين الذى عملوا فى هذه المؤسسة سهل بن هارون وسلم وهريم وكان من بين النساخين الرسميين فيها ورد ذكر علاّن الشعوبى. ولقد كان هارون الرشيد وابنه المأمون عالمين مثقفين مثل المنصور وكانا من الطبيعى أن يهتما إلى جانب الفكر العربى المحض بالفكر الأجنبى ويسعيان إلى نقله إلى العربية سواء كان ذلك الفكر يونانيا أو فارسيا أو هنديا أو سريانياً. وكان هارون الرشيد يأمر بجمع الكتب ووضعها فى بيت الحكمة؛ ويأمر بترجمة بعضها إلى العربية ولعل من بين هذه الكتب التى طلب ترجمتها كتاب اقليدس الذى ترجمه الحجاج بن يوسف بن مطر تحت عنوان (الهارونية) التى يظهر من اسمها أنها تمت فى عهد الرشيد وبأمره، وقد اعيدت ترجمة الكتاب فى زمن المأمون. ونفس الحجاج هذا هو الذى نقل كتاب المجسطى ليحيى بن خالد، كما نقل كتاب (المرآة) لأرسطو.

ويذكر إبن جلجل أن يوحنا بن ماسويه كان مسيحياً سريانياً قلّده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون ووضعه أميناً على الترجمة ووضع له كتابا حذاقا يكتبون وقد خدم هارون والأمين والمأمون وبقى على ذلك إلى أيام المتوكل.

رعى آخرون غير الرشيد حركة الترجمة فى عهده مثل أم جعفر بنت أبى الفضل، كما كان البرامكة أيضا من رعاة الترجمة ومن المعروف أنهم كانوا ذوى سلطان وعز فى عهده ثم ازيحوا عنه على يده أيضا. ومن النقلة للبرامكة ابن ناعمة: عبد المسيح بن عبد الله الحمصى الناعمى وكان معنيا بالفلسفة فنقل كتاب سوفسطيقا والنصف الثانى من السماع الطبيعى لأرسطو وقد أصلح إبراهيم بن بكوش العشارى فيما بعد ما نقله ابن ناعمة. كذلك كان من النقلة للبرامكة سلام والأبرش ويوجد من نقلهما السماع الطبيعى. كما كان إسطاث يترجم ليحيى البرمكى، كما ترجم للكندى.

أما فيما يتعلق بالمأمون فقد أجمعت المصادر على أنه كان عالما ذا نظر فلسفى ومعتنقا مذهب الإعتزال الذى يمجد التفكير الحر ويدعو إليه. كما كان يجد لذة فى البحث والدرس والمناظرة والجدل العلمى والتأليف والنقل فكان يجمع العلماء ويجعلهم يتناظرون بين يديه «وبعد أن تنتهى المناظرات التى يشترك فيها بنفسه أحيانا كثيرة يفيض عليهم المكافآت».

يذكر ابن الطقطقى أثناء كلامه عن المأمون أن له اختراعات كثيرة فى مملكته منها أنه أول من محض منهم (أى الخلفاء العباسين) عن علوم الحكمة وحصل كتبها وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها وحل اقليدس ونظر فى علوم الأوائل وتكلم فى الطب وقرّب أهل الحكمة. وهناك نصوص تدل على باع المأمون بالعلم وفهمه وذكائه وغوصه على دقائق المعانى، ذكر بعضا منها ابن النديم فى رد له قاس على الجاحظ، كما سجل الجاحظ نفسه بعضا منها.

ولعل أحسن وصف للمأمون ودعمه للحركة العلمية وحركة النقل فى عهده وانفاقه عليها من ماله الخاص هو ذلك الذى ورد فى طبقات الأمم للقاضى صاعد الأندلسى «لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع منهم (أى بنى العباس): عبد الله المأمون بن الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور، تمم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم فى مواضعه واستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة فداخل ملوك الروم واتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط وجالينوس وإقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة فاستجار لها مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم فى تعلمها فنفقت سوق العلم فى زمانه وقامت دولة الحكمة فى عصره وتنافس أولو النباهة فى العلوم لما كانوا يرون من إعطائه لمنتحليها واختصاصه لمتقلديها فكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم فينالون عنده المنازل الرفيعة والمراتب السنية وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين

والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب فأتقن جماعة من ذوى الفنون والتعلم فى زمانه كثيراً من أجزاء الفلسفة وسنوا لمن بعدهم منهاج الطلب ومهدوا أصول الأدب حتى كادت الدولة العباسية تضاهى الدولة الرومية أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها.

وكانت للمأمون مجالس كلام ونظر والقيم عليها هشام بن الحكم. ومن مناظراته المشهورة التى عقدها مناظرة الأخفش والكسائى لسيبويه.

يذكر محمد بن على العبدى أن المأمون كان فى بدء أمره - لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره - مولعا بالنظر فى أحكام النجوم وقضاياها وينقاد إلى موجباتها، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك الساسانيين مثل أردشير بن بابك وغيره. وقد اجتهد المأمون فى قراءة الكتب القديمة وأمعن فى درسها وواظب على قراءتها فافتن فى فهمهما وبلغ درايتها. ولما ترك المأمون خراسان وعاد إلى العراق ترك دراسة الفلك والتنجيم وانصرف إلى الإهتمام بعلم الكلام أى التوحيد. ويؤكد ابن النديم أن المأمون كان أعلم الخلفاء بالفقه والكلام «وأن له فيما يقال كتابان هما مناقب الخلفاء الأولين ورسالة فى أعلام النبوة».

وتؤكد المصادر أن المأمون قد ولع بالتراث اليونانى على وجه الخصوص. ويسجل ابن النديم سبب ذلك الإهتمام الشديد بالفكر الإغريقى من جانب المأمون بحلم يذكر المأمون أنه رآه فى منامه وكان ذلك من أخطر الأسباب التى جعلته يهتم بكتب الفلسفة اليونانية على وجه الخصوص. يقول ابن النديم فى فصل بعنوان «ذكر السبب الذى من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة فى هذه البلاد» أن المأمون رأى فى منام له رجلاً أبيض اللون مشرباً بحمرة واسع الجبهة مقرون الحاجب أجلح الرأس أشهل العينين حسن الشمائل جالس على سرير؛ قال المأمون وكأنى بين يديه قد ملئت له هيبة فقلت من أنت قال أنا أرسطوطاليس فسررت به وقلت أيها الحكيم أسألك قال سل قلت ما الحسن؟ قال ما حسن فى العقل. قلت ثم ماذا؟ قال ما حسن فى الشرع.

قلت ثم ماذا؟ قال ما حسن عند الجمهور قلت ثم ماذا؟ قال ثم لا ثم. وفى رواية أخرى قلت زدنى قال من نصحك فى المذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد. فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب».

ويجب أن نأخذ هذا الكلام بشئ من التحفظ؛ وإن كان الحلم قد حدث فربما كان لأن العقل الباطن للمأمون كان دائم الإنشغال بالفلسفة اليونانية كعلم وافد على العرب وسواء كان هذا الحلم أم لا فإنه كان مولعا بتراث اليونان، وكان سيهتم بنقله إلى اللغة العربية.

سار المأمون على نفس سياسة والده فى الصوائف حيث كان يخرج على رأس الغزوات الصيفية الموجهة إل المدن الكبرى وكان يحرص على الحصول على خزائن الكتب التى توجد فى المدن التى يفتحها ويرسلها إلى بغداد ولكنه زاد على والده ما أشرت إليه من قبل وهو مراسلة ملوك الروم فى القسطنطينية وصقلية وقبرص يطلب منهم إنفاذ ما عندهم من كتب يونانية وإرسالها إليه فى بغداد. كما كان يرسل بالبعوث المختلفة إلى بلاد الروم فى سبيل الحصول على تلك الكتب.

وفى هذا الصدد يذكر ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء أن المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ من يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم فأجابه إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم المشرف على بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل. وقد قيل بأن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم.

ومن المؤسف أن يقال بعد ذلك أن من أسباب ضعف المسلمين وتفرق كلمتهم وتخليهم عن دينهم نقل التراث الفكرى اليونانى العقلى الفلسفى إلى اللغة العربية وذيوعه بين المسلمين وانشغالهم به. بل ذهب الإسفاف بالبعض

إلى القول بأن عملية الترجمة هذه كانت مؤامرة قام بها البرامكة وقام بها الغرب المسيحى لتدمير الإسلام والمسلمين وتمزيقه من الداخل بعد عجزهم عن حربه والتغلب عليه من الخارج. ويذكر السيوطى نصاً عن الشيخ نصر المقدسى أورده فى كتاب (الحجة فى تارك المحجة.) فى هذا المعنى يقول فيه المقدسى إن دولة بنى العباس قامت على الفرس وكانت الرئاسة فيهم وفى قلوب أكثر الرؤساء منهم الكفر والبغض للعرب ودولة الإسلام فأحدثوا فى الإسلام الحوادث التى تؤذن بهلاك الإسلام. ولولا أن الله تبارك وتعالى وعد نبيه ﷺ أن ملته وأهلها هم الظاهرون إلى يوم القيامة لأبطلوا الإسلام ولكنهم قد ثلموه وعوروا أركانه والله ينجز وعده إن شاء الله» ثم يقول بعد ذلك «فأول الحوادث التى أحدثوها إخراج كتب اليونانية إلى أرض الإسلام فترجمت بالعربية وشاعت فى أيدى المسلمين. وسبب خروجها من أرض الروم إلى بلاد الإسلام يحيى بن خالد بن برمك. وذلك أن كتب اليونانية كانت ببلد الروم، وكان ملك الروم خاف على الروم إن نظروا فى كتب اليونانية أن يتركوا دين النصرانية ويرجعوا إلى دين اليونانية وتتشتت كلمتهم وتتفرق جماعتهم فجمع الكتب فى موضع وبنى عليه بناء مطمئنا بالحجر والجص حتى لا يوصل إليها. فلما أفضت رئاسة بنى العباس إلى يحيى بن خالد وكان زنديقاً، بلغه خبر الكتب التى فى البناء ببلد الروم فصانع ملك الروم الذى كان فى وقته بالهدايا ولا يلتمس حاجة. فلما كثر عليه، جمع الملك بطارقته وقال لهم إن هذا الرجل خادم العربى أكثر على من هداياه ولا يطلب منى حاجة وما أراه إلا يلتمس حاجة وأضاف أخشى أن تكون حاجته تشق على. فلما جاءه رسول يحيى قال له: قل لصاحبك إن كانت له حاجة فليذكرها. فلما أخبر الرسول يحيى رده إليه وقال له: حاجتى الكتب التى تحت البناء يرسلها إلى أخرج منها بعض ما احتاج إليه وأردها إليه. فلما قرأ الرومى كتابه استطار فرحاً وجمع البطارقة والأساقفة والرهبان وقال لهم: قد كنت ذكرت لكم عن خادم العربى إنه لا يخلو من حاجة وقد أفصح بحاجته وهى أخف الحوائج إلى. وقد رأيت رأيا فاسمعوه فإن رضيتموه

أعطيته. وإن رأيتم خلافه تشاورنا فى ذلك حتى تتفق كلمتنا فقالوا ما هو؟ قال حاجته الكتب اليونانية يستخرج منها ما أحب ويردها. قالوا فما رأيك؟ قال قد علمت أنه ما بنى عليها من كان قبلنا إلا أنه خاف إن وقعت فى أيدى النصارى وقرأوها كانت سبباً لهلاك دينهم وتبديد جماعتهم. وأنا ارى أن ابعث بها إليه وأسأله ألا يردها يبتلون بها ونسلم نحن من شرها؛ فإنى لا آمن أن يكون بعدى من يجترئ على إخراجها إلى الناس فيقعوا فيما خيف عليهم فقال نعم... نعم الرأى رأيت أيها الملك فامضه.

وواضح ما فى هذه الرواية من سخف وسذاجة ذلك أن وهن الدولة لا يمكن أن ياتى من ممارسة العلم والإشتغال وخاصة علم الفلسفة والمنطق، إنما وهن الدولة يأتى من الداخل: من الفساد والجهل والتخلف وعدم الأخذ بأسباب القوة وأخطر من هذا اللهث وراء المال والنساء.

ومما يكشف عن سخف هذه الرواية أنهم سحبوها على مناطق أخرى من العالم الغربى رغم أن الغرب كان فى أضعف وأسوأ أحواله. تذكر المصادر أن المأمون طلب من حاكم جزيرة قبرص أن يرسل له الكتب اليونانية الموجودة لديه وكانت عندهم مجموعة قيمة من الكتب فى بيت لا يظهر عليه أحد فجمع صاحب الجزيرة بطانته وذوى الرأى عنده واستشارهم فى حمل الخزانة إلى المأمون فكلهم أشاروا بعدم الموافقة إلا مطرانا واحداً فإنه قال: الرأى أن تعجل بانفاذها إليه فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها فأرسلها إليه فاغتبط المأمون بها.

ونفس هذه القصة بتفاصيلها قيلت عن صقلية إذ كان فى صقلية هى الأخرى خزانة كتب عظيمة مشهورة بكتبها الفلسفية والعلمية الغزيرة. وقد طلب المأمون إلى حاكمها أن يختار منها ما يحتاج إليه ثم يرده بعد نسخه، إلا أن الحاكم تردد فى إرسالها وكان بين الضن بها والحرص عليها من جهة والخوف من قوة المأمون وهيبة الدولة العباسية ومن أجل ذلك جمع كبار رجالات الدولة وأدلى

إليهم بطلب المأمون فأشار إليه المطران الأكبر بقوله: إرسلها إليه فوالله ما دخلت هذه العلوم فى أمة من الأمم إلا أفسدتها فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها.

هذا هو العبث بعينه أن يتحول برنامج الترجمة والنقل من الفلسفة اليونانية والعلم اليونانى من برنامج فذ وعظيم إلى صورة كوميدية تسمه بالرغبة فى تخريب العقل العربى وتدمير الإسلام. وإن كان فى هذه النصوص حسنة فإنها تكشف عن أن المأمون قد وسع فى دائرة البحث عن المخطوطات اليونانية فكان يرسل البعوث هنا وهناك ولأكثر من مرة فى المكان الواحد فقد ذكر ابن أبى أصيبعة عند حديثه عن حنين بن إسحق أنه جاء إلى بغداد وهو شاب متحمس لطلب العلم والترجمة وكان يجيد اليونانية والسريانية ولكنه لا يتقن العربية ولذلك ترك بغداد متجها إلى بلاد فارس حيث كان هناك الخليل بن أحمد الفراهيدى النحوى ولازمه حتى أتقن العربية وبرع فيها وأدخل كتاب العين إلى بغداد. ومن المعروف أن حنين بن اسحق التحق بخدمة المأمون وعمل فى بيت الحكمة وتولى النقل والترجمة فيه. وكان المأمون يرسله للبحث عن الكتب النادرة فى بلاد الروم. وكانت إحدى المكتبات العظيمة قد أسست فى القسطنطينية سنة ٣٣٦م وعنى بعض الأباطرة بتوسيعها وتنميتها حتى بلغت مجموعاتها نحو مائة ألف وإن كانت قد تعرضت لبعض الحرائق العمدية أحياناً فى أوقات التعصب الدينى ولكنها كانت مزدهرة عامرة بالكتب على أيام المأمون أى بعد أكثر من أربعة قرون على إنشائها ويقول ابن النديم فى الفهرست؛ أنه سمع «اسحق بن شهرام يحدث فى مجلس عام أن ببلد الروم هيكلا قديم البناء عليه باب لم ير قط أعظم منه بمصراعين من حديد كان اليونانيون فى القديم عند عبادتهم الكواكب والأصنام يعظمونه ويدعون فيه قال فسألت ملك الروم أن يفتحه لى فامتنع من ذلك لأنه أغلق منذ وقت تنصرت الروم فلم أزل أراسله وأسأله شفاهاً عند حضورى مجلسه فتقدم بفتحه فإذا ذلك البيت من المرمر والصخور العظام ألوانا وعليه من الكتابات والنقوش مالم أسمع بمثله كثرة وحسناً. وفى هذا الهيكل من الكتب القديمة ما يحمل على

عدة جمال - وكثَّر ذلك حتى قال ألف جمل - بعض ذلك قد أخلق وبعضه على حاله وبعضه قد أكلته الأرضة».

ويذكر حنين بن اسحق أنه سافر إلى بلاد كثيرة ووصل إلى أقصى بلاد الروم لطلب الكتب التى قصد نقلها. كذلك أرسل أبو زكريا يحيى بن البطريق للبحث عن كتب الأوائل وإحضارها لترجمتها إلى العربية وهو الذى ترجم كتاب أرسطاطاليس إلى الإسكندر المعروف بسر الأسرار وهو كتاب السياسة فى تدبير الرياسة وقد أشرنا إليه من قبل. يقول ابن البطريق عن هذا الكتاب أنه سعى فى طلبه وقصد الهياكل للبحث عنه حتى وصل إلى هيكل عين الشمس الذى كان بناه هرمز الأكبر لنفسه ليمجد الله تعالى فيه قال فظفرت فيه براهب متنسك ذى علم بارع وفهم ثاقب فتلطفت به وأعملت الحيلة عليه حتى أباح لى مصاحف الهيكل المودعة فيه فوجدتها فى جملتها المطلوب الذى أمرنى أمير المؤمنين بطلبه مكتوبا بالذهب فرجعت إلى الحضرة المنصورة ظافراً بالمراد».

عين المأمون حنين بن إسحق أمينا على الترجمة من اليونانية إلى العربية مثل يحيى بن البطريق المشار إليه سابقاً. وكانت الترجمة قبله تتم من اليونانية إلى السريانية ومنها إلى العربية. فلما أتى حنين جعل الترجمة تتم مباشرة من اليونانية إلى العربية. وتحت إشرافه ترجمت كتب كثيرة منها كتب علمية وطبية وفلكية مثل كتب جالينوس وأبقراط وبطليموس وغيرهم. كما نقلت كتب فى الفلسفة والسياسة مثل كتب أرسطو وأفلاطون. وكانت الترجمة قبل حنين تتم عن طريق نقل كل كلمة يونانية بمقابل عربى مما يؤدى إلى ركاكة النقل وربما غموض المعنى لأن لكل لغة تركيباتها اللغوية. ولقد شعر حنين بعيوب هذه الطريقة ولذلك غيرها تماماً وجعل الترجمة عن طريق المعانى وليس الألفاظ أى أن يقرأ المترجم الجملة ويستوعب معناها فيعيد صياغتها بأسلوب عربى سليم يتقيد بقواعد اللغة العربية المنقول إليها وليس بمواقع الكلمات فى اللغة المنقول منها. ولقد أعجب المأمون بحنين بن إسحق وغمره بعطفه ومكافآته ومما يؤثر عنه فى هذا الصدد أنه كان يعطيه زنة ما يترجمه ذهبا، مما جعل حنين يكتب

ترجماته على ورق سميك ثقيل الوزن حتى يحصل على ذهب أكثر ولابن أبى أصيبعة فى هذا الصدد نص جميل يصور تلك الوقائع أحسن تصوير:

«وجدت من هذه الكتب كتبا كثيرة، وكثيرا منها اقتنيته وهى مكتوبة مولد الكوفى بخط الأزرق كاتب حنين وهى حروف كبار بخط غليظ فى أسطر متفرقة وورقها كل ورقة منها بغلظ ما يكون من هذه الأوراق المصنوعة يومئذ ثلاث ورقات أو أربع وذلك فى تقطيع مثل الثلث البغدادى. وكان قصد حنين بذلك تعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه لأجل ما يقابل به من وزنه دراهم وكان ذلك الورق يستعمله بالقصد ولاجرم أن لغلظه بقى هذه السنين المتطاولة من الزمان».

ويبدو أن المأمون كان له ختم يختم به الكتب التى تترجم له أو ربما كل الكتب التى توضع فى بيت الحكمة كعلامة على الملكية كما كان يحدث على أيام آشوربانيبال، إذ يقول ابن أبى أصيبعة فى نفس الموضع «وكان كاتب حنين رجلاً يعرف بالأزرق وقد رأيت أشياء كثيرة من كتب جالنيوس وغيره بخطه وبعضها عليه تنكيت بخط حنين بن إسحق باليونانى وعلى تلك الكتب علامة المأمون.

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أن المأمون جمع من الكتب اليونانية أكثر بكثير مما ترجم فى عهده وهذا أمر طبيعى ولكن يحسب له أنه أعد العدة لأكبر حركة ترجمة فى تلك العصور.

وكما كان هناك فى زمن الرشيد من يرعى الترجمة والنقل سواه، كان هناك أيضا من زمن المأمون من يشجع على الترجمة ويكافئ عليها. من هؤلاء إسحاق ابن سليمان بن على وهو من رجال الأسرة العباسية الحاكمة آنذاك. وكان قد ولى البصرة ثم مكة فى زمن هارون الرشيد ثم استقر فى بغداد زمن المأمون ورعى النقل إلى العربية من مختلف اللغات. وكان حنين يترجم له من اليونانية إلى العربية ومن بين ما ترجم له كتاب المزاج وكتاب تدبير الملطف

وكتاب **أن الطبيب الفاضل فيلسوف** وهى جميعا من تأليف جالينوس. وعلى الجانب الآخر كان منكة الهندى يترجم له من الهندية إلى العربية فقد نقل له **كتاب أسماء عقاقير الهند**. وكان داديشوع ينقل له من السريانية إلى العربية.

كذلك كان من رعاة حركة الترجمة من اليونانية خاصة **أولاد موسى بن شاكر** (محمد وأحمد والحسن). يذكر ابن النديم عنهم أنهم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم فى الشهر خمسمائة دينار للنقل والملازمة» ويقول عنهم أيضاً أنهم «ممن عنى بإخراج الكتب من بلد الروم وبذلوا الرغائب وانفذوا حنين بن إسحق وغيره إلى بلد الروم فجاؤوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثماطيقى والطب وكان قسطا بن لوقا البعلبكى قد حمل معه شيئاً كثيرا فنقله ونقل لهم».

وفى الببليوجرافية التى نشرناها «ما ترجم من كتب جالينوس» والتى أعدها حنين بن إسحق نجد ثلاثين كتاباً من كتب جالينوس نقلت لمحمد بن موسى، منها تسعة عشر نقلها حنين وثمانية نقلها حبيش وثلاثة نقلها إصطفين. ونقل لأحمد بن موسى خمسة عشر كتاباً من كتب جالينوس منها تسعة نقلها بنفسه وستة نقلها حبيش وواحد نقله ابن الصلت.

ومن رعاة حركة الترجمة فى زمن المأمون أيضاً **على بن يحيى** الذى نقل له أربعة من كتب جالينوس من بينها واحد فقط قام حبيش بنقله. ومن الرعاة إسحاق بن إبراهيم الطاهرى؛ وإبراهيم بن محمد؛ وأحمد بن محمد بن المدبر؛ ومحمد بن عبد الملك الزيات وقد ذكر حنين فى تلك الببليوجرافية أنه نقل لهم جميعاً.

وقد أورد ابن أبى أصيبعة اسماء عدد من رعاة الترجمة وذكر أن من بينهم من كان عطاؤه للنقلة والنساخ يصل فى كل شهر إلى ألف دينار. وأعطى فيما يلى أسماء بعض الرعاة الذين ورد ذكرهم فى معجم الأطباء تحت باب «**الذين كان هؤلاء النقلة ينقلون لهم خارجا عن الخلفاء**»:ـ

١ - شبريشوع بن قطرب. من أهل جنديسابور يرغب فى السريانى أكثر من العربى.
٢ - محمد بن موسى المنجم
٣ - على بن يحيى بن المنجم
٤ - تادرس الأسقف
٥ - محمد بن موسى بن عبد الملك
٦ - عيسى بن يونس الكاتب
٧ - على الفيومى
٨ - أحمد بن محمد بن المدبر
٩ - ابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب
١٠ - عبد الله بن اسحق
١١ - محمد بن عبد الملك الزيات. (نقلت له جماعة كبيرة من المترجمين المشاهير).

أما عن عدد النقلة وأسمائهم فقد أمدنا ابن النديم فى الفهرست ببعضها وأمدنا ابن أبى أصيبعة بالبعض الآخر وهما المصدران الرئيسيان فى هذا الصدد. أورد محمد بن اسحق النديم قائمة بأسماء النقلة الذين وقع عليهم من غير أن يذكر اللغة التى تخصص كل منهم فى النقل منها، وأورد قائمتين أخريين إحداهما للمترجمين من اللغة الفارسية والثانية للمترجمين من اللغة الهندية. ومن ثم نستنتج أن القائمة الرئيسية كانت للمترجمين من اليونانية والسريانية أو أنها للمترجم العام الذى يترجم من أكثر من لغة وفى أكثر من موضوع. وكان من حين لآخر يذكر أمام كل منهم أسماء من ينقلون لهم. ويصل عدد المترجمين الذى ذكرهم إبن النديم إلى خمس وستين مترجما منهم ٤٥ مترجما ينقلون من عدة لغات وخمسة عشر ينقلون فقط من الفارسية إلى العربية وخمس فقط ينقلون من الهندية إلى العربية على النحو الذى خرجنا به من دراستنا المستفيضة لفهرست ابن النديم.

وابن أبى أصيبعة فى معجم الأطباء أورد قائمة متخصصة بعنوان «**الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليونانى إلى اللسان العربى من أول من ابتدأ فى نقل كتب الطب إلى اللسان العربى**». وهذه القائمة متخصصة مرتين مرة فى فئة المترجمين ومرة فى اللغة المترجم منها ويجب أن نتعامل معها على هذا الأساس ولولا أنها ذكرت أنها خاصة بالطب وغيره لكانت متخصصة للمرة الثالثة فى مجال الطب.

وأسماء النقلة متنوعة جدا بعضها اغريقى وبعضها سريانى وبعضها فارسى وبعضها عربى بحت. ولا ينبغى أن تؤخذ الأسماء دلالة على الأصول التى تحدّر منها المترجم لأن التسميات كما فى أيامنا لم تكن دائما مرتبطة بالعرقيات فالنصارى كان كثير منهم من أصل سريانى ومع ذلك كان كثير من بينهم يتسمى بأسماء يونانية وبعضهم تسمى بأسماء عربية إسلامية. والمدن التى انتسب إليها هؤلاء النقلة متعددة كذلك من بينها دمشق؛ بعلبك؛ حران؛ الرها؛ الرقة؛ الحيرة؛ جنديسابور.

ومن المؤسف أن معظم الكتب المترجمة لا تذكر تاريخ النقل أو النسخ ويمكن تقريبه من الزمن الذى عاش فيه المترجم أو الزمن الذى عاش فيه من ترجم له.

وكان الوقت المستغرق فى عملية نقل الكتاب يتوقف بطبيعة الحال على حجم الكتاب وكفاءة المترجم والوقت التى يكرسه للنقل. ولعله من نافلة القول أن كثيرا من الترجمات كان يراجع من قبل شخص أقدم وكان المصطلح المستخدم لمراجعة الترجمة هو (الاصلاح) وفعله (اصلح).

أما عن الموضوعات التى ترجم فيها من اليونانية إلى العربية فهى متعددة ولا يغلب عليها الفلسفة كما قد توحى بعض المصادر. كان **الطب** من المجالات الرئيسية التى ترجم فيها العرب كثيرا من اليونانية إلى العربية. وربما يرجع ذلك فى نظرنا إلى كثرة ما ألفه الطبيبان اليونانيان الرئيسيان اللذان ترجم

المسلمون لهما وهما أبقراط وجالينوس. ذلك أن ابوقراط له خمسة وخمسون كتابا وجالينوس له مائة وثلاثون كتابا، ترجم المسلمون معظمها. وقد وضع حنين بن إسحاق قائمة بكتب جالينوس المترجمة (ما ترجم من كتب جالينوس) كما قام على بن رضوان الطبيب المسلم بترجمة قائمة مؤلفات أبقراط. والقائمتان موجودتان فى كتابنا (الببليوجرافيا أو علم الكتاب: النظرية العامة). وجل كتب جالينوس تأليف خالص، وهناكَ تفسير لعشرة من كتب أبقراط وهناك أيضا تعليقات وشروح لما كتبه أفلاطون وأرسطو وأراسسترانس وفولوس فى مجال الطب والتشريح. كما وضع بعض كتب ليست طبية صرفة وإنما عن حرفة الطب وأخلاقيات الإشتغال به. وكانت كتب أبقراط تدرس فى مدارس الطب ومعتمدة فى دراسته وعندما انحطت دراسة الطب فى القرنين الخامس والسادس الميلادى بدأ الدارسون يجترون ما كتب من قبل شرحاً وتلخيصا ومن بين تلك الملخصات (جوامع السكندريين) وفيها تلخيص لستة عشر كتابا من كتب جالينوس. وفى بداية القرن السادس الميلادى قام سرجيوس الرسعينى (ت٥٣٦م) بترجمة واحد وعشرين كتابا من كتب جالينوس إلى السريانية، غير أن ترجمته كانت سيئة فأعيدت ترجمتها إلى السريانية ثم العربية بعد ذلك فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى).

من بين كتب جالينوس المائة والثلاثين ترجم المسلمون منها نحو مائة، جهد كل ناقل فيها تمثله الأرقام الآتية:

حنين بن إسحاق	٣٤	عيسى بن يحيى	١٩
حبيش بن إسحاق	٢٨	اصطفين	٧
إسحاق بن حنين بن إسحاق	٦	يحيى بن البطريق	١
		إبراهيم بن الصلت	١
أسرة حنين وحدها	٦٨	ثابت بن قرة	١
بنسبة	٦٩,٣٨٪	شملى	١
		الباقون	٣٠

ومن هنا يتبين أن حنين بن إسحق وأسرته ترجموا أكبر عدد من كتب جالينوس. وحنين فى قائمته ذكر أن هذه الكتب قد ترجمت برعاية عدد من الرعاة غير الرسميين بيانهم على الوجوه من أهم أفراد عائلة موسى بن شاكر وما رعوا ترجمته تحدده الأرقام الآتية:

محمد بن موسى بن شاكر ٣٩ كتاباً (١٩ حنين، حبيش ١٨).

أحمد بن موسى بن شاكر ١٦ كتاباً (٥ حنين، حبيش ١١).

إبراهيم بن محمد بن موسى بن شاكر ١ كتاب (إبراهيم بن الصلت)

ومن هنا يتضح أن آل موسى بن شاكر قد رعوا نقل ٥٦ كتابا أى ما نسبته ٥٧٪ من كتب جالينوس.

ولعله مما يجدر ذكره أن ابن النديم ذكر أسماء عدد من الأطباء الآخرين خلاف أبقراط وجالينوس منهم من كانت له كتب ومنهم من لم يكن له كتب. كما سجل فؤاد سيزكين فى تاريخ التراث العربى فى الجزء الخاص بالطب العربى أسماء خمسة وأربعين طبيباً ظهروا قبل الإسلام، نذكر هنا بعض أسمائهم وعدد ما ألفوه من كتب طبية كما أوردها ابن النديم فى الفهرست

روفس	٤٣ كتابا
فليغريوس	١٥ كتابا
أوريباسيوس	٥ كتب
إسكندروس	٣ كتب
أرشيجانس	١ كتاب
فلَّس	١ كتاب
أقريطن	١ كتاب
سورونس	١ كتاب
ديوسقوريدس	١ كتاب
بولس	١ كتاب
أفلاطـون	١ كتاب

من المجالات الأخرى التى ترجم فيها المسلمون عن اللغة اليونانية: **الهندسة** وهى من المجالات الأولى التى ترجموا فيها بعد الطب. ولعل أهم كتاب يونانى نقل فيها هو كتاب (أصول الهندسة) اصطروشيا. وقد أولاه الإغريق عناية كبرى وتناوله بالشرح والتفسير عدد من علماء الإغريق ذكر ابن النديم منهم بلس، ايرن، ابسقلاوس، سنبليقوس.

ولأهمية هذا الكتاب فى لغته ومغرمة المسلمين بهذه الأهمية ترجم إلى العربية عدة مرات، ذكر ابن النديم منها أربعة نقولات هى:

١ - نقل الحجاج بن مطر فى زمن هارون الرشيد ثم أعاد نقله وأصلحه فى زمن المأمون ولذلك يسمى الأول بالنقل الهارونى والثانى بالنقل المأمونى.

٢ - نقل إسحاق بن حنين بن إسحاق ومن إصلاح ثابت بن قرة.

٣ - نقل أبى عثمان الدمشقى.

٤ - نقل قسطا بن لوقا.

وبسبب هذه الأهمية أيضا توفر على شرحه وتحشيته عدد كبير من رياضيى العرب ذكر ابن النديم منهم ستة عشر شخصاً وهم:

١ - الفضل بن حاتم النيريزى.

٢ - أبو يوسف الرازى.

٣ - الكرابيسى.

٤ - العباس بن سعيد الجوهرى.

٥ - الماهانى.

٦ - ابوجعفر الخازن.

٧ - أبو الوفا البوزجانى.

٨ - إبن ناهويه الأرجانى.

٩ - أبو القاسم الأنطاكى.

١٠ - سند بن على.

١١ - أبو الحسين بن كرنيب.
١٢ - أبو سهل ويجن
١٣ - الفارابى.
١٤ - أحمد بن حسين الأهوازى
١٥ - نظيف القس.

وأيضا بسبب خطورة هذا الكتاب قام بعض علماء العرب بتأليف كتب تدور حول إقليدس وكتابه، جاء فى الفهرست منها أغراض كتاب إقليدس لإبراهيم بن سند؛ المدخل إلى كتاب إقليدس لثابت بن قرة، شكوك كتاب إقليدس لقسطا بن لوقا؛ شرح المشكل من كتاب إقليدس للكوهى، إصلاح كتاب إقليدس، أغراض كتاب إقليدس؛ إصلاح المقالة الرابعة عشرة والخامسة عشرة من كتاب إقليدس وجميعها للكندى؛ مصادرات إقليدس، حل مشكل مصادرات إقليدس لابن الهيثم.

ولم يكن إقليدس هو الوحيد الذى ترجم المسلمون له فى الهندسة ولكنهم فى القرن الثالث الهجرى أيضا ترجموا عدداً آخر من الكتب الهندسية الإغريقية منها «أصول الهندسة» لأفلاطون، و«أصول الهندسة» لمنالاوس «والشكل الهندسى الذى بيَّن جالينوس أمره». و«كتاب المثلث» لمنالاوس والدوائر المماسة لابولونيوس، والدوائر المماسة، تربيع الدائرة، تسبيع الدائرة لأرشميدس.

كذلك نقل المسلمون فى هذا المجال كتاب الأكر لثيودوسيوس من ترجمة قسطا بن لوقا وإصلاح ثابت بن قرة. وكتاب الكرة والإسطوانة لأرشميدس وكتاب الكرة المتحركة لأوطولوقس والأشكال الكرية لمنالاوس وتفسير كتاب بطليموس فى تسطيح الكرة لبلس الرومى.

وهناك أيضا كتاب المخروطات لأبولونيوس وآخر بنفس الاسم لأرشميدس وقد ترجمهما إلى العربية ثابت بن قرة.

ومن المجالات التى حظيت باهتمام المسلمين أيضا فى عملية الترجمة والنقل

الفلك والجغرافيا وكما كان إقليدس هو المؤلف البارز فى الهندسة الذى نقل له المسلمون أهم كتبه؛ وكما كان جالينوس فى الطب هو المؤلف الرئيسى الذى نقل له المسلمون أبرز كتبه؛ كان بطليموس هو أهم مؤلف فى الفلك والجغرافيا ترجم له المسلمون أهم كتبه. أهم كتب بطليموس فى الفلك والجغرافيا هو كتاب «المجسطى» وقد اعتبره القفطى واحداً من أخطر ثلاثة كتب من وجهة نظره وقال عنه «وما أعلم أحداً بعده تعرض لتأليف مثل كتابه المعروف بالمجسطى ولا تعاطى معارضته بل تناوله بعضهم بالشرح والتبيين كالفضل بن حاتم النيريزى وبعضهم بالاختصار والتقريب كمحمد بن جابر البتانى وأبى الريحان البيرونى وكذلك كوشيار بن لبان الجيلى».

ومن الكتب الأخرى لبطليموس والتى نقلها المسلمون إلى اللغة العربية عن اليونانية كتاب الجغرافيا والذى ترجمه الكندى مرة وثابت بن قرة مرة ثانية.

كذلك ذكر ابن النديم والمستشرق الإيطالى ناللينو أن كتاب الأربعة لبطليموس أيضا قد ترجم مرتين مرة فى زمن المنصور العباس على يد البطريق وشرح هذه الترجمة عمر بن الفرخان. والمرة الثانية قام بها إبراهيم بن الصلت.

وتحدث ابن النديم بشئ من التفصيل عن الكتاب الأشهر لبطليموس وأعنى به: المجسطى فقال إنه يقع فى ثلاث عشرة مقالة وأول من عنى بتفسيره واخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك. وفسره جماعة فلم يتقنوه ولم يرض البرمكى بذلك، فندب لتفسيره أبا حسان وسلم صاحب بيت الحكمة فأتقناه واجتهدا فى تصحيحه بعد أن احضرا النقلة المجودين فاختبرا نقلهم وأخذا بأفصحه وأصحه. وقد قيل أن الحجاج ابن مطر نقله أيضاً. وأصلح ثابت الكتاب كله بالنقل القديم. ونقل إسحق هذا الكتاب وأصلحه ثابت نقلاً غير مرض، لأن اصلاحه الأول أجود».

وإضافة إلى تلك المجالات التى ترجم المسلمون كثيرا فيها عن اليونانية هناك

مجالات أخرى ترجم العرب فيها ولكن ليس بنفس الكثير السابقة. ومن تلك المجالات **الميكانيكا** وقد سرد ابن النديم أسماء خمسة من المؤلفين ترجم لكل منهم كتاب أو أكثر وهم:

أ - **إيرن**. وترجمت له: شيل الأثقال؛ الحيل الروحانية؛ الأشياء المتحركة لذاتها؛ آله الزمر البوقى؛ الزمر الريحى؛ الدواليب؛ عوازف الأرغن.

ب - **مورسطوس**. وترجم له: كتاب فى الآلات المصونه المسماه بالارغن البوقى والأغن الزمرى وكتاب آله مصوته تسمع على ستين ميلاً.

ج - **ساعاطس**. وترجم له: كتاب الجلجل الصياح.

د - **هرقل النجار**. وترجم له: كتاب الدوائر والدواليب.

و - **أرشميدس**. وترجم له: كتاب آلة ساعات الماء التى ترمى بالبندق.

وفى مجال **الزراعة والنبات** نصادف ثلاثة كتب: كتاب جيوبونيكا لباسوس وقد ترجمه إسطاث ليحيى البرمكى وعنوانه بالعربية كتاب الفلاحة الرومية، وأعاد سرجس ترجمته. والكتاب الثانى هو كتاب أسباب النبات لثاوفرسطس وقد نقله إبراهيم بن بكوس والموجود منه بعض المقالة الأولى. والكتاب الثالث كتاب النبات لنيقولا الدمشقى وقد نقله إلى العربية إسحق بن حنين بن إسحق. وقد ترجمت النسخة العربية إلى اللاتينية والعبرية وضاع الأصل اليونانى فيما يذكر سارتون فى تاريخ العلم.

وفى مجال **علم الحيوان** نجد كتابين لأرسطو أحدهما هو كتاب الحيوان فى تسع عشرة مقالة نقله إبن البطريق إلى العربية كما ترجم إلى السريانية والترجمة السريانية أجود من العربية كما يقول ابن النديم. وله جوامع قديمة. كذلك ترجمه أبو على بن زرعة عن السريانية. والكتاب الثانى هو منافع أعضاء الحيوان بتفسير يحيى النحوى.

وفى مجال **علم الجبر** ورد فى الفهرست ذكر لكتابين هما: كتاب صناعة

الجبر لإبرخس الزفنى من إصلاح أبى الوفاء محمد بن محمد الحاسب ولنفس المؤلف على هذا الكتاب: شرحه وعلله بالبراهين الهندسية. والكتاب الثانى بنفس العنوان كتاب صناعة الجبر لديوفنطس الإسكندرانى اليونانى. ويشير ابن النديم إلى أن أبا الوفا البوزجانى شرح الكتابين ووضع كتاب البراهين على القضايا التى استعملها ديوفنطس فى كتابه.

وفى مجال **علم المياه**. ترجم العرب كتاب إستخراج المياه. وهو ثلاثة أبواب الباب الأول فى ٣٩ قولاً والباب الثانى فى ٣٦ قولاً والباب الثالث فى ٣٠ قولاً.

وفى مجال **الموسيقى** (وبعض الميكانيكا تتصل بالآلات الموسيقية) نصادف أربعة كتب: كتاب: الديموس؛ وكتاب الإيقاع لأرسطاليس؛ كتاب النغم لإقليدس؛ كتاب الموسيقى الكبير لنيقوماخوس.

وفى مجال **علم المناظر** نصاف كتابا واحدا مترجما عن اليونانية وهو كتاب اختلاف المناظر لإقليدس.

الترجمة والنقل عن الفارسية

الحقيقة أنه لم تصلنا معلومات سليمة ودقيقة ويعتد بها عن بلاد فارس قبل الدولة الساسانية (٢٢٦ - ٦٥٢م) وربما يرجع ذلك إلى السبب الذى ألمحت إليه فى الصفحات السابقة عندما قام الاسكندر الأكبر بعد فتح تلك المنطقة بجمع كتبهم ونقلها إلى اليونانية والقبطية ثم حرق الأصول التى كانت كتبت بلغاتهم. وربما يكون الإسكندر قد نقل وترجم العلوم التى يستفيد منها وأعدم ولم يترجم الكتب المتعلقة بتاريخ الفرس وأوضاعهم الإجتماعية. ومن هنا لم تصلنا سوى قلة من الكتب التى كتبت بالفارسية قبل الدولة الإسلامية.

لقد تعاقب - فى حدود معلوماتنا المشوشة - على بلاد الفرس أربع دول هى: **الفيشدادية والكيانية والأشفانية والساسانية**. ويذكر المؤرخون المسلمون أنفسهم أن ما وصلنا من معلومات عن تلك الدول غير صحيح وفاسد. يقول

حمزة الأصفهانى «وتواريخهم كلها مدخولة غير صحيحة لأنها نقلت بعد مائة وخمسين سنة من لسان إلى لسان ومن خط متشابه رقوم الأعداد إلى خط متشابه رقوم العقود» ويقول أبو معشر فى نفس هذا الاتجاه «التواريخ أكثرها مدخول فاسد. . وكذلك سنو ملوك الفرس وتواريخهم مع اتصال أيام ملكهم من أول الدهر إلى أن زال ملكهم. وقد بان فيها تخليط كثير وفساد بين ذلك. . إنهم يزعمون أن الأرض مكثت سنين كثيرة مرة بعد مرة وليس لها ملك منهم ولا من غيرهم».

لقد كان للفرس يقينا حضارة ونهضة وعلوم وإلا لما توسعت دولتهم غربا كثيرا قبل أن يقهرهم اليونان. وبدليل أن الاسكندر نقل عنهم ذلك، حيث يقول حمزة الأصفهانى فى كتابه **تاريخ سنى ملوك الأرض** أن الاسكندر نقل عنهم علم النجوم والطب والفلسفة والحراثة أى الزراعة؛ معنى هذا أنهم برعوا فى تلك العلوم. ويستمر حمزة فى القول بأن ملوك الطوائف فى أيامهم وضعت الكتب التى فى أيدى الناس مثل كتاب مزدك وكتاب سندباد وكتاب سرسفاس وكتاب شيماس وما أشبهها من الكتب التى يبلغ عددها قريبا من سبعين كتاباً.

ويفسر لنا حمزة ندرة الكتب التى وصلتنا عنهم بأن الاسكندر «لما استولى على أرض بابل وقهر أهلها حسدهم على ما كان اجتمع لهم من العلوم التى لم تجتمع قط لأمة من الأمم مثلها فأحرق من كتبهم ما نالته يده ثم قصد إلى قتل الموابذة والهرابذة والعلماء والحكماء ومن يحفظ عليهم علومهم وتواريخهم بعد أن نقل ما احتاج إليه من علومهم إلى لسان اليونانيين».

ومن هنا لم يصلنا إنتاج فكرى فارسى يعتد به قبل الدولة الساسانية التى وحدت لغة الفرس وجعلت الفارسية اللغة الرسمية للدولة سواء فى العقيدة أو الادارة.

وكلمة ساسان ترجع إلى إسم أحد كهنة الإلهة آناهينا وعرف أتباعه بالساسانيين ومذهبه بالساسانية. وهو مذهب تصوفى فيه دروشة وقد عبر عنه

العرب بالشعوذة. وقد قامت الدولة الساسانية على أساس هذا المذهب. ويعتبر أردشير الأول هو مؤسس هذه الدولة، وقد استمرت هذه الدولة لأكثر من أربعة قرون تعاقب عليها خمسة وثلاثون ملكا برز منهم نحو عشرة ملوك كان لهم ذكرهم وخطرهم من بين هؤلاء العشرة كان أردشير الأول، سابور الأول، سابور الثانى، كسرى أنوشروان.

ومما لا شك فيه أن الدولة الساسانية استطاعت طوال أربعة قرون أن تصمد لما تعرضت له من غزوات خارجية وأن تصد تلك الهجمات وأن يبقى الحكم خالصا طوالها للساسانيين، كما طبقت نظاماً إدارياً قويا ضمن لها السيطرة على البلاد والعباد. وكانت الدولة مقسمة إلى سبعة بيوتات ولكل بيت من هذه البيوتات رئيس يحكم منطقة واسعة تحت مظلة الملك، وإن كان لكل بيت قواته الخاصة وسلطاته الإدارية. وكان المجتمع ينقسم إلى طبقات لكل طبقة وضعها الخاص الذى قد يعزلها عن الطبقات الأخرى وكان للطبقة المقربة من الملك نفوذ كبير فى الإدارة والجيش ورجال الدين. ويذكر المسعودى أن للفرس «كتابا يقال له كهنامة فيه مراتب مملكة فارس ولها ستمائة مرتبة على حسب ترتيبهم» وربما كان هذا الكتاب بمثابة الدستور فى أيامنا هذه.

كانت عقيدة الدولة الساسانية هى الزرادشتية وهى الدين الرسمى لها. وكما نعرف فإن الزرادشتية هى عقيدة تنسب إلى صاحبها زرادشت الذى بدأها فى القرن السادس قبل الميلاد وتبناها الملوك الأخامينيون. وعندما قضى عليهم الإسكندر الأكبر إضطهد الزرادشتية وقتل أتباعها وأحرق كتبها ولكن لما ولى الساسانيون اعتنقوها وأحيوها وحاولوا لم شعث كتابها المقدس (أفستا) ولكنه لم يصلنا كاملاً. ولأن العقيدة الزرادشتية شديدة التعقيد وتعاليمها قاسية صعبة التنفيذ فإنها لم تنتشر كثيرا خارج طبقة الحكم والمقربين منها. ولذلك ظلت أغلبية الشعب تعتنق أديانا أخرى مثل المانوية واليهودية والمسيحية.

ورغم أن الدولة الساسانية إتخذت من اللغة الفارسية لغة للدواوين ولغة

رسمية للدولة إلا أنه كانت هناك لغات أخرى يتحدثها قطاع كبير من الشعب مثل: الفهلوية؛ الدرية؛ الخوزية؛ السريانية. والفهلوية نسبة إلى منطقة فهلة التى تضم أصفهان والرى وهمدان وماه نهاوند واذربيجان. والدرية هى لغات منطقة المدائن. والفارسية هى بطبيعة الحال لغة منطقة فارس. ويتكلم بها الموابذة والعلماء ومن نهج نهجهم. أما اللغة الخوزية فهى لغة طبقة أو لغة خاصة كان يتكلمها الملوك والأشراف. أما السريانية فكانت منتشرة بين أهل السواد.

ولا تختلف اللغات فى هذه البلاد فقط وإنما هناك إختلاف أيضا فى الكتابات. وقد ذكر ابن النديم سبعة خطوط أو كتابات فى الفهرست. وقد أكد على هذه السبعة كل من حمزة الأصفهانى والمسعودى.

ومن المؤكد أنه كان للساسانيين حضارة وعلوم مسجلة فى مدونات على الأقل باللغة الفارسية شهدت بها المصادر المختلفة. ومن قول المسعودى عنهم «كانوا أهل العز الشامخ والشرف الباذخ والرئاسة والسياسة، فرسانا فى الوغى؛ صبراً عند اللقاء، أدت إليهم الأمم الإتاوات، وانقادت إلى طاعاتهم خشية صولتهم وكثرة جنودهم». ويقول المستشرق الإيطالى نالينو عنهم أنهم: «أدركوا من مدارج التقدم فى المعرفة منزلة عالية جديرة بالذكر فى أيام كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨م) أعظم ملوك بنى ساسان، سار ذكره بالقوافل والركبان، فزها عندهم ماتوارثوه عن أسلافهم وأهل بابل واليونان من العلوم العقلية أو نقلوه من الأمم المجاورين لهم من الروم والسريان والهند، وفى مدينة جنديسابور من أعمال خوزستان أنشأ ذلك الملك الخطير، المدارس العليا لاسيما لتعليم الطب، ذاع صيتها فى كل النواحى والآفاق وأحضر لها أشهر الأساتذة من السريان وغيرهم، ثم أمر بنقل كتب علمية من اللغات السريانية واليونانية والسنسكريتية إلى البهلوية التى كانت فى ذلك العصر لغة الفرس، فلما جبل لهم من الذكاء والتعقل والميل إلى أسباب التمدن، أجادت الفرس فى تلقى العلوم الدخيلة، وظلوا كثيرى العناية بها، مبرزين فيها، إلى أن غزاهم العرب غزوا رهيباً وهزموا جنودهم هزماً مهيباً، فانقرضت دولة الأكاسرة الكبار وفاض الإسلام

على ما كان لهم من المدن والديار فاندرس شيئا فشيئاً إستعمال لغتهم البهلوية، وأخذت تبرق فى أقاليمهم العربية. وبعدما فتحت ممالكهم وكثر الإحتكاك والمخالطة بين الأمتين أصبحت العجم بين العرب فى ديار الخلافة الشرقية مثل الخميرة فى عجين الدقيق فعملوا فى الرقى عملاً يذكر. وأثروا فى أحوال التمدن الإسلامى تأثيراً لا ينكر، وعلمّوا غالبيتهم كثيرا من الفنون مما كانت العرب أبعد الناس عنه، وأظهروا العناية بصيانة العلوم والحرص على إتقانها وبرزوا فى أصناف المعارف والصنائع حتى وضع الحديث النبوى [لئن تعلق العلم بأكتاف السماء لكان له قدم من أهل فارس]».

وفى نفس هذا الاتجاه يقول الأستاذ أحمد أمين فى ضحى الإسلام «كان للفرس من قديم علم وأدب يتناسبان مع ضخامة ملكهم وعظم سلطانهم، فلما جاءت الدولة العباسية وكثير من رعيتها فرس لهم نزعة وطنية وميول قومية، أخذ المثقفون ينقلون إلى العربية تراث آبائهم وما حفظت العصور إلى عهدهم: كانت لهم كتب فى التنجيم والهندسة والجغرافية. وكانت تتوالى عليهم نكبات تذهب بكثير من كتبهم، ولكن كانت مدنيتهم فى حياة وعظمة، فكانت تسترد مجدها بتأليف كتب جديدة تساير عظمتهم، وأكبر نكبة عرتهم كانت بفتح الإسكندر لبلادهم وقد تلف فى هذا العهد كثير من خزائن كتبهم فلما جاءت الدولة الساسانية (٢٢٦ - ٦٥٢م) استعادوا أدبهم وعلمهم وأظهر ملوكهم من الميل إلى العلم وتشجيع الترجمة والتأليف: أردشير بن بابك (٢٢٦ - ٢٤١م) فقد بعث فى طلب الكتب من الهند والروم والصين. وكذلك الشأن فى عهد إبنه سابور وعهد كسرى أنوشروان. وقد دامت الدولة الساسانية نحو أربعة قرون خلّفت فيها علماً كثيرا وأدبا وفيرا، وأكثر ما نقل إلينا فى العصر العباسى من الأدب والعلم والأساطير والتاريخ، انما يرجع إلى هذه الأسرة. فلما نشطت الحركة العلمية فى العصر العباسى أخذت طائفة يجيدون اللسانين الفارسى والعربى ينقلون الكتب من الفارسية إلى العربية».

إذن هناك إجماع من المصادر على أن الفرس قبل دخول العرب كانت لهم

حضارة وكانت لهم علوم وكانت عندهم مؤلفات أيا كانت الحضارات التى استقوا منها تلك العلوم ومادة تلك المؤلفات. وبالتالى وجد العرب ووجد المسلمون ما يمكن أن ينقلوه ويترجموه إلى اللغة العربية بصريح النص الذى كتبه ناللينو والذى كتبه أستاذنا أحمد أمين. كذلك يؤكد ابن النديم على أن الفرس فى القديم نقلت شيئا من كتب المنطق والطب إلى اللغة الفارسية فنقل ذلك إلى العربى عبد الله بن المقفع وغيره.

* * *

أشرت فى صفحة سابقة نقلاً عن ابن النديم أنه كان هناك نحو خمسةعشر مترجماً ينقلون من اللسان الفارسى إلى اللسان العربى. وربما كان معظمهم من الفرس الذين تفصحوا فى العربية ومن ثم أصبحت لديهم القدرة على نقل الكتب الفارسية إلى اللغة العربية فيما ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين. وقد عقد ابن النديم فصلاً فى كتابه الفهرست عن أسماء النقلة من الفارسى إلى العربى؛ وهذه الأسماء هى:

١ - عبد الله بن المقفع

٢ - موسى بن خالد ⎤ عملا فى خدمة داود بن عبد الله بن حميد بن قحطبة.
٣ - يوسف بن خالد ⎦

٤ - على بن زياد التميمى (أبو الحسن).

٥ - الحسن بن سهل.

٦ - أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى.

٧ - جبلة بن سالم (كاتب هشام)

٨ - إسحاق بن يزيد

٩ - محمد بن الجهم البرمكى

١٠ - هشام بن القاسم

١١ - موسى بن عيسى الكروى

١٢ - زادويه بن شاهويه الأصفهانى

١٣ - محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهانى

١٤ - بهرام بن مروان شاه

١٥ - عمر بن الفرخان

ولم يعط ابن النديم تفاصيل عنهم جميعا وإنما أعطى لمحات سريعة عن بعضهم فقط فقال عن عبد الله بن المقفع «إنه من بلغاء الناس العشرة وأنه أخذ الفصاحة عن أبى الجاموس الأعرابى الذى كان يفد إلى البصرة على آل سليمان بن على وأنه من الكتاب الشعراء» وفى موضع آخر يقول عنه «كان أحد النقلة من اللسان الفارسى إلى العربى مضطلعا باللغتين، فصيحاً بهما وقد نقل عدة كتب من كتب الفرس منها:

- كتاب خداينامه فى السير
- كتاب آيين نامه فى الآيين
- كتاب كليلة ودمنة
- كتاب مزدك
- كتاب التاج فى سيرة أنوشروان
- كتاب الآداب الكبير (يعرف باسم ماقراجنس)
- كتاب الآداب الصغير
- كتاب اليتيمة فى الرسائل
- كتاب رسائله
- كتاب جوامع كليلة ودمنة
- كتاب رسالته فى الصحابة

وفى موضع آخر يذكر أن أحسن كتبه المنقولة: عهد أردشير؛ كليلة ودمنة؛ اليتيمة وأنه كان يعمل فى الأسمار. وأن لكتاب بارى أرميناس مختصرات منها واحد لابن المقفع

ويبدو أن عبد الله بن المقفع هو الذى قال هذه التفاصيل، بينما ذكر عن البلاذرى أنه كان أحد النقلة من الفارسى إلى العربى وأنه ترجم عهد أردشير شعراً. وذكر عن جبلة بن سالم أنه ترجم من الفارسية إلى العربية كتب: كتاب رستم واسفنديار؛ كتاب بهرام شوش. وذكر عبد الله بن يحيى ومحمد بن الجهم البرمكيين وفضلهما فى العلم.

وعن عمر بن الفرخان الطبرى قال إنه ممن فسر المجسطى وفسر كتب ذوروثيوس، كما فسَّر كتاب الأربعة لبطليموس التى نقلها له البطريق أبو يحيى إبن البطريق وأن له كتاب المحاسن وكتاب إتفاق الفلاسفة واختلافهم فى خطوط الكواكب.

ولانجد فى الفهرست عن باقى المترجمين معلومات كتلك التى ذكرت عن الأسماء السابقة.

لقد بدأ النقل عن الفارسية فى فترة مبكرة من حياة الدولة الإسلامية يدلنا على ذلك نص المسعودى الذى أورده فى كتابه التنبيه والإشراف «وجدت عند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس كتابا عظيماً يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياساتهم لم أجدها فى شئ من كتب الفرس كخداى نامه وآيين نامه وكهنامه وكان تاريخ هذا الكتاب أنه مما وجد فى خزائن ملوك للنصف من جمادى الآخرة سنة ١١٣هـ ونقل لهشام بن عبد الملك بن مروان من الفارسية إلى العربية» ولم يذكر المسعودى اسم المؤلف أو المترجم.

كذلك يظهر من تاريخ وفاة بعض المترجمين مثل عبد الله بن المقفع (ت ١٤٠هـ) وعمر بن الفرخان وجبلة بن سالم (مولى هشام وكاتبه) فى أوائل العصر العباسى، أن النقل من الفارسية بدأ مبكراً.

أما عن المجالات التى تناولتها الكتب المنقولة عن الفارسية فهى متنوعة وإن كانت محدودة قياساً إلى ما ترجم عن اليونانية ويأتى على رأس هذه المجالات

التاريخ الفارسي نفسه. ومن أهم الكتب التى نقلت فى هذا الصدد كتاب خداينامه وهو المسمى بالعربية تاريخ أو سير ملوك الفرس ولم تصلنا من هذا الكتاب نسخة كاملة وإن كان قد وصلنا منه نصوص كثيرة طويلة ضمن كتب المؤرخين العرب الذى كتبوا عن تاريخ بلاد فارس مثل: تاريخ الأمم والملوك للطبرى وغرر سير ملوك الفرس والعجم للثعالبى. وقد ذكر ابن النديم أن سبعة من النقلة الذين أوردنا أسماءهم من قبل إشتركوا فى ترجمة هذا الكتاب بمعنى أن كلاً منهم ترجمه على حدة وأن هناك سبعة ترجمات لهذا الكتاب. وهؤلاء الأشخاص هم: اسحق بن يزيد؛ جبلة بن سالم؛ عبد الله بن المقفع؛ محمد بن الجهم البرمكى؛ محمد بن بهرام بن مطيار؛ بهرام بن مردنشاه؛ زادويه بن شاهويه. وقال ابن النديم أن ترجماتهم متباينة ربما لاعتمادهم على أصول مختلفة وربما لدرجة سيطرة كل منهم على اللغتين.

ويدخل فى عداد كتب التاريخ الفارسى الكتاب الذى ذكر المسعودى أنه وجده عند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس والذى يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياستهم والذى أشرنا إليه من قبل. ويعتبر كتاب التاج فى سيرة انوشروان الذى ترجمه عبد الله بن المقفع من بين الأعمال التى تدخل فى هذه الفئة من الكتب المنقولة عن الفارسية؛ وكذلك كتاب عهد أردشير الذى قال عنه ابن النديم أنه من بين الكتب المجمع على جودتها والتى نقلها ابن المقفع. ويقول المسعودى أن عمر المعروف بالكسروى الذى اشتهر بمعرفته الواسعة بعلوم فارس واخبارها له كتاب فى أخبار الفرس يصف طبقات ملوكهم من سلف وخلف واخبارهم. وقد نقل المسعودى عن هذا الكسروى نقولاً من رواية أبى عبيدة تتعلق بنظم الفرس الإدارية والإجتماعية ولا نعرف إن كان كتاب الكسروى هذا تأليفا أم ترجمة وربما يكون الكسروى قد عاش فى منتصف القرن الثانى الهجرى قبل عصر التدوين بدليل رواية أبى عبيدة له.

وربما تدخل كتب الأزياج (التقاويم) فى عداد كتب التواريخ أو تمت لها

بنسب وقد برع الفرس فى تأليفها وعول المسلمون على ترجمتها. ومن أشهر الأزياج التى نقلت زيج يسمى (زيج الشهريار) وقد يسمى كذلك (زيج الشاه) وقد ذكر ابن النديم أن الذى نقله إلى العربية هو على بن زياد التميمى (أبو الحسن). ويقول ناللينو عن هذا الزيج أنه ألف فى زمن يزدجرد الثالث ٥١١م وأنه مبنى على قواعد وأصول أغلبها هندية. وقد وردت تفاصيل هذا الزيج فى كثير من المصادر مثل أخبار الحكماء للقفطى، وتحقيق ما للهند من مقولة للبيرونى. وقد اعتمد عليه أبو معشر جعفر بن محمد البلخى المعروف بأبى معشر الفلكى فى (الزيج الكبير).

ومن المجالات الخصبة التى ترجم فيها المسلمون كتب الفرس **علم النجوم** حيث يقول صاعد ابن أحمد الأندلسى فى كتابه طبقات الأمم أن للفرس عناية بالغة ومعرفة ثاقبة بأحكام النجوم وتأثيرها فى العالم السفلى وكانت لهم مراصد للكواكب قديمة، ومذاهب فى حركاتها مختلفة. وليس صاعد بن أحمد الأندلسى وحده هو الذى أشار إلى ذلك وإنما كثير من المؤلفين الذى كتبوا عن الدولة الساسانية ومن أهمها كتاب محمد المحمدى المعنون (الترجمة والنقل من الفارسية). يضاف إلى ذلك أن المسلمين هم أيضا قد بالغوا فى الإهتمام بعلم النجوم فقد كان المنصور «أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى المنجم وأسلم على يديه وهو أبو هؤلاء النوبختيه؛ وإبراهيم الفزارى صاحب القصيدة فى النجوم وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك؛ وعلى بن عيسى الأسطرلابى، وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السندهند. . . وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية وأخرجت للناس. فيما يذكر ناللينو فى تاريخ علم الفلك عند العرب.

وقد أشرت من قبل إلى ولع المأمون بن هارون الرشيد بعلم النجوم ودراسته له وبراعته فيه حيث قال المسعودى أن المأمون «كان فى بدء أمره، لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره يستعمل النظر فى أحكام النجوم وقضاياها وينقاد إلى

موجباتها ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كأردشير بن بابك وغيره واجتهد فى قراءة الكتب القديمة وأمضى فى درسها وواظب على قراءتها فافتن فى فهمها وبلغ درايتها».

وربما كان ذلك دافعاً لترجمة كثير من كتب النجوم إلى العربية من الفارسية وقد عدد ابن النديم ما وصل إليه منها: زجر الفرس؛ الفأل لأهل فارس؛ الإختلاج على ثلاثة أوجه لفارس؛ والمواعظ للفرس. ولكنه لم يذكر مؤلفيها ولا مترجميها ولانبذات عن محتوياتها.

وفى موضع آخر حدد ابن النديم أسماء بعض النقلة الذين ترجموا فى هذا الموضوع ومن بينهم عمر بن الفرُّخان، وأبو سهل الفضل النوبختى وعلى بن زياد التميمى.

ويذكر ابن النديم كما سبق وأسلفت أن **عمر بن الفرخان** كان أحد المنجمين الذين اشتركوا فى تحديد وقت بناء بغداد، وأنه قد فسر كتاب الأربعة لبطليموس وكان البطريق قد نقله له، ومن مؤلفاته كتاب المحاسن وكتاب اتفاق الفلاسفة واختلافهم فى السنين وفسر كتاب المجسطى وكتب دوروثيوس.

وعن محمد بن عمر الفرُّخان يذكر ابن النديم أنه كان أحد «أفاضل المنجمين وله من الكتب: كتاب المقاييس؛ كتاب المواليد؛ كتاب العمل بالإصطرلاب، كتاب المسائل؛ كتاب المدخل؛ كتاب الاختيارات؛ كتاب المسائل الكبير؛ كتاب تحويل سنى المواليد؛ كتاب التيسيرات، كتاب الميالات؛ كتاب تحويل سنى العالم؛ كتاب التيسيرات فى المواليد. ولم يذكر ابن النديم إن كانت مترجمة أو مؤلفة أم بعضها مترجم وبعضها مؤلف.

أما أبو سهل الفضل النوبختى فقد كان أبوه من المنجمين الذى شاركوا مع عمر بن الفرُّخان فى تحديد وقت بناء بغداد. ويذكر ابن النديم أنه كان من بين المشرفين على خزانة الحكمة لهارون الرشيد وله نقل من الفارسى إلى العربى معول فى علمه على كتب الفرس له من الكتب: كتاب النهطمان فى المواليد؛

والفأل النجومى؛ والمواليد؛ تحويل سنى المواليد؛ المدخل؛ التشبيه والتمثيل؛ المنتحل من أقاويل المنجمين فى الأخبار والمسائل والمواليد.

وقد ذكر صاعد بن أحمد الأندلسى أن للفرس كتباً جليلة فى أحكام النجوم منها كتاب فى صور درجات الفلك ينسب إلى زرادشت وكتاب جاماسب.

وجاماسب هذا يصفه طاشكبرى زاده بأنه الحكيم ويعتبر كتابه (القرانات) واحداً من أهم كتابين فى موضوع التنجيم. ومن المصادر ما يذكر أنه مستمد من أصول إغريقية وهندية. بيد أن نالينو يشكك فى أن يكون جاماسب هذا شخصية حقيقية ويقول بأنه من الشخصيات الوهمية التى لا وجود لها والتى اختلقت فى كتب تاريخ الفرس القدماء فقيل انه كان وزير الملك كشتاسب من الدولة الكيانية التى كان لها الملك قبل دارا ويستطرد نالينو فيقول: ولكن إذا اطلعنا على تلك الكتب المنسوبة إلى جاماسب وجدنا أنها بأسرها من أقبح المختلقات، وضعها الكذابون من المنجمين بعد ظهور الإسلام بأجيال عديدة. ولم يصلنا فى الواقع اسم ناقل كتاب القرانات ولا زمن نقله. وفى مكتبة الامبروزيانا مخطوطة بعنوان: «طراز الدهر فى أسرار الخلق والأمر فى أحكام جاماسب على القرانات العلوية» لمحمد بن بكر الفارسى.

ويدخل كتاب الابريدج (البزيدج فى كتابة أخرى) ومعناه بالعربية المختار، فى عداد كتب النجوم الهامة والتى لها مكانة عند المسلمين. هذا الكتاب من تأليف بزرجمهر وزير كسرى أنوشروان. وقد ذكر ابن النديم أن أصل هذا الكتاب ليس فارسيا وأن مؤلفه هو فاليس وأن بزرجمهر ترجمه إلى البهلوية. ولا نعرف اسم المترجم أو زمن ترجمته إلى العربية.

ومن الكتب الهامة فى هذا المجال كتاب (المدخل إلى صناعة النجوم) الذى ألفه الاندرزغر بن زادا نفروخ والمعلومات عنه متضاربة متناقضة ولكن من الثابت أن هذا الكتاب نقل إلى العربية مرتين نقله ابن الحاسب، وعمران بن أحمد.

وفى ميدان **الطب** نقل المسلمون قليلاً من الكتب الفارسية إلى العربية رغم أن صاعد بن أحمد الأندلسى يذكر أن «من خواص الفرس عناية بالغة بصناعة الطب. وقد ذكر ابن النديم أن من بين الأطباء الأعاجم المشهورين بالطب أيام ملوك الأعاجم ثيودوروس وكان نصرانيا وبنى له سابور ذو الاكتاف البيع فى بلده. ولقد ترجم له إلى اللغة العربية كتاب (كناش ثيودوروس) ولا نعرف من ترجمه ولا فى أى زمن ترجم. ويذكر الإصطخرى أن برزويه - وهو من أهل مرو - كان مقدما على سائر أطباء العجم ولكن لم يصلنا له كتب مترجمة.

وعن **العقائد الدينية** عند الساسانيين ظهر كتابان هما (أفستا أو أبستا) و(شابورقان). والأفستا يعزى إلى زرادشت الذى دعا إلى هذا الدين منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد والذى اعتنقه دارا ملك الأخامينيين. وقد قام زرادشت نفسه بوضع شرح للأفستا بعنوان (الزند) وترجمه زرادشت من الفهلوية إلى الفارسية ثم عمل زرادشت شرحاً آخر على الزند نفسه سماه (بازند) شرحه الموابذة والهرابذة تحت عنوان (بارده). وعندما فتح الإسكندر الأكبر بلاد فارس وقتل دارا بن دارا، أحرق هذه الكتب جميعاً. ولكن الساسانيين عندما تولوا الحكم تبنوا الزرادشتية دينا لهم ودينا رسمياً للدولة كما شرحت سابقاً وأمر أردشير الأول رئيس الهرابذة بجمع ما يمكن جمعه من نصوص الأفستا المبعثرة وتوحيدها فى كتاب واحد ولكن شابور الأول بن أردشير أدخل فيه معلومات علمانية طبية وفلكية استقيت من أصول يونانية وهندية. وقد نقلت من الأفستا نصوص كثيرة إلى العربية، إلا أن النص الكامل حتى الذى جمعه شابور بن أردشير لم يترجم بطبيعة الحال ولم تصلنا نسخة مجمعة منه، وانما مجرد نصوص مبعثرة فى المصادر العربية الأولى.

أما الكتاب الثانى وهو شابورقان فهو أهم كتب المانوية وقد تحدث عنها ابن النديم فى الفهرست حديثاً طويلاً. وهى من العقائد التى انتشرت بين الشعب الفارسى رغم إضطهاد الملوك والحاشية لأنصارها. ويقول ابن النديم عن شابورقان أنه «من بين كتب الفرس معول» ويحتوى على ثلاثة أبواب. وفيه

فصول عن الأعياد ومواعيدها وكان مكتوبا بالخط السريانى ونقل ابن النديم منه صفحات طويلة. ولا نعرف إن كان قد ترجم بالكامل إلى اللغة العربية أو من ترجمه.

***

وهكذا فإن الترجمة من الفارسية إلى العربية كانت محدودة سواء فى عدد الكتب التى نقلت أو فى المجالات التى تناولتها الترجمة. ولم تكن بنفس التنوع والاتساع الذى كان عليه الحال بالنسبة للغة اليونانية التى نقل عنها عدد كبير من الكتب وفى مجالات متعددة وخصوصاً ما يمكن أن نطلق عليه العلوم البحتة والتطبيقية. وقد يكشف ذلك عن أن نكبة البرامكة كان لها أثرها فى الإتجاه نحو الغرب أكثر فى الترجمة من الإتجاه نحو الشرق.

الترجمة والنقل عن الهندية

ليس ثمة شك فى أنه كانت للهند قبل الإسلام حضارة وعلوم مزدهرة وأنه كانت لهم صناعات وفنون. وقد أشارت المصادر إلى شئ من هذا. وقد تحدث الجاحظ فى عدد من كتبه عن ذلك فقال: «وأما الهند فوجدناهم يقدمون فى النجوم والحساب ولهم الخط الهندى خاصة، ويقدمون فى الطب ولهم أسرار الطب وعلاج فاحش الأدواء خاصة ولهم خرط التماثيل ونحت الصور والأصباغ تتخذ فى المحاريب وأشباه ذلك. ولهم الشطرنج وهو أشرف لعبة وأكثرها تدبيراً وفطنة. ولهم السيوف القلعية وهم ألعب الناس بها وأحذقهم ضرباً بها. ولهم الرقى النافذة فى السموم وفى الأوجاع. ولهم غناء معجب ولهم الكنكلة، وهى وتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج ولهم ضروب الرقص والخفة، ولهم الثقافة عند الثقاف خاصة ولهم معرفة المناصفة، ولهم السحر والتدخين والدماركة. ولهم خط جامع لحروف اللغات وخطوط أيضا كثيرة، ولهم شعر كثير وخطب طوال وطب فى الفلسفة والأدب وعنهم أخذ كتاب كليلة ودمنة ومن عندهم خرج الفكر وما إذا تكلم به على

السم لم يضر، وأصل حساب النجوم من عندهم أخذه الناس خاصة. وقال فى موضع آخر من نفس كتاب فخر السودان على البيضان «وقد تعلمون ما فى الهند من الحساب وعلم النجوم وأسرار الطب والخرط والبخر والصناعات الكثيرة العجيبة».

وقد أفاض صاعد بن أحمد الأندلسى فى مكانة الهند العلمية وأثرها فى علم العرب وذلك فى كتابه طبقات الأمم ولأهمية هذا النص فإننا نسجله هنا بلفظه:

«الهند أمة كثيرة القدر، عظيمة العدد، فخمة الممالك وقد اعترف لها بالحكمة وأقر لها بالتبرز فى فنون المعارف، جميع الملوك السالفة والقرون الماضية. فكانت الهند عند جميع الأمم على مر الدهور وتقادم الأزمان، معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة وأهل الأحلام الراجحة والآراء الفاضلة والأمثال السائرة والنتائج الغريبة واللطائف العجيبة: فلهذا التحقوا بعلم العدد والأحكام بصناعة الهندسة ونالوا الحظ الأوفى والقدح المعلى فى معرفة حركات النجوم، وأسرار الفلك، وسائر العلوم الرياضية.

«وبعد هذا فإنهم أعلم الناس بصناعة الطب وأبصرهم بقوى الأدوية وطبائع المولدات وخواص الموجودات، ولملوكهم السير الفاضلة والملكات المحمودة والسياسات الكاملة.

«ولبعد الهند من بلادنا واعتراض الممالك بيننا وبينهم قلت عندنا تآليفهم فلم تصل إلينا إلا طرف من علومهم ولا وردت علينا إلا نبذ من مذاهبهم ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم.

«إن مذاهب الهند فى علم النجوم المذاهب الثلاثة المشهورة عنهم وهى: مذهب السندهند ومذهب الأرجير (أو الأرجبهذ) ومذهب الأركند. ولم يصل إلينا منهم على التحصيل إلا مذهب السندهند الذى تقلده جماعة الإسلام والفوا فيه الأزياج كمحمد بن إبراهيم الفزارى، وحبش بن عبد الله البغدادى، ومحمد إبن موسى الخوارزمى، والحسين بن الآدمى فى زيجه.

«ومما وصل إلينا من علومهم فى الموسيقى الكتاب المسمى بالهندية (تاخر) وتفسيره ثمار الحكمة، فيه أصول اللحون وجوامع تأليف النغم.

«ومما وصل إلينا من علومهم من إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس (كليلة ودمنة) الذى جلبه برزويه الحكيم الفارسى من الهند إلى انوشروان بن قباذ بن فيروز ملك الفرس وترجمه له من الهندية إلى الفارسية ثم ترجمه فى الإسلام عبد الله بن المقفع من الفارسية إلى العربية، وهو كتاب عظيم الفائدة، شريف الغرض، جليل المنفعة.

«ومما وصل إلينا من علومهم فى العدد حساب الغبار الذى بسّطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى، وهو أوجز حساب وأخصره وأقربه تناولاً وأسهله مأخذا وأبدعة تركيباً، يشهد للسند بذكاء الخواطر وحسن التواليد وبراعة الإختراع.

«ومما وصل إلينا من نتائج فكرهم الصحيحة ومولدات عقولهم السليمة وغرائب صنائعهم الفاضلة الشطرنج».

لقد صور صاعد بن أحمد الأندلسى الموقف بدقة فى الهند قبل الإسلام وأثر علوم الهند بعد الإسلام فى العرب.

* * *

وكما أشرت سابقاً حصر ابن النديم فى الفهرست خمسة وستين ناقلاً من اللغات المختلفة إلى العربية وليس من بينهم سوى خمسة فقط ينقلون من الهندية إلى العربية. ولعل أول إتصال فكرى بين العرب والهنود كان فى منتصف القرن الثانى الهجرى فى عهد الخليفة العباسى الثانى وهو المنصور الذى كان ممعودا ويبدو أنه طلب بعض أطباء الهند فأرسل إليه وفد يضم مجموعة من العلماء. جاء هذا الوفد إلى بغداد سنة ٧٣٣م الموافقة لسنة ١٥٦هـ؛ وكان بين أفراد الوفد فلكى هندى يسمى (كانكا) وكان قدومه يعتبر حدثا عظيما لأنه كان

عالما فى الحساب الهندى أيضاً. ويقال أنه كان يحمل كتاب (سندهند). ولشغف المنصور بعلم الفلك فإنه أمر بترجمة هذا الكتاب إلى العربية وتأليف كتاب عربى أصيل على غراره. وقد عهد بهاتين المهمتين إلى محمد بن ابراهيم الفزارى الذى كان يعتبر أول فلكى فى الإسلام. وقد قام الفزارى بترجمة الكتاب الهندى (سند هند) ووضع آخر على غراره باسم (سند هند كبير) الذى بقى معمولاً به حتى عصر الخليفة المأمون حين قام محمد بن موسى الخوارزمى عالم الرياضيات الشهير بإعادة كتابته وإضافة معلومات أخرى إليه اشتهرت فى الدولة الإسلامية وانتشرت.

وتتكرر نفس قصة المرض مع هارون الرشيد الذى ينصحه الناصحون باستقدام أطباء هنود لمعالجته ويبدو أن يحيى بن خالد البرمكى هو الذى نفذ ذلك الأمر فجاء إلى بغداد أطباء ذكر منهم الجاحظ: منكه وبازيكر وقلبرقل وسندباد كما ذكر ابن النديم إسم طبيب آخر هو إبن دهن «الذى كان إليه بيمارستان البرامكة نقل إلى العربى من اللسان الهندى». هذا وقد ذكر الجاحظ أن أحد هؤلاء الأطباء جلب معه كتابا فى البلاغة الهندية ترجم فى بغداد إلى العربية وقد نقل الجاحظ عن هذا الكتاب نصوصاً طويلة فى البلاغة على نحو ما قرره نفسه فى البيان والتبيين.

وقد تنوعت مجالات الترجمة عن الهنود وإن حظى الطب بالضرورة بالجزء الأكبر للأسباب التى أتيت عليها. وقد خصص ابن النديم فى الفهرست باباً سرد فيه أسماء كتب الطب التى ترجمها المسلمون عن الهنود هذا بيانها:

١ - كتاب سسرد: عشر مقالات، أمر يحيى بن خالد بتفسيره لمنكه الهندى فى البيمارستان ويجرى مجرى الكناش.

٢ - كتاب سندستان: معناه صفوة النجح، تفسير ابن دهن صاحب البيمارستان.

٣ - كتاب أسماء عقاقير الهند: فسره منكه لإسحق بن سليمان.

٤ - كتاب سيركث: فسره عبد الله بن على من الفارسى إلى العربى لأنه أولاً نقل من الهندى إلى الفارسى.

٥ - كتاب استانكر الجامع: تفسير إبن دهن.

٦ - كتاب مختصر الهند فى العقاقير.

٧ - كتاب علاجات الحبالى: للهند.

٨ - كتاب نوقشتل: فيه مائة داء ومائة دواء.

٩ - كتاب دوينى (روسا) الهندية فى علاجات النساء.

١٠ - كتاب السكر للهند.

١١ - كتاب التوهم فى الأمراض والعلل: ليوقشتل الهندى.

١٢ - كتاب رأس الهندى فى أجناس الحيات وسمومها.

١٣ - كتاب السمومات: للهند.

١٤ - كتاب الأشربة.

والكتابان الأخيران إضافة من عندى من مواضع أخرى فى الفهرست.

وقد ذكر اليعقوبى فى فردوس الحكمة بعض الكتب الطبية الهندية وهى أقل كثيرا مما ذكره ابن النديم حيث سجل فى قائمته.

١ - الكتاب الذى يسمى سسرد: فيه علامات الأدواء ومعرفة علاجها وأدويتها.

٢ - كتاب شرك. [ذكره ابن النديم تحت عنوان: سركث وفى مصادر أخرى جاء اسمه جرك].

٣ - كتاب ندان فى علامات أربعمائة وأربعة أدواء: معرفتها بغير علاج.

٤ - كتاب سندهشار وتفسيره صورة النجح [ذكره ابن النديم تحت عنوان سندستان].

٥ - كتاب فيما اختلفت فيه الهند والروم من الحار والبارد وقوى الأدوية وتفصيل السنة.

٦ - كتاب أسماء العقار: كل عقار بأسماء عشرة.

وأردف اليعقوبى بأن للهند «غير ذلك من كتب الطب».

ويبدو أن كتاب شرك أو سركث أو جرك حسبما ورد فى المصادر قد حظى باهتمام خاص. وقد قدم البيرونى بعض تفاصيل عنه فقال للهند «كتاب يعرف بصاحبه وهو جرك، يقدمونه على كتبهم فى الطب. . . وجرك أى العاقل لما حصل من الطب من الأوائل». وربما كان اسم جرك هو الاسم العربى الذى اطلق على الطبيب الهندى الشهير كاركا سامنا الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى وربما تم نقل كتابه إلى الفارسية فى ظل الدول الساسانية. وقد استفاد من هذا الكتاب واعتمد عليه كثير من الأطباء المسلمين من بينهم على بن ربن وأبو بكر الرازى حيث نقلا كثيرا من نصوصه.

وجلى أن كتب الطب الهندية كان لها القدح المعلى حتى القرن الثالث الهجرى حين حلت محلها كتب الطب اليونانية التى اتسعت عملية نقلها إلى العربية فى النصف الثانى من القرن الثالث خاصة.

* * *

ومن المجالات التى اهتم المسلمون بالنقل فيها عن الهنود كذلك **علم الحساب والأرقام**. وقد عالجت قضية الأرقام عند العرب فى صفحات سابقة من هذا البحث؛ والآراء المختلفة حولها. يقول صاعد بن أحمد الأندلسى فى كلامه عن علوم الهند التى وصلت إلى العربى «ومما وصل إلينا من علومهم حساب الغبار الذى بسّطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى، أوجز حساب وأخصره وأقربه تناولاً وأسهله مأخذا وأبرعه تركيباً، يشهد للسند بذكاء الخواطر وحسن التواليف وبراعة الاختيار».

وقد أشار ساويروس سيبخت اسقف ماردين (٦٢٢م - ١هـ) أن للهنود تسعة أرقام فقط يستطيعون أن يكتبوا بها أى عدد كائنا ما كان.

وقد أكد كثير من المصادر العربية أن أصل الأرقام التى استعملها العرب بدءاً من القرن الثالث الهجرى، هندى ولكن علماء الغرب ومن بينهم وبكه؛ سميث؛ كاربنسكى؛ كارادى فو؛ جاندز، لهم آراء أخرى فى هذا الصدد. وأقدم مخطوط عربى يحمل الأرقام الهندية يرجع تاريخ نسخه إلى ٣٦١هـ. وأيا كان الحال فقد كان للهند مكانة عالية فى مجال علم الحساب والأرقام وقد ذكر ابن النديم عدداً من الكتب الخاصة بالحساب الهندى وترجع إلى القرنين الثالث والرابع وأغلب الظن أنها تعتمد على أصول هندية ومن ثم تدخل فى عداد المترجمات إلى العربية:

١ - الحساب الهندى: لسند بن على.

٢ - حساب الهند: لأحمد بن عمر الكرابيسى.

٣ - إستعمال الحساب الهندى.

٤ - التخت من حساب الهندى: لسنان بن الفتح.

٥ - التخت: ليعقوب الرازى.

٦ - التخت الكبير فى الحساب الهندى: لعلى أحمد الأنطاكى.

٧ - التخت فى حساب الهند: لأبى حنيفة الدينورى.

وذكر البيرونى فى فهرست كتبه الذى نشره سخاو فى مقدمة كتاب الآثار الباقية، الكتب التالية والتى تعتمد أيضا على مصادر هندية:

أ - تذكرة فى الحساب والعد بأرقام السند هند.

ب - كيفية رسوم الهند من علم الحساب.

ج - فى أن رأى العرب فى مراتب العدد أصوب من رأى الهند فيها.

د - من سيكلف الأعداد.

هـ - ترجمة ما فى براهم سد هاند من طرق الحساب.

ومن بين الكتب التى وصلنا ذكرها كتاب علل حساب الهند للحسن بن الهيثم، وأصول حساب الهند لكوشيار بن لبان الجيلى. وأقدم الكتب المؤلفة

التى وصلتنا فى الحساب الهندى هو كتاب «الفصول فى الحساب الهندى» لأحمد بن إبراهيم الإقليدسى المتوفى سنة ٣٣٢هـ. وقد طبع فى زماننا هذا بتحقيق الدكتور أحمد سعيدان سنة ١٩٧٣م. كما وصلنا ذكر كتاب المقنع فى الحساب الهندى لأحمد بن على النسوى. وكذلك كتاب الهندى المنتزع من الكافى وكتاب التعليق على الهندى.

ومن المجالات التى نقل فيها العرب أيضا عن الهند الفلك والنجوم. وقد أشار البيرونى إلى اهتمام الهند بهذا المجال وكثرة تآليفهم فيه حيث قال «علم النجوم فيهم أشهر من الطب لتعلق أمور الملة به. . . وقد ألف عدد من علمائهم كتبا فى أحكام النجوم فإن لكل واحد من: ماندب وبراشر وكرك وبراهم وبلبهدر ودبيانت وبراهمهر كتاب (سنكهت) وتفسيره المجموع؛ يشتمل على نيف من كل شرع: التذكرة السفرية وأحداث الجو وأمور الدول والاختيارات ثم الفراسة والتعبير والزجر وعلماؤهم به مؤمنون». كذلك أشار اليعقوبى إلى مكانة الهند فى هذا المضمار حين قال «والهند أصحاب حكمة ونظر وهم يفوقون الناس فى كل حكمة فقولهم فى النجوم أصح التقاويل وكتابهم فيه السندهند الذى اشتق كل علم من العلوم مما تكلم فيه اليونانيون والفرس وغيرهم». وقد ألمحت قبلاً إلى ما قاله صاعد بن أحمد الأندلسى عن مذاهب الهند فى علم النجوم من أن لهم ثلاثة مذاهب مشهورة عنهم هى: السند هند؛ الأزجير (الأرجبهذ)؛ الأركند.

وقد أشرت منذ صفحات قليلة إلى أنه فى سنة ١٥٦هـ (٧٣٣م) وفد على المنصور الخليفة العباسى الثانى جماعة من علماء الهنود كان من بينهم عالم فلكى هو (كانكا) وهو يحمل كتاب (السند هند) ومعناه فيما يذكر المسعودى الكتاب الجامع لعلم الأفلاك والنجوم والحساب وغير ذلك من أمر العالم. وإن كان صاعد يقول بأن معناه الدهر الداهر. وقد أمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب إلى اللغة العربية وأن يؤلف منه كتاب تتخذه العرب أصلاً لحركات النجوم والكواكب وقام بالعملين محمد بن إبراهيم الفزارى. وظل العمل بكتابه حتى

زمن المأمون حين اختصره أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى وعمل منه زيجه المشهور ببلاد الإسلام وقد عدل فيه معلومات كثيرة.

وقد اعتمد على السندهند كثير من العلماء العرب فى إعداد أزياج عربية منهم: محمد بن إبراهيم الفزارى كما قدمت؛ حبش بن عبد الله البغدادى؛ محمد بن موسى الخوارزمى؛ الحسين بن محمد بن الأدمى؛ يعقوب بن طارق.

وعن الفزارى يقول ابن النديم إنه: محمد بن إبراهيم بن حبيب بن سليمان ابن سمرة بن حبيب كان جده سمرة من كبار رجال البصرة فى الدولة الأموية وقد شارك فى تخطيط مدينة بغداد وهو أول من عمل الاصطرلاب فى الإسلام كما عمل مبطحاً ومسطحاً وعدد كتبه:

١ - القصيدة فى علم النجوم.

٢ - كتاب المقياس للزوال.

٣ - كتاب الزيج على سنى العرب.

٤ - كتاب العمل بالاصطرلاب: وهو ذات الحلق.

٥ - كتاب العمل بالاصطرلاب المسطح.

كما تحدث ابن النديم عن يعقوب بن طارق وقال عنه انه من أفاضل المنجمين وعدد كتبه:

١ - كتاب تقطيع كردجات الجيب.

٢ - كتاب ما ارتفع من قوس النهار.

٣ - كتاب الزيج: محلول فى السند هند لدرجة درجة.

٤ - كتاب علم الفلك.

٥ - كتاب علم الدولة.

وذكر له صاعد بن أحمد الأندلسى كتاب المقالات فى مواليد الخلفاء والملوك وقال عنه إنه من المشتهرين بالنجوم.

من الكتب الهندية أيضا فى علم الفلك والتى كان لها أثرها فى الفلك العربى والتى ترجمت فى فترة مبكرة كتاب الأركند وهو زيج وضعه برهمكوبث بعد تأليف السند هند واعتمد فيه على أصول مختلفة ويبدو أن يعقوب بن طارق كان قد ترجمه ترجمة رديئة حيث ذكر البيرونى «أنه كان بالعربية بنقل فاسد. . . وهذبت زيج الأركند وجعلته بألفاظى إذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة وألفاظ الهند فيها لحالها متروكة». وترجم البيرونى كذلك بعض كتب المواليد من تأليف برهمر الهندى.

ومن المؤلفين الهنود البارزين فى المجال (كنكه الهندى) الذى ذكر ابن النديم أن من كتبه:

١ - أسرار المواليد.

٢ - القرانات الكبير.

٣ - القرانات الصغير.

٤ - النمودار.

وقد قال عنه أبو معشر الفلكى أن كنكه المقدم فى علم النجوم عند جميع العلماء من الهند فى سالف الدهر، لم يبلغنا تاريخ عصره ولا شئ من أخباره. بيد أن البيرونى يذكر أن كنكه كان منجماً للرشيد وأنه هو الذى تنبأ بزوال الدولة العباسية على يد رجل يخرج من أصفهان.

وفى هذا الصدد أيضا يذكر ابن النديم من الكتب التى ترجمت فى المواليد والفراسة والتطير كتاب الجفر الهندى لعطارد؛ زجر الهند؛ خط الكف والنظر فى اليد للهند؛ ولم يصلنا أى منها.

ترجم العرب عن الهنود كتبا أخرى فى موضوعات متناثرة من بينها:

- كتاب شاناق فى التدبير.

- شاناق الهندى فى أمر تدبير الحرب وما ينبغى للملك أن يتخذ من الرجال من أمر الأساورة والطعام والسم.

وكلا الكتابين فى الحرب والأمور العسكرية. وفى مجال السياسة والحكم لابد وأن نتوقف أمام كليلة ودمنة التى نقلها ابن المقفع عن الفارسية وهى فى الأصل هندية من تأليف بيدبا الهندى. وفى مجال المنطق هناك كتاب طوفا المعنون علم حدود المنطق. وفى مجال الأدب نجد الأدب الكبير لعبد الله بن المقفع وكتاب «الهند بين الجواد والبخيل والاحتجاج بهما، وقضاء ملك الهند بذلك» وكتاب شاناق الهندى فى الآداب: خمسة أبواب». وفى مجال الصناعات ترجم العرب كتاب «فى فراسات السيوف ونصها وصفاتها ورسومها وعلاقاتها» الذى ألفه باجهر الهندى.

* * *

ويجب أن نختم هذه الدراسة من الترجمة والنقل عند المسلمين بأمرين: الأول عن ملحوظة تتعلق بالنقل عن اللغة السريانية وعدم قدرتنا على دراسته كما حدث بالنسبة لليونانية والفارسية والهندية ذلك أن اللغة السريانية كانت فى معظم الأحيان لغة وسيطة تنقل إليها الكتب اليونانية وربما الفارسية أيضا لتمكين نقلها إلى اللغة العربية ولم يكن فيها مؤلفات علمية تغرى العرب بنقلها إلى العربية وإن كانت هناك نقولات من السريانية إلى العربية فهى عموماً قليلة وضاعت وسط الزحام. أما الأمر الثانى الذى أريد أن اختم به هذه الدراسة، فإنه يتعلق ببعض الأرقام والنسب المئوية عن حركة الترجمة والنقل استقيتها من دراستى المستفيضة لفهرست ابن النديم ومن ثم فإن تلك الأرقام تتعلق بالقرون الأربعة الأولى للهجرة.

حصر ابن النديم فى الفهرست أسماء خمسة وستين مترجما منهم ٤٥ ينقلون من لغات مختلفة وإن كان جلهم ينقل عن اليونانية، ١٥ ينقلون عن الفارسية وخمسة ينقلون عن الهندية. وقد بلغ عدد الكتب التى حصرها ابن النديم كنقولات ومترجمات ٦٣٢ كتاباً وذلك من أصل ٢٠٨٠ كتابا نشرت فى الموضوعات غير العربية التى سجلها ابن النديم فى فهرسته؛ بما يمثل ٣٠٪ من مجموع هذه الكتب. والجدول الآتى فى موضوعات مختارة فقط يعطى العدد

الإجمالى للكتب المنشورة فى الموضوع وعدد الكتب المترجمة واللغة المترجم منها والنسب المئوية. والدراسة التفصيلية فى المقدمة التى أعددناها لطبعتنا المحققة من فهرست ابن النديم:

الموضوع	الانتاج الكلى	المترجمات	اللغة	النسبة المئوية
الفلسفة	٤٣١	١١٨	اليونانية	٪ ٢٦,٣٨
الرياضيات والفلك		١١٥	اليونانية	٪ ٢٤,٢٥
والهندسة الميكانيكية	٤٧٦	١٦	الهندية	٪ ٣,٣٦
		١٥٧	اليونانية والقبطية	٪ ٣٦,٨٥
الطب	٤٢٦	١٣	الهندية والفارسية	٪ ٣,٠٥
		٢٠	الفارسية	٪ ١٠,٦٣
قصص وأساطير	١٨٨	١٧	الهندية	٪ ٩,٠٤
		١١	الرومية (اللاتينية)	٪ ٥,٨٥
شعوذة وسحر	٩	٦	الهندية والفارسية والرومية	٪ ٦٦,٦٧
المانوية	٨٢	٨٢	الفارسية والهندية	٪ ١٠٠,٠٠
الكيمياء	٣٧٠	١٥	اليونانية	٪ ٠,٠٤
الباه (الجنس)	١٣	١٠	الفارسية والهندية والرومية	٪ ٨,٨٤
التفاؤل والتشاوم	٢٢	١٦	الفارسية والهندية والرومية	٪ ٧٢,٧٢
الحكم والمواعظ والأمثال	٤٤	٣٠	الفارسية والهندية والرومية	٪ ٦٨,١٨
تفسير الأحلام	١٠	٤	الفارسية والرومية	٪ ٤٠,٠٠
السموم والترياق	٩	٢	الهندية	٪ ٢٢,٢٢
المجموع	٢٠٨٠	٦٣٢	٥	٪ ٣٠,٣٨

جدول المترجمات إلى العربية فى القرون الأربعة الأولى الهجرية.

الكراس الرابع

الإنتحال والنحلة في الكتاب الإسلامي

الإنتحال هو أن يسطو شخص على كتاب شخص آخر وينهبه وينسبه لنفسه كله أو جله أو بعضه دون وجه حق وهو ما يسمى أحيانا بالسرقة الأدبية أو السرقة الفكرية. أما النحلة فهى الطريق العكسى أى أن يقوم شخص ما بتأليف عمل فكرى وينسبه إلى آخر، برضائه أو بدون رضائه. ومن يدرس الإنتاج الفكرى العام عبر مسيرة البشرية الفكرية، سوف يدرك أن الأمرين قد عرفا منذ أقدم العصور وجدناهما فى مصر القديمة وفى العراق القديم وعند اليونان والرومان على النحو الذى أشرت إليه فى كتاب «الكتب والمكتبات فى العصور القديمة».

لم يسلم تاريخ الكتاب الإسلامى كذلك من وجود الأمرين معاً، وشكراً لابن النديم على أنه أمدنا بنماذج على الأمرين، أعمال انتحلت وأعمال نحلت، كما أمدتنا المصادر الأخرى بنماذج إضافية. وهناك أمر ثالث بين الانتحال والنحلة لابد من التنبيه إليه والوقوف عنده ذلك أن الظروف السيئة للضبط الببليوجرافى للإنتاج الفكرى آنذاك وصعوبة الاتصال ومشاكله أدت إلى الخلط بين الكتب والمؤلفين عن غير قصد وعن غير عمد، وإنما فقط بسبب عدم الفهم وقصور المعرفة وأكثر من هذا تشابه عناوين الكتب مما يؤدى إلى نسبة كتاب ما إلى غير مؤلفه ووضع إسم مؤلف على غير كتابه.

ولن نهدف فى عملنا هنا إلى حصر حالات الإنتحال والنحلة وانما فقط سوف نتتبع بعض الأمثلة لنؤكد على أنها كانت ظاهرة. وسوف أبدأ بالانتحال ثم النحلة ثم العزو.

ومن واقع كتاب الفهرست نجد أن ابن النديم يقول تحت سعيد بن حميد «كاتب، شاعر مترسل، عذب الألفاظ، مقدم في صناعته جيد التناول للسرقة كثير الإغارة». وتحت المرثدى (أبو أحمد بن بشر): «له كتاب أشعار قريش وعليه عوّل الصولى فى الأوراق وله انتحل». وتحت الصولى (أبو بكر محمد بن يحيى العباسى) يقول: «له من الكتب أخبار سديف ومختار شعره. وهذا الكتاب عوّل فى تأليفه على كتاب المرثدى فى الشعر والشعراء ثم نقله نقلاً وانتحله وقد رأيت دستور الرجل خرج من خزانة الصولى فافتضح به» وتحت ابن الفقيه الهمذانى نجد عبارة لاذعة لابن النديم تقول «له كتاب البلدان نحو ألف ورقة أخذه من كتب الناس وسلخ كتاب الجيهانى». وتحت حكاية من خط ابن المكتفى قال ابن النديم «قرأت فى كتاب بخط ابن الجهم ما هذه حكايته: كتاب المدخل لسند بن على وهبة (فى علم النجوم)، وقع فى يد أبى معشر فانتحله أبو معشر لأن أبا معشر تعلم النجوم على كبر ولم يبلغ عقل أبى معشر صنعة هذا الكتاب ولا التسع المقالات فى المواليد ولا الكتاب فى القرانات المنسوب إلى ابن البازيار. هذا كله لسند بن على».

ومن المؤلفين الذين عرف عنهم السطو على كتب الآخرين محمد بن حبيب الذى قال عنه المرزبانى «كان يغير على كتب الناس فيدعيها ويسقط أسماءهم فمن ذلك الكتاب الذى ألفه اسماعيل بن أبى عبيد وكنيته فى الغالب على اسمه فلم يذكرها لئلا يعرف وابتدأ فساق كتاب الرجل من أوله إلى آخره ولم يغير فيه حرفاً ولا زاد فيه».

كما يذكر أن كتب الخطيب البغدادى سوى التاريخ «مستفادة من كتب الصورى. كان الصورى بدأ بها ولم يتمها، وكانت للصورى أخت بصور مات، وخلف عندها اثنى عشر عدلاً مخروما من الكتب، فلما خرج الخطيب إلى الشام حصل من كتبه ما صنف منها كتبه.

وقد ذكر ياقوت الرومى فى معجم البلدان أن العلامة الحازمى مؤلف كتاب (المتفق والمختلف من أسماء البلدان) قد أخذ هذا الكتاب كله من كتاب

للإسكندرى. فيقول: «أوقفنى صديقنا محمد بن محمود النجار على مختصر اختصره الحافظ أبو موسى محمد بن عمر الأصفهانى من كتاب ألفه أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن الإسكندرى فيما أئتلف واختلف من أسماء البقاع فوجدته رجلاً ضابطاً، وقد أنفذ فى تحصيله عمراً وأحسن فيه عيناً وأثراً ووجدت الحازمى رحمه الله قد اختلس هذا الكتاب واستجهل الرواة فرواه. ولقد كنت عند وقوفى على كتابه أرفع قدره من علمه وأرى أن مرماه يقصر عن سهمه إلى أن كشف الله جبنته وتمخض المخض عن زبدته. فأما أنا فكل ما نقلته من نصر فقد نسبته إليه واحلت عليه ولم أنصبه ولا أجهلت ذكره ونصبه».

ويقول خليل بن أيبك الصفدى فى الوافى بالوفيات: اتضح للكثير من العلماء أن كتاب فصيح لثعلب، ليس له وإنما هو من تصنيف الحسن بن داود الرقى وادعاه ثعلب وقيل إنه ليعقوب بن السكيت.

كذلك أورد السخاوى فى الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع نماذج من السرقات الفكرية منها ما ورد تحت ترجمة ابن الكركى يقول عن كتابه النجوم الزاهرة فى أخبار قضاة مصر والقاهرة: «رأيت هذا الكتاب خاصة وهو مختصر لخص فيه رفع الاصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى من نسختين وكتب من هوامشها ما أثبته من تراجم من تأخر وزاد أشياء منكرة.

كما يقول فى ترجمة محمد عبد الدائم النعيمى «له شرح العمدة لخصه من شرحها لشيخه ابن الملقن من غير إفصاح بذلك مع زيادات يسيرة وعابه شيخنا ابن حجر العسقلانى بذلك».

يقول ياقوت الرومى عن أحمد بن أبى طاهر المعروف بطيفور «كان مؤدب كتاب عاميا ثم تخصص وجلس فى سوق الوراقين فى الجانب الشرقى. ولم أر ممن شهر بمثل ما شهر به من التصنيف للكتب وقول الشعر أكثر تصحيفا منه ولا أبلد علماً ولا ألحن... وكان أسرق الناس لنصف بيت وثلث... وكان مع هذا جميل الأخلاق ظريف المعاشرة».

وكان جلال الدين السيوطى يلفق بين الكتب المنشورة فى موضوع معين ويضع منها كتاباً واحداً ينسبه لنفسه وربما اختصر وأضاف إلى كتاب معين ويبدل عنوانه وينسبه لنفسه.

ويقول ابن النديم أيضا فى الفهرست أن الأخفش أخذ كتاب أبى عبيدة فى معانى القرآن فاسقط منه أشياءً، أو أبدل منه أشياء وقد اكتشف ذلك أبو حاتم السجستانى فقال له أى شئ هذا الذى تصنع من هذا، من أعرف بالعربية أنت أو أبو عبيدة؟ فقال الكتاب لمن أصلحه وليس لمن أفسده فلن يلتفت إلى كتابه وصار مطرحًا.

وكان ابن حجر العسقلانى يعيب على بعض المؤلفين النقل الأعمى بدون حتى أى تصرف من كتب الآخرين دون أن يسندوا إليهم كلامهم فيقول فى الضوء اللامع عن ابن سيد الناس كان صحيح العقيدة جيد الذهن يفهم النكت الفعلية ويسارع إليها ولكنه جمد ذهنه لاقتصاره على النقل» ويقول فى ترجمته لبدر الدين العينى عند حديثه عن كتابه شرح البخارى «استمد فيه من شرح شيخنا ابن حجر العسقلانى بحيث **ينقل منه الورقة بكاملها** وربما اعترض لكن قد تعقبه شيخنا فى مجلد حافل». . ويقول عن ابن سبط العجمى «مؤلفاته ممتعة ومحررة دالة على تتبع زائد وإتقان وهو قليل المباحث فيها كثير النقل».

هذه مجرد نماذج قليلة من ظاهرة الانتحال الكلى والجزئى التى بها حفل تاريخ الكتاب الإسلامى المبكر ولكن من النماذج المتأخرة نتوقف أما اسمين يحتاجان إلى بحث دقيق وتأن وروية فى الحكم عليهما **أولهما** طاش كوبرى زادة فى كتابه مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم فقد قيل بأن هذا الكتاب الضخم بأكمله قد انتحله المؤلف ونسبه لنفسه. يقول الأستاذ أحمد زكى فى كتابه موسوعات العلوم العربية: «وللأرنيقى كتاب إسمه مدينة العلوم اعتمد عليه صاحب أبجد العلوم [محمد صديق خان وسأعود إليه] اعتمادا كبيرا فى أغلب مواضيعه وأبوابه وأورد من مقدمته طُرفا خيلت لى أنه هو ومصباح السعادة شئ واحد أو أن أحدهما نقل عن الآخر من غير أن ينسب إليه. ولقد ازداد عجبى لما خالجنى هذا الخاطر، خصوصاً عندما رأيت صاحب الأبجد يسرد فهرس مدينة العلوم وكيفية ربطه للعلوم مع بعضها فإنها أشبهت عندى تمام

المشابهة فهرس مفتاح السعادة، إذ كنت توجهت أثناء اشتغالى [أحمد زكى] بجمع هذه الرسالة إلى الكتبخانة الخديوية واطلعت عليه قبل اطلاعى على الأبجد ثم رأيت صاحب الأبجد قد أورد العبارة الآتية على هامش صحيفة ٢٨٩ من كتابه وهى من الغرابة بمكان (ولم نقف من كتاب مفتاح السعادة إلا على ما نقله ملاكاتب الجلبى فى كشف الظنون ووقفنا على كتاب مدينة العلوم فوجدناه كأنه هو لا وكس فى العبارة ولا شطط فى الإشارة لكن لم يتعرض لذكره صاحب الكشف كما تعرض لذكر المفتاح مع أنه مقدم التأليف، فلم يحصل الفرق لنا بين هذين الكتابين فى المبنى والمعنى غير أنهما يتفاوتان اسماً ومتحدان مسمى). فلما رأيت ذلك [أحمد زكى] لم أتمالك أن توجهت إلى الكتبخانة الخديوية العامرة ثانية وقابلت بين مقدمة مدينة العلوم وفهرسه على ما فى أبجد العلوم وبين مقدمة مفتاح السعادة وفهرسه فإذا الكتابان لا يكادان يختلفان إلا فى بعض ألفاظ قليلة وزيادات طفيفة جداً وتقديم وتأخير لا يشعر به الانسان. هذا وربما كان كتاب مدينة العلوم مجهولاً فانتحله المولى طاشكبرى زاده وغير اسمه فإنا لم نسمع به قط وغاية ما علمته أثناء بحثى فى موضوع هذه الرسالة أن لأحد الفضلاء صديقاً عنده كتاب اسمه مفتاح مدينة العلوم ولم يتح لى الاطلاع عليه ولكن عالمية طاشكبرى زادة وشهرته وتداول كتبه المفيدة المتعددة مما لا يختلف فيه اثنان فليت شعرى ما هى الحقيقة فى هذا المشكل العظيم. وهل سرق الرجل هذا التأليف الجسيم وغير اسمه ليدلس على العلماء؛ لا أقدر أن أقول بذلك ولكنى أترك هذا البحث للأيام فهى تتكفل ببيان الحقيقة وإماطة النقاب عن هذا الأمر العجاب.

والاسم الثانى كنموذج متأخر هو محمد صديق خان القنوجى المتوفى سنة ١٣٠٧هـ، الذى قال عنه الأستاذ أحمد زكى فى النص السابق بصريح العبارة أنه فى كتاب أبجد العلوم اعتمد اعتماداً كبيرا على كتاب الأرنيقى مدينة العلوم. كما ذكرت مصادر أخرى عديدة عنه أنه انتحل كتبا كاملة من مؤلفات العلامة الشوكانى وابن الأمير الصنعانى ونسبها إلى نفسه.

* * *

هذا على جانب الإنتحال، أما على جانب النحلة فإن الأمثلة أيضاً كثيرة

وأسبابها متعددة، قد تكون مادية مالية، كأن يؤلف مؤلف ما كتابا وينحله لشخص طمعا فى مال يتفق عليه وقد تكون الأسباب دينية مذهبية كأن يؤلف أعضاء المذهب كتباً وينحلونها زعيم المذهب تبركاً أو سطوة؛ وقد تكون الأسباب سياسية فقد يتقرب بعض المؤلفين إلى الحاكم فينحلونه كتبا يؤلفونها له ليلطع عليها اسمه. وقد تكون الأسباب إجتماعية كأن يخاف المؤلف من المجتمع فينسب كتابه إلي شخص آخر وهو الأمر الذى استعضنا عنه فى الوقت الحاضر بالإسم المستعار والعبارة المتخذة. وقد تكون الأسباب نفسية كأن يريد شخص مغمور أن يشتهر فيؤلف كتبا وربما قصائد وينسبها إلى مؤلف راسخ أو شاعر ذى مكانة وعندما يتداول الناس عمله على هذا الوضع يشعر بسعادة نفسية غامرة. والأمثلة التى نسوقها من ابن النديم وغيره تكشف عن هذه الجوانب.

تحت أخبار جابر بن حيان وأسماء كتبه يقول ابن النديم «قال جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين، أن هذا الرجل يعنى جابراً، لا أصل له ولا حقيقة وبعضهم قال إنه ما صنف؛ وأن هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوه إياها».

كما يقول فى الفن الثانى من المقالة السابعة أن من سعادات حنين أن ما نقله حبيش بن الحسن الأعسم وعيسى بن يحيى وغيرهما إلى العربى ينحل إلى حنين. وإذا رجعنا إلى فهرست كتب جالينوس الذى عمله حنين إلى على ابن يحيى علمنا أن الذى نقله حنين أكثره إلى السريانى وربما أصلح العربى من نقل غيره أو تصفحه».

وتحت أخبار خشكنانجة الكاتب (أبو الحسن على بن وصيف) كان من البلغاء فى معناه وألف عدة كتب ونحلها عبدان صاحب الإسماعيلية». وتحت عنوان: بنو حماد «. . . وقد ألفوا كتبا وأضافوها إلى عبدان. وتحت اسماء المصنفين لكتب الإسماعيلية وأسماء الكتب «عبدان وقد تقدم ذكره وهو أكثر الجماعة كتبا وتصنيفا. وكل من عمل كتاباً نحله إياه ولعبدان فهرست يحتوى على ما صنفه من الكتب».

ومن المؤلفين الذين نحلوا كتبا ليست لهم الشيخ الغزالى حجة الإسلام فقد نسبت إليه عمداً كتب (المظنون به على غير أهله)؛ (سر العالمين)؛ (التبر المسبوك).

وفى فهرست ابن النديم أيضاً يقول حماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلى

عن أن كتاب الأغانى الكبير لم يؤلفه أبوه وانما نسب إليه عمداً، «وقد وضعه وراق كان لأبى بعد وفاته.. وليس فى الكتاب سوى الرخصة التى هى أول الكتاب فإن أبى ألفها».

أما عن الإغراء بالمال لنسبة الأعمال إلى حاكم أو سلطان أو صاحب جاه فقد قيل أن الملك الأشرف الرسولى باليمن المتوفى سنة ٨٠٣هـ كان مغرماً بنسبة الكتب إليه فربما أمر جماعة من العلماء أن يؤلفوا كتباً باسمه فيما يقول السخاوى فى الضوء اللامع. كما يقال أن الملك الأفضل الرسولى المتوفى سنة ٧٧٨هـ كانت أكثر الكتب المنسوبة إليه من وضع القاضى رضى الدين أبو بكر ابن محمد النزارى الصبرى.

ولعل اغراء المال والسلطان الذى يدفع ببعض المؤلفين إلى نحل كتبهم لغيرهم هو الذى جعل ياقوت الرومى فى مقدمة معجم الأدباء يشدد على أنه لو جمع له مال قارون للتنازل عن نسبة كتبه ونحلها إلى غيره ما فعل فهو يقول فى عبارة بليغة «واعلم لو أنى أعطيت حمر النعم وسودها ومقانب الملوك وبنودها لما سرنى أن ينسب هذا الكتاب إلى سواى وأن يفوز بقصب السبق إلأى لما قاسيت فى تحصيله من المشقة وطويت فى تكميله الشقة».

وكذلك فعل أبو غالب الأندلسى عندما ألّف كتابا فى اللغة فبذل له الملك مجاهد العامرى ملك دانية ألف دينار ومركوبا وكساءً على أن يجعل الكتاب باسمه فلم يقبل ذلك أبو غالب وقال قولته الشهيرة «كتاب ألفته لينتفع به الناس وأخلد فيه همتى، أجعل فى صدره إسم غيرى وأصرف الفخر له، لا أفعل ذلك».

* * *

وكما ألمحت سابقاً كان من السهل نسبة كتاب إلى مؤلف ما خطأً وعن غير قصد وذلك بسبب سوء عملية الضبط البيليوجرافى وضعف الإتصال فى إمبراطورية مترامية الأطراف مما سبب لهم ولنا إرباكاً شديداً فى بعض الأحيان. والأمثلة على النسبة الخطأ بدون عمد نستقيها أيضا من ابن النديم فقد ذكر تحت عوانة فى كتاب سيرة معاوية وبنى أمية «أن هذا الكتاب ينسب إلى منجاب بن الحارث ولكن الصحيح أنه لعوانة». وتحت الفتح بن خاقان «له كتاب البستان

منسوب إليه والذى ألفه رجل يعرف بمحمد بن عبد ربه ويلقب برأس البغل».
كذلك الخال عندما تحدث الفهرست عن الكسروى تحت كتاب «مناقضات من زعم أنه لا ينبغى أن يقتدى القضاة فى مطامعهم بالأئمة والخلفاء» **يعزى إلى** الكسروى الكاتب. وتحت الجاحظ «كتاب الهدايا منحول»؛ وتحت ثاوفرسطس «ومما ينحل إليه تفسير كتاب قاطيغورياس» هذه الأمثلة ومئات غيرها يغص بها فهرست ابن النديم تكشف عن النحلة بدون قصد ونتيجة للجهل بالمؤلف الحقيقى وقصور الضبط البيليوجرافى.

* * *

وعلى الجانب الآخر وربما بسبب الغيرة والحسد كان من الممكن أن يتهم بعض المؤلفين زوراً وبهتاناً بأنهم إنتحلوا أعمالاً ليست لهم وهم من هذه التهمة أبرياء. كما حدث مع العلامة أحمد بن عمار المهدوى المغربى المتوفى سنة ٤٤٠هـ فقد قيل أنه «ألف كتبا كثيرة النفع مثل كتاب التفصيل وهو كتاب كبير فى التفسير ولما ظهر هذا الكتاب فى الأندلس قيل لمتولى الجهة التى نزل بها من الأندلس ليس الكتاب من تأليفه وإذا أردت البينة على ذلك فخذ الكتاب إليك واطلب منه تأليف غيره ففعل ذلك وطلب غيره فألف له التحصيل وهو كالمختصر منه».

وربما كان الانتحال الكلى أو الجزئى وكذلك النحلة والعزو سبباً رئيسيا فى أن بعض المؤلفين كان يصب لعناته على من يفعل ذلك على النحو الذى قام به المسعودى فى ختام كتاب مروج الذهب والذى أشرت إليه سابقاً واكرره هنا حيث المقام ملائم: -

«فمن حرف شيئًا من مبناه أو طمس واضحة من معانيه أو بدله أو انتحله أو اختصره أو نسبه إلى غيرنا أو أضافه إلى سوانا أو أسقط منه ذكرنا فعليه من غضب الله وسرعة نقمته وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره ويحار له فكره وجعله مثلة للعاملين».

وبنفس الطريقة حذر ياقوت الرومى فى معجميه البلدان والأدباء من نفس السلوك.

الكراس الخامس

الوراقة والوراقون عند المسلمين

ظهر مصطلح الورّاق والوراقة بعد معرفة المسلمين للورق وانتشار صناعته فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى. وقد كان مصطلح وراق فى بدايته يعنى الناسخ الذى ينسخ الكتب بخط يده ثم تطور بعد ذلك ليعنى دوراً أكبر يرادف مصطلح الناشر فى عصرنا الحالى. ومن نفس هذا المنطلق فإن مصطلح الوراقة هو الآخر فى بداية أمره كان يعنى النسخ إمتداداً لما كان عليه الحال قبل ظهور الورق ولكنه تطور بعد ذلك ليعنى سلسلة العمليات الداخلة فى إنتاج الكتاب وهو ما يقابل فى مفهومنا الحالى مصطلح النشر بحلقاته الثلاث وأطرافه الأربعة. وغدا الناسخ طرفاً واحداً فى عملية الوراقة وغدت النساخة حلقة واحدة فى حلقات الوراقة. وكان الناسخ يطلق عليه أحيانا وخاصة فى القرنين الأول والثانى للهجرة اسم الكاتب. يؤكد المعنى الواسع للوراقة أى بمعنى النشر ثلاثى العمليات أو الحلقات، النص الذى أورده ياقوت الرومى فى معجم الأدباء والذى يقول «وحدّث أبو مسحل عبد الوهاب قال كان إسماعيل بن صبيح الكاتب قد أقدم أبا عبيدة من البصرة فى أيام الرشيد إلى بغداد وأحضر الأثرم وهو يومئذ وراق وجعله فى دار من دوره وأغلق عليه الباب ودفع إليه كتب أبى عبيدة وأمره بنسخها فكنت أنا وجماعة من أصحابنا نصير إلى الأثرم فيدفع إلينا الكتاب والورق الأبيض من عنده ويسألنا نسخه وتعجيله ويوافقنا على الوقت الذى نرده إليه فكنا نفعل ذلك وكان الأثرم يقرأ على أبى عبيدة وكان أبو عبيدة من أضن الناس ولو علم ما فعله الأثرم لمنعه من ذلك».

ويذهب عبد الرحمن بن خلدون إلى هذا المعنى الشامل فى كتابه: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من

ذوى السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون «. . . فكثرت التآليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلهما فى الآفاق والأمصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصليح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين واختصت بالأمصار العظيمة العمران».

عندما تحول معنى الوراقة من النسخ إلى النشر وتحول مصطلح الوراق من الناسخ إلى الناشر، لم يختف المصطلح بمعناه الضيق فجأة ولكن المعنى الضيق عاش فترة طويلة من الزمن إلى جانب المعنى الواسع فهذا هو السمعانى فى كتاب الأنساب يعرف الوراق بأنه اسم من يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها. ويقال لمن يبيع الورق، الوراق.

ويمكننا أن نصور الأعمال التى يقوم بها الوراق فى ذلك الوقت بمعناه الواسع (الناشر) على النحو التالى:

١ - أن ينشئ محلاً للوراقة (حانوتا أو دكانا بلغة ذلك العصر) يكون مقراً للقرطاسية من ورق وحبر وأقلام، ويكون مقراً لاجتماع النساخين لنسخ الكتب؛ يوزع عليهم العمل لنسخه تحت اشرافه. وربما يحدد من يملى الكتاب إذا كان الهدف إنتاج أكثر من نسخة فى وقت واحد ويحدد طريقة مراجعة النسخ.

٢ - يقوم بشراء القرطاسية من مصانع الورق والأحبار والأقلام والدوى. . . وربما يصنع بعضها فى دكانه مثل الحبر والأقلام مما لايحتاج إلى مجهود خاص أو آلات خاصة. كما يقوم باختيار الورق المناسب من حيث النوع والحجم والجودة.

٣ - يستأذن المؤلفين فى نسخ وتوزيع كتبهم ويتفق معهم. وفى بعض الأحيان كان يتم الأمر دون إذن من المؤلفين. وكان الوراق يحدد ما قد يروج لديه من الكتب.

٤ - الاتفاق مع الزبائن من مشتريى الكتب على النسخ التى يريدونها

والسعر الذى يدفعونه فيها. وترتيب تجليد الكتب وتصويرها ووضع رسومها وزخرفتها إن كان ذلك مطلوبا من قبل الزبائن.

٥ - فى القليل النادر كان بعض الوراقين يملكون ورش تجليد لتجليد الكتب لأن التجليد والتصوير كانا عملين منفصلين عن النسخ وإن كانا يدخلان فى الوراقة بمعناها الواسع.

٦ - يقوم ببيع الكتب وتوزيعها سواء تم ذلك فى دكانه أو خارج الدكان فى الأسواق وعلى البيوت فتذكر المصادر أن ياقوت الرومى كان يحمل الكتب على أتانه ويذهب بها إلى الأسواق لبيعها.

وقد انتشرت دكاكين الوراقين وحوانيتهم فى الدولة العباسية منذ أيامها الأولى فيما نستشف من معجم الأدباء لياقوت الرومى. بل وكان من الظواهر الطريفة أن تكون لهم أحياء خاصة بهم فى المدن الكبرى على نحو ما كان للصناعات الأخرى وكانت لهم أيضا أسواق خاصة. وتذكر المصادر أن عدد حوانيت الوراقين فى ربض وضاح وهو من ضواحى بغداد بلغ أكثر من مائة دكان فى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) كما كانت هناك أسواق للكتب فى القاهرة ودمشق ومعظم المدن الإسلامية فقد ذكر الدكتور أحمد شلبى فى كتاب تاريخ التربية الإسلامية أنه كان فى مصر فى عهد الطولونيين والإخشيديين سوق عظيمة للوراقين تعرض فيها الكتب للبيع وأحيانا تدور فى دكاكينها المناظرات. كما يذكر المقريزى فى (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) سوق الوراقين بالقاهرة فى أكثر من موضع وفى أكثر من مناسبة، كما يشير إلى سوق الوراقين القديمة التى حل محلها سوق لصبغ الجلود. ويشير ابن النديم إلى مكان آخر فى بغداد تباع فيه الكتب وهو طاق الحرانى عند حديثه عن جعفر بن أحمد المروزى الذى توفى بالأهواز وحملت كتبه إلى بغداد وبيعت فى طاق الحرانى هذا سنة ٢٧٤هـ. وقد سبقت الاشارة إلى ماقاله ياقوت الرومى وما قاله ابن النديم فى أخبار أحمد بن أبى طاهر المعروف بابن طيفور وهو من أبناء خراسان الذى كان مؤدب كتاب عامياً ثم

تخصص وجلس فى سوق الوراقين فى الجانب الشرقى من بغداد. هذا النص يؤكد على أن سوق الكتب فى بغداد كانت فى الناحية الشرقية من المدينة فى القرن الرابع والخامس الهجرى وربما بعدهما.

وكانت الوراقة عموما مهنة محترمة اشتغلت بها طائفة من العلماء المؤلفين المحترمين من بينهم محمد بن إسحاق ابن النديم وأبوه إسحق النديم على نحو ما شرحنا تفصيلاً فى دراستنا للفهرست. ومنهم ياقوت الرومى الحموى نفسه. ومنهم سعد بن على بن القاسم أبو المعالى الأنصارى الخطيري الذى يصفه ياقوت فى معجم الأدباء بأنه كان «أديبا فاضلاً شاعراً رقيق الشعر وله مصنفات كان معروفا باسم الوراق دلال الكتب». كما كان أبو الفتوح ناصر بن أبى الحسن المعروف بابن صورة سمساراً فى الكتب فى مصر. وهناك أيضا من الدلائل ما يدل على أن أبا حيان التوحيدى كان وراقا بالمعنى الشامل للوراقة، وغير هؤلاء كثيرون.

وهناك من الشواهد ما يؤكد على أن دور الوراقة - دور النشر فى مفهومنا - كانت أماكن لالتقاء المثقفين والعلماء ومنتدى للجدل والمساجلة والنقاش والتواصل الفكرى وتبادل المعلومات والأحداث وإلقاء الأشعار. ومن المعروف المشهود أن الجاحظ كان يبيت فى حوانيت الوراقين للقراءة وكانت نهايته فيها عندما انهارت عليه رفوف الكتب بأحمالها وأثقالها. كما أن أبا الفرج الأصفهانى كان دائم التردد على أسواق الوراقين فى بغداد لنفس الغرض ويقال إنه كان يجلس طويلاً عند وراق معين. كما اعتاد الشاعر أبو الحسن على بن يوسف بن البقال الجلوس عند الوراق أبى الفتح بن الجزار فى نفس السوق.

ويشير ابن خلكان إلى سمسار الكتب الذى ألمحت إليه سابقاً وهو أبو الفتوح ناصر بن أبى الحسن على بن خلف الأنصارى المعروف بابن صورة، الذى كانت دكانته دار ندوة أدبية كبرى وكان له فى ذلك حظ كبير إذ كان يجلس فى دهليز داره ويجتمع عنده فى يوم الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء

والفضلاء ويعرض عليهم الكتب التى تباع ولا يزالون عنده إلى وقت إنقضاء السوق. وقد توفى ابن صورة سنة ٦٠٧هـ.

وكما هو الحال فى كل مهنة وجد من بين الوراقين من أساءوا إلى مهنة الوراقة اساءة بالغة وذلك عن طريق:

١ - دس معلومات لم يقل بها مؤلف العمل الأصلى فيما ينسخون من كتب مما سنرى نماذج له فيما بعد.

٢ - تزوير بعض الحقائق عن طريق تغيير ما يجدونه فى الكتاب الذى ينسخون.

٣ - نسبة كتاب إلى غير مؤلفه أو انتحال إسم مؤلف كبير رغبة فى ترويج كتاب من وضع مؤلف مغمور.

٤ - رداءة الخط وسوء إخراج الكتاب باستخدام نساخ منخفض الأجرة.

وبسبب ذلك ضرب عنهم المثل القائل «تصنيف الوراقين وكذب المؤلفين» إشارة إلى أن المعلومات غير دقيقة وغير موثقة أو كما نقول فى أيامنا «كلام جرايد».

الناسخون والنساخة

وعندما نترك الوراقة والوراق بالمعنى الواسع (النشر والناشر) إلى المعنى الضيق أى النسخ والناسخ؛ سوف نجد أن المصادر القديمة قد جادت علينا بكثير من المعلومات التى يمكن مع تبعثرها وشتاتها أن نكون منها قطعة من الفسيفساء المعبرة عن النسخ والناسخين فى العصر الإسلامى.

كان هناك ثلاث فئات من الناسخين فى ذلك العصر: أ - ناسخ يعمل فى خدمة وراق معين. ب - ناسخ يعمل فى خدمة مؤلف معين. ج - ناسخ مستقل يعمل لحسابه الشخصى.

ذلك أن الوراقة عندما اتسعت رقعتها وعلا شأنها وأصبح هناك العديد من

دكاكين الوراقين على النحو الذى أشرت إليه كان لابد للوراق الواحد لكى ينجز أعماله بسرعة من أن يستخدم عدداً من الناساخين ينسخون له كتبه بالجملة عندما يكون المطلوب عدداً من النسخ من كتاب معين فى وقت واحد. حيث كان يملى أحد النساخ الكتاب على عدد من زملائه الناسخين بعدد النسخ المطلوبة ويقوم كل واحد منهم بمراجعة نسخة زميله للتأكد من سلامتها أو يقوم رئيسهم بالمراجعة حسب مقتضيات الأحوال، وربما قام الوراق صاحب العمل بهذا العبء. وربما كان الوراق صاحب العمل يؤجر الناسخين الأفراد العاملين عنده باليوم وليس بالورقة أو الملزمة كما سنرى فى حالة الأفراد المستقلين. فيذكر ابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان على لسان محمد بن خلف المرزبانى المتوفى سنة ٣٠٩هـ يقول «مضيت إلى الحارث بن أبى ساسة فوجدت فى دهليز بيته قوما من الوراقين وهو يكتب أسماءهم على كل واحد درهمين فقلت له أكتب إسمى فكتب» فالنساخ هنا يتقاضون أجورهم بالمياومة وليس بالورقة أو النسخة.

وقد جرت العادة منذ القرن الثانى الهجرى أن يكون لبعض المؤلفين الناسخ الخصوصى الذى ينسخ للمؤلف كتبه حسب مواصفاته فابن النديم يسرد علينا نماذج من هؤلاء النساخ فلقد كان للجاحظ وراقه الخاص واسمه زكريا بن يحيى وقد ذكر ابن النديم أنه رأى بعض كتب الحاجظ بخط هذا الناسخ مثل كتاب النساء وكتاب النعل، كما كان على بن أحمد الدريدى وراقا لابن دريد وإليه صارت كتب ابن دريد بعد موته. وكان للمبرد أكثر من وراق واحد حيث قال ابن النديم «ومن وراقى المبرد: ابن الزجاجى واسمه إسماعيل بن أحمد؛ والساسى وإسمه إبراهيم بن محمد» ومن تلاميذ الكندى ووراقيه، حسنويه وسلمويه ونفطويه.

أما الفئة الثالثة من الناسخين وهى فئة الوراقين المستقلين الذين كانوا يكسبون عيشهم من وراء النسخ فأغلب الظن أنهم كانوا ينسخون الكتب ويبيعونها لحسابهم أو يؤجرهم شخص ما يريد اقتناء الكتاب لنسخه له مقابل

مال يتفق عليه سلفاً وهم يشبهون الكتبة الذين يجلسون أمام المحاكم فى أيامنا ليكتبوا للمتقاضين شكاواهم التى يتقدمون بها إلى المحاكم أو أقسام البوليس والنيابات. وهؤلاء ربما احترفوا النسخ لحاجتهم إلى المال وتمدنا المصادر بفيض من أسماء هؤلاء النساخين من بينهم بعض الإناث، ومن بينهم علماء أجلاء دفعتهم الحاجة إلى إحتراف هذه المهنة وربما دفعهم الفقر والفاقة دفعاً إلى ذلك.

من الشخصيات التى توقفت عندها المصادر أحمد بن محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد الذى صار خليفة فيما بعد وسمى «المستعين بالله» عام ٢٤٨هـ، دفعته الفاقة - فيما يقول الدكتور على الخطيب - إلى أن يرتزق بالوراقة. ومنهم أبو حيان التوحيدى الذى أشرنا إليه من قبل وقد دفعته الفاقة هو الآخر لأن يعمل بالنسخ ليتكسب من ورائه. ومن الوراقين الأفراد أبو على بن شهاب العكبرى المتوفى سنة ٤٢٨هـ (١٠٣٨م) وأبو عبيد على بن الحسين بن حرب البغدادى الفقيه الشافعى قاضى مصر عاش فى القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى. ومنهم أيضا السرى الرفاء الشاعر الأشهر المتوفى سنة ٣٦٠هـ. ويقول ابن النديم أن أقدم النساخ هو مالك بن دينار مولى أسامة بن لؤى بن غالب الذى كان ينسخ المصاحف وقد توفى سنة ١٣١هـ (٧٤٨م).

ومن الناسخين العلماء أيضا أبو سعيد السيرافى، والحسن بن عبد الله المرزبانى المتوفى سنة ٣٦٧هـ والفقيه أبو بكر على بن الحداد المتوفى سنة ٨٠٠هـ الذى كان عنده أولاد كثيرون وأصابه الفقر فاشتغل بالنسخ ورفض عطايا سلطان اليمن. وهناك خبر طريف ذكره القفطى عن الحسن بن الهيثم وهو ما هو عليه من شهرة وعلم والمتوفى سنة ٤٣٠هـ يقول الخبر عنه إنه «كان ينسخ فى مدة سنة ثلاثة كتب ضمن اشتغاله بالعلم وهى كتاب إقليدس والمتوسطات والمجسطى ويستكملها فى مدة السنة فإذا شرع فى نسخها جاء من يعطيه فيها مائة وخمسين ديناراً مصرية. وصار ذلك كالرسم الذى لا يحتاج فيه إلى مماكسة ولا معاودة قول فيجعلها مؤونته لسنة كاملة.

وقد ذكر الصفدى فى الوافى بالوفيات أن الفقيه أحمد بن على الحطيئة الفاسى قد دخل مصر مع أولاده وصادف دخوله مجاعة كبيرة فاشتغل بالنسخ وعلم زوجته وابنته النسخ فكانتا تكتبان مثل خطه ونسخ الكثير بالأجرة فإذا شرعوا فى نسخ كتاب أخذ كل واحد جزءا وكتبوه فلا يفرق بين خطوطهم إلا حاذق.

وقد أمدتنا المصادر باسم ناسخة مغربية هى عائشة بنت الفقيه عمارة بن يحيى عمارة، يقول الغبرينى عنها فى كتاب الدراية «كانت أديبة أريبة فصيحة وكان لها خط حسن رأيت كتاب يتيمة الدهر للثعالبى بخطها فى ثمانية عشر جزءا وهى نسخة خطية ثمينة ما رأيت أحسن منها ولا أصح وقد رأيت من هذا الكتاب نسخاً كثيرة منتقدة إلا هذه النسخة ولهذا يجب أن تكون هذه النسخة أصلاً لهذا الكتاب حيث كان».

* * *

ومن الطريف أن بعض المؤلفين كان ينسخ كتبه ويبيعها كما يقوم بعض المؤلفين فى زماننا بالنشر على حسابهم لكتبهم. ومن بينهم أبو الفتح سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤هـ الذى كان يتكسب من نسخ كتابه (عيون الأثر) الذى يعالج السيرة النبوية، ومنهم علان الشعوبى مؤلف كتاب المثالب وغيرهما. ولسنا نعرف السبب وراء ذلك هل كان الهدف تحقيق الربح من وراء كتب رائجة ومنع الآخرين من نسخها والاتجار فيها وتفويت الفرصة عليهم، أم كان الهدف هو حماية الكتاب من النسخ الردئ الملئ بالأخطاء؟ ذلك أن هؤلاء المؤلفين لم يكونوا لينسخوا غير كتبهم ويتربحوا من ورائها.

* * *

لقد كان عدد الناسخين فى هذه الفئة كبيراً وكانت هناك منافسة شديدة فيما بينهم على عملية نسخ الكتب. وظهر من بينهم الناسخ الخطاط، الذى يسعى الناس وراء الكتب التى ينسخها، ليس حبا فى الكتب أو موضوعاتها وإنما رغبة

فى الخط نفسه وصاحب الخط، كما هو الحال مع الوزير ابن مقلة (أبو على محمد بن على بن مقلة) الخطاط الشهير (٢٧٢هـ - ٣٢٨هـ) وهو أول من هندس الحروف وقدر مقاييسها وأبعادها بالنقط وضبطها ضبطا محكماً. وكما حدث أيضا مع محمد بن السمسمانى ومحمد بن أسد. وكان محمد بن على بن عبد الله السمسمانى متفوقا فى الخط لايماثله أحد فى زمانه. وقد توفى سنة ٤١٥هـ. أما محمد بن على بن سعيد بن أسد القارى فكان أيضا من المبرزين أصحاب المدارس فى الخط وقد توفى سنة ٤١٦هـ.

ولعل الناسخ الخطاط الذى ضربت شهرته الآفاق وتهافت الناس على النسخ التى ينسخها ودفعوا فيها مبالغ كبيرة هو أبو الحسن على بن هلال المعروف **بابن البواب** وقد قال عنه محمد بن حسن الطيبى فى كتابه (جامع محاسن كتابة الكتاب) «لم يوجد فى المتقدمين ولا فى المتأخرين من كتب مثله أو قاربه... فالكل معترفون لأبى الحسن بالتفرد وعلى منواله ينسجون وليس فيهم من يلحق شأوه ولا يدعى ذلك مع أن فى الخلق من يدعى ماليس فيه فما رأينا ولا سمعنا أن أحداً ادعى ذلك، بل الجميع أقروا له بالسابقة وعدم المشاركة». ومن حسن حظنا أن قام الطيبى هذا (توفى ٩٠٨هـ: أى بعد خمسة قرون تقريباً من وفاة ابن البواب الذى توفى ٤٢٣ أو ٤١٣هـ) بوضع الكتاب المذكور وجمع فيه طرق ابن البواب فى جميع الخطوط وأتحفنا بنماذج من خطه، وهو أشمل كتاب عن خط ابن البواب وحياته وقد حققه الأستاذ صلاح الدين المنجد ونشر فى بيروت ١٩٦٢ . وكانت لابن البواب حيل طريفة ذكر جانبا منها ابن النديم سوف نأتى على بعضها فيما بعد.

وكان من الطبيعى أن يفضل مشترو الكتب نسخ بعض النساخ عن الآخر ربما بسبب جمال الخط والإخراج، وربما لأنهم يثقون فى صحة ما يكتبون وخلو نسخهم من أخطاء النسخ وربما لانهم اعتادوا على قراءة خطوطهم، وربما لغير ذلك من الأسباب التى لم تصلنا.

على الجانب الآخر كان هناك ناسخون ينسخون الكتب لأنفسهم لتكوين

مكتباتهم الشخصية أو ينسخون كتبهم هم خشية التحريف والتصحيف فيها كما أسلفت وكانوا يشترون الورق والحبر والأقلام من مالهم وربما كان ذلك أكثر توفيرا لهم وإن كان مجهداً لهم مستهلكا لوقتهم فقد قال ابن الجوزى يصف ما فعله فى هذا الصدد قال «كتبت بإصبعى هاتين ألفى مجلدة». وقال محمد بن عمر سمعت ابن شاهين يقول حسبت ما اشتريت به الحبر إلى ذلك الوقت لمدة شهر فكان سبعمائة درهم.

أجرة النسخ والوقت المستغرق

أما فيما يتعلق بأجرة النسخ والوقت المستغرق فى هذه العملية فلم يكن لهما قاعدة محددة وهذا أمر طبيعى لأنهما يتفاوتان طبقا لعدد من المتغيرات من بينها:

١ - مكانة الناسخ وشهرته وجودة الخط.

٢ - طبيعة الوراق وحجم العمل عنده وعدد الناسخين الذين يعملون فى دار وراقته.

٣ - طبيعة الكتاب الذى ينسخه.

٤ - مكانة الشخص الذى ينسخ له الكتاب.

٥ - الزمن الذى عاش فيه الناسخ وأسعار الكتب فى ذلك الزمن.

٦ - الوقت المستغرق وحجم الجهد المبذول فى نسخ الكتاب.

٧ - أسلوب تحديد أجرة النسخ؛ ومدى حاجة الناسخ إلى المال.

ومن الطبيعى فى كل زمان أن يتقاضى الناسخ الخطاط - كما رأينا فى حالة ابن مقلة وابن البواب - أجرة عالية على ما ينسخون أعلى بكثير مما يتقاضاه الناسخ العادى. وتعتمد هذه الأجرة على درجة الشهرة وجودة الخط. كما أن مكانة الوراق (الناشر) وحجم ما لديه من عمل وحاجته إلى سرعة الإنجاز، أو عدم السرعة وتوافر النساخ الذين يحتاجهم العمل وعدم توافرهم يجعل الأجور تتذبذب إرتفاعا وانخفاضا حسب مقتضيات الأمور. كما كانت طبيعة الكتاب

الذى ينسخه أيضا تتدخل فى تقدير قيمة أجرة النسخ فالمصاحف كان يدفع فيها مبالغ كبيرة وكذلك كتب الحديث النبوى على عكس الكتب العلمانية. إن الكتب التى عليها إقبال شديد مثل كتب الأدب والتواريخ كانت هى الأخرى من الكتب التى تدفع فيها أجور عالية للنساخ. وعندما يكون طالب النسخ خليفة أو أميراً أو وجيها فإنه يقينا كان يدفع مكافأة عالية ليس كأجرة على النسخ وانما كعطية ينفحها للناسخ، على عكس عامة الناس عندما يؤجرون الناسخ عن نسخ كتاب فإنهم قد يبخسون الناسخ ويساومونه. فى بعض الأزمنة يرتفع شأن الكتب ويقبل عليها الناس أيما إقبال ومن ثم يرتفع شأن الناسخين وترتفع أجورهم وفى أحيان أخرى قد ينفق سوق الفكر والكتب وبالتالى ينحط شأن الناسخين وتنخفض أجورهم. ولعله من نافلة القول التأكيد على أن حجم الكتاب المنتسخ وعدد أوراقه والجهد المبذول فى نسخه والدقة فى هذا النسخ كلها عوامل تتدخل فى تحديد أجرة الناسخ. وكما سنرى فيما بعد اختلف أسلوب تقدير الأجرة ليس فقط من وراق إلى وراق ومن زمن إلى زمن بل أيضا لدى الوراق الواحد فى الزمن الواحد فقد كانت الأجرة تحدد أحيانا على أساس «اليومية» بصرف النظر عن كمية المنتج من الكتب وأحيانا تحسب على أساس عدد الأوراق أو الملازم التى تنسخ بصرف النظر عن الوقت المستغرق فيها. وفى بعض الأحيان كانت الأجرة يتم تقديرها على أساس جزافى بالكتاب كله وحاجة الناسخ إلى المال الذى يكسبه فيه.

وفى حدود الحالات التى توصلنا إليها سوف نستعرض أجرة النسخ والوقت المستغرق فيها والملابسات التى تؤدى إليها.

وبداية لابد من التفريق بين ناسخ مهنته وأكل عيشه من عملية النسخ ومن ثم فإن يعمل بها كل أو جل حياته، وناسخ قعدت به ظروفه واضطرته حاله أن يعمل بالنسخ لفترة وبعد أن تحسنت ظروفه وزالت غمته ترك هذه العملية التى دخلها مضطراً؛ وهذه الفترة التى يعمل فيها بالنسخ قد تكون مجرد كتاب واحد أو بضعة أشهر أو سنة أو عدة سنوات حسب مقتضيات الأحوال.

وقد قال ابن رجب الحنبلى فى الآداب الشرعية «لقد وصلنا إلى زمان تقطعت فيه الأسباب، حتى لو احتاج العالم فى هذا الزمان المظلم أن يجتهد فى كسب إن قدر عليه وإن أمكنه نسخ بالأجرة ويدبر ما يحصل له ويدخر الشئ لحاجة تعرض لئلا يحتاج إلى نذل». كما يقول آدم متز فى كتاب الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع «إذا لم يكن العالم صاحب منصب ولم يجد ما يعيش منه اشتغل بنسخ الكتب».

وقد مر بنا خبر فقيه اليمن أبى بكر بن على الحداد المتوفى سنة ٨٠٠هـ والذى كان له عدد كبير من الأولاد واضطر لإعالتهم أن يعمل بالنسخ ولم يقبل الاحسان حتى من السلطان الذى كان يرفده بالعطايا فيرفضها.

كذلك مر بنا خبر الحسن بن عبد الله المرزبانى المتوفى سنة ٣٦٧هـ وكان لا يأكل إلا من عمل يده فى النسخ وكان ينسخ قبل أن يجلس للقضاء والاشتغال، كل كراس بعشرة دراهم يتقوت بها. والكراس فى ذلك الوقت ملزمة من عشر ورقات ومن ثم تكون الورقة لهذا الشخص وأؤكد لهذا الشخص بدرهم.

وفى أحيان أخرى كان الناسخ ينسخ كل خمس أوراق بدرهم وفى أحيان ثالثة كان الناسخ العادى ينسخ الكتب العادية كل عشر ورقات بدرهم. على نحو ما ذكره الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد. وهو نفسه الذى قال بأن العلامة أبو سعيد السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨هـ كان يتقاضى درهما واحدا على نسخ الورقة على نفس مستوى الحسن بن عبد الله المرزبانى المعاصر له. حيث يقول «فكان لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس فى كل يوم إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرتها عشر دراهم تكون قدر مؤنته ثم يخرج إلى مجلسه».

وقد مر بنا خبر العلامة محمد بن خلف المرزبانى المتوفى سنة ٣٠٩هـ الذى كان يتقاضى وزملاؤه من النساخين لدى الحارث بن أبى ساسة الوراق درهمين عن اليوم الواحد بصرف النظر عن كمية ما ينسخون.

ويذكر الصفدى فى الوافى بالوفيات أن حنين بن إسحاق المترجم المشهور الذى مر بنا ذكره فى فصل سابق كان يعطى وراقه محمد بن الحسن الأحول عشرين درهما على كل مائة ورقة وهذا يعنى أن كل خمس ورقات بدرهم.

وكما أشرت من قبل كان نسخ الكتب للسلاطين والملوك والأمراء والأعيان لا يدفع عنه أجر وإنما يدفع عنه مكافأة شاملة بآلاف الدنانير والمثال على ذلك يأتينا من الصفدى الذى ذكر بأن الفقيه محمد بن شريف بن الوحيد نسخ ختمة للسلطان بيبرس الجاشنكيرى سلطان مصر، فى سبعة أجزاء، كتبها بماء الذهب فأعطاه السلطان ألفا وستمائة دينار مقابل ماء الذهب وألفا وأربعمائة دينار مقابل النسخ.

ولابد فى هذا المقام من أن نفرق بين النسخ كعمل يؤجر عليه الناسخ على النحو الذى مر بنا والنسخ للبيع، حيث كان بعض النساخين يقوم بنسخ كتاب بنفسه ثم يتولى بيعه بنفسه فهو هنا قام بدور الناسخ ودور البائع ومن ثم لا يمكن أن نعتبر ثمن بيع الكتاب بمثابة أجرة على النسخ فالثمن هنا هو ثمن المنتج النهائى ككل بما فيه قيمة المواد وثمن الفكر والربح ومجهود النسخ... وهو أمر سوف نعالجه فى حينه عند الحديث عن بيع وتداول الكتب عند المسلمين والأمثلة عليها كثيرة.

إذن فالأسعار التى سادت فى عملية نسخ الكتب كما صورتها الأمثلة السابقة تسير على النحو الآتى:

الكراس (عشرة ورقات) بعشر دراهم أى أن الورقة بدرهم.

كل خمس ورقات بدرهم أى أن الورقة بخمس درهم.

كل عشر ورقات بدرهم أى أن الورقة بعشر درهم.

كل يوم بصرف النظر عن كمية ما ينسخ بدرهمين.

أما عن الوقت المستهلك فى النسخ فكان هو الآخر يتفاوت حسب درجة التأنى والدقة فى النسخ، كما كان يتفاوت أيضا طبقا لخبرة الناسخ وسيطرته وسرعته فى النسخ مع الدقة ويتوقف كذلك على الظروف الصحية وظروف الإملاء نفسها. وقد وضعنا أيدينا على بعض الحالات التى تصور الوقت المستهلك إلى حد ما. ويذكر الصفدى أن العلامة أحمد بن عبد الدائم الفندقى المتوفى سنة ٦٦٨هـ كان يكتب إذا تفرغ للنسخ تسع كراريس أو أكثر فى الليلة واليوم (أى ما بين ٩٠ - ١٠٠ ورقة) ويكتب الكراسين والثلاث مع اشتغاله فى يوم وليلة (أى فى حالة عدم التفرغ) ما بين ٢٠ - ٣٠ ورقة، حتى قيل إنه كان يكتب كتاب القدورى فى الفقه الحنفى فى ليلة واحدة ويعلق الصفدى على ذلك بأنه مستحيل. كما قيل بأنه كان ينظر فى الصفحة نظرة واحدة وينقلها ويستمر الصفدى فى التعليق على هذه الطريقة فى النسخ بقوله «ولذلك يوجد له الغلط فيما يكتبه كثيرا ولازم النساخة خمسين سنة وخطه لانقط فيه ولا ضبط».

ويذكر السخاوى فى الضوء اللامع أن المؤرخ محمود بن أحمد العينى المشهور ببدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥هـ يقال أنه كتب كتاب القدورى فى ليلة واحدة وكذلك كتب كتاب الحاوى فى ليلة أيضاً.

ويجب أن نتوقف طويلاً ومليا أمام ما ذكره الصفدى عن القاضى شرف الدين القناوى المتوفى سنة ٦٩٢هـ من أنه «كتب بَمدّة واحدة مائة وعشرين سطراً وقيل إلى ثلثمائة سطر أو ما يقرب منها».

والحقيقة أن بعض الناسخين كان لديه صبر وجلد وقوة تحمل ودأب على عملية النسخ وهذا موجود فى كل الحرف والمهن ومن هنا كان إنتاجهم غزيراً وسليماً كذلك، ومن هؤلاء كان يحيى بن عدى المتوفى سنة ٣٦٤هـ وقد ذكر ابن النديم فى الفهرست أنه كان نصرانيا ومع ذلك كان ينسخ كتب تفسير

الحديث وكتب علم الكلام (التوحيد). وقد لامه البعض على كثرة النسخ والصبر عليه والقعود له فترات طويلة فقال له «من أى شئ تتعجب؟ أمن صبرى وقعودى... لقد كتبت من كتب المتكلمين مالا يحصى، وأنا أكتب فى اليوم مائة ورقة وأقل» كأن ما يكتبه قليل!!

ويؤكد ابن حجر العسقلانى فى الدرر الكامنة أن ابن الفوطى، مع حسن خطه كان يكتب أربع كراريس فى اليوم الواحد وينقل عن الصفدى أن هناك من أخبره بأن إبن الفوطى كان ينام ويضع ظهره على الأرض ويكتب ويديه إلى وجهة السقف.

وقد عرف عن محمد بن إبراهيم الطاهرى وهو من الناسخين المحترفين أنه كان يؤثر الإنفراد والوحدة مع الجلد على النسخ والسرعة مع الإتقان بحيث كان يكتب فى اليوم الواحد خمس كراريس وأكثر وربما تعب فيضطجع على جنبه ويكتب. وقد كتب لنفسه ولغيره كثيرا من الكتب الكبيرة والصغيرة وخاصة كتب التاريخ والتفسير وقد وجد فى نهاية إحدى نسخ كتاب النهر لأبى حيان التوحيدى أنها النسخة الثانية والعشرين بعد المائة مما كتبه بخطه. ويستطرد السخاوى فى القول عنه فى الضوء اللامع: ولسرعة كتابته وملازمته لها كان موسعاً عليه أى يكسب من وراء ذلك المال الوفير.

ومن بين الناسخين المكثرين أيضا نجد العلامة أحمد بن عبد الدائم المقدسى المتوفى سنة ٦٦٨هـ الذى كان سريعا فى الكتابة، كتب مالا يوصف من الكتب الكبار حتى أنه كان يكتب فى اليوم إذا تفرغ تسع كراريس وأكثر ويكتب مع إشتغاله بمصالح الناس الكراسين والثلاثة وكتب كتاب الخرقى فى الفقه الحنبلى فى ليلة واحدة.

***

كما فى كل مهنة أو حرفة كان هناك الوراقون الأخيار الذين دعموا مهنة الوراقة وحافظوا على تقاليدها الشريفة وحققوا رسالتها السامية وهم الكثرة الغالبة. وكان هناك على الجانب الآخر الوراقون الأشرار الذين إنحرفوا عن الطريق السوى والتقاليد المرعية وأساؤوا إلى المهنة بقصد تحقيق مكاسب مادية وربما لأسباب نفسية أو عقلية معتلة. وكانت هناك طائفة ثالثة من الوراقين الظرفاء لاهم بالأخيار ولا هم بالأشرار ولكنهم كانوا ظرفاء يعمدون إلى بعض «المقالب» الطريفة. وقد تصدى بعض المؤلفين ممن لهم خبرة طويلة بمجال الوراقة بمعناها الشامل وبمعناها الضيق بوضع دستور أو قواعد وإرساء تقاليد يجب أن يتحلى بها الوراق. وكما هو حال الدنيا هناك من احتفل بمهنة الوراقة وهناك من تبرم بها ربما بسبب تجربة أليمة ألمت به من ورائها أو ربما لعلاقته السيئة بأحد الوراقين.

ولعل أسوأ تجاوز فى مهنة الوراقة وأبلغ إساءة تحدث فيها هى التصرف العمدى فى نص المؤلف بشكل من الأشكال الآتية:

- دس معلومات إلى نص المؤلف بما لم يقل به.
- اختصار المعلومات وتلخيصها دون التنبيه إلى ذلك وكما لو كان المؤلف تركه على هذا النحو.
- التقديم والتأخير على غير النحو الذى عرض به المؤلف مادته العلمية.

ومن التجاوزات الصغيرة غير المتعمدة السهو والخطأ النسخى والتصحيف ووضع كلمة مكان كلمة. كذلك فإن رداءة الخط نتيجة السرعة تسئ إلى مهنة الوراقة.

وقد أورد الدكتور على الخطيب فى كتابه «تراثنا المخطوط من التأليف إلى الوراقة» مثالاً على دس معلومات إلى نص المؤلف بما لم يقل به وذلك فى

إحدى نسخ (الكامل فى التاريخ لابن الأثير) والذى أقحم فيه حواراً اختلق على لسان عمرو بن عباس ونحن نذكره هنا على سبيل المثال أيضاً. ففى هذا النص المدسوس أن عمر بن الخطاب قال لابن عباس: «يا ابن عباس، أتدرى ما منع قومكم منكم بعد محمد ﷺ، فكرهت أن أجيبه. فقلت لم أكن أدرى فإن أمير المؤمنين يدرينى.

فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا (تتباهوا وتتفاخروا) على قومكم بجحاً بجحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت فقلت يا أمير المؤمنين إن تأذن لى فى الكلام وتمط عنى الغضب تكلمت. قال تكلم. قال: أما قولك يا أمير المؤمنين، إختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت، فلو أن قريشاً إختارت لأنفسها حيث اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود. وأما قولك: أنهم أبوا أن تكون لنا النبوة والخلافة فإن الله عز وجل وصف قوما بالكراهة فقال: ﴿**ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم**﴾.

فقال عمر: هيهات والله يا ابن عباس فقد كانت تبلغنى عنك أشياء كنت أكره أن أترك عليها لتزيل منزلتك منى، فقلت ما هى يا أمير المؤمنين: فإن كانت حقاً فما ينبغى أن تزيل منزلتى منك، وإن كانت باطلاً فمثلى أماط الباطل عن نفسه. فقال عمر: بلغنى أنك تقول: انما صرفوها عنك حسداً وبغياً وظلماً فقلت: أما قولك يا أمير المؤمنين ظلماً فقد تبين للجاهل والحليم. وأما قولك حسداً، فإن آدم حسد ونحن ولده المحسودون فقال عمر هيهات هيهات: أبت والله قلوبكم يا بنى هاشم إلا حسداً ما يحول، وضغنا وغشاً لايزول: فقلت مهلاً يا أمير المؤمنين لا تصف قوماً أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا بالحسد والغش، فإن قلب رسول الله - ﷺ - من قلوب بنى هاشم فقال عمر: إليك عنى يا ابن عباس؛ فقلت أفعل فلما ذهبت أقوم استحيا منى فقال يا ابن عباس: مكانك فوالله إنى لراع لحقك محب لما سرك. فقلت يا أمير

المؤمنين إن لى عليك حقاً وعلى كل مسلم فمن حفظه أصاب، ومن أضاعه فحظه أخطأ ثم قام فمضى.

والقصة برمتها ليست من الأصل الذى وضعه ابن الأثير (أبو الحسن على ابن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى بن الأثير) فى كتابه الكامل فى التاريخ، وإنما هى مدسوسة، دسها ناسخ تلك النسخة ووضعها زيادة فى النص. وكما سبق أن رأينا فإن بعض المؤلفين يرمى فاعلها باللعنة كذلك يفعل بعض المحققين فى أيامنا. ذلك أن ابن عباس رضى الله عنه كان بعيداً عن تيارات السياسة قريبا من عمر محباً له وهو واحد من القلة التى لازمت عمر حتى مات ثم ما كان من هو عمر فى دينه وورعه وعدله ليصدر عنه مثل هذا الكلام. وواضح أن واضعها ممن يكرهون عمر ويريد أن ينال منه فى دينه.

وكما أن الإضافة مذمومة تسئ للوراقة فإن الإختصار أيضا مذموم يسئ إليها والأمثلة عليه كثيرة ومن الباحثين من يدخلها فى باب خيانة الأمانة ولعنها كما لعن الدساس. وقد ذكر أن أبا العباس المصرى وراق أبى عبد الله محمد بن عبدالله الصفار خانه واختزل عيون كتبه وأكثر من خمسمائة جزء من أصوله فكان أبو عبد الله يجامله فى إسترجاعها منه فلم ينجع فيه شئ فيما قال السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى.

وبعض الوراقين كان يكتب وهو مرهق فينسى أشياء فى الأصل لا يكتبها فى النسخة وقد تكون الأشياء المنسية كلمات أو سطوراً وربما فقرات وربما يخل بترتيب الفقرات ومن ذلك ما قيل عن الفقيه محمد بن مملاذ المتوفى سنة ٦٤٣هـ الذى قال عنه الصفدى إنه كان يكتب فى يوم واحد ست عشرة كراسة من قطع الثمن وكان ينشئ الرسالة معكوسة يبتدئ بالحمد ويختم بالبسملة لفرط السرعة. وبسبب أخطاء السرعة والعجلة كان بعض المؤلفين وربما الوراقين الناشرين يحرصون على الإشراف على عملية النسخ بأنفسهم وأن يكون

الناسخون تحت مراقبتهم طول الوقت. وقد قيل فى هذا الصدد أن العلامة يعقوب ابن شيبة المتوفى سنة ٢٦٢هـ كان يخصص فى بيته أربعين لحافاً لمن يبيت عنده من النساخ، كما كان العلامة ابن المرزبان له «خمسون لحافاً وكيساً لمن يبيت عنده من النساخ للإشراف عليهم فيما يكتبون» فيما يذكر ياقوت الرومى فى معجم الأدباء.

وقد قيل عن الناسخ الفقيه عبد الله بن أسعد الدهان المتوفى سنة ٥٨١هـ أنه «كان ضيق العطن ما كتب تصنيفا إلا اختصره برأيه ولا يذكر فيه أنه اختصره».

وكان أبو عبيدة يتجنب بقدر الإمكان أن يعطى كتبه للناسخين حتى لا يعبثوا بها إلا أنه إضطر ذات مرة إلى استئجار الناسخ على بن المغيرة بن الأثرم وحبسه فى دار من دوره وأغلق عليه الباب وعهد إليه بنسخ بعض كتبه، إلا أنه مر به زميله الناسخ أبو مسحل وبعض الناسخين فكان يدفع إليهم بالكتاب تلو الكتاب من تحت الباب ويفرق عليهم الورق لينسخوا عليه الكتب وكان يلح عليهم فى الإسراع بنسخه ويتفق معهم على الموعد الذى يريده فكانوا يفعلون ذلك دون علم أبى عبيدة، على نحو ما أسلفت.

وكان بعض الناسخين يعتذرون عن الأخطاء التى توجد فى النسخ التى ينسخونها بحجة أن ما نقلوه كان طبق الأصل وأن تلك الأخطاء موجودة فى الأصل وهم لا يريدون التصرف فى الأصل أو تصحيحه فليس هذا شأنهم. والنص الآتى حول العلامة أحمد بن محمد البشتى وكتابه التكملة يكشف عن هذا الاتجاه فهو يقول: وأخبارنا عنهم أخبار عن صحف ولا يزرى ذلك على من عرف الغث من السمين وميز بين الصحيح والسقيم...» وقد عاب عليه بعض الكتاب الاعتماد المطلق على النقل دون تصحيح وأنه فى حالة الشك لابد من الرجوع إلى شيخ ثقة لتأكيد المعلومات المشكوك فيها وهناك عبارة

مأثورة فى هذا الصدد تقول «من كان شيخه كتابه كان خطأه أكثر من صوابه».
وقالوا عن البشتى انه قد اعترف بأنه لا سماع له فى شئ من هذه الكتب وأنه نقل ما نقل إلى كتابه من صحفهم واعتل بأنه لا يزرى ذلك بمن عرف الغث من السمين وليس كما قال لأنه إعترف بأنه صحفى والصحفى إذا كان رأس ماله صحفاً قرأها فإنه يصحف... وأن أكثر ما قرأنا من الصحف التى لم تضبط بالنقط الصحيح ولم يتول تصحيحها أهل المعرفة لسقيمة لايعتمد عليها إلا جاهل».

وكانت رداءة الخطوط من عيوب النسخ أيضاً ومن الإساءات للوراقة وقد قال ابن خلدون عن الخطوط المستعملة فى نسخ الكتب على أيامه «صارت الخطوط مائلة إلى الرداءة بعيدة عن الجودة. وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها إلا المشقة والعناء لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر ووقع فيه ما وقع فى سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدولة».

وقد قال أحد النساخ يعتذر عن سوء الخط ورداءة ما يكتب:

أعـذر أخـــاك عـن رداءة خطـه ** واغفر رداءته لجودة ضبطه
والخط ليس من تعظيمه ونظامه ** إلا إقـــــامـــة سـمطـــه
فإذا أبان عــــن المعـــانى خطـه ** كانت ملاحته زيادة شرطه

* * *

ومن الإساءات الظريفة إلى مهنة الوراقة تزوير الخطوط وتقليدها ونسبة بعض النسخ إلى كبار الخطاطين وما هى من نسخهم أبداً بلها من وضع شخص آخر قد يكون مغموراً كما يحدث الآن بالنسبة للوحات كبار الفنانين. والهدف من وراء التزوير ربما كان تحقيق مكسب كبير فى الكتاب وربما كان لاستكمال

مجموعة مجلدات ناقصة بنفس الخط وربما رغبة فى إظهار مهارة التقليد فى ذاتها. وسوف نذكر هنا بعض أمثلة التقليد البرئ والتزوير غير البرئ فى عمليات النسخ. ونحن لا نعرف فى الواقع من بدأ تلك الحوادث التى لم يسلم منها خطاط شهير أو ناسخ مغمور أو وراق غنى أو آخر فقير.

مما ورد فى فهرست ابن النديم، كما ورد فى معجم أدباء ياقوت الرومى ما ذكره على بن هلال ابن البواب الذى مر بنا من قبل وهو من هو من شهرة فى الخط حيث قال: «كنت أتصرف فى خزانة الكتب لبهاء الدولة عضد الدولة بشيراز على إختيارى وأراعيها له وأمرها مردود إلى. فرأيت يوما فى جملة أجزاء منبوذة مجلدة بأسود ففتحته وإذا هو جزء من ثلاثين جزءا من القرآن الكريم بخط أبى على بن مقلة فأعجبنى وأفردته فلم أزل أظفر بجزء بعد جزء مختلط فى جملة الكتب إلى أن اجتمع لدى تسعة وعشرون جزءاً وبقى جزء واحد إستغرقت تفتيش الخزانة فى مدة طويلة فلم أظفر به فعلمت أن المصحف ناقص فأفردته ودخلت إلى بهاء الدولة وقلت يامولانا ها هنا رجل يسأل حاجة قريبة لا كلفة وهى مخاطبة أبى على الموفق الوزير على معونتة فى منازعة بينه وبين خصم له ومعه هدية ظريفة تصلح لمولانا. قال أى شئ هى قلت مصحف بخط أبى على بن مقلة فقال هاته، وأنا اتقدم بما يريد فأحضرت الأجزاء فأخذ منها واحداً وقال أذكر أنه كان فى الخزانة ما يشبه هذا وقد ذهب عنى. قلت هذا مصحفك وقصصت عليه القصة فى طلبتى له جمعه. وقلت هكذا يطرح مصحف بخط أبى على بن مقلة إلا أنه ينقص جزءا فقال فتممه لى. قلت السمع والطاعة ولكن على شريطة أنك إذا أبصرت الجزء الناقص منها لا تعرفه تعطينى خلعة ومائة دينار، قال أفعل.

«وأخذت المصحف بين يدى وانصرفت إلى دارى ودخلت الخزانة أقلب الكاغد العتيق وما شابه كاغد المصحف وكان فيها من أنواع الكاغد السمرقندى

والصينى والعتيق وكل ظريف وعجيب، فأخذت من الكاغد ما وافقنى وكتبت الجزء ودهنته وعتقت داخله وقلعت جلداً من الأجزاء فجلدته به وجلدت الذى قلعت منه الجلد وعتقته ونسى بهاء الدولة المصحف ومضى على ذلك نحو السنة فلما كان ذات يوم جرى ذكر أبى على بن مقلة فقال ما كتبت ذلك، قلت بلى قال فأعطيته فأحضرت المصحف كاملاً فلم يزل يقلبه جزءا جزءا وهو لا يقف على الجزء الذى بخطى، ثم قال لى أيما الجزء الذى بخطك. قلت له لم لا تعرفه فيفتر فى عينك؛ هذا المصحف كامل بخط أبى على بن مقلة ونكتم سرنا قال فافعل وتركته فى ربعة عند رأسه ولم يعد إلى الخزانة. وأقمت مطالباً بالخلعة والدنانير وهو يمطلنى ويعدنى فلما كان يوماً قلت يامولانا. فى الخزانة بياض صينى وعتيق مقطوع وصحيح فتعطينى المقطوع منه كله دون الصحيح بالخلعة والدنانير قال خذه فأخذت جميع ما كان فيها من ذلك النوع فكتبت فيه سنين».

ومن هذا النص نرى أن تزوير ابن البواب كان متقنا كالأصل ليس فى الخط فقط وإنما أيضا من حيث الورق المناسب والجلد المناسب.

ومن طريف ما ذكر بخصوص التقليد أن الناسخ جمال الدين الشيرازى عرف أن ثمة ربعة بخط ابن البواب كتبها بخط عجيب غير تقليدى وكانت موجودة فى مكتبة ببغداد فذهب إلى المكتبة ومعه ورق شفاف وأخذ تلك الربعة جزءا جزءا وكان يضع الورق الشفاف على خط ابن البواب ويشف السطور «فكتب عليها لا يخلٍّ بذرة منها» فيما يقول الصفدى فى الوافى بالوفيات.

وكان الفقيه على بن يحيى بن فضل الله العدوى المتوفى سنة ٧٦٩هـ يحسن فن تزوير النسخ وتقليده كالأصل تماما فى كل شئ فقال عنه ابن حجر العسقلانى فى الدرر الكامنة أنه «كان يعتق الورق والحبر وينقل القطع بخط العجمى وابن البواب وغيرهما ممن تقدم وتأخر فلا يشك من ينظر ذلك من كتاب المنسوب أنه خط من نقله إلا الفرد النادر».

ويقول السخاوى فى الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع أن وراقا يدعى محمد بن محمد الجزيرى المتوفى سنة ٨٦٤هـ كان قد تعاطى التجارة بالكتب حتى ضارت له براعة فى معرفتها وخبرة زائدة بخطوط العلماء والمصنفين بحيث أنه يشترى الكتاب بثمن يسير ممن لا يعمله ثم يكتب عليه بخطه أنه خط فلان فيروج وقد يكون ذلك غلط لمشابهته لذلك الخط، وربما يتعمد ذلك التزوير لأنه لم يكن بحجة، حتى أنه ربما يقع له الكتاب المخروم فيوالى بين أوراقه أو كراريسه بكلام يزيده من عنده أو بتكرير تلك الكلمة بحيث يتوهم الواقف عليه التأمل تاماً وقد يكون الخرم من آخر الكتاب فيلحق ما يوهم به تمامه».

ويبدو أن سلوكيات الوراقين السلبية هذه قد انعكست على بعض الناس وضايقهم أيما مضايقة فنفروا منها.

ولم يكن لبعض الوراقين الشرفاء حظ من وراء ممارستهم لهذه المهنة فلم يصيبوا مالاً منها فصبوا جام حنقهم وغضبهم عليها فقال أحدهم:

إن الوراقة حرفة مذمومة ** مخرومة يمشى بها زمن

إن عشت عشت وليس لى أكل ** أو مت مت وليس لى كفن

ولكن على الجانب الآخر كان هناك من الوراقين من حقق ثروة من وراء هذه المهنة وكان سعيدا بها؛ فهذا هو الحسن بن شهاب العكبرى الناسخ النشيط يقول عن نفسه كسبت من الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضية... كنت اشترى كاغداً بخمسة دراهم فاكتب فيه ديوان المتنبى فى ثلاث ليال وأبيعه بمائتى درهم وأقله بمائة وخمسين درهما وكذلك كتب الأدب المطولة».

كان الوراقون المنحرفون فى سياق الوراقة الإسلامية هم الإستثناء. أما القاعدة العريضة فقد كانت سليمة محبة لمهنة الوراقة سعيدة بعملها مراعية لأخلاقيات

العمل وقواعده ولذلك إزدهرت هذه الحرفة أيما ازدهار وقدمت للبشرية رصيداً كبيراً من المخطوطات.

لقد جاءت القواعد سلوكا عاماً فى البداية وتبعثرت فى العديد من المصادر إلى أن جاء عالمان جليلان وجمعا ما أمكنهما جمعه فى كتابين لهما. هذان العالمان هما أبو إسحاق إبراهيم بن سعد الله بن **جماعة** (عاش القرن السابع الهجرى) الذى ألف كتابا جامعاً فى الموضوع هو: تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم» والعالم الثانى هو عبد الباسط بن موسى بن محمد **العلموى** (عاش القرن العاشر الهجرى) المتوفى فى دمشق سنة ٩٨١هـ. وله أيضا كتاب جامع فى الموضوع اعتمد فيه على كتاب ابن جماعة بعنوان: المعيد فى أدب المفيد والمستفيد. ولقد أشاد بهما أيما إشادة فرانتز روزنتال فى كتابه مناهج البحث عند علماء المسلمين فقال «إنه لا مجال للشك فى قيمة هذين المؤلفين لمن ينشد الدقة والأمانة». وقد وردت فى هذين العملين الكثير من قواعد النسخ وأخلاقياته. وقد كتب فى نفس هذا الموضوع مؤلفون آخرون ولكن ما كتبوه جاء عرضاً منهم **البدر الغزى** فى كتاب الدرة النقية والحسين ابن القاسم **المنصور اليمنى** وله «كتاب فى آداب العلماء والمتعلمين». وهناك كذلك أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل **النحاس** وله كتاب «صناعة الكتَّاب» وقد عاش النحاس فى القرن الثالث وغير هؤلاء كثيرون. ونحن هنا ننقل طرفا مما قال به هؤلاء فى آداب الوراقة وقواعدها ومدح الكتابة. وقد تناولت القواعد تفاصيل دقيقة مثل: نسخ الكتاب وتصحيحه واستعارته وترتيب وضعه مع غيره؛ كيفية النسخ، جودة الخط، وجوب المقابلة والمقارنة بين أكثر من نسخة، أدوات الكتابة.

* * *

وهناك إجماع على أن النسخ (كتابة الكتب) فضيلة والإشتغال بها عمل

محمود ولم نجد من بين المصادر مصدراً واحداً ذم النسخ أو قدح فيه من حيث المبدأ فالله سبحانه وتعالى شرف الكتابة والقلم فى كتابه العزيز كما أشار الرسول الكريم ﷺ فى أحيان كثيرة إلى هذا الفضل الذى للكتابة. وعندما تمتدح الكتابة وتشرَّف فإن هذا المديح والتشريف ينصرفان بالتبعية إلى الكتَّاب الذين يبدعون تلك الكتابة. حين يتمسكون بتقاليدها ويطبقون آدابها وأخلاقياتها. ولم أجد بين المصادر الكثيرة التى أفاضت فى الحديث عن الكتابة وفضلها أعمق ولا أبلغ من الرسالة التى كتبها أبو جعفر الفضل بن أحمد بن حداد إلى أبى معشر المنجم (أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخى) المتوفى سنة ٢٧٢هـ. وأنا أنقل هنا هذه الرسالة بنصها كما وردت فى صبح الأعشى للقلقشندى وكما وردت أيضا فى صناعة الكتاب لأبى جعفر النحاس لأن هذه الرسالة فى رأيى هى درس فى علم الاتصال المكتوب قال أبو جعفر:

«الكتابة - أعزَّك الله - نسب وقرابة، ورَحِمٌ ماسَّة ووسيلة. وهى أس الملك، وعماد المملكة، وأغصان متفرعة من شجرة واحدة. وهى قُطْبُ الأدب، وفَلَك الحكمة، ولسان ناطق، وهى نور العلم، وتذكية العقول، وميدان الفضل والعدل. وهى زينة وحلية، ولَبُوس وجمال وهيئة، وروح جارٍ فى/ أحكام متفرقة»، وبها وُسِمَتِ التوراة والإنجيل والقرآن والكتب المنزلة. ولو أنَّ فضلاً ونبلاً تصوَّرا جسماً لتصورت الكتابة، ولولا ما نَزَل به الكتاب فى الفرض والمواريث لوُرِّثت الكتابة. ولو أن الصناعة مربوبة لكانت الكتابة سيداً لكل صناعة. وبالكتابة تُوضَع الموازين، وتُنْشَر الصحف يوم القيامة. والكتابة أفضل شئ عند الله عزَّ وجلَّ منزلةً ودرجة، ومن جهل حقها رُسِم برسم الغُوَاة والجهلة. وبها قامت السياسة والرياسة، وإليها ضَوَت الملوك بالفاقة والحاجة؛ وإليهم ألقت الأعنة والأزِمَّة، وبهم اعتصموا فى النازلة والنكبة، وعليهم اتكلوا

فى الأهل، والولد، والذخائر، والعُقَد، وولاة العهد، وتدبير الملك، وقِرَاع الأعداد، وتوفير الفيء، وحياطة الحُرَم، وحفظ الأسرار، وترتيب المراتب، ونظم الحروب بالميمنة والميسرة والقلب والكُمناء والروادف والأجنحة. وعن الكتابة يحاسب عزَّ وجلَّ خلقه يوم القيامة بما أثبتت الملائكة والحَفَظة. وقد أجمعت العلماء أن أول ما خلق الله القلم (جاءت بذلك الآثار عن الصادق الناطق محمدﷺ). وأنه جلَّ وعزَّ قال له: اكتبْ. قال: يارب، وما أكتبُ؟ قال: اكتب علمى فى الخلق إلى أن تقوم الساعة. فكتب القلم بما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة. وقال جلَّ وعزَّ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾. وقال جلَّ وعزَّ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ وقال: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ﴾ وقال جلَّ وعزُ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، بَلَي وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ن، وَالقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وقال جلَّ وعزَّ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾. وقال تقدَّس اسمه: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقال جلَّ وعزَّ: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَي بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبَا﴾ وقال جلَّ وعزَّ: ﴿وَيَقُولونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾. وذلك فى مواضع كثيرة من القرآن يطول شرحها وذكرها. وكان القلم أولَ من آمن، وأول من أسلم، وكَتَب. وأولُ من كتب بالعبرانية شيث بن آدم عليهما السلام، ثم كتب بعده إدريس. وخلف سبعين كتاباً من كتب الحكمة والنجوم، وقيل: إنه عُرِج به إلى السماء. وأما المنجمون فيزعمون أن البرجبيس وهو المشترى حدر إليه من الفلك يعلمه الحساب، ثم ترقى، وأنه نظر فرأى بوار ولده يكون باقتران الكواكب فى الحمل، وهو برج نارى، فيكون الهلاك بالنار أو السرطان، وهو برج مائى، وهو بيت حياة العلم، فيكون الهلاك بالماء، فعمد إلى الطين فصفَّاه، وجفَّفه، وأثبت فيه علم النجوم. وقال إن كان البوار بالنار وتخزف،

فوجده من ينجو من العالم، ثم أثبته فى الصخر، فقال: إن كان البوار بالماء ثبت فيه العلم صيانة وإشفاقاً عليه، فشاء الله وقال جلّ وعزّ أن يكون بوار تلك الأمة بالطوفان، واقتران الكواكب فى السرطان، فأدرك من أدرك، وعلم من علم منه القليل من الكثير، فكان أول من كتبه بالسريانية يهوذا بن يعقوب، وكان أول من كتبه بالعبرانية ثلاثة نفر من طَيِّء يقال لهم: مرامر بن مروة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة. وكان لوط عليه السلام يكتب لإبراهيم عليه السلام الصحف المنزلة عليه. وكان يوسف عليه السلام يكتب للعزيز صاحب الرؤيا. ﴿قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أى حفيظ بالكتاب، عليم بالحساب. وكان سليمان بن داود عليهما السلام كاتب أبيه يكتب عنه المزامير وغيرها. وكان آصف بن عيصا كاتب سليمان بن داود، وهو الذى كان عنده عِلْمٌ من الكتاب، فأتى سليمان بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه. وكان ذو القرنين كاتب بطليموس. وكان هارون ويوشع بن نون يكتبان بين يدى موسى عليه السلام الألواح والتوراة. وكان يحيى بن زكريا كاتب عيسى عليه السلام كتب له الحكمة والإنجيل. وكان علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يكتب للنبى ﷺ. وإذا أمعنا النظر وألطفنا القياس والفكر وجدنا الفلكين الدائرين الجامعين الضابطين لأمور الدنيا والأخرة. الفلك الأعلى الدوار المحيط بالأرض والسماء الهواء والماء وكل ما خلق عزّ وجلّ بين ذلك وفوقه وتحته من الجنة والنار. فالكتابة التى تضم كل شىء ولا يضمها شىء. وأنا يا أخى - جعلنى الله فداك - عاتب مُنْكِرٌ لإعراضك وصدودك، وازورارك وتجانفك عن سرورى بك إذا رأيتك، وإقبالى عليك إذ لقيتك، وانبساطى وانقباضك إذا خاطبتك، وكيف يا أخى - أسعدك الله -؟ ولمِلله وعلام؟ وفيم؟ وبم تفعل ذلك؟ وقد ضمَّنا التوحيدُ واليقين والدين، وجرينا فى ميدان هذه الصناعة الرئيسة العالية النفيسة الشامخة على كل صناعة، نرضع دِرَّتها، ونجتنى ثمرتها، ونتفيأ فى ظلال أغصانها، ونمرع فى رغد عيشها، ونضرة

رياضها، وهى لنا كالأم اللطيفة بنا، الشفيقة علينا، ونحن لها كالأولاد البررة بها فيما يجب من إجلالها وإعظامها، وقضاء حقها بالسمع والطاعة لها، ولم نَرَ من حق تربيتها وتغذيتها إيَّانا أن نمتطىَ العقوق فنجعله ظهراً لنا وهى له منكرة، وأن نتساقى كأس الفرقة، وهى عنها ناهية. ثم هذه الناحية التى تكنفنا وتضمنا، ويؤلف فيما بيننا هذا الكريم المحامد أبو فلان أطال الله بقاءه، ووقاه وصانه، وتولاه وحرسه، وكفاه وصرف غِيرَ الليالى عنه، وأبعدها منه ومن محله وداره وقراره، ولا سلبنا إياه، ولا أحزننا بفقده، وأمتعنا بسبوغ النعمة عليه، وتكاملها لديه فى نفسه وولده وأعزته. وقد رَجَب أعزَّك الله وتولاك، وحاطك وأعانك أن نَقْفُوَ فى ذلك زثره، ونسلك مسلكه ورسمَه، وأن نكون أعواناً لصالح نيته، وطويل إرادته، فيما ألف بيننا، وجمع من شملنا، وأراد من اتفاق أهوائنا، ثم ما يجب أن يكون قد تأملته، ونظرت بعين فكرك وقلبك إليه من اتفاق أهل الصناعات فى السرَّاء والضرَّاء، والشدة والرخاء، وما هم عليه من التكاثر والتناصر فيما عَرَض لهم وعَرَاهم من هذه الدنيا الدنية الزائلة، المتقطعة الفانية، فنعلم أن أهل هذه الصناعة الكاملة الفاضلة الشاملة لكل ما وصفت وما لم أصف قصوراً عنه، وخيرة فيه، أولى وأحق وأحرى بأن يقنعوا من أنفسهم، ولا يرضوا لشرف صناعتهم بالتخاذل والتقاطع والتدابر والتنافر، وأن يكونوا يداً واحدة فيما نفع وضر، وساء وسر فى كل حال. ولما رأيتك قد نأيت بجانبك ومِلْتَ عنى بَشَقِّك، كان الأعز علىّ والأولى بى ردك إلىّ، واستجرارك نحوى، ولا يخرج مثلك عن يدى إلا بعد أن أعذر وأبلى فى قضاء حق نفسى، واستصلاح ما فسد علىّ بغاية جهدى ووسعى، فجعلت هذه الرقعة سفيرى إليك. وأودعتها من حسن عتابك، ولطف استمالتك، ما لعله سيثنى من عنانك، ورُدُ من غرب جماحك، وأنا متوقع الجواب بما يكون منك، والله بالخيار لى ولك فيك. فرأيك - أعزك الله - بما أعمل عليه، فإنما سمحتُ بك على ضَنّ، وادخرتك على علم، موفقاً إن شاء الله».

يقول ابن جماعة والعلموى فى آداب النسخ وقواعده: ـ

* إذا نسخ الناسخ شيئا من العلوم الشرعية فينبغى أن يكون على طهارة، مستقبل القبلة، طاهر البدن والثياب والحبر والورق ويبتدئ كل كتاب بكتابه «بسم الله الرحمن الرحيم» وإن كان مصنفه تركها كتابة فليكتبها هو ثم ليكتب: قال الشيخ أو قال المصنف ثم يشرع فى كتابة ما صنفه المصنف وإذا فرغ من كتابة الكتاب أو الجزء فليختم الكتابة بالحمدلة والصلاة على رسول الله ﷺ وليختم بقوله:

آخر الجزء الأول أو الثانى مثلا ويتلوه كذا وكذا إن لم يكن أكمل الكتاب فإن أكمله فليقل تم الكتاب الفلانى ففى ذلك فوائد كثيرة.

وكلما كتب اسم الله - تعالى - أتبعه بالتعظيم مثل تعالى، أو سبحانه أو عز وجل أو تقدس أو تبارك ويتلفظ بذلك.

وكلما كتب اسم النبى - ﷺ - كتب بعده الصلاة عليه والسلام ويصلى عليه هو بلسانه أيضا. وجرت عادة السلف والخلف بكتابة (ﷺ). ولعل ذلك لموافقة الأمر فى الكتاب العزيز فى قوله (صلوا عليه وسلموا تسليما) ولا يختصر الصلاة فى الكتابة، ولا يسأم من تكريرها كما يفعله بعض المحرومين من كتابة (صلعم) أو (صلم) أو (صم) أو طلسم) فإن ذلك مكروه كما قال العراقى ويقال أن أول من كتب (صلعم) قطعت يده. واعلم أن كتابة الصلاة بكاملها عظيم وهو أكبر الفوائد العاجلة.

وإذا مر بذكر أحد من الصحابة كتب: رضى الله عنه، أو رضوان الله عليه أو مر بذكر أحد من الأئمة كتب رحمه الله، أو رحمة الله عليه أو تغمده الله برحمته.

ولا يكتب الصلاة والسلام لغير الأنبياء والملائكة. . . تبعا لاختصاص ذلك عرفا وشرعا بالأنبياء والملائكة عليهم السلام، ومتى سقط من ذلك شئ فلا

يتقيد به بل يثبته مع النطق به. . . وإفراد الصلاة عن السلام مكروه وعكسه كذلك كما قال النووى.

* لا يهتم المشتغل [الناسخ] بالمبالغة فى حسن الخط وإنما يهتم بصحته وتصحيحه ويجتنب التعليق وهو خلط الحروف التى ينبغى تفرقتها والمشق وهو سرعة الكتابة مع بعثرة الحروف قال عمر - رضى الله عنه - شر الكتابة المشق وشر القراءة الهذرمة [التصفح السريع بدون تدبر المعنى] وأجود الخط أبينه.

* ولا يكتب الكتابة الدقيقة لأنه ربما لم ينتفع به وقت حاجة الإنتفاع به من كبر وضعف بصر، ثم محله فيمن عجز عن ثمن ورق، أو حمله فى سفر فيكون معه خفيف المحمل فلا كراهة فى ذلك ولا منع للعذر والكتابة بالحبر أولى من المداد.

* وينبغى ألاّ يكون القلم صلباً جداً فيمنع سرعة الجرى ولا رخواً فيسرع إليه الحض. قال بعضهم: إذا أردت أن تجود خطكّ فأطل جلفتك واسمتها وحرِّف قطتك وأيمنها. ولتكن السكين حادة جداً لبراية الأقلام وكشط الورق ولاتستعمل فى غير ذلك. وليكن ما يسقط عليه القلم صلبا وهم يحمدون القصب الفارسى جدا والأبنوس الصلب الصقيل.

* لا بأس بكتابة الأبواب بالحمرة فإنه أظهر فى البيان وفى فواصل الكلام وكذلك لا بأس به على أسماء أو مذاهب أو أقوال أو طرق أو أنواع أو لغات أو أعداد أو نحو ذلك ومتى فعل ذلك بيّن اصطلاحه فى فاتحة الكتابة ليفهم الخائض فيه معانيها. وقد رمز بالأحمر جماعة من المحدثين والفقهاء والأصوليين وغيرهم لقصد الاختصار».

* وقد كرهوا فى الكتابة فصل مضاف إسم الله تعالى منه: عبد الله، عبد الرحمن، رسول الله فلا يكتب عبد أو رسول فى نهاية السطر والله أو الرحمن فى بداية السطر التالى له لقبح صورة الكتابة.

* عليه [الناسخ] مقابلة كتابه [النسخة التى ينسخها] بأصل صحيح موثوق به

فالمقابلة متعينة للكتاب الذى يرام النفع به. قال عدوة بن الزبير لابنه هشام رضى الله عنهما: كتبت؟ قال نعم. قال عرضت كتابك؟ [أى على أصل صحيح] قال: لا، قال: لم تكتب.

قال الإمام الشافعى، ويحيى بن كثير: من كتب ولم يعارض، أى يقابل كمن دخل الخلاء ولم يستنج.

وإذا صحح الكتاب بالمقابلة على أصل صحيح أو على شيخ فينبغى أن يعجم المعجم ويشكل المشكل ويضبط الملتبس ويتفقد مواضع التصحيف. أما ما يفهم بلا نقط ولا شكل فلا يعتنى به لعدم الفائدة... وقيل ينبغى الإعجام والشكل للمكتوب كله: الشكل وغيره لأجل المبتدئ فى ذلك الفن وصوبه القاضى عياض، لأن المبتدئ لا يميز ما يشكل مما لا يشكل، ولا صواب الإعراب من خطئه، ولأنه ربما يكون الشئ واضحاً عند قوم مشكلاً عند آخرين، بل يظن لبراعته المشكل واضحاً ثم قد يشكل عليه بعد.

وإذا احتاج إلى ضبط المشكل فى الكتاب وبيانه فى الحاشية قبالته فعل، لأن الجمع بينهما أبلغ فى الإبانة. وإذا كتب كلمة مشكلة من القلم لسواد كثير فيه ونحوه أوضحها فى الحاشية وكتب فوقها (بيان) أو (ن) وله أن يكتبها فى الحاشية بصورتها وله أن يكتبها مقطعة الأحرف بالضبط ليأمن اللبس والاشتباه وله أن يضبطها بالحروف كقوله: بالحاء المهملة والدال المهملة والتاء المثناة والثاء المثلثة ونحو ذلك.

* ينبغى أن يكتب على ما صححه وضبطه فى الكتاب - وهو فى محل شك عند مطالعته أو تطرق إحتمال شك - (صح) صغيرة. ويكتب فوق ما وقع فى التصنيف أو فى النسخ [أى فى الأصل الذى ينقل منه] وهو خطأ (كذا) صغيرة أى هكذا رأيته ويكتب فى الحاشية: (صوابه كذا) إن كان يتحققه أو (لعله كذا) إن غلب على ظنه أنه كذلك.

أو يكتب على ما أشكل عليه ولم يظهر له وجه [أى لم يتبين صحته]

(ضبة) وهى صورة رأس (صاد) مهملة مختصرة من (صح) كذا (صـ) فإن صح بعد ذلك وتحققه فيصلها بحاء فتبقى (صح)؛ وإلا كتب الصواب فى الحاشية كما تقدم.

قيل: وأشاروا بكتابة الصاد أولا إلى أن الصحة لم تكمل وإلى تنبيه الناظر فيه [أى الناسخ] على أنه متثبت فى نقله غير غافل فلا يظن أنه غلط فيصلحه.

* * *

هذه بعض القواعد أو لنقل النصائح التى يقدمها نسَّاخون ضالعون لمن يتصدى لعملية نسخ الكتب ولنرى بعضاً من تطبيقاتها على أرض الواقع. وسوف أركز فقط على شئ من أمثلة.

فقد رأينا من قبل أن ابن جماعة والعلموى يحبذان إستخدام اللون الأحمر لإبراز كلمات معينة مثل عناوين الفصول والأبواب وأسماء الأعلام على إتساعها والأرقام والأقوال المأثورة والأمثال، وقد بالغ بعض النساخ فى استخدام الألوان ولم يكتف بلون واحد إضافى إلى جانب اللون الأسود. فهذا هو الناسخ محمد ابن عبد الله بن غطوس المتوفى سنة ٤١٤هـ كان يضع لكل ضبط لونا من الألوان لا يخل به: فاللازود للشدّات والجزمات؛ واللك للضمات والفتحات والكسرات؛ والأخضر للهمزات المكسورة؛ والأصفر للهمزات المفتوحة لا يخل بشئ من ذلك فيما يقول الصفدى فى الوافى بالوفيات. ويعلق الصفدى على غراية هذه الطريقة فيقول بأن ذلك شئ غريب من حسن الوضع ورعاية المرسوم ويقال إنه كتب ألف مصحف ولم يزل الملوك الكبار يتنافسون فيها وقد آلى على نفسه ألا يكتب حرفا إلا من القرآن وكان له بيت فيه آلات النسخ والرقوق وغير ذلك لايدخله أحد من أهله. يدخله ويخلو بنفسه وكان مصحفه لا يهديه إلا بمائتى دينار. وإن إنساناً جاء إليه من بعيد مسافة وأخذ منه مصحفات ولما كان بعد مدَّة فكر أنه وضع نقطاً أو خطاً على بعض الحروف فى غير موضعه، وأنه سافر إلى تلك البلد وأتى إلى ذلك الرجل وطلب المصحف منه فتوهم أنه

رجع فى البيع، فقال: قبضتَ الثمن منى وتفاصلنا فقال: لابد أن أراه فلما أتى به حك ذلك الغلط وأصلحه وأعاده إلى صاحبه.

وذكر الجاحظ فى كتاب الحيوان أن الزنادقة قد عرفوا بزخرفة كتبهم فكانوا يختارون لها الحبر الأسود المزوق البراق والورق النقى البياض. وكانوا يبالغون فى استخدام الذهب والفضة فى تحليتها وعندما أحرقت كتبهم سنة ٣١١هـ سقط منها قدر كبير من الفضة والذهب. وقد قلدهم أتباع الحلاج من غلاة المتصوفة فى إستخدام هذين المعدنين وفى العناية بكتبهم التى كانوا يكتبونها على ورق صينى وبعضها بماء الذهب ويبطنونها بالديباج والحرير ويجلدونها بالجلد الممتاز.

ولقد أهديت إلى الوزير نظام الملك نسخة من القرآن الكريم لا يعرف ناسخها، وقد كتبت هذه النسخة بألوان عديدة فقد كتبت اختلافات القراء بين السطور باللون الأحمر وتفسير غريب الألفاظ باللون الأخضر والإعراب باللون الأزرق وكتبت علامات الآيات بالذهب.

ويقول الصفدى عن إبراهيم بن أحمد الزرعى أنه كتب الخط المنسوب المليح إلى الغاية وكانت له قدرة على حكايات الخطوط ومناسباتها ويحمل إليه الناس الكتب ليكتب أسماءها بحسن خطه. أى أن بعض الناسخين أو ربما مشترى الكتب حرصوا على أن يكون عنوان الكتاب بخط جيد محسَّنٍ لأنه المدخل إلى الكتاب كما نفعل الآن فى صفحة عنوان الكتاب.

ولقد نقلت منذ قليل نصاً من ابن جماعة والعلموى ينهى عن استخدام الخط الصغير الدقيق فى نسخ الكتب إلا فى حالة الضرورة القصوى حتى يقدر كبار السن وضعاف البصر على قراءتها. والضرورات التى تبيح استخدام الخط الدقيق كما أشار إليها العالمان الجليلان هى ضيق ذات يد الناسخ وعدم إستطاعته شراء ورق كثير فالخط الدقيق الصغير يوفر له الورق وثمنه، وكذلك الحال فى نسخ كتب الرحلات والسفر حتى يخف وزنها ويسهل حملها.

قال ابن الجوزى «يكره تضييق السطور وتدقيق القلم فإن النظر إلى الخط الدقيق يؤذى النظر. وكان بعضهم يضيق السطور لعدم الكاغد».

ومع كل التحذير من تدقيق الخط فقد بالغ بعض الناسخين فى استخدام الخط الصغير جدا مثل عبد الله محمد بن عبد الله الصورى الذى كتب صحيح البخارى ومسلم فى مجلد لطيف بيع بعشرين ديناراً فى كاغد خراسانى ثمانين سطراً فى كل ورقة. وكان الفقيه محمد بن المسيبى الأرغيانى يمشى فى الطرقات وفى كمه مائة جزء صغير فى كل جزء ألف حديث. وقد سئل عبد الله بن أحمد بن روزبة الفارسى عن سبب دقة خطه فقال «لقلة الوَرَقْ والوَرِق وخفة الحمل على العنق».

وكان الخطاط إسماعيل الزمكحل المتوفى سنة ٧٨٨هـ قد انتهت إليه رئاسة الكتاب وأجاد كتابة الخط الدقيق إلى الغاية بحيث لا يطمس واواً ولا ميماً فلم يكن يدركه أحد فى ذلك حتى كان يكتب سورة الاخلاص على أرزة وكتب من المصاحف شيئاً كثيرا وخطه غاية فى الحسن فيما يذكر ابن حجر العسقلانى فى الدرر الكامنة.

أما فيما يتعلق بنسخ كلمات مشكوك فيها ووضع حروف فوقها تنبه القارئ إلى واقع تلك الكلمات على النحو الذى قال به ابن جماعة والعلموى فقد ذكر ياقوت الرومى فى معجم الأدباء أن الشيوخ من أهل الأدب يتعالمون أن الحرف إذا كتب عليه صح بُصاد وحاء فإن ذلك علامة لصحة الحرف لئلا يتوهم متوهم عليه خللا ولا نقصاً فوضع حرف كامل على حرف صحيح. وإذا كان عليه صاد ممدودة دون حاء كان علامة أن الحرف سيتم إذ وضع عليه حرف غير تام ليدل نقص الحرف على اختلاف الحرف ويسمى ذلك الحرف [العلامة] أيضا ضبَّة أى أن الحرف مقفل بها لم يفهم... ويستمر ياقوت فى القول بأن هذا كلام عليه طلاوة وإنما قصدوا بكتبهم على الحرف صح إن كان شاكاً فى صحة اللفظة فلما صحت له بالبحث خشى أن يعاوده الشك فكتب عليها صح شكه.

وقد نصح ابن جماعة بضرورة الفصل بين الجمل بوضع دوائر أو أية علامة بين الجملة والجملة فى إشارة مبكرة إلى علامات الترقيم التى لم يعرفها الكتاب الإسلامى إلا فى القرن العشرين. فقد قال ابن جماعة «وينبغى أن يفصل بين كل كلامين بدائرة أو ترجمة أو قلم غليظ ولا يوصل الكلام كله على طريقة واحدة لما فيه من عسر إستخراج المقصود وضياع الوقت ولا يفعل ذلك إلا غبى جداً»/

وقد رأينا فى بداية بحثنا أن الكتابة العربية قد بدأت بدون نقط أو شكل ثم دخلها الشكل والنقط تباعاً لأسباب شرحتها تفصيلا فى ذلك الموضع من البحث وشرحت أن الكتاب والنساخ لم يلهثوا وراءها بمجرد دخولها إلى الكتابة وإنما ترددوا فيها ورأينا أن ابن جماعة والعلموى أشارا إلى ضرورتها فى حالة الحاجة. وقد وجد من الكتاب من حذر من الشكل والنقط إلا فى حالة الحروف المعضلة. وقد ذكر ابن المدبر فى الرسالة العذراء يقول «وإياك النقط والشكل فى كتابك إلا أن تمر بالحرف المعضل الذى يعلم أن المكتوب إليه يعجز فى استخراج معمّاه فلأن يشكل عليه الحرف أحب إلى من أن يعاب بالنقط والإعجام وقد قال المأمون اياكم والشونيز فى كتبكم يعنى النقط». وأهل الحديث يصرون على وجوب الشكل والإعجام فقال سفيان الثورى «الخطوط المعجمة كالبرود المعلمة» وقال الأوزاعى «نور الكتاب العَجْم».

***

الكراس السادس

مـــواد الكتابـــة وأدواتها عند المسلمين

كتب العرب فى جاهليتهم على مواد وجدوها جاهزة فى بيئتهم ولم يسعوا إلى صناعتها أو استيرادها، شأنهم فى ذلك شأن كل البشرية إذ اخترعت البشرية الكتابة قبل أن تخترع وسيطا تكتب، عليه بل استعملت المواد الطبيعية التى وجدت فى البيئة لهذا الغرض. وعندما جاء الإسلام، إستخدم المسلمون أيضا فى عهد النبوة نفس المواد البيئية التى وجدوها فى تسجيل القرآن الكريم. أما عندما خرج الإسلام إلى الدول المجاورة وتمت الفتوحات فى الشام وشمالى إفريقيا وانتقلت الخلافة من شبه جزيرة العرب إلى خارجها فى الكوفة أولاً على يد على بن أبى طالب ثم إلى دمشق فى العصر الأموى وبعدها إلى بغداد فى العصر العباسى، كان لابد للمسلمين من أن يستفيدوا من المواد التى وجدوها فى الدول المفتوحة فى الشام ومصر، ويستخدموا تلك المواد فى الكتابة.

ونستعرض فيما يلى تطور المواد التى استخدمها المسلمون فى كتابة المعلومات وإنتاج الكتاب الإسلامى:ـ

١ - **العسب والكرانيف.** وكانت أكثر مواد الكتابة شيوعاً نظراً لتوافرها فى جزيرة العرب الصحراوية. والعسب جمع عسيب، وهو السعفة أو جريدة النخل حين تجف وينزع خوصها. ويكون القحف - الجزء العريض منها - هو الجزء المفضل فى الكتابة لاستيعابه كميات أكبر من الكلمات. ويسمى القحف «الكرنافة» وجمعه كرانيف وهو أصل السعفة الغليظ الملتصق بجذع النخلة.

٢ - **عظام الأكتاف والضلوع**. وكانت متوافرة كذلك فى بيئة العرب توافر الغنم والإبل. حيث عظام الكتف على وجه الخصوص عريضة عرض قحف النخيل وهى للونها الأبيض تسهل الكتابة عليها بالحبر الأسود.

٣ - **اللخاف وقطع الفخار**. واللخاف هى قطع الحجارة الرقيقة البيضاء وكانت متوافرة فى البيئة العربية لتوافر الجبال الصخرية. وكانت قطع الحجارة هذه تتساقط من الجبال بحكم العوامل الطبيعية أو البشرية. أما الفخار فإنه كان يستمد من الأوانى الفخارية عندما تتكسر. وقد ذكرت المصادر أن عمر بن الخطاب كان يستعملها أثناء خلافته لكتابة الأمور العاجلة الوقتية.

٤ - **الرق والأديم والقضيم**. وهى جميعا أنواع من الجلود، أعتقد أنها وفدت إلى الجزيرة العربية قبل الإسلام من بلاد الفرس والشام وإن كان هناك من الدلائل ما يشير إلى أن العرب بحكم توافر هذه الجلود بعد ذبح الحيوانات صنعوا منها نوعاً بدائياً للكتابة عليه تقليدا على الأقل لما كان يفد إليهم من الخارج. يدلنا على ذلك الألفاظ العربية الأصيلة المستخدمة فى التعبير عن تلك المادة.

٥ - **المهارق**. وهى صحائف من القماش الأبيض. مفردها مهرق وهى كلمة فارسية الأصل. وهذا القماش يغلب عليه أن يكون من الحرير ثم يسقى بالصمغ ويصقل ويكتب عليه. وهذه المادة كما يبدو من إسمها وصناعتها وافدة على العرب من بلاد فارس فالعرب لم يصنعوا قماش الحرير وانما كانوا يستوردونه. وانما كانت صناعة القماش عندهم أساساً من صوف الغنم ووبر الإبل. وتذكر المصادر أن المعلقات ربما تكون قد كتبت على هذه المادة. سواء كانت تعلق على أستار الكعبة أو على صدور النساء.

هذه المواد الخمس من مواد الكتابة كانت موجودة فى العصر الجاهلى قبل الإسلام واستمرت فى عهد الرسول ﷺ وفى عهد الصحابة رضوان الله عليهم وقد استخدمت فى كتابة القرآن الكريم. ولكن بعد فتح الشام تدعم موقف

الرقوق حيث أنها كانت السائدة هناك فى نهاية العصر الرومانى قبل فتح العرب للشام بفترة طويلة. إلا أنه بعد فتح مصر أضيفت مادة جديدة هى مادة البردى.

٦ - **البردى**. ومن المعروف أن البردى عبارة عن نبات كان ينمو فى مصر القديمة والوسيطة وربما ردحاً طويلا من العصور الحديثة، كان ينمو على ضفاف النيل والبرك والمستنقعات وكان طوله يصل فى بعض الأحيان إلى مترين أو ثلاثة أمتار. وكان ورق البردى يصنع من ساق النبات حيث تقسم الساق إلى شرائح طويلة ثم ترص عليها شرائح أخرى أفقية وتضغط بين لوحين من حديد أو خشب ثقيل فتساعد المادة الصمغية الموجودة بالنبات على الإلتصاق، ثم تطرق وتصقل. وكانت القطعة تلحق بالقطعة لتصير لفافة كبيرة تبلغ ثلاثين ذراعا أحيانا فى عرض شبر. وكان يكتب على ورق البردى من وجه واحد وهو الوجه الذى تكون فيه الألياف أفقيه لتساعد القلم على المضى فى الكتابة. وقد انتشر هذا الورق من مصر القديمة والإسلامية إلى الدول الأخرى وخاصة فى ظل الاستعمار اليونانى والرومانى. وقد دخل إلى الدولة الإسلامية من مصر بعد فتح مصر على يد عمرو بن العاص فى خلافة عمر بن الخطاب وبقى المادة الرئيسية فى الكتابة طوال العصر الأموى وخلال الفترة الأولى من العصر العباسى وقد تزامن لفترة مع الرقوق والورق الصينى فى القرن الثالث الهجرى. وكان المسلمون لأغراض كتابة الوثائق والرسائل يستخدمون البردى على شكل لفافات. ولم يستخدم على شكل كراس إلا فى حالة الكتب والدفاتر فى زمن العباس السفاح المتوفى سنة ١٣٦هـ، وذلك على يد وزيره خالد بن برمك المتوفى سنة ١٦٣هـ.

وقد تناولت موضوع البردى وقضية تحول الكتاب من الشكل الملفوف إلى الشكل الدفترى أو الكراس بشئ من التفصيل فى كتاب «الكتب والمكتبات فى العصور القديمة» ولما توسعت الدولة الإسلامية شرقا فى أواسط آسيا، دخلت

مادة حاسمة زاحمت البردى والرق وقضت عليهما ألا وهى الورق الصينى. وقد تناولت أيضا قصة اختراع هذا الورق بشئ من التفصيل فى كتاب الببليوجرافيا أو علم الكتاب وأيضا تحت الكتب والمكتبات فى الصين فى الكتاب الذى بين أيدينا الآن ولا داعى لتكرار القصة مرة ثانية هنا ولكن نتناول قصة دخول هذه المادة إلى العالم الإسلامى واستخدامها فى الكتاب الإسلامى.

٧ - **الورق**. من المعروف أن الورق بمعناه الذى بين أيدينا اليوم هو اختراع صينى، اخترعه رجل صينى كان يعمل فى البلاط الإمبراطورى فى عهد الامبراطور (هوتى). هذا الرجل مخترع الورق كان يدعى تساى لون وقدم تقريره عن نجاح إنتاج الورق بكميات اقتصادية سنة ١٠٥م وعلى مستوى جيد. وظل الورق حبيساً فى جنوب شرقى آسيا حتى القرن السابع الميلادى. وقصة معرفة المسلمين به تستدعى وقفة متأنية.

بدأ توسع المسلمين شرقاً فيما يعرف ببلاد «ما وراء النهر» أى أواسط آسيا بعد قيام الدولة الأموية واستقرارها فى بلاد الشام وقد استمر الغزو الأموى لما وراء نهر جيحون هذا نحو نصف قرن (٤٦ - ٩٦هـ أى ٦٦٦ - ٧١٤م). لقد سلك العرب نفس الطريق الذى سلكه من قبل الإسكندر المقدونى نحو تلك المناطق. وتقول المصادر أن إقليم ما وراء النهر هو إقليم بخارى. وكانت كلمة بخارى تطلق على الإقليم كما تطلق على حاضرته. وكانت مدينة بخارى أجمل وأعظم مدن العالم الإسلامى كله. وقد أشاد الرحالة العرب بذكر بساتين بخارى الفسيحة وأشجار الفاكهة بها وجمالها الطبيعى. وربما عناها المتنبى بقوله:

يقول بشعب بوّان حصانى ** أعن هذا يساق إلى الطعان

ولم تكن بخارى مدينة جميلة وحسب بل كانت أيضا سوقاً رئيسية تلتقى فيها تجارة الصين وآسيا الصغرى فضلاً عما كان بها من مصانع كبيرة للحرير والديباج والمنسوجات القطنية وأجود أنواع السجاد والمصنوعات الفضية

والذهبية. وكانت كذلك مركزاً مهما للصيرفة يستبدل فيها سكان آسيا الشرقية والغربية عملاتهم بواسطة أهلها المهرة فى أمور النقد والاقتصاد.

كانت ولاية الصغد من أهم ولايات بخاري أو إقليم ما وراء النهر وكانت عاصمة هذه الولاية هى مدينة سمرقند التى اشتهرت هى الأخرى أثناء فترة الغزو وبعد أن استتب الأمر للعرب فى الاقليم (٩٦ - ٢٦١هـ أى ٧١٤ - ٨٧٤م) وإن كانت قد بدأت تفقد أهميتها وازدهارها فى ظل السامانيين (٢٦١ - ٢٩٥هـ أى ٨٧٤ - ٩٠٧م)، تاركة بذلك الساحة لبخارى المدينة التى ازدادت إزدهاراً وتألقاً.

كانت مدينة سمرقند بحكم موقعها ترتفع عن الأرض ومن ثم كانت أكثر ارتفاعاً عن بخارى المدينة ومن ثم كان جوها صحياً. وكان يجرى تحتها ماء غزير فى قنوات وجداول عدة تنحدر إليها من الجبال ولم تكن سمرقند مركزا تجاريا كما هو حال بخارى لأنها لم تكن تقع على الطريق الرئيسى إلى الهند وإنما كانت مدينة للاستمتاع والهدوء حيث كانت توصف بأنها مدينة المسرات.

ولقد بدأ العرب غزو الإقليم فى سنة ٤٦هـ (٦٦٦م) حين عهد زياد بن أبى سفيان إلى قائده الهمام ربيع بن الحارث فى العراق بأن يسير من هناك إلى الشرق للغزو، لا للفتح، وقد عاد العرب من تلك الغزوة بكنوز وفيرة. وفى حملة جديدة بعث معاوية بن أبى سفيان نفسه بعبيد الله بن زياد لفتح الإقليم إلا أن الحملة لم تنجح وإن عادت بغنائم كثيرة يقال كان من بينها نعال الملكة خاتون المرصعة بالأحجار الكريمة وقد قومت بعشرين ألف درهم. وبعد ثلاث سنوات عاد العرب إلى مهاجمة إقليم بخارى بقيادة سعيد بن عثمان وفتح العاصمة واتجه عبيد الله بن زياد إلى ولاية الصغد لفتح مدينتى الصغد وسمرقند.

ورغم هذا فإن الأمر لم يستتب للعرب فى ذلك الإقليم ربما لعدم كفاية الجيوش واستمرار المقاومة إلى أن اضطر مسلم بن زياد إلى معاودة الغزو والحرب التى ظلت سجالاً بين الطرفين حتى سنة ٨٦هـ (٧٠٤م) حين أمر

الحجاج بن يوسف الثقفى قائده قتيبة بن مسلم بفتح الإقليم والإستقرار فيه ونشرالإسلام، وليس مجرد الإغارة وحمل ما يمكن حمله من ثروات وفعلاً نجح قتيبة فى فتح الإقليم وإخضاع بخارى وسمرقند والصغد وتأمينه، وانطلق من هناك إلى فرغانة فى الشرق عام ٩٥هـ (٧١١م) واستمر فى فتوحاته حتى وصل إلى مشارف الصين. ومن ثم استقر الأمر للمسلمين فى المنطقة كلها اعتباراً من عام ٩٦هـ.

ولكن للأسف الشديد تناحر العرب المسلمون على السلطة والحكم فى تلك المنطقة كما هو دأبهم وحالهم دائماً فقد اختار الخليفة الأموى سليمان سنة ٩٧هـ (٧١٥م)، يزيد بن المهلب قائداً للجيوش ولم يلبث أن خلعه عمر بن العزيز عندما ولى الخلافة وعين مكانه قائده مسلمة ولكن بعد موت عمر بن العزيز سنة ١٠١هـ (٧١٩م) نشب الصراع مريراً وقاسياً بين يزيد ومسلمة فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك حتى قتل يزيد بن المهلب واستقر الأمر لمسلمة فعين سعيد بن عمر واليا على إقليم ما وراء النهر ولكن الصراعات والاضطرابات ظلت مستمرة حتى أخذ الولاية نصر بن سيار الذى أعاد النظام إلى الإقليم إلى أن خلع من الولاية سنة ١٢٩هـ (٧٤٦م) وبعدها بقليل سقطت الدولة الأموية. وقد نشبت ثورة كبرى فى إقليم بخارى إبان حكم أبى مسلم لخراسان فبعث بحملة قوامها عشرة آلاف رجل بقيادة زياد بن صالح، حيث قضى على الثورة فى مدينة بخارى واستمر فى زحفه إلى أن أخضع أيضا ثورة سمرقند التى كان الصينيون يساندون الثوار فيها ضد العرب المسلمين.

وتجمع المصادر على أن كثيراً من الصينيين وقعوا فى الأسر، وخيروا بين الرق أى العبودية وبين الحرية إذا علّموا المسلمين حرفة فآثروا العتق وعلمّوا المسلمين من بين ما علموهم صناعة الورق. تقول زيجريد هونكه فى كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب»: وحدث أن أنزل العرب عام ٧٥١م عدداً كبيراً من أسرى الحرب الصينيين فى مدينة سمرقند وخيروا الأسرى بين العتق والرق وجعلوا ثمن العتق مباشرة حرفة من الحرف، فاتضح أن عدداً كبيرا من

أولئك الأسرى الصينيين يجيدون صناعة الورق فأعتقهم المسلمون وشيدوا لهم المصانع الضرورية. ومع مضى الزمن تقدمت هذه الصناعة باستخدام الكتان والقطن فى صناعة الورق الأبيض الناعم الجميل الذى وجد سوقا رائجة فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى وبخاصة فى عاصمة الدولة العباسية بغداد فالورق صفحة من صفحات الفخار للعروبة والعربية».

وتقول دائرة المعارف البريطانية تحت موضوع الورق «أن ثمة إجماعاً على أن صناعة الورق ترجع إلى القرن الثانى الميلادى. وأيًا ما كان عمر هذه الصناعة قديماً فى جنوب شرقى آسيا فإن الورق لم يصبح فى متناول يد البشرية إلا فى منتصف القرن الثامن الميلادى حين استولى العرب على سمرقند فى أوائل ذلك القرن وفى سنة ٧٥١م هاجمهم الصينيون ولكن العرب صدوهم وردوهم على أعقابهم وتعقبوهم وفى أثناء مطاردة الصينيين أسر عدد منهم كانوا مهرة فى صناعة الورق ومن ثم عرفها العرب منهم. وبعد ذلك بدأت صناعة الورق العربية التى انتشرت فيما بعد بسرعة فى جميع البلدان العربية.

ويذكر حسن حسنى عبد الوهاب أن أول ظهور الكاغد (الورق) فى الإسلام كان فى سمرقند صنعه هناك أسارى من الصين أسرهم الأمير زياد بن صالح فى وقعة اطلخ سنة ١٣٤هـ فاتخذوه له من خرق الكتان والقنب على ما كان جاريا فى بلادهم، فقلدهم الناس من ذلك الحين وكثر صنعه فى بقاع متعددة من بلاد الإسلام ومنها دخل إلى أوربا واشتهر.

وابن النديم فى الفهرست يقول «أما الورق الخراسانى فيعمل من الكتان. ويقال انه حدث فى أيام بنى أمية، وقيل فى الدولة العباسية، وقيل إنه قديم العمل، وقيل انه حديث. وقيل إن صنّاعا من الصين عملوه بخراسان على مثال الورق الصينى».

ومن هذه النقول وغيرها كثير مما لا يتسع المقام بسرده نخرج ببعض نتائج هامة أولها. أن صناعة الورق لم تكن موجودة فى سمرقند، إنما أدخلها العرب

إليها بعد أسر جماعة من الصينيين ولولا عرض العرب عليهم عتقهم مقابل تعليم المسلمين شيئاً نافعاً لما باحوا بسر الصنعة. **وثانيها**. أن زياد بن صالح هو القائد المسلم الذى كان السبب فى إدخال هذه الصناعة إلى سمرقند. **وثالثها**. أنه قد انصرم نصف قرن بين إقامة مصانع الورق فى سمرقند، وإقامة أول مصنع للورق فى بغداد، حاضرة الدولة العباسية. وفى خلال تلك الفترة ازدهرت صناعة الورق أيما ازدهار فى سمرقند وكان التجار ينقلونه إلى بغداد ومختلف المدن الإسلامية. وبدأ الصراع بين الورق الجديد الذى أطلق عليه العرب اسم **الكاغد** تمييزاً له عن الورق المصرى الذى أطلق عليه العرب اسم القباطى أو القراطيس وبينه وبين الرقوق الرومية كما سنرى تفصيلا فيما بعد فقد قال الثعالبى أن كواغيد سمرقند قد راجت رواجا عظيما فى الدولة الإسلامية «حتى عطلت قراطيس مصر والجلود التى كان الأوائل يكتبون عليها».

وربما كانت الإضطرابات ومرحلة الإنتقال بين الدولة الأموية والدولة العباسية هى التى أخرت قيام مصانع الورق فى بغداد وأنحاء أخرى من الدولة الإسلامية، ذلك أن أبا مسلم الخراسانى هو الذى بعث بزياد بن صالح كما رأينا إلى بخارى وكان أبو مسلم أكبر سند للعباسيين حتى ارتفع علم العباسيين الأسود فى مرو عاصمة خراسان وانطلق بعد ذلك نحو العراق واستولى عليه سنة ٧٤٩م، والتحم جيشا العباسيين والأمويين وحلت الهزيمة بالأمويين وقتل مروان الثانى الأموى وانتقلت الخلافة للعباسيين. وكان عبد الله بن محمد أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين قد استوزر أبا سلمة حفص بن سليمان الخلال أولاً ثم بعده خالد بن برمك، فقام هذا الأخير بجعل الدفاتر فى الدواوين من الجلود وكتب فيها وترك الدروج (البردى). ولما ولى أبو جعفر المنصور الخليفة الثانى والمؤسس الفعلى للدولة العباسية (١٣٦هـ - ١٥٨هـ أى ٧٥٤ - ٧٧٢م) قتل أبا مسلم الخراسانى حين عظم نفوذه وأوشك أن يستقل بالولاية. والمنصور هو الذى أمر بالتوسع فى صناعة الورق وإنتاجه فى سمرقند لشدة الحاجة إليه فى دواوين الحكومة والمؤسسات التعليمية والعلمية. إلا أن المنصور لم يفكر فى إقامة مصانع للورق فى بغداد حاضرة

الخلافة اكتفاء بما تنتجه مصانع سمرقند وتوزعه فى أنحاء الدولة الإسلامية. ويقال أن المنصور هو الذى أمر بتحريم .استخدام ورق البردى المصرى لارتفاع سعره وأمر باستخدام ورق سمرقند الرخيص.

لم تنشأ مصانع للورق فى بغداد إلا فى عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ أى ٧٨٧ - ٨٠٨م). ذلك أنه فى عهد هارون الرشيد كما يقول الأستاذ الدكتور أنور محمود عبد الواحد فى كتابه قصة الورق، بلغت بغداد قمة ازدهارها ففاقت عمارتها كل حاضرة عرفت لعهدها. وشيد المهندسون المسلمون القصور الفخمة فى كل مكان فيها بحيث صارت قصور البرامكة بالجانب الشرقى بالرصافة تطاول قصور الخلفاء بالجانب الغربى. وبلغ سكان بغداد نحو مليونى نسمة. وجاءها التجار من كل حدب وصوب برا وبحرا من خراسان وبلاد ما وراء النهر ومن الهند والشام والصين ومصر ودول إفريقيا المختلفة وأصبحت ثروة الدولة عظيمة تتداولها الأيدى وراجت التجارة رواجاً عظيما واشتد اقتصاد الدولة أيما اشتداد. وصارت بغداد قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصار الإسلامية لدراسة العلوم الدينية وعلوم اللغة على اختلافها على أيدى المحدثين والفقهاء وعلماء اللغة وأدباء العربية والنحويين، إلى جانب علوم الدنيا من طب وكيمياء وفلسفة ورياضيات وفلك وموسيقى. وقد رأينا من قبل حركة النقل والترجمة أيام الرشيد. وكان للبرامكة فضل لا يجحد فى الحركة الفكرية فى بغداد.

ومن هنا كانت كل الظروف مهيأة لاستهلاك كميات كبيرة من الورق سواء فى حركة الوراقة والنشر أو فى دواوين الحكومة والحياة اليومية. وقد أجمعت المصادر وعلى رأسها ياقوت الرومى فى معجم البلدان والمقريزى فى المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية) والقلقشندى فى صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، على أن فضل إنشاء مصانع الورق فى بغداد يرجع إلى البرامكة إذ أشار الفضل بن يحيى البرمكى على هارون الرشيد - وكان عامله على خراسان - بإنشاء مصنع للورق فى بغداد وفعلا أنشئ أول مصنع سنة ٧٩٤م. وعندما أصبح أخوه: جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك وزيرا لهارون

الرشيد، أمر بإحلال الورق محل الرق فى دواوين الحكومة. وعلى حد تعبير المقريزى «فاتخذ الكاغذ وتداوله الناس بعده إلى اليوم».

وفى هذا الصدد أيضا يقول القلقشندى «أن الورق كثر زمن الرشيد وفشا عمله بين الناس فأمر ألا يكتب الناس إلا فى الكاغد لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير بخلاف الورق فإنه متى محى فسد وإن كشط ظهر كشطه. وانتشرت الكتابة فى الورق إلى سائر الأقطار وتعاطاها من قرب ومن بعد واستمر الناس على ذلك إلى الآن. وقد ذهب ابن خلدون نفس المذهب عندما قال بان الورق ظهر وفشا استعماله زمن الرشيد وأن الفضل بن يحيى البرمكى هو الذى أشار بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه. واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمانية وبلغت الإجادة فى صناعته ما شاءت. وقد تركز إنتاج الكاغد فى بغداد فى محلة إسمها دار القز «وهى محلة كبيرة فى بغداد على طرف الصحراء ويعمل فيها الكاغد».

ومن بغداد انتشرت صناعة الورق فى بلاد الشام وذلك بحكم قربها من العراق وموطن الخلافة السابقة فأنشئت المصانع فى دمشق وطرابلس وطبرية وحلب وحماة. ووصل اليمن. وقد أسس أول مصنع لصنع الورق فى مصر سنة ٨٠٠م من عجينة الكتان. وكذلك أنشئت مصانع الورق فى شمالى إفريقيا ومراكش وانتقلت بطبيعة الحال إلى الأندلس. وكان الورق الأندلسى من أحسن الأنواع وكان مركز صناعة الورق مدينة شاطبة التى كانت تصدره إلى أوربا وكان أول مصنع للورق قد أنشئ فى الأندلس سنة ٩٥٠م وفى شمالى إفريقيا فى القرن الحادى عشر.

وقد دخل الورق العربى إلى أوربا عن طريق الأندلس من جهة وعن طريق صقلية من جهة ثانية فقد قام مسلمو أفريقيا - وجلهم من البربر وأقلهم من العرب - بفتح صقلية بعد حروب دامت أكثر من خمس سنوات (٢١٢ . ٢١٧هـ) عندما احتلوا بالرمو واستولى المسلمون أيضا على جنوبى ايطاليا

وتقدموا نحو روما ولم يرجعوا عنها إلا بعد أن وعدهم البابا يوحنا الثامن بدفع الجزية لهم كما استولى العرب على بعض المدن الأخرى فى شواطئ البحر الأبيض الأوربية بالإضافة إلى جزيرة قبرص وكورسيكا ومالطة.

وقد عمر المسلمون تلك الجزر والمدن بالمصانع والمؤسسات العلمية والأنشطة التجارية والإقتصادية. وكان من بين المصانع التى أنشأها العرب فى جزيرة صقلية مصانع للورق من الخرق القطنية البالية. وكانت أوربا تستورد الورق من تلك الجزيرة. وكان أول مصنع للورق فى صقلية قد أنشئ سنة ١١٠٢م.

وكان المنفذ الثانى للورق العربى إلى أوربا هو الأندلس حيث نجح عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) حفيد عاشر الخلفاء الأمويين، الهرب من المذبحة التى دبرها أبو العباس السفاح للتخلص من أبناء البيت الأموى وبعد رحلة شاقة دخل عبد الرحمن إلى الأندلس وجمع حوله أنصار بنى أمية واستولوا على قرطبة عاصمة الأنلس وانتزعوها من الوالى العباسى سنة ١٤١هـ (٧٥٦م) ونُصِّب خليفة على الأندلس وتوسع فى المملكة ووطد أركانها وكانت عند وفاته سنة ١٧٢هـ (٧٨٨م) فى أوج الازدهار والتماسك وبقيت بعد وفاته بنحو ثلاثة قرون عزيزة قوية مسلمة، إلا أنها فى القرن الحادى عشر بدأت تتفكك وتتفسخ فى ظل ملوك الطوائف الذين أخذوا يتناحرون ويتقاتلون فيما بينهم حتى قضت عليهم إيزابيلا وزوجها فرديناند وزال سلطان المسلمين وطردوا شر طردة سنة ١٤٩٢م.

وكجزء من النهضة الإسلامية الشاملة فى كل اتجاه: إقتصاد - علم - تعليم - إجتماع، نقل المسلمون صناعة الورق إلى الأندلس. وانتشرت مصانع الورق فى مختلف أنحاء أسبانيا وساعد على ذلك زراعات القنب والكتان الكثيفة فى تلك البلاد وقد حفلت قرطبة؛ وطليطلة وبلنسية على وجه الخصوص بالعديد من المصانع.

والحقيقة أنه كان ولابد أن تنتشر مصانع الورق فى تلك المدن: فقرطبة هى عاصمة الأندلس وقد أجمعت المصادر على أن قرطبة كانت أعظم مدينة فى

أوربا كلها وتأتى على قدم المساواة مع القسطنطينية وبغداد أيام عزهما. فقد كانت فيها مؤسسات العلم والتعليم والصناعات والفنون والمكتبات الكثيرة. وكانت تبلغ فى طولها نحو ثلاثين كيلو مترا بغياضها ورياضها وبلغت قصورها من العظمة والبهاء مالم تبلغه قصور الخلافة العباسية فى المشرق: فى دمشق وبغداد والقاهرة وناهيك بمدينة يستطيع المسافر أن يسير عشرة أميال فى طرقها على ضوء المصابيح، مدينة بلغت أحياؤها تسعة أحياء (أرباض) وضواحيها سبعا وعشرين ضاحية وتضم تقسيماتها الإدارية ثلاثة آلاف قرية. فى كل قرية منبر وفقيه. وكانت مساجد قرطبة تبلغ ١٦٠٠ مسجد وفيها ٦٠٠ جمام. وفيها مائتا ألف دار وثمانون ألف قصر، منها قصر الحكم الذى شيده الأمويون يحاكون به قصورهم فى الشام. وقد بلغ عدد السكان أيام عز المدينة مليونى نسمة مثل بغداد. وكان بالربض الشرقى من المدينة مائة وسبعون امرأة كلهن تكتبن المصاحف بالخط الكوفى فيما يقول محمد كرد على فى كتابه عن «الإسلام والحضارة العربية». وقد زارت راهبة ألمانية مدينة قرطبة فوصفتها بأنها جوهرة العالم.

كذلك بلغت طليطلة شأوا عظيما فى مدارج الحضارة والرقى وكان فيها مناجم للنحاس والحديد وإلى جانب الطبيعة الجميلة للمدينة والبساتين والحدائق الغناء اشتهرت المدينة كمركز للعلم والدرس. وكان لجامع طليطلة شهرة كبيرة كموطن لحلقات الدرس التى تعقد فيه للدراسة والمناظرة. وقد جذبت إليها الطلاب المسلمين والنصارى على السواء حتى لقد كان يقصدها طلاب مسيحيون من جميع أنحاد أوربا بما فيها إنجلترا وإسكوتلندا. وكان من الطبيعى لهذا كله أن تنشأ مصانع للورق فيها.

كما أقام المسلمون فى ضواحى بلنسية أكبر مصانع للورق وأحسنه قال عنه الشريف الإدريسى «إنه لا يوجد فى العالم ورق يضارعه فى الجودة».

وعن طريق صقلية دخل الورق وصناعته إلى إيطاليا سنة ١١٥٤م حين أنشئ أول مصنع له فيها، ودخلت صناعته إلى ألمانيا سنة ١٢٢٨م بتأسيس أول

مصنع له بها. ومن الطبيعى أن يدخل الورق وصناعته إلى إنجلترا عن طريق الأندلس حين أسس أول مصنع فيها سنة ١٣٠٤م.

لقد تميزت أنواع الورق داخل البلد الواحد بأسماء محددة ففى العراق كان هناك الورق البغدادى والورق الجعفرى والورق المأمونى والورق المنصورى والورق السلطانى والورق السليمانى. وفى الشام كان هناك الورق الدمشقى والورق الطرابلسى والورق الطبرى. بالإضافة إلى الورق السمرقندى؛ والطلحى والنوحى.

ويصف القلشقندى أنواع الورق المعروفة فى عهده وربما اقتصر على المشرقى والمغربى دون الأندلسى فقال: «الورق بفتح الراء... ويسمى الكاغد ويقال للصحيفة أيضا طرس... وهو فارسى معرب. وحسن الورق ما كان ناصع البياض غرفاً صقيلاً متناسب الأطراف صبوراً على مرور الزمان. وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادى وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جداً ولا يكتب فيه فى الغالب إلا المصاحف الشريفة، وربما استعمله كتاب الإنشاء فى مكاتبات القافات ونحوها... ودونه فى المرتبة الشامى ودونهما فى المرتبة الورق المصرى.. وقلما يصقل وجهاه معاً. ودون ذلك ورق أهل المغرب والفرنجة فهو ردئ جدا سريع البلى قليل المكث. ولذلك يكتبون المصاحف غالبا فى الرق على العادة الأولى طلبا لطول البقاء».

ولابد من التأكيد على أن ظهور الورق وانتشاره فى العالم العربى والإسلامى لم يؤد إلى اختفاء البردى والرق وتقلص استخدامهما فى النسخ والكتابة فجأة بل جاء الاختفاء تدريجياً. كما بدأ تدريجياً أيضاً. وكان الصراع بين هذه المواد على البقاء مريراً وقد صور الجاحظ فى احدى رسائله المعركة بين الكاغد والرق حين قال محبذاً الورق ومعيباً الرق فقال عن الرقوق «جافية الحجم، ثقيلة الوزن، إن أصابها الماء بطلت وإن كان يوم لثق استرسلت فامتدت، ومتى جفت لم تعد إلى حالها إلا مع تقبض شديد وتشنج قبيح.. وهى أنتن ريحاً وأكثر ثمنا، وأحمل للغش: يغش الكوفى بالواسطى، والواسطى بالبصرى.

وتعتق لكى يذهب ريحها وينجاب شعرها. وهى أكثر عقداً وعجزاً وأكثر خباطاً وإسقاطاً. والصفرة إليها أسرع، وسرعة انسحاق الخط فيها أعم. ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها قدر ما يكفيه فى سفره لما كفاه حمل بعير».

وعلى الرغم من كل العيوب التى ذكرها الجاحظ للرقوق إلا أنه يقر ببعض مميزاتها على الورق فهى «أحمل للحك والتغيير، وأبقى على تعاور العارية وتقليب الأيدى، ولرديدها ثمن، ولطرسها مرجوع، والمعاد منها ينوب عن الجدد».

ويقول الدكتور أنور عبد الواحد فى قصة الورق أنه يوجد خطابان مكتوبان بالعربية على ورق مصنوع فى بغداد من الخرق البالية يرجع تاريخهما إلى ٨٠٠م (أى نهاية القرن الثانى الهجرى). كما أن أقدم مخطوط عربى وصلنا حتى الآن هو كتاب غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام (ت ٨٣٧م) وهو مؤرخ بسنة ٢٥٢هـ (٨٦٦م) وهو محفوظ الآن في مكتبة جامعة ليدن. كما توجد نسخة من نفس الكتاب فى مكتبة الجامع الأزهر يرجع تاريخها إلى سنة ٣١١هـ (أوائل العاشر الميلادى). كما يوجد فى المتحف البريطانى خطاب لطبيب عربى فى تغذية مختلف أعضاء الجسم يرجع إلى سنة ٩٦٠م (منتصف الرابع الهجرى).

* * *

وإذا كانت تلك هى المواد التى كتب عليها العرب والمسلمون الكتاب الإسلامى فما هى الأدوات أو على حد تعبيرهم الآلات التى استخدموها فى تسجيل المعلومات على تلك الوسائط.

لقد كانت أدوات الكتابة دخيلة على العرب فى جاهليتهم ولم يصنعوها بأنفسهم وربما يكونون قد إستوردوها من بلاد الفرس أو من الشام وربما من مصر. ويبدو أن هذا الوضع استمر طوال القرن الأول الهجرى. وإن كان قد انقلب رأساً على عقب مع الفتوحات الإسلامية الواسعة واحتكاك المسلمين

بالدول الأخرى وبعد انتقال عواصم الخلافة إلى الشام والعراق حين بدأ العرب المسلمون، يصنعون أدوات الكتابة كما صنعوا مواد الكتابة نفسها.

أدوات الكتابة

كان الناسخ لكى يكتب لابد أن تكون لديه أدواته الكاملة لكى يتمكن من إتقان ما يكتب وبالسرعة الكافية وأى نقص فى تلك الأدوات كان يؤثر بالسلب على عملية النسخ. ونستعرض هنا الأدوات التى كان يعتمد عليها فى انجاز عملية النسخ والكتابة. وربما كان الكاتب يحمل تلك الأدوات فى كمه أو جيبه مفردة أو يضعها فى مقلمة تحمل هذه الأدوات جميعا فى نسق معين.

١ - **القلم**. وقد رأينا أن القلم كان موجودا فى مصر القديمة وفى اليونان وعند الرومان بنفس الاسم **كالاموس**. وكان العرب فى الجاهلية - كما كان الإنسان البدائى - يستعملون آلات حادة ينقشون بها كلماتهم فى الحجارة أو الخشب. وكان اليمنيون القدماء على وجه خاص قد ملأوا جنوبى الجزيرة العربية بآلاف النقوش الحجرية التى استعملوا فى كتابتها تلك الآلات الحادة. وكان عرب الشمال يكتبون بالفحم أحيانا أو الحكك (الطباشير) أو أى نوع من الرصاص يجدونه فى الصحراء. ولكنهم مالبثوا أن استعملوا ريش الطيور ثم أقلام الغاب بعد أن انفتحوا على بلاد الفرس التى كان يكثر بها الغاب الفارسى. وخاصة ابتداءً من القرن الأولى الهجرى وإلى جانب الغاب إستعملوا الجريد فى صناعة القلم.

وقد عرف القلم عند العرب بأسماء أخرى منها اليراع والمزبر. وكانت أقلام الغاب تقط وتبرى أو تقلم ومن هنا إشتق اسم القلم. ولأهمية القلم تردد ذكره فى القرآن الكريم وأقسم به الله جل جلاله.

ولقد أفاضت المصادر العربية فى وصف القلم وكيفية بريه واستعماله والمواد التى يصنع منها وكيفية وضعه على ورق الكتابة. وربما كان الناسخ يعتز بقلم معين ويظل يستعمله حتى يفنى ومما يذكر فى هذا الصدد أن الناسخ أبو اليسر

إبراهيم بن أحمد السنانى من أهل بغداد كتب نسخة من كتاب سيبويه بقلم واحد من القصب ظل يبريه حتى قصر ولم يعد بقادر على التحكم فيه فأدخله فى قلم آخر وكتب به حتى فنى بتمام الكتاب.

ومن الأقوال التى قيلت فى حق القلم كأداة للكتابة. ومما وصف به القلم ما قاله أبو دنف «القلم أحد اللسانين» كما قال «القلم صائغ الكلام» وقال ابن المقفع «القلم بريد القلب». وقد نقل الصولى فى أدب الكتَّاب ما قاله أحمد يوسف عن القلم «القلم لسان البصر يناجيه بما استتر». ومنهم من وصفه شعرا حيث يقول أبو يعلى عبد الباقى بن أبى الحصين:

وأطلس يحكى رأسه ناب أطلس ** ألمَّ به السكين فى موضع الذبح

تراه مكبًا يجتنى حندس الدجـى ** ويطرحه نثرا على صفحة الصبح

وفى تفضيل أقلام الغاب الفارسى على ما عداها أرسل عبد الله بن طاهر إلى صديقه إسحاق بن إبراهيم فى خراسان يطلب منه إمداده بأقلام الغاب. والرسالة قطعه أدبية تكشف عن فضل الأقلام الفارسية تقول الرسالة «أما بعد فأنا على طول الممارسة لهذه الكتابة التى غلبت على الاسم ولزمت لزوم الوشم، فحلت محل الأنساب، وجرت مجرى الألقاب؛ وجدنا الأقلام القصبية أسرع فى الكواغد وأمرّ فى الجلود، كما أن البحرية منها أسلس فى القراطيس وألين فى المعاطف. ونحن فى بلاد قليلة القصب ردئ ما يوجد منها، فأحببت أن تتقدم فى اختيار أقلام قصبية وتتأنق فى انتقائها قبلك وتطلبها من مظانها ومرامها من شطوط الأنهار وأرجاء الكروم وأن تتيمم باختيارك منها الشديد المجس الصلبة المغمض، النقية الجلود، الغليظة الشحوم، المكتنزة اللحوم، الضيقة الأجواف، الرزينة المحمل، فإنها أبقى على الكتاب وأبعد من الحفا. وأن تقصد بانتقائك الدقاق القضبان اللطاف المنظر، المقومات الأود، املس العقد فلا يكون فيه التواء عوج ولا أمت».

ويقول أبو بكر الصولى أيضا أن من حسن برى القلم تطويل السن وتسمينه وتحريف القطة وتيمينها. وعندما يكون القلم صلبا فإنه يمنع جريان الحبر وعندما يكون رخوا لينا فإنه يتشرب الحبر بسرعة. ويجب أن يتخذ القلم من عود أملس ليست فيه عقد وتوسع فتحته وتطال جلفته وتحز قطته ويحمد فيه القصب الفارسى وخشب الأبنوس الناعم. وقد تشاءم الكتاب من القلم الذى ينتهى بعقدة فقالوا إنه يورث الفقر.

٢ - المداد: اشتق اسمه من الفعل «يمد» أى ما تمد به الدواة الكاتب. وقد يسمى حبراً من الفعل يحبر الشئ أى يترك عليه أثره. وقد فرق العرب بين المداد والحبر ففى نص عارض عن الباقلانى أنه كان «إذا صلى العشاء وقضى ورده وضع الدواة بين يديه وكتب خمساً وثلاثين ورقة تصنيفا من حفظه وكان يذكر أن كتابته بالمداد أسهل عليه من كتابته بالحبر». وفى نص عارض آخر يقول السخاوى «وفضلوا الكتابة بالحبر على المداد وهو المداد الأسود، وجوزوا الكتابة أيضاً بماء الذهب وقالوا الكتابة بالأحمر شعار الفلاسفة والمجوس». وهذان النصان متناقضان. وقال السمعانى فى أدب الإملاء «أراد أحدهم أن يكتب كتابا بماء الذهب فاستشار فى ذلك مؤلفه فقال له: أكتبه بالحبر فإنه أنقى الألوان». ومن هذه النصوص يمكن أن نستخلص أن الحبر هو المداد الأسود أو ربما شديد السواد تمييزا له عن سائر الألوان أو تمييزا له عن الأسود الفاتح. وربما فضلوا ذلك اللون لأنه يكون واضحاً أشد الوضوح مع الكتابة على الورق الأبيض. وربما كان التمييز بين الحبر والمداد على أساس طريقة الصناعة؛ ذلك أن حبر الدخان كان يناسب الورق ولا يصلح للجلود أو الرقوق بينما لأنه كما يقول ابن السيد البطليوسى فى كتابه «الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب» «قليل اللبث فيها سريع الزوال عنها» بينما الحبر المطبوخ أو الحبر الرأسى، كما كان يسمى فى ذلك الحين، كان هو المفضل فى الكتابة على الرق لأنه أدوم وأثبت.

وكان المداد فى رأينا مصطلحاً عاماً يستخدم للدلالة على جميع أنواع وألوان ذلك السائل الذى يستخدم فى الكتابة، بينما الحبر كان مصطلحاً خاصاً يدل على المداد شديد السواد أو الأسود عموماً.

فى بادئ الأمر كان الحبر يستورد إلى العالم الإسلامى من الصين موطن أفضل الأحبار، ولكن ما لبث العرب أن صنعوه كما صنعوا الورق. وكانت مكوناته سخام النفط أو هباب الدخان (السناج) والعفص والزاج والصمغ والماء وبعض الملح والعسل. والعفص هو ثمرة شجرة البلوط تحمل سنة بلوطاً وسنة عفصاً. وهو مادة سوداء غنية بحمض التنيك إذا نقعت فى الخل سودت الشعر. أما الزاج الأخضر فهو كبريتات الحديد. ولكى يجود الحبر كان لابد من خلط تلك المركبات بمقادير محددة شرحتها المصادر على النحو الآتى:

٣ أرطال من سخام النفط (تنخل وتصفى).

٣ أمثال ماء.

١ رطل واحد من العسل.

١٥ درهما من الملح.

١٥ درهما من الصمغ.

١٠ دراهم من العفص.

ويخلط هذا كله خلطاً كاملاً وبعناية حتى تتداخل المركبات ويوضع فى إناء على النار حتى يغلى ويتماسك وبعد ذلك يبرد ويصب منه فى الدوى.

وكما مدح الكتاب القلم شعراً ونثراً كذلك مدحوا المداد الذى يمد القلم بسائل الكتابة فقال السمعانى: يجب أن يكون الحبر براقا جارياً والقرطاس نقياً صافيا والحبر أبقى الألوان على مر الدهور والأزمان وهو آلة ذوى العلم وعدة أهل المعرفة».

وقال أبو عبد الله البلوى يمدح الحبر شعراً:

مداد المحابر طـيب الرجال ** وطيب النساء من الزعفران

فهـذا يـليـق بـأثـواب ذا ** وهـذا يليق بثوب الحصان

ومن الطبيعى أثناء النسخ أن ينسكب الحبر على ثياب النساخ. وفى أدب الكتّاب لأبى بكر الصولى وفى أدب الإملاء للسمعانى حوادث طريفة لدلق الحبر على الملابس ووصفات لازالة الحبر من الثياب. وربما كان من أحسن المصادر التى كتبت فى هذا الصدد كتاب «المخترع من فنون الصنع» ليوسف بن عمر اليمنى (ت ٦٩٤هـ) الذى يتناول صناعة الكتاب وأدواته. وفى الباب الأول يتحدث عن القلم وفى الباب الثانى يتحدث عن أجناس المداد. والثالث فى عمل الليق وتكوين الصباغات. وفى الباب الرابع يتحدث المؤلف عن الكتابة بالذهب والفضة. وفى الباب الخامس يتحدث المؤلف عن وضع الأسرار فى الكتب وما يمحو الدفاتر والرقوق. وفى الباب السادس يتحدث عن غراء المجلدين وغراء السمك والزاق الذهب والفضة. ويتناول الباب السابع تجليد الكتب وآلاتها. وفى الثامن يتحدث المؤلف عن معرفة ألوان الحرير على اختلافها. والباب التاسع يدور حول معرفة قلع الآثار والصبوغات من الثياب وعمل الصابون». وقد ذكر السمعانى أن الحبر يمكن ازالته «بحماضة الأترج».

وكانوا يهونون من مشكلة سكب الحبر على الثوب فقال الشاعر أحمد بن يحيى فى هذا الصدد:

لا تجزعن مـن المداد ولطخه ** إن المداد خلوق ثوب الكاتب

وأبهج بـذلك إنما هـو زينة ** هـبة مـن الله الجليـل الَواهب

وشم المداد لكاتـب فى ثوبه ** سمـة تلوح له بحسن مناقب

وقال أبو حفص عمرو بن عثمان الجنزى:

لا تحقرن الحبر فى ثوب امرئ ** فالحبر فيه من خلوق العالم

كالخال نقط فى خدود كاعـب ** بـدم الفؤاد المستهـام الهائـم

وكان الحبر يقدم كالكتب هدية وذلك لنفاسته وأهميته فى الكتابة وكان الشكر عليه أمر واجب، فيقول الشاعر أبو الحسن ناجية بن محمد الكاتب يشكر صديقا له أهداه حبرا مع غلام يقال له إيزون:

أمـددتـنــى بمــداد ** كلـون إيـزون بـادى

كمسكنيــك جميــعا ** مـن ناظـرى وفـؤادى

اكـرم بـه مـن سـواد ** مبيـض لســوادِ

ويبدو أن الغلام الذى أوصل الحبر إليه كان زنجياً حبشياً شديد السواد.

٣ - **الدواة** أو المحبرة. والتى يقول عنها القلقشندى أنها أم آلات الكتابة وسمطها الجامع. وكانت تتخذ من أجود العيدان كالأبنوس والساسم والصندل، ثم غلب على المتأخرين استعمالها من النحاس الأصفر والفولاذ وتغالوا فى أثمانها. وقد جمع السمعانى فى أدب الإملاء والاستملاء كثيرا من الأقوال فى حق الدواة. وقد امتدحت المحابر نثراً وشعراً فقال الإمام أحمد بن حنبل عن المحبرة «هذه شرح الإسلام» وقال الشافعى «لولا المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر». وقال أبو القاسم العلوى يصف الدواة شعراً:

ماءٌ كقطع الليـل فى لـونه ** تنزحــه أقلامـنا مـن قليـب

قطع الندى ينبت زهر الندى ** وهـذه تنبت زهـر القلـوب

خواطر القلب إذا ما صنعـت ** تخبر عما فى حجاب الغيوب

نحوكــه وشــياً بأقلامــنا ** فبعضنا مخط وبعضنا مصيب

وقال على بن الصباح:

دواة حديد زين الله خلقهـا ** بكـف فتى حلـو الكتابة حاذق

تدير العطايا والمنايا حرابها ** إذا طعنت فى شاكلات المهارق

وقال أبو بكر الصولى فى مواصفات الدواة الجيدة «أن تكون متوسطة فى قدرها نصفاً فى قدها فتقصر، لا باللطيفة جدا فتقصر أقلامها ولا بالكبيرة فيثقل

حملها وأن يكون عليها من الحلية أخف ما يتهيأ أن تتحلى الدوى به من وثاقة ولطف صنعة ليأمن أن تتكسر وتنفصم منها عروة فى مجلس رياسة أو مقام محنة وأن تكون الحلية ساذجة لا حفر ولا ثبات فتحمل».

تلك هى الأدوات الثلاثة الأساسية ويضاف إليها الأدوات الإضافية الآتية:ـ

٤ - **المدية**: وهى السكين التى تبرى بها الأقلام وكانوا ينصحون بعدم استخدامها لغرض آخر سوى البرى.

٥ - **المقط**: أو المعصمة وهى قطعة صلبة من الحجارة المستوية أو الرخام أو الخشب الصلد يبرى عليها القلم.

٦ - **المفرشة**: وهى قطعة من خرق الكتان أو الصوف تفرش تحت الأقلام فى المقلمة.

٧ - **الممسحة**: وكانت تسمى أيضا الدفتر وهى آلة تتخذ من خرق متراكبة ذات وجهين ملونين من صوف أو حرير أو غير ذلك من القماش يمسح بها القلم عند الإنتهاء من الكتابة حتى لا يجف عليه الحبر فيفسد.

٨ - **المقلمة**: وكانت عبارة عن صندوق ضحل من الخشب الأبنوس أو النحاس الأصفر توضع فيها أدوات الكتابة جميعا بما فى ذلك الدواة. وربما اقتصرت فقط على وضع الأقلام والممسحة وحدها.

ولقد ظلت تلك الأدوات دون تغير يذكر حتى دخول الطباعة إلى العالم العربى وانتشارها فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، حين حلت الطباعة محل النسخ فى إنتاج الكتب. وإن كانت تلك الأدوات قد استمرت فى عملية النسخ فى الكتاتيب والمدارس، إلى أن ظهر قلم الحبر وما تبعه من زجاجات الحبر ثم حلول القلم الجاف محله. فى وقتنا الحالى مما حدا بنا إلى الاستغناء عن المحابر الحديثة.

❁ ❁ ❁

الكراس السابع

الملامح المادية الفيزيقية للكتاب الإسلامى

كشفت الدراسة على الصفحات السابقة عن أن المخطوط الإسلامى كتب فى بداية عهده على مواد طبيعية من الموجودة فى البيئة العربية ثم كتب على الجلود ثم كتب على البردى ولكن منذ نهاية القرن الثانى الهجرى ومطلع القرن الثالث الهجرى دخل الورق (الكاغد) كمادة رئيسية فى كتابة المخطوط العربى الإسلامى.

وقد إستخدمت فى كتابة ذلك الكتاب أدوات عرضنا لها تفصيلاً ونشر هذا الكتاب عن طريق الوراقة والوراقين بطرق متفاوتة متباينة، أدت إلى طرح هذا الكتاب فى السوق ووصوله إلى المكتبات الرسمية أو الشخصية وإلى أيدى القراء والمستهلكين على إختلاف ميولهم ومشاربهم.

ومهمتنا الآن هى الوقوف على الجوانب المادية الفيزيقية للمنتج النهائى الذى طرح فى الأسواق واقتنته المكتبات وسعى إليه الأفراد.

وبعد هذه الجوانب المادية سنحاول تحليل الملامح الفكرية فى هذا الكتاب الذى احتل رقعة واسعة فى الزمان والمكان على ساحة الفكر الإنسانى فى العصور الوسطى.

أبعاد المخطوط

والحقيقة انه لم يكن للمخطوطات العربية أحجام ثابتة على النحو المعمول به فى أيامنا فى الكتب المطبوعة بمقاييس معلومة نتيجة صناعة الورق المنظمة الآن. كذلك لم يكن يحتم فى القرون الأولى خصوصاً بأن تتساوى أوراق المخطوط الواحد، وإن كنا نصادف بعد ذلك حرصاً متزايداً على هذا التساوى.

وقد أشارت المصادر إلى وجود حجمين متقاربين للمخطوطات العربية فى القرون الهجرية الأولى: الأول ٢٥×١٨ سم، والثانى ١٨×١٢ سم.

صفحة العنوان

تدل أقدم المخطوطات التى وصلت إلينا على أن العرب لم يعرفوا صفحة العنوان فى أول عهدهم بصناعة الكتب وأن عنوان الكتاب واسم مؤلفه كانا يردان فى مقدمة الكتاب بعد قسم كبير من الكلام، أو كانا يأتيان فى نهاية المخطوط، ولم يكن العنوان الوارد فى المقدمة يتميز عن النص بخطه أو بلون مداده، ثم رأوا بعد ذلك أن يميزوه بلون مخالف لمداد الكتابة فكتبوه باللون الأحمر فى معظم الحالات.

والأمر ذاته حدث بالنسبة إلى عناوين الفصول والعناوين الجانبية، فلم تكن تختلف عن بقية النص فى نوع الخط أو حجمه أو لون مداده، ولم يكن يميزها إلا أنها تكتب فى وسط السطر كما هو الحال فى رسالة الشافعى رقم ٤١ - أصول فقه م، ومسائل أحمد بن حنبل رقم ٢٠٧٥٣ - ب، وكتاب سر النحو للزجاج رقم ١٤٨ - نحو بدار الكتب بالقاهرة. ثم بدأوا بعد ذلك يخصون العناوين بحروف أكبر وكان الخط الكوفى هو المفضل عادة فى مثل تلك الحالات كما فى كتاب مشكل القرآن لابن قتيبة المخطوط سنة ٣٧٩هـ والمحفوظ بدار الكتب برقم ٦٦٣ تفسير. وكانت المرحلة التالية هى تمييز العناوين بلون مغاير للون المداد الذى كتب به النص، وكان اللون الأحمر هو اللون المفضل فى الكتب، بينما كان الذهب هو المستحب عادة فى كتابة أسماء السور فى المصاحف. ولعل السبب فى عدم تخصيصهم سطراً أو صفحة للعناوين هو رغبتهم فى إستغلال كل المساحة، نظراً لإرتفاع ثمن البردى والرق ثم الورق.

الإستهلال

وكان الإستهلال بالبسملة والحمدلة والصلاة على النبى ثم الهدف من تأليف الكتاب ومحتوياته أحياناً بل المصادر التى اعتمد عليها المؤلف فى كتابة مؤلفه هذا، ويذكر اسمه، والموضوع الذى اختاره.

تقول بعض المصادر إن الإستهلال هذا كان يؤدى وظائف ثلاثة من ملامح الكتاب المطبوع فى عصرنا الحاضر وهى:

(أ) صفحة العنوان.

(ب) قائمة المحتويات.

(ج) مقدمة الكتاب، ونضيف كذلك قائمة المصادر فى بعض المخطوطات، وهذه الأخيرة قصد بها إعطاء قدر كبير للكتاب من حيث إعتماده على مصادر أخرى، وكذلك تفيد من يريد الاستزادة من المادة العلمية فى هذا الموضوع.

مسطرة المخطوط

ولم يكن ثمة معدل ثابت لعدد السطور فى الصفحة الواحدة بل كان عدد السطور أحياناً يختلف من صفحة إلى أخرى فى المخطوط الواحد. وإن كان المعدل هو فى القطع الكبير ٢٥ - ٣٠ سطراً وفى القطع المتوسط ٢٠ - ٢٥ سطراً وفى القطع الصغير ١٢ - ١٥ سطراً. وأغلب الظن أن النساخين لم يكونوا يسطرون أوراق المخطوط قبل البدء بالكتابة، حتى يتحكموا فى عدد السطور وإستوائها، وإذا حدث ذلك فى المخطوطات الصغيرة والمتوسطة، فإنه لم يحدث فى المخطوطات الضخمة الحجم، كالمصاحف الكبيرة ونحوها التى يحتم إتساع صفحاتها تسطيرها.

وكان يطلب من الكاتب أن تكون رؤوس السطور وأواخرها متوازية، وأن تكون المسافة بينها واحدة، تزاد عند الإنتقال من فكرة إلى فكرة أو من موضوع إلى موضوع وكوسيلة من وسائل ضبط نهايات السطور كانوا يستعملون المدّ أو المطّ فى الكتابة. وكان المدّ يستعمل عادة «إما لتحسين كلمة مثل «محمد» أو إزالة إشكال كما فى «سبع» أو إتمام سطر نحو «العلم» كما يقول «ابن شيث القرشى» ومع هذا فقد كان يطلب إلى الكتاب أن يقتصدوا فى إستعماله قدر الإمكان، وألا يكرروه فى سطرين متتاليين، وأن يتجنبوه فى أوائل السطور على

وجه الخصوص، ولم يكن المدُّ مستحباً إلا فى الخط الذى تتقارب سطوره وفى الكلمات التى لا تقل عن أربعة أحرف.

والأمر الطريف حقاً هو أن العرب لم يحرصوا فى تلك الفترة المبكرة من تاريخهم على إستقامة السطور فحسب، بل حرصوا أيضاً على القيمة الجمالية للكتابة. وفى كتاب «الكتاب» يرسم لنا ابن درستويه الطريق إلى تحقيق هذه الغاية فيقول: «ومما يعدل به السطور أن تجعل أعالى ألفاتها ولاماتها وكافاتها المنتصبة وطاءاتها متأدية على مقدار واحد غير متفاضلة، وتجعل أسافل الحروف المعرقة كالصادات والسينات والنونات والياءات متساوية بمقدار واحد غير متفاوتة، وكذلك أسافل المعقف كالجيمات والعينات فإنها تسلم بذلك من الإعوجاج».

علامات الترقيم

ولم يعرف العرب من علامات الترقيم فى القرون الأولى للهجرة سوى النقطة أو ما يقوم مقامها كأداة للفصل بين الجمل، ويذكر أدلف جرومان أن النساخين العربى قد إستعاروا الدائرة التى نصادفها باشكال مختلفة فى المصحف، من اللغة البهلوية، وكانت النقطة عبارة عن دائرة. وقد لاحظ أحد المؤلفين أن الدائرة كانت تستخدم مجردة أحياناً، كما فى مخطوطتى كتاب الإنتصار لابن الخياط وكتاب أخبار سيبويه المصرى لابن زولان بدار الكتب وفى أحيانا أخرى يكون بداخلها نقطة كما فى مخطوطات سر النحو ومسائل الإمام أحمد ومشكل القرآن، وفى أحيان ثالثة يخرج خط من منتصف الدائرة، أو دائرتان متماستان، وربما كانت النقطة أو العلامة التى نصادفها داخل الدائرة أو خارجها من صنع القراء لتحديد المكان الذى وقفوا عنده فى القراءة، ثم اصبحت تقليداً بين النساخ بعد ذلك تأنقاً وتزيداً.

وفى المخطوطات المتأخرة نصادف إختفاء الدائرة وظهور النقطة فقط للفصل بين الجمل، ونصادف أيضاً فى إحيان قليلة وجود فصلات ونقطتين.

الإختصارات

وكانوا عادة ما يختزلون صيغ الإخبار والتحدث لتكرارها فى كتب الحديث والتاريخ على وجه الخصوص، فيكتفون بكتابة «أنا» عوضاً عن أخبرنا و«ثنا» أو «نا» عوضاً عن حدثنا و«قثنا» عوضاً عن قال حدثنا، و«اهـ» عوضاً عن «انتهى». وفى نسخة الربيع من رسالة الإمام الشافعى وجدت صيغة الإخبار مختصرة إلى «أرنا»، ولم نجد فى مخطوطات القرون الأربعة الأولى للهجرة إختصاراً لصيغة الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وإنما كان إسمه الشريف يذكر إما مقروناً بالنبوة أو الرسالة وإما متبوعاً بالصلاة والسلام عليه دون إختصار.

التصويبات

كان الناسخ إذا أخطأ وتنبه للخطأ فى حينه شطبه وكتب الصواب بعده. وفضلاً عن ذلك فإن بعض النساخين والطلاب كانوا يراجعون الكتب بعد الفراغ من نسخها لتصحيح ما عساه أن يكون قد وقع فيها من خطأ أو سهو أو تكرار. وكانت الطريقة المثلى للتصحيح هى الطريقة الآنفة الذكر أى الضرب على الخطأ وكتابة الصواب فوقه. أما الحك أو الكشط فقد كانا مكروهين لاسيما فى كتب الحديث «لأن فيه تهمة وجهالة فيما كان كتب، ولأن زمانه أكثر فيضيع، وفعله أخطر فربما ثقب الورقة وأفسد ما ينفذ إليه فأضعفها».

«فإذا تكرر الحرف أو الكلمة سهواً من الكاتب أُبطل الثانى إلا إذا وقعا فى آخر السطر، ففى هذه الحالة يضرب على الأول ويستبقى الثانى. فإذا تكرر المضاف والمضاف إليه أو الموصوف والصفة ونحوهما روعى إتصالهما وذلك بأن يضرب على الأول فى المضاف والموصوف، وعلى الآخر فى المضاف إليه والصفة، لأن مراعاة الفهم أولى من مراعاة تحسين الصورة فى الخط».

وكانت الكلمات المنسية تضاف أحيانا فى مكانها بين السطور إذا كانت لا تتجاوز كلمة أو كلمتين، وأحياناً أخرى كانت تضاف فى مكانها وتذكر مرة أخرى فى الهامش الخارجى فى مقابل السطر الذى أضيف فيه.

أما إذا كان الكلام المنسى أكثر من أن تتحمله الفراغات الموجودة، فقد كان النظام المتبع فى مثل هذه الحالة هو أن يضاف فى الحاشية أو الهامش الخارجى، وذلك بأن يخط من موضع سقوطه فى السطر خطّ صاعد معطوف بين السطرين عطفة يسيرة إلى جهة الهامش، وهو ما يعرف بالتخريج على الحاشية أو اللحق.

رقم أوراق المخطوط

وقد ظل المخطوط العربى بدون ترقيم لأوراقه أو صفحاته حتى نهاية القرن الخامس الهجرى تقريباً، ولما كان يخشى من إنفراط عقد أوراقه وصعوبة إعادة ترتيبها، ظهرت طريقة كتابة أول كلمة فى الصفحة اليسرى فى الهامش الأسفل للصفحة اليمنى فيما عرف بالتعقيبات.

وفى العصور المتأخرة جرى ترقيم أوراق المخطوط بالورقة وليس بالصفحة. وفى أواخر أيام المخطوطات وقبيل ظهور الطباعة مباشرة كان المخطوط العربى يرقم بالصفحة.

خاتمة المخطوط (حرد المتن)

وتعتبر خاتمة المخطوط العربى جزءاً مهما منه ففيه تذكر عبارة تدل على إنتهاء النص واسم الناسخ، وفى أحيان قليلة يذكر مكان النسخ، وفى أحيان كثيرة يذكر تاريخ النسخ باليوم والشهر والسنة الهجرية. وقد تكون السطور الأخيرة من النص مكتوبة على شكل هرم مقلوب. أما إذا كان المخطوط فى أكثر من مجلد فتذكر فى نهاية كل مجلد عبارة تفيد الربط بين المجلد والمجلد الذى يليه. (إنتهى المجلد كذا ويليه المجلد كذا وأوله...).

الهوامش

ولقد كان الناسخ العربى يحرص على ترك هوامش أربعة، وكانت هذه الهوامش تتمشى مع حجم المخطوط، فكلما كان حجم الكتاب كبيراً كانت الهوامش أكبر.

وبمرور الزمن دأب قراء المخطوطات - وخصوصا النابهين منهم - على كتابة تعليمات وحواشٍ وتقريرات على هوامشها اثناء قراءتهم مما يعتبر تأليفاً جديداً، وكلمة حاشية نفسها مأخوذة من هذا المعنى (ما يكتب فى هوامش الكتاب أى أطرافه) حتى إذا استقلت هذه الحواشى فى كتاب مستقل بذاته كان لها الإسم ذاته. ونصادف ذلك فى أواخر المخطوطات بصفة خاصة، وفى أوائل المطبوعات العربية، إذ نصادف ثلاثة كتب أو أربعة فى مجلد واحد: كتاباً أو كتابين فى المتن، وكتاباً أو كتابين على الهامش.

التمليكات والإجازات والسماعات

ونصادف فى أول المخطوط أو آخره بعض عبارات تفيد ملكية الكتاب لشخص معين أو لمسجد بالذات أو لمكتبة معينة على النحو المعمول به فى زماننا هذا بالنسبة إلى الكتب المطبوعة، وهذه العبارات تعرف بالتمليكات.

ومن المعروف أن نظام التعليم فى الإسلام كان يقوم أساساً على أستاذ يشرح كتاباً وتلاميذ يتحلقون حوله ويسمعون عليه الكتاب، ولابد من إثبات أن فلاناً قد سمع هذا الكتاب على الشيخ الفلانى ليكون ثقة بعد ذلك فى مادة الكتاب، ويكون هذا الاثبات على الكتاب نفسه ويعرف هذا بالسماعات. وكذلك كان لابد لكى يقوم التلميذ بالتدريس فى مادة ذلك الكتاب أن يجاز له القيام بهذا العمل، ولابد من إثبات ذلك أيضاً على الكتاب نفسه فيما يعرف بالإجازات على النحو المعمول به اليوم فى رسائل الماجستير والدكتوراه مع تغير الظروف والأسلوب. (أنظر بحثنا فهارس الشيوخ).

وكثيراً ما كانت الصفحة الأولى والصفحة الأخيرة من المخطوطات لا تتسعان لاستيعاب كل السماعات والقراءات والإجازات والمعارضات والتمليكات وما قد يثبت عليها من فوائد أو نقول، فكانت تلك البيانات تسجل على أوراق منفصلة تضاف فى أول المخطوط وآخره كما هو الحال فى نسخة دار الكتب من رسالة الشافعى. وكانت الإجازات تتضمن إسم المجيز وإسم الكتاب وعدد أجزائه

وتاريخ الإجازة وإسم كاتبها. أما السماعات فكانت تتضمن اسم القارئ وأسماء السامعين والقدر المسموع وتاريخ السماع وإسم كاتبه. ولهذه التمليكات والسماعات والقراءات والإجازات أهمية بالغة بالنسبة إلى من يؤرخون للمخطوط العربى، فهى تساعد أولاً على تحديد تاريخ المخطوط فى حالة عدم وجوده، وهى بعد ذلك تكشف لنا عن قيمته ومدى إهتمام الناس به فى عصره وبعد عصره، بل ومدى الثقة به وبمؤلفه، وهى أخيراً تعطينا صورة للحركة العلمية ومدى إنتشار الثقافة، بل ومدى عمقها فى عصر من العصور.

الصور والرسوم

وكانت الصور والرسوم فى المخطوطات العربية توضع بعد الإنتهاء من نسخ المخطوط، إذ كان الناسخ يترك فراغات لها، وهذا يؤكد لنا أن الرسام كان شخصاً آخر غير الناسخ، ذلك أن الصور فى بعض المخطوطات العربية تتجاوز المساحة المتروكة لها وتطغى على النص من الأعلى والأسفل. كما وصلتنا مخطوطات بها مساحات بيضاء تركت للصور والرسومات، ولكنها لم ترسم.

وجدير بالذكر أن العرب عرفوا الكتب المصورة عن طريق الفرس منذ أوائل القرن الثانى. فالمسعودى يحدثنا أن كتاباً فارسياً فيه صور سبعة وعشرين من الملوك الساسانيين وجد فى خزائن ملوك فارس سنة ٣١٣هـ ونقل لهشام بن عبد الملك من الفارسية إلى العربية. ولاشك أن هذا الكتاب وأمثاله من الكتب الفارسية المصورة التى عرفها العرب فيما بعد وعلى رأسها كتاب «كليله ودمنة» قد فتحت أمامهم آفاقاً لزخرفة الكتاب العربى وتزويده بالصور والرسوم.

وكتاب «كليلة ودمنة» بالذات يحمل فى سطوره ما يؤكد أنه كان مصوراً حين ترجمه عبد الله بن المقفع فى زمن أبى جعفر المنصور (المتوفى سنة ١٥٨هـ). ونحن حين نقرأ كتاب أحسن التقاسيم للمقدسى نجد فيه:

«وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها المالحة بالخضرة وأنهارها المعروفة بالزرقة وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب

الوصف إلى الإفهام ويقف عليه الخاص والعام». ونمضى مع النص فتطالعنا من حين إلى حين عبارة «وهذا شكل الإقليم ومثاله» لتؤكد لنا من جديد أن المقدسى حين ألف كتابه رسم لكل إقليم خريطة توضحه فى موضوع الحديث عنه، وضاعت الخرائط وبقيت النصوص كشواهد القبور دليلاً على شئ كان موجوداً ثم اندثر».

ولم تكن الكتب الجغرافية وحدها هى التى توضح بالخرائط والصور، وإنما كانت كتب الهيئة هى الأخرى تشتمل على صور للكواكب والنجوم، وكتاب «صور الكواكب» للصوفى وهو من علماء القرن الرابع يشير إلى تلك الحقيقة حتى فى عنوانه.

والقول يقال فى كتب الهندسة والبيطرة وعلوم النبات، إذ لم تكن حاجة تلك الكتب إلى الصور بأقل من حاجة كتب البلدان والفلك. ويبدو أن الكتب العربية المصورة كانت قد كثرت ووجد لها معجبون يحرصون على إقتنائها قبل أن يبلغ القرن الرابع الهجرى نهايته. فالمقريزى يحدثنا أن الوزير اليازورى (فى النصف الأول من القرن الخامس) «كان أحب ما إليه كتاب مصور أو النظر إلى صورة أو تزويق». وأكثر من هذا فلقد ظهرت فى المجتمع العربى طبقة جديدة هى طبقة المصورين أو المزوقين، تمارس عملها فى الكتب وفى غيرها، وبلغت تلك الفئة من الكثرة ومن اهتمام الناس بها أنها صنفت الكتب فى طبقات أصحابها، فالمقريزى يذكر لنا فيما ينقله عن القضاعى (المتوفى فى القرن الخامس) كتاباً بعنوان «ضوء النبراس وأنس الجلاس فى أخبار المتذوقين من الناس».

وهذا الكتاب الذى لم يبق لنا منه إلا عنوانه يؤكد ما نذهب إليه من ان الصور قد عرفت طريقها إلى الكتب العربية قبل نهاية القرن الرابع الهجرى، وإن لم يبق لنا الزمن منها شيئاً نستطيع أن نخضعه للدراسة والبحث.

زخرفة المخطوطات وتحليتها وتذهيبها

أما تحلية المخطوط وزخرفته فقد كانت تقصد لذاتها وكانت هذه الزخارف فى بداية الأمر مجرد خطوط بسيطة لم تلبث أن تطورت إلى رسوم هندسية لها أصول وقواعد، وإتخذت أحياناً أشكالاً نباتية فيما عرف بالأرابيسك. والحقيقة أن المصاحف كانت مجالاً خصباً لهذه الزخارف، لأن الرسامين تحرجوا من رسم أشكال آدمية وحيوانية فيها فتوسعوا فى إستخدام الذهب والألوان كالأحمر والأزرق والأخضر.

ويقودنا ذلك للحديث عن التذهيب، فهو أول ما وجد بالمصاحف، وفى مواضع الزخرفة منها على وجه الخصوص، ولم يلبث العرب أن نقلوه إلى الكتب الأخرى، وأغرقوا فى إستخدامه، فكتبوا المصاحف بماء الذهب ولم يقتصر عمل المذهبين العرب على تذهيب الجلود أيضاً. وكان فن التذهيب هو أول الفنون التى تعلمها الإيطاليون من أساتذتهم المسلمين حسب رأى سفندال. ولقد كان التذهيب هو المرحلة الثالثة فى صناعة المخطوط بعد مرحلتى الكتابة والتزيين بالصور والرسوم. وكانت وظيفة المذهب مكملة لوظيفة الخطاط والرسام.

تجليد المخطوطات

أما فيما يتعلق بتجليد المخطوط فقد كان المصحف الشريف هو أول كتاب يجلد حتى منتصف القرن الثانى الهجرى، لأنه كان أول كتاب عربى يصنع على شكل دفتر، ومنذ أخذ شكل الكتاب شكل الدفتر - بعد أن ظل فترة طويلة على شكل لفافة - أخذ ميدان التجليد يتسع ويجذب الناس إليه.

وجدير بالذكر أن العرب أخذوا هذا الفن فى صورته البسيطة عن الأحباش، ثم وجدوا عند أقباط مصر رقياً وإزدهاراً فى هذا المضمار فلم يجدوا بأساً فى أن يقتبسوا فنهم وينسجوا على منوالهم بعد أن دخلت مصر تحت راية الإسلام وأقبل أهلها يدخلون فى دين الله أفواجاً.

ولقد تجلت مظاهر التأثر بالتجليد المصرى فى إستعمال أوراق البردى المقوى فى تغليف المصاحف والكتب، وخصوصاً ما كان منها صغير الحجم، بينما ظل الخشب هو المادة التى لا غنى عنها فى تجليد المصاحف الكبيرة. وكانت ألواح الخشب هذه تحلى بألوان مختلفة من الزخارف وربما طعمت بالعظم والعاج.

وفى فهرست ابن النديم نجد ذكراً لسبعة من المجلدين على رأسهم ابن الحريش الذى «كان يجلد فى خزانة الحكمة للمأمون». ومعنى هذا أن التجليد كان قد أصبح فى زمن المأمون فناً مستقلاً عن غيره من فنون الكتاب، وكان يحترفه رجال أولو خبرة ودراية.

ومع أن صناعة الجلود كانت مزدهرة فى مناطق مختلفة من الأرض العربية وعلى رأسها اليمن وعدن ومصر والطائف، فإن الجلد لم يدخل فى صناعة التجليد العربية إلا منذ أواخر القرن الثانى على وجه التقريب، فاستعملت شرائط منه فى لصق الكعبين أول الأمر، ثم توسع فى استعماله وبدأ التفنن فى زخرفته بحيث يكتسب قيمة فنية بحدٍّ ذاته، وبصرف النظر عن مضمون الكتاب. ويكفى أن نشير هنا إلى ما يذكره الخطيب البغدادى من أن كتب الحلاج التى جمعت فى أوائل القرن الرابع الهجرى كانت «مبطنة بالديباج والحرير، مجلدة بالأديم الجيد».

ولما جاء القرن الرابع الهجرى إستحدث المجلدون نظام اللسان فى الجلدة، وكانت وظيفته تغطية أطراف الأوراق، وتحديد الموضع الذى يقف عنده القارئ أثناء قراءة الكتاب.

وكان المجلدون العرب يبطنون الكتب من الداخل بالبردى والرق أو الورق، وربما بالغوا فى ذلك فبطنوها بالقماش أو الحرير.

ولم يكتف المجلدون العرب بزخرفة الجلود الخارجية فقط، بل تعدوا ذلك

إلى ظهر الجلد الداخلى، فغطوه بزخارف لا تقل عن الزخارف الخارجية روعة وجمالاً.

* * *

الطبيعة تنخر فى الكتاب الإسلامى

تعرض المخطوط الإسلامى لعوادى الزمن الطبيعية التى دمرت جانبا منه إضافة إلى عوامل أخرى نتعرض لها فيما بعد، على الصفحات التالية:ـ

عوامل تلف المخطوطات العربية عبر العصور

قد يبدو الحديث عن الترميم فى مثل تلك الفترة المبكرة من تاريخ الكتاب العربى أمراً غريباً للوهلة الأولى، ومع ذلك فمن الطبيعى جداً أن توجد صناعة ترميم الكتب فى حين لم تكن الطباعة قد عرفت بعد، ولم يكن إستبدال نسخة أخرى جديدة من الكتاب بنسخة بالية أمراً هيناً كما هو الحال فى عصر الطباعة.

وعلى الرغم من أنه لم يبق لنا من آثار القرون الأربعة الأولى للهجرة دليل مادى على وجود تلك الصناعة، فإن المقريزى نص على أنه كان فى ميزانية دار الحكمة التى أنشأها الحاكم بأمر الله فى القاهرة سنة ٣٩٥هـ بنداً «لمرمة ما عسى أن يتقطع من الكتب وما عساه أن يسقط من ورقها». ومعنى ذلك أنه قبل نهاية القرن الرابع كان الكتاب العربى قد بدأ يتعرض للتلف سواء من كثرة الإستعمال أو من عدم معرفتهم بأساليب حفظ الكتب وصيانتها، وكان العرب من جانبهم قد فكروا جدياً فى الأساليب التى يمكن أن يصلحوا بها بعض ما أفسده الدهر، وأن يعالجوا ما تحدثه الحشرات وتقليب الأيدى فى الكتب من تمزق وتآكل. وهذا فى حد ذاته مؤشر على وعى مكتبى ممتاز، ودليل على ما كان يحتله الكتاب فى حياتهم من مكانة، وما كان يحظى به من إهتمام كبير. على أننا نرجح أن عمليات الترميم لم تكن تخصصاً قائماً بذاته لكنها كانت عملية بسيطة يقوم بها المجلدون من تلقاء أنفسهم باستعمال الصمغ أو النشاء فى لصق ما يتمزق من الأوراق؛ وربما قام بها أمناء المكتبات أنفسهم.

وهناك العديد من العوامل والأسباب التى تؤثر تأثيراً شديداً فى أوراق المخطوطات التى وصلتنا عبر السنين، وأهم هذه العوامل (١) الضوء، (٢) الجفاف أو كثرة الرطوبة، (٣) التغيرات الفجائية فى درجات الحرارة أو درجات الرطوبة، (٤) زيادة نسبة الغازات الضارة فى هواء المكتبة مثل ثانى أوكسيد الكبريت والأوزون، (٥) الأتربة، (٦) الطفيليات كالفطر والحشرات. وسوف نتناول بشىء من التفصيل كل عامل من هذه العوامل:

(١) من المعروف أن الأوراق المصنوعة من لب الخشب والألياف السليولوزية والأوراق التى تزيد فيها نسبة الأحماض هذه تتأثر أكثر من غيرها إذا تعرضت للضوء، ولذلك ينبغى حفظ المخطوطات قدر الامكان، بعيدا عن ضوء الشمس أو الضوء الصناعى، خصوصا ما كان منها مصدرا للأشعة فوق البنفسجية بكميات كبيرة، ومن هنا يكون الحفظ المثالى لها فى مكان مغلق بأقل قدر من النوافذ، ويضاء عند الضرورة بالضوء الصناعى بالقدر الذى يسمح بالرؤية ولمدة محدودة.

(٢) ومن المعروف أيضاً أن المخطوطات إذا تعرضت لدرجات عالية من الحرارة ولو لمدة قصيرة، فإن أوراقها تصفر ويسرع إليها التقصف وتصبح هشة، ولذلك لابد من الإحتفاظ بدرجة حرارة معتدلة داخل مكتبة (أو خزانة) المخطوطات. ودرجة الحرارة المناسبة لذلك هى ما تراوحت بين ٢٠ - ٢٤ درجة مئوية. ويجب البعد تماماً عن إستعمال أجهزة التدفئة فى مكتبات المخطوطات أو مخازنها.

كذلك ينبغى الإحتفاظ بدرجة رطوبة معقولة داخل مخازن المخطوطات، فلا يجب أن تنخفض عن ٣٠ درجة لكى لا يساعد ذلك على جفاف الأوراق ومن ثم تقصفها، وإذا زادت عن ٧٥ درجة، ولو لمدة قصيرة، فإن ذلك يساعد على نمو الفطر عل أوراق المخطوطات وتغيّر لونها وتكون بقع سوداء أو بنية عليها.

ولذلك ينبغى حفظ نسبة الرطوبة فى المخازن بين درجتى ٣٠ و٧٠ حتى تساعد على حفظ المخطوطات.

(٣) وقد وجد ان التغير المفاجئ الواسع المدى فى درجات الحرارة أو البرودة يؤدى إلى الإضرار بألياف الورق، ذلك أنها تتقلص وتتمدد مع تغيرات الحرارة، وهذه الحركة الداخلية قد تسببت فى تكسر هذه الألياف وإتلاف الورق. ومن ثم لا ينبغى ان يكون رفع درجة الحرارة أو خفضها فى التكييف إلا بمقدار درجتين.

(٤) لوحظ ان غازاً مثل الأوزون أو ثانى أوكسيد الكبريت الذى ينتج عن إحتراق الفحم والزيوت والبترول ويصل إلى معدلات عالية فى المدن مواطن تجمع المخطوطات، فى فصل الشتاء خصوصاً يمتص بسهولة فى ألياف الورق حتى ولو لم تصل نسبته إلى نصف فى المليون من الهواء. وهذا الغاز يتحد مع الأكسجين وبخار الماء الموجودين فى الهواء ومع مركبات الحديد فى الورق، فيتكون من ذلك حامض الكبريتيك، وهذا الحامض يتفاعل مع ألياف السيليولوز ويتلف الأوراق فى المخطوطات، وبازدياد نسبة هذا الحامض فى الورق تزداد سرعة تحلله. ومعالجة ذلك تتم باستخدام جهاز تكييف يمر فيه الهواء عن طريق أنابيب بها ماء بارد مشبع بمحلول قلوى لمنع الصدأ عن الأسطح المعدنية التى يمر عليها الهواء بعد ذلك، إذ أن هذا المزيج القلوى ينقى الهواء الداخل إلى مخازن المخطوطات من ثانى أكسيد الكبريت.

(٥) كذلك تعتبر الأتربة من أعداء المخطوطات، وفضلاً عن أضرارها المباشرة فإنها تساعد كثيراً على تواجد الحشرات وإختفائها، ولذلك كان لابد من تنقية جو مخازن المخطوطات من الأتربة باستمرار عن طريق إستخدام الشفاطات والأجهزة الحديثة التى تستخدم لهذا الغرض.

(٦) والحشرات من أعدى أعداء المخطوطات، ذلك ان بعض الحشرات وأنواعاً من الفطر تعيش وتنمو على المواد الداخلة فى تجليد المخطوطات كالنشاء

والمواد الصمغية المختلفة بل والجلود نفسها. وهذه الحشرات تثقب أوراق المخطوطات وتحفر فيها خطوطاً غير منتظمة فتحدث تلفاً شديداً بها.

ولابد إذن من تبخير المخازن على فترات منتظمة، ورش الرفوف بمواد قاتلة للحشرات كالصوديوم وخليط من حامض البوريك والنشاء، لكى نجنب المخطوطات أضرارها. ويضاف إلى هذه العوامل الطبيعية عوامل أخرى مثل الحريق الذى ينبغى تجنب أسبابه بشتى الطرق، لأن الكتاب المخطوط لا يمكن تعويضه ولا يقدر بثمن، كذلك يجب على أمين المخطوطات أن يراعى عزل المخطوطات المصابة أولاً بأول لترميمها، وذلك بالفرز الدورى للمجموعات، كما يراقب الاستخدام السليم لها من جانب القراء ويحذرهم من وضع خطوط أو تعليقات تحت سطور أو كلمات فى المخطوط أثناء قراءته.

ويتصل بصيانة المخطوطات أيضاً طريقة حفظها فى المكتبة، فالمخطوطات يجب أن توضع على رفوف معدنية، ذلك أنها أسهل تنظيفاً وأدعى لعدم نمو الحشرات، كما هو الحال فى الرفوف الخشبية التى تساعد على نمو الحشرات ولا يمكن تنظيفها بدقة ويسر. ومن المستحسن ان توضع المخطوطات الضخمة على الرفوف فى وضع أفقى وليس فى وضع رأسى حتى لا تلتوى جلدة المخطوط وأوراقه.

ومن الطبيعى أن يكون بمكتبة المخطوطات قسم خاص لترميمها، لأن من الخطأ الجسيم أن يسمح بترميم المخطوطات خارج المكتبة وقسم الترميم هذا يجب أن يجاور مخازن المخطوطات، وهو يحتاج إلى الكثير من الأدوات والخامات ومنها المواد اللاصقة والسوائل الضرورية لتنظيف الأوراق والجلود كالكحول والبنزين.

وعند جفاف المخطوط يفضل إستعمال النشاء مع نسبة صغيرة من (الجلسرين)، تحفظ له ليونته ومرونته.

❁ ❁ ❁

الكراس الثامن

الملامح الفكرية في الكتاب الإسلامي

رأينا فيما سبق أن أول عمل فكرى يمكن أن يطلق عليه مصطلح كتاب عربى قبل الإسلام كان هو «المعلقات» أيًا كان عددها وأيًا كان سبب تسميتها. أما بعد الإسلام فإن أول كتاب عربى إسلامى فهو بلا أدنى شك كتاب الله القرآن الكريم؛ حيث كتب كما رأينا فى عهد رسول الله وجمع جمعًا أول فى عهد أبى بكر بناء على اقتراح من عمر بن الخطاب. وقد رأينا كيف قام زيد بن ثابت بهذه المهمة الجليلة وسلم النسخة الكاملة الصحيحة إلى أبى بكر الذى احتفظ بها طوال خلافته ثم عهد بها قبل موته إلى عمر المرشح للخلافة، وقد ذكرت المصادر أن عمر بن الخطاب قام بتسليم المصحف إلى إبنته حفصة أم المؤمنين فى آخر لحظة من حياته لأن الخليفة الثالث لم يكن قد بويع فى ذلك الوقت. وقد رأينا أيضًا كيف تم الجمع الثانى للقرآن الكريم على يد عثمان بن عفان ويمكننا القول مطمئنين أن عثمان هو الذى قام «بنشر» القرآن الكريم حيث عدَّد النسخ وضبطها ووزعها على الأمصار.

والحقيقة أن قضية تدوين الحديث النبوى وكونه الكتاب العربى الإسلامى الثانى هى قضية شائكة أثارت جدلاً كثيرًا بين مؤيد ومعارض لأن الأحاديث النبوية التى تقطع بعدم تدوين الحديث أيام الرسول أكثر من تلك التى تكشف عن كتابة الحديث. ولقد تناول الدكتور إمتياز أحمد عميد كلية المعارف الإسلامية بجامعة كراتشى هذه القضية بما لها وما عليها بتفاصيل دقيقة فى رسالته للدكتوراه والتى قدمها إلى جامعة أدنبره سنة ١٩٧٤؛ وقد نقلها إلى العربية الدكتور عبد المعطى أمين قلعجى تحت عنوان «دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث» ونشرت فى مصر سنة ١٩٩٠.

ومن الثابت أن رسول الله نهى عن كتابة أى شئ بخلاف القرآن الكريم حين قال ﷺ «لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن، ومن كتب عنى شيئا سوى القرآن فليمحه» هذا الحديث الصريح رواه أبو سعيد الخدرى (ت ٧٤هـ) عن رسول الله. وهو نفسه يقول فى مناسبة أخرى «إستأذنت النبى ﷺ أن يأذن لى بكتابة الحديث فأبى أن يأذن لى». كذلك ذكر أبو هريرة (ت ٥٩هـ) شيئاً قريبًا من هذا، ونحى زيد بن ثابت (ت ٤٥هـ) نفس النحو حيث ذكر أن الرسول ﷺ لم يسمح بتدوين أقواله. ويذكر فى هذا الصدد أن عمر بن الخطاب حرق بعض الصحف التى إشتملت على أحاديث نبوية.

ولكن على الجانب الآخر هناك من يرى أن الرسول الكريم ﷺ سمح بتدوين الأحاديث حيث يذكر أنه قال «إحفظوا الحديث كتابة»؛ «قيدوا العلم بالكتاب»؛ «إستعن على الحفظ بيمينك».

ولم نصل فى الحقيقة إلى إجابة قاطعة للأسئلة: هل كتب الحديث على عهد رسول الله أم لا؟ وهل حظر كتابة الحديث سابق على إجازته أم أن الأجازة كانت أولاً ثم إتضح خطر تدوين الحديث على القرآن فصدر أمر الحظر ومحو ما كتب؟

مهما يكن من أمر فإن التدوين الكامل للحديث النبوى لم يتم إلا فى القرن الثانى الهجرى. وإن كانت هناك أحاديث دونت سواء فى عهد رسول الله أو بعده، فإنها لم تكن تسجيلا كاملاً أو منهجياً.

وإذا توجهنا ناحية الموضوعات الأخرى فى الكتاب الإسلامى فسوف نجد أن البيانات التى وصلتنا عن القرن الأول الهجرى غامضة وتقريبية ويغلب عليها الظن أكثر من اليقين. فهناك من يقول بأن التأليف المكتوب بدأ منذ عهد صحابة رسول الله أى فى الفترة الراشدية إلا أن حاجى خليفة - وهو من هو فى علم الببليوجرافيا - يذكر فى كشف الظنون أن الباحثين إختلفوا فى أول من صنف فى الإسلام فقيل أن الإمام عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصرى المتوفى سنة ١٥٥هـ هو أول من صنف فى الحجاز؛ وقيل أن أبا نصر سعيد بن

أبى عروبة المتوفى سنة ١٥٦هـ هو أول من صنف بالعراق وقيل أن أول من صنف فى الإسلام ربيع بن صبيح سنة ١٦٠هـ.

ويذكر أن زيد بن ثابت ألف كتابا فى علم الفرائض. ويقال أن عبد الله بن عباس ألف فى موضوعات مختلفة من بينها كتاب فى قضاء أمير المؤمنين على بن أبى طالب.

وكان من الطبيعى فى القرن الأول الهجرى وبعد وفاة الرسول والتفكير فى جمع الأحاديث النبوية أن يلتفت المؤلفون إلى الكتابة حول سيرة النبى وغزواته. ويقال أن عروة بن الزبير (ت ٧١٢م) هو أول من ألف كتابا فى سيرة رسول الله ومغازيه وذلك من واقع الأحاديث النبوية، وعروة من العلماء الثقاة فى المدينة المنورة ويقال أنه أحرق كتبه كلها فى ساعة من ساعات إحساسه بالذنب لجمعه كتبا أخرى غير القرآن الكريم وكان ذلك سنة ٦٣هـ يوم الحَرَّة. وقد إعتمد ابن إسحق على ما كتبه عروة وغيره فى تدوين سيرة الرسول والتى رواها عنه إبن هشام فى أوائل العصر العباسى.

إن إهتمام المسلمين فى القرن الأول الهجرى بتفسير القرآن الكريم جعلهم يهتمون إهتماما بالغًا بعلم اللغة ومن المعروف أن أول من وضع علم النحو هوعلى بن أبى طالب وتوسع فيه أبو الأسود الدؤلى. كذلك كان لابد من جمع المفردات التى تدور حول معنى معين ولذلك بدأت القواميس المتخصصة أولاً فى القرن الأول الهجرى لهذا الغرض ومن هنا فإن علم اللغة عند المسلمين الأوائل نشأ مرتبطا بعلم تفسير القرآن الكريم.

كذلك كان لرغبة المسلمين فى نهاية القرن الأول الهجرى جمع أحاديث الرسول جمعاً علمياً منهجياً، الفضل فى ظهور علوم أخرى مرتبطة بعلم الحديث فى بادئ الأمر ولم تلبث بعد ذلك أن إستقلت وأصبحت علوما بذاتها مثل علم التراجم «الجرح والتعديل» وعلم الببليوجرافيا (فهارس الشيوخ).

لقد ظهر إلى جانب أسماء عروة بن الزبير وابن إسحق وابن هشام فى مجال السيرة النبوية أسماء أخرى مثل تلميذ عروة بن الزبير، محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤هـ. وقد ذكر عنه ابن خلكان أنه كان محبا للكتب جمّاعة لها وكان إذا جلس جعلها حوله وتلهى بها عما عداها حتى قالت له إمرأته ذات يوم «والله لهذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر».

ويظهر إسم سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب الذى طلب منه الخليفة الأموى الأشهر عمر بن العزيز أن يكتب سيرة عمر بن الخطاب جده.

ومن الثابت أيضا أن موضوع «التاريخ والأنساب» كان من الموضوعات التى حظيت بالتأليف والتصنيف عند المسلمين فى القرن الأول الهجرى وبداية القرن الثانى وكان يطلق على التاريخ فى ذلك الوقت مصطلح «القصص» و«الأخبار» والذين يروونها يسمون بالإخباريين.

ويقال أن التأليف فى التاريخ والأنساب والأخبار نشأ على يد معاوية بن أبى سفيان، وقد سبق أن أشرت إلى أنه قال «أردت أن يكون عندنا من يحدثنا عما مضى من الزمن، هل يشبه ما نحن فيه» فأحضروا له آمد بن آبد الحضرمى وعبيد بن شريّة الجرهمى وكان هذا الأخير ملمًّا بتواريخ اليمن والعرب والعجم وكان يروى تلك التواريخ مشفوعة بقصائد الشعر، حيث الشعر كما قال معاوية نفسه هو ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها والحاكم بينهم فى الجاهلية.

وقد حرص العرب حرصًا شديداً على «الأنساب» حيث كان كثير من الأسر الشريفة تحفظ أشجار العائلات فالعصر كان عصر عصبية وتنابذ وتفاخر. ومن هنا كان تسجيل الأنساب جزءاً من التواريخ.

وليس ثمة شك فى أن الشعر كان من المجالات التى أُلّف فيها حيث جمع الشعر الجاهلى ودوّن ونشرت فيه الكتب. وكان الرواة يجتمعون بالمربد قرب البصرة يروون الأشعار الجاهلية والإسلامية وكان الشعراء المطبوعون يلقون

قصائدهم مديحا وفخراً وهجاء ووصفاً. ومن أشهر هؤلاء الشعراء كما نعرف الثلاثة المتنافسون: جرير والفرزدق والأخطل. وقد سجلت أشعارهم وحفظت.

ولقد أشرنا من قبل إلى أن خالد بن يزيد بن معاوية بعد أن خاب أمله فى الخلافة إتجه إلى الترجمة والتأليف وخاصة فى علم الصنعة (الكيمياء) الذى تعلمه على يد راهب. ويذكر أنه قد ألف ثلاثة كتب فى هذا الموضوع تناول فى أولها ذكر أستاذه الراهب وتعاليمه؛ وقد أشرنا إلى ذلك تفصيلا عند حديثنا عن الترجمة.

وما نريد أن نؤكد عليه أنه طوال القرن الأول الهجرى لم يكن التأليف ظاهرة ولكنه كان محاولات فى التأليف مشتتة ومبعثرة؛ وأنه ظل كذلك طوال العصر الأموى. ولم تكن هناك كتب بالمعنى المفهوم تحيط بالموضوع وتعالجه معالجة مستفيضة بل كانت أقرب إلى المذكرات وكانت عبارة عن رسائل صغيرة لا تزيد الواحدة منها فى الأعم الأغلب عن خمسين ورقة.

لقد جاد علينا العصر الأموى بثلاثة مؤلفين كبار ألفوا كتبهم فى العصر الأموى ولكنها لم تنتشر وتدون إلا فى العصر العباسى. هؤلاء هم: الإمام **مالك بن أنس** الذى أسس المذهب المالكى وألف كتابه العظيم (الموطأ)؛ **عبد الحميد الكاتب** الذى كان كاتبا لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وقتل سنة ١٣٢هـ على يد العباسيين الذين أسقطوا الدولة الأموية فى تلك السنة. وقد كانت له رسائل فى البلاغة قيل بلغت ألف ورقة؛ **عبد الله بن المقفع** الذى نقل إلى العربية كتاب كليلة ودمنة وزاد فيه فصلاً من عنده مما جعل الخليفة العباسى المنصور ينقم عليه.

ومهما يكن من أمر فإن العصر الراشدى والعصر الأموى وضعت فيهما بذور الفكر الإسلامى التى أينعت وازدهرت فيما بعد؛ حيث دوّن القرآن الكريم ونشر ووزع على أرجاء الدولة الإسلامية. فيهما جمع الحديث الشريف وأمر بتدوينه على يد عمر بن عبد العزيز؛ ألف فى تفسير القرآن وبدأ فيهما علم اللغة، وبدأت الدراسات الإسلامية المتصلة بالقرآن والحديث. فيهما جمعت

التواريخ ولا سيما المتصلة بالسيرة النبوية والمغازى وأخبار العرب. وفيهما جمع الشعر العربى. وفى العصر الأموى وجد أول مركز للنقل والتعريب من اليونانية والفارسية والقبطية على النحو الذى فعله خالد بن يزيد بن معاوية.

وخلاصة القول أن العصر الراشدى والأموى كانا فترة الحضانة التى خرج منها الفكر الإسلامى والكتاب الإسلامى؛ الذى نما وخصب أيما نماء وأيما خصوبة فيما تلا من عصور.

والعصر العباسى (١٣٢هـ - ٦٥٦م) سواء فى ظل الوحدة والتماسك السياسى أو فى ظل التفكك السياسى كان عصر إزدهار فكرى ونشاط نشرى فى جميع فروع المعرفة البشرية التى وجدت فى تلك الحقبة. وإن كان ابن النديم قد وزع ببليوجرافيته على عشر أقسام كبيرة ضمت فى ثناياها ثلاثة وثلاثين فرعاً وزع عليها ابن النديم الكتب التى حصرها، فإن من المؤكد أن هذه الفروع يندرج تحتها جزئيات كثيرة من الموضوعات التى عالجها الكتاب الإسلامى. ومن خلال تحليلنا لفهرست ابن النديم يمكن أن نستخلص إتجاهات لا حد لها فى الفكر الإسلامى وملامح فارقة فيه؛ سواء من حيث الملامح العددية أو الملامح النوعية.

لقد حصر ابن النديم فى الفهرست نحو ثمانية آلاف وخمسمائة كتاب مؤلف ومترجم إلى اللغة العربية ونشرت خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة توفر على تأليفها نحو ألفى مؤلف.

ويدخل فى عداد هذه الكتب الكتاب ذو المائة جزء أو مجلد والرسالة ذات العشرة ورقات والمقالة ذات الخمس ورقات أو أقل. كما يدخل فى عداد المؤلفين من قال قصيدة شعر واحدة أو من ألَّف ٥٠٠ كتاب من بينها عنوان واحد فى عشرين ألف ورقة وهو أقصى توريق وصل إليه كتاب فى الفهرست. وكان من بين المؤلفين فى تلك الفترة إثنتان وعشرون مؤلفة أنثى. وقد سبق أن أشرنا إلى مجال النقل والترجمة عند المسلمين وقلنا أن نسبة الترجمة إلى التأليف لم

تكن لتتجاوز ٨٪ وأن عدد المترجمين لم يكن ليزيد عن ٦٦ مترجماً بحيث لا تتجاوز نسبتهم ٣٪ إلى عدد المؤلفين.

وهناك مؤلفون مكثرون بعضهم يربو إنتاجه فى ذلك الحصر على مائتى كتاب من بينهم الكندى (أبو يوسف يعقوب بن إسحاق) الذى ألف نحو ٢٣٨ كتاباً، وجابر بن حيان الذى حصر له إبن النديم ٢٣٣ كتابًا والمدائنى (أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله) الذى سجل له الفهرست ٢٤٠ كتابًا.

أما عن ترتيب المجالات التى ألف فيها المسلمون فى تلك الفترة الخصبة من حياة الفكر الإسلامى فإنه من الطبيعى أن تظفر علوم الدين الإسلامى بالنصيب الأكبر، وداخل علوم الدين الإسلامى يأتى علم التوحيد على رأس القائمة يليه مباحث الفقه بشطريه العبادات والمعاملات ثم مباحث القرآن. أما التأليف فى الجغرافيا والتاريخ والتراجم فإنه يأتى فى المرتبة الثانية؛ ويقترب التأليف فى العلوم البحتة والتطبيقية من نفس هذه المرتبة. أما فى المرتبة الرابعة فتأتى علوم اللغة والنحو. ويحتل الشعر العربى المرتبة الخامسة. وتحتل الفنون والترفيه المرتبة السادسة. والديانات الوضعية تأتى فى المرتبة السابعة وفى المرتبة الثامنة يأتى التأليف فى الدين اليهودى. وأقل الإنتاج فى الدين المسيحى:

والمتأمل فى إتجاهات التأليف فى الفترة التى ندرسها يدرك تماماً أن الإتجاه السائد كان نحو التخصص وإن لم تعدم الفترة الإتجاه الموسوعى فى التأليف. كان التركيز فى تلك الفترة على موضوعات ضيقة جدا تعالج معالجة رأسية حتى التأليف القصصى نحا هذا النحوالتخصصى فهناك قصص العشق وهناك قصص الحب وهناك قصص عشاق الجن من الإنس وعشاق الإنس من الجن وهناك قصص البحر وقصص المغامرات. وهناك قصص عن الفارسية وعن الهندية وعن اللاتينية.

إن التخصص العميق فى التأليف تكشف عنه مجرد عينة عشوائية من كتاب الفهرست: -

- كتاب العارية لمحمد بن الحسن.

- كتاب فى المكعبات للأنطاكى.

- كتاب آلة الزمر البوقى (دون مؤلف).

- كتاب إحتباس الطمث لروفس، ترجمة حنين بن إسحاق.

- كتاب من جمع بين إختين، ومن تزوج إبنة امرأته وجمع أكثر من أربع ومن تزوج مجوسية. وهو من تأليف المدائنى.

ومما يجد ذكره أن عناوين الكتب حتى القرن الرابع الهجرى على الأقل من واقع الفهرست كانت رؤوس موضوعات أكثر منها أسماء شخصية للكتب ولذلك نجد مئات من الكتب أحيانا تشترك فى ذات العنوان وكان التمييز بينها يتم عن طريق المؤلف وحده ومن أمثلة ذلك: -

- كتاب غريب الحديث.

- كتاب غريب القرآن.

- كتاب النوادر.

- كتاب المصادر.

والعناوين المسجوعة التى تحاول ألا تتكرر كانت قليلة نادرة فى العصر العباسى ويبدو أنها وليدة عصر النكسة الإسلامية وإنحطاط التأليف فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى وما بعده. وربما كان عنوان الكتاب يطول ويطول كى يكشف عن المحتوى الدقيق للكتاب مثل:

- «كتاب خالد بن عبد الله العشرى ويوسف بن عمر وموت هشام وولاية الوليد بن يزيد». وهو من تأليف أبى مخنف.

- رسالة كذبتما ومعناه أنه روى فى أدب النفوس خبر فاطمة وعلى رضى الله عنهما وقد شكوا إلى النبى (ﷺ) الخدمة فقال كذبتما. وهذه الرسالة من تأليف الدولابى. وكان من النادر أن يكون للكتاب عنوان فرعى يفسر العنوان

الرئيسى أو يحدده وربما يكون العنوان الفرعى من وضع الببليوجرافى ومن أمثلة ذلك:

- كتاب أبواب الخلفاء: ومعناه من كان الخلفاء يأنسون به ويستسرونه ويستعقلونه ويستعضدونه. من تأليف ابن أبى طيفور.

- كتاب العبارة: عن أسماء الله تعالى للمبرد.

- كتاب ترياق الفكر: فيما عاب به أبا تمام. لقدامة بن جعفر.

وعرفت الكتب فى تلك الفترة العنوان الرسمى الذى يضعه المؤلف والعنوان الشعبى الذى يشتهر به بين الناس لسبب أو لآخر وخاصة لطوله؛ مثل:

- كتاب الديباج عرف باسم التاج لأبى عبيدة معمر بن المثنى.

- كتاب إنتصاف العجم من العرب ويعرف بالتسوية لسعيد بن حمير.

- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان لبدر الدين العينى وقد عرف بين الناس باسم التاريخ البدرى أو التاريخ العينى.

- ديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبرير ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر الذى إشتهر بتاريخ ابن خلدون.

ويلاحظ على مؤلفات تلك الفترة أنها كانت فى الأعم الأغلب تأليفاً خالصاً إذ تقل فيها الشروح والإختصارات والإختيارات والتجريدات والحواشى. وعندما تظهر كلمة مختصر فى عناوين بعض الكتب فهى لا تعنى غالبا إختصار كتاب للكتاب ولكنها تعنى فى العادة أن المؤلف نفسه وضع الكتاب مختصراً أو عالج الموضوع فيه باقتضاب غير متوسع أو متبحر ليسهل تناوله مثال ذلك: كتاب مختصر الصلاة؛ كتاب مختصر الحج؛ كتاب مختصر فى النحو أو أن المؤلف قد وضع صيغتين أو ثلاثا للكتاب مختصر، متوسط، كبير.

ومن المعروف أن ظاهرة الاجترار فى الفكر العربى بمعنى الدوران حول كتب موجودة بالفعل وتلحيقها وتذييلها وشرحها وإختصارها وتحشيتها وتجريدها... لم تظهر كظاهرة إلا فى عصر الإنحطاط الفكرى فى القرن السابع الهجرى وما بعده.

لقد ران على التأليف الإسلامى فى العصور الوسطى الإسلامية التأليف الفردى والترجمة الفردية والأمثلة على التأليف الجماعى أو الترجمة المشتركة قليلة جدا ونادرة ومن أمثلتها التى تعبت حتى حصلت عليها.

- كتاب اللغات فى القرآن لجماعة من العلماء.
- كتاب المصارعة لأحمد وإبراهيم بنى المدبر.
- رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا.
- كتاب السبعين مقالة لمؤلفها أورياسيوس نقلها حنين بن إسحق وعيسى بن يحيى.

ولقد تردد فى الإنتاج الفكرى الإسلامى ثلاثة أشكال مادية: كتاب - رسالة - مقالة. وهناك فروق واضحة بينها تكشف عن كمية المادة العلمية فى كل منها: ومن الأمثلة التى وردت فى فهرست ابن النديم تحت جابر بن حيان:

«ويتلو ذلك عشر كتب مضافاً إلى السبعين»، «ويعد ذلك عشرة مقالات تتلو هذه الكتب»، قال جابر فى فهرسته: ألفت بعد هذه الكتب ثلاثين رسالة».

لقد كان من الممكن للكتاب الواحد أن يصدر فى عدة نسخات (إصدارات؛ طبعات بمفهومنا الحالى)، بحيث تكون هناك تغييرات فى المادة العلمية بين نسخة وأخرى سواء بالحذف أو الإضافة أو التنقيح أو التهذيب. وكانت البيليوجرافيات القديمة تؤكد على هذا المعنى فتشير إلى أن الكتاب صدرت منه كذا نَسْخَة (بفتح النون وتسكين السين وفتح الخاء) وعندما لا تصدر منه سوى نسخة واحد يلزم التنويه أيضًا مثل: - كتاب الأرض لجابر بن حيان. نسخة أولى وثانية وثالثة ورابعة وخامسة وسادسة وسابعة.

- كتاب المواليد لأبى سهل الفضل بن نوبخت. مفرد
- كتاب معانى القرآن للمفضل بن سلمة. مفرد
- أدب الكتاب لابن دريد. لم يجرده عن المسودة.

ويصور الجدول الآتى الذى إستخلصته من الفهرست لابن النديم، بعد إحصاء دقيق مستفيض للمفردات التى وردت فيه، الإتجاهات العددية والنوعية للكتاب الإسلامى، فى القرون الأربعة الأولى للهجرة:

الموضوع	عدد المؤلفين	عدد الكتب
كتاب المصاحف فقط	٢١	-
كتاب المصاحف وغيرها	٣٥ من بينهم أنثى واحدة	-
مجلدو المصاحف	١٢	-

المقالة الأولى - الفن الثانى

الدين اليهودي	١	٣٧
الدين المسيحي	٨	٨

المقالة الأولى - الفن الثالث

جُمّاع القرآن	٧	-
القراء	٧	-
الرواة	٤٥	-
قراء الشواذ	٢٣	-
القراءات	٣٣	١٠١
تفسير القرآن	٤٤	٤٤
معانى القرآن	٢٤	٢٤
غريب القرآن	١٣	١٣
لغات القرآن	٦	٦
لامات القرآن	٤	٤
الوقف والإبتداء	١٢	١٢
إختلاف المصاحف	٧	٧
وقف التمام	٦	٦
إتفاق الألفاظ والمعانى فى القرآن	٢	٢
متشابه القرآن	١٠	١٠
هجاء المصحف	٤	٤
مقطوع القرآن وموصوله	٤	٤
أجزاء القرآن	٦	٦
فضائل القرآن	١٣	١٣
عدد آى القرآن	١٩	١٩

ناسخ القرآن ومنسوخه	١٨	١٨
الهاءات ورجوعها	١	١
نزول القرآن	٢	٢
أحكام القرآن	١١	١١
معانى شتى من القرآن	١٨	١٩

المقالة الثانية (اللغة والنحو)

الموضـــوع	عـــدد المؤلفين	عـــدد الكـتب
اللغة والنحو على المذهب البصرى (فن ١)	١٠٣ من بينهم ثلاث إناث	٥٣٧
اللغة والنحو على المذهب الكوفى (فن ٢)	٣٨	٢٤٦
اللغة والنحو على المذهبين (فن ٣)	٧٣	٣٤٤

المقالة الثالثة (تاريخ وجغرافيا وتراجم)

الموضـــوع	عـــدد المؤلفين	عـــدد الكـتب
تاريخ وتراجم وجغرافيا عامة (فن ١)	١١٦	٨١٠
تراجم متخصصة: السلطة (فن ٢)	١٤٠	٤٨١
تراجم متخصصة: ندماء وأدباء (فن ٣)	٦٢	٤٣٣

المقالة الرابعة (الشعر والشعراء)

الموضـــوع	عـــدد المؤلفين	عـــدد الكـتب
الشعر الجاهلى والإسلامى والأموى (فن ١)	٩٤ بينهم إمرأتان	٩٤
الشعر العباسى (فن ٢)	٤٨٥ بينهم ١٧ أنثى	٦٠٤

المقالة الخامسة (علم الكلام: علم التوحيد)

الموضـــوع	عـــدد المؤلفين	عـــدد الكـتب
المعتزلة والمرجئة (فن ١)	٣٦	٦١٨
الشيعة (فن ٢)	٢١	٨٤
السنة (فن ٣)	٢١	٤٦
الخوارج (فن ٤)	١٣	٢٢
التصوف والزهد (فن ٥)	٥٧	٤٢٧

المقالة السادسة (الفقه)

الموضـــوع	عـــدد المؤلفين	عـــدد الكتب
الفقه المالكى (فن ١)	٢٥	٣٢
الفقه الحنفى (فن ٢)	٣١	١٦٥
الفقه الشافعى (فن ٣)	٤٥	١٧٠
فقه داود (فن ٤)	١٠	١٨٧
فقه الشيعة (فن ٥)	٧١	١٦٢
فقه السنة (فن ٦)	٦٤	٢١٨
فقه الطبرى (فن ٧)	١٢	٦٤
فقه الشراة (فن ٨)	٤	٣٢

المقالة السابعة (الفلسفة والمنطق والعلوم البحتة والتطبيقية)

الموضـــوع	عـــدد المؤلفين	عـــدد الكتب
فلسفة يونانية (فن ١)	٣٦	١١٨
فلسفة إسلامية (فن ١)	١٦	٣١٣
الرياضيات والفلك (فن ٢)	٤٤	١٣١
الهندسة الميكانيكية (فن ٢)	٩٠ بينهم أنثى واحدة	٣٤٥
الطـــب (فن ٣)	٧٨	٤٢٦

المقالة الثامنة (الفنون والترفيه والتدبير)

الموضـــوع	عـــدد المؤلفين	عـــدد الكتب
قصص وأساطير (فن ١)	١٢	١٨٨
سحر وتعزيم (فن ٢)	١٤	٢٣
الشعوذة والطلسمة (فن ٢)	٦	٩
خرافات (فن ٣)	-	٦٦
التفاؤل والتشاؤم والتطير (فن ٣)	٢٢	٢٢
الفروسية والحرب والسلاح (فن ٣)	٥	١٢
الصيد بالجوارح (فن ٣)	٢	١٦
الحكم والمواعظ والأمثال (فن ٣)	٣٠	٤٤

تفسير الأحلام (فن ٣)	١٠	١٠
العطور (فن ٣)	٧	٩
الطبخ (فن ٣)	١٠	١٢
السموم والترياق (فن ٣)	٨	٩
التعاويذ والرقى (فن ٣)	٢	٨
المعادن وموضوعات أخرى (فن ٣)	٤	١٠

المقالة التاسعة (الديانات الوضعية)

الموضـــوع	عـــدد المؤلفين	عـــدد الكـتب
المانوية (فن ١)	١	٨٢

المقالة العاشرة (الكيمياء)

الموضـــوع	عـــدد المؤلفين	عـــدد الكـتب
الكيمياء	٥٤	٣٧٠

وإن كانت المجالات الرئيسية التى ألف فيها المسلمون فى القرون الأربعة الأولى للهجرة قد إنحصرت فى ثلاثة وثلاثين مجالا رئيسياً على النحو الذى حصره إبن النديم فإن تلك المجالات فى القرن الحادى عشر الهجرى قد تفرعت وتشعبت إلى عشرة أضعافها على النحو الذى نصادفه فى مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم وعلى نحو ما نجده فى كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون حيث وصلت إلى أكثر من ثلاثمائة مجال، عددّها كل من طاش كوبرى زادة وحاجى خليفة وتحدثا عنها؛ حديث إنتاج فكرى وتأليف.

لم يقدم المسلمون للبشرية دراسات إنسانية وإجتماعية فقط وإنما كما رأينا قدموا كذلك دراسات مستفيضة فى العلوم البحتة والتطبيقية: ـ

- الفلك والتنجيم.
- علوم البحار.
- الجغرافيا الرياضية وعلوم التوقيت والجغرافيا العامة.

- الأرقام والرياضيات.
- الجبر والمقابلة.
- الهندسة بعامة وهندسة المثلثات بخاصة.
- علوم الإحصاء.
- علوم الموسيقى.
- الإستاتيكا.
- البصريات.
- الفسيولوجيا.
- الهندسة الميكانيكية.
- علم النبات والزراعة.
- علم الكيمياء.
- الطب والصيدلة.
- تصنيف العلوم.

ولعل أحدث إحاطة بالعلوم البحتة والتطبيقية عند العرب هى تلك الموسوعة التى نشرت فى ثلاثة مجلدات سنة ١٩٩٦ بعنوان «موسوعة تاريخ العلم العربى» فى لندن ونيويورك، وتوفر على تحريرها رشدى راشد بالإنجليزية.

* * *

إن أرقام إبن النديم حسب إستقصاءاتى الإحصائية تكشف عن أن عدد العناوين الجديدة المنشورة كل سنة فى العالم الإسلامى كان يدور حول ثلاثين عنواناً حيث أنه حصر نحو تسعة آلاف عنوان نشرت فى ثلاثة قرون بعد إستبعاد العصر الأموى والراشدى.

ويعضد ذلك تماماً الأرقام التى يمكن الحصول عليها من دراسة كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون حيث يحصر حاجى خليفة فيه ما يقرب من عشرين ألف عنوان فى القرن الحادى عشر الهجرى؛ ومع كل الإستدراكات والملاحق عليه.

وإذا كان هذا هو حال عدد العناوين التى كانت تصدر سنوياً من الكتاب الإسلامى فى العصور الوسطى. فكم كان عدد النسخ التى تصدر من الكتاب الواحد؟ للإجابة على هذا السؤال لابد أن نفرق بين نوعين من الكتب: كتب الثقافة العامة؛ والكتب الدراسية، حيث كانت هناك كتب مقررة تدرس فى المدارس كما هو الحال فى أيامنا مثل ألفية إبن مالك على سبيل المثال أو سيرة إبن إسحاق؛ والتى تغص بها فهارس الشيوخ. وفى رأيى أن كتب الثقافة العامة لم تكن تستنسخ بكثرة وكان النسخ منها حسب الطلب وربما كانت هناك بعض الكتب لا يورق منها طول حياتها أكثر من خمسين نسخة وإن كانت هناك كتب دوارة مثل كتب الجاحظ تورق منها آلاف النسخ. وربما كان المتوسط العام لنسخ كتاب الثقافة العامة هو ٣٠٠ نسخة. أما فى الكتب الدراسية فإن عدد النسخ كان يتوقف بالضرورة على المستوى الدراسى الموجه له الكتاب وموضوع الكتاب وربما وصل بعض الكتب الدراسية إلى أكثر من عشرين ألف نسخة على مدى العصور الوسطى الإسلامية والمثال هنا من ألفية ابن مالك أيضا التى كان لها رواج كبير فى التعليم حتى وقت قريب من زماننا.

ولكن كم مجموع النسخ التى صدرت عن الكتاب الإسلامى فى العصور الوسطى؟ لقد أشار الأستاذ عبد السلام محمد هارون فى كتابه (تحقيق النصوص ونشرها) أن ما وصلنا من مخطوطات، وهى موجودة الآن فى مختلف أنحاء العالم يقدر بنحو ٢٦٢ مليون مجلد، حسب فهارس تلك المكتبات مع الأخذ فى الإعتبار أن بعض المكتبات التى بها مخطوطات عربية لا فهارس لها ومن ثم لا تدخل فى الحصر ومعنى هذا أن الرقم المذكور ينقص عن حقيقة ما وصلنا من مخطوطات. وقد نقل الدكتور على الخطيب نص الأستاذ عبد السلام هارون دون أن يعلق عليه. وأرى أن هذا الرقم مبالغ فيه جدا ولا أعرف الأساس الذى قام عليه هذا الرقم لأنه رقم تقديرى لم ين على مصادر. وإذا كان هذا هو ما وصلنا وهو يمثل عشر ما نشر من النسخ. فكم يبلغ كل ما نشر؟ أعتقد أن الرقم المذكور فيه خطأ فى التقدير أو خطأ فى النقل أو الطبع.

أرى أنه لا يمكن أن يكون قد وصلنا أكثر من خمسة ملايين مجلد مع التساهل فى التقدير ومن ثم لا يكون قد ورق من المخطوط الإسلامى أكثر من خمسين مليون نسخة فى كل العصور الوسطى مع التساهل فى التقدير أيضاً؛ باعتبار أن ما وصلنا يدور حول ١٠٪ مما نشر فعلاً، حيث تعرض الكتاب الإسلامى لكوارث لا حد لها كما سنرى تفصيلا فيما بعد.

❁ ❁ ❁

الكراس التاسع

تــداول الكتـــاب الإســلامــى

أكدت كل المصادر سواء كانت إسلامية أو غربية على أن المسلمين كان لهم ولع بالكتب جمعا و/ أو قراءة. وكان الميسورون منهم ينفقون على شرائها بسخاء شديد مما أدى إلى إنتشار المكتبات الخاصة كما سنرى فيما بعد منذ القرن الأول الهجرى. ويكفى للتدليل على ذلك العبارةِ الشهيرة التى قالتها زيجريد هونكه عن المسلمين فى العصور الوسطى من أنهم شعب يذهب إلى المدرسة. وكانت للكتب فى نفوس المسلمين مكانة لا تدانيها مكانة.

تشجيع المؤلفين والمترجمين و مكافأتهم

كان الخلفاء والأمراء والأغنياء عموماً يشجعون المؤلفين على التأليف ويكافئونهم عليها وقد رأينا من قبل كيف أن خلفاء الدولة العباسية كانوا يزنون ما يترجم بالذهب ولذلك عمد بعض المترجمين إلى كتابة الترجمة على ورق سميك.

ويقول الأستاذ الدكتور شوقى ضيف أن أول من سن المكافأة للمؤلفين على مؤلفاتهم هو الخليفة المهدى العباسى الذى أغدق على المؤلفين فشدوا إليه الرحال وقد حذا حذوه الخلفاء الآخرون ومن بينهم بطبيعة الحال إبنه الرشيد الذى أعطى الأصمعى ذات يوم مائة ألف درهم مكافأة له، كما أن جعفر البرمكى وصل نفس المؤلف بخمسمائة ألف درهم. وكان المأمون بن الرشيد هو الآخر سخيا فى عطاياه للمؤلفين والعلماء المبدعين وممن نال الحظوة عنده النصر إبن شميل الذى حصل على خمسين ألف درهم مكافأة على بعض مؤلفاته.

ولابد لنا من التنويه إلى أن المكافآت لم تكن تمنح مقابل مديح للخليفة أو السلطان بل كانت تمنح تشجيعا للإنتاج العلمى والبحث. ولم تقتصر عملية

التشجيع والمكافأة على الخلفاء بل نافسهم فى ذلك الأمراء وعلية القوم والأثرياء عموماً. وقد شجع ذلك المؤلفين على أن يؤلفوا كتبا ويوجهونها إلى بيت ملك معين أو مكتبة أمير بالذات بل إن بعضهم كان يؤلف عدة كتب فى آن واحد فى موضوعات مختلفة ويوجه كل كتاب إلى شخص بعينه يعتقد أنه يهتم بهذا الموضوع فيثيبه عليه فهذا هو أبو منصور الثعالبى يؤلف الكتب الآتية للأشخاص المسجلين قرين كل كتاب: ـ

- لطائف المعارف للصاحب بن عباد.
- المبهج والتمثيل والمحاضرة لقابوس بن وشمكير (شمس المعالى).
- سحر البلاغة وفقه اللغة لأبى الفضل المكيالى.
- النهاية فى الكتابة ونثر النظم و اللطائف و الظرائف. للمأمون.

وفى الأندلس أعطى الخليفة المنصور، صاعد البغدادى خمسة آلاف دينار مكافأة على كتاب النصوص.

ومن بين الأمثلة أيضاً المكافأة التى حصل علهيا الفيروزأبادى من الملك أشرف (المتوفى سنة ٨٠٣هـ) عن كتابه «الإصعاد إلى رتبة الإجتهاد» وقدرها ثلاثة آلاف دينار. وكان الفيروزأبادى قد إحتفل إحتفالاً عظيما بالفراغ من هذا الكتاب.

ويقال أن العلامة محمد بن عبد الله الريمى المتوفى سنة ٧٩٢هـ حصل من ملك اليمن الملك المجاهد على نحو خمسين ألف درهم عن كتابه «التفقيه شرح التنبيه» وهو الآخر قدم كتابه للملك فى مظاهرة علمية بهيجة.

جمع الكتب وشراؤها

لم تقتصر عملية جمع الكتب والإنفاق على شرائها بسخاء على الملوك والسلاطين وإنما إنسحب ذلك على عامة الناس والعلماء الأفراد أيضاً. ونظراً لأننا سنتناول فيما بعد قضية المكتبات ومن بينها المكتبات الشخصية، فسوف

نقتصر هنا على بعض الأمثلة التى تكشف عن إهتمام الأفراد البالغ بالإنفاق على شراء الكتب.

فهذا هو الحافظ عبد الله بن أحمد الخشاب الذى إشترى كتبا بخمسمائة دينار ولم يكن يملك ذلك المبلغ عند عقد الصفقة فاستمهل التجار ثلاثة أيام ثم مضى فباع منزله بالمبلغ واشترى الكتب. كذلك عندما أراد العلامة خلف بن يوسف البلنسى إقتناء كتاب التقريب للقاضى عبد الحق ولم يكن ثمن الكتاب فى متناول يده فباع حوائج بيته واشتراه. وهذا هو أبو العلاء الحسن بن أحمد الهمذانى المتوفى سنة ٥٦٩هـ، الذى حضر بيع كتب ابن الجواليقى واختار مجموعة منها بلغ ثمنها ستين ديناراً ولم يكن معه المبلغ فسافر من بغداد إلى مدينته همذان حيث باع داره فيها وعاد إلى بغداد ليسدد الثمن.

ولم يكن للكتب أسعار محددة تباع بها بل كان الأمر يخضع لمكانة الناسخ وليس المؤلف وظروف العرض والطلب. وكانت أسعار الكتب عموما مرتفعة وربما فاقت دخول الأفراد فقاموا على نسخها بأنفسهم. وكانت هناك حوانيت مخصوصة لبيع الكتب كما كان هناك حلقات فى الأسواق للإتجار فيها، وأطرف من هذا وذاك أن بعض الوراقين كان يحمل الكتب على أتانه ويمر بها على البيوت ليعرضها للبيع كما كان يفعل ياقوت الرومى. وكانت حلقات بيع الكتب بالأسواق أقرب إلى المزادات. وكان على سبيل المثال ينادى على نسخة الكتاب وإسم الناسخ، وقد نودى على نسخة من ديوان جرير بعشرة دنانير، وطبقات الشعراء لابن سلام بعشرة دنانير أيضاً، وهو مبلغ ضخم كان يمكن أن يشترى به بيت متوسط.

وكان بعض المشترين الراغبين فى الكتب مع ضيق ذات اليد يشترى أردأ النسخ وأقلها ثمنا، بل كان بعضهم يحتال على البائع فيغافله وينزع من الكتاب ورقة ليشتريه بثمن بخس على أنه معيب ناقص.

وفى بعض الأوقات كانت سوق الكتب تنفق وتكسد فتنخفض أسعارها

وربما لا تجد من يشتريها. وفى أيام الأوبئة والمجاعات كان الناس أحيانا بعد أن يبيعوا كل ما عندهم يضطرون إلى بيع الكتب بأرخص الأسعار ففى بعض المجاعات التى وقعت زمن الدولة الفاطمية كان بعض العلماء يبيعون كتبهم «كل مجلد برغيف».

وكان بعض العلماء وأصحاب المكتبات الشخصية إذا ضاقت بهم الأحوال المالية لجأ إلى بيع كتبه فيذكر ياقوت الرومى فى معجم الأدباء أن العلامة أبا الحسن على بن أحمد الغالى المتوفى سنة ٤٤٨هـ إحتاج إلى المال فباع نسخة عزيزة عليه من كتاب الجمهرة لابن دريد بخمسة دنانير وقد أنشد بعدها يقول:

أنست بها عشرين حولا وبعتها ** فقد طال شوقى بعدها وحنينى

وما كان ظنى أننى سأبيعها ** ولو خلدتنى فى السجون ديونى

ولكن لضعف وافتقار وصبية ** صغار عليهم تستهل شؤونى

فعلت ولم أملك سوابق عبرة ** مقالة مشوى الفؤاد حزين

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك ** كرائم من رب بهن ضنين

ويذكر العلامة نصرون بن فتوح الجزرى أنه مرض مرضا شديدا، أضطر أثناءه إلى أن يبيع صحيح البخارى ومسلم لينفق على نفسه وبعد أن برأ من مرضه ذكر ذلك لصديق له هو أبو القاسم بن القطاع، فغضب عليه غضباً وقال له هل رأيت مسلماً يخرج الصحيحين من داره، كان يكفى أن تقنع ببيع كتب الأدب.

وكان من بين النصائح التى يقدمها إبن جماعة لطلاب العلم شراء الكتب بدلاً من نسخها إذا كان ذلك فى مقدروهم توفيراً للوقت واحتراما للكتب.

وقد يكون من المستحب أيضاً أن نشير هنا إلى أن بعض علية القوم من المسلمين كان يجمع الكتب دون حاجة فعليه إليها بل لمجرد الزينة والزخرف

على النحو الذى كان يسلكه بعض اليونانيين وكثير من الرومان. وسوف نعود إلى ذلك تفصيلاً عند حديثنا عن المكتبات الشخصية.

إعارة الكتب (العارية)

شاع فى العصور الوسطى الإسلامية إعارة الكتب سواء من المكتبات كما سنرى أو بين الأفراد بعضهم البعض. وقد إنقسم القوم بين مؤيد ومعارض لإعارة الكتب على إطلاقها. وجاء فى الوسط فريق يرى الإعارة برهن.

يقول ابن جماعة فى تذكرة السامع انه يستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر منه عليها ومن لا ضرر عليه منها وذلك لما فيه من الإعانة على العلم مع ما فى مطلق العارية من الفضل والأجر. ويستمر ابن جماعة فى القول بأنه ينبغى للمستعير أن يشكر للمعير ذلك ويجزيه خيراً ولا يصل مقامه عنده من غير حاجة بل يرده إذا قضى حاجته ولا يحبسه إذا طلبه أو استغنى عنه ولا يجوز أن يصلحه بغير إذن.

وكان القاضى أبو الوليد الكنانى إذا إعار كتابا لأحد إنما يتركه عنده بعدد ورقاته أياماً ثم لا يسامحه بعد ذلك ويقول لمن إستعار الكتاب إن كنت أخذته للدرس والقراءة فلن يغلب أحد حفظ ورقة كل يوم وإن أردته للنسخ فكذلك فإن لم يكن هذا ولا هذا فأنا أحوط بكتابى وأولى برفعه منك.

ويبدو أن التساهل فى إعارة الكتب الشخصية كان من الصفات الطيبة النادرة ولذلك حرص كتاب التراجم على ذكرها فى المترجم له إن كان يتحلى بها فقد جاء فى الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة عن العلامة الحسين بن محمد الطيبى المتوفى سنة ٧٤٣هـ أنه كان «يعير الكتب النفيسة لأهل بلده وغيرهم من أهل البلدان من يعرف ومن لا يعرف». ويقول نفس المصدر عن القاسم بن محمد البرزالى المتوفى سنة ٧٣٩هـ أنه كانت له كتب جيدة فى أربع خزائن وكان باذلاً للكتب وأجزائه». ويقول أيضا عن سليمان بن يوسف الياسوفى أنه كان سهل العارية للكتب.

وعلى الجانب الآخر كان البعض يرفض الإعارة وذلك لماطلة المستعيرين فى رد ما إستعاروه أو لإتلاف ما إستعاروه ولو بطريق الإهمال وفى هذا المعنى قيلت أشعار كثيرة ونصائح نثرية أكثر فقد قال حمزة بن حبيب الزيات «لا تأمنن قارئاً على دفتر ولا حمالاً على حبل». ويروى عن إبن الخشاب أنه كان إذا إستعار كتابا من أحد وطالبه به قال دخل بين الكتب فلا أقدر عليه. وقال أحد الشعراء:

أيهـا المستعـير منى كتابا ** إرض لى منه ما لنفسك ترضى

لا ترى ردًّ ما أعرتك نفلا ** وترى رد ما استعرتك فرضا

وكتب الحمدونى إلى شخص ماطل فى رد كتب أعاره إياها:

ما بال كتبى فى يديك رهينة ** حبست على كر الزمان الأول

فأذن لها فى الإنصراف فإنها ** كنز عليه إذا إفتقرت معولى

ولقد تعبت حين طال مقامها ** طال النوى على رسوم المنزل

ولقد قال محمد بن خلف المرزبان سالف الذكر ناصحاً أصحاب الكتب ألا يعيروها إلا برهن:

أعر الدفاتر للصاحب ** بالرهـن الوثـيق

إنـه ليـس قبيـحا ** أخذ رهن من صديق

ويقول على بن أبى بكر الطرازى: -

يا مستعـير كـتابـى ** لا تكـثرن عتابـى

إلا برهـن وثـيـق ** من فضة أو ثـياب

وقال أبو جعفر عمرو بن عثمان الجنزى:

إذا ما أعرت كتابا فخذ ** على ذلك رهنا وخلٍّ الحياء

فانك لم تتهم مستعيراً ** ولكـن لتذكـر منه الأداء

وقال آخر:

جل قدر الكتب يا صاح عندى ** فهـى أغلى من الجواهر قدرا

لن أعيـر الكـتاب إلا برهـن ** من نفيس الرهون تبرا ودرا

وكان بعض العلماء يرى أن إستعارة الكتب مدعاة لعدم شرائها وتيسيراً على من لا مال عنده ليشتريها. وفى هذا بذل للعلم وتخفيف عن أهله. وقال بعضهم شعراً فى هذا الإتجاه: يقول أبو محمد عبد الله بن نصر السويدى: ـ

أعر صديقك ما حصلّت من كتب ** تفز بشكر أريج النشر عن كتب

فإن أعاروك فارددها عـلى عجـل ** حتى تعـاد بلا منع ولا نصب

وقال خميس بن على الجوزى فى نفس هذا الإتجاه: ـ

كتبى لأهل العلم مبذولـة ** أيديهم مثل يـدى فيهـا

متـى أرادوهـا بلا مـنة ** عاريـة فليستعـيروهـا

حاشـاى أن أكتمها عنهـم ** بُخْلاً كما غيرى يخفيـها

أعـارنا أشـياخـنا كتبهـم ** وسنة الأشياخ نمضيـها

وقال أبو حفص عمرو بن عثمان الشعيبى:

لا تمنعن الأهل كتبك وإغتنم ** فى كـل وقت أن تعير كتابا

فمعيرها كمعير ماعـون فـمن ** يمنعه لاقى الويل والأنصابا

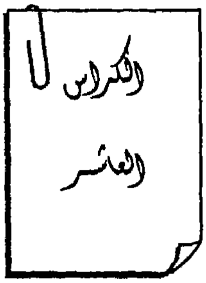
وربما تسبب عدم إعارة الكتب فى ضيق شديد لمن يحتاج إليها ولا يتمكن من إستعارتها حيث تذكر المصادر أن الفقيه الصفار جلس خمسين سنة يدعو على أبى العباسى المصرى لأنه منع عنه كتبه.

وهذا هو القاضى أبو المطرف قاضى الجماعة فى الأندلس كان لا يعير كتابا من كتبه أبداً وإذا سأله أحد إلحافا أن يعيره كتابا، دفع به إلى الناسخ فنسخه وعارضه ودفعه إلى المستعير.

وهذا هو الفقيه إبراهيم بن أحمد بن عرس المتوفى سنة ٨٨٨هـ «كان عنده من الكتب والأجزاء ما لم ينتفع به، بل عطل على غيره الإنتفاع بها بعدم سماحه بعاريتها حسبما عرف عنه حتى نقل عنه أنه قال إذا عانيت الموت ألقيتها فى البحر».

ويرى بعض الناس فائدة غير مباشرة لصاحب الكتب فقد تصاب مكتبته الشخصية بمصيبة كالحريق أو الغرق أو أى مكروه آخر وتبقى الكتب المعارة فى مأمن فمما يذكر أن إبراهيم بن أبى بكر المعروف بالفاشوشة قد إحترقت كتبه ولم يبق له غير الكتب التى كانت عند الناس فى العرض أو العارية. وكذلك كان عبد الوهاب بن جعفر الميدانى المتوفى سنة ٤١٨هـ وقد كتب بنحو مائة رطل حبر كتبا جمعها من مظان مختلفة ولكنها احترقت جميعا وإستطاع إعادة نسخها من عند من كانوا إستعاروها ونسخوها ولم يستطع تعويض كتاب واحد كان لا يعيره ولم يجد له نسخة.

❁ ❁ ❁



مصائــــر الكتــــب الإســــلاميـــة

ذكرت من قبل أن ما وصلنا من الكتب الإسلامية التى نشرت عبر أكثر من عشرة قرون قد لا يربو على ١٠٪. وقد هلك تسعة أعشارها ولم يصل إلينا لأسباب عديدة من بينها:ـ

١ - **الحروب والغزو الخارجي**. ذلك أن الأعداء الذين هجموا على الدولة الإسلامية كان همهم الأول هو القضاء على الفكر الإسلامى ورموزه أى الكتب التى تحمله. وعلى رأس هؤلاء الأعداء المغول والتتار والصليبيون والأسبان. فغارات التتار والمغول بقيادة جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك كان لها أثرها المدمر تماماً على الكتب الإسلامية فى شرقى الدولة الإسلامية، وعندما إقتحموا بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) جمعت الكتب جميعا وألقى بها فى نهر دجلة وأقيم بها جسر عبرت عليه قواتهم واسودت مياه النهر تماما بسبب أحبارها. وكذلك فعلوا فى دمشق التى أحرقها تيمورلنك وظلت مشتعلة ثلاثة أيام بلياليها فأتت على الأخضر واليابس واحترقت جميع الكتب.

وفى الأندلس عندما طرد العرب شر طردة على يد فرديناند وإيزابيلا قام مطرانهم خمينس عام ٩٠٥هـ (١٤٩٢م) بجمع ما أمكن جمعه من المخطوطات الإسلامية من جميع أنحاء الأندلس التى كانوا قد سيطروا عليها فى تلك السنة سيطرة كاملة ووضعت فى أكبر ميادين غرناطة حيث إحتفل المطران بإحراقها.

وفى الشام لم يتورع الصليبيون عن حرق ما أمكنهم حرقه من الكتب فى المدن التى إحتلوها وأقاموا فيها.

وحرق الكتب هو دأب المنتصرين عموماً إذ يعمدوا إلى قهر فكر المهزوم حتى لا تقوم له قائمة بعد الهزيمة أبداً.

٢ - **الحروب والفتن الداخلية.** كانت الدول والدويلات الإسلامية التى إنشطرت إليها الدولة العباسية بعد عصر القوة الذى لم يدم لأكثر من قرن من قيام الدولة العباسية، تتناحر فيما بينها ويغير بعضها على بعض ويسقط بعضها البعض ويحاول بعضها إزهاق المذهب الذى تعتنقه الدولة الأخرى. وسأضرب مثالاً واحداً على هذا السلوك البربرى. عندما قام صلاح الدين الأيوبى بالاستيلاء على السلطة فى مصر وأسقط الدولة الفاطمية وأقام الدولة الأيوبية هدف أول ما هدف إلى محو كل أثر للمذهب الشيعى فلجأ إلى تحطيم المكتبات وعلى رأسها درة ثمينة هى دار العلم بالقاهرة - وسوف نتناولها تفصيلا فيما بعد - ومن سخرية القدر أنه أطلق جنوده فى المكتبات ينزعون جلودها ليصنعوا منها أحذية وأحرق ما أحرق وأغرق ما أغرق وباع دشتاً ما باع إستيفاء لأرزاق العسكر وطمساً للفكر الشيعى فى مصر!!. ويقاس على هذا المثل فى مناطق مختلفة من الإمبراطورية الممزقة التى كانت إسلامية فى يوم من الأيام.

٣ - **إضطهاد المذاهب والمؤلفين.** إن من يقرأ تاريخ «الأمم والملوك» للطبرى سوف يجد أن بعض مجلداته تكاد تقطر دماً من كثرة ما سرد من حوادث إضطهاد المؤلفين والمذاهب والنقمة التى كانت تصب على مؤلفاتهم وحرق تلك المؤلفات وتصفية المؤلفين أنفسهم. وعل سبيل المثال فقط لا الحصر الإمام الكبير إبن حزم الأندلسى يقول عنه إبن حجر العسقلانى:-

«تعصب عليه فقهاء المالكية بأمراء تلك الديار فمقتوه وآذوه وطردوه وحرقوا كتبه علانية وله فى ذلك شعر منه.

إن يحرقوا القرطاس لايحرقوا الذى ** تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى

ويقول إبن حجر العسقلانى أيضا عن عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلانى «أحرقت كتبه لاتهامه بالفلسفة والسحر».

ومن الأمثلة أيضا على ذلك ما حدث بالنسبة لابن ميسرة الأندلسى المتصوف المتوفى سنة ٦٧٧هـ الذى إتهم بالخروج على الدين فأحرقت كتبه. وتعرض

الفقيه المعروف محمد بن حسن الطوسى لمحنة قاسية حيث أحرقت كتبه فى ساحة جامع النصر فى حشد من الناس وتوارى هو خوفاً على نفسه. وكان ذلك بسبب آراء له تدعو إلى عدم الركون تماماً إلى السلف.

ومن الطريف أن إضطهاد السلطة والناس لفكر المؤلف قد يتم بعد وفاته أيضاً فهذا هو خليل بن عبد الملك المعروف بخليل الفضيلة الذى صودرت كتبه بعد وفاته من السوق والمكتبات وأحرقت إلا ما كان فيها من كتب الفقه.

ولقد تعرضت كتب الشيعة والمتشيعون أنفسهم لاضطهاد عظيم، فأحرق قسم كبير منها وأوذى المتشيعون أنفسهم وشردوا لمجرد الخلاف فى الرأى والمذهب.

وتذكر المصادر أن السلطان محمود بن سبكتكين قام فى سنة ٤٢٠هـ بحرق كتب الباطنية والمعتزلة ويقال إنها بلغت نحو خمسين حملاً.

٤ - حوادث الحريق والغرق قضاءً وقدراً. من الطبيعى - وهذا يحدث فى كل أنحاء العالم فى كل زمان - أن تحدث حرائق غير مقصودة وأن يفيض الماء وتنهمر السيول فى ظل ظروف طبيعية قاسية فتحترق الكتب أو تغرق، والنار والماء عدوان لدودان للكتب وخاصة المصنوعة من الورق. ولقد سجلت المصادر حالات كثيرة من هذا النوع ومن الطبيعى أن مالم يسجل هو أكثر بكثير مما سجل. والحريق والغرق قد يصيبان المكتبات الخاصة كما يصيب المكتبات الرسمية. ومن الأمثلة على المجموعات الرسمية ما حدث لجامع أصفهان الذى إحترق سنة ٥٩٥هـ وإحترق معه خمسمائة مصحف ثمينة من بينها مصحف بخط أُبَّى بن كعب. وفى القاهرة إحترقت قضاءً وقدراً خزانة الكتب بالقلعة سنة ٦٩١هـ «فتلف بها من الكتب فى الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شئ كثير جداً» وكانت هذه المجموعة من المجموعات الخاصة التى جمعها السلاطين المتعاقبون ولما إحترقت وصارت حطاما هجم عليها الغلمان وأخذوا الأوراق المحروقة الباقية وباعوها بأبخس الأثمان.

ومن الأمثلة على المجموعات الخاصة التى إحترقت أيضاً قضاءً وقدراً مجموعة أحمد بن عبد الوارث الأسوانى المتوفى سنة ٣٢١هـ حيث إحترقت جميعها ولم يتبق منها سوى أربعة أجزاء؛ ومجموعة عمر بن الحسين الخرقى المتوفى سنة ٣٣٤هـ الذى خرج من بغداد ووضع كتبه أمانة فى درب سليمان فاحترقت الدار التى كانت بها الكتب؛ ومجموعة محمد بن على المادرانى المتوفى سنة ٣٤٥هـ الذى إحترقت داره وأتت النار على كل كتبه؛ والعلامة أبو حفص عمر بن على بن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤هـ الذى أصيب بالذهول وإختلال العقل بعد إحتراق مجموعة كتبه التى تعب فى جمعها.

٥ - **دفن وغسل وحرق الكتب.** إنتشر بين العلماء المسلمين - وغيرهم أحيانا - عادات فى غاية الغرابة وسلوكيات غير مفهومة فى التعامل مع الكتب؛ وهى سلوكيات الإقدام على حرق ودفن وغسل الكتب. والتبريرات فى ذلك شتى منهم من يلجأ إلى ذلك ضناً بكتبه أن يستفيد منها غيره من بعده؛ ومنهم من يخشى أن تقع كتبه فى أيدى من يسيئون إستخدامها والإساءة إلى العلم الموجود فيها ولا يقدرونه حق قدره. ومنهم من يدرك فى نهاية حياته أنه قد تلهى بالكتب عن ذكر الله ومنهم من يمر بضائقة نفسية ويتوهم أن الكتب هى سبب البلبلة الفكرية التى هو عليها. وهكذا تجتمع هذه الأسباب أو بعضها أو أحدها أو أسباب أخرى لم نصل إليها على الكتب فتؤدى بصاحبها بعد أن أفنى عمره فى جمعها إلى أن يحرقها أو يدفنها تحت الأرض أو يحملها إلى شاطئ النهر أو البحر فيمحو ما بها من علم بغسلها بالماء. والأمثلة فى المصادر العربية كثيرة جداً نقتطع منها بعض النصوص فقط. فهذا هو أحمد بن أبى الحوارى يغرق كتبه فى نهاية عمره وهذا هو سفيان الثورى يدفن كتبه، وهذا هو أبو عمرو بن العلاء يغسل كتبه.

الصوفى الكبير أحمد بن أبى الحوارى أخذ كتبه «فرمى بها فى البحر وقال نعم الدليل كنت، ولا حاجة لى إلى الدليل بعد الوصول إلى المدلول».

وسيفان الثورى بقدر ما كان عليه من العلم «أوصى بدفن كتبه وكان ندم على أشياء كتبها عن قومٍ وقال حملنى على ذلك شهوة الحديث».

وكان المبارك الكرخى المتوفى سنة ٥٨٥هـ خطاطاً موهوبا يقلد إبن البواب وربما تفوق عليه وكان بخيلاً بخطوطه ضنينا بها على خلق الله وإذا إجتمع عنده شئ من خطوطه طلب طستاً وغسلها.

والفقيه أبو سليمان الطائى الكوفى كان لا يصبر على فراق كتبه وأراد أن يتخلص من هذا المرض «فجمعها وأغرقها فى الفرات».

ويوسف بن أسباط الذى بلغ مرتبة عليا فى الزهد والتصوف عمد إلى دفن كتبه ولما سئل عن ذلك فقال «أردت أن أجعل الهم هما واحداً» أى أنه أراد أن ينصرف إلى العبادة وحدها ولا يريد للكتب أن تشغله عن ذكر الله.

وكان الأديب أحمد بن إبراهيم الطرابلسى قد ألف كتبا كثيرة فى الأدب وجمع كثيراً من فنون الأدب الماجن فجاء فى نهاية حياته وأحرق كتبه وكتب غيره مما جمعه لما فيها من فحش واستهتار.

ويدور فى فلك الطرابلسى الأديب أحمد بن إسماعيل «الشاعر» الذى أدرك فى نهاية حياته أن الشعراء يتبعهم الغاوون فقام بغسل جميع ما كان عنده من نظم ونثر.

ويمثل الشيخ على بن محمد الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠هـ حالة نفسية فريدة فى التردد بين الأقدام على إغراق الكتب والإحجام عن إغراقها فقد شعر مع دنو الأجل أنه ألف الكتب لشهرة يبتغيها أو مال يصيبه وأنه لم يخلص فيها النية لله؛ فجمع هذه الكتب ووضعها فى مكان خفى ولما شعر بدنو أجله قال لشخص مقرب إليه: إن الكتب الموجودة فى موضع كذا كلها من تأليفى ولم أظهرها لأجد لأنى لم أجد فيها نية خالصة لله تعالى فإذا عانيت الموت ووقعت

فى النزع الأخير فاجعل يدك فى يدى فإن قبضت عليها وعصرتها فاعلم أنه لم يقبل منى شئ منها فاتجه إلى الكتب وأغرقها فى دجلة ليلاً وإن بسطت يدى ولم أقبضها على يدك فاعلم أن كتبى مقبولة وأنى ظفرت بما كنت أرجوه من النية الخالصة. ويقال أن الكتب قبلت ولم يقبض على يد صديقه فظهرت الكتب على الناس.

ويمثل أبو حيان التوحيدى قصة كاملة فى حرق الكتب ذلك أنه فى نهاية عمره (توفى ٤٠٠هـ) قام بحرق كتبه وكتب فى ذلك رسالة طويلة مستفيضة مشحونة بالمشاعر الإنسانية الفياضة ونقتبس منها النصوص الآتية التى تعبر عن اتجاه العلماء المسلمين نحو التخلص من الكتب:

«... وصفت فيه بعد ذكر الشوق إلى والصبابة نحوى ما نال قلبك والتهب صدرك من الخبر الذى نمى إليك فيما كان منى من إحراق كتبى النفيسة وغسلها بالماء فعجبت من إنزواء وجه العذر عنك فى ذلك... ثم أقول إن كان أيدك الله قد ثقب خفك ما سمعت فقد أدمى ظلى ما فعلت فليهن عليك ذلك فما إنبريت له ولا اجترأت عليه حتى إستخرت الله عز وجل فيه أياما وليالى وحتى أوحى إلى فى المنام بما تعب راقد العزم واجد فاتر النية وحث على تنفيذ ما وقع فى الروع وترويع فى الخاطر وأنا أجود عليك الآن بالحجة فى ذلك ان طالبت أو بالعذر أن إستوضحت لتثق بى فيما كان منى وتعرف صنع الله تعالى فى ثنيه لى إن العلم حاطك الله يراد للعمل كما أن العمل يراد للنجاة فان كان العمل قاصرا عن العلم كان العلم كلاّ حتى العالم وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلا وأورث ذلا وصار فى رقبة صاحبه غلا وهذا ضرب من الإحتجاج المخلوط بالإعتذار ثم أعلم علمك الله الخير ان هذه الكتب حوت على أصناف العلم سره وعلانيته فلم أصب من يحرص عليه طالبا على أنى جمعت اكثر للناس ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم فحرمت ذلك كله ولاشك فى حسن ما إختاره الله لى وناطه بناصيتى وربطه بأمرى وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجة على لأنى ومما شحذ العزم على ذلك ورفع

الحجاب عنه أنى فقدت ولدا نجيبا وصديقا وحبيبا وصاحبا قريبا ونابغا أديبا ورئيسا منيبا فشق على أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضى إذا نظروا فيها ويشمتون بسهوى وغلطى إذا تصفحوها ويتراؤون نقصى وعيبى من أجلها فان قلت ولم تسمهم بسوء الظن وتقرع جماعتهم بهذا العيب فجوابى لك إن عيانى منهم فى الحياة هو الذى يحقق ظنى بهم بعد الممات وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ولا ظهر لى من إنسان منهم حفاظ ولقد إضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة وإلى بيع الدين والمروءة وإلى تعاطى الرياء والسمعة. . .

«وبعد فلى فى إحراق هذه الكتب أسوة بائمة يقتدى بهم ويؤخذ بهديهم ويغشى إلى نارهم منهم أبو عمرو بن العلا وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف دفن كتبه فى بطن الأرض فلم يوجد لها أثر وهذا داود الطائى وكان من خيار عباد الله زهدا وفقها وعبادة ويقال له تاج الأمة طرح كتبه فى البحر وقال يناجيها نعم الدليل ولكن الوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وهذا يوسف بن اسياط حمل كتبه إلى غار فى جبل وطرحه فيه وسد بابه فلما عوتب على ذلك قال دلنا العلم فى الأول ثم كاد يضلنا فى الثانى فهجرناه لوجه من وصلناه من أجل من أردناه وهذا أبو سليمان الدارنى جمع كتبه فى تنور وسجرها بالنار ثم قال والله ما أحرقتها حتى كدت أحترق بها وهذا سفيان الثورى مزق ألف جزء وطيرها فى الريح وقال ليت يدى قطعت من هاهنا ولم أكتب حرفا وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافى سيد العلماء قال لولده محمد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار وماذا أقول وسامع يصدق أن زمانا أحوج مثلى إلى ما بلغك الزمان يدمع له العين حزنا وأسى ويتقطع له القلب غيظا وجوى وضنى وشجى وما يصنع بما كان وحدث وبان أن إحتجت إلى العلم فى خاصة نفسى فقليل والله شاف كاف وإن إحتجت إليه للناس ففى الصدر منه ما يملأ

القرطاس بعد القرطاس إلى ان تفنى الأنفاس بعد الأنفاس فلم تعنّى يمينى بعد هذا بالحبر والورق والجلد والقرطاس والقراءة والمقابلة والتصحيح وبالسواد والبياض وهل أدرك السلف الصالح فى الدين الدرجات العلى إلا بالعمل الصالح وإخلاص المعتقد والزهد الغالب فى كل ماراق من الدنيا فأين يذهب بنا وعلى أى باب نحط رحالنا وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب».

٦ - **إتلاف كتب الغير لأسباب غير مفهومة.** إذا كان بعض العلماء أو أصحاب المجموعات الخاصة يلجأون إلى تدميرها بالغسل أو الدفن أو الإحراق، فإن بعض الأشخاص حتى المسئولين منهم كان يتلف الكتب لغير ما سبب سوى إشباع حاجة شخصية عنده فهذا هو خازن مكتبة رباط المأمونية فى بغداد يتلف كتاباً لمجرد أنه لا يتفق معه فى الرأى هو كتاب نقض القرآن لأبى العلاء المعرى. وقد أنكر العلامة المبارك بن الدهان المتوفى سنة ٦١٢هـ هذا الفعل من جانب الخازن المفروض فيه أن يحافظ على ما بها حتى لو إختلف فى الرأى معها.

وهذا هو الأديب النحوى على بن عيسى الربعى المتوفى سنة ٤٢٠هـ وضع كتابا كبيرا فى شرح كتاب سيبويه فنازعه أحد التجار فى مسألة فقام غاضباً وأخذ كتاب سيبويه نفسه وجعله فى إناء وصب عليه الماء وغسله وجعل يلطم الحيطان ويقول لا أجعل أولاد البقالين نحاة.

وهذا هو تقى الدين السبكى يقرأ فى كتاب الطرائف أورد فيه صاحبه مسائل لا تعجبه فقام وقطعه قطعا وغسله.

والحلاج بعد وفاته يحظر على الوراقين أن يتعاملوا فى شئ من كتبه بيعا أو شراءً أو نسخاً.

والأمثلة أكثر من هذا بكثير وتزدحم بها كتب التراجم والطبقات على وجه خاص.

٧ - **إستخدام المخطوطات فى تجليد مخطوطات جديدة.** من نكد الدنيا على

المخطوط العربى القديم أن يستخدمه المجلدون فى تجليد مخطوطات أحدث منه ولم يكن ذلك الأمر يأتى عرضاً بل كان ظاهرة لها خطرها أودت بحياة الآلاف من المخطوطات الثمينة مما جعل شخصاً مثل أحمد بن حنبل يقول عن كتب الواقدى «جعلت ظهائر للكتب». ويقول السخاوى عن كتب أحمد بن يوسف اليسكرى «شرع فى جمع تاريخ للرواة لوقدر له أن يبيض لكان مائة مجلدة، جمع منه فى مسوداته مالا يعد ولا يدخل تحت حصر، ولم يقدر له أن يبيضه ومات فتفرقت مسوداته شذر مذر ولعل أكثرها عمل «بطائن المجلدات».

٨ - **العوامل الطبيعية والإهمال.** قامت العوامل الطبيعية من حرارة شديدة ورطوبة وسوء نقل وغرق بالتسريع فى بلى عدد ضخم من مخطوطاتنا، وربما كانت هذه العوامل أشد فتكا بعدد كبير من الكتب أكثر من الحرائق العمدية أو غير العمدية على النحو الذى أسلفت فى الكراس السابق.

٩ - **سرقة المخطوطات ونهبها وتهريبها للخارج.** تدل مقتنيات كبرى المكتبات الأجنبية على أن قسماً كبيرا من المخطوطات الإسلامية والعربية قد هرب خارج الدول الإسلامية بطرق مختلفة:

أ - السرقة: حيث خضعت الدول الإسلامية جميعا فى فترات مختلفة للإستعمار وقد أدى الإستعمار بطبيعة الحال إلى تسهيل خروج المخطوطات - والآثار - من مكتباتنا وأيضا من أسواقنا وإستقرارها فى المكتبات الأجنبية. وللأسف الشديد ساهم بعض المسلمين فى خروج مخطوطاتهم إلى الخارج.

ب - الشراء: حيث كان التجار الأجانب يأتون أو يساعد التجار الوطنيون فى طلب المخطوطات الثمينة وخاصة تلك المتعلقة بالعلوم البحتة والتطبيقية، فخرج عن طريق الشراء جانب كبير من المخطوطات بثمن بخس.

ج - الإهداء: يقوم بعض المسئولين بإهداء مخطوطات قيمة إلى زوار وأصدقاء أجانب كما تهدى الآثار أيضاً.

* * *

لقد أدت العوامل المذكورة سابقاً وعوامل أخرى لم تذكر إلى ضياع القسط الأكبر من مخطوطاتنا التى ورقت عبر عشرة قرون من الزمان. ومازالت عوادى الزمن والبشر تفعل فعلها فى البقية الباقية من هذا التراث.

✿ ✿ ✿

الباب الثانى

المكتبة الإسلامية

الكراس الحادى عشر

المكتبات الخاصة عند المسلمين

مقدمة

كان حب المسلمين للكتاب عموما حباً عارماً، وأستعيد هنا ما قالته زيجريد هونكه عنهم من أنهم «شعب يذهب إلى المدرسة». وكان من نتيجة هذا الحب العارم أن يقوم المسلمون بجمع الكتب وتنظيمها وتيسير الإفادة منها. ومن ثم كان لابد من إنشاء مكتبات تجتمع فيها الكتب وتقدم حولها الخدمات المكتبية المختلفة. ولذلك زرعت الأرض الإسلامية فى العصور الوسطى بالمكتبات. والحقيقة أن المسلمين أنفسهم لم يسموا تلك المكتبات ولم يصنفوها؛ وإنما نحن لأغراض الدراسة العلمية لتلك المؤسسات الإسلامية وسهولة تناولها لابد من أن نصنفها ربما على ضوء مفاهيمنا الحالية، وإن كانت هناك أنواع من المكتبات لا نجد لها نظيراً فى مجتمع اليوم. وسوف أبدأ هنا بأول نوع ظهر وانتشر ألا وهو المكتبات الخاصة أو الشخصية.

المكتبات الخاصة عند المسلمين

ليس ثمة شك فى أن الإسلام يحض على العلم وتحصيله من مظانه المختلفة، جاء ذلك فى القرآن الكريم وجاء ذلك فى أحاديث الرسول. وكانت أداة العلم هى الكتاب. ولذلك أقبل العرب والمسلمون أيما إقبال على إقتناء الكتب وتكوين المكتبات الشخصية يدفعهم فى ذلك حب خالص للكتب وتقدير لمكانتها. وقد نسج العرب والمسلمون فى حب الكتب القصائد والنصوص التى نقتطع بعضاً منها لمجرد التدليل على ذلك كتمهيد لإنتشار المكتبات الشخصية بينهم.

يقول المتنبى:

أعز مكان فى الدنا سرج سابح ** وخير جليس فى الأنام كتاب

ويقول شاعر آخر:

ولكل صاحـب لذة متنـــزه ** أبداً ونزهة عـالم فى كتبه

ويقول شاعر ثالث:

نعم الأنيس إذا خلوت كتاب ** تلهو به إن ملَّك الأحباب

لا مفشيا سـرا إذا استودعـته ** وتفاد منه حكمة وصواب

وقال شاعر رابع يحاول الهرب من الكتب فلا يستطيع:

أقبلت أهرب لا آلو مباعدة ** فى الأرض منهم فلم يحصنى الهرب

وقال أبو هلال العسكرى:

وجليس حسن المحضر ** مـأمـــون المـغـيب

ميـــت يخبر حـــيا ** بخفـيات الغـــريب

أبلـــه غـــير لبـيب ** وهو فى حال اللبيب

جاهــل غــير أديـب ** وهـــو عـون للأديب

أخرس غــير خـطيب ** وله لفـظ الخطـيب

وقال أبو هفَّان:

إذا آنس الناس ما يجمعون ** آنســـت بما يجـمع الدفـــتر

له وطـــرى ولـــه لذتـــى ** على الكأس والكأس لا تحضر

وقال أبو الحسن على بن هارون فى نفس هذا الإتجاه:

إذا ما خلوت من المؤنـسين ** جعلت المحدث لى دفترى

فلم أخل من شاعر محسن ** ومن مضحك طيب منذر

وإن ضاق صدرى بأسراره ** وأودعـته السـر لم يظـهر

وقال شاعر مغمور:

لنا جلساء ما نمل حديثهم ** أمينون مأمونون غيباً ومشهدا

يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ** ورأيا وتأديباً ومجداً وسؤددا

فإن قلت أمواتاً فلم تعد أمرهم ** وإن قلت أحياءً فلست مفنداً

وإذا كانت تلك عينات من أشعار كثيرة قالها المسلمون فى إظهار حبهم للكتب ومكانتها لديهم فإن النصوص المنثورة أكثر وأعمق نأتى على بعضها أيضا على سبيل التدليل والتمثيل فقط:

فقد قال **المأمون** «لا شئ آثر للنفس ولا أشرح للصدر؛ ولا أوفى للغرض؛ ولا أذكى للقلب ولا أبسط للسان ولا أشد للجنان، ولا أكثر وفاقاً ولا أقل خلافاً؛ ولا أكثر عبارة، من كتاب تكثر فائدته وتقل مؤونته؛ وتسقط غائلته؛ وتحمد عاقبته، وهو محدث لا يمل وصامت لا يخل، وجليس لا يتحفظ ومترجم عن العقول الماضية والحكم الخالية والأمم السالفة يحيى ما أماته الحفظ ويجدد ما أخلقه الدهر، ويبرز ما حجبته الغباوة ويصل إذا قطع الثقة ويدوم إذا خان الملوك...».

ويقول **عبد الله بن المعتز**: الكتاب والج الأبواب، جرئ على الحجاب مفهم لا يفهم وناطق لا يتكلم.

ويقول **المعافى بن زكريا**: الكتاب حاضر نفعه، مأمون ضره، ينشط بنشاطك فينبسط إليك ويمل بملالك فينقبض عنك؛ إن أدنيته دنا، وإن أنأتيه نأى، لا يبغيك شراً ولا يفشيك عليك سراً».

وقال **ابن الطقطقى**: الكتاب هو الجليس الذى لا ينافق ولا يملك ولا يعاتبك إذا جفوته ولا يفشى سرك.. وإن أفضل ما نظر فيه خواص الملوك وسلكوا إليه أفضل السلوك، بعد نظرهم فى أمر الأمة وقيامهم فيما استودعوه بالحجة هو النظر فى العلوم والإقبال على الكتب التى صدرت عن شرائف المفهوم. فأما فضيلة العلم فظاهرة ظهور الشمس، عرية عن الشك واللبس».

ولعل أفضل وأعمق وأشمل من كتب عن الكتب هو الجاحظ الذى قال فى البيان والتبيين يصف الكتاب «من لك بزائر إن شئت كانت زيارة غباً، وإن شئت لزمك لزوم الظل وكان منك كما كان بعضك».

ولكن الجاحظ فى كتاب الحيوان يصف الكتاب وصفاً طويلاً ويعدد محاسنه وفضائله بما لا يعدله وصف آخر فى أى مصدر:

«الكتاب نعم الذخر والعقدة هو، ونعم الجليس والعدة ونعم العشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الأنيس لساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاء ملئ علماً وظرف حشى ظرفاً وإناء شحن مزاحاً وجداً، إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيى من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتك طرائفه وان شئت أشجتك مواعظه، ومن لك بواعظ مُله وبزاجر معز وبناسك فاتك وبناطق أخرس وببارد حار... ومن لك بطبيب أعرابى ومن لك برومى هندى وبفارسى يونانى، وبقديم مولد وبميت ممتنع، ومن لك بشئ يجمع لك الأول والآخر والناقص والوافر، والخفى والظاهر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده، وبعد فمتى رأيت بستاناً يحمل فى ردن وروضة تقلب فى حجر وناطقاً ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء؟ ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من الأرض وأكتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة وأحفظ لما إستحفظ من الآدميين ومن الأعراب المستعربين... وقال ذو الرمة لعيسى بن عمر: أكتب شعرى فالكتاب أحب إلى من الحفظ لأن الأعرابى ينسى الكلمة قد سهر فى طلبها ليلته فيضع فى موضعها كلمة فى وزنها ثم ينشدها الناس والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام.

وعبت الكتاب ولا أعلم جاراً أبر ولا خليطاً أنصف ولا رفيقاً أطوع ولا

معلماً اخضع ولا صاحباً اظهر كفاية ولا أقل جناية ولا أقل إملالاً وإبراماً ولا أحفل اخلاقاً ولا أقل إخلافاً وإجراماً ولا أقل غيبة ولا أبعد عن عفيهة، ولا أكثر اعجوبة وتصرفاً ولا أقل تصلفاً وتكلفاً ولا أبعد من مراء ولا أترك لشغب ولا أزهد فى جدال ولا أكف عن قتال، ولا أعلم قريناً أحسن موافاة ولا أعجل مكافاة ولا أحضر معونة ولا أخف مؤونة ولا شجرة أطول عمراً ولا أجمع أمراً ولا أطيب ثمرة ولا أقرب مجتنى ولا أسرع إدراكا ولا أوجد فى كل إبان من كتاب. ولا أعلم نتاجاً فى حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة ومن الإخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمع لك الكتاب.

ويقول فى موضع آخر: والكتاب هو الجليس الذى لا يطريك والصديق الذى لا يغريك والرفيق الذى لا يملّك والمستميح الذى لا يشتريك والجار الذى لا يستطيبك والصاحب الذى لا يريد إستخراج ما عندك بالملق ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق ولا يحتال لك بالكذب. والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال متاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بنانك وفخم ألفاظك ونجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك وعرفت به فى شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال فى دهر، مع السلامة من العزم ومن كد الطلب ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم ومن الجلوس بين يدى من أنت افضل منه خلقاً وأكرم منه عرقاً ومع السلامة من مجالسة البغضاء ومقارنة الأغبياء. والكتاب هو الذى يطيعك بالليل كطاعته بالنهار ويطيعك فى السفر كطاعته فى الحضر ولا يعتل بنوم ولا يعتريه كلال السهر. وهو المعلم الذى إن إفتقرت إليه لم يخفزك وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك العائدة وإن عزلت لم يدع طاعتك وإن هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك، ومتى كنت منه متعلقاً بسبب أو معتصماً بأدنى حبل كان لك فيه غنى عن غيره، ولم

يضطرك وحشة الوحدة إلى جليس السوء، ولم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر إلى المارة بك مع ما فى ذلك من التعرض للحقوق التى تلزم، ومن فضول النظر ومن عادة الحرص ومن ملابسة صغار الناس وحضور ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الرديئة وجهالاتهم المذمومة لكان فى ذلك السلامة ثم الغنيمة وإحراز الأصل مع إستفادة الفرع ولو لم يكن فى ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى وعن إعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما أشبه اللعب، لقد كان على صاحبه أسبغ النعمة وأعظم المنة».

لقد بلور ول ديورانت فى قصة الحضارة حب المسلمين للكتاب وقصة المكتبات الخاصة لديهم بقوله «ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب فى بلد آخر من بلاد العالم - اللهم فى بلاد الصين فى عهد منج هوانج - ما بلغه فى بلاد الإسلام فى القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر.

لقد عبر المسلمون عن هذا الحب بتكوين المكتبات الشخصية والإحتفاء بها والمبالغة فى العناية بها والبكاء المر لفراقها وفقدانها. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً فهذا هو **الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون** كان - فيما يقول ياقوت الرومى فى معجم الأدباء - من محبى الكتب وإقتنائها وأنه بالغ فى تحصيلها وشرائها وحصل من أصولها المتقنة وأمهاتها الثمينة مالم يحصل للكثير من الناس، ثم تقاعد به الدهر وافتقر بعد غنى وبطل عن العمل، ويقول ياقوت أنه رآه يخرجها ويبيعها وعيناه تذرفان الدموع كالمفارق لأهله الأعزاء والمفجوع بأحبائه الأوداء، فقال له ياقوت هون عليك - أدام الله أيامك - فإن الدهر ذو دول وقد يسعف الزمان ويباعد، وترجع دولة العز وتعاود فتستخلف ما هو أحسن منها وأجود فقال: حسبك يا بنى هذه نتيجة خمسين سنة من العمر انفقتها فى تحصيلها، وهب أن المال تيسر والأجل يتأخر - وهيهات - فحينئذ لا أحصل من جمعها بعد ذلك إلا على الفراق الذى ليس بعده تلاق ثم أدركته منيته ولم ينل أمنيته. (توفى الحسن سنة ٦٠٨هـ).

وقد حفلت المصادر العربية بذكر العديد من المكتبات الشخصية ليس فقط لأصحاب المراكز المرموقة فى الدولة الإسلامية وإنما أيضا لعلماء وأفراد عاديين فهذا هو إبن النديم يحدثنا عن أحد هوّاة جمع الكتب فى مدينة الحديثة بالعراق إسمه محمد الحسين بن بعرة الذى كان عنده من نفائس الكتب والخطوط ما يذهل له الإنسان وقد كانت له «خزانة كتب لم أر لأحد مثلها كثرة تحتوى على قطعة من الكتب الغريبة فى النحو واللغة والأدب والكتب القديمة. فلقيت هذا الرجل دفعات فأنس بى وكان نفوراً ضنينا بما عنده وخائفاً من بنى حمدان، فأخرج قمطراً كبيراً فيه نحو ثلثمائة رطل جلود فلجان وصكوك وقراطيس مصرية وورق تهامى وصينى وجلود أدم وورق خراسانى فيها نوادر عن العرب وقصائد مفردات من أشعارهم وشئ من النحو والحكايات والأخبار والأسمار والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم وذكر لى أن رجلاً من أهل الكوفة ذهب عنى إسمه كان مستهترا بجمع الخطوط القديمة وأنه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت بينهما وأفضال لموافقته بالمذهب فإنه كان شيعياً فرأيته وقلبته فرأيت عجباً، أثارة الزمان قد أخلقها وكان على كل جزء ورقة امداح توقيع بخطوط العلماء واحد إثر واحد يذكر فيه خط من هو وتحت كل توقيع آخر خمسة أو ستة من شهادات العلماء بعضهم لبعض... وفيها خطوط جماعة من الصحابة ومشاهير العلماء».

وكانت مكتبة أبى بكر الصولى من الضخامة بمكان بحيث خصص لها بيتاً عظيماً (حجرة كبيرة) وقد صنفت المكتبة ولكل صنف لون خاص صبغت به جلودها فصنف أحمر وآخر أخضر وثالث أصفر. وقد تميزت هذه المجموعة بتنضيدها والعناية بها.

ومما يذكر عن شافع بن على (ت ٧٣٠هـ) أنه كان مغرما بجمع الكتب حتى أنه عندما مات ترك نحو عشرين خزانة ملأى بالكتب القيمة. وكان قد عمى فى أواخر أيامه، وكان من شدة إلتصاقه بالكتب يتعرف عليها وهو اعمى عن

طريق اللمس. ويقول هذا هو الكتاب الفلانى ملكته فى الوقت الفلانى، وكان إذا طلب منه أى كتاب قام إلى الخزانة المحددة وتناوله بسهولة.

وكان مثله العلامة على بن أحمد الآمدى المتوفى سنة ٧١٠هـ الذى إقتنى مجموعة ضخمة من الكتب، وكان قد عمى أيضا فى أواخر حياته ومع ذلك كان يتعرف على الكتب ولا يخفى عليه منها شىء بل كان إذا طلب منه المجلدة الأولى من كتاب معين قام وأخرجها وكان يسمى الكتاب ويقول هذا يشتمل على كذا وكذا فلا يخطئ وكذلك يصف قلمه وخطه فلا يخطئ.

وقد بلغت مكتبة أبى الحسين السيرافى من حيث الكتب المجلدة وحدها أحد عشر ألف وسبعمائة كتاب وغير المجلدة عشرات تحتاج فى تجليدها إلى نحو ثلثمائة دينار.

أما عبد الرحيم البيسانى المتوفى سنة ٥٩٦هـ فقد جمع هو الآخر ربما أضخم مكتبة شخصية عرفها التاريخ حسبما ذكر المقريزى فى خططه حيث ذكر المقريزى نقلاً عن عبد اللطيف البغدادى أن هذا الرجل كان له ولوع شديد بالكتب إقتناء واستنساخاً حيث كان يقتنى فى كل فن ويجلب الكتب من كل جهة، وله نساخ لا يفترون ومجلدون لا يبطلون قال بعض من يخدمه فى جلب الكتب أن «عددها مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا».

وكان طبيب صلاح الدين الأيوبى موفق الدين المطران قد كون مكتبة كبيرة بلغت نحو عشرة آلاف مجلد وبعد وفاته نودى على بيعها فبلغت فى المناداة أكثر من ثلاثة آلاف درهم وكان أكثر الكتب بخط إبن الحمالة.

وبمناسبة ذكر صلاح الدين الأيوبى، يقال إنه ساعد العلامة محمد بن عبد الرحمن البنجديهى فى جمع مجموعة جميلة وكبيرة من الكتب حيث يذكر القفطى أن صلاح الدين الأيوبى عندما دخل حلب سنة ٥٧٧ هـ نزل البنجديهى إلى خزانة الوقف بجامع المدينة واختار جملةكبيرة من الكتب أخذها لم يمنعه منها مانع ورآه الراوى الذى روى القصة للقفطى وهو يحشر الكتب فى عدل وحصل من كتب اللغة والأدب كل جميل.

وكان **القاضى أبو المطرف** قاضى الجماعة فى قرطبة المتوفى سنة ٤٠٢هـ قد جمع من الكتب فى كل أنواع العلوم مالم يجمعه أحد من أهل زمانه فى الأندلس، ويقال أنه كان له ستة وراقين ينسخون له الكتب دائماً. وكان إذا علم بوجود كتاب جيد عند أحد من الناس طلبه ليشتريه منه ويبالغ فى ثمنه. ويحكى أن أهل قرطبة إجتمعوا لبيع كتبه بعد وفاته فمكثوا عاماً فى مسجده لشرائها واجتمع من ثمنها أربعون ألف دينار.

كذلك كان حال **شرف الدين محمد بن عبد الله السلمى المرسى الأندلسى** الذى خلّف مكتبة شخصية عظيمة فى دمشق وأمر السلطان ببيعها فكانوا يحملون منها كل يوم ثلاثاً إلى دار أحد العلماء حتى بيعت فى عام كامل. وقد ذكر عن شرف الدين أنه كان له فى كل بلد ينتقل إليه بيت فيه كتب حتى لا يستصحب معه كتبه إكتفاءً بما له فى البلد المسافر إليه من كتب.

كذلك كان إبن القيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ مولعا بجمع الكتب فحصل منها مالا يحصى حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهراً طويلاً سوى ما اصطفوه لأنفسهم.

وبلغت مكتبة الإمام **أحمد بن حنبل** إثنى عشر جملاً. ومكتبة إبراهيم بن إسحق الحربى إثنى عشر ألف جزء لغة وغريب أغلبها بخطه.

وكان العلامة إسرائيل بن يونس السبيعى لا يترك فى بيته كوة ولا سفطاً إلا ملأه كتباً.

ومن الطريف أن كثيراً من علماد المسلمين كان عندما يرتحل فى طلب العلم أو التدريس أو الفتيا كان ينقل معه مكتبته الخاصة للإستعانة بها فى عمله أو للقراءة فهذا هو **الواقدى** ت ٢٠٧هـ كان يحمل كتبه على مائة وعشرين وقراً وكانت تبلغ نحو ستمائة قمطر. وكان **الزهراوى** المتوفى سنة ٤٢٧هـ يحمل كتبه على ثمانية أحمال. وكان **ابن مندة** المتوفى سنة ٣٩٥هـ تحمل كتبه على

أربعين جملاً. وكذلك **الأصمعى** الذى خرج فى سفر مع الرشيد فلقى إسحق الموصلى فسأله عما يحمله معه من الكتب فقال حملت ما خف حمله، فسأله عن مقداره فقال له ما خف حمله: ثمانية عشر صندوقاً فعجب وقال له إذا كان هذا ما خف حمله فكم يكون الباقي فأجاب: أضعاف ذلك.

وكان **البرقانى**، العالم البغدادى، إذا أراد أن يرتحل يحتاج إلى عدة أعدال وصندوقين ليحمل فيها كتبه.

ومن المكتبات الخاصة التى يجب أن نتوقف عندها لطرافة مصيرها مكتبة **سعيد بن المبارك الدهان** المتوفى ٦٥٩هـ وقد كانت فى بيته ببغداد، وتركها وارتحل إلى الموصل لفترة وعندما عاد وجد أن مكتبته قد غرقت بسبب فيضان أصاب بغداد فبعث من ينتشلها، فلم يفلح إلا بعد جهد لأنها قد غرقت فيما غرق وزاد على ذلك أن أصابها ماء من مدبغة جلود خلف بيته، ولما أحضرت إليه الكتب بعد عناء وجد رائحتها قد أصبحت كريهة وأن لونها قد تغير، وأشير عليه بأن يبخر ما صلح منها، فشرع فى تبخيرها بمادة اللاذن وإستمر فى ذلك حتى بخرها بما يربو على ثلاثين رطلاً من تلك المادة وقد تسللت إلى رأسه وعينيه فأتلفت بصره وعينيه.

وكانت **ليحيى بن معين** مكتبة خاصة تحتل مائة وأربعة عشر قمطراً وأربعة حبآب شرابية. كما كانت **لأحمد بن إبراهيم الفاروقى** مكتبة خاصة بلغت عند وفاته ألفى ومائة مجلد. وبلغت مكتبة محمد بن العباس بن الفرات ثمانية عشر صندوقاً مملوءة عن آخرها معظمها بخط يده وكانت له جارية تعارض ما يكتب.

على أن أكبر مكتبة وصلنا ذكرها فى قطاع المكتبات الخاصة للأشخاص غير الرسميين هى مكتبة **إبن عقدة** المتوفى سنة ٣٣٢هـ التى بلغت عند نقلها من مكان إلى مكان حمل ستمائة جمل. ويقول إبن خلكان أن مكتبة أبى عمر بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤هـ كانت تملأ منزله إلى إرتفاع السقف.

لقد كانت النماذج السابقة نماذج على مكتبات شخصية لأفراد عاديين غير رسميين علماء وغير علماء. ولكن على الجانب الآخر كان هناك أشخاص من

ذوى الحيثيات كونوا مكتبات خاصة عظيمة من خلال وظيفتهم الرسمية نأتى على جانب منها أيضاً لكى تكتمل صورة المكتبات الخاصة عند المسلمين.

- مكتبة إبن العميد وزير البويهيين

لم يكن إبن العميد مجرد وزير بويهى وإنما كان أيضا عالماً وباحثاً أنفق معظم ماله على العلم وعلى الكتب. وكون مكتبة شخصية كبيرة تحمل على مائة وقر. وكان يضن بها ويفضلها على مال الدنيا. وربما كانت تحوى كتبا فى جميع فروع المعرفة البشرية التى وجدت فى عصره. ولأهمية وخطورة هذه المكتبة ولانشغال إبن العميد عنها بأعمال الوزارة عين لها خازناً عالماً هو المؤرخ الشهير إبن مسكويه. وقد ظل طول حياته يتعهدها بعنايته ويغذيها بعلمه وأدبه والكتب التى يشتريها أو يأمر باستنساخها، فيما يقول إبن أبى أصيبعة؛ وكان إبن العميد يلقب بالأستاذ الرئيس.

ب - مكتبة الصاحب بن عبّاد

كان إسماعيل بن عباد تلميذاً ومصاحباً لابن العميد وقد تأثر به وكان أكثر جمعاً للكتب وحبا لها. وكان أيضا وزيراً وأول من لقب من الوزراء بالصاحب. وكان محبا للآداب والعلوم، جمع حوله الأدباء والعلماء واصطفى عدداً منهم لخدمة أهدافه العلمية والأدبية جاء من بينهم جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع الذى كان منقطعا إليه. وقد طلب إليه إبن عباد أن يؤلف له كناشا فى الأمراض التى تعرض من الرأس إلى القدم ولا يخلط بها غيره فألفه فكافأه بألف دينار. وكان إبن بختيشوع يقول «صنفت مائتى ورقة أخذت عنها ألف دينار. وكان عنوان الكتاب «الكافى بلقب الصاحب» كذلك ألف له أحمد بن فارس اللغوى كتاب «الصاحبى».

ويقال أن هذه المكتبة بلغت حمل أربعمائة جمل أو أكثر؛ كان يحمل معه فى أسفاره منها فقط حمل ثلاثين جملاً. وكان فهرست تلك المكتبة يقع فى عشر مجلدات. ويقول ول ديورانت عن هذه المكتبة فى قصة الحضارة «وكان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما فى دور الكُتب الأوربية مجتمعة».

ج – مكتبة الفتح بن خاقان

كان الفتح بن خاقان وزيراً للخليفة المتوكل العباسى، وقد قتل معه فى سامرا سنة ٢٤٧هـ. ولم يكن إبن خاقان مجرد وزير بل كان عالما واسع الإطلاع نهما فى القراءة يتحلقه الناس للأخذ من علمه وكان الخليفة المتوكل يحضر مجالسه العلمية. وقد كون الرجل خزانة كتب ضخمة حيث توافرت له الإمكانات المالية وظروف السلطة مما جعل المؤلفين أيضا يكتبون كتبا مخصوصة لخزانة كتبه. ومن بين المؤلفين أبو عثمان بن عمرو بن محبوب الجاحظ الذى ألف له: «التاج فى أخلاق الملوك» و«مناقب الأتراك وعامة جند الخلافة». كذلك ألّف له كل من محمد بن حارث التغلبى ومحمد بن حبيب كتبا لم تصل إلينا أصولها.

ويقول إبن النديم بصدد هذه المكتبة الخاصة إنها إشتملت على أكثر مما إشتملت عليه خزانة أخرى.

مكتبة حنين بن إسحق

سبق أن أشرنا إلى أن حنين بن إسحق كان أبرز المترجمين إلى اللغة العربية، وكان يجيد عدة لغات نعرف منها اليونانية والسريانية والفارسية. وقد كوّن من خلال عمله بالترجمة مكتبة عظيمة تميزت دون سائر المكتبات الخاصة بأن بها قسماً كبيراً من الكتب الأجنبية غير العربية، إضافة إلى مجموعات كبيرة باللغة العربية. ومن الثابت تاريخياً أنه كان يسافر إلى بلاد كثيرة ووصل إلى أقصى بلاد الروم طلبا للكتب سواء فى مهام رسمية أو غير رسمية.

ورغم أننا لا نملك أرقاماً دقيقة عند هذه المكتبة إلا أننا نتوقع أن تكون كبيرة، وأن كثيرا منها كان يدور حول الطب والفلسفة اليونانية، حيث كان من أبرز المترجمين فيهما فى زمن المأمون وبعده.

ومن المعروف أن حنين بن إسحق هو طبيب نصرانى وشماس نسطورى من قبيلة عباد العربية ولد فى الحيرة على تخوم العراق (٨٠٨ - ٨٧٣م). درس

الطب فى بغداد وتضلع باليونانية. وقد عينه الخليفة المأمون على قسم الترجمة فى بيت الحكمة. ترجم كثيرا من الكتب اليونانية من بينها كتب لأفلاطون وأرسطو وديسقوريدوس وجالينوس، كما ألف عدداً من الكتب من بينها «عشر مقالات فى العين»؛ «المدخل فى الطب».

ولهذا لابد وأن تكون مكتبة حنين بن إسحق على قدر هذه المكانة العلمية والرسمية.

هـ - مكتبة مبشر بن فاتك

يذكر ابن أبى أصيبعة أن الأمير مبشر بن فاتك كانت له همة عالية فى تحصيل العلوم وكان محبا للعلم وأهله وكان دؤوبا فى جمع الكتب. كما كانت له من الإمكانيات المالية والسلطة ما يساعده على تكوين مكتبة عظيمة الشأن كان يقضى معظم وقته فيها ولا يفارقها «وليس له دأب إلا المطالعة والكتابة؛ ويرى أن ذلك أهم ما عنده». ويحكى إبن أبى أصيبعة أن زوجة ميشر بن فاتك كانت كبيرة القدر، من أرباب الدولة وكان ينشغل عنها كثيرا بكتبه فلما مات نهضت هى وجواريها إلى المكتبة وجلعت ترمى بالكتب فى بركة ماء كانت بالمنزل ثم رفعت الكتب من البركة بعد ذلك وقد غرق قسم كبير منها.

لقد كان الأمير مبشر بن فاتك من أعيان مصر وأفاضل علمائها، وقد برز فى علوم الهيئة والعلوم الرياضية والحكمة واشتغل أيضا بصناعة الطب وكان صديقاً لعلى بن رضوان.

و - مكتبة عماد الدين الأصفهانى

هو عماد الدين الكاتب أبو عبد الله محمد الأصفهانى أو الأصبهانى (١١٢٥ - ١٢٠٠م) مؤرخ من أكابر الكتاب ولد فى أصفهان وعاش فى دمشق وتوفى بها. تعلم فى بغداد وعمل فى خدمة صلاح الدين الأيوبى وارتحل معه إلى مصر. ولما سقطت الدولة الفاطمية على يد الأيوبيين وأعلن عن بيع كتب الفاطميين، وكان ذلك لمدة يومين كل أسبوع، كان لعماد الدين الأصفهانى

نصيب كبير من هذه الكتب إشتراها بثمن بخس، بل وأكثر من هذا عندما علم صلاح الدين بذلك أعفاه من دفع ذلك الثمن ثم وهب له أيضا ما إختاره من كتب خزانة القصر. وقد خرجت له من القصر بحمالٍ. وقد كانت الكتب فى القصر «مرتبة البيوت؛ مقسمة الرفوف؛ مفهرسة» ولكن بهاء الدين قراقوش متولى القصر والمشرف على بيع الكتب أخرجها من القصر فاختلطت وبيعت بأبخس ثمن.

ومن الكتب التى ألفها عماد الدين الأصفهانى «الفتح القسى فى الفتح القدسى»؛ «خريدة القصر»؛ «ديوان رسائل»؛ «ديوان شعر»؛ «البرق الشامى» وهذا الأخير فى أخبار صلاح الدين وحروبه.

ز - مكتبة سفيان الثورى

كان أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن رابغ الثورى (ت ١٦١هـ / ٧٧٨م) محدثا من الأئمة المجتهدين. وقد ولد بالكوفة وهو من قبيلة عربية مضرية الأصل، وتوفى فى البصرة. وقد سمع الحديث على أبى إسحق السبيعى الكوفى والأعمش. وقد إشتغل بالفقه والحديث وقد أثار إجتهاده فى الفقة جدلاً كبيرا فى حينه. وكان الجنيد عميد المتصوفة على مذهبه. له مؤلفات عديدة من بينها: الجامع الكبير؛ الجامع الصغير؛ الفرائض.

وقد كوّن الثورى مكتبة شخصية عظيمة القدر فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ المكتبات الإسلامية. وكان الخليفة المهدى قد كتب له عهداً على قضاء الكوفة على ألا ينازعه فى الحكم، فأخذ العهد وخرج فرمى به فى نهر دجلة وإختفى بالبصرة وظل مستتراً بها عن المهدى حتى موته. وقد جاء فى وفيات الأعيان أن أصحاب الثورى كانوا يأتونه فى بيت يحيى بن سعيد القطان وهو مكان إختفائه بالبصرة فيطلب منهم أن يأتوه بكتبه. وكان سفيان قد طرح كتبه أى دفنها خوفاً عليها فلما أمن أرسل إلى أبى الأسود الحارثى وإلى يزيد بن ثوبة المرهبى لإحضارها فأخرجا تسع قمطرات كل واحد منها بارتفاع الرجل إلى

صدره. وقد عقب إبن الجوزى على دفن سفيان لكتبه قائلاً: إن من دفن كتبه لسبب مشروع كأن يكون فيها أشياء مدخولة لم يستطع تمييزها أو لم يشأ نشرها فلا بأس به ومثل ذلك فعل سفيان الثورى وبعض الأكابر. وقد أوحى بعد ذلك إلى عمار بن سيف فى كتبه فمحاها وأحرقها.

ح - مكتبة يعقوب بن كلس

كان يعقوب بن كلس وزيرا للعزيز بالله الفاطمى. وكان جماعة للكتب يبذل فيها كل غالٍ ونفيس وكان محبا للعلوم يجمع حوله العلماء والأدباء. وقد كون مكتبة ضخمة فى داره أوجد بها منسخاً يجتمع فيه نساخون مهرة بعضهم ينسخ له القرآن، وبعضهم ينسخ كتب الحديث والفقه وبعضهم يكتب كتب الأدب واللغة وبعضهم كتب الطب وبعضهم يعارضون ويشكلون المصاحف وينقطونها فيما يقص علينا إبن خلكان فى وفيات الأعيان.

ط - مكتبة أسامة بن منقذ

وهو أبو الفوارس مرهف أسامة بن مرشد بن منقذ (١١٠٥ - ١١٨٨م)، أمير من بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر شمالى حماة، ولد فى شيزر، وتوفى فى دمشق. أديب ومؤرخ من فرسان العرب، إشتهر بمعاركه مع الصليبيين. من مؤلفاته «كتاب الاعتبار»؛ «البديع»؛ «لباب الآداب».

يقول ياقوت الرومى أنه لقيه فى القاهرة ووصفه بأنه شيخ ظريف واسع الخلق شائع الكرم جماعة للكتب، ويقول: «وحضرت داره وإشترى منى كتاباً وحدثنى أن عنده من الكتب مالا يعلم مقداره. إلا أنه ذكر لى أنه باع منها أربعة آلاف مجلد فى نكبة لحقته فلم يؤثر فيها».

ى - مكتبة موفق الدين بن المطران

هو أبو النصر موفق الدين بن المطران (ت ١١٩١م). طبيب وعالم دمشقى مسيحى. أسلم فى أيام صلاح الدين الأيوبى. ترجم له ابن أبى أصيبعة

وإعتمد عليه في بعض كتبه. دكر له «بستان الأطباء وروضة الألباء». وقد أشار إبن أبي أصيبعة على وجه الخصوص إلى مكتبته النفيسة، حتى أنه مات وفي خزانته من الكتب الطبية ما يناهز عشرة آلاف مجلد بخلاف ما إستنسخه، حيث كانت له عناية بالغة في إستنساخ الكتب وتحريرها. وكان في خدمته ثلاثة نسَّاخ يكتبون له أبداً ولهم منه الجامكية والجراية وكان من بينهم جمال الدين المعروف بابن الجمَّالة وكان يكتب الخط المنسوب.

* * *

ولم يشذ الأندلس المسلم عن الشرق المسلم في تكوين المكتبات الشخصية والإعتناء بها، بل ربما تفوق في ذلك. فقد كان علماء الأندلس يرحلون إلى المشرق ويحضرون معهم كتب المشارقة وعلومهم. فمما يذكر عن سلمة بن سعيد أنه ساق من المشرق ثمانية عشر حملا مشدودة من كتب وإتخذ مصر موئلاً وإضطرب في المشرق سنين كثيرة جداً يجمع من الآفاق كتب العلم فكلما إجتمع من ذلك مقدار صالح نهض به إلى مصر ثم نزح بالجميع إلى الأندلس وكانت في كل فن من العلم ولم يتم له ذلك إلا بمال كثير حمله إلى المشرق. وتوفي سلمة بن سعيد سنة ٤٠٦هـ.

كذلك كان القاضي أبو المطرف، عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن أصبغ من هواة جمع الكتب وتكوين المكتبات الشخصية وقد كان حسن الخط جيد الضبط، جمع من الكتب في أنواع العلم مالم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس وكان له ستة وراقين ينسخون له بصفة دائمة وقد رتب لهم راتباً محدداً. وكان إذا علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه لشرائه منه وبالغ في ثمنه فإن قدر على إبتياعه وإلا انتسخه ورده إليه. ويذكر إبن بشكوال في الصلة أن أهل قرطبة إجتمعوا بعد وفاته لبيع كتبه لمدة عام كامل في مسجده في فتنة الغلاء. وأنه كانت نتيجة البيع أربعين ألف دينار قاسمية. وقد أشرنا من قبل إلى ضنه بكتبه على الناس وعدم إعارتهم إياها وإن إضطر إلى ذلك نسخ

لهم نسخاً فقط أعطاها لهم بدون مقابل. وقد توفى أبو المطرف سنة ٤٠٢هـ.

ومن المكتبات الشخصية الشهيرة بالأندلس كذلك مكتبة إبن حزم (على بن أحمد ٩٩٤ - ١٠٦٣م) الفقيه والشاعر والفيلسوف والمتكلم الأندلسى. وقد ولد فى قرطبة من أصل مسيحى. إشترك فى حرب غرناطة وصار وزيرا للمستظهر سنة ١٠٢٣م. وبعد مقتل المستظهر، إعتزل السياسة وإنصرف إلى التأليف. له «طوق الحمامة» الذى تأثر فيه بأفلاطون و«الفصل فى الملل والأهواء والنحل» الذى يعتبر أول دراسة مقارنة فى الأديان. وقد كون مكتبة شخصية كبرى ولكنها أحرقت أو أحرق بعضها بأمر ملك أشبيلية المعتضد بن عباد.

ولم يقتصر أمر تكوين المكتبات الشخصية على الرجال بل وجدت نسوة عالمات كانت لهن مكتبات شخصية كبيرة من بينهن عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم وكانت قرطبية لم يكن فى الأندلس من يعدلها فهما وعلماً وأدباً وشعراً وفصاحة وعفة وجزالة وحصافة وكانت تمدح الملوك فى زمانها وتخاطبهم فيما يعرض لها من حاجتها فتبلغ ببيانها ما لا يبلغه كثير من أدباء وقتها ولا ترد شفاعتها. وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب وتعنى بالعلم وكانت لها خزانة علم كبيرة وحسنة ولها غنى وثروة تعينها على المروءة. وكانت وفاتها سنة ٤٠٠هـ.

ويبدو أن بعض المسلمين كانوا يقلدون اليونانيين والرومان فى مجرد تكوين مكتبة شخصية لمجرد التباهى والفخر والتظاهر بالعلم والثقافة والإشتغال بالفكر؛ وقد حفلت المصادر العربية بحكايات من هذا القبيل، فهذا هو ابن النديم بالفهرست يحكى بعضها وهذا هو المقرى فى نفح الطيب يحكى بعضها وغيرهما. يقول المقرى نقلاً عن الحضرمى، وكان الحضرمى من العلماء العاملين المجدين فى إقتناء الكتب وتكوين المكتبات الشخصية والإفادة منها «قال الحضرمى: أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب لى بطلبه إعتناء، إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به أشد

الفرح، فجعلت أزيد فى ثمنه فيرجع إلى المنادى بالزيادة علىَّ إلى أن بلغ فوق حده. فقلت له يا هذا أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلَّغه إلى مالا يساوى؛ قال فأرانى شخصاً عليه لباس رئاسة فدنوت منه وقلت له أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حدِّه. فقال لى: لست بفقيه ولا أدرى ما فيه، ولكن أقمت خزانة كتب وإحتفلت فيها لأتجمَّل بها بين أعيان البلد،وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد إستحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه والحمد لله على ما أنعم من الرزق فهو كثير. قال الحضرمى فأخرجنى وحملنى على أن قلت له نعم لا يكون الرزق كثيرا إلا عند مثلك!! يعطى الجوز من لا أسنان له. وأنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب وأطلب الإنتفاع به يكون الرزق عندى قليلاً وتحول قلة ما بيدى بينى وبينه».

* * *

وفى ختام هذه المعالجة للمكتبات الخاصة عند المسلمين لابد من التنويه إلى حقيقة هامة تتعلق بالمكتبات الشخصية هذه؛ وهى أن بعض أصحاب تلك المكتبات كانوا يفتحونها لاستخدام القراء الآخرين ليفيدوا منها وأصبحت بمثابة مكتبة عامة؛ سواء للإطلاع الداخلى أو الإستنساخ أو الإستعارة الخارجية. وربما جاء من هذا المنطلق فكرة وقف مجموعات الكتب الخاصة على طائفة معينة من القراء والمستفيدين فتذكر المصادر على سبيل المثال أن عبد الحكم الجمحى كانت عنده فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى مكتبة شخصية فيها دفاتر من كل علم فتحها لإنتفاع الآخرين وكانت أشبه بنادٍ أدبى ثقافى إجتماعى تذكرنا بمجالس العلم على نحو ما يذكر كل من محمد كرد على ومحمد ماهر حمادة ويحيى ساعاتى فى أبحاثهم بهذا الخصوص. كذلك أيضا كان لخالد بن يزيد مكتبة خاصة فى القرن الأول الهجرى فتحها لاستخدام الآخرين؛ ويذكر ابن السنبادى فى خصوص هذه المكتبة أنه شاهد فى مكتبة الخلفاء الفاطميين بالقاهرة

فى القرن الخامس الهجرى (نحو ١٠٤٤م) كرة أرضية مصنوعة من النحاس صنع بطليموس الحكيم الفلكى. وقد نقش عليها أنها كانت من ممتلكات خالد بن يزيد بن معاوية. وهذا هو على بن طاهر السلمى الذى كوّن مكتبة شخصية أوقفها على الجامع. وسوف نعود إلى قضية وقف الكتب بشئ من التفصيل فيما بعد.

ولابد أن نتوقف هنا أمام مكتبة على بن يحيى المنجم الذى كان من عشاق الكتب وخاصة كتب الحكمة. وقد أسس بكركر من نواحى قفص قرب بغداد حيث كان يمتلك ضيعة نفيسة وقصراً فخماً فيما يقول ياقوت الرومى فى معجم الأدباء، أسس خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة ويقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون فيها صنوف العلم، والكتب مبذولة فى ذلك لهم، والضيافة مشتملة عليهم. ويستمر ياقوت فى الحديث عن هذه المكتبة الخاصة التى فتحت على مصراعيها لكل من يشاء، فيقول «والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى [صاحب المكتبة]، فقد قدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شئ من النجوم فوصفت له الخزانة فمضى فرآها فهاله أمرها فأقام بها وأضرب عن الحج، وتعلم فيها علم النجوم وأغرق فيه حتى الحد وكان ذلك آخر عهده بالحج والدين والإسلام أيضاً».

كذلك لابد وأن نتوقف أمام المكتبة الخاصة التى كونها جعفر بن محمد الموصلى الشافعى المعروف بابن حمدان فى بيته بالموصل وقد حلا لياقوت الرومى أن يطلق عليها إسم «دار علم» إذ فتحها الرجل لكل طالب علم، لايمنع أحدا من دخولها، إذا جاءها غريب يطلب الأدب. وإن كان معسراً أعطاه ورقاً و وَرِقاً. وكانت تفتح أبوابها كل يوم. وكان إبن حمدان نفسه يجلس فيها ويجتمع إليه الناس يملى عليهم مصنفاته من الشعر والحكايات والنوادر فيما يذكر ياقوت.

* * *

هذه مجرد عينات فقط من المكتبات الشخصية التى إنتشرت كظاهرة بين المسلمين منذ القرن الأول الهجرى وحتى الآن، مما يكشف عن حب حقيقى للعلم وأوعيته ورغبة فى إقتنائها والإستمتاع بما فيها. وكانت تلك المكتبات هى بلا شك أول الأنواع ظهوراً. وقد خرجت من بطنها أنواع أخرى من المكتبات مثل المكتبات العامة والمكتبات المدرسية والأكاديمية وربما أيضا مكتبات المقابر. والحقيقة أن كتب التراجم مثل وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى والوافى بالوفيات لخليل بن أيبك الصفدى ومعجم الأدباء لياقوت الرومى ومعجم الأطباء لابن أبى أصيبعة وتراجم القرون المتعاقبة، كلها تعج بذكر المكتبات الشخصية لأنها مفخرة لأصحابها وعلامة ضرورية من علامات الترجمة لهم والكتابة عنهم. ولعل خير ما يعبر عن تلك الظاهرة الإسلامية الفذة القصيدة التى ألقاها الشاعر العدل موفق الدين القاسم بن أبى المدن فى مدح مكتبة الوزير مؤيد الدين العلقمى وزير المستعصم آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٤٤هـ قبل سقوط بغداد تحت أيدى التتار وحرق وإغراق ما بها من مكتبات، وقد بلغت هذه المكتبة نحواً من عشرة آلاف مجلدة من الأمهات. يقول ذلك الشاعر:

رأيت الخزانة قد زينت	بكتب لها المنظر الهائل
عقول الشيوخ فيها ألفت	ومحصوله ذاك والحاصل
ولما مثلت بها قائما	وأعجبنى الفضل والفاضل
تمثلت أسماءها منكم	على النقل ما كذب الناقل
بها مجمع البحر لكنه	من الجود ليس له ساحل
ومنها التهذيب من فضلكم	ومغن ولكنّه نائل
ومنها الوسيط بمآثر	شجية وفيها النهاية والكامل
وإن كان أعوزها شامل	فقد زانها جودك الشامل
وإن كان قد فاتها فائت	أبو الفضل فى علمه كامل

❁ ❁ ❁

الكراس الثانى عشر

مكتبات الدولة عند المسلمين

حرص الحكام المسلمون سواء فى ظل الوحدة الإسلامية الشاملة أو بعد تفتت الإمبراطورية الإسلامية إلى دول ودويلات، على إنشاء مكتبات ذات طابع قومى أو وطنى بمفهوم أيامنا الآن. ولم يكن التفكك السياسى معوقا لإنشاء هذا النوع من المكتبات بل على العكس أدى إلى إنشاء المزيد منها لحرص كل خليفة أو ملك أو أمير على الظهور بمظهر العالم الحريص على دفع العلم والحدب على أهله وكان كل منهم يجمع العلماء والأدباء فى بلاطة بل ويحاول إجتذابهم من البلاطات الأخرى.

ومن الثابت تاريخياً أن المسلمين قد عرفوا مكتبة الإسكندرية القديمة وتأثروا بها سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، كما عرفوا المكتبات الفارسية والمكتبات البيزنطية ولذلك حاول الخلفاء المسلمون بعد أن إستقرت الدولة الإسلامية وترامت أطرافها، إنشاء مكتبات شاملة جامعة تكون على غرار مكتبة الإسكندرية القديمة، ليست مجرد مكان لاختزان وإسترجاع الكتب ولكن أيضا تكون بمثابة الأكاديمية التى يدور فيها البحث والدرس والنقل وإجراء التجارب. وسوف نحاول فى هذا المبحث إلقاء الضوء على هذا النوع من المكتبات التى إنتشرت كما قلنا فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية الموحدة والمفككة على السواء.

بيت الحكمة فى بغداد

الحقيقة أن بدايات هذه المكتبة غير معروفة لنا على وجه الدقة واليقين ذلك أن مصطلح بيت الحكمة لم يكن إسم علم بقدر ما كان إسم فئة يطلق على المكتبات الكبيرة عموماً فى كل زمان وكل مكان وقد إستخدمه العرب والمسلمون بالنسبة للمكتبات المصرية القديمة ومكتبات الفرس ومكتبات اليونان والرومان

والمكتبات الإسلامية على وجه الإطلاق. وكثيراً ما يتردد إسم بيت الحكمة فى المصادر العربية الأولى بغير تحديد فنعتقد أنه ينصرف إلى بيت الحكمة فى بغداد ونفاجأ بأنه يبعد عن زمن تلك المكتبة أو عن مكانها. ويشير الدكتور يوسف العش فى بحثه عن «دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر فى العصر الوسيط» إلى أن أول بيت من بيوت الحكمة عرفناه كان لمعاوية الأول (إبن سفيان) إستناداً إلى المناظرة التى جرت بين سعيد الدارمى (٢٠٠هـ - ٢٨٠هـ = ٨١٥م - ٨٩٣م) وبين بشر المريسى (ت٢١٨هـ = ٨٣٣م) حيث يقول الدارمى فى هذه المناظرة «وادعى المعارض أيضا أنه سمع أبا الصلت يذكر أنه كان لمعاوية بن أبى سفيان بيت يسمى بيت الحكمة، فكلما وجد حديثاً ألقاه فيه، ثم رُويت بعد». ويؤكد رواية الدارمى عن بيت الحكمة الذى أسسه معاوية بن أبى سفيان، رواية للمسعودى فى مروج الذهب يقول فيها عن معاوية يصف ما يقوم به من أعمال فى يومه: «ينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد ويحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها» وقد سبق أن أشرت إلى أن معاوية كان أول من طلب تدوين التواريخ والسير ومن ثم تكون عملية إنشاء تلك المكتبة صحيحة، لأنها ثمرة مؤكدة لجمع الكتب وتنظيمها ونسخها.

ويبدو أن هذه المكتبة قد آلت مع القصر إلى خالد بن يزيد بن معاوية، وهى التى أشرنا إليها منذ قليل وقد نمآها خالد وحولها إلى مكان للدرس والبحث بعد أن خاب أمله فى الخلافة. وتذكر بعض المصادر أن خالداً قد باع القصر والمكتبة إلى عبد الملك بن مروان فى نحو سنة ٦٥هـ (٦٨٤م).

ويختفى إسم بيت الحكمة بعد ذلك؛ وربما أطلق على المكتبة الرسمية إسم آخر مثل خزانة الكتب، أو بيت الكتب، أو دار الكتب. ذلك أنه فى عهد الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ = ٧١٤م) نصادف نصوصاً عن وجود مكتبة رسمية مكتملة الأركان والأداء فكان لها خازن (أمين مكتبة) وناسخ ماهر. وقد لقب الخازن فى هذه المكتبة باسم (سعد المصاحفى) وفى مواضع أخرى (سعد

صاحب المصاحف». يقول إبن النديم عن سعد هذا «أول من كتب المصاحب في الصدر الأول ويوصف بحسن الخط خالد بن أبي الهياج، رأيت مصحفاً بخطه؛ وكان سعد نصّبه لكتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك» ويجب أن نفهم مصطلح المصاحف - فيما يذهب الدكتور يوسف العش - على أنه يعنى عموماً الكتب المجلدة على إطلاقها إلى جانب المعنى الخاص وهو النص الكامل للقرآن الكريم.

ويورد إبن عبد البر في «القصد والأمم» نصا يؤكد حقيقة هذه المكتبة ويؤكد المعنى العام للمصاحف حيث يقول «من جملة ما وجد في الأندلس إثنان وعشرون مصحفاً محلاة كلها من التوراة ومصحف آخر محلى بفضة فيه منافع الأحجار والأشجار والدواب وطلسمات عجيبة، فحمل ذلك إلى الوليد. وكان في المصاحف مصحف فيه عمل الصنعة وأصباغ اليواقيت».

وهكذا فإن مكتبة الدولة الأموية أيا كانت تسميتها كانت تنتقل من خليفة إلى خليفة وكانت تضم تقريباً كل ما نشر من كتب في الحديث الشريف والتاريخ والشعر والأخبار والأنساب والكيمياء والنجوم والطب وبعدد محدود من كتب الحكمة (الفلسفة اليونانية). ومن المؤكد أنه كانت هناك كتب باللغة العربية وأخرى بلغات أجنبية كالفارسية واليونانية والسريانية. وكانت هناك كتب مؤلفة وأخرى مترجمة حسب مقتضيات الأحوال. وكان من الطبيعي أن يعين في تلك المكتبة أمناء قيمُون عليها ونسّاخ ينسخون لها. وربما كان هناك نقلة يعملون فيها.

والسؤال الذي يطرح نفسه وبشدّة في هذا الصدد هو هل آلت مكتبة الدولة الأموية بعد سقوطها في أيدي العباسيين (١٣٢هـ = ٧٤٩م) إلى الدولة العباسية؟ أم أن العباسيين قد أنشأوا بيت الحكمة ببغداد عملاً مستقلاً تم بمعزل عن المكتبة الأموية؟.

الحقيقة أننى أميل إلى أن العباسيين قد إستولوا فيما إستولوا على مكتبة الدولة الأموية وكانت هذه المكتبة هى نواة بيت الحكمة العباسى الذى جاء إمتداداً لها، وإن كان قد حدث فيه توسع عظيم واكب حركة التدوين والتأليف والنقل التى جاءت بها الدولة العباسية، تلك الحركة التى بدأت مع الخليفة العباسى الثانى المنصور بعد أن إستتب الأمر للعباسيين، فمن الثابت أنه كانت للمنصور مكتبة يترجم لها خصيصاً ويؤلف لها خصيصاً فقد ترجمت له الكتب من اللغات اليونانية والرومية، والفهلوية والفارسية والسريانية، كما ألفً لابنه بناء على طلبه، محمد بن إسحق (ت ١٥١هـ = ٧٦٨م) كتابا فى التاريخ منذ آدم حتى عصره، كما ألف له عبد الجبار بن عدى كتاباً فى آداب الحروب.

ويرد ذكر المكتبة أيضا فى زمن المهدى بن المنصور الذى عين بعض المنجمين (رجال الفلك) فى المكتبة على رأسهم توفيل بن توما الرهاوى الذى كان رئيساً لبيت الحكمة فى نفس الوقت الذى رأس فيه المنجمين. وكان المهدى مثل أبيه المنصور يشجع الترجمة من اللغات المختلفة إلى العربية كما كان يشجع التأليف بالعربية فى موضوعات مختلفة؛ حتى الموضوعات الدقيقة مثل تربية الطيور.

ومن الطبيعى أن تنتهى مكتبة المهدى إلى هارون الرشيد الذى يميل المؤرخون إلى أنه مؤسس «بيت الحكمة» ويبدو فى نظرنا أنه هو الذى حول المكتبة من مكتبة قصر إلى مكتبة للدولة وجعلها أكاديمية متعددة الأغراض، وتوسعت فى عهده وعهد إبنه المأمون توسعاً عظيماً جعل شهرتها تطبق الآفاق؛ وهناك من الشواهد ما يؤكد أن هذه المكتبة قد إستمرت فى الوجود حتى منتصف القرن السابع الهجرى حين لقيت مصيرها المأساوى على يد التتار حرقاً وإغراقا فى نهر دجلة.

ومن المشاكل التى تصادفنا عند التأريخ لهذه المكتبة أننا لا نملك صورة كاملة عنها من حيث الإدارة والهيكل التنظيمى والمجموعات والتزويد والخدمات، لأن المعلومات حول هذه المحاور تأتى عرضا وبشكل إعتباطى غير مقصود وهى

مبعثرة فى عدد ضخم من المصادر ولا ينتظمها سياق وعلينا أن نؤلف فيما بينها لنخرج بصورة أقرب ما تكون إلى حقيقة ما كان عليه واقع تلك المؤسسة فى زمن إزدهارها على الأقل أيام هارون الرشيد وإبنه المأمون.

فمن حيث التنظيم الإدارى للمكتبة، نريد التأكيد على أنها لم تكن - على الأقل فى ذلك الوقت - مجرد مكتبة بل كانت أكاديمية تحتذى مكتبة الإسكندرية القديمة التى لا أشك أنها تأثرت بها. وبالتالى فإن هذه الأكاديمية لابد وأنها كانت تنقسم إلى عدة أقسام أو إدارات هى:

أ - قسم المكتبة.

ب - قسم النقل (الترجمة).

ج - قسم البحث والتأليف.

د - قسم النسخ والتجليد.

وربما كان قسم المكتبة هو المنوط به إقتناء الكتب من كل حدب وصوب وتنظيمها على الرفوف (خزانات الكتب أو بيوت الكتب) ومناولتها لمن يطلبها. وكان قسم النقل منوطاً به ترجمة الكتب من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية وربما أحيانا من العربية إلى لغات أخرى. وكان يعين فى هذا القسم نقلة يختلفون من الناحية العملية والإدارية عن الخزنة الذين يعينون فى قسم المكتبة. أما قسم البحث والتأليف فقد كان فيه باحثون ومؤلفون وربما كان فيه المنجمون الفلكيون الذين يستعين بهم الخليفة فى إستطلاع الظروف المواتية للحرب والقيام بالمشروعات. وعلماء الحيل الذين يعدون آلات هندسية وما إلى ذلك. وقسم النسخ والتجليد كان يناط به بطبيعة الحال إستنساخ الكتب وتجليدها وربما ترميم ما يفسد مما هو موجود بالفعل. وربما كان فيه إلى جانب النساخ والمجلدين المصورون الذى يرسمون الإيضاحيات التى كانت عملاً منفصلاً عن النسخ والتجليد. وقد يكون للنسخ قسم مستقل قائم بذاته وللتجليد قسم منفصل كذلك؛ فالمعلومات المتاحة لا تعطى شيئاً قاطعاً فى هذه الجزئية.

أما عن إدارة بيت الحكمة فقد تعاقب عليه عدد من المديرين العلماء وقد رأينا منذ العصر الأموى كان يطلق على المدير لقب (صاحب) فكان مدير بيت الحكمة يسمى صاحب بيت الحكمة وهو لقب عام كان يطلق على رئيس أو مدير أية مؤسسة مثل «صاحب البيمارستان» و«صاحب بيت الضرب» و«صاحب بيت المال» و«صاحب الديوان» و«صاحب الأرصاد» وهكذا. وربما كان يطلق على الموظف العادى فى المكتبة ممن ليس مديراً إسم (الخازن) ونادراً ما كان لقب خازن مرادفا للقب صاحب، لأنه أقل منه فى الدرجة.

وهناك إحساس عام مما نخرج به من نتف متناثرة من المصادر بأن أول مدير (صاحب) لبيت الحكمة هو سهل بن هارون الفارسى. يذكر عنه القفطى أنه فارسى الأصل مذكور مشهور من أئمة المتكلمين... كان فى زمن هارون الرشيد وولاه القيام بخزانة كتب الحكمة وكان ينقل من الفارسى إلى العربى ما يجده من الحكمة الفارسية ومعوله فى علمه وكتبه على كتب الفرس. ومن الواضح أن القفطى قد نقل هذا النص عن الفهرست لابن النديم نقلاً حرفياً. وقد أستقر هذا الرجل عندما جاء من بلاد فارس فى البصرة حيث تعرف على وزير الرشيد (يحيى بن خالد البرمكى) فلزمه أمينا لسره ثم خلفه وصار صاحب دواوين الدولة، وقد أبعد بعد ذلك. وفى زمن المأمون اكتسب عطف الفضل بن سهل وزير الخليفة ولم يعين مباشرة صاحبا لبيت الحكمة ولكن بعد حين من تولى المأمون الخلافة وإنتقاله إلى بغداد من خوارزم.

وكان يعاون سهل بن هارون فى هذا المنصب شخص آخر هو سعيد بن هارون الملقب بابن هريم. ويقال أنه كان فصيحاً بليغا مترسلاً أخد عنه الجاحظ.

أما الشخص الثالث الذى ورد ذكره كمدير لبيت الحكمة فهو سلْمُ (أو سلمان) الحرانى وهو من حران. وربما يكون قد عمل صاحبا لبيت الحكمة بعد سهل بن هارون أو فى نفس الوقت معه. ويذكر الدكتور يوسف العش أنه ربما

يكون قد عمل بالمكتبة زمن هارون الرشيد؛ وربما يكون فى عداد الفريق الذى بعث به إلى بلاد الروم للبحث عن الكتب اليونانية وجلبها إلى المكتبة.

أما الإسم الرابع الذى وصلنا كمدير للمكتبة هو أحمد بن محمد. والمعلومات عنه محدودة مبعثرة، ولكنها تشير إلى إشتغاله بالحديث والرواية عنه، وروايته عن الآخرين.

ويرد إسم الحسن بن مرار الضبى المعروف بالصنويرى كمدير للمكتبة أيضاً ولكن المعلومات عنه محدودة متناثرة، لا تشكل صورة متكاملة عنه ولا عن مكانته ودوره فى المكتبة، إذن وصلتنا أسماء خمسة من المديرين هم على النحو الآتى:-

سهل بن هارون

سعيد بن هارون (ابن هريم)

سلم (سلمان) الحرانى

أحمد بن محمد

الحسن بن مرار الضبى (الصنويرى)

إلى جانب تلك الأسماء التى يعتقد أنها كانت مسئولة عن الإدارة العامة لبيت الحكمة ترد أسماء أخرى كخزنة أو مسئولين عن أقسام بالمكتبة نأتى على أهمها:

ممن عمل بالمؤسسة **يوحنا بن ماسويه** وفى رأى محمد عاطف البرقوقى وأبى الفتوح محمد التوانسى أنه هو الذى نصح هارون الرشيد بإنشاء دار كبيرة للكتب وهى تلك الدار التى إتسعت وإشتهرت فيما بعد وأصبحت تدعى دار الحكمة. وكما يذكر إبن أبى أصيبعه كان يوحنا بن ماسويه مسيحى المذهب سريانيا قلّده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد فى أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون ووضعه أميناً على الترجمة. وهذا النص صريح يؤكد وجود أقسام داخل المؤسسة منها قسم الترجمة.

كذلك كان فى عهد هارون الرشيد شخص آخر مسئولاً عن الترجمة من الفارسى هو أبو سهل الفضل بن نويخت.

من بين الأسماء التى تظهر فى هذه المؤسسة أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى فلكى المأمون و يحيى بن أبى منصور و أبناء موسى بن شاكر الثلاثة الذين كانوا يتدربون على أعمال التنجيم تحت إشراف يحيى بن منصور وقد أصبحوا بعد ذلك فلكيين عظماء، ومن المحتمل أنهم كانوا يعملون فى قسم البحث والتأليف وحيث كان هناك المرصد الفلكى ومن المشهور عن هؤلاء الثلاثة أنهم قاموا بقياس محيط الأرض فى صحراء سنجار زمن المأمون وبرهنوا له أن محيط الأرض هو (٢٤٠٠٠ ميل) وهو قريب لما كشفت عنه الدراسات الحالية. وقد سبق أن أشرت إلى أن ثلاثتهم كان يرعى حركة النقل والترجمة وقد عملوا لحسابهم بعد وفاة المأمون (وهم محمد وأحمد والحسن أبناء موسى أو أبناء شاكر). وقد قام بيت الحكمة إضافة إلى المرصد الذى كان موجودا فيه بإنشاء مرصد آخر فى الشماسية ببغداد سنة ٢١٤هـ (٨٢٩م).

ومن نص ذكره ابن النديم بالفهرست نستشف أن علّان الشعوبى كان يعمل بالمؤسسة منذ أيام هارون الرشيد حيث يقول عنه: أصله من الفرس وكان راوية عارفاً بالأنساب والمثالب والمناظرات منقطعا إلى البرامكة وينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة. ويمكن أن نستنتج أنه كان رئيسا لقسم النسخ.

أما فيما يتعلق بالمجموعات والتزويد فإنه ليس لدينا أرقام دقيقة عن حجم المجموعات التى تجمعت فى المكتبة فى قمة إزدهارها زمن المأمون على الأقل وإن كانت لدينا صورة متكاملة عن طرق التزويد. وأتصور أن المجموعات فيها لم تكن تقل عن مليونى مجلد وإن كان فيها نسخ مكررة من كثير من الأعمال. ولابد وأن يذهب ذهننا إلى أن تلك المجموعات كانت تغطى إلى جانب اللغة العربية لغات أخرى كثيرة حرص المسلمون على إقتنائها والنقل منها كاللغة الهندية والفارسية والسريانية واليونانية والمصرية القديمة المكتوبة بالقبطية. ولابد

أن تكون المجموعات قد غطت كل فروع المعرفة البشرية المعروفة فى ذلك 'لوقت والتى دقت إلى حد كبير والتى نجدها فى فهرست إبن النديم: علم الكتابة والخطوط، الديانات السماوية مع التركيز بطبيعة الحال على كتب الدين الإسلامى بكل تفاصيله، كتب اللغة، كتب الفقه، كتب العلوم البحتة والتطبيقية، كتب الفنون، كتب الآداب، كتب الجغرافيا والتاريخ والتراجم ولم تكن تكتفى بالكتب بل ضمت الآلات والأجهزة والكرات الأرضية على النحو الذى ألمحت إليه من قبل؛ كما ضمت مرصداً فلكيا.

أما عن طرق التزويد فهى كثيرة ومثيرة وتستحق منا وقفة متأنية إذ تشبه إلى حد كبير الطرق التى إتبعها البطالمة فى تزويد مكتبة الإسكندرية القديمة. ولعل أول هذه الطرق **التأليف الداخلى والخارجى** حيث كان المؤلفون يؤلفون كتبا خصيصاً لهذه المكتبة وكان هؤلاء المؤلفون يقومون بذلك داخل قسم التأليف والبحث فى المكتبة أو يقومون بذلك خارج المكتبة ثم يقدمون نتاج تأليفهم إليها. وسواء كان التأليف فى الداخل أو الخارج فإن الكتب كانت تستقر فى المكتبة وكان المؤلف يثاب على ذلك بمكافأة سخية من قبل الخليفة.

كذلك يجب أن يدخل فى عملية التزويد طريق **الترجمة** حيث كان هناك كما رأينا قسم للنقل من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، وبالتالى كانت الكتب الأجنبية تجلب إلى المكتبة وتترجم فيها كما كان بعض النقلة يترجم خارج المكتبة ويمد المكتبة بترجماته وقد أشرنا فى موضع سابق من هذا الكتاب إلى المكافآت السخية التى كان الخليفة يقدمها للمترجمين إلى حد وزن الترجمة بقيمتها ذهباً وخبث حنين بن إسحاق فى إختيار ورق سميك للترجمة عليه.

وكان من بين طرق التزويد الفذة فى ذلك الحين **الإستهداء**، حيث كان الخلفاء يبعثون بوفود إسلامية إلى الدول الأجنبية تستهديهم الكتب الموجودة لديهم ولعل أحسن وصف لهذه الطريقة هو ما جاء فى كتاب طبقات الأمم للقاضى صاعد الأندلسى وقد أشرت إليه فى مواضع سابقة عندما تحدث عن

الخليفة المأمون وما فعله فى الحركة الفكرية وبيت الحكمة يقول صاعد «لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع منهم، عبد الله المأمون بن الرشيد بن المهدى بن أبى جعفر المنصور تمم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم فى مواضعه وإستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوةنفسه الفاضلة فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط وجالينوس وإقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم فى تعلمها فنفقت سوق العلم فى زمانه وقامت دولة الحكمة فى عصره وتنافس أولو النباهة فى العلوم لما كانوا يرون من إعطائه لمنتحليها وإختصاصه لمتقلديها فكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم فينالون عنده المنازل الرفيعة والمراتب السنية، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين، وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب، فأتقن جماعة من ذوى الفنون والتعلم فى زمانه كثيرا من أجزاء الفلسفة وسنّوا لمن بعدهم منهاج الطلب ومهدوا أصول الأدب حتى كادت الدولة العباسية تضاهى الدولة الرومية فى أيام إكتمالها وزمان إجتماع شملها».

ومن بين طرق التزويد كذلك الغنم والمصادرة. حيث كان الخلفاء العباسيون الأقوياء يقومون بغزوات عسكرية إلى بلاد الروم خاصة ويعودون منها بمجموعات كبيرة من الكتب تضاف إلى بيت الحكمة. وكان هارون الرشيد يقود بنفسه هذه الغزوات كل سنة صيفا فيما عرف بصوائف هارون وكان يهتم إلى جانب التوسع وكسر شوكة الأعداء على الحدود جلب أكبر كمية ممكنة من الكتب اليونانية والرومية. وكان هارون الرشيد يحرز النصر دائماً فى تلك الصوائف ويجعل من بين شروط الصلح الحصول على الكتب الموجودة بالمدينة، ولم يكن الرومان يمانعون غالبا فى ذلك على نحو ما صادفناه فى غزوات أنقرة وعمورية وغيرهما من مدن آسيا الصغرى. وقد إتبع المأمون سياسة والده فى

توجيه الغزوات ناحية المدن التى تحوى كميات كبيرة من الكتب وذلك من أجل تنمية بيت الحكمة وتزويده بتلك الثروة العلمية التى لا تقدر بثمن.

ولعله من نافلة القول أن الشراء كان من الطرق العملية والأساسية فى تزويد بيت الحكمة سواء كان ذلك فى جانب الكتب العربية أو الكتب الأجنبية حيث كان الخلفاء يبعثون الوفود إلى أقطار الأرض الإسلامية وغيرها بحثاً وتفتيشاً عن الكتب وشرائها وكان الرشيد وإبنه المأمون يبعثون بالوفود المختلفة لشراء الكتب من بلاد الروم واليونان والهند وغيرها وكانت بين المأمون وملوك الروم فى القسطنطينية وصقلية وقبرص مراسلات يسألهم الإذن فيها بإنفاذ من يختار الكتب المطلوبة من العلوم المخزونة ببلادهم سواء مقابل الثمن أو مقابل الإهداء. وقد حصَّل من وراء ذلك مجموعات قيمة ثمينة.

ولابد كذلك من أن نتوقف أمام النسخ كطريقة سادسة فى تزويد بيت الحكمة بالكتب فقد كان النسخ يتم داخليا عن طريق قسم النسخ والتجليد، وقد رأينا أن هذا القسم كان يعمل به عدد من الناسخين لتعديد نسخ العمل الواحد، كما كان النسخ يتم خارجيا لحساب المكتبة حيث كان الخلفاء يبعثون بأشخاص ممن يعرفون لغات البلاد التى يذهبون إليها حتى ينسخوا الكتب التى لا يتمكنون من شرائها أو إستهدائها وكان يوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحاق ممن قام بهذه المهمة.

وهكذا تجمعت لهذه المكتبة طرق مختلفة متعددة لتصل بمجموعاتها إلى مالم تبلغه مكتبة قبلها عدداً ونوعاً.

ومن المؤكد أن مؤسسة كهذه ينفق عليها بهذه السعة ويهتم بها كل هذا الإهتمام كان لابد وأن ينتظر منها أن تقدم خدمات جليلة عظيمة القدر. ومن بين الخدمات التى كانت تقدمها خدمات مجالس العلم حيث كان يجتمع فيها عدد كبير أو لنقل صفوة العلماء والباحثين قل أن يجتمعوا فى مكان آخر ولم يكن الإجتماع بغرض السمر وإنما الغرض كان مناقشة مسائل العلم والتجريب

أيضاً. وكان الرشيد والمأمون يشاركان مشاركة فعالة فى مجالس العلم هذه ولم يكونا مجرد مستمعين فقط. فقد كان كلاهما مثقفين عالمين نلمس ذلك بوضوح من ثنايا كتاب الفهرست لابن النديم وعشرات من الكتب الأخرى.

لقد كان المأمون على وجه الخصوص ذا نظر فلسفى ومعتنقا لمذهب الإعتزال الذى يمجد التفكير الحر المستقل، وكان يجد لذة عظيمة فى البحث والدرس والمناظرة والجدل العلمى والتأليف والنقل، وكان يجمع العلماء حوله ويجعلهم يتناظرون بين يديه. وبعد أن تنتهى المناظرات التى يشترك فيها المأمون كان يفيض عليهم بالمكافآت والهبات. قال عنه ابن الطقطقى إن له إختراعات فى مملكته فقد محض عن علوم الحكمة وحصل كتبها وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها، وصل إقليدس ونظر فى علوم الأوائل وتكلم فى الطب وقرب أهل الحكمة.

لقد ساهمت مكتبة بيت الحكمة مساهمة مباشرة فى تطوير العلوم سواء علوم الطب أو الكيمياء أو الفلك وكانت التجارب العلمية والبحوث العملية تجرى هناك على قدم وساق.

ولعله من نافلة القول أن نذكر بأنه كانت هناك خدمات الإطلاع الداخلى والإعارة وتسهيلات الاستنساخ مثل تقديم القرطاسية والأقلام والأحبار لمن يريد بالمجان، يضاف إلى ذلك خدمات الإقامة والضيافة للعلماء والباحثين والقراء الذين يحتاجون إلى الإقامة لفترة وخاصة هؤلاء العلماء الذين يأتون من بعيد للإطلاع والإستنساخ.

ولقد كان مصير هذه المكتبة مفزعاً ثم مأساوياً بعد ذلك، إذ أنه بمجرد إنقضاء عهد المأمون وتولى المعتصم الخلافة أهمل بيت الحكمة فى بغداد لأن المعتصم نقل مقر الخلافة منها إلى سامرا (سر من رأى) وتحول إلى مجرد مكتبة عادية توقفت عن النمو والإزدهار، ولإهمالها وعدم أهميتها أصبح يشار إليها باسم خزانة كتب المأمون حتى نهاية القرن الرابع الهجرى وقد أشار إليها إبن

النديم فى الفهرست حيث كانت ما تزال قائمة وربما تكون قد أخذت فى التجمد وضمت إلى مكتبات القصور، وربما يكون السلاجقة قد نالوا منها بعد قضائهم على المعتزلة والفكر المعتزلى الذى إعتنقه المأمون. ولكن يغلب على الرأى أنها إستمرت حتى منتصف القرن السابع الهجرى حين قضى التتار عليها وعلى غيرها من المكتبات فى شرقى العالم الإسلامى ومن ثم أطفئت الشعلة التى ظلت مشتعلة خمسة قرون كاملة وأسدل الستار على واحدة من أعظم مكتبات العصور الوسطى. ويؤكد القلقشندى على هذا المعنى الأخير فى موسوعته العظيمة صبح الأعشى فى صناعة الانشاحيث يقول عن هذه المكتبة «فقد كان للخلفاء والملوك فى القديم مزيد إهتمام وعظيم إعتناء حتى حصلوا منها على العدد الضخم وحصلوا على الخزائن الجليلة ويقال ان أعظم خزائن الكتب فى الإسلام ثلاث خزائن: إحداها خزانة الخلفاء العباسيين؛ فكان فيها من الكتب مالا يحصى كثرة ولا يقوم عليه نفاسة ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر بغداد وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب وذهبت معالمها وأعفيت آثارها».

دار العلم (الحكمة) بالقاهرة

قامت دولة الفاطميين فى تونس أول ما قامت تم توسعت شرقاً وغرباً حتى إستطاع الخليفة المعز لدين الله الفاطمى دخول مصر وضمها إلى الدولة الفاطمية سنة ٣٥٧هـ وأسس القاهرة والجامع الأزهر؛ وجعل القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية وإستمر الحكم الفاطمى حتى قضى عليه صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٧هـ وبذلك تكون الدولة الفاطمية قد إستمرت فى مصر نحو قرنين من الزمان (٢١٠ سنة). وقد دخل الفاطميون فى منافسة حادة مع الدولة العباسية فى بغداد لجعل القاهرة مركزا سياسياً وثقافيا وحضارياً ينافس بغداد وقرطبة على السواء. ومن ثم حاولوا إجتذاب العلماء والأدباء من كل مكان وأقاموا مراكز العلم والدرس والبحث وأغدقوا على العلماء والشعراء، العطايا والهبات. وبعد نحو أربعين عاماً من قيام الخلافة الفاطمية فى مصر خطط الحاكم بأمر الله

لإنشاء مكتبة عظيمة ينافس بها بيت الحكمة فى بغداد إبَّان مجده وعزِّه. وفعلاً تذكر المصادر أن هذه المكتبة قد افتتحت سنة ٣٩٥هـ = ١٠٠٥م. ولكن للأسف إختلفت المصادر إختلافاً شديداً حول الهدف الذى أنشئت من أجله دار العلم أو دار الحكمة هذه فقد قيل إنها أنشئت لنشر المذهب الإسماعيلى وقيل بل المذهب الشيعى ومهما يكن من أمر فقد قامت هذه المؤسسة وإفتتحت رسميا فى يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ (الخامس من مارس ١٠٠٥م) على الأرجح. وقد تقلبت بها الأحوال حتى صفَّاها صلاح الدين الأيوبى عندما أسقط الخلافة الفاطمية وأقام الدولة الأيوبية. ويعتبر المقريزى فى خططه والقلقشندى فى صبح الأعشى أهم مصدرين عن هذه المؤسسة.

ومن حيث مبنى هذه المكتبة فقد أقيم لها مبنى خاص كبير مجاور لقصر الخلافة الغربى يتم الدخول إليه من باب التبَّانين. والدار التى إحتلتها المكتبة تعرف بدار مختار الصقلبى خلف خان مسرور. وفى زمن المقريزى (القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى) كان هذا المكان يسمى قبو الخرنشف. وصار فى هذا الموضع بيت آل الخضيرى بدرب الخضيرى المقابل لمسجد الأقمر. وفى سنة ١٢٤٠هـ = (١٨٢٨م) هدم هذا البيت سليمان أغا السلحدار، وأضافه إلى أرض له بنى عليها بيتا كبيرا لسكناه.

لقد أعطى الحاكم بأمر الله جل إهتمامه لبناء هذه الدار وكان له فيها مكان خاص. وقد فرشت المكتبة كأحسن ما يكون الفرش وكسيت أرضيتها بالبسط والطنافس، كما علقت الستائر على جميع الأبواب والممرات والنوافذ. وقد زينت الجدران بخرائط قماشية عليها أقاليم الأرض.

وعين للعمل فى هذه المكتبة عشرات من القوَّام والخزنة والمناولين والخدم والفراشين ولسرعة تزويد المكتبة بالكتب نقل إليها الحاكم بأمر الله مجموعات كبيرة من مكتبة القصر الخاصة بالخليفة مما جعلها فى نظر المصادر المعاصرة التى تحدثت عنها من أعظم الخزائن المشهورة فى الإسلام. وكانت المجموعات أنفس

ما كان فى القصر. ويميل سبط بن الجوزى ومن بعده إبن تعزى بردى إلى أن المجموعات المنقولة كانت متخصصة فى مذهب أهل السنة، بينما يؤكد المسبحى والمقريزى أنها كانت عامة فى جميع العلوم والآداب وإن كان مذهب أهل السنة هو الغالب فى موضوعات الدين. ولقد كانت الكتب المنتقاة من أفضل الأنواع ومن أحسن الخطوط ويغلب عليها الخط المنسوب. «وكانت من الكثرة والجمال بحيث يمكن القول أنها لا نظير لها عند أى خليفة غيره».

ويقال أن عدد الكتب فى هذه المكتبة حسب تقديرات هونكه بلغ مليونا وستمائه ألف مجلد من بينها ٦٥٠٠ مخطوطة فى الرياضيات و ١٨٠٠٠ مخطوطة فى الفلسفة وكان فيها نسخ متعددة من العمل الواحد وعلى سبيل المثال كان هناك ١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبرى وأكثر من ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدى من بينها نسخة بخط الخليل نفسه ومائة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد. وكان فيها نسخ بخط إبن مقلة وإبن البواب وهما من مشاهير الخطاطين المسلمين.

ويقول المقريزى عنها «وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب مالم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك.

وتبلغ زيجريد هونكه قمة تقدير المكتبة عندما تنقل عبارة بابا روما سلفستر الثانى الذى قال عن المكتبة (سنة ٩٩٩م): إنه لمن المعلوم تماما أنه لا يوجد أحد فى روما له من العلم ما يؤهله لأن يعمل بوابا لتلك المكتبة وأنى لنا أن نعلم الناس ونحن فى حاجة لمن يعلمنا، إن فاقد الشئ لا يعطيه.

وقد فتحت هذه المكتبة أبوابها لجميع الناس منذ اليوم الأول دون تمييز، فصاروا يترددون عليها للقراءة والنسخ والنقل والإستعارة. وكانت المكتبة تقدم لمن يشاء منهم القرطاسية كالورق والحبر والأقلام. كما كان فيها مكان للإقامة والضيافة لمن يرتحلون إليها من مسافات بعيدة.

وقد رصد الحاكم بأمر الله مبالغ كبيرة للإنفاق على المكتبة، وأوقف عليها جزءا من أطيانه الخاصة.

وقد قسمت المكتبة إلى أقسام موضوعية واسعة فثمة قسم للفقهاء، وقسم لقراء القرآن وقسم ثالث للفلكيين وقسم رابع لأصحاب النحو واللغة، وخامس للأطباء... وهكذا. وكان هناك عدة قاعات للمحاضرات والمناقشات والمناظرات وكان الحاكم بأمر الله يحضر كثيرا من المناظرات فى المكتبة.

لقد رتب الحاكم للمقيمين بالمكتبة (الباحثين) أيا كان مجال إهتمامهم وأيا كانت جنسياتهم مكافأة شهرية عرفت بالجوائز السنية، تدفع لهم من خزانة الخليفة نفسه أو بعبارة أخرى من بيت مال المسلمين، وليس من مال الوقف.

وفى سنة ٤٠٠هـ = ١٠٠٩م وقف الحاكم بأمر الله أوقافاً لصيانة الجامع الأزهر وجامع المقياس والجامع الحاكمى ودار الحكمة. وأخبر المقريزى عن هذا الوقف العظيم حين ذكر الرياع التى خصصت لتمويل هذا الوقف وقسمها إلى قسمين: **الأول** لتغطية نفقات جامع المقياس، **والثانى** لصيانة ثلاث منشآت أخرى معاً منها دار الحكمة. وقد خص دار الحكمة ٩/٨٠ من الريع العام المخصص للمنشآت الثلاث الأخيرة ويعادل فى تلك السنة ٢٥٧ ديناراً توزيعها على النحو الآتى:

دينار	
١٠	لشراء حصر القش وغيرها من الحصر.
٩٠	لشراء الورق اللازم للنسخ.
٤٨	لراتب الخازن.
١٢	لماء الشرب.
١٥	لراتب الفراش.
١٢	لشراء الورق والحبر والأقلام لمن يطالع فيها.
٠١	لإصلاح الستائر.

١٢	للتجليد.
٥٠	لشراء سجاد للشتاء.
٤٠	لشراء أغطية للشتاء
٢٠٩	المجموع

ومعنى هذا أنه يتبقى من وقف المكتبة ثمان وأربعون ديناراً لم تحدد وجوه صرفها فى الوقفية ترك لناظر الوقف تقدير وجوه صرفها حين يرى ذلك ضروريا لحسن سير العمل بالمكتبة فى أحوال مشابهة لما ذكر.

لقد عين فى رئاسة الدار فى بداية إفتتاحها عالمان جليلان من علماد السنة، ربما لكسب ود أهل السنة، تفرغا لإدارتها كان أحدهما **أبو بكر الأنطاكى** والثانى **أبو أسامة جنادة بن محمد بن الحسين الأسدى الهروى**. ومعلوماتنا عن أبى بكر الأنطاكى محدودة أما معلوماتنا عن أبى أسامة الأسدى الهروى فإنها مستفيضة حيث أنه كان لغويا كبيرا وربما كان أعظم لغوى فى زمانه وقد سمح لهما فى مرسوم التعيين أن يحضرا مجالس الحاكم بأمر الله وأن يسكنا فى مساكن دار الحكمة. وكانت لهما مع أهل السنة مناظرات وخاصة مع أبى محمد عبد الغنى بن سعيد بن بشر، أعظم محدثى مصر فى عصره بل فى كل عصورها التاريخية.

ولأسباب غير مفهومة حكم على مديرى المكتبة أبى بكر الأنطاكى وأبى أسامة الأسدى الهروى بالإعدام فى الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٩م). مما أدى إلى هروب كثير من العلماء الذين كانوا موجودين فى المكتبة. وقد أصبحت المكتبة بعد تلك الحادثة مسرحاً للدعوة إلى المذهب الفاطمى. وغدت تدرس فيها دروس رسمية فى هذا الخصوص وكان يشرف على الدراسة فيها داعى الدعاة الفاطمى. وكانت المحاضرات التى تلقى تجمع وتجلد ومن بينها المحاضرات التى ألقاها داعى الدعاة المؤيد فى الدين أبو نصر هبة الله إبن موسى بن أبى عمران، التى جمعت فى كتاب سمى «المجالس المؤيدية» وقد

بلغت ثمانمائة مجلس تناول فيها موضوعات إسماعيلية شتى: دينية وأدبية وسياسية وتأويلية. والجدير بالذكر أن هذه المحاضرات كان ينشئها داعى الدعاة على لسان الخليفة وينوب عنه فى إلقائها.

وقد كانت المناظرات والمحاضرات تتم - كما أشرت سابقاً - أحيانا بين يدى الخليفة وعلى سبيل المثال فإنه فى سنة ٤٠٣هـ، أحضر جماعة من علماء دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء ومنهم عبد الغنى بن سعيد وجماعة من الأطباء إلى حضرة الحاكم بأمر الله، وكانت كل طائفة تحضر على إنفراد للمناظرة بين يديه ثم خلع على الجميع ووصلهم.

وبسبب المشاحنات والصدامات بين المذاهب والمتناظرين أغلقت المكتبة لفترة قصيرة بين ٥١٣ و٥١٧هـ، ثم إستأنفت الدار مسيرتها بعد هذا التاريخ.

بعد مقتل المديرين المذكورين سنة ٣٩٩هـ عين عبد العزيز بن النعمان داعى الدعاة ثم جاء بعده مالك بن سعيد الفارقى. ويبدو أن مهمة داعى الدعاة كانت مزدوجة فهو يشرف على المكتبة، ومن جهة ثانية يقوم بتدريس المذهب الفاطمى والدعوة إليه ليس بالضرورة داخل المكتبة وإنما غلب عليه أن يقوم بذلك فى القصر حيث يذكر المسبحى «وكان الداعى يواصل الجلوس بالقصر لقراءة ما يقرأ على الأولياء والدعاوى المتصلة، فكان يفرد للأولياء مجلساً، وللخاصة وشيوخ الدولة ومن يختص بالقصور من الخدم وغيرهم مجلساً؛ ولعوام الناس وللطارئين على البلد مجلساً. وكانت هذه الجلسات تعقد فى قصر الخلافة فى عام ٤٠٠/٤٠١هـ. ولكن على الجانب الآخر يؤكد القلقشندى على أن تلك المجالس كانت تعقد فى دار العلم حيث يقول: «كان داعى الشيعة يجلس فيها، ويجتمع إليه من التلاميذ؛ من يتكلم فى العلوم المتعلقة بمذهبهم».

ويوضح القلقشندى كلامه هذا فى موضع آخر فيقول «داعى الدعاة، وموضوعه عندهم أنه يقرأ عليه مذاهب آل البيت بدار تعرف بدار العلم، ويأخذ العهد على من ينتقل إلى مذهبهم».

ويؤكد على ذلك المؤرخ إبن الطوير وهو مؤرخ شيعى لاشك فى ذلك حيث يقول «أما داعى الدعاة، فإنه يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيى بزيه فى اللباس وغيره. ووصفه أن يكون عالما بجميع مذاهب أهل البيت، يقرأ عليه، ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم، وبين يديه من نقباء المعلمين إثنا عشر نقيباً. وله نواب كنواب الحكم فى سائر البلاد، ويحضر إليه فقهاء الدولة ولهم مكان يقال له دار العلم ولجماعة منهم على التصدير بها أرزاق واسعة».

وربما عين بعد مالك بن سعيد الفارقى فى رئاسة دار العلم، أبو محمد بن آدم الذى وليها فى شوال سنة ٤١٠هـ ثم نشب الصراع على أشده سنة ٤١٣هـ مما أدى إلى إغلاقها كما ذكرنا سابقاً ثم أعاد الوزير المأمون فتحها فى شهر ربيع الأول سنة ٥١٧هـ ولكن فى مكان جديد، وقد أعيد تعيين أبو محمد حسن بن آدم بشرط تجنب المناظرات والمشاحنات فيها.

وفى سنة ٥١٧هـ نفسها عين إبن آدم داعيا للدعاة وحل محله فى إدارة المكتبة أبو فخر ولكن ابن آدم عزل لصغر سنه وعين أبو فخر داعيا ومشرفا على المكتبة فى آن واحد وظـل كذلك حتى سنة ٥٣٣هـ، حين عين الفقيه أبو الحسن على بن إسماعيل الذى لم يتسلم قرار إقالته بشكل رسمى بعد أقل من ستة شهور حين حل محله فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٣٤هـ (يناير ١١٤٠م) قاضى القضاة، هبة الله بن حسن الأنصارى الأوسى المعروف بابن الأزرق.

واضطربت أحوال المكتبة واستمرت مركزاً للإسماعيلية حتى أزاح صلاح الدين الأيوبى ملك الفاطميين منذ عام ٥٦٧هـ (١١٧١م). وقد بددت كما سنرى بعد قليل. ولكن قبل الحديث عن نهاية ومصير تلك المكتبة التى عمرت ما يقرب من نحو ١٧٠ عاماً نركز بيان مديريها على النحو التالى:

٣٩٥ - ٣٩٩ أبو بكر الأنطاكى ـــــــ أبو أسامة جنادة بن محمد بن الحسين الأسدى الهروى

٣٩٩ - ٠ عبد العزيز بن النعمان

ـــــــ مالك بن سعيد الفارقى

٤١٠ هـ - ٤١٣هـ أبو محمد حسن بن آدم

٤١٧هـ - أبو فخر داعى الدعاة

٥٣٣هـ - أبو الحسن على بن إسماعيل

٥٣٤هـ - هبة الله بن حسن الأنصارى الأوسى (إبن الأزرق)

* * *

بعد الإزدهار الكبير الذى حققته المكتبة أصيبت بنكسة أثناء الفتنة التى إجتاحت مصر سنة ١٠٦٨م حين وقع الخلاف على أرزاق العسكر بين الجنود السودانيين والأتراك وكان عام قحط ووباء حصد الطاعون فيه الناس فأغار الضباط الأتراك على المكتبة وأتلفوا كتبها، واتخذ عبيدهم من جلودها نعالاً وأحذية لهم وأحرقوا أوراقها ومن ثم ضاعت مجموعات كبيرة منها خلال تلك الفتنة. وعندما دخل صلاح الدين الأيوبى القاهرة للمرة الثانية بعد قرن تقريباً دمر البقية الباقية من المكتبة (١١٧١م).

لقد طرح صلاح الدين الأيوبى جميع كتب المكتبات الفاطمية - بما فيها كتب دار الحكمة - للبيع ويقدرها أبو شامة أيام عزها ومجدها بمليونى مجلد وقد تولى بيعها إبن صورة دلال الكتب وإستمر بيعها لعدة أعوام. وهو يقول نقلاً عن العماد الأصفهانى أن كتب المكتبة إختطفتها الأيدى وإقتطعها التعدى وكانت كالميراث مع أمناء الأيتام يتصرف فيها بشره الإنتهاب والإلتهام، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام.

وكان لبيع الكتب فى القصر يومان فى الأسبوع وهى تباع بأرخص الأسعار. وخزائنها فى القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة بالمعروف. فأراد دلالو

الكتب والوسطاء أن يأخذوها بثمن أكثر بخساً فخدعوا بهاء الدين قراقوش متولى القصر المشرف على عملية البيع وصاحب الأمر والنهى وقالوا له: هذه الكتب قد عاث فيها العث وتساوى ثمينها والغث ولا غنى عن تهويتها ونفضها وإخراجها من بيوت الخزانة إلى أرضها وهو تركى لا خبرة له بالكتب ولا دربة له بأسفار الأدب. وكان مقصود دلالى الكتب أن يوكسوها ويخرموها ويعكسوها، فأخرجت وهى أكثر من مائة ألف من أماكنها وعريت من مساكنها وضربت أوكارها وذهبت أنوارها وشتت شملها، وبت حبلها وإختلط أدبيها بنحويها وشرعيها بمنطقيها، وطبيها بهندسيها، وتواريخها بتفاسيرها ومجاهيلها بمشاهيرها، فكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار، ومصنفات الأخبار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءا مجلدا، إذا فقد منها جزء لا يخلف أبداً فاختلطت وإختبطت فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتبا مبعثرة فتسام بالدون وتباع بالهون والدلال يعرف كل شدة وما فيها من عدة، ويعلم أن عنده من أجناسها وأنواعها وقد شارك غيره فى إبتياعها، والوسطاء يجمعونها ويرتبونها فى الخارج حتى إذا لفق كتابا قد تقوم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة.

وقد مر بنا كيف اشترى عماد الدين الأصفهانى جملة من هذه الكتب ولما عرف السلطان صلاح الدين الأيوبى ما إبتاعه أبرأ ذمته من ثمنها ثم وهب له من خزانة القصر ما إختاره وقد أخرج تلك الكتب بحمَّال.

وقام القاضى الفاضل بما هو أسوأ من ذلك حيث أنه دخل إلى الكتب واختبرها وكل كتاب يصلح له قطع جلده ورماه فى بركة كانت هناك فلما فرغ الناس من شراء الكتب إشترى تلك الكتب التى ألقاها فى البركة على أنها مخرومات ثم جمعها بعد ذلك ويقال إنه حصل بهذه الطريقة على مائة ألف مجلد من تلك المكتبات ولما أنشأ مدرسته الفاضلية فى القاهرة جعل الكتب التى حصل عليها فى مكتبتها.

وما نجا من كتب مكتبات الفاطميين ووصل إلى عهد المماليك باعه الطلبة أثناء المجاعة التى إجتاحت الديار المصرية، نتيجة القحط والأوبئة بين عام ١٣٤٨ - ١٣٤٩م) كل مجلد برغيف.

دار العلم بالقدس

وعندما تذكر دار العلم بالقاهرة فإنه يرتبط بها دار العلم بالقدس، ذلك أن القدس مع ضعف السيادة العباسية عليها ونشاط الدعوة الفاطمية فى القاهرة وقعت تحت سيطرة الخلفاء الفاطميين فى مصر سنة ٣٩٢هـ / ٩٩٤م، واستمرت سيطرتهم عليها حتى سنة ٤٩٢هـ إلا من حوالى ربع قرن بين ٤٦٣هـ و٤٨٩ (١٠٧٠ - ١٠٩٥م)، حين إنتقلت إلى السلاجقة. وقد قام الفاطميون بعد سيطرتهم على القدس بتحويل كنيسة الروم فى القمامة والتى كان فيها قبر حنة أم مريم بنت عمران عليها السلام، إلى دار علم، إمتداداً لدار العلم بالقاهرة فلما ملك الفرنجة القدس سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) أعادوها كنيسة فيما يذكر القلقشندى وغيره إذ يذكر أن الصليبيين عندما غزوا القدس عام ٤٩٢هـ وطردوا الفاطميين وجدوا الكنيسة قد تحولت إلى دار علم. ومن الطبيعى أن يكون الحاكم بأمر الله هو الذى أنشأ دار العلم بالقدس على غرار دار العلم (الحكمة) بالقاهرة ربما لنفس الأسباب ولما عرف عنه من إضطهاد للمسيحيين فى مصر والقدس وهدم للكنائس. ومن الطبيعى أن تستمر دار العلم بالقدس طوال الحكم الفاطمى وسيطرته على المدينة ولكن لما دخل الصليبيون المدينة قتلوا كثيرا من العلماء والأطباء الذين كانوا يعيشون كباحثين فى المؤسسة، وأعادوا بناء كنيسة حنة القديمة كاملة بعد هدم دار العلم. وعندما دخل صلاح الدين القدس بعد تسعين عاما تقريبا (٥٨٣هـ = ١١٨٧م) بنى مكان الكنيسة مدرسة للشافعية. ولم نعد نسمع عن دار العلم بعد ذلك.

دار العلم فى طرابلس

قامت فى طرابلس الشام فى القرن الخامس الهجرى: الحادى عشر الميلادى

دولة عظيمة عرفت بدولة بنى عمّار. وقد أقاموا لدولتهم رغم محدوديتها مكتبة عظيمة غدت قصتها كالأساطير، بالغ البعض فى تصويرها وقلل آخرون من شأنها. ومهما يكن من أمر فقد كانت مكتبة لهذه الدولة على غرار بيت الحكمة فى بغداد ودار العلم فى القاهرة والقدس. لقد حكم بنو عمار جزءا كبيرا من الساحل السورى (ربما لبنان الآن) كما قلت فى القرن الخامس الهجرى وجعلوا طرابلس الشام عاصمة ملكهم وإستمروا فى الحكم حتى قضى الصليبيون عليهم. وكانت هذه الدويلة غنية بالزراعة والحرف، إزدهر فيها النشاط الإقتصادى نشاطاً كبيراً وقد ذكرت المصادر أنه كان فيها أربعة آلاف عامل ماهر، كانوا يعملون فى نشاطات حرفية مختلفة من بينها صناعة الصوف والحرير والكتان والصناعات الخشبية، ومن الثابت أنه كان هناك مصنع للورق كما ذكرت فى موضع سابق كان ينتج أنواعا جيدة من الورق.

وكان بنو عمّار شيعة على المذهب الإسماعيلى، كالفواطم. وبالتالى يفسر البعض إنشاءهم لهذه المكتبة على ضوء ذلك أى للدعوة للمذهب ونشره. وقد تعاقب على حكم الدويلة عدد من الأمراء كانوا يلقبون بالقضاة مثل جلال الملك أبى الحسن على بن محمد بن أحمد؛ والقاضى أبى طالب الحسن، إهتموا جميعا بالمكتبة وتزويدها المستمر الفعال بالمقتنيات وكان لهم مندوبون يجوبون أقطار الأرض بحثاً عن الكتب والمخطوطات النادرة؛ كما كان فيها ناسخون يعملون بشكل دائم مستمر ليل نهار وقد قيل بأن عدد الناسخين ربا على مائة وثمانين ناسخاً.

كان حرص آل عمار شديداً أن تكون هذه المكتبة على غرار بيت الحكمة فى بغداد ودار العلم فى القاهرة والقدس مكتبة للدولة تعكس إزدهارها وحرص حكامها على العلم وأهله وأدواته. ولذلك قيل أن عدد الكتب فيها ربا على ثلاثة ملايين مجلد (بتعبير ذلك الزمن ثلاثة آلاف ألف). والكتب كلها أو أغلبها من أجمل المخطوطات المجلدة بجلود سميكة مزخرفة ومحلاة بالذهب والفضة، كتبت بالخط المنسوب لكتابر الخطاطين. وكان من بين الكتب عدد

كبير بخطوط مؤلفيها. وقد غطت المجموعات جل فروع المعرفة البشرية من ديانات إلى فلسفة إلى أدب وتاريخ وجغرافيا وأنساب وطب وفلك وكيمياء وغيرها. وتذكر المصادر أنه كان هناك من بين مخطوطات المكتبة خمسون ألف نسخة من المصاحف وعشرون[1] ألف نسخة من التفاسير. وقد أيَّد كثيرون من المؤلفين تلك الأرقام من بينهم شوشترى فى كتابه مختصر الثقافة الإسلامية وكذلك جيبون فى تاريخه وإن كان طومسون فى كتابه (المكتبات فى العصور الوسطى) قد شكك فى تلك الأرقام. وأيا كانت الأرقام فإن هذه المكتبة كانت علامة مضيئة فى تاريخ مكتبات الدولة الإسلامية وقد زارها علماء أفذاد من سائر البلدان ومن الثابت تاريخيا أن أبا العلاء المعرى قد زار هذه المكتبة واشتغل بما فيها طويلاً وقدم لها من إنتاجه ستة كتب (٩٧٣ - ١٠٥٧م).

وقد وصلنا اسم واحد من مديرى هذه المكتبة هو: الحسين بن بشر بن على الطرابلسى المعروف بالقاضى ذكره إبن حجر العسقلانى فى اللسان قال عنه: كان صاحب دار العلم فى طرابلس، كان أديباً، صنف كتابا فى الخطب، يضاهى بها خطب إبن نباتة وله مناظرة مع الخطيب البغدادى، وقد حكم له على الخطيب بالتقدم فى العلم. وكانت هذه المناظرة فى شهر شعبان من عام ٤٦٢هـ (١٠٦٩م) عندما قدم الخطيب إلى طرابلس.

كذلك وصلنا إسم أحد أمناء المكتبة هو القاضى أبو الفضل بن أبى روح، الذى تذكر المصادر أن مؤسس المكتبة أمره أن يفرق الذهب على أهل الدار، أى طلاب العلم المنقطعين له فى المكتبة.

وللأسف لم تعمر هذه المكتبة طويلاً إذ لم يزد عمرها على نصف قرن من الزمان بعد سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين؛ الذين بدأوا فى حصارها منذ عام ٤٩٣هـ (١٠٩٩م) وصمودها لأكثر من عشر سنوات. لقد إستسلمت المدينة

---

(١) يذكر د. محمد ماهر حمادة أن التفاسير بلغت ثمانين ألفاً وليس عشرين ألفاً كما ذهب د. يوسف العش وابن الفرات.

بعد يأس، ذلك أنهم قد بعثوا إلى الخليفة العباسى يطلبون النجدة فرد عليهم يطلب إمرأة جميلة فقيرة سمع بجمالها الخارق فى المدينة وما كان من السكان إلا أن إستسلموا ودخل الصليبيون المدينة وأحرقوا وسلبوا ونهبوا وكان أول ما أحرقوه هو المكتبة بطبيعة الحال. وقد بكى المؤرخون المسلمون بكاء مراً على المكتبة ومن بينهم ابن خلكان وابن الأثير وابن القلانسى. لقد إستسلمت المدينة سنة ٥٠٣هـ (١١٠٩م).

لقد تصادف أن دخل أحد القساوسة المصاحبين للحملة الصليبية إلى المكتبة وشاهد هذا الكم من الكتب، دخل إلى إحدى القاعات والتقط مجموعة من مجلداتها فوجدها كلها مصاحف فاعتقد أن المكتبة جميعها بكل قاعاتها مخصصة للقرآن الكريم ولم يدر أن تلك القاعة وحدها هى قاعة المصاحف، وبالتالى أمر بإحراق المكتبة كلها. وقد أكد على هذه الواقعة الكتاب المسلمون والأوربيون على السواء ومن بين الأوربيين جيبون وطومسون وشوشترى.

وهكذا إنتهت احدى مكتبات الدولة فى الإسلام نهاية مفجعة مثل نهايات جل المكتبات الإسلامية فى العصور الوسطى سواء على طريق الغزو الخارجى أو الغزو الداخلى.

مكتبة قرطبة

إذا وجَّهنا وجهنا شطر الأندلس المسلم فإننا سوف نجد مكتبة أخرى يمكن أن نصفها بأنها مكتبة دولة شأنها فى ذلك شأن بيت الحكمة فى بغداد ودار العلم بالقاهرة ودار العلم فى طرابلس؛ هذه المكتبة هى مكتبة قرطبة التى بدأها عبد الرحمن الأوسط فى أوائل القرن الثالث الهجرى، ويقال إنها كانت مكتبة فخمة ضخمة وقد أرسل مؤسسها بعض المندوبين إلى المشرق العربى ليجلبوا لها الكتب المنشورة هناك أو يستنسخوا مالا يتمكنون من شرائه وقد استأنف عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) نفس الإتجاه فاهتم أيما إهتمام بالعلوم والآداب وجمع حوله العلماء والشعراء والمفكرين وأصبح قصره قبلة لهم وقد

أسس فى قصره بقرطبة أيضا مكتبة ضخمة إمتداداً لمكتبة عبد الرحمن الأوسط، وقد جلب لها الكتب ليس فقط من جميع أنحاء العالم الإسلامى بل أيضا من جميع أنحاء أوربا وخاصة من القسطنطينية التى جلب منها كثيرا من الكتب اليونانية من بينها كتاب ديسقوريدس وكتاب هروسيوس. والأول كتاب علمى طبى يبحث الأدواء وأدويتها وخاصة الأعشاب والحشائش الطبية والثانى كتاب تاريخى يبحث فى تاريخ اليونان والرومان. ويذكر إبن جلجل فى طبقات الأطباء أنه لم يكن فى قرطبة - على خلاف بغداد - من نصارى الأندلس من يقرأ أو يترجم اليونانية القديمة فبقى الكتابان فى خزانة قرطبة دون ترجمة. واستوردت ترجمة إصطفن لكتاب ديسقوريدس من مدينة السلام بغداد.

أما أعظم من طور مكتبة الدولة - مكتبة القصر - فى الأندلس فهو الحكم الثانى المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) والذى سار على هدى والده كما فعل المأمون بعد والده الرشيد فى بغداد ولم يكن الزمن بعيداً بين الحكم والمأمون وإن كان المكان بعيداً. ويقال بأن الحكم كان ذا ثقافة عالية أيضا تتلمذ على يدى أبى على القالى صاحب الأمالى. ويصفه راينهارت دوزى فى «تاريخ المسلمين فى أسبانيا» بأنه «لم يسبق أن حكم أسبانيا حاكم عالم بهذه الدرجة، ورغم أن أسلافه كانوا رجالاً متعلمين وأحبوا أن يغنوا مكتباتهم؛ فإن أحداً منهم لم يبحث بشغف ونهم عن الكتب النادرة والثمينة كما فعل الحكم». ويقول عنه ابن خلدون «وكان محبا للعلوم مكرما لأهلها جماعة للكتب فى أنواعها مالم يجمعه أحد من الملوك قبله فأقام للعلم والعلماء سلطانا نفقت فيها بضائعه من كل قطر... وكان يبعث فى الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويسرِّب إليهم الأموال لشرائها حتى جلب إلى الأندلس مالم يعهدوه. وكان يعرف أخبار المؤلفين وأخبار كتبهم قبل نشرها وقبل أن يطلع عليها الباحثون. فقد نمى إلى علمه أن أبا الفرج الأصفهانى يؤلف كتابا لم يسبق إليه هو كتاب الأغانى، فأرسل إليه بألف دينار من الذهب الخالص مقابل نسخة من الكتاب قبل وضعه فى أى من مكتبات العراق وفعل المثل مع آخرين.

وكان من الطبيعى أن يحشد الحكم فى مكتبته هذه أمهر النساخ وأكثرهم ضبطا ودقة فى النسخ. ويقال أنه ظل يجمع ويستنسخ للمكتبة حتى ضاقت خزائنها بالكتب. وتذكر المصادر بعض الأرقام فتقول بأن عدة هذه المكتبة بلغت أربعمائة ألف مجلد وأنهم لما نقلوها إستغرق النقل ستة أشهر. وأن الفهارس كانت تقع فى أربعة وأربعين مجلداً فى كل مجلد خمسون ورقة، عشرون ورقة من كل منها خصصت لدواوين الشعر وحدها.

ولقد وصلنا اسم واحد من مديرى هذه الدار وهو بكية الخصى قال عنه ابن خلدون نقلاً عن حزم «كان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان».

وللأسف كان مصير هذه المكتبة، نفس مصير المكتبات المشرقية الحرق والسلب والنهب والتخريب، ذلك أنه بعد وفاة الحكم ولى الأندلس المنصور بن أبى عامر، وقد أراد أن يرضى العامة والفقهاء فى زمانه فأخرج من المكتبة جميع الكتب الفلسفية وكتب علوم الأوائل وأضرم فيها النار فى الميدان العام فى قرطبة. ولم يقف أمر هذه المكتبة عند هذا الحد فقد ضعفت الأندلس بعد وفاة المنصور وبدأت فى التفسخ وقد تعرضت قرطبة لحصار البرابرة الذين بدأوا الزحف المبكر على الأندلس فى بداية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وإحتاج الحاجب واضح مولى المنصور بن أبى عامرٍ إلى المال فأخرج أكثر الكتب من مكتبة الحكم وباعها وما تبقى منها نهب وحرق عندما إجتاح البرابرة قرطبة. وهكذا سقطت قلعة أخرى من قلاع العلم الإسلامى فى العصور الوسطى كما سقطت نظيراتها من مكتبات الدولة الإسلامية فى المشرق.

❁ ❁ ❁

الكراس الثالث عشر

المكتبات العامة عند المسلمين

لم تتول الدولة الإسلامية من خلال أجهزتها الرسمية إنشاء المكتبات العامة وإنما جاء إنشاء المكتبات العامة التى إنتشرت فى طول البلاد وعرضها عملاً فردياً خالصاً وشعبياً محضاً وإن صدر عن خليفة أو أمير أو وزير، وقد إرتبط ظهور المكتبات العامة وإنتشارها بمبدأ الوقف فى الإسلام.

ووقف الكتب معناه «حبس» كتب بذاتها على مكتبة معينة أو على طائفة معينة من القراء لايجوز التصرف فيها بحال من الأحوال إلا فى الغرض المحدد له. والكتب فى هذه الحالة تصبح كسائر الأموال المنقولة التى يجوز وقفها. ولقد ثار جدل عنيف بين المسلمين وأئمتهم ومذاهبهم حول جواز وقف الكتب فالبعض يجيز ذلك والبعض يرفض وقف الكتب بشدة لأنها تخالف شروط الوقف الشرعية باعتبارها أشياء قابلة للتلف ولا يمكن بيعها فى النهاية. ولم يصبح وقف الكتب ظاهرة معمولا بها إلا بعد ثلاثة قرون هجرية كاملة.

وقد إعتبر وقف الكتب عملاً من أعمال الخير لتكفير الذنوب ويدخل فى باب الأعمال الدينية المأجورة ويحقق ثواب الآخرة. ومن هنا أقبل عليه الواقفون، كما أنه يمكن أن يكون صدقة جارية وعلم ينتفع به. كذلك نظر إلى وقف الكتب على أنه تخليد للذكرى وجلب الشهرة وخدمة الصالح العام.

ولوقف كتاب ما أو مجموعة من الكتب كانت هناك إجراءات شرعية رسمية، تؤدى فى النهاية إلى تسجيل الوقف وإعتباره صحيحاً. هذه الإجراءات حددها الدكتور يوسف العش فى كتابه «دور الكتب العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر فى العصر الوسيط» وهى:

١ - كتابة لائحة (قائمة) بالكتب في المحكمة: وهذا بحالة وقف مجموعة كاملة.

٢ - كتابة إشهادات على الكتب نفسها: وتكون هذه الكتب بالتالى مهمة من وجهة نظر ما.

٣ - كتابة صيغ تخصص لإدخال الكتب فى الوقف. وينبغى أن تطبق هذه الكتابة معاً على الكتب غير المهمة. وحتى على الكتب التى خصتها الصيغة الأولى.

وهناك طريقتان مختلفتان لتسجيل الوقف فى المحكمة لإقرار وقف الكتب. الأولى خاصة بالمذهب الحنفى، وتتطلب مناقشة شكلية أمام القاضى؛ والثانية على المذاهب الأخرى وتقوم على كتابة عقد بسيط يحكم القاضى على شرعية محتواه.

وعادة ما يتضمن إقرار وقف الكتب البيانات الآتية:

١ - صيغة الوقف ومترادفاتها.

٢ - اسم الواقف معظماً.

٣ - هوية الكتابة.

٤ - شروط الواقف المتعلقة باستعمال الكتاب وحفظه ومكان الحفظ.

٥ - صيغة الدعاء.

٦ - التاريخ.

والصيغة التالية تكشف عن صيغة كاملة لوقف الكتب:

«يحمد الله أوقف وأودع وسبَّل وتصدق مولانا الأسطة الحاج حسام الدين الذى وضع خاتمه الشريف هنا هذا الجزء والأجزاء التى قبله وبعده وعدتها ثلاثون جزءا من المصحف الشريف، حسب شروط الوقف، فمن بدله بعدما

سمعه فإنما اثمه على الذين يبدلونه، إن الله سميع عليم. وهو وقف شرعى، لايباع ولا يوهب ولا يرهن ولا يرجع فيه، ولايعار ولا يستخدم إلا لغرض شرعى، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهو خير الوارثين. كتبه أمر القراقيرى سنة ١١٩١هـ (١٧٩٧م).

ومن الأمثلة الطريفة على وقف الكتب باسم شخص آخر حتى يؤول الثواب إليه، ما قام به الخليفة العباسى الناصر الذى بنى مكتبة باسم مولاه نجم الدين أبى اليُمّن نجاح بن عبد الله الحبشى، أوقف فيها خمسمائة مجلد، خصصها سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) مع أعمال خيرية أخرى تخليدا لذكرى العبد وعلى روحه.

وفى هذا الإتجاه أوقف ابن البزورى كتباً وإشترط على من يستعير أى كتاب منها أن يقرأ سورة الفاتحة مرة واحدة وسورة الإخلاص ثلاث مرات يهبها لروح الواقف وروحى والديه. ومحمد بن قوام الحنفى فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى يطلب ممن ينتفع بكتبه أن يدعو الله له بالمغفرة ولوالديه وجميع المسلمين).

* * *

لقد كانت إرهاصات المكتبات العامة الإسلامية - قبل الوقف - منذ القرن الأول الهجرى هى مكتبات خاصة يفتحها أصحابها لاستعمال أصدقائهم ثم من يرغب بعد ذلك من عموم المسلمين أو خاصتهم على حسب رؤية صاحب المكتبة. وقد رأينا من قبل كيف فعل عبد الحكم الجمحى بمجموعته الخاصة، وتذكر المصادر نتفا عن هذه المكتبة فتقول «كان عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله صفوان الجمحى قد إتخذ بيتاً فجعل فيه شطرنجات ونردات وقِرْقات ودفاتر فيها من كُل علم وجعل فى الجدار أوتاداً، فمن جاء علّق ثيابه على وتد منها ثم جر دفتراً فقرأه أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم» وإلى هذا البيت قدم الأحوص الشاعر المشهور ذات يوم (مات فى مطلع القرن الثانى الهجرى (بين ١٠١ - ١٠٥هـ).

كذلك أشرنا من قبل أنه كانت لخالد بن يزيد بن معاوية مكتبة خاصة، كان أيضا يفتحها لمن يريد القراءة والمراجعة، مما يعتبر إرهاصاً أيضا ببزوغ فجر المكتبة العامة عند المسلمين في العصور الوسطى.

من بين المكتبات الخاصة أيضا التى فتحت أبوابها لعموم القراء، مكتبة عبد الرحمن بن أبى ليلى (المقتول سنة ٨٥هـ = ٧٠٤م) وكانت فيها مصاحف تجتمع إليها القراء وقلما تفرقوا إلا على طعام على ما يقول ابن سعد فى الطبقات الكبرى وقد إستمرت تلك الإرهاصات فى القرن الثانى والثالث الهجرى أيضاً فهذا هو أبو عبد الرحمن، عبد الله بن محمد بن هانئ الأندلسى الذى أعد فى نهاية القرن الثانى الهجرى داراً للضيوف فيها كتب كثيرة - بيعت فيما بعد بأربعمائة ألف درهم - ينزل فيها من يريد القراءة والمراجعة والنسخ وكان يوزع عليهم الورق وأدوات الكتابة. وكانت هذه المكتبة الخاصة من أضخم المكتبات الخاصة فى ذلك الوقت.

كذلك كانت لعلى بن يحيى المنجم (المتوفى ٢٧٥هـ = ٨٨٨م) الذى كان أبوه يحيى بن أبى منصور يشتغل فى بيت الحكمة في بغداد، مكتبة شخصية كبيرة أشرنا إليها من قبل كانت في كركر (قرقر) من نواحى القُفُص، وكان يفتحها للناس يقصدونها من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبذولة فى ذلك لهم، والصيانة مشتملة عليهم، والنفقة من مال على إبن يحيى.

ومر بنا فى المكتبات الخاصة أيضا مكتبة الفتح بن خاقان وكان سليل الملوك نادم الخليفة المتوكل، وقد جمع مكتبة خاصة ضخمة «لم ير أعظم منها كثرة وحسنا» فقد كان الفتح بن خاقان قارئا نهما وجماعة للكتب قال عنه ابن هفان «ثلاثة لم أر قط ولا سمعت أحب إليهم من الكتب والعلوم: الفتح بن خاقان والجاحظ واسماعيل بن اسحق القاضى». وكان يحضر إلى مكتبته من يريد ومن بينهم نصحاء الأعراب وعلماء الكوفة والبصرة. وكان يشجع المؤلفين وينفق عليهم.

كذلك من المكتبات الخاصة التى فتحت أبوابها للعامة مكتبة أبناء موسى بن شاكر المعروفين باسم بنى المنجم (وهم محمد وأحمد والحسن). وقد أشرنا من قبل إلى أنهم كانوا يعملون فى بيت الحكمة ببغداد، كما أشرنا إلى دورهم فى النقل والترجمة وجمع الكتب. وقد نتج عن ذلك مكتبة طيبة لكل منهم ولكن يبدو أن أبا جعفر محمد كان أبرزهم وأنشطهم فى هذا الاتجاه فجاءت مكتبته أكبر واشمل وهم جميعا كانوا يضعون مكتباتهم تحت تصرف أصدقائهم من العلماء والباحثين.

هذه مجرد عينات ونماذج فقط من المكتبات الخاصة التى كان تفتح أبوابها للقراء للاستفادة منها، وفتحت بذلك الباب أمام إنشاء المكتبات العامة من المال الخاص عن طريق الوقف كما قدمنا، فلم تكن المكتبات العامة مسئولية الدولة طوال العصور الوسطى الإسلامية .

وسوف نقدم على الصفحات التالية عينات بن المكتبات العامة التى أنشئت أساساً كمكتبات عامة اوقفت لاستخدام الناس ولم تكن مجرد مكتبات خاصة يفتحها أصحابها لاستخدام الأصدقاء وربما يوصى بمكتبة خاصة لتصبح مكتبة عامة بعد الوفاة.

لقد إنتشرت المكتبات العامة الموقوفة فى الدولة الإسلامية إنتشاراً كبيراً، فيحدثنا ياقوت بأن عدد المكتبات فى مدينة مرو على أيامه (أواخر السادس وأوائل السابع الهجرى) بلغ عشرة مكتبات بعضها فى الجوامع وبعضها فى المدارس وبعضها قائم بذاته فى أبنية خاصة وكانت المطالعة فيها جميعا حرة والإعارة الخارجية فى الأعم الأغلب بدون رهن. فإذا كانت مدينة مرو بها هذا العدد فما بالنا بالمدن الأخرى.

المكتبة العامة فى الموصل (دار العلم)

ربما كانت المكتبة التى أنشأها أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى السحّام وذلك فى نهاية القرن الثالث الهجرى وبداية الرابع الهجرى،

هي أول مكتبة عامة توقف لهذا الغرض وحده. وكانت هذه المكتبة تحتوى على كتب فى جميع فروع المعرفة البشرية وربما كانت كتب الفلك والحكمة - فيما يذهب الدكتور فرج العش - لها أهمية خاصة فى هذه المكتبة ذلك لأن أبا القاسم كانت له إهتمامات فلسفية وفلكية، إضافة إلى إهتماماته الثقافية العامة وعلاقاته الواسعة بالعلماء والأدباء فى عصره ومن بينهم الشاعر العظيم البحترى المتوفى ٢٨٥هـ (٨٩٧م)، كما كانت له علاقاته بالخليفة المعتضد المتوفى سنة ٢٨٩هـ (٩٠١م).

وكان أبو القاسم جعفر الموصلى يقضى أوقاتا كثيرة داخل المكتبة ويجتمع إليه الناس ويملى عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته غير الشعرية مثل (الباهر) فى التاريخ والأخبار.

وكانت هذه المكتبة وقفاً على كل طالب علم لا يمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب العلم وكان معسراً قدم له المال والورق وكانت المكتبة تفتح كل يوم وكان هناك مكان لمبيت الغرباء المحتاجين. والحقيقة أننا لم نقف على حجم المجموعات بها ولا على مصير هذه المكتبة التى نفى صاحبها إلى بغداد وأبعد عن الموصل زمن الخليفة المعتضد.

مكتبتا ابن سوار فى البصرة ورام هرمز

ذكر المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم الذى ألفه سنة ٣٧٥هـ (٩٨٥م). مكتبة اسماها مكتبة إبن سوّار عند حديثه عن مدينة البصرة فقال ما نصه «إتخذها ابن سوّار وفيها اجراء على من قصدها ولزم القراءة والنسخ، وفيها شيخ يدرس عليه الكلام على مذاهب المعتزلة». وقد ورد ذكر هذه المكتبة فى فهرست ابن النديم باسم (خزانة الوقف) والمقدسى يسميها دار الكتب.

وربما كانت هذه المكتبة العامة هى أول مكتبة توقف بعد أن أقر مشايخ المسلمين عملية وقف الكتب بعد الجدل العنيف الذى ثار حول هذه العملية. والذى أوقفها هو أبو على بن سوار الكاتب كان معاصرا لإبن النديم فى القرن

الرابع الهجرى ولكنا لا نعرف عنه شيئاً كثيرا. وإن كانت قد وردت فى المصادر بعض نتف من المعلومات عنها، وخاصة فيما يتعلق بمصيرها. فقد قال عنها ابن الأثير (توفى ـ ٦٣٠هـ) ونقل عنه بدر الدين العينى (المتوفى ٨٥٥هـ) أن منجماً سارقاً حرض أحد شيوخ القبائل التى تنزل قرب البصرة وحثه بالإغارة على المكتبة فهاجمها ودخلها وأخذت قبيلته فى نهبها وحرقها. وقد أشار عضد الدولة البويهى نفسه إلى هذه المكتبة وقال عنها هذه مكرمة سبقنا إليها وهذه أول دار وقفت فى الإسلام. كما أشار إليها ابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ = ١٢٠٠م) وقال إن الذى أحرقها أثناء الإغارة على البصرة هو المنجم تليا وأنها قد أنشئت قبيل عضد الدولة وأنها أول مكتبة موقوفة فى الإسلام، كما ألمح إليها ابن كثير (ت ٧٧٤هـ = ١٣٧٣م) فقال عنها إن هذه المكتبة الموقوفة لم يكن لها مثيل فى الإسلام.

ويذكر الدكتور المرحوم محمد ماهر حمادة أن أبا على بن سوّار الكاتب هذا قد أنشأ مكتبة عامة أخرى فى مدينة رام هرمز على شاطئ الخليج الفارسى على غرار مكتبة البصرة وجعل فيها أيضا إجراء على من قصدها ولزم القراءة والنسخ فيها. وكان فى مكتبة رام هرمز هذه شيخ دائم يدرس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة.

ويرى المرحوم الدكتور محمد ماهر حمادة أيضاً أن مكتبة البصرة هى المكتبة التى وردت فى مقامات الحريرى على أنها منتدى المتأدبين وملتقى القاطنين منهم والمغتربين. يقول الحريرى فى المقامة الحلوانية «فلما إبت من غربتى إلى منبت شعبتى حضرت دار كتبها التى هى منتدى المتأدبين وملتقى القاطنين منهم والمتغربين، فدخل رجل ذو لحية كثة، وهيئة رثة، فسلَّم على الجلاس، وجلس فى أخريات الناس، ثم أخذ يبدى ما فى وطابه ويعجب الحاضرين بفصل خطابه».

هذا ولقد كان على بن سوَّار، أحد رجال حاشية عضد الدولة البويهى الذى توفى سنة ٣٧٢هـ ولكننا لا نعرف متى توفى ابن سوَّار نفسه.

مكتبة سابور بن أردشير فى بغداد

كان سابور بن أردشير وزيراً لبهاء الدولة البويهى، وقد أسس هذه المكتبة وأوقفها على الناس سنة ٣٨٢ هـ بالكرخ فى بغداد، وسماها بدار العلم وقد نقل إليها كتباً كثيرة. ويعتبر حى الكرخ آنذاك المركز الثقافى بالمدينة وهو أحد الأحياء الكبيرة المزدحمة بالسكان وقد إحتل المكانة الأولى بين أحياء المدينة فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) حيث كان العلماء يجتمعون فيه ويمارسون نشاطهم وفى هذا الحى جزء من أحسن أجزاء بغداد بين برجين قديمين للمدينة يسمى لذلك «محلة بين السورين».

وكان سابور بن أردشير قبل أن يستوزره بهاء الدولة، كاتبا ذا ثقافة واسعة. وهو كما يبدو من اسمه فارسى الأصل شيعى المذهب. ويقول ياقوت الرومى أنه قد وقع اختياره على حى الكرخ ليقيم فيه المكتبة لأن أهل هذا الحى كلهم من الشيعة.

وفى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١م) اشترى داراً وعمَّرها وأمر بتبليطها بالرخام وطلائها بالكلس. وسمَّاها دار العلم وأوقفها على أهله ونقل إليها كتبا من أفضل ما نسخ الخطاطون وكبار العلماء، إبتاعها وجمعها وبلغت مجموعاتها فيما يقال عشرة آلاف مجلد وأربعمائة، منها مائة نسخة من المصاحف بخطوط على بن مقلة وسائر أفراد أسرته من الخطاطين المشاهير. وقد ورد اسم هذه المكتبة فى المصادر بصيغتين مختلفتين فابن الأثير يذكرها باسم خزانة الكتب، وياقوت وإبن تغرى بردى وغيرهما يسمونها (دار العلم). وقد أوقف سابور بن أردشير عليها أوقافا كثيرة مجزية للإنفاق على المكتبة. كما كان العلماء والمؤلفون يقدمون لها من مؤلفاتهم وكتبهم ما جعل المجموعات فى زيادة مستمرة على نحو ما فعل الطبيب المشهور جبرائيل بن بختيشوع الذى قدم لها كتابا من خمسة مجلدات ألفه خصيصا لها بعنوان الكناش (توفى جبرائيل سنة ٣٩٦هـ). وكذلك فعل أحمد بن على بن خيران الكاتب (توفى ابن خيران سنة

٤٣١هـ) صاحب ديوان الإنشاء فى مصر حين أرسل جزأين من شعره ورسائله ليرى إن لقى القبول يرسل ببقية الأجزاء.

وكان أبو العلاء المعرى من الشخصيات الشهيرة التى ارتحلت إلى بغداد للإستفادة من مجموعات هذه المكتبة. وقد كتب فيها شعراً ونثراً حيث بقى يتردد على هذه المكتبة عاماً وأكثر فيقول «وأحلف ما سافرت استكثر من النشب ولا أتكثر بلقاء الرجال ولكن آثرت الإقامة بدار العلم فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن باقإمتى فيه». ويقول شعرا فيه:

شغفاً بدار العلم فيك وقلـــبه ** مـــا زال ربعـــا للعلـــوم ودارا

وفى موضع آخر يقول:

ما أربى إلا معرس معشـــــر ** هم الناس لا سوق العروس ولا الشط

أخازن دار العلم كم من تنوفة ** أتـــت دوننـــا فيهـــا العـوازف واللغط

وقد ضمَّن الواقف مجموعات المكتبة فى فهرس أعده سبط بن الجوزى فى مقدمته:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ثبت جمعه سابور بن أردشير فيه كتب القرآن الكريم وعلومه وتفسيره وقراءاته، والفقه والعبادات والفرائض والفقه على المذاهب والتوحيد والجدل والخلاف وفيه مصنفات آل البيت عليهم السلام وعلم الأنساب واللغة والحكم والأمثال والعربية والعروض والقوافى وفيه كتب عن الشعراء المخضرمين والمحدثين، والطرائف والأخبار والرسائل وكتب الطب والتنجيم والحكمة والهندسة وغيرها من العلوم».

«جزى الله سابور بن أردشير على نيته الطيبة ولقاه ثواب مابناه وأنشاه ومن بدَّل شيئا مما اشترطه فعليه لعنة الله وله عذابه الأليم».

وقد جادت علينا المصادر بأسماء عدد ممن أشرفوا على المكتبة أو عملوا بها كخازنين (أمناء) أو مجرد مناولين:

لمشرفون

* الشريف أبو الحسين أو أبو الحسن محمد بن الحسين بن أبى شيبة (وفى مصادر أخرى ابن أبى شبية، ابن أبى سنية).

* أبو عبد الله محمد بن أحمد الحسنى البطحانى.

* أبو عبد الله الحسين بن هارون الضبى.

وكان ثلاثتهم فى حياة سابور واقف المكتبة. وبعد وفاته عين آخر هو:

* الشريف المرتضى: أبو القاسم على بن الحسين بن موسى (ت ٤٣٦هـ).

الخزنـــــة

* أبو محمد بن موسى الخوارزمى (ت ٤٠٣هـ).

* أبو أحمد عبد السلام بن الحسين بن محمد البصرى (لقب الواجكا ت٤٠٥هـ).

* أبو منصور محمد بن على بن إسحاق بن يوسف الكاتب (ت ٤١٨هـ).

* أبو منصور محمد بن أحمد بن طاهر بن حمد .

* يوسف يعقوب بن سليمان الإسفراييني (ت ٤٨٨هـ).

المناولـــــون

ذكر المعرى فى رسالة الغفران إسم سيدة كانت تعمل فى هذه المكتبة ويبدو أنه خصها بالإسم لأنها أنثى ولا نشك أنه كان هناك مناولون غيرها لم يرد لهم ذكر فى المصادر المختلفة. هذه المناولة إسمها «توفيق السوداء» كانت تخرج الكتب من الخزائن لتقدمها إلى النساخ والقراء يوم كان أبو منصور محمد بن على خازناً. ونص أبى العلاء حول توفيق السوداء يسير على النحو الآتى:

«وتقول الأخرى: أتدرى من أنا يا على بن منصور؟ أنا توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد على زمان أبى منصور محمد بن على الخازن،

وكنت أخرج الكتب إلى النساخ، فيقول لا إله إلا الله، لقد كنت سوداء فصرت أنصع من الكافور... فتقول أتعجب من هذا والشاعر يقول لبعض المخلوقين:

لو أن من نوره مثقال خردلة ** فى السود كلهم لابيضت السود

ولقد لعبت هذه المكتبة دوراً بارزا فى الخدمة المكتبية للعلماء والباحثين والقراء من كل حدب وصوب، وقدمت لهم القرطاسية إن احتاجوا إليها؛ طوال نحو قرنين من الزمان، حيث احترقت سنة ٤٥١هـ.

تذكر المصادر أنه فى سنة ٤٥١هـ قام أهل السنَّة بمهاجمة حى الكرخ الشيعى وأشعلوا فيه حرائق هائلة ونهبوا ما استطاعوا نهبه. ويقال بأن النار اشتعلت فيها سواء عن قصد أو بغير قصد. ومن الطريف أن الوزير عميد الملك الكندرى وزير طغرل بك أمر بإخماد الحريق وطرد الدهماء الذين كانوا ينهبون المكتبة تحت ستار الحريق، وبدلاً من أن يرد إليها ما نهبوه، أخذ ينتقى هو أفضل ما نجا من الحريق والسلب والنهب وأخذه لنفسه وأرسله إلى بلده خراسان.

وهكذا اندثرت المكتبة وخرجت من الوجود واحدة من أجمل وأغنى المكتبات العامة الإسلامية.

مكتبة سامرا

ذكر ياقوت دار كتب عامة فى مدينة سرى من رأى (سامرة) وربما كانت هى الدار التى أوقفها موفق الدين أبو طاهر الحسين بن محمد. وكان موفق الدين من رجال القرن السادس. وقد مدحه الطبيب أمين الدولة بن التلميذ المتوفى ٥٦٦هـ فى قصيدة بعد ارتياده المكتبة جاء فيها:

وفقت للخير إذ عممت به ** طلابه يا موفق الدين

أزلفت للناس جنة جمعت ** عيون فضل أشهى من العين

فيها ثمار العقول دانية ** قطوفها حلوة الأفانين

لازلت تسمو بكل صالحة ** بسعدى قدرة وتمكين

ويرحم الله كل مستمع ** متبع دعوتى بتأمين

مكتبة الشريف الرضى ببغداد

أنشأها الشريف الرضى أبو الحسن محمد بن الحسين (٣٥٩ - ٤٠٦هـ). وقد عاصرت هذه المكتبة، مكتبة سابور بن أردشير. وقد أوقف الشريف الرضى فيها مجموعة كبيرة من الكتب على طلاب العلم. وكان ينفق بسعة عليها ويقدم القرطاسية مجانا للمحتاجين. ولا نعرف شيئاً كثيرا يقينيا عن مصير هذه المكتبة الذى ربما يكون الحريق والسلب والنهب مثلما حدث فى مكتبة سابور سابقة الذكر.

مكتبة ابن أبى البقاء فى البصرة

يقال إنها أول مكتبة عامة توقف فى البصرة؛ أوقفها أبو الفرج بن أبى البقاء البصرى وهو محمد بن عبيد الله بن الحسن المتوفى سنة ٤٩٩هـ (١١٠٥م) وكان أديبا فقيها «أعلم الناس بالعربية». قال عنها شمس الدين الذهبى ما نصه «ودار العلم بالبصرة فى غاية الحسن والزخرفة ووقف بها اثنى عشر ألف مجلد». وقد تفوق مكتبة سابور ببغداد كما نرى.

مكتبة إبن المارستانية فى بغداد

إبن المارستانية هو عبيد الله بن على بن نصر (٥٤١هـ - ٥٩٩هـ) فقيه حنبلى قرأ كثيرا فى الأدب والطب والمنطق والفلسفة، كان جماعًا للكتب، نسخ كثيرا من الكتب بخطه وحصّل نسخ الأصول. بنى فى بغداد، فى درب الشاكرية مكتبة سماها دار العلم أوقفها على طلاب العلم. وقد رتب لها ناظراً. ولسبب أو لآخر قبض على ابن المارستانية وسجن مع المجانين. ويقال إن المكتبة بيعت مع سائر أملاكه.

مكتبة سيف الدولة فى حلب

أوقف سيف الدولة الحمدانى مجموعة كتب كبيرة فى حلب، أطلق عليها اسم (خزانة الكتب). وقد وضعت فى بناء مستقل. كان خازن هذه المكتبة يدعى ثابت بن اسلم بن عبد الوهاب، أبو الحسن الحلبى. قال عنه السيوطى

«تولى خزانة الكتب بحلب لسيف الدولة» وقد اتخذ من المكتبة مكانا لعقد اجتماعات دينية ومذهبية فقتل لخلافات مذهبية وحيث اتهمه الإسماعيليون بافساد دعوتهم. ويقال أن هذه المكتبة قد أحرقها الفاطميون ضمن ما أحرقوا فى الدولة الحمدانية. ويقال أنه كان بها عشرة آلاف مجلد عندما إحترقت. وقفها سيف الدولة بن حمدان (ت٣٥٦هـ = ٩٦٦م). وغيره ممن جاءوا بعده.

مكتبة غرس النعمة فى بغداد

وقفها أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسِّن بن أبى الصابئ المعروف بغرس النعمة عام ٤٥٢هـ = ١٠٦٠م. ويقال إن السبب فى ذلك هو احتراق مكتبة سابور بن أردشير فخاف غرس النعمة من زوال العلم فأوقف هذه المكتبة التى ابتنى لها بناءً خاصاً بشارع ابن أبى عوف من غربى بغداد. وقيل ان عدد الكتب فيها بلغ ألفاً فقط وقيل أربعة آلاف فى مصادر أخرى، وقال آخرون بل أربعمائة كتاب فقط. ويغلب على الظن أنها كانت بضعة آلاف لأن الواقف كان غنيا ولم يكن ليبنى داراً مخصوصة لبعضة مئات. وقد خصص لها خازنا يدعى ابن الأقساس العلوى. وكانت هذه المكتبة مكان لقاء العلماء والباحثين. وكانت لهم فيها مناظرات ومناقشات علمية. ويذكر أن هذه المكتبة لم تعمر طويلاً، حيث فكَّ الواقف نفسه الوقف وباع المكتبة وأنفق ثمنها فى الصدقات.

مكتبة أرسطاطاليس بالإسكندرية

كان أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الدانى المتوفى سنة ٥٢٩هـ (١١٣٤م)، من دارسى الحكمة والفلسفة اليونانية إلى جانب كونه أديباً وطبيباً. وقد كان فى الإسكندرية فى ذلك الوقت بناء باسم الحكيم أرسطاطاليس كان يتخذه هذا الرجل مكاناً يلقى فيه العلم على مريديه وتلاميذه ومنهم أبو عبد الله الشامى. ويبدو أنه قد تكونت فى هذا المكان مكتبة عامة كبيرة فى زمن الفاطميين لا يعرف حتى الآن من أوقفها أو كونها ولماذا سميت باسم أرسطاطاليس. إنما يمكن أن نستنتج أن المبنى كان بهذا الاسم فى الإسكندرية منذ العهد اليونانى وظل الإسم لصيقاً به حتى عصر الفواطم الذين رأوا إنشاء

مكتبة للناس على غرار تلك التى أسسوها فى القدس والقاهرة. وربما تكون قد انتهت نفس نهاية مكتبات الفواطم على يد صلاح الدين؛ فقد سلك صلاح الدين نفس المسلك، إزاء المكتبات والفكر فى كل مكان وصلت إليه عساكره؛ حدث هذا فى مصر بالقاهرة والإسكندرية، والشام فى القدس وحلب وغيرها.

مكتبة ابن شاه مروان بالبصرة

قام الوزير أبو منصور إبن شاه مروان بين ٤٤٠هـ و٤٤٧هـ - وكان وزيرا للملك ابن أبى كاليجار الديلمى أمير البصرة وملك فارس فى تلك الفترة - بوقف مجموعة من الكتب فى دار خاصة بالبصرة، يقال إنها كانت من أنفس الكتب وأعيانها. كان العلماء والدارسون يؤمونها للاستفادة منها، إلا أن المكتبة لم تعمر طويلاً، إذ قام الأعراب بإحراقها ونهبها سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) عندما هاجموا البصرة واستولوا عليها «ونهبوا ما فيها نهباً شنيعاً» على حسب تعبير إبن الأثير وبدر الدين العينى.

* * *

هذه مجرد عينات من المكتبات العامة التى أوقفها أعيان المسلمين للإنتفاع العام، والتى لا نشك فى أنها انتشرت إنتشاراً كبيرا فى أرجاء العالم الإسلامى والنماذج التى أتينا عليها كانت مثل كثيرات قائمة بذاتها مستقلة بمبانيها. ولابد من التذكير بأن مكتبات أخرى قد أوقفت على الجوامع والمساجد والمدارس وهذه لا ينبغى أن ننظر إليها على أنها مكتبات عامة رغم أنها كانت مفتوحة وخاصة فى الجوامع للإستخدام العام. ولكننا ننظر إلى كل منهما كفئتين متميزتين من المكتبات الإسلامية. وسوف أتناول على الصفحات التالية أنواعاً أخرى من المكتبات التى عرفت لدى المسلمين. مثل مكتبات المدارس، مكتبات الجوامع، مكتبات المستشفيات، مكتبات المقابر، مكتبات الرباطات، مكتبات التكايا. فلم تكن تلك الأنواع مجرد خبطات عشوائية أو نزوات شخصية بل كانت ظواهر فكرية عامة، تستحق منا التأمل والنظر.

الكراس
الرابع
عشر

مكتبات المدارس عند المسلمين

لم تعرف الدولة الإسلامية، المدارس الرسمية ذات المقررات المحددة والكتب الدراسية إلا فى القرن الخامس الهجرى. وطوال القرون الأربعة الأولى للهجرة كانت الجوامع والمساجد تقوم مقام المدارس بطريقة غير رسمية وغير نظامية فى تعليم الناس أصول الدين والفقه واللغة وربما التاريخ والأدب. كذلك قام المسجد بدور هام جدا فى تعليم الصبية مبادئ الكتابة والقراءة وبعض الحساب فى القرنين الثالث والرابع على الأقل. كذلك كانت مجالس العلم التى كانت تعقد فى الدور العامة ودور الكتب بمثابة نوع من التعليم العام والعالى وقد أشار ابن النديم فى الفهرست إلى مجالس علم كان تحضر فيها أجيال مختلفة من الطلاب أو على حسب تعبيره «تلاميذ» فى نفس الوقت. ولسنا ندرى الأسباب التى أدت إلى تأخر ظهور المدارس الرسمية طوال أربعة قرون سواء كانت تلك الأسباب دينية أو اجتماعية أو سياسية.

لقد كان فى مصر القديمة نظام بالغ التطور للتعليم الرسمى متعدد المراحل حتى التعليم الجامعى الأكاديمى. وكان فى العراق القديم أيضا مثل هذا النظام المتطور للتعليم الرسمى. وعندما فتح العرب مصر والعراق، لابد وأنهم قد وجدوا بقايا هذه الأنظمة على الأقل، كذلك فإن الشام أيضاً كان لابد وأن تكون فيه بقية من التعليم النظامى اليونانى والرومانى. ومع كل ذلك فإن الدولة الإسلامية استغرقت وقتًا طويلاً حتى أخذت بأسباب التعليم الرسمى النظامى.

لم يأت القرن الخامس الهجرى حتى كان التعليم الرسمى قد ظهر إلى جانب التعليم التقليدى فى الجوامع والمساجد والزوايا ومجالس العلم والأمالى وحلقات التفقيه والتثقيف. وكان من الطبيعى أن تكون المكتبة جزءا من المدرسة التى انتشرت فى العالم الإسلامى انتشاراً كبيرا. وقد وقفنا على عدد كبير من المدارس التى تأكدنا من وجود المكتبات بها نسجل أهمها ثم ننتقى منها بعضها لتصوير واقع تلك الظاهرة:

العــــراق

بغــــداد

١ - المدرسة النظامية (منتصف الخامس الهجرى) أسسها نظام الملك أبو على الحسن بن على.

٢ - المدرسة المستنصرية (النصف الأول من السابع الهجرى) أسسها الخليفة المستنصر بالله.

٣ - المدرسة الجيلية (أواخر الخامس الهجرى) أسسها أبو سعد المخرمى ووسعها عبد القادر الجيلى.

٤ - مدرسة إبن هبيرة (منتصف السادس الهجرى) أسسها الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة

٥ - المدرسة الفخرية (أواخر السادس الهجرى) أسسها فخر الزمان أبو الفضل مسعود بن على المعروف بابن الصوابى.

٦ - المدرسة الجوزية (منتصف السادس الهجرى) أسسها أبو الفرج عبد الرحمن بن على الجوزى.

٧ - مدرسة عبيد الله (أواخر السادس الهجرى) أسسها الخليفة الناصر المتوفى سنة ٦٢٢هـ.

٨ - المدرسة التبشيرية (أوائل الثامن الهجرى) لم يعرف مؤسسها. خازنها فخر الدين ابراهيم بن حسن بن البواب.

٩ - المدرسة المسعودية (منتصف الثامن الهجرى) اسسها الخواجة مسعود بن سديد الدولة منصور.

مدن عراقية أخرى

١٠ - المدرسة البدرية فى الموصل (أوائل السابع الهجرى) خازنها عماد الدين إسماعيل بن هبه الله الموصلى

١١ - مدرسة أبى الحسن فى ماردين (أواخر السابع الهجرى) أسسها السلطان أبو الحسن ٦٧٦هـ.

١٢ - مدرسة قرة أرسلان فى ضواحى ماردين (منتصف السابع الهجرى) أسسها السلطان أبو حرب قرة أرسلان بن الملك السعيد.

سوريـــا

دمشـــق

١ - المدرسة العادلية (أواخر السادس الهجرى) أسسها مسعود بن محمد النيسابورى وأتمها العادل.

٢ - المدرسة الشبلية (أواخر السادس الهجرى) أسسها شبل الدولة كافور بن عبد الله الحامى.

٣ - المدرسة الرواحية (أواخر السادس الهجرى) أسسها زكى الدين أبو القاسم هبه الله بن رواحة

٤ - المدرسة البادرائية (أوائل السادس الهجرى) أسسها نجم الدين البادرائى.

٥ - المدرسة الناصرية (أواخرالسادس الهجرى) أسسها الملك الناصر.

٦ - المدرسة السيفية (أواخر السادس الهجرى) أسسها الأمير سيف الدين بكتمر (ت ٦٢٤هـ)

٧ - المدرسة الجوزية (أوائل السابع الهجرى) أسسها أبو الفرج عبد الرحمن بن على الجوزى.

٨ - دار الحديث النورية (منتصف السادس الهجرى) أسسها نور الدين محمود بن زنكى.

٩ - دار الحديث الأشرفية (أوائل السابع الهجرى) أسسها المحدث ضياء الدين المقدسى محمد بن عبد الواحد (ت ٦٤٣هـ).

حلـــب

١١ - المدرسة النورية (منتصف السادس الهجرى) أسسها نور الدين محمد بن زنكى

١٢ - المدرسة الظاهرية (أواخر السادس الهجرى) أسسها الملك الظاهر غازى الأيوبى

١٣ - المدرسة الشرفية (أوائل السابع الهجرى) أسسها شرف الدين عبد الرحمن العجمى

١٤ - المدرسة السلطانية (أوائل السابع الهجرى) أسسها شمس الدين المزى (ت ٦٤٨هـ)

١٥ - مدرسة الدوادار الناصرى (أوائل الثامن الهجرى) أسسها الأمير صلاح الدين يوسف الدوادار

١٦ - دار الحديث البدرية (منتصف الثامن الهجرى) أسسها مؤيد الدين إبراهيم بن يوسف القفطى الملقب بالصاحب.

مصـــر

القاهـــرة

١ - المدرسة الفاضلية (منتصف السادس الهجرى) أسسها القاضى الفاضل

٢ - المدرسة الكاملية (أوائل السابع الهجرى) أسسها السلطان الكامل محمد بن العادل.

٣ - المدرسة الصاحبية (أواخر السادس الهجرى) أسسها الصاحب صفى الدين عبد الله بن على بن شاكر ت ٦٢٢هـ.

٤ - المدرسة الصباحية (منتصف السابع الهجرى) أسسها الوزير الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن رضا.

٥ - المدرسة الظاهرية (منتصف السابع الهجرى) أسست باسم الظاهر بيبرس ٦٢٠ - ٦٧٥هـ.

٦ - المدرسة المنكوتمرية (آخر السابع الهجرى) أسسها الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى

٧ - المدرسة الطيبرسية (أواخر السابع الهجرى) أسسها علاء الدين طيبرس الخازندارى ت ٧١٩هـ

٨ - المدرسة الحجازية (أوائل الثامن الهجرى) أسستها خوند تتر الحجازية بنت السلطان الناصر بن قلاوون

٩ - المدرسة البشيرية (منتصف الثامن الهجرى) أسسها الطواشى سعد الدين بشير الجمدار الناصرى

١٠ - المدرسة العوكلانية (منتصف الثامن الهجرى) أسسها الأديب الشاعر الحسين بن محمد العوكلانى

١١ - المدرسة السابقية (أوائل الثامن الهجرى) أسسها الأمير سابق الدين مثقال الأنكوى

١٢ - مدرسة الجاى (منتصف الثامن الهجرى) أسسها الأمير سيف الدين الجاى

١٣ - المدرسة المحمودية (آخر الثامن الهجرى) أسسها جمال الدين محمود بن على الإستادار.

١٤ - المدرسة الأشرفية (أواخر الثامن الهجرى) أسسها الأشرف شعبان بن حسين بن قلاوون

١٥ - المدرسة الملكية (التاسع الهجرى) أسسها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار.

١٦ - المدرسة الجمالية (آخر الثامن وأول التاسع الهجرى) أسسها جمال الدين الإستادار محمود بن على

١٧ - المدرسة العثمانية (منتصف الثامن الهجرى) أسسها الملك الأشرف أبو المحاسن يوسف العثمانى.

ونظراً لأن المكتبات المدرسية فى العصور الوسطى الإسلامية كانت تمثل ظاهرة عامة وكانت من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها والحديث عن كل واحدة منها فإننا سوف نلقى الضوء على أهمها، لإبراز تلك الظاهرة الفذة؛ وبطبيعة الحال سيكون الحديث عن بعضها مفصلا وعن بعضها الآخر مجملاً.

مكتبة المدرسة النظامية ببغداد

يقال بأن نظام الملك الوزير السلجوقى الأشهر فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى هو أول من أسس مدرسة فى الإسلام وعمل على نشر هذه المدارس فى ربوع المدن الإسلامية الخاضعة للسلاجقة مثل بغداد وأصفهان ونيسابور والرى ومرو وغيرها. وكانت تسمى جميعا النظامية نسبة إليه وهو أول من جعل التعليم عملاً تقوم به الدولة وليس عملاً تطوعياً كما كان من قبل. ويذهب البعض إلى اعتبار مدارس نظام الملك هذه بمثابة جامعات أو أكاديميات وليست مجرد مدارس لتعليم أساسيات العلم الدينى والمدنى.

ونظام الملك هو أبو على الحسن بن على بن إسحق الطوسى ولد سنة ٤٠٨هـ (١٠١٨م) وعرف كيف يتقرب من الملوك السلاجقة وكيف يدير الدولة من خلالهم، وقد كان أحد رجال الدولة المرموقين، وقد كان شغوفاً بالعلوم والحضارة، جمع حوله العلماء والباحثين. ولذلك فكر فى إنشاء المدارس وبدأ بإنشاء مدرسة فى بغداد على ضفاف دجلة قرب قصر الخليفة سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٥م)، واستمر العمل فيها نحو عامين حتى افتتحت رسميا سنة ٤٥٩هـ (١٠٦٧م). وقد كان ضمن المبنى بناء خاص بالمكتبة عرف باسم دار الكتب أعطاها نظام الملك إهتماماً خاصاً، زودها بكل غريب ونادر وقد كتب هو بنفسه

كتابا فى الحديث أودعه فى المكتبة عند زيارته الأولى لها سنة ٤٧٩هـ. ومن حسن حظنا أن المؤرخين تناولوا المدرسة والمكتبة بشئ من التفصيل ووصلتنا عنها معلومات كثيرة.

هذه المدرسة دَرَّس فيها عدد من كبار العلماء كما تخرج فيها أيضا شخصيات فذة. ومن بين العلماء الذين حاضروا فى هذه المدرسة الشيخ الإمام الغزالى، الذى حاضر فيها أكثر من عامين وابن شداد صاحب سيرة صلاح الدين الأيوبى، كما زارها إبن جبير ووصفها فى رحلته الشهيرة خلال الحروب الصليبية، كما زارها إبن بطوطة فى رحلته الشهيرة أيضا سنة (١٣٢٧م) كما وصفها الرحالة حمد الله المستوفى عندما زار بغداد سنة ١٣٤٠م. ومن حسن حظنا أن المدرسة ومكتبتها قد نجيتا من الخراب والدمار الذى إجتاح بغداد على يد المغول (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).

لقد ضمت المكتبة أكثر من عشرة آلاف مجلد فى موضوعات شتى إلا أنه غلب عليها علوم الفقه والسنة واللغة والأدب وعلم الكلام. وقد شغل منصب أمين المكتبة فيها علماء لهم شأنهم وخطرهم كان من أوائلهم أبو يوسف الإسفرايينى: يعقوب بن سليمان بن داود المتوفى سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م)؛ الذى كان فقيها أديباً شاعراً خطاطاً. وعندما توفى جاء بعده الأبيوردى: أبو مظفر محمد بن أحمد، وهو أديب مشهور يصفه ياقوت الرومى بأنه مكثر فى التصانيف والتأليف يتمتع بشخصية ذات همة عالية وله طموحات أوصلته إلى السلطان محمد بن ملكشاه، ملك خراسان ليصبح واحداً من رجال الدولة.

وكان من بين أمناء المكتبة المشهورين أيضاً الخطيب التبريزى: أبو زكريا، يحيى بن على بن محمد الشيبانى، وقد كان أديباً له العديد من الكتب المهمة وكان إلى جانب امانة المكتبة يُدرِّس الأدب والفلسفة فى المدرسة. وقد توفى سنة ٥٠٢هـ وهو على رأس العمل.

كذلك تشير المصادر إلى أكرم الدين أبو سهيل كآخر أمين لهذه المكتبة

ولكنها لا تحدد التواريخ التى عمل فيها وإن ذكرت أنه كان معاصراً للعماد الأصفهانى.

وفى سنة ٥١٠هـ نشب حريق فى المدرسة وسرعان ما قام الطلاب بنقل كتب المكتبة حماية لها من النار التى التهمت مبنى المكتبة مما استوجب إعادة تشييده وإعادة ترتيب الكتب فيه على رفوف جديدة. ومع مرور الزمن أصاب المكتبة تصدع واهمال مما جعل الخليفة العباسى الرابع والثلاثين الناصر لدين الله يأمر باعادة إعمارها ونقل إليها الوفا من الكتب والمجلدات النفيسة سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) بل ويقال إنه بنى لها مبنى جديداً. ولهذا نرى المصادر تشير إلى مكتبتين فى هذه المدرسة: مكتبة قديمة وهى التى بنيت مع مبنى المدرسة عندما افتتحت فى عهد نظام الملك، ومكتبة جديدة هى التى أمر بتشييدها أو إعمارها الخليفة الناصر لدين الله، ويبدو أنها زودت بمجموعات كبيرة جديدة من مكتبة الخليفة الخاصة، يقال إن الذى توفرعلى إختيارها مبشر بن أحمد بن على الرازى، أبو الرشيد الملقب بالبرهان وقد توفى فى نفس السنة ٥٨٩هـ.

ولأهمية هذه المكتبة كان الأمراء والوجهاء يوقفون عليها الكتب والأوقاف للإنفاق منها على أعمال المكتبة.

ولعله من نافلة القول أن نذكر أن المدرسة النظامية كان الهدف الأساسى منها حسب قانون الوقف نشر المذهب الشافعى. وكان نص الوقفية يؤكد على أن من يتولى أمانة المكتبة لابد وأن يكون شافعياً، بل وكل من يعمل بالمدرسة والمكتبة يجب أن يكون كذلك لدرجة أن أبا جعفر عمر بن أبى بكر بن عبيد الله الدباس تحول من المذهب الحنبلى إلى الشافعى حتى يجد وظيفة فى المكتبة وبقى فيها حتى وفاته سنة ٦٠١هـ (١٢٠٤م).

ولا نعرف مصير المكتبة أو المدرسة اللتين كان آخر ذكر لهما هو نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى)، بعدما وصفها ابن الفرات المؤرخ المصرى آنذاك بأنها أعظم مدارس بغداد.

مكتبة المدرسة المستنصرية ببغداد

أنشئت المدرسة المستنصرية فى بغداد بعد المدرسة النظامية بنحو نصف قرن، وقد أسسها الخليفة المستنصر بعد سنتين من توليه الخلافة. وكان هدفه أن تدّرس فيها المذاهب الأربعة. وقد بنيت المدرسة على شاطئ دجلة من الجانب الشرقى بجانب قصر الخلافة بالقرب من المدرسة النظامية سالفة الذكر. وقد أنفق الخليفة عليها بسخاء شديد، وقد ظل العمل فى بنائها ست سنوات كاملة مما يعطى الإنطباع بروعة البناء وفخامته واتساعه. وقد افتتحها الخليفة ومعه الوزراء وكبار موظفى الدولة فى إحتفال رسمى مهيب سنة ٦٣١هـ (١٢٣٣م). وكان الخليفة المستنصر بالله ممن يحبون العلم ويغدقون على أهله ويحبون جمع الكتب وقراءتها ويعشقون الخطوط الجميلة ويقتنونها.

يقول المرحوم الدكتور محمد ماهر حمادة فى كتابه عن «المكتبات فى الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها» أنه على الرغم من أنه كانت للخليفة المستنصر بالله مكتبة خاصة فى قصره، إلا أن اسمه لا يقترن بها وانما يقترن بالمدرسة المستنصرية التى بدأ العمل بها سنة ٦٢٥هـ وقد أشرف على بنائها والعمل بها الإستادار مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمى، ويبدو أنه قد حدثت إضافات وتوسعات فيما بعد سنة ٦٣١هـ بحدوث توسعات فى مجالات الدراسة بالمدرسة حيث يذكر ابن الفوطى فى الحوادث الجامعة أنه فى سنة ٦٣٣هـ تكامل بناء الإيوان الذى أنشئ مقابل المدرسة المستنصرية وعمل تحته صُفَّة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطبّ ويقصده المرضى فيداويهم.

ومن الواضح من المصادر المختلفة أن المدرسة ومكتبتها كانتا من الفخامة والأبهة بحيث لم تصل إليها مدرسة أو مكتبة أخرى والنص الآتى بحرفيته يكشف عن جانب من الأبهة وأهم ما فيه أنه يعطينا لائحة الدراسة والمقررات فى المدرسة ومدى مساندة المكتبة للدراسة.

«أنشأ مدرسة على شاطئ دجلة وجعلها وقفا على المذاهب الأربعة ليحصل بها كمال المنفعة فجاءت محكمة البناء راسخة فى الماء فسيحة الفناء، وصفها غريب وحسن ترتيبها عجيب، شامخة إلى عنان السماء، تضحك شرفاتها بالسرور، ويظهر فى أبنيتها الفرح والحبور، ويلمع العز فى جوانبها ويطلع السعد من أساسها وأعاليها، فهى كعبة الأنام وقبة الإسلام، **مجمع سائر الدين ومذاهب المسلمين وعلم الأصول والفروع المتفرق منها والمجموع وعلم القوافى وأحاديث الرسول ومعرفة الحلال والحرام، وقسمة الفرائض والتركات وعلم الحساب والمساحات وعلم الطب ومنافع الحيوان وحفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان**. ولما كملت أبنيتها كسيت بأفخر الملابس وتجلت كأحسن العرائس، ورتّب لها البوابين والفراشين والخدم والطباخين، وأسكن لكل مذهب إثنين وستين من الفقهاء وجعل لهم مدرساً وأربع معيدين، وأجريت لهم بها المشاهرات الوافرة وما يحتاجون إليه من الخبز واللحم والحلوى والفواكه والرز والصابون وجعل فيها طبيب حاذق ماهر، وأثبت عنده عشرة من الطلبة يشتغلون عليه فى علم الطب، وجعل لهم الأكحال السائلة وبنيت لهم صُفَّة فاخرة مقابلة للمدرسة يجلس فيها الطبيب فيقصده المرضى فيداويهم. . .»

«وبنى فى حائط تلك الصُفَّة دائرة وصور فيها صورة الفلك وجعل فيها طاقات لطاف لها أبواب لطيفة، وفى الدائرة بازان من ذهب فى طاستين من ذهب ووراءهما بندقتان من شبَّة لا يدركهما الناظر، فعند مضى كل ساعة ينفتح فما البازين ويقع منهما البندقتان، وكلما سقطت بندقة إنفتح باب من أبواب تلك الطاقات والباب من ذهب فيصير عند ذلك مفضفضاً، وإذا وقعت البندقتان فى الطاستين تذهبان إلى مواضعهما ثم تطلع أقمار من ذهب فى سماء لازوردية فى ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية وتدور مع دورانها وتغيب مع غيبوبتها فإذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء فى دائرة القمر ثم يبتدئ فى الدائرة الأخرى إلى انقضاء

الليل وطلوع الشمس فيعلم بذلك أوقات الصلاة؛ ونظم الشعراء فى ذلك أشعاراً».

وكانت المكتبة من أهم أقسام المدرسة وقد بنى لها بناء مخصوص ضمن مبانيها وقد حددت المصادر موقع المكتبة من المدرسة فهى «القاعات الكبيرة الواقعة فى القسم الشرقى من عمارة هذه المدرسة، يفصل بينها وبين مدرسة الفقه دهليز طويل عال. وهذه القاعات ترتفع بارتفاع طابقين، ولم تكن لها نوافذ بل كانت فيها كوى سقفية لا تزال عامرة تكفى للإضاءة والتهوية».

وبعد أن اكتمل بناء المدرسة والمكتبة أمر الخليفة بتزويد المكتبة بالمجموعات اللازمة من مكتبته الخاصة بالقصر. وقد نقل إليها من «الربعات الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ما حمله مئة وستون حمالاً» وقد بلغ مجموع ما نقل إليها أول مرة ثمانية آلاف مجلد. وقد بلغ عدد أحمالها مائتين وتسعين حملاً. ويبدو أنه قد أضيفت بعد ذلك مجموعات أخرى إلى المكتبة مما جعل بعض المصادر يسجل أن المجموعات قد ارتفعت إلى ثمانين ألف مجلد؛ حيث أهديت إلى المكتبة كتب من جانب كبار رجالات الدولة والوجهاء والمؤلفين والواقفين المختلفين.

وقد طلب الخليفة من أمين مكتبة القصر (عبد العزيز بن دلف) وابنه ضياء الدين أحمد التوجه إلى المكتبة المستنصرية «وإثبات الكتب واعتبارها وترتيب مؤلفاتها فقاما بذلك ونظماها قدر الامكان ورتباها حسب فنونها، ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها، واستدعى ثلاثة أشخاص لمراقبة سير العمل على الوجه الصحيح فيها وهم: شمس الدين على بن الكتبى الخازن، وعماد الدين على بن الدباس المشرف، وجمال الدين ابراهيم بن حذيفة المناول. ولكن للأسف لم يلبثوا حتى أهملوا واجباتهم ولما زار الخليفة المكتبة سنة ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) دهش للفوضى التى سادتها فأمر بحبس العاملين فيها يومين.

وكانت هذه المكتبة لنفاستها وشهرتها يزورها الزوار العابرون ويؤمها الباحثون والعلماء للإفادة مما بها من مقتنيات فريدة. ومن الشخصيات الزائرة

التى توقفت بها ابن بطوطة الذى زار بغداد سنة ١٣٢٧م الذى وجدها شامخة تدور فيها المناظرات وتقام فيها الدورس. وفى سنة ٦٣٤هـ (١٢٤٥م) دخل إلى المكتبة نور الدين أرسلان شاه بن عماد الدين زنكى ويقال أنه أمضى فيها ساعة كاملة، كما زارها فى سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) محمود غازان التترى أمير بلاد فارس. كذلك وفد إليها سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) قطب جيهان حمد بن عبد الرزاق قاضى قضاة المماليك ومعه جماعة من علماء قزوين. ومن بين الزائرين لها أيضاً أمير الحج عز الدين زيد بن على العلوى والأمير عز الدين زيد بن محمد العلوى المكى، والكاتب فخر الدين عبد الله بن أحمد الهشتى الخوارزمى.

أما المشاهير الذين كانوا يفدون إلى المكتبة للإفادة منها فيذكر منهم الفقيه علاء الدين على بن يعقوب الكنكرى والفقيه قوام الدين أبو بكر بن أبى النجم البغدادى والكاتب قوام الدين محمد بن على بن العكيكى والأديب قوام الدين هبة الله بن أحمد الشهريانى، والطبيب الحكيم عيسى بن القسيس الحظيرى والفقيه فخر الدين الحسن بن محمد الطبسى.

وقد جادت علينا المصادر الثقاة بالمشاهرات واليوميات التى ورد ذكرها فى النص الذى أتيت عليه سابقاً. ويكشف عنها الجدول الآتى حسب الوظيفة:

الوظيفة	خبز بالرطل يوميا	لحم بالرطل يوميا	دينار بالشهر
المدرس	٢٠	٥	١٢
الخازن	١٠	٤	١٢
المعيد	٧	٢	٣
مساعد الخازن	٥	٢	٣
المناول	٤	١	٢
الطالب	٤	١	٢ - ١٠ قراريط

وقد تعاقب على خزانة المكتبة شخصيات عظيمة عالمه من بينهم ابن الفوطى

المؤرخ نفسه صاحب العمل العظيم الذى وصف فيه المكتبة (الحوادث الجامعة) وقد أصبح خازنا للمكتبة فى نهاية القرن السابع الهجرى. وابن الفوطى هو أبو الفضل عبد الرازق (ت ٧٢٣هـ). ومن الخزنة البارزين على بن الحسن بن أنجب إبن عثمان الساعى (المتوفى سنة ٦٧٤هـ = ١٢٧٤م). وجمال الدين ياقوت المستعصمى، الخطاط الأشهر (المتوفى ٦٩٨هـ = ١٢٩٨م)، وفخر الدين أبو بكر محمد بن عبد الله التفتازانى. ومن بين المناولين الذين ورد ذكرهم محمد بن سعيد الحداد (صديق ابن الساعى الخازن) وابنه عبد الرحيم (المتوفى سنة ٧٤١هـ = ١٣٤٠م).

ولا نعرف كيف انتهت هذه المكتبة ولا ما آلت إليه المدرسة، إذ خربت وانتهبت مجموعات المكتبة فى وقت ما بين القرن التاسع والحادى عشر الهجرى، حيث زار الرحالة نيبور بغداد سنة ١٧٥٠م فوجد بناء المدرسة والمكتبة على حاله ولكنه كان يستخدم مكانا للموازين وليس ثمة تدريس ولا كتب. ويجب أن نشير إلى أن المدرسة والمكتبة نجيتا من خراب بغداد سنة ٦٥٦هـ. وما يزال بناء المستنصرية قائماً حتى يومنا هذا فى بغداد على شاطئ دجلة وإن كان لحقه كثير من التعديل والتبديل وتغير الوظيفة.

مكتبة المدرسة الفاضلية بالقاهرة

يقال بأن هذه المكتبة هى أجمل المكتبات المدرسية الإسلامية على إطلاقها وقد أنشأها القاضى الفاضل: أبو على عبد الرحيم بن على بن محمد اللخمى البيسانى العسقلانى (٥٢٩هـ - ٥٩٦هـ = ١١٣٥ - ١٢٠٠م) فى مدرسته الشهيرة بالقاهرة.

ومن المعروف أن القاضى الفاضل كان وزيرا لصلاح الدين الأيوبى وكان صاحب مدرسة فى البلاغة والكتابة وكان مغرماً بجمع الكتب وقد انتهز فرصة تكليف صلاح الدين الأيوبى له بتصفية مكتبات الفاطميين على النحو الذى أتينا عليه سابقاً وانتقى لنفسه أفضل ما فيها ويقال أيضاً أنه عندما سقطت مدينة آمد سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م فى يد صلاح الدين وهبه السلطان خزانة كتبها

جميعها ليختار منها ما يشاء وكانت تبلغ كما يقال مليونا وأربعين ألف مجلد فاختار منها القاضى الفاضل ما حمولته سبعين أتاناً. ويضاف إلى ذلك قيام القاضى الفاضل بشراء الكتب من أماكن مختلفة وكان له نساخ ينسخون لحسابه. ولذلك كوّن القاضى الفاضل أكبر مكتبة شخصية فى تاريخ المسلمين وقد قدرت مجموعته الشخصية كحد أدنى بثلاثين ألف مجلد وكحد أقصى بمليون مجلد وهناك أرقام كثيرة بين هذين الرقمين. المهم أنها كانت مكتبة ضخمة بلا شك وفيها نسخ مكررة من الكتاب الواحد فيقال أنه كان عنده من معجم الصحاح ثمانى عشرة نسخة ومن ديوان الحماسة لأبى تمام خمس وثلاثون نسخة.

وعندما أسس القاضى الفاضل المدرسة التى عرفت باسمه فى القاهرة سنة ٥٨٠هـ وكانت من أوائل المدارس فى مصر، جعل فيها مكتبة عظيمة إنتقاها من مجموعته الخاصة التى أشرت إليها يقال إنها بلغت مائة ألف مجلد.

لقد انطوت مجموعات المكتبة على كثير من الأمهات والكتب النادرة التى تخدم مناهج الدراسة حيث أن القاضى الفاضل أنشأ هذه المدرسة فى درب ملوخية بالقاهرة لتكون مدرسة لتدريس فقه الشافعية والمالكية ولا نستبعد أن يكون فيها كتب أخرى فى مجالات متعددة. وتذكر المصادر أنه كان فيها نسخ بديعة من القرآن الكريم بالخط الكوفى كتبت زمن عثمان بن عفان، اشتراها القاضى الفاضل بثلاثين ألف دينار ووضعها بمفردها فى خزانة خاصة قرب محراب المدرسة.

ومن أسماء خزنة المكتبة يرد اسم: عبد الرحمن بن على بن أحمد بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٦٩٥هـ = ١٢٩٥م وهو ابن حفيد القاضى الفاضل نفسه، كما يبدو من اسمه. وكان كاتبا ومؤلفا وله العديد من الإسهامات الفكرية. وابن الحفيد هذا الذى توفى بعد قرن من وفاة القاضى الفاضل يؤكد أن المدرسة والمكتبة استمرتا ردحاً طويلاً من الزمن. ولكن مصير المكتبة غير معروف لنا

على وجه اليقين - حيث يؤكد المقريزى أنه على زمانه - لم يبق من كتبها شئ. وإذا أطلقنا العنان للأدلة العقلية دون النقلية فإن هذه المكتبة تكون قد انتهت لسببين: الفقهاء الذين تعودوا على استعارة الكتب ولا يردونها إلى المكتبة والمجاعة التى حاقت بمصر والغلاء الشديد الذى تبع ذلك مما أدى إلى بيع كتب المكتبة كل مجلد برغيف لتأمين الطعام للطلاب والعاملين بالمدرسة.

مكتبة المدرسة المحمودية بالقاهرة

تنسب هذه المدرسة إلى جمال الدين محمود بن على الاستادار المتوفى سنة ٧٩٩هـ = ١٣٩٦م. وقد أسسها قبل وفاته بعامين سنة ٧٩٧هـ - ١٣٩٤م. ومما يذكر عن هذا الرجل أنه كان حمَّالاً فى ميناء الإسكندرية، وكان نشيطا ذكيا مغامراً ظل يتقرب من السلطان حتى أصبح مقرباً من السلطان ومستشاراً له سنة ٧٩٠هـ = ١٣٨٨م، ويقال أنه أول من أدخل إلى الدولة الإسلامية فكرة تزييف النقود. وإن كان قد نكب عدة مرات. ويبدو أنه قد شاء أن يغسل أمواله القذرة التى اكتسبها بهذا الأسلوب فأنشأ المدرسة وجعل فيها مكتبة عظيمة القدر؛ ولا نعرف كمية الكتب التى كانت موجودة بها ولكنها يقينا كانت كبيرة وفخمة وشاملة حيث يقول عنها المقريزى «لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها»، ومن هنا تكون هذه المكتبة أجمل مكتبات مصر والشام زمن المقريزى فى أوائل القرن التاسع الهجرى.

وربما يكون المقريزى قد أفاد منها فائدة كبيرة فى تأليف كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

وكانت المجموعات تضم كتبا نادرة وكتبا بخطوط مؤلفيها؛ ولا نعلم كيف كانت نهايتها.

مكتبة المدرسة الأشرفية بالقاهرة

تنسب المدرسة إلى السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن قلاوون (توفى ٧٧٨هـ = ١٣٧٦م). وبطبيعة الحال كان بها مكتبة عظيمة القدر من بين كتبها

مصحف بخط ياقوت المستعصمى ومصحف بخط ابن البواب وثمانية مصاحف أخرى غيرهما بخطوط خطاطين مشاهير، حفظت كلها فى محافظ من حرير. ويقال أن كمية الكتب فيها قدرت بعشرة أحمال، على كل حمل علامة الإشهاد بالوقف. وبرغم الإشهاد بالوقف فقد باعها ابن السلطان الأشرف الصالح المنصور إلى الأمير جمال الدين أستادار بثمن بخس قدره ستمائة دينار وكانت تعدل عشرة أمثال هذا المبلغ. وقد وقفها هذا الأمير على مدرسة أسسها سنة ٨١١هـ = ١٤٠٨م.

مكتبة المدرسة الجمالية بالقاهرة

تنسب المدرسة الجمالية إلى جمال الدين محمود بن على الأستادار المتوفى سنة ٧٩٩هـ = ١٣٩٦م. وقد بناها خارج باب زويلة فى القاهرة. وقد اشترى المكتبة الخاصة بابن جماعة (المتوفى ٧٩٠هـ = ١٣٨٨م) بعد وفاته، وكانت مكتبة ضخمة فيها كثير من النفائس، وجعلها مكتبة لهذه المدرسة(*).

وقد وصلنا من كتب هذه المكتبة مخطوطان عليهما علامة الوقف على هذه المكتبة أحدهما مجلد من كتاب ابن مسكويه «تجارب الأمم» والكتاب الكامل يقع فى ستة مجلدات وتاريخ وقفه هو سنة ٧٦٧هـ = ١٣٨٥م.

والمخطوط الثانى هو المجلد التاسع والعشرون من كتاب «نهاية الأرب فى فنون الأدب» للنويرى وعلامة الوقف الموجودة فيه هى نفسها التى كانت موجودة على كل كتب هذه المكتبة وتسير على النحو الآتى:

«الحمد لله كما يجب أن يحمد. وقف هذا المجلد بكامله وكذا المجلدات التى تسبقه والتى تليه، وهى فى ثلاثين مجلداً، محمود الأستادار العالية، على عامة المسلمين. وقف مشروع لطلاب العلم الشريف يستعملونه بطريقة شرعية، وجعل مقره المكتبة السعيدة المخصصة لهذا الغرض فى المدرسة التى فى خط الموازين بالطريق الكبير فى القاهرة المحروسة. واشترط ألا يخرج من المدرسة لا مقابل رهن ولا غيره، ويتولى الواقف الإشراف على المدرسة مدة حياته، ويعهد

(*) ربما تكون مدرسة أخرى غير المدرسة المحمودية لنفس المنشئ أنشئت قبلها بثلاثين عاما بحكم تاريخ الوقف. فهناك تداخل فى المعلومات.

بها من بعده إلى من يشرف عليها وفق الشروط التى حددتها الوقفية، ويحق له دون غيره أن يضيف أو يحذف من الصك ما يراه حسنا. شعبان من عام ٧٦٧هـ. شهد عليه عبد الله بن على النسوك، وعمر بن عبد الرحمن البرماوى».

مكتبة المدرسة العادلية فى دمشق

تنسب هذه المدرسة إلى الملك العادل وكان قد بدأ بناءها نور الدين زنكى وأتمها العادل. وكانت المكتبة فى صدر الإيوان بالمجلس الكبير من مبنى المدرسة، وهو المكان الذى يجلس فيه الإمام للفتوى والإجتماع بالعلماء، ومنه يخرج إلى الصلاة فى المدرسة. وهذه المكتبة هى فى الأصل وقف وقفه قطب الدين النيسابورى: مسعود بن محمد المتوفى سنة ٥٧٨هـ = ١١٨٢م، وكان إماما فى المذهب والخلاف والأصول والتفسير والوعظ كما كان أديبا مناظراً. ولما اكتمل بناء المدرسة العادلية نقلت المكتبة إليها وأضيفت إليها مجموعات أخرى. وما زال المبنى قائماً إلى اليوم فى دمشق يحتله مجمع اللغة العربية بعد تعديله وتغييره.

مكتبة المدرسة البادرائية فى دمشق

تنسب هذه المدرسة إلى نجم الدين البادرائى: أبو محمد عبد الله بن أبى محمد (٥٩٤ - ٦٦٥هـ = ١١٩٧ - ١٢٥٧م). وقد أسسها داخل باب الفراديس بدمشق. وقد خصصها للفقه الشافعى وأوقف عليها وقوفاً حسنة للإنفاق عليها وجعل فيها خزانة كتب جيدة. وكان من بين خزنة هذه المكتبة جمال الدين محمد بن على بن صالح المصرى المتوفى سنة ٧٠١هـ = ١٣٠١م.

مكتبة المدرسة النورية فى حلب

كان فى حلب كاتدرائية عظيمة تم الحفاظ عليها طبقا لتعهدات المسلمين للمسيحيين إلا أنه فى سنة ٥١٧هـ = ١١٢٣م حول إبن الخشاب التغلبى هذه

الكاتدرائية إلى مسجد. وفى سنة ٥٤٣هـ = ١١٤٦م قام نور الدين زنكى الأتابكى المسجد إلى مدرسة عرفت باسمه، جعل فيها مكتبة حسنة وما تزال المدرسة والمكان قائمين حتى اليوم وتعرف بالمدرسة الحلوية. وقد أوقف فيها واقفون آخرون مجموعات من الكتب من بينهم الفقيه أبو بكر ابن أحمد الظاهر المتوفى ٥٥٣هـ = ١١٥٨م والمحدث أبو بكر الرعينى محمد بن شريح المتوفى ٥٦٣هـ = ١١٦٧م. وكذلك كان من بين الواقفين المحدِّث أحمد بن محمود بن إبراهيم الجوهرى المتوفى ٦٤٣هـ = ١٢٤٥م. وقد عمل الرعينى فترة من الزمن خازنا فى هذه المكتبة و«أجريت عليه جراية» ويقال بأن المجموعات قد اندثرت زمن ابن شداد (توفى سنة ٦٨٤هـ = ١٢٨٥م).

مكتبة المدرسة الظاهرية بحلب

أسس هذه المدرسة الملك الظاهر غازى الأيوبى (٥٦٨ - ٦١٣هـ = ١١٧٢ - ١٢١٥م) وقد خصصها للفقه. وقد أوقف عليها مكتبة حسنة. وكان أحد أخوته بعد إقتسام ملك أبيهم صلاح الدين الأيوبى لا يرغب فى السياسة ويحب العزلة، جاء إلى حلب ليقيم عند أخيه الملك الظاهر وأوقف هو الأخر مجموعة كبيرة من الكتب النفيسة على هذه المدرسة.

مكتبة المدرسة الشرفية بحلب

وتنسب هذه المدرسة إلى الشيخ شرف الدين عبد الرحمن العجمى المتوفى سنة ٦٥٨هـ = ١٢٥٩م. وقد جعل فيها مكتبة عظيمة جمع فيها كتبا فى جميع أنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه ولغة ونحو وأدب وتاريخ. وكان من بين الكتب الأمهات الموجودة فيها والتى وصلنا ذكرها. كتاب الأم للإمام الشافعى وتفسير الثعلبى والحاوى الكبير والإبانة والتتمة والذخائر والشامل وجميع مؤلفات الغزالى، وأربعين نسخة من كتاب التنبيه.

ومن الواضح أن المدرسة كانت مخصصة للفقه الشافعى ومن ثم كانت المكتبة تدور فى فلكها. وكان فهرس المكتبة عبارة عن لفافة من الورق، ضاعت عند دخول التتار مدينة حلب سنة ٦٥٨هـ = ١٢٥٩م.

* * *

هذه مجرد عينات فقط كما ألمحت سابقاً من المكتبات المدرسية فى العصر الإسلامى أتينا عليها على سبيل المثال والتمثيل فحسب من المدن الرئيسية فى العالم الإسلامى.

الكراس الخامس عشر

أنـــواع شتـــى من المكتبات الإسلامية

إلى جانب الأنواع الأربعة الرئيسية سابقة الذكر من المكتبات عرف العالم الإسلامى فى العصور الوسطى أنواعاً أخرى من المكتبات ربما كانت أقل انتشاراً من الأنواع الأربعة الرئيسية ولكنها داخل كل نوعٍ كانت تمثل ظاهرة ولم تكن مجرد عرض يعرض لفترة أو لمرة أو مرتين. ويمكننا أن نعدد الأنواع الأقل انتشاراً من المكتبات على النحو الآتى ريثما نعود إلى كل نوع بأمثلة وتفاصيل.

أ - مكتبات البلاطات.

ب - مكتبات المساجد والجوامع.

جـ - مكتبات دور القراء ودور الحديث.

د - مكتبات المستشفيات.

هـ - مكتبات الرباطات.

و - مكتبات المقابر (الترب - المشاهد).

ز - مكتبات التكايا.

أ - مكتبات البلاطات

مكتبات البلاطات كانت عبارة عن مكتبات خاصة يقيمها الحكام (خلفاء، سلاطين، ملوك، أمراء...) فى قصورهم ولاستخدامهم الشخصى فقط ولكن لأنها كانت لحاكم فقد كان لها طابع خاص يميزها سواء عن المكتبة الخاصة التى انتشرت بين خاصة الشعب كما يميزها عن مكتبة الدولة التى لها غرض

بحثى علمى. ولهذا نرى أنها تؤلف نوعاً خاصاً من المكتبات وكما يقول المرحوم الدكتور محمد ماهر حمادة إزدهرت هذه المكتبات حيث ومتى وجد خليفة أو أمير أو حاكم متنور محب للعلوم والآداب راغب فى الكتب وأهلها مقرب للعلماء وكان يباح دخول بعض هذه المكتبات للناس جميعا والبعض الآخر كان محرماً على الناس مقصوراً على إستعمال الخليفة أو الحاكم وحاشيته.

ولقد انتشرت تلك المكتبات البلاطية إبتداءً من القرن الثالث الهجرى بعد إنقسام الدولة الإسلامية إلى دويلات، وكلما استمرت عملية التقسيم فى التزايد ومع زيادة الدويلات والطوائف وكل دويلة لها حاكم أو ملك كان عدد تلك المكتبات البلاطية يزداد.

ففى بلاد خراسان إنشق السامانيون وكونوا دولة خاصة بهم فى بلاد ما وراء النهر، عرفت باسم الدولة السامانية وقد بلغ حكامها أقصى قوتهم فى القرن الرابع الهجرى وكانت لهم فى بلاطهم مكتبة بلاط فى عاصمتهم بخارى حوت كتبا كثيرة فى كل علم وفن رآها ابن سينا ووصفها بعبارات دقيقة حيث قال عنها إنها «دار ذات بيوت كثيرة فى كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها فوق بعض؛ فى بيت كتب العربية والشعر، وفى آخر كتب الفقه وكذلك فى كل بيت كتب علم مفرد... ورأيت من الكتب ما لم يقع إسمه إلى كثير من الناس قط وما رأيته قبل ولا رأيته أيضا من بعد» وهذه المكتبة كانت محرمة على عامة الناس ولا يدخل إليها أحد إلا باذن من السلطان على نحو ما حدث لابن سينا الذى حصل على إذن السلطان نوح بن منصور.

وبالمثل أسس عضد الدولة البويهى فى بلاطه بشيراز مكتبة بلاط وصفها المقدسى وصف معاين حين قال بأن عضد الدولة بنى داراً فى شيراز لم ير فى شرق ولا غرب مثلها ما دخلها عامى إلا افتتن بها ولا عاقل إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها خرق فيها الأنهار ونصب عليها القباب وأحاطها بالبساتين

والأشجار وفجّر فيها الغياض وجمع فيها المرافق والعدد، سمعت رئيس الفراشين يقول: فيها ثلاثمائة وستون حجرة وداراً. كان مجلسه كل يوم واحدة إلى الحول وهى سفل وعلو وخزانة الكتب حجرة على حدة عيها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد. ولم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلها إلا حصله منها.. وهى أزج طويل فى صُفَّةٍ كبيرة فيه خزائن من كل وجه. وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة إلى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق عليها أبواب تنحدر من فوق والدفاتر منضدة على الرفوف، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامى الكتب لا يدخلها إلا وجيه، وطفت فى هذه الدار كلها سفلها وعلوها وقد فرشت فيها الآلات فرأيت فى كل مجلس ما يليق به من الفرش والستور».

ويستمر المقدسى فى «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» فى إعطاء تفاصيل دقيقة عن أنواع السجاد والأبواب وحراس المكتبة الذين يمنعون من لا يحمل إذناً من الدخول والكتب التى قرأها ولخصها.

وكان ابن البواب الخطاط الأشهر خازنا لهذه المكتبة فى عهد بهاء الدولة بن عضد الدولة. كما كان إبن مسكويه المؤرخ الشهير خازنا لفترة فى عهد عضد الدولة نفسه.

كان الخلفاء العباسيون الأقوياء كما مر بنا قد أسسوا فى بلاطاتهم مكتبات وكذلك الحال أيضاً بالنسبة للخلفاء العباسيين الضعاف ومن بينهم الخليفة الناصر والخليفة المستنصر الذى مر ذكره فى المكتبات المدرسية والخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين فى بغداد. وتذكر المصادر أن المستعصم كانت له مكتبتان للكتب فى بلاطه كان فى كل منهما مجموعات من أنفس الكتب. وكان الخليفة يجلس فى كل منهما بالتناوب. ويبدو أن الخليفة لم يكن بقارئ حيث يذكر ابن الطقطقى أن «جلوسه هذا ليس فيه كبير فائدة». وكان أمين المكتبة الأولى هو صدر الدين بن النبار، وأمين المكتبة الثانية هو عبد المؤمن بن فاخر الأرمورى. وقد أنشئت الأولى سنة ٦٤١هـ، أما الثانية فكانت فى نحو ٦٥٣هـ

بعد أن ضاقت الأولى بما فيها من الكتب. وقد حليت جدران المكتبة الأولى بشعر كتبه صفى الدين عبد الله بن جميل كبير شعراء البلاط ومن بين هذا الشعر الأبيات الآتية:

أنشأ الخليفة للعلـــــوم خزانـــة ** سارت بسيرة فضله أخبارها

تجلو عروساً من غرائب حسنها ** در الفضائل والعلوم نثارهـا

أهدى مناقـــبه لهـــا مستعـــصم ** بالله مـــن لألائـــه أنوارها

وفى سوريا قام سيف الدولة الحمدانى فى القرن الرابع الهجرى بإنشاء مكتبة فى بلاطه بحلب، جعلها فى عهدة إثنين من الشعراء هما أبو بكر محمد بن هاشم وأبو عثمان سعيد بن هاشم. وقد أتينا على ذكر مدينة آمد من أعمال الجزيزة الوسطى التى كانت بها مكتبة بلاط ضخمة قيل إن مجموعاتها بلغت مليونا وأربعين ألفا من المجلدات وعندما إستولى عليها صلاح الدين الأيوبى ترك القاضى الفاضل يختار منها ما يشاء فانتخب منها حمل سبعين أتاناً، ويقال بأن ابن قرة بن أرسلان باع من ذخائر هذه المكتبة مالا حاجة له بها طيلة سبع سنين عدداً.

وفى مصر كانت هناك فى البلاطات المتعاقبة مكتبات لعل أشهرها وأثراها مكتبات القصور الفاطمية التى وصفت بأنها من عجائب الدنيا وليس فى بلاد الإسلام جميعها دار كتب أعظم منها. وتذكر المصادر بأن مكتبات البلاط الفاطمى كانت فئتين: خزائن القصر الخارجية وقد أجمعت المصادر على أن عددها بلغ أربعين خزانة على النحو الذى قال به ابن تغرى بردى والمقريزى، كان أكبرها تلك الخزانة الموجودة فى أحد مجالس البيمارستان العتيق. وخزائن القصر الداخلية كان الاطلاع عليها محظوراً على العامة. ويصف المقريزى إحدى خزائن القصر الداخلية بقوله بأن هناك خزانة من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب فى العلوم القديمة. وأن الموجود فيها من جملة الكتب المخرجة من شدة المستنصر بالله ألفان وأربعمائة ختمة قرآن فى ربعات بخطوط منسوبة زائدة

الحسن محلاة بذهب وفضة وغيرهما. وقد وجدت [أى المقريزى] صناديق مملوءة أقلاما مبرية من براية إبن مقلة وإبن البواب وغيرهما.

ويصف المقريزى مجئ الخليفة إلى المكتبة بتفاصيل دقيقة فيقول يجئ الخليفة «راكبا ويترجل على الدكة المنصوبة ويجلس عليها ويحضر إليه من يتولاها، وكان فى ذلك الوقت الجليس بن عبد القوى، فيحضر إليه المصاحف بالخطوط المنسوبة وغير ذلك مما يقترحه من الكتب فإن عنّ له أخذ شئ منها أخذه ثم يعيده، وتحتوى هذه الخزانة على عدة رفوف فى دور ذلك المجلس العظيم، والرفوف مقطعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصّلات وقفل وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب من المجلدات ويسير من المجردات، فمنها الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف النسخ، ومنها النواقص التى ما تممت كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على باب كل خزانة وما فيها من المصاحف الكريمة فى مكان فوقها وفيها من الدروج بخط ابن مقلة ونظائره كإبن البواب وغيره... فإذا أراد الخليفة الإنفصال مشى فيها مشية لنظرها. وفيها ناسخان وفراشان... وكانت من عجائب الدنيا، ويقال انه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى بالقاهرة فى القصر ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبرى إلى غير ذلك ويقال بأنها كانت تشتمل على ألف ألف وستمائة ألف كتاب، وكان بها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة.

لقد كانت مكتبات البلاطات الفاطمية تضم عدة نسخ من الكتاب الواحد، وكان جل إهتمام الخلفاء بجمع نوادر الكتب والنسخ المكتوبة بخطوط مؤلفيها وخطوط أشهر الخطاطين مهما كلفهم ذلك من مال وجهد. ذكر عند الخليفة العزيز بالله الفاطمى كتاب العين فى اللغة فأخرج منه من خزائنه ما يربو على ثلاثين نسخة منها نسخة بخط الخليل بن أحمد الفراهيدى مؤلف الكتاب. واشترى نسخة من تاريخ الطبرى بمائة دينار وكان عنده عشرون نسخة منها

نسخة بخط محمد بن جرير الطبرى نفسه وذكرت عنده جمهرة بن دريد فأخرج منها مائة نسخة.

وكان مصير مكتبات البلاطات الفاطمية هو نفس مصير دار العلم (مكتبة الدولة) حيث تحالفت عليها الفتن والمحن والإحن فبددت جانبا منها وجاء صلاح الدين الأيوبى فقضى على البقية الباقية كما أشرت إلى ذلك من قبل. ولنترك المقريزى يرسم جانبا من الصورة المأساوية لمكتبات البلاطات الفاطمية:

ففى سنة ٤٦١هـ عجز الخليفة المستنصر عن دفع رواتب الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى والخطير بن الموفق فى الدين فأخذا فيما أخذاه عما يستحقانه خمسة وعشرين جملا موقرة كتبا وقد قومت حصة الوزير أبى الفرج بخمسة آلاف دينار ويقول المقريزى بأن ثمنها الحقيقى يصل إلى أكثر من مائة ألف دينار. ولم تبق هذه الكتب عند الوزير فترة طويلة إذ أنها نهبت من داره فى نفس السنة مع ما نهب.

ولقد ضعف سلطان الخليفة جداً وتجرأ الناس على إغتصاب الكتب والإبحار بها فى النيل وإرسالها إلى الإسكندرية أو المغرب وأغلبها من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل فى سائر الأمصار صحة وحسن خط وتجليد. وقد هاجم عسكر السودان القصر ونهبوا محتوياته وأخذوا الكتب المجلدة أفخر تجليد فأحرقوا أوراقها واتخذوا من جلودها نعالا لهم سوى ما غرق وتلف وحمل إلى سائر الأقطار. وبقى منها مالم يحرق وسفت عليه الرياح التراب فصار تلالاً باقية إلى اليوم (أيام المقريزى) فى نواحى آثار تعرف بتلال الكتب.

وقد سبق أن شرحنا كيف طرح صلاح الدين الأيوبى ما بقى من مكتبات القصر للبيع على يد إبن صورة الدلال وقد إستمر البيع لعدة سنوات.

وفى الأندلس عندما تفسخت الدولة إلى ملوك الطوائف ظهرت أيضا مكتبات البلاطات بكثرة. كان من بين ملوك الطوائف المظفر بن الأفطس من حكام القرن الخامس الهجرى الذى أنشأ فى بلاطه مكتبة عظيمة ولم يكن فى ملوك الأندلس من يفوقه أدبا ومعرفة قال عنه ابن بسام «كان المظفر أديب ملوك

عصره، غير مدافع ولا منازع وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق المترجم بالتذكرة وقد اشتهر بين الناس باسم الكتاب المظفرى فى خمسين مجلداً وهو يشتمل على فنون وعلوم من مغاز وسير ومثل وخبر وجميع ما يختص به علم الأدب، أبقاه للناس خالداً». وقد توفى المظفر سنة ٤٦٠هـ.

ب - مكتبات المساجد والجوامع

كانت مكتبات المساجد من أوائل أنواع المكتبات التى ظهرت فى العالم الإسلامى. ومن الواضح أن المساجد كانت مكانا للدراسة منذ القرن الأول الهجرى. ولم تكن هناك بطبيعة الحال دراسة فى المساجد بدون كتب وقد بدأت الكتب فى المساجد بنسخ من القرآن الكريم وكتب الحديث وكتب الفقه وغيرها من الكتب الدينية ومع تعاظم دور المسجد كمدرسة لا تدرس فقط علوم الدين بل امتدت إلى علوم الدنيا مثل الفلسفة والفلك والصنعة وسائر العلوم فيما عدا الطب؛ فقد تطورت بعض المساجد وأصبحت مراكز فكرية هامة ومراكز للتعليم والتدريس، واجتذبت الطلاب من أنحاء متفرقة كما حدث فى الجامع الأموى فى دمشق، وفى جوامع مكة والمدينة وفى الجامع الأزهر فى القاهرة وفى جامع المنصور فى بغداد وفى جوامع قرطبة وطليطلة. وكان جامع طليطة بالذات ذا شهرة كبيرة وقد اجتذب الطلاب ليس فقط المسلمين بل النصارى أيضا من جميع أنحاء أوربا حتى انجلترا واسكتلندا كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

وعندما نحلل بعض أمثلة من مكتبات المساجد لابد وأن نبدأ بمكتبة الجامع الأموى فى دمشق، حيث بدأ ظهور خزائن الكتب فيه على استحياء من نهاية القرن الأول الهجرى وقد ظلت خزائن الكتب فى إزدياد مستمر وتنوع فعال وازدهرت تلك الخزائن بعد أن تم الإعتراف بوقف الكتب كعمل يتفق مع مبادئ الوقف الشرعية وخاصة فى مكتبات المساجد حيث قام الكثيرون بوقف الكتب على المساجد إبتغاء مرضاة الله؛ إلا أنه للأسف احترق الجامع الأموى بكل ما فيه من مكتبات سنة ٤٦١هـ = ١٠٦٨م ومضى وقت طويل قبل إصلاحه وقبل أن تعود إليه سيرته الأولى كمركز فكرى وإشعاع علمى.

ولعل أقدم قطعة وصلتنا من مكتبة الجامع الأموى هى تلك المحفوظة الآن في متحف دمشق (رقمها ٢٢ فى المتحف) وهو جزء من المصف الشريف مكتوب على رق وقد وردت عليه عبارة الوقف التالية مؤرخة:

«وقف هذه الأجزاء وهى ثلاثون جزءاً فى المسجد الجامع بدمشق، عبد المنعم بن أحمد، طلبا لثواب الله وابتغاء مرضاته. فى ذى القعدة سنة ثمان وتسعين ومئتين» وهذا التاريخ يعادل شهر يولية سنة ٩١١م.

ويقول الدكتور يوسف العش أن من المحتمل أن يكون أحمد بن على بن الفضل بن الفرات المتوفى ٤٩٤هـ = ١١٠٠م هو أول من أوقف عليه الكتب بعد الحريق، حيث يذكر إبن عساكر أنه كان «قد أوقف خزانة كتب فى الجامع الكبير». وهناك الكثيرون من أمثال ابن الفرات قاموا بوقف كتب فى نفس الجامع من بينهم على بن طاهر بن جعفر أبو الحسن السلمى النحوى (٤٣١ - ٥٠٠هـ = ١٠٣٩ - ١١٠٦م). وقد كانت له حلقة بالجامع بدمشق ووقف فيه خزانة كتب فيما يذكر إبن عساكر أيضاً، وكذلك فعل عبد الله بن عبد الكريم أبو المعالى بن الطويل المتوفى سنة ٥١٤هـ = ١١٢٠م وكان صالحاً دينا وقف كتبه فى الزاوية الغربية من جامع دمشق.

وقد حصر الدكتور يوسف العش مجموعة المكتبات أو الخزانات التى أوقفت على الجامع الكبير فى دمشق فى مواضعه المختلفة ومن بينها:

١ - الخزانة الفاضلية. التى أوقفها أحمد بن عبد الرحيم بن على البيقانى المتوفى سنة ٦٤٣هـ = ١٢٤٥م وهو المعروف بالقاضى أشرف بن القاضى الفاضل الذى مر ذكره. وكانت هذه الخزانة شمالى بركة الكلاسة شمالى الجامع داخل المقصورة.

٢ - خزانة التربة الأشرفية. وتنسب إلى الملك الأشرف موسى بن محمد بن أيوب (٥٧٨ - ٦٣٥هـ = ١١٨٢ - ١٢٣٧م). وقد وضع فيها كثيرا من الكتب. وقد زارها ابن خلكان وهو الذى سماها بهذا الإسم واستمرت هذه الخزانة فى

الوجود حتى القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر الميلادى. وقد تولى قاضى القضاة صدر الدين بن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦هـ = ١٤١٦م، الإشراف على هذه الخزانة بالجامع فترة من الزمن. وهذه الخزانة كان موضعها فى تربة الملك الأشرف بجوار الكلاسة التى هى زيادة الجامع الكبير فى شماله.

٣ - خزانة مشهد إبن عروة. ويعتبر الدكتور العش هذا المشهد أحد ملاحق الجامع لأن مكان المشهد كان مخزنا لبعض متعلقات الجامع وقام شرف الدين محمد بن عروة الموصلى بعزله وتبييضه وجدد الخزانتين عن يمينه ويساره ووقف فيهما كتبا ولذلك سمى المشهد باسمه.

٤ - خزانة حلقة الحنابلة. كان للحنابلة حلقة يصلون فيها وكان العماد الحنبلى بن عبد الواحد المتوفى سنة ٦١٤هـ يصلى بهم. وقامت فى هذا الموضع خزانتا كتب جمعتا فى واحدة بعد ذلك.

٥ - خزانة بيت الملك المحسن. كان للملك المحسن أحمد بن صلاح الدين بيت غرب الكلاسة شمال الجامع. ومع مرور الوقت أصبح البيت فى ملاك الجامع وقد أوقف فيه تقى الدين أبو طاهر إسماعيل بن عبد الله الأنماطى (ت ٦١٨هـ = ١٢٢١م) مكتبة عظيمة كان قد جمعها فى مدة طويلة.

٦ - خزانة كتب الكندى. كان فى الجامع الأموى مقصورة بجوار مشهد زين العابدين عرفت باسم مقصورة ابن سنان حينا ثم المقصورة الحلبية حينا آخر وكانت فى الزاوية الشمالية الشرقية من الجامع. وقد وضعت فى هذه المقصورة كتب الشيخ تاج الدين الكندى بن الحسن (ت ٦١٣هـ = ١٢١٦م). وكانت مجموعة قيمة نفيسة تضم حسبما ورد فى فهرسها ٧٦١ كتاباً موزعة على الموضوعات الآتية: علوم القرآن ١٤٠ كتابا؛ الحديث ١٩ كتابا؛ الفقه ٣٩ كتابا؛ اللغة ١٤٣ كتابا؛ الشعر ١٢٢ كتابا؛ النحو والصرف ١٧٥ كتابا؛ علوم الأوائل ١٢٣ كتابا.

٧ - خزانة كتب الفخر المالكى. وكان الفخر المالكى: محمد بن عمر بن عبد الكريم الشافعى المتوفى سنة ٦٤٣هـ = ١٢٤٥م قد أوصى بخزانة كتبه

أن توضع فى مقابل المحراب المعروف بمحراب الصحابة. ومن هنا عرفت باسمه.

٨ - خزانة مشهد أبى بكر. وجدت فىْ مشهد أبى بكر الموجود فى زاوية الجامع عدة خزائن جمعت فى واحدة فى زمن ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩هـ = ١٣٤٨م.

٩ - خزانة كتب الطحان. أوقف الحسن بن محمد بن إسماعيل بن الطحان، مجموعة كبيرة من الكتب فى الجامع الأموى عرفت باسمه. ومن المعروف أن ابن الطحان توفى سنة ٧٤٧هـ = ١٢٤٦م.

١٠ - مجموعة المصاحف. كان من الطبيعى أن يوقف الناس المصاحف على الجامع. وكانت هناك مصاحف معروفة بأصحابها مثل مصحف الصاحب بهاء الدين على بن محمد المتوفى سنة ٦٦٩هـ = ١٢٧٠م والذى خصصه للقراءة بعد صلاة الفجر تحت قبة النسر، وأجرى على القارئ فيه كل شهر معلوماً. ومثله مصحف شيخو الفارابى الناصرى الساقى المتوفى سنة ٧٥٢هـ = ١٣٥١م.

هذا ولقد جمعت الخزائن المبعثرة فى أرجاء الجامع زمن الملك المعظم عيسى بن العادل (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) ووضعت جميعا فى مشهد عروة المشار إليه وذلك بناء على توصية من قاضى دمشق جمال الدين يونس بن بدران. وإن لم يستمر الأمر طويلاً وعاد الحال إلى ما كان عليه من التبعثر. ومن ثم قدر عدد الخزائن التى وجدت فى الجامع بنحو عشرين خزانة، أوقفت فى فترات مختلفة وقد ضمت نحو خمسة آلاف مجلد فى علومْ مختلفة ولم تكن قاصرة بحال من الأحوال على علوم الدين وحدها.

وفى مساجد مصر كانت هناك أيضا مكتبات فى موضوعات متنوعة فقد ذكرت المصادر أنه كانت هناك خزائن كتب فى جامع أحمد بن طولون وكان أهم ما فيها صناديق المصاحف الكبيرة جميلة الخط.

وتركز المصادر على الجامع الحاكمى الذى بناه الحاكم بأمر الله الفاطمى

حيث أوقفت عليه مجموعات كبيرة من المصاحف خاصة ومن بينها ما وقفه القاضى ابن سعيد الذى أرسل إلى الجامع صناديق مملوءة بالمصاحف سنة ٤٠٢هـ = ١٠١١م وأرسل معها شهوداً وقد استمرت خزانات الكتب فى هذا الجامع حتى بعد زوال سلطان الفاطميين حيث كان فيها حتى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) مصحف لا نظير له فى الحسن فى سبعة أجزاء مكتوب بماء الذهب بلغت قيمة كل جزء أربعمائة دينار بخط محمد بن شريف بن يوسف بن وحيد الكاتب المتوفى سنة ٧١١هـ = ١٣١١م. وقد حدث زلزال دمر الجامع الحاكمى. وقد قام الأمير بيبرس ركن الدين بتجديده بعد الزلزال ٧٠٣هـ = ١٣٠٢م ووقف له وقفاً مخصوصاً وعمر له خزانة كتب فيها أشياء نفيسة من جملتها المصحف الذى كتبه إبن وحيد.

ومما يذكر أيضا أن الحاكم بأمر الله الفاطمى حمل إلى الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) سنة ٤٠٣هـ (١٠١٢م) ٤٤٠ ختمة كبار مذهبة و٧٤ ربعة مذهبة كلها بخطوط منسوبة.

كذلك يعزى إلى الحاكم بأمر الله أنه بنى إلى جانب الجامع الحاكمى، جامع راشدة على النيل ومساجد أخرى كثيرة زودها جميعا بالمصاحف المذهبة.

ومن المساجد الأخرى بالقاهرة التى ذكر أنها ضمت مكتبة جيدة مسجد الخطيرى الذى بناه الأمير عز الدين إيدمر الخطيرى المتوفى سنة ٧٣٧هـ = ١٣٨٦م وهو أحد مساجد القاهرة الجليلة فيما يذكر المقريزى و«جعل فيه خزانة كتب نفيسة».

ولعله من نافلة القول التأكيد على أن الجامع الأزهر الذى بنى مع بناء القاهرة كانت به خزانات كتب تقلبت بها الأحوال إلى ان وصلت معه إلينا فى الوقت الحاضر.

ويذكر الدكتور يوسف العش مسجداً فى سوريا هو مسجد درب المدنيين كانت به مكتبة عظيمة كانت موجودة زمن إبن عساكر الكبير المتوفى سنة ٥٧١هـ = ١١٧٥م.

وكان فى جامع البصرة خزانة كتب كذلك وعندما احترق هذا الجامع سنة ٦٢٤هـ = ١١٢٦م أعاد أبو المظفر عبد الله الرومى (المتوفى ٦٤٠هـ = ١٢٤٢م) عمارته وبنى فى دهليزه حجرتين جعل فى إحداهما كتباً ووقف فى جميع المدارس كتباً.

ولابد أن جامع المنصور فى بغداد كانت به خزائن للكتب وإن لم تصلنا أخبار موثقة عنها كتلك التى وصلتنا عن خزانة كتب جامع حلب حيث يقول إبن العديم (ت ٦٦٠هـ) عنها «كان بحلب خزانة كتب فى الشرقية التى بجامع حلب فى موضع خزانة الكتب اليوم (أى زمان إبن العديم). واتفقت فتنة فى بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة والشيعة ونهبت خزانة الكتب وكان ذلك فى زمن أبى العلاء (المتوفى سنة ٤٤٩هـ = ١٠٥٧م) ولم يبق فى خزانة الكتب إلا القليل. وبعد أن فقدت هذه الخزانة أكثر ما فيها «جدد الكتب فيها أبو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان (٤٤٨هـ - ٥٠٧هـ) ثم وقف غيره كتبا أخر فيها. وكان يشرف على تلك المكتبة شخصية عظيمة هو الشاعر المشهور محمد بن محمد بن نصر القيسرانى المتوفى ٥٤٨هـ = ١١٥٣م. واستمرت هذه الخزانة إلى أن دخل صلاح الدين حلب عام ٥٧٩هـ = ١١٨٣م فاباح لمقربيه أن يأخذوا منها ما شاءوا ومن بينهم محمد بن عبد الرحمن المسعودى المتوفى سنة ٥٨٤هـ = ١١٨٨م الذى أخذ منها الشئ الكثير فيما ذهب إليه ياقوت الرومى.

وفى حلب أنشأ منكلى بغا سنة ٧٦٧هـ = ١٣٦٥م الجامع المعروف باسمه ووقف عليه كتبا نفيسة وقد وضعت الكتب فى خزائن الجامع وهذه الخزائن متقنة محكمة فيها الصنائع العظيمة على طريق النجارين «ويقال أن النجار الذى صنعها هو الشيخ فريكا وهو من الصالحين» على حسب تعبير ابن ذر فى إعلام النبلاء.

وكذلك فى حلب أيضاً بنى الأشرف أبو العباس أحمد سبط بن السفاح جامع السفاحية وجعل منه مدرسة ومسجداً بدون منبر، وأوقف عليه كتباً قيمة

كان قد إشتراها خصيصا. وعندما عُيِّن إبنه الزينى عمر ناظراً عليها كشط علامات الوقف المكتوبة على النسخ وباعها.

وفى حماة بنى الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا المؤرخ المشهور بظاهر حماه جامعاً حسناً سمى جامع الدهشة، وقف فيه كتبا قيل إنها ما اجتمعت لغيره من سائر الفنون فإنه اجتهد فى جمعها من سائر البلاد شرقاً وغرباً وكانت سبعة آلاف مجلد.

وكان فى بعلبك فى مسجد الحنابلة خزانة كتب قتل فيها شخص يدعى على إبن محمد شرف الدين اليونينى. وفى سنة ٧١٧هـ = ١٣١٧م اجتاح السيل المدينة ودخلت المياه إلى الجامع وأتلفت الكتب الموجودة بالمكتبة.

كذلك كان فى بيت المقدس خزائن كتب موقوفة عليه من بينها وقف الفقيه أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسى المتوفى سنة ٤٩٠هـ = ١٠٩٦م.

وإذا يممنا شطر المغرب العربى فسوف نجد أن كثيرا من مساجده الشهيرة كانت بها خزائن للكتب وعلى سبيل المثال جامع الزيتونة فى تونس وجامع القيروان الذى تعتبر مكتبته من أقدم مكتبات المساجد فى العالم الإسلامى إذ ترجع إلى منتصف القرن الثالث الهجرى بعد أن أنهى بنو الأغلب بناء الجامع وتوسيعه وهى لذلك تضم مجموعة من ذخائر المخطوطات العربية التى ترجع إلى القرون الثالث والرابع والخامس والسادس الهجرية. وقد عثر الأستاذ إبراهيم شبوح على فهرس لهذه المكتبة يرجع إلى أواخر القرن السابع الهجرى (٦٩٣هـ)، إعتمد هذا الفهرس على فهرس آخر أقدم منه لمحتويات المكتبة لم يعرف تاريخه على وجه التحديد، إنما جاء ذكره عرضاً فى هذا الفهرس ويفهم من الفهرس أن الكتب فى هذا الجامع كانت موزعة بين مكانين أغلبها فى مقصورة المسجد وأقلها فى الطبق. وكان يشار إلى مجموعة المقصورة باصطلاح «الجمعية الكبيرة» أى المجموعة الكبيرة بينما الأخرى يشار لها على أنها «الجمعية الصغيرة» فى الطبق.

وجامع الزيتونة كانت به أيضا وما تزال مكتبة عظيمة نمت على مر السنين عن طريق الوقف ومن بين من وقفوا عليها كتبا الأمير أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الحفصي المتوفى سنة ٧٩٦هـ وكانت «مشتملة على أمهات الدواوين وجعل لها مقصورة بمجنبة الهلال من الجامع الأعظم ووقفها على طلبة علم ينتفعون بالنظر والكتب». كما وقف خليفته أبو عبد الله محمد المنتصر بن محمد بن أبى فارس عبد العزيز الذى تولى الإمارة الحفصية سنة ٨٣٨هـ على المكتبة «وقفا كافيا مؤبدا».

كذلك كان جامع القرويين فى فاس من أجَلّ الجوامع ذات المكتبات القيمة فقد إهتم سلاطين المغرب من بنى مرين بالكتب ووقفوا على الجامع خزائن عديدة من أقدمها وأهمها الخزانة العنانية التى تعزى إلى أبى عنان المرينى والتى أوقفها سنة ٧٥٠هـ وقد غطت علوما كثيرة وليس فقط علوم الدين. وكان مكانها فى المستودع شرقى الصحن عن يمين المتجه إلى داخل المسجد. وقد نقشت وثيقة وقفها فى أعلى الباب الخشبى بحروف بارزة. كما وقف ابن خلدون نسخة من كتابه الشهير على هذا الجامع. وقد أضاف السلطان أحمد المنصورى السعدى فى عهد الدولة السعدية خزانة جديدة إلى الجامع فى جهة القبلة عن يسار خزانة الكتب العنانية، وقد عرفت الخزانة الجديدة باسم الخزانة الأحمدية أو السعدية. وما زالت المكتبة حتى وقتنا هذا فى ازدهار ونماء.

وفى الأندلس بطبيعة الحال كانت هناك مساجد عامرة بالكتب وقد أشرت من قبل إلى جامع طليطلة الذى كان فى حقيقة أمره جامعة يدرس فيه العديد من العلوم ويؤمه ليس فقط الطلاب المسلمون من كل حدب وصوب بل وأيضا الطلاب النصارى على نحو ما أسلفت مراراً؛ حتى بعد سقوط طليطلة فى يد الأسبان سنة ١٠٨٥م حيث وجدوا فيها مكتبة غنية عامرة حافلة بالكتب، وقد بلغت شهرة هذه المكتبة من حيث هى مركز للثقافة أقصى البلاد النصرانية فى الشمال.

وفى بلاد فارس انتشرت أيضا مكتبات المساجد، ويذكر ياقوت الرومى أنه كان يوجد فى أيامه فى مدينة مرو الشاهنجان خزانتان فى الجامع (أى المسجد الجامع بالمدينة) إحداهما يقال لها العزيزية نسبة إلى الرجل الذى أوقفها ويقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجانى أو عتيق بن أبى بكر، وكان فيها اثنا عشر الف مجلد. والثانية تسمى الكمالية ولا يعرف ياقوت إلى من تنسب هذه المكتبة الأخيرة.

ويذكر ابن الفوطى أن الخليفة المستنصر بالله العباسى الذى ورد ذكره مراراً من قبل، بنى فى أوائل القرن السابع الهجرى مسجداً عرف بالقمرية فى الجانب الغربى من بغداد على شاطئ دجلة المقابل للرباط البسطامى ونقل إليه الفرش والآلات وقناديل الذهب والفضة والشموع وغير ذلك... وجعل فى المسجد خزانة للكتب، حملت إليها كتب كثيرة. وكان لمعظم هذه الخزائن ولا سيما الكبيرة منها قوّام ومشرفون بل ومناولون أيضاً.

هذه مجرد نماذج من جوامع ومساجد ذكرت المصادر أنه كانت بها خزائن للكتب لا تقتصر فقط على كتب الدين، بل كانت مكتبات جامعة لعلوم الدين والدنيا.

جـ - مكتبات دور الحديث ودور القراء

دور القراء ودور الحديث كانت عبارة عن مؤسسات لتفقيه الناس فى أساسيات علوم القرآن وقراءة القرآن وشرح الحديث وتداوله. وبالتالى لم تكن مدارس بالمعنى المفهوم بل هى أماكن للتحفيظ والتفقه فى القرآن والحديث ولما كان الأمر كذلك فقد نشأت بها خزائن كتب تدور أساساً حول القرآن والحديث.

ومن بين النماذج على خزائن تلك الدور، دار الحديث النورية التى أسسها السلطان نور الدين محمود زنكى فى دمشق وهو نفسه كان جماعة لكتب الحديث الصحاح والسنن فأنشأ هذه الدار لتحفيظ الأحاديث النبوية الشريفة

وشرحها وتفسيرها وبالتالى أمدَّها بالكتب اللازمة فى هذا الخصوص. وقد وصلتنا بعض الكتب التى وضعها فيها ومن بينها الجزء التاسع من ستين جزءا من القرآن وموجود الآن فى متحف دمشق ومكتوب عليه صيغة الوقف وهى «وقفه وحبسه الملك العادل نور الدين على المدرسة التى أنشأها بمدينة دمشق حرسها الله وشرط أن يقرأ فيها ولا يخرج منها طلبا لمرضاة الله وثوابه فى ذى الحجة ٥٦٢هـ». وكتاب آخر فى الحديث جاء فيه «وقفه مولانا نور الدين على سائر طوائف المسلمين من أهل السنة والجماعة». ومع مرور الوقت قام آخرون بوقف كتب القرآن والحديث على هذه الدار ومن بينهم المحدث أحمد بن محمد الجواهرى سنة ٦٤٣هـ، وأبو سعد شمس الدين عبد الله بن أحمد الحلوانية المتوفى سنة ٦٧٥هـ وعلى بن عبد الكافى الشافعى وعلم الدين القاسم بن محمد البرزالى المتوفى سنة ٧٣٩هـ.

كذلك أشرنا إلى دار الحديث الأشرفية التى أسسها الملك الأشرف موسى ابن أبى بكر بن أيوب سنة ٦٣٥هـ = ١٢٣٧م وجعل فيها خزانة كتب فى علوم القرآن والحديث وغيرها. ولحسن حظنا أنه قد وصلتنا وقفية المكتبة فى دار الحديث هذه ومن بين ما جاء فيها «ويصرف إلى خازن الكتب ثمانية عشر درهما فى كل شهر وعليه الإهتمام بترميم الكتب وإعلام الناظر أو نائبه ليصرف فيه من مغل الوقف ما يفى بذلك، وكذلك إذا مست الحاجة إلى تصحيح كتاب ومقابلته... ويصرف فى شراء ورق وآلات النسخ من مركب وأقلام ودوى وكراس ونحو ذلك ما يقع به الكفاية لمن ينسخ فى الإيوان الكبير أو قبالته الحديث أو شيئاً من علومه أو القرآن العظيم أو تفسيره. ويصرف إلى من يكتب فى مجالس الإملاء وإلى من يتخذ لنفسه كتبا أو استجازة **ولا يعطى من ذلك إلا لمن ينسخ لنفسه لغرض الاستفادة والتحصيل دون التكسب والإنتفاع بثمنه** وللشيخ الناظر أن يستنسخ للوقف أو يشترى ما تدعو الحاجة إليه من الكتب والأجزاء، ثم يقف ذلك أسوة ما فى الدار من كتبها». وقد أوقف كثير من الفقهاء كتباً على هذه الدار من بينهم الفقيه محيى الدين النووى المتوفى سنة

٦٦٧هـ = ١٢٧٧م الذى أوقف بسخاء شديد حيث كان يدخر مرتبه على مدار العام ليشترى به كتبا يوقفها على الدار وكان مرتبه (جامكيته) تقدر بتسعين درهما شهرياً. وكان من بين الواقفين أيضا القاضى المحدث أمين الدين أحمد بن عبد الله الأشترى الشافعى المتوفى سنة ٦٨١هـ = ١٢٨٢م والمحدث شهاب الدين محمد بن عبد الخالق الأنصارى المتوفى سنة ٦٩٠هـ = ١٢٩١م. وغيرهم كثيرون.

وقد خربت دار الحديث الأشرفية عندما إجتاح المغول دمشق سنة ٦٩٩هـ = ١٢٩٩م وتولى إعادة بنائها الشيخ زين الدين الفاروقى واستأنفت سيرتها بعد ذلك، وعادت إلى مكتبتها الحياة مرة أخرى. وقد وصلتنا أسماء بعض الخزنة الذين تولوا إدارتها من بينهم الحسن بن محمد بن إسماعيل القليوبى المتوفى سنة ٦٣٢هـ = ١٢٣٥م؛ وكذلك المحدث شرف الدين الحسين بن على بن بشارة الشبلى الحنفى المتوفى سنة ٧٣٧هـ = ١٣٣٦م؛ وإبنه المحدث أحمد بن الحسين بن على المتوفى سنة ٧٤٤هـ، والمحدث يحيى بن عبد الله الفارقى.

ومن بين دور الحديث الشهيرة أيضاً دار الحديث الضيائية التى أسسها المحدث المشهور ضياء الدين المقدسى محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٦٤٣هـ = ١٢٤٥م ووقفها للمحدثين ووقف عليها مكتبة جيدة يسَّر الله له الحصول عليها بطرق متنوعة: الشراء، والنسخ والهبات. وقد حصلت المكتبة الظاهرية بدمشق على جانب لا بأس به من كتب هذه المكتبة وقد أورد الدكتور يوسف العش أسماء بعض هذه الكتب فى رسالته المعنونة «دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر فى العصر الوسيط».

د - مكتبات المستشفيات

اهتم الخلفاء والحكام المسلمون اهتماماً بالغا بإنشاء المستشفيات والعناية بالمرضى ومن مآثر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك على سبيل المثال عزل المجذومين فى أماكن خاصة بهم ورعايتهم، كما أنه كان يعين لكل أعمى قائدا

يهديه الطريق. وقد أنشئت المستشفيات فى طول الإمبراطورية الإسلامية وعرضها وكانت تسمى البيمارستانات أو المارستانات، وهو المصطلح الفارسى الذى دخل العربية. وقد حرَّفه العامة فى مصر إلى (المورستان) وأطلقوه على مستشفى الأمراض العقلية خاصة، تأدبا وتهذباً.

ومن الطريف أن بعض المستشفيات كان فيها مدرسة للطب أو العكس أى أن تكون هناك مدرسة للطب تلحق بها مستشفى تعليمى. وأيًّا كان الأمر فإن مكتبة متخصصة كانت ضرورة ملَّحة فى هذه الحالة وقد ألمحت إلى ذلك من قبل عند الحديث عن المكتبات المدرسية.

ومن بين الأمثلة على مكتبات المستشفيات لابد أن نتوقف أمام بيمارستان أحمد بن طولون فى القاهرة الذى أنشئ سنة ٢٥٩هـ. وكان كما ألمحت مستشفى وبه مدرسة للطب. وقد ألحق به مكتبة عظيمة الشأن يقال إنها زادت على مائة ألف مجلد ومن الطبيعى ألا يكون هذا العدد كله فى مجال الطب بل كانت فى كل فروع المعرفة البشرية التى عرفت فى القرن الثالث الهجرى. كذلك يجب أن نتوقف أمام مكتبة مستشفى عضد الدولة البويهى التى عرفت باسم البيمارستان العضدى. وقد أسسها عضد الدولة فى القرن الرابع الهجرى. وقد كانت مكتبة البيمارستان كبيرة وأقرب إلى أن تكون متخصصة منها أن تكون عامة مثل بيمارستان أحمد بن طولون.

والمكتبة التى وصلتنا عنها معلومات أكثر فى هذا الصدد هى مكتبة البيمارستان النورى التى أسسها نور الدين محمود بن زنكى فى دمشق فى القرن السادس الهجرى. ومن المعروف أن نور الدين زنكى المعروف بنور الدين الشهيد قد حكم قسماً من العراق وسوريا ومصر. وقد أنشأ مستشفى عرف باسمه وكان الطبيب الأول فيه هو أبو المجد محمد بن عبيد الله بن أبى الحكم الباهلى المتوفى سنة ٥٧٠هـ. وقد ألحقت بالمستشفى مكتبتان كبيرتان جمعت فيهما كتب كثيرة فى صدر الإيوان وجميع الإيوان مفروش. وكان نور الدين

زنكى يهتم بهاتين الخزانتين وكثيرا ما كان يزور المستشفى التعليمى هذا ويجتمع إلى الأطباء وطلبة الطب الذين يجلسون بين يديه، ثم تجرى مباحث طبية ويقرئ التلاميذ ولا يزال معهم فى أشغال ونظر فى الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب بعد ذلك إلى داره فى دمشق حسبما يقول عبد القادر النعيمى فى كتابه (الدارس فى تاريخ المدارس).

وكان هناك أيضا البيمارستان المنصورى فى القاهرة الذى أسس فى القرن السابع الهجرى والذى كانت به مكتبة عظيمة يقال أن إبن النفيس الطبيب الأشهر واسمه الكامل: على بن أبى حزم القرشى الدمشقى المتوفى سنة ٦٨٧هـ، قد أوقف عليها داره وكتبه وكان ابن النفيس قد انتهت إليه رئاسة الطب فى زمانه وتوفى بالقاهرة.

وعزى هذا البيمارستان المنصورى الذى سمى بالكبير إلى الملك المنصور قلاوون الصالحى المتوفى سنة ٦٨٩هـ = ١٢٩٠م. وكان مكانه بخط بين القصرين وقد ألحقت به مدرسة للطب وبنى إلى جانبه قبة كبيرة وقف فيها خزانة كتب ورتب فيها خازنا بمرتب أربعين درهما فى كل شهر. وهو مبلغ صغير إذا ما قورن بمرتب الإمام وهو ثمانون درهما ويساوى مرتب مدرس التفسير ويزيد عما يأخذه المؤذن (٣٠ درهما) ولم تكن المكتبة متخصصة تماماً بل كان فيها إلى جانب كتب الطب نسخ القرآن وكتب التفسير والحديث والفقه والأصول والأدب والدواوين. ويقول المقريزى عن المكتبة «وقد ذهب معظم هذه الكتب وتفرق بين أيدى الناس وتعرضت خزانة الكتب فيما بعد لحريق، أتى على كتب العلوم والمصاحف ونسخ الوقفيات والدفاتر.

هـ - مكتبات الترب والمقابر

قد يطلق على هذا النوع من المكتبات اسم آخر هو مكتبات المشاهد، حيث دأب المسلمون على وقف وإنشاء مكتبات تلحق بالمشهد، الذى تعودوا قضاء بعض الوقت فيه للاتعاظ. كما أن بعض المشاهد كانت تلحق بالمساجد

والجوامع وبالتالى تكون المكتبة فى المشهد ولكنها تستخدم من قبل من يؤم الجامع أيضا. وقد وجدت المكتبات فى مشاهد الرجال والنساء على السواء.

ومن بين مكتبات المشاهد مكتبة مشهد إبن عروة التى أتينا على جانب منها عند حديثنا عن مكتبات الجامع الأموى فى دمشق. وابن عروة هو شرف الدين محمد بن عروة الموصلى المتوفى سنة ٦٢٠هـ = ١٢٢٣م. وكانت تربته فى ملاك الجامع الأموى وقد ألحق بها مكتبة كبيرة تنطوى على عدد كبير من الخزائن موقوفة على هذا المشهد ولم تقتصر كتبها على المجالات الدينية فقط بل تخطتها إلى مجالات أخرى كثيرة منها الطب والأدب والتاريخ.

ومن بين مكتبات الترب لابد وأن نتوقف أمام قبر أبى حنيفة النعمان فى بغداد حيث قام شرف الملك أبو سعد محمد بن المنصور المستوفى المتوفى سنة ٤٩٤هـ = ١١١١م ببناء قبة فوق قبر الإمام أبى حنيفة وطور ما حوله بحيث أصبح مشهداً كبيراً والحق به مدرسة خصصها للمذهب الحنفى سنة ٤٥٩هـ. وقد أوقفت على المشهد كتب كثيرة من بينها الكتاب الأشهر «تفسير القرآن» لعبد السلام محمد بن يوسف القزوينى المتوفى ٤٨٨هـ شيخ المعتزلة فى زمانه والذى يقال بأنه بلغ سبعمائة مجلد، كما أوقف محمد بن عمر الزمخشرى كتبه على هذا المشهد. ولم تكن كتب هذا المشهد متخصصة فى الفقه الحنفى أو سائر مذاهب الفقه وحسب بل كانت فى جميع فروع المعرفة البشرية بدليل وجود كتب الجاحظ فيها. وكان من بين خزنة مكتبة هذا المشهد وصلتنا أسماء كل من: عبد العزيز بن على بن أبى سعيد الخوارزمى (المتوفى سنة ٥٦٨هـ = ١١٧٢م) الذى قدم بغداد وسكن فى المشهد حيث المكتبة التى عمل بها. وابن الأهوازى المتوفى ٥٦٩هـ = ١١٧٣م. وكذلك ضياء الدين أحمد مسعود التركستانى الذى كان مدرساً بمدرسة أبى حنيفة الملحقة بالمشهد وفى نفس الوقت خازنا لكتبها وقد جاء فى وقفيه تعيينه تحديد بعض وظائفه المتعلقة بالمكتبة ومن بينها «وليثبت ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها؛ معارضا ذلك بفهرسته متطلبا ما عساه قد شذ منها، وليأمر خازنها بعد استصلاحه

بمراعاتها ونفضها فى كل وقت ومرمة شعثها وألا يخرج منها إلا إلى ذى أمانة، مستظهراً بالرهن عن ذلك».

وكذلك تحضرنا معلومات عن مكتبة مشهد موسى بن جعفر فى بغداد أيضاً. وهو المشهد الموجود فى مقابر قريش ويعرف الآن بالكاظمية وقد الحقت به مكتبة أوقفها الوزير على بن على روزبهار (أبو المظفر الكاتب البغدادى) المتوفى سنة ٦٠١هـ = ١٢٠٤م واشترط فى وقفيتها عدم الإعارة الخارجية.

ومن النماذج فى هذه الفئة من المكتبات مكتبة التربة المنصورية فى القاهرة وكانت مقابلة للمدرسة المنصورية وتنسب إلى السلطان المنصور سيف الدين قلاوون وابنه الملك الناصر محمد بن قلاوون والملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون؛ وعليها قبة عظيمة يقول عنها المقريزى إنها من أعظم المبانى الملوكية. وداخل المشهد كانت هناك مدرسة للفقه تدرس فيها دورس الفقه على المذاهب الأربعة «وبهذه القبة خزانة كان فيها عدة أحمال من الكتب فى أنواع العلوم مما وقفه الملك المنصور وغيره».

ومن ترب النساء التى كانت بها مكتبة تربة أم الخليفة فى بغداد وهى السيدة خاتون بنت الملك قلج أرسلان السلجوقى زوجة الملك الناصر لدين الله التى توفيت فى عام ٥٨٤هـ. وقد بنى الخليفة على تربتها مشهداً ووقف فيها «خزانة كتب نفيسة وكانت على شاطئ دجلة بالجانب الغربى من بغداد.

ويقول الدكتور يحيى ساعاتى فى بحث جيد له عن «الوقف وبنية المكتبة العربية» أن هذه المكتبة ربما كانت هى التى عناها ياقوت الرومى فى ترجمته لعلى بن فضال المجاشعى حيث أشار إليه أنه رأى فى الوقف السلجوقى ببغداد نسخة من كتابه «الدول فى التاريخ» فى ثلاثين مجلداً ويعوزه شئ فى آخره. وينقل عن كوركيس عواد قوله بأن الذى وقفها الخليفة الناصر لدين الله العباسى فى تربة زوجته سلجوقة خاتون بباب البصرة من الجانب الذى فى بغداد... وقد هورت دجلة قبرها ودار كتبها وآثارها بعد أن عاينها الرحالة الدنمركى ينهر قبل نصف قرن وشهدها المعمرون من أهل القرن التاسع عشر.

وقد وقف عليها نجم الدين أبو اليمن نجاح بن عبد الله الشرابى الملقب بالملك الرحيم خمسمائة مجلد، إذ كانت له خزانة كتب وقفت بعد موته سنة ٦١٥هـ. ولعل هذه التربة أيضا هى التى عناها ابن الفوطى عند حديثه عن عز الدين المتوفى سنة ٦٢٣هـ خازن الكتب الأخلاطية وذكر المحقق أن المقصود هنا تربة السيدة سلجوقة خاتون.

ومن مكتبات المقابر المتأخرة نسبياً مكتبة تربة أحمد باشا الكوبرى فى إستانبول، الذى كان أحد وزراء الدولة العثمانية وكان قد جمع أثناء حياته مكتبة نفيسة وقفها على تربته قبل وفاته سنة ١٠٨٧هـ. ذكر عنها محمد أمين المحبى فى «خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر» أن هذه المكتبة كانت فى خزانة بالتربة المذكورة ورتب لها أربعة حفاظ وفيها من نفائس الكتب مالا يوجد فى مكان وأخبرنى - والكلام هنا لمحمد أمين المحبى - من أثق فيه أنها ضمنت بأربعين ألف قرش. ومن هذه العبارة القصيرة نستدل على أنها مكتبة ضخمة بمقياس ذلك الزمان وذلك النوع من المكتبات، حيث أنه كان يعمل بها أربعة أمناء مكتبات وأنها قوِّمت بهذا المبلغ الضخم.

والأمثلة على مكتبات المقابر أكثر بكثير مما ذكر، وإنما أتينا فقط على بعضها للتدليل على ما كانت عليه هذه الفئة من المكتبات الإسلامية. ومن شاء الإستزادة فليرجع إلى تراجم القرون والتراجم الإسلامية الباكرة التى غصت بالحديث عنها تحت الشخصيات.

و - مكتبات الرباطات

الرباط فى الأصل هو الثكنة العسكرية التى كان المسلمون يقيمونها على الحدود لمراقبة الثغور والدفاع عن الحدود والتخوم ويجمع على ربط وأربطة ورباطات. ويقال ربط الله على قلبه أى قوَّاه وشجعه وصبَّره، وربط جأشه، اشتد قلبه، وقد يقال فى الرابط: الراهب أو الزاهد. ويقال رابط على الأمر واظب عليه.

ولكن مع مرور الوقت اتخذ المصطلح معنى آخر هو المؤسسة أو المعاهد المبنية الموقوفة على الفقراء تجرى عليهم فيها المعايش والأرزاق حتى لا يتشردوا فى الشوارع فيقال مثلا «رباط الولايا المقاطيع».

بعد هذه المداعبة اللغوية التى لم يكن منها بد أقول بأنه فى كلتا الحالتين كانت هناك مكتبات؛ داخل تلك الرباطات أو ملحقة بها.

والحقيقة أن الرباطات قد انتشرت فى العالم الإسلامى بنوعيها إنتشاراً كبيراً ومن بين الرباطات التى أشارت المصادر إلى وجود مكتبات بها نصادف الرباطات الآتية:

١ - رباط الحريم الطاهرى فى بغداد.

٢ - رباط المأمونية فى بغداد.

٣ - رباط المرزبانية فى بغداد.

٤ - رباط الشونيزى فى بغداد.

٥ - رباط الزوزنى فى بغداد.

٦ - الرباط الخاتونى فى بغداد.

٧ - رباط الأخلاطية فى بغداد.

٨ - رباط باتكين فى بغداد.

٩ - رباط النيار فى بغداد.

١٠ - رباط النجمى فى بغداد.

١١ - رباط السميساطية فى دمشق.

١٣ - رباط الآثار بالقاهرة.

١٤ - رباط البكتمارى بالقاهرة.

١٥ - رباط الشيخوتية بالقاهرة.

١٦ - رباط ربيع فى مكة.

١٧ - رباط الشرابى فى مكة.

١٨ - رباط السدرة فى مكة.
١٩ - رباط الإبرقوهى فى مكة.
٢٠ - رباط الخوزى فى مكة.
٢١ - رباط الموفق فى مكة.
٢٢ - رباط الصفا فى مكة.
٢٣ - رباط قايتباى فى مكة.
٢٤ - رباط قراء باشى فى المدينة.
٢٥ - رباط عثمان بالمدينة.
٢٦ - رباط الجبرت بالمدينة.
٢٧ - رباط مظهر بالمدينة.

ويجب أن تفهم القائمة السابقة على أنها مجرد نماذج وليس حصراً وسوف ننتقى بعضها للحديث عنه.

يأتى على رأس الرباطات الهامة ذات المكتبات القيمة «رباط المأمونية» الذى أنشئ فى القرن الخامس الهجرى وربما قبله. وقد ثبت لنا أنه كانت به مكتبة عظيمة القدر أوقفت عليها الكتب في أوقات مختلفة من بينها كتاب الفنون وكتاب الفصول (الذى اشتهر بكتاب كفاية المفتى) لابن عقيل المتوفى ٥١٣هـ = ١١١٩م ومن بينها أيضا كتب عبد الله بن أحمد الخشاب. وكان من بين الخزنة فى هذه المكتبة أبو المعالى أحمد بن هبة الله (فى نهاية القرن السادس الهجرى).

ومن بين الرباطات الهامة كذلك في بغداد رباط الحريم الطاهرى. وكان من أحسن الربط وقد أمر بإنشائه الخليفة الناصر فى محلة الحريم الطاهرى على نهر دجلة بغربى بغداد وقد تم الإنتهاء من عمارة هذا الرباط فى ربيع الأول سنة ٥٩٠هـ = يوليو ١١٩٤م. وقد نقلت إليه كتب كثيرة من أحسن الكتب وأنفسها والمكتوبة بالخطوط المنسوبة والمصاحف الشريفة. ومن أشهر أمناء هذه المكتبة

كان الشيخ عبد العزيز بن دلف الناسخ زمن الخليفة المستنصر وقد أتينا على شئ من أخباره من قبل وقد توفى ابن دلف هذا سنة ٦٣٧هـ = ١٢٣٩م.

وفى دمشق اشتهر رباط السميساطية بمكتبته الكبيرة حيث كان أكبر الرباطات السورية وكانت «خزانته عامرة بالأوقاف المختلفة التى كانت ترده» وكان من بين من أوقف كتبا عليه محمد بن عبد الرحمن بن مسعود البنجديهى النحوى المتوفى ٥٤٨هـ = ١١١٨م وكذلك المحدث اللغوى صفى الدين محمود بن محمد الأرمورى المعروف بالقرافى «الذى وقف جميع كتبه وجعل مقرها السميساطية». وقد وصلتنا بعض كتبه وعليها علامات الوقف. كذلك قام العلائى صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدى الدمشقى الشافعى المتوفى سنة ٧٦١هـ = ١٣٥٩م. وقد وصلنا أسماء بعض خزنة هذه المكتبة ومن بينهم: علاء الدين على بن محمد بن ابراهيم الشيحى المفسر المحدث الصوفى المتوفى سنة ٧٤١هـ = ١٣٤٠م؛ الحسين بن مبارك الموصلى الصوفى، وكان رجلاً خيراً دينا توفى سنة ٧٤٢هـ = ١٣٤١م؛ على بن سيف بن على الإبيارى وكان نحوياً لغويا أديباً توفى سنة ٨١٤هـ = ١٤١١م.

ومن رباطات القاهرة رباط الصلاحية الذى أسس فى القرن الثامن الهجرى وربما قبله وكان فيه مكتبة كبيرة لها خازن يدعى جمال الدين عبد الله بن على بن أحمد الأنصارى ابن حديدة. وقد كانت وفاته سنة ٧٨٣هـ = ١٣٨١م.

وفى القاهرة أيضا كان هناك رباط الآثار الذى بناه الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين محمد المتوفى سنة ٧٠٧هـ = ١٣٠٧م وقد رتب فيه دورساً فى الفقه الشافعى، ويقول عنه المقريزى أنه كانت فيه خزانة كتب كبيرة. ومن الواضح أن هذا الرباط قد أنشئ فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى.

وفى سنة ٧٢٦هـ = ١٣٢٥م قام الأمير بكتمر الساقى ببناء رباط عرف باسمه، أمده بمكتبة جيدة ثم حدثت مجاعة فى مصر سنة ٨٠٦هـ = ١٤٠٣م، أدت إلى تبديد الرباط بما فيه من كتب ومصاحف وآلات وفرش. ولم نقف على اسم أى من الخزنة فى هذه المكتبة.

واشتهر فى القاهرة أيضاً رباط الشيخونية الذى أنشئ فى القرن الثامن الهجرى، الرابع عشر الميلادى. وكان فى هذا الرباط مكتبة محترمة كان خازنها فى بداية القرن التاسع الهجرى هو الشيخ سعد بن خليل بن سليمان الرومى المرزبانى الذى قتله اللصوص داخل المكتبة هو والخادم الكبير سنة ٨١٤هـ = ١٤١١م وكان عاملاً فاضلاً علاّمة فى الفقه واللغة العربية.

وفى مكة المكرمة إشتهر رباط ربيع الذى أنشئ فى نهاية القرن السادس الهجرى فى أجياد وقد بنى هذا الرباط الملك الأفضل على بن يوسف بن صلاح الدين الأيوبى المتوفى سنة ٦٢٢هـ. وقد أوقف هذا الرباط على فقراء المسلمين. وكانت فيه خزانة كتب. وقد توفر كثيرون من بعده على وقف العديد من الكتب من بينهم محمد بن عيسى بن سلمان المعروف بابن خشيش المتوفى سنة ٦٧٤هـ؛ وعبد الله بن أبى بكر الكردى المتوفى سنة ٧٨٥هـ؛ وعلى بن محمد إبن سند المصرى الفراش بالمسجد الحرام المتوفى سنة ٨٢٧هـ والذى «عانى التجارة بمصر ووقف كتبا إقتناها وجعل مقرها برباط ربيع فى مكة» فيما يذكر السخاوى فى الضوء اللامع. ويستنتج الدكتور يحيى الساعاتى أن هذا الرباط ومكتبته إستمرا فى العطاء لأكثر من قرنين.

ومن بين الرباطات الشهيرة فى المدينة المنورة رباط عثمان بن عفان. وهذا الرباط فيما يذكر الدكتور الساعاتى كان يضم مكتبة معظم كتبها فى الفقه المالكى على بعضها أسماء واقفيها الذين من بينهم حسونة البسطى وعبد الحافظ الحجاجى. ويقول بأن مكتبة هذا الرباط كانت تسمح بالإعارة الخارجية فى أوائل القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى فى مقابل سند يبقى لدى الخازن إلى حين إعادة الكتاب.

ز - مكتبات الخانقاوات والتكايا

الخانقاه فى الأصل هى بيت الصوفية فيه ينقطعون للعبادة ومن هنا فهى نوع خاص من الرباطات إذا أخذنا المعنى الثانى للرباط على النحو الذى ذهبنا إليه

سابقاً؛ حيث أن المعنى اللغوى للرابط هو الزاهد المتقشف والصوفى هو على هذه الشاكلة ومن ثم تكون الخانقاه مكاناً له.

وعلى ذلك يذهب البعض إلى أن رباط السميساطية فى دمشق كان يطلق عليه أيضا اسم الخانقاه. وكانت به مكتبة أوقف عليها كثيرون الكتب من بينهم أبو العلاء محمد بن أبى بكر البخارى الحنفى المتوفى سنة ٧٥٦هـ وكان من كبار الصوفية وقد ورد فى تذكرة الحفاظ للذهبى أنه «وقف أجزاءه بالخانقاه».

ومن الخانقاوات أيضا التى ورد أن بها مكتبة خانقاه ماردين حيث ورد فى تذكرة الحفاظ للذهبى أيضا أنه كانت بها مكتبة يقف فيها العلماء كتبهم ومن بينهم المجد شمس الدين أبو العلاء محمود بن أبى بكر الحنفى المتوفى سنة ٧٠٠هـ = ١٣٠٠م.

ومن الواضح أن الخانقاوات كانت أحوج إلى مجموعات الكتب أكثر من حاجة الرباطات إليها لأن الصوفية كانت صلتهم بالعلم أكثر من صلة أصحاب الرباطات ومع ذلك لم تصلنا معلومات كثيرة عن مكتبات الخانقاوات ربما بسبب الخلط الواقع بين مفهوم الرباط ووظيفة الخانقاه.

ويبدو أن الرباط كان أقرب للتكية منه إلى الخانقاه فالرباط فيه إقامة كاملة بينما التكية تكون الإقامة فيها محدودة وربما لعابرى السبيل حيث يقدم لهم المأكل والمشرب والمأوى لفترات محددة بينما الرباط تكون الإقامة فيه دائمة مستمرة. وكانت بعض التكايا رغم ذلك يوقف عليها الكتب أيضاً وثبت لدينا أنه كانت هناك مكتبات فى بعض التكايا رغم محدودية الإقامة فيها. وأحسن نموذج على مكتبات التكايا هو مكتبة تكية عبد الغنى فى حلب.

❁ ❁ ❁

الكراس السادس عشر

جوانب العمل والخدمات المكتبية في المكتبة الإسلامية

عرضنا على الصفحات السابقة من هذا الباب أنواع المكتبات التى أفرزتها الثقافة الإسلامية ومن بينها أنواع إندثرت ولم يعد لها وجود فى عصرنا الحديث مثل مكتبات الرباطات ومكتبات المقابر ومكتبات الخانقاوات. ونعرض فى الفصل الذى بين أيدينا كيف كان العمل يسير داخل المكتبة الإسلامية وما هى الخدمات التى كانت تقدمها ومن هم المستفيدون من تلك الخدمات.

إدارة المكتبة الإسلامية

لم تجد علينا المصادر بالكثير من المعلومات عن تفاصيل مبانى المكتبات الإسلامية وأثاثاتها والعاملين بها وتمويل تلك المكتبات واللوائح والتشريعات، وانما جاءت المعلومات عن تلك الجوانب سريعة وعارضة. وسوف نحاول جمع تلك النتف ونكوّن منها لوحة عامة، تصور ما كان عليه حال إدارة تلك المكتبات.

فمن حيث المبنى كانت مكتبات الدولة وبعض المكتبات العامة تحتل مبنى مستقلاً لها قائماً بذاته ربما يبنى خصيصاً فى حالات قليلة ليكون مكتبة أو يلوى لأغراض الخدمة المكتبية. ولكن فى حالات المكتبات الملحقة بمؤسسات أكبر كالمكتبات المدرسية ومكتبات المستشفيات أو الأربطة أو المشاهد أو الجوامع أو الخانقاوات والتكايا فلم يكن الأمر يتطلب مبنى خاصاً بل قد يكون مكان المكتبة مجرد عدة حجرات تنظم فيها الكتب أو ربما حجرة واحدة وأحيانا قد يتقلص الأمر إلى خزانة أو بضعة خزائن (دواليب) فى مكان يستخدم لأغراض أخرى.

كانت هناك مكتبات ضخمة متسعة المبنى فقد مر بنا خبر مكتبة القصر الفاطمية والتى كان عدد غرفها أربعين غرفة فى القصور الداخلية. ومكتبة عضد

الدولة فى شيراز التى ضمت عشرات من الغرف وكذلك مكتبة سابور بن أردشير فى بغداد التى كانت تحتل دارا كاملة خاصة بها إشتراها سابور لهذا الغرض. ورغم أنه لم تصلنا معلومات دقيقة عن مبنى وغرف بيت الحكمة فى بغداد ودار العلم (الحكمة) بالقاهرة إلا أننا نتوقع بالضرورة أن يكون لكل منهما المبنى الخاص الفسيح جداً والذى ينطوى على عشرات من الغرف لاستيعاب مئات الآلاف من الكتب التى اقتنيت فيهما. كذلك يفهم من المعلومات السريعة التى وصلتنا عن مكتبة بنى عمار فى طرابلس أن هذه المكتبة كانت تحتل مبنى بنى خصيصاً لها كان يتألف من العديد من الحجرات، يوضع فى كل غرفة كتب موضوع واحد وبالتالى لابد أن تكون هناك عشرات من الحجرات (البيوت) فى هذه المكتبة بحكم مئات الآلاف من الكتب التى كانت موجودة فيها على النحو الذى أتينا عليه سابقاً وهى المكتبة التى أحرقها الصليبيون عندما إعتقدوا أنها مكتبة للقرآن الكريم وحده إذ انطوت على عدة غرف خاصة بالمصاحف وحدها.

ولابد فى حالة المبانى الخاصة المستقلة هذه أن يكون التأنق فى المبنى من الخارج والداخل مظهرا أساسياً من مظاهر مبنى المكتبة. حيث كان الرخام يستخدم فى تبطين الجدران من الخارج والداخل وفى تغطية الأرضية، كما كان الكلس يستخدم فى تبييض الجدران. وكانت النافورات والحدائق المثمرة تحيط بالمبنى، وربما انتشرت الفسقيات كذلك داخل ردهات المبنى. وكانت الزخارف تزخرف المبنى من الخارج والداخل وفى بعض الأحيان كانت الأشعار المحفورة فى الجدران نوعاً من أنواع الزخارف على النحو الذى صادفناه سابقاً فى بعض مكتبات البلاطات العباسية (مكتبة المستعصم بالله).

وعندما يكون للمكتبة مبنى خاص مستقل ومتسع على النحو الذى صادفناه سابقاً فمن الضرورى أن يزود بالمرافق الأساسية مثل دورات المياه والصنابير أو ينابيع الماء أو على الأقل تجلب له المياه للشرب والوضوء وكان جلب الماء يحسب حسابه فى موازنة المكتبة على النحو الذى نراه فى مكتبة دار العلم

بالقاهرة حيث خصص للماء إثنا عشر ديناراً سنوياً؛ ومشهد عروة الذى كان به صنبور ماء.

وصفت بعض المصادر بطريقة عرضية شكل المكتبة من الداخل كما جاء فى أحسن التقاسيم للمقدسى والمواعظ والإعتبار للمقريزى. فقد ذكر المقدسى عن مكتبة عضد الدولة بشيراز أنها «وخزانة الكتب غرفة على حدة، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلها إلا وحصلَّه فيها. **وهى أزج طويل فى صفة كبيرة فيه خزائن من كل وجه، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتا طولها قامة فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق، عليها أبواب تنحدر من فوق والدفاتر منضدة على الرفوف لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامى الكتب لا يدخلها إلا وجيه»**.

ويستفاد من هذا النص أن المكتبة لها مبنى مستقل وأنه كان هناك ممر طويل مستطيل على جانبيه حجرات المكتبة ولكل حجرة باب يفتح على هذا الأزج وأنه كان هناك فى كل حجرة مجموعة خزائن وفى كل خزانة عدد من الرفوف، ترص عليها الكتب بطريقة أفقية وليست رأسية وأن الموضوع الواحد كانت له خزائنه الخاصة وكل خزانة كان عليها قائمة بالكتب الموجودة فيها.

ويشير المقريزى إلى الستائر التى كانت تغطى نوافذ وأبواب دار العلم فى القاهرة كما كانت الأرضية تغطى بالسجاد اللباد حال فصل الشتاء والحصر حال فصل الصيف. كما تشير المصادر إلى أن أرضية مكتبة عضد الدولة البويهى كانت تغطى أرضيتها بالسجاجيد والحصر العبادانية.

وكانت بعض الرفوف أو لنقل الخزانات مغلقة لها أبواب ومفصلات وأقفال لحماية مقتنياتها وخاصة الثمينة. بل كان يخصص للكتاب الثمين الواحد خزانة خاصة أو محمل يغلق بمفتاح. فقد أشار إبن جبير فى رحلته إلى أنه رأى فى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة مصحفاً كبيراً وضع فى محمل وأقفل عليه.

والمقدسى يشير مرة أخرى إلى أن كل خزانة من خزائن مكتبة عضد الدولة كان لها غطاء ينزلق من أعلى إلى أسفل، كما يقول المقريزى بأن لكل وحدة رفوف (خزانة من الخزائن) فى مكتبات الفاطميين باب مقفل بمفصلات.

يذكر الدكتور يوسف العش أن إقفال الخزائن بالأقفال كان القاعدة العامة حتى فى حالة المكتبات الخاصة، ويستشهد على ذلك بما أورده إبن بشكوال من أن أحد القراء طلب كتابا معينا عن أبى ذرٍّ وأراد أن يبحث عن الكتاب فى المكتبة فأعطاه الخازن مفاتيح الخزائن كلها. بينما يذكر الدكتور محمد ماهر حمادة رحمه الله على العكس من ذلك أن «أغلب الرفوف كان مفتوحاً بدون أبواب وكان الوصول إليها حراً». ويؤكد أن الاستثناء هو الرفوف المغلقة بأقفال وحواجز.

كانت مبانى المكتبات الكبرى إلى جانب حجرات خزن الكتب وقاعات المطالعة تنطوى على قاعات للنسخ، حيث يجلس فيها النساخ على مراتب مهيئة لهم وبشكل معين وينسخون الكتب. وكان هناك مناول أو أكثر مهمته جلب المخطوطات من المخازن إليهم. كما كان الحال فى مكتبة سابور العامة فى بغداد حيث كانت توفيق الجارية السوداء تقوم بهذه المهمة على النحو الذى أشرت إليه سابقاً.

وأكثر من هذا كانت هناك فى المكتبات الكبرى حجرات للمحاضرات والمناظرات والبحث والنقاش بل وجدت مكتبات تحوى غرفاً من أجل عزف الموسيقى.

بعض مبانى المكتبات كانت تمتد لطابقين فقد أشرنا من قبل إلى المدرسة المستنصرية التى كانت مكتبتها فى «القاعات الكبيرة الواقعة فى القسم الشرقى من عمارة هذه المدرسة يفصل بينهما وبين مدرسة الفقه دهليز طويل عالٍ، وهذه القاعات ترتفع بارتفاع طابقين ولم تكن لها نوافذ بل كان فيها كوى سقفية لا تزال عامرة تكفى للإضاءة والتهوية».

كذلك أشرت من قبل إلى صورة الفلك والساعة اللتين ركبتا فى أحد جدران المكتبة ولا داعى لتكرار تلك المعلومات مرة ثانية هنا.

ومن المتفق عيه أن خزائن الكتب كانت إما داخل الجدران نفسها أو كانت تركب بحذاء الجدران ولم تعرف المكتبة الإسلامية الرفوف التى ترتب وتنظم وسط أرض القاعة وطالما كانت الخزائن توضع داخل الجدران فإن تلك الجدران كانت بسمك ١٤٠سم فإذا ما احتلت المكتبة نصف هذا السمك أو ثلثيه بقى للجدار نفسه سمك كبير يشد أزر المبنى. وكانت الخزائن ترتفع عن الأرض بمسافة معينة قد تصل إلى أربعين سنتمترا وذلك لحماية الكتب من أية مياه قد تلحق بالأرضية. وقد أشار المقدسى فى النص الذى أوردناه سابقاً إلى أن ارتفاع الخزائن (الرفوف) كان يصل إلى قامة والقامة هنا هى طول الرجل ويده ممدودة، وبالتالى قد يصل الارتفاع بحساب السنتمتر إلى ٢٢٠سم، كما كان العرض عند المقدسى أيضا هو ثلاثة أذرع (١٦٢سم) وربما كان عمق الخزانة يصل إلى ١١١سم. وكانت الرفوف بسبب عرضها تقسم إلى أجزاء بحواجز رأسية على شكل خانات كما كان الحال فى خزائن مكتبات الفواطم، وفى مكتبات الساسانيين التى وصفت بأنها مكونة من صناديق منضدة بعضها على بعض ومكتبة صلاح الدين فى دمشق.

والحقيقة أنه فى حالة المكتبات الملحقة والمكتبات الخاصة كانت الكتب عنصرا زخرفيا جماليا على النحو الذى صادفناه لدى الإغريق والرومان ولذلك كانت المكتبة فى هذه الحالة تحتل أبرز مكان فى المبنى ففى مرصد مراغة وفى بيمارستان قلاوون بالقاهرة خصصت للمكتبة أوسع غرفة، كانت أحسن ما فى البناء هندسة وهى الغرفة التى فوقها القبة، ومن البديهى أن تكون هى الغرفة الرئيسية التى تعقد فيها الإجتماعات. وكما هو الحال فى الإيوان الكبير فى البيمارستان النورى بدمشق، حيث كان الطلاب يجتمعون مع أستاذهم.

ومن المتفق عليه أيضاً أن أثاثات المكتبة كانت من الخشب سواء الرفوف والخزائن أو الكراسى والمناضد أو المحامل التى تحمل كتبا مفردة. وكانت

صناعة أثاث المكتبات فنا قائماً بذاته يجنح نحو الجمال وخاصة فى حالة الخشب المحفور والذى تنقش عليه الزخارف والنصوص الشعرية والنثرية على النحو الذى أتينا على طرف منه سابقاً.

العاملون فى المكتبة الإسلامية

كان من الطبيعى أن تدار المكتبة الإسلامية بواسطة عدد من العاملين تتفاوت رتبهم كما يتفاوت نوع العمل المسند إلى كل منهم، وأكثر من هذا كانت تتفاوت تسميات الوظائف التى يحتلونها. وكان المصطلح العام الذى يطلق على أمين المكتبة هو مصطلح الخازن ويجمع على خزنة. أما المدير فربما كان يسمى (صاحب) وهو مصطلح شاع ليس فى المكتبات وحسب وإنما فى جل المؤسسات كالمستشفيات والمراصد وغيرها وربما كان المدير يسمى (الوكيل) وهذا المصطلح جاءنا من عملية الوقف حيث كان مدير الوقف يسمى بالوكيل. أما مساعد أمين المكتبة فقد كان يطلق عليه المشرف. يضاف إلى هذه الوظائف الإدارية والفنية العليا وظائف أخرى محددة مثل المناول الذى يجلب الكتب من المخازن ويقدمها للقراء أو النساخ ونصادف أيضا وظيفة الناسخ الذى كانت مهمته نسخ الكتب لاثراء مقتنيات المكتبة أو للإحلال، وكانت بعض المكتبات كما ألمحت منذ قليل تشتمل على قاعة للنسخ. وربما كان فى بعض المكتبات مجلد أو مرمم لتجليد وترميم ولم شعث المخطوطات كما ورد فى بعض الوثائق. تأتى بعد ذلك وظائف أو عمالة الدرجة الثالثة وتضم بطبيعة الحال الفراشين والسعاة والسقائين. وكانت طائفة الفراشين يناط بها عادة مسألة تنظيف وتطهير المكان والكتب كما كان يناط بالسعاة حمل المكاتبات والمراسلات وقضاء احتياجات المكتبة، أما السقاؤون فكانت مهمتهم جلب الماء والسقاية فى حالة عدم وجود ينبوع ماء أو صنبور.

ولقد شغل وظائف الإدارة العليا فى المكتبة الإسلامية - أيا كان نوعها - شخصيات لها شأنها وخطرها سواء من الناحية العلمية أو من الناحية

الإجتماعية مما يكشف عن أهمية ورفعة شأن هذا المنصب. وقد أشرت مراراً عند تحليل نوعيات المكتبات إلى كثير من الشخصيات التى تولت هذا المنصب الرفيع ولا بأس من ضرب أمثلة جديدة هنا لمجرد التجميع فقط.

ففى بيت الحكمة فى بغداد نصادف شخصيات فذة عالمة وذات مكانة إجتماعية مثل سهل بن هارون الفارسى وكان فيما يذكر القفطى «مذكور مشهور من أئمة المتكلمين»، وقد جاء معه أو بعده سعيد بن هارون الملقب بابن هريم «وقد كان فصيحاً بليغاً مترسلاً أخذ عنه الجاحظ ثم أيضاً سلم أو سلمان الحرانى وكان من كبار العلماء كما يرد إسم أحمد بن محمد الذى إشتغل بالحديث والرواية وكذلك إسم الحسن بن مرار الضبى وهو أيضاً من العلماء.

وكان ممن عمل فى المكتبة وليس بمدير، يوحنا بن ماسويه الذى كان يشتغل بالترجمة والنقل، وأبو سهل الفضل بن نوبخت، وأبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى وغيرهم.

وفى دار العلم (الحكمة) فى القاهرة كان هناك كما أشرنا من قبل فى حينه أبو بكر الأنطاكى وجنادة بن محمد بن الحسين الأسدى الهروى وعبد العزيز بن النعمان ومالك بن سعيد الفارقى وأبو محمد حسن بن آدم وأبو فخر داعى الدعاة وأبو الحسن على بن إسماعيل وهبة الله بن حسن الأنصارى الأوسى وكلهم من العلماء الأفذاذ. وكان فى مكتبات القصور الفاطمية كذلك مديرون علماء ذكر منهم على بن محمد الشابشتى وكان أديبا فاضلاً ولاه الخليفة العزيز خزانة كتبه وكان يقرأ له الكتب وينادمه وله عدة تصانيف منها كتاب الديارات وكتاب مراتب الفقهاء. وقد توفى سنة ٣٩٠هـ فيما يذكر إبن خلكان فى وفيات الأعيان.

وفى مكتبة سابور بن أردشير يرد إسم الشريف المرتضى وهو صاحب المساجلة الشهيرة مع أبى العلاء المعرى حول المتنبى كما يرد إسم أبى أحمد

عبد السلام بن الحسين البصرى وإسم هلال بن المحسن الصابى، ترد هذه الأسماء بين مديرى المكتبة والمشرفين عليها كما ورد من قبل.

وفى مكتبة بنى عمَّار فى طرابلس نصادف أبا الفضل بن أبى روح كمدير لها. كذلك الحال فى مكتبة قرطبة الشهيرة يرد اسم بكية الحضى كمدير لها وقد أشاد به إبن خلدون.

ولم يتغير الوضع فى المكتبات المدرسية عنه فى المكتبات الوطنية (مكتبات الدولة) ففى مكتبة المدرسة النظامية فى بغداد يطالعنا إسم أبو يوسف الإسفراييني الذى كان شاعراً وأديباً. ولما مات فى سنة ٤٩٨هـ جاء بعده محمد بن أحمد الإبيوردى صاحب المصنفات الكثيرة جداً، وجاء بعده عالم آخر هو على بن أحمد بن بكرى المكنى بأبى الحسن المتوفى سنة ٥٧٥هـ وله معرفة جيدة بالأدب، مليح الخط جيد الضبط قد كتب من كتب الأدب الكثير الذى يفوق الحصر فيما يذهب ياقوت الرومى فى معجم الأدباء.

كذلك الحال فى المدرسة المستنصرية ذات الشهرة الكبيرة التى تولى إدارة مكتبتها عدد من العلماء المشاهير وصلتنا أسماؤهم ومن بينهم: الشمسى على بن الكتبى أول مدير لها، وابن الفوطى المؤلف الشهير والمؤرخ المدقق (وقد كان قبلها مديراً لمكتبة مرصد مراغة) والذى من بين مؤلفاته **الحوادث الجامعة ومجمع الآداب فى معجم الأسماء**. ومن بين مديرى هذه المكتبة الأفذاذ تاج الدين على بن إنجب المشهور بابن الساعى الذى وصف بأنه إمام حافظ مبرز على أقرانه فقيه بارع قارئ للسبع محدث مؤرخ شاعر، له عناية كبيرة بالتاريخ ألف فيه كثيراً من الكتب وكان قبل ذلك فى مكتبة المدرسة النظامية. ومن أشهر كتبه على الإطلاق **تاريخ بغداد**. وقد توفى سنة ٦٧٤هـ.

وفى نفس تلك المكتبة كان العماد على بن الدباس يعمل مشرفاً والجمَّال إبراهيم بن الحذيفة مناولاً. وهما أيضا على مستوى مرموق من الثقافة والعلم. وقد مر بنا خبرهم جميعاً من قبل.

وفى مكتبة المدرسة الفاصلية فى القاهرة نصادف من بين مديريها عبد الرحمن بن على بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٦٩٥هـ إبن حفيد القاضى الفاضل صاحب المدرسة. وكان كاتبا وله العديد من الكتب.

هذه العينات من أسماء من عملوا بالمكتبة الإسلامية فى العصور الوسطى قصد بها فقط أن تكشف عن المستوى العلمى والحيثيات الإجتماعية التى كانوا عليها وأن هذا المنصب كما كان فى مصر فى العصور القديمة من أجلّ المناصب وأشرفها.

وبطبيعة الحال كانت مرتبات العاملين فى المكتبة الإسلامية تتفاوت من مكتبة إلى مكتبة ومن درجة وظيفية إلى أخرى داخل المكتبة الواحدة ولم تصلنا فى الواقع معلومات كاملة عن تلك المرتبات والمخصصات ولكن كل ما وصلنا معلومات عرضية كما مر بنا بعضها من قبل، ويتضح منها أنه فى بعض الأحيان تكون المخصصات مرتفعة وأحيانا تكون متدنية وأحيانا تكون مساوية لمخصصات الوظائف الأخرى غير المكتبية.

ففى دار العلم بالقاهرة كان الراتب السنوى للخازن ٤٨ ديناراً أى بمعدل أربعة دنانير فى الشهر بينما كان راتب خطيب الجامع الأزهر ضعف ذلك تقريبا (٨٤ ديناراً). ولكن مرتب الخازن هذا كان ضعف مرتب أمام الجامع وهو (٢٨ ديناراً). ويجب أن يكون واضحاً أنه إلى جانب النقود كانت هناك مخصصات عينية من لحم وخبز تصرف للعاملين فى المكتبة مما يرفع كثيرا من قيمة الرواتب التى يتقاضونها، ذلك أن المخصصات العينية كانت تصرف لهم يوميا ومن ثم تكفيهم مؤونة طعامهم اليومى ومن ثم يصبح الراتب الشهرى أو السنوى وفراً خالصاً لهم.

وفى مكتبة المدرسة المستنصرية التى أنشأها الخليفة العباسى المستنصر بالله سنة ٦٣٢هـ كما مر بنا، تكشف وقفية المكتبة كشفا قاطعاً عن ذلك الاتجاه على النحو الذى سجلته فى الجدول المبين هناك ففى تلك الوقفية:

أ - يكون للخازن المشرف على المكتبة عشر دنانير شهريا (١٢٠ ديناراً سنوياً) أى ضعفين ونصف مما يتقاضاه خازن دار العلم بالقاهرة. ويكون له عشر أرطال خبزاً وأربعة أرطال لحماً بحوائجها وخضرها وحطبها فى كل يوم.

ب - يكون لمساعد الخازن ثلاثة دنانير شهرياً (٣٦ ديناراً سنوياً) بما يقترب من راتب الخازن العام فى دار الحكمة بالقاهرة. ويضاف إلى ذلك خمسة أرطال خبزاً ورطلان لحماً فى كل يوم.

ج - يكون للمناول ديناران شهريا (٢٤ ديناراً سنوياً) وأربعة أرطال خبزاً وغرف طبيخ أى وجبة طبيخ بها رطل لحم يوميا.

والمتأمل فى هذه المخصصات المالية والعينية للعاملين بالمكتبة يجدها مرتفعة ومجزية ومغرية بالعمل. ويجب أن تؤخذ هذه المخصصات على أنها كانت السائدة فى تلك الفترة. يدلنا على ذلك الشخص الذى غيرّ مذهبه لكى يعمل فى المكتبة والذى مر بنا خبره من قبل (وهو أبو جعفر عمر بن أبى بكر بن عبيد الله الدباس الذى تحول من المذهب الحنبلى إلى الشافعى ليشغل وظيفة مجزية فى مكتبة المدرسة النظامية).

ولم يكن يتفوق على خازن المكتبة فى مرتبه كما مر بنا سوى المدرس الذى كان يتقاضى ١٢ ديناراً شهريا (١٤٤ ديناراً سنوياً) وعشرين رطلاً من الخبز وخمسة أرطال من اللحم بحوائجها يوميا. وإن كان الفرق ليس كبيراً كما هو واضح.

وتطالعنا الأرقام كذلك بمرتبات متدنية فى مكتبات أخرى فخازن دار الحديث الأشرفية التى أتينا على ذكرها من قبل فى دمشق كانت أجرته الشهرية ١٨ درهماً بينما أجرة المؤذن تصل إلى ٢٠ درهما، وأجرة الفقيه فى الدار تصل إلى ٣٠ درهما.

وفى العصر التالى إنحطت رواتب خزنة الكتب إنحطاطاً كبيراً وتساوت مع

رواتب البواب والفراش حيث كان الواحد منهم يتقاضى عشرين ليرة عثمانية بينما كان المدرس يتقاضى أربعين ليرة عثمانية.

ويسرد علينا الدكتور يوسف العش بعض الأرقام الأخرى عن الرواتب فى العصر العثماني ومن بينها نقتطع الأرقام الآتية:

١ - كان الخازن فى المدرسة العثمانية بحلب يتقاضى عشرين ليرة عثمانية، بينما البواب وكاتب الدين يتقاضى كل منهما عشرة ليرات فقط.

٢ - كان الخازن فى مسجد الناصرية بحلب سنة ٨١٣هـ = ١٤١٠م يتقاضى عشرة ليرات عثمانية، بينما إمام المسجد يتقاضى مائة ليرة.

٣ - كان خازن مكتبة المسجد المؤيدى فى القاهرة يتقاضى أربعين نصفا فى الشهر مع أربعة أرطال خبز يوميا بما يتساوى مع مخصصات طالب العلم، بينما مدرس الفقه الحنفى فى نفس المسجد يتقاضى خمسمائة وخمسين نصفاً فى الشهر.

٤ - كان خازن مكتبة مسجد كتخدا قيصرلى فى القاهرة المشيد نحو سنة ١١٣٨هـ = ١٧٣٥م يتقاضى مرتبا سنويا مقداره مائتا نصف أى بمعدل ١٧ نصف تقريباً شهرياً أى أقل من الفراش الذى كان يحصل على عشرين نصفاً شهرياً؛ فى نفس الوقت الذى كان فيه إمام المسجد يتقاضى ستين نصفاً كل شهر أى ثلاثة أضعاف ما يتقاضاه الخازن والفراش تقريباً.

ويبدو أن عمل الخازن فى المكتبات الملحقة بالمساجد أو المدارس كان أحيانا عملاً إضافيا مقابل هذا المرتب اليسير، وكان له عمل آخر فى نفس المكان يتقاضى عنه المرتب الأساسى ذلك أن خازن مكتبة المسجد المؤيدى المشار إليه فى رقم ٣ بعاليه كان يعمل فى نفس الوقت خطيباً للمسجد ويتقاضى عن ذلك مائة نصف فى الشهر ومن هنا يكون راتبه عن العملين مائة وأربعين نصفا (٤٠ للمكتبة + ١٠٠ للخطابة). ومن ثم يجب أن يفسر إنخفاض مرتبات خزنة المكتبات الملحقة جزئياً على هذا النحو.

وعلى الجانب الآخر إرتفعت المرتبات فى بعض المكتبات الملحقة ربما لأن الخازن كان متفرغاً وليس له عمل آخر سوى أمانة المكتبة فقد كان راتب خازن مكتبة مسجد قايتباى يصل إلى مائتى درهم نحاس وهو نفس راتب المقرئ فى المسجد، وإن كان ٥٠٪ فقط من راتب الإمام والخطيب. وفى مسجد محمد بك أبو الدهب الذى أنشئ سنة ١١٨٧هـ = ١٧٧٣م؛ كان خازن المكتبة يتقاضى ستين نصفاً فى الشهر بينما المدرس الأول فى المسجد يتقاضى مائة وخمسين نصفاً، والمدرس الثانى يتقاضى ثلاثين نصفاً فقط والإمام يتقاضى خمسين نصفاً وحسب.

لوائح وتشريعات المكتبة الإسلامية

الحقيقة أن القواعد المنظمة للعمل فى المكتبة الإسلامية قد تأرجحت بين نصوص مكتوبة تمثلت فى قرارات تعيين الخزنة أو الوقفية التى وضعها الواقف للمكتبة من جهة وبين أعراف وتقاليد شفوية متواترة ومرعية من جهة ثانية.

ذلك أن القرارات التى كانت تصدر بتعيين خازن للمكتبة كانت تحدد له مهامه ولو على سبيل العموم تاركة له التصرف فى التفاصيل. وعلى سبيل المثال عندما أصدر الخليفة المستنصر بالله إلى عبد العزيز بن دلف وإبنه ضياء الدين أحمد أوامره بالتوجه إلى المكتبة المستنصرية «وإثبات الكتب واعتبارها وترتيب مؤلفاتها، ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها».

ومن أطرف القرارات ذلك القرار «التوقيع» الذى صدر لخازن مكتبة مدرسة الإمام أبى حنيفة النعمان؛ ضياء الدين أبى الفضل أحمد بن مسعود التركستانى الحنفى سنة ٦٠٤هـ = ١٢٠٧م والذى سجله ابن الساعى فى الجامع المختصر. هذا التوقيع يتضمن نصاً صريحاً بالأعمال التى أنيطت بأمين المكتبة الذى تسلم العمل من زميل له:

«وليثبت ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها معارضا ذلك بفهرسته، متطلبا ما عساه قد شذ منها وليأمر خازنها بعد استصلاحه بمراعاتها ونفضها فى

كل وقت ومرمة شعثها وأن لا يخرج منها شيئاً إلا إلى ذى أمانة مستظهراً بالرهن عن ذلك».

فالتعليمات فى القرار تكون واضحة:

١ - إعداد فهرس بالكتب.

٢ - جرد الكتب على الفهرس القديم إن كان هناك فهرس.

٣ - تصنيف أو ترتيب الكتب فى نسق محدد يسهل الوصول إليها.

٤ - إسترداد الكتب المعارة.

٥ - الإحلال محل التالف والفاقد.

٦ - الإشراف على تنظيف المكتبة وتنفيض الكتب فى كل وقت.

٧ - ترميم الكتب التى فى حاجة إلى ترميم.

٨ - إدارة تداول الكتب وعدم الإعارة الخارجية إلاً برهن.

هذه القرارات المكتوبة من قبل صاحب المكتبة كانت تسمى فى بعض الأحيان (التوقيعات)، لأنها كانت تصدر مكتوبة وموقعة من صاحب الشأن ومن ثم فلها قوة اللائحة لأن مدير المكتبة كان يؤجر على تنفيذ تلك التعليمات وكان يجازى على إهماله فى تنفيذها على نحو ما صادفناه قبل ذلك فى حالة مكتبة المستنصرية حينما زارها الخليفة سنة ٦٤٠هـ = ١٢٤٢م ولم يجد أن تعليماته قد نفذت فأمر بحبس العاملين فيها يومين، وسرحهم من العمل.

كذلك كان نص الوقفية يحدد نوع المجموعات ومفرداتها أحيانا ويحدد مهام العاملين فى المكتبة ويحدد فئات المستفيدين من المكتبة ونوع الخدمات التى تقدم لهم، ومن ثم فإن النصوص الوقفية تعتبر بمثابة لائحة تحدد قواعد التعامل مع المجموعات الموقوفة. ونحن نعلم أن المكتبة الإسلامية فى مجموعها قامت أساساً على الوقف. وقد أشرنا من قبل إلى تأخر ظهور الوقف فى مجال المكتبات

والكتب لخلافات فقهية، وبعد حل تلك الخلافات والإعتراف بشرعية وقف الكتب والمكتبات، إنهمرت عمليات وقف الكتب إنهمار المطر فى عز الشتاء.

ولن نسعى فى هذا المبحث إلى حصر الوقفيات وتحليل نصوصها بل فقط نضرب أمثلة محددة على ذلك، فليس الحصر من همٍّ هذا البحث.

من الوقفيات التى تحدد صفات أمين المكتبة وأعماله ومرتبه وقفية السلطان فرج بن برقوق حيث جاء فيها:

«... يكون ثقة خيراً أمينا يقظا قادراً على القيام بخدمة الكتب، عارفاً بترتيبها ... على أن يتولى حفظها ونفضها، ويتفقد أحوالها بالإصلاح ووضعها بموضعها بالخزانة المرصدة لها، وعلى أنه من حضر إليه يطلب شيئاً من ذلك فإن كان أهلاً لمطالعة ذلك والاشتغال به وكان من أهل المكان وممن يوثق به دفعه إليه وأخذ خطه منه فإذا أعاده إليه دفع إليه خطه ولايمكنه من التأخير مدة بعيدة يخشا [هكذا فى الأصل] منها حصول النسيان، بل يتعهده بالسؤال وأخذ ما أخذه منه، فإذا طلب غيره أجابه لذلك وفعل كما فعل أولاً. وإن كان الطالب من خارج المكان لا يعطيه شيئاً من ذلك، ولا يمكنه من إخراج شئ إلى خارج المكان، ويفعل الخازن فى ذلك ما يفعله أمثاله من الخزنة من حفظ ذلك، وحفظ ما يسلَّم إليه من حواصل الجامع أسوة أمثاله على العادة ويصرف له على ذلك فى كل شهر من الفلوس المذكورة عشرون درهما».

والنص هنا صريح يحدد صفات أمين المكتبة:

١ - الأمانــــة　　　　٢ - اليقظـــة

٣ - القدرة على الخدمة المكتبـية　　　　٤ - المعرفة بالتصنيف وبالترتيب.

كما أن النص صريح فى تحديد وظائف الأمين وهى:

أ - حفظ المجموعات وصيانتها وعدم إزاحتها خارج المكان.

ب - نفض الكتب من الأتربة أو الإشراف على ذلك.

ج - الترميم والإصلاح أو الإشراف على ذلك.

د - إعادة ترتيب الكتب على الرفوف بعد إستعمالها من قبل المستفيدين.

هـ - إعارة الكتب لأهل المنطقة المعروفين له فى مقابل إيصال يأخذه من المستعيرين (خطٌ).

و - المطالبة برد الكتب المتأخرة عند المستعيرين، وعدم السماح بإعارة كتب جديدة إلا بعد إعادة الكتب المستعارة.

ز - إعادة الإيصال إلى المستعير عند رد الكتاب.

ح - عدم إعارة أى شئ خارج المكتبة لأى شخص خارج أهل المنطقة.

وكان نص الوقفية يحدد نوعية المستفيدين ونوع الخدمة المكتبية سواء ورد هذا النص فى وثيقة مستقلة أو أثبت النص على الكتاب الموقوف نفسه. وإن كانت وثائق الوقف محدودة العدد فإن عشرات الآلاف من الكتب والأجزاء قد حفلت بصيغ الوقف التى تحدد المستفيدين وشروط الإفادة.

ومن نصوص الوقف ما يقصر الوقف على مذهب معين دون غيره كالمذهب الشافعى أوالحنفى أو الحنبلى أو المالكى. ومن ثم لا يجوز لغير أتباع هذا المذهب أن يستعملوا أو يفيدوا من الكتب الموقوفة. كذلك من نصوص الوقف ما يحدد المنتفعين بالمنطقة الجغرافية المحيطة بالمكتبة. ومن نصوص الوقف ما تبيح الإنتفاع بالكتب الموقوفة لطلبة العلم على إطلاقهم. ومن هذه النصوص من يبيحها لمن هم أهل لذلك وهى كما نرى عبارة مطاطة تترك الحرية لخازن المكتبة فى تحديد مستحقى الإنتفاع. ومن النصوص ما يجعل الإنتفاع لكافة علماء المسلمين على الإطلاق.

وجميع نصوص الوقف تشير إلى الإنتفاع الداخلى (الإطلاع اداخلى) الحر بالكتب الموقوفة ولكنها تتفاوت تفاوتاً بينا فيما يتعلق بالإستعارة الخارجية فبعضها يحظرها البتة وبعضها يبيحها بإيصال وبعضها يبيحها برهن وبعضها

يبيحها بدون قيود. وبعض نصوص الوقف تلعن من يتصرف فى الكتب الموقوفة بأى شكل من الأشكال. ونورد فيما يلى بعضا من نصوص الوقفيات التى تكشف عن قواعد الإفادة ونوع المستفيدين وتحدد المسئول عن مراقبة تنفيذ قواعد الوقف ولائحته:

«وقف وحبس وسبل هذا الجزء وماقبله وما بعده من الأجزاء إلى تمام خمسة عشر جزء: الأخوان أبو المغيث وهادى إبنى «هكذا فى الأصل» على الكنانى للقراءة فيه بالجامع الكبير بمدينة صنعاء المحروسة، لايباع ولا يرهن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. تقبل الله ذلك منهما. ثالث عشر محرم الحرام عام خمس وأربعين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام(فمن بدَّله بعد ماسمعه فإن إثمه على الذين يبدلونه). والله سميع عليم وذلك بوصية من أخيهما حسن بن على الكنانى.» لقد جاء هذا النص على نسخة من القرآن الكريم وقفت فى الجامع الكبير بصنعاء اليمن.

وفى كتاب «**منتهى الإرادات فى جمع المقنع من التنقيح وزيادات**» نجد نص وقفية أخرى جاء فيها «وقف وحبس وسبل جميع هذا الكتاب فقير رحمة ربه العلى أحمد بن أحمد بن عوض المقدسى الحنبلى على كافة طلبة العلم وجعل مقره بزاوية الشيخ أحمد السحيمى (فمن بدله بعد ما سمعه فإن إثمه على الذين يبدلونه)».

وفى كتاب وقف على مكتبة مدرسة جاء النص الآتى:

«هذا الكتاب مما وقفه وقفا لازما بأن علقه بالموت وجعله مخرجاً مخرج الوصية أفقر البرية إلى رحمة الله تعالى السيد حاجى حازم بن المرحوم السيد حاجى عبد الرحمن الرومى الشهير بجلبى أفندى مدرساً بالمدرسة الكبرى لحضرة الصدر المرحوم إبراهيم باشا، ووضعه فى بيت الكتب لذلك المرحوم وجعل توليته لمدرس تلك المدرسة وشرط أن لا يخرج من بيت الكتب إلا برهنْ يساوى ضعف قيمته (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن

الله سميع عليم) وأجر الواقف على الحى الكريم. وكان ذلك فى اليوم السادس والعشرين من شوال سنة ست وسبعين ومائة وألف».

وفى أحد الكتب التى أوقفت على روح متوفٍ جاء النص الآتى:

«وقفت هذه النسخة الشريفة لروح مريم بنت يوسف لمرضاة الله تعالى لا يباع ولا يشترى ولا يرهن ولا يرتهن ولا يعطى إلى غير أهله. ووقفت لأهل الحق من العلماء العاملين لعن الله بايعها واشترائها بعد علمهما».

وفى الجزء الثالث من صحيح البخارى والذى كان موقوفاً فى المدرسة الراغبية نجد النص الآتى:

«الحمد لله الذى وقف أسرار أعمال عباده والصلاة على رسوله وآله صلاة دائمة دوام الأبد وآباده، وبعد: فقد وقفت هذه النسخة الشريفة مع ثلاثين أجزاء وقفا صحيحاً ووضعتها فى دار الكتب التى فى مدرستى، وشرطت أن لا تخرج إلا بالرهن الغالى. وأنا الفقير الحاج محمد راغب بن محمد مسعود أفندى غفر الله لهما».

إضافة إلى القواعد المنصوص عليها فى (التوقيعات) و(الوقفيات) كانت هناك قواعد شفوية أو متواترة أقرب إلى دليل الإجراءات منها إلى اللوائح من بينها طرق ترفيف الكتب وتبخير الكتب وحسن معاملة الكتب وآداب استعمالها مما يدخل فى نطاق اللوائح والتشريعات فى زماننا الحالى.

الميزانية والتمويل

عندما كانت الدولة تنشئ مكتبة فإنها كانت تتكفل إما من بيت المال بنفقات تلك المكتبة كما هو حال دار العلم بالقاهرة وبيت الحكمة فى بغداد. أو كان السلطان أو الخليفة أو الأمير يتكفل بنفقات تلك المكتبة من ماله الشخصى.

وفى حالة قيام أفراد من ذوى الحيثيات بإنشاء مكتبة سواء عامة أو مكتبة ملحقة بمدرسة أو جامع فإن الواقف عادة ما يتكفل بنفقات تلك المكتبة والمدرسة

والجامع وربما أوقف عليها أطيانا أو مصادر دخل لا تنقطع؛ هذه النفقات تتعلق بصيانة المبنى وتنمية المجموعات وإمداد القراء بالقرطاسية والماء. وكذلك بمرتبات العاملين فى المكتبة. وكان ناظر الوقف العام مسئولاً عن قضايا الميزانية هذه وتوزيع بنودها. وقد حفلت الوقفيات الخاصة بالمكتبات الكاملة بتحديد مرتبات الخزنة وقلة منها هى التى عالجت الميزانية السنوية للمكتبة.

أما عندما يوقف أحد المؤلفين أو الأفراد بضعة كتب على مكتبة قائمة بالفعل أو ملحقة بمؤسسة أكبر فإن أمره ينتهى عند هذا الحد ولا علاقة له بمسألة النفقات الأخرى.

ولعل الميزانية التى وصلتنا من دار العلم بالقاهرة وهى الوحيدة التى عثرنا عليها تكشف عن الطابع العام لميزانية هذا النوع من المكتبات. وقد ذكرناها فى حينها ولا بأس من سردها مرة ثانية هنا تيسيراً على المستفيد. ولعله من نافلة القول أن نذكر أنها ميزانية سنوية:

ثمن الورق للنسخ	٩٠ ديناراً
راتب الخازن	٤٨ ديناراً
راتب الفراش	١٥ ديناراً
ثمن الحبر والورق والأقلام للقراء	١٢ ديناراً
إصلاح الكتب وترميمها	١٢ ديناراً
ثمن الماء	١٢ ديناراً
ثمن الحصير العبدانى (للصيف)	١٠ دنانير
ثمن سجاد لبود للفرش (شتاءً)	٥ دنانير
ثمن طنافس شتوية	٤ دنانير
ترميم وصيانة الستائر	١ دينار

وكما أوضحت فى حينه فإن اجمالى ميزانية المكتبة السنوية بلغ ٢٥٧ ديناراً قيمة دخل الأوقاف المخصصة لها. بينما المنفق بالفعل حسبما تكشف عنه البنود السابقة لا يزيد على ٢٠٩ دنانير ومن ثم يكون دخل المكتبة أكبر من المنصرف وبالتالى يكون هناك إحتياطى سنوى مقداره ثمانية وأربعون ديناراً لما قد يستجد من وجوه إنفاق طارئة.

ولقد أمدنا الدكتور السيد السيد النشار فى رسالته للماجستير التى نشرها سنة ١٩٩٣ تحت عنوان «تاريخ المكتبات فى مصر فى العصر المملوكى» بقائمة طيبة - مما تيسر له من وثائق الوقف - تحتوى على مرتبات ومخصصات بعض أمناء المكتبات فى ذلك العصر؛ نستخلص منها البيانات التالية:

المكتبة	شهرياً	القرن الهجرى
١ - خازن مكتبة المدرسة المنصورية. (السلطان المنصور قلاوون)	٤٠ درهما	(أواخر القرن السابع الهجرى)
٢ - خازن مكتبة المدرسة الناصرية. (السلطان الناصر محمد بن قلاوون)	٣٠ درهما	(أوائل القرن الثامن الهجرى)
٣ - خازن مكتبة مدرسة الأمير صرغتمش	٥٠ درهما	(أوائل القرن الثامن الهجرى)
٤ - خازن مكتبة مدرسة السلطان حسن بن قلاوون	١٠٠ درهم + عشر دراهم فى العشر الأواخر من شهر رمضان لشراء سكر وزيت.	(منتصف القرن الثامن الهجرى)
٥ - خازن مكتبة مدرسة السلطان فرج بن قلاوون	١٥ درهما + ٢٠ درهما مقابل وظيفة الصوفية التى كان يشغلها فى نفس الوقت.	(أواخر القرن الثامن الهجرى)
٦ - خازن مكتبة مدرسة سودون زاده	٢٠ درهما	(أوائل القرن التاسع الهجرى).
٧ - خازن مكتبة مدرسة جمال الدين يوسف الإستادار	١٠ دراهم	(أوائل القرن التاسع الهجرى).
٨ - خازن مكتبة جامع فرج بن برقوق	٢٠ درهما	(أوائل القرن التاسع الهجرى).
٩ - خازن مكتبة جامع المؤيد شيخ	٢٠ درهما	(أوائل القرن التاسع الهجرى).

١٠ - خازن مكتبة المدرسة الأشرفية (الأشرف برسباى)	٣٠٠ درهم + ٣ أرطال خبز يوميا	(أوائل القرن التاسع الهجرى).
١١ - خازن مكتبة مدرسة قايتباى	٢٠٠ درهم + رطلان من الخبز يوميا	(أوائل التاسع / أوائل العاشر)
١٢ - خازن مكتبة مدرسة الأمير أزبك بن ططخ	٣٠٠ درهم	(أواخر التاسع الهجرى)
١٣ - خازن مكتبة المدرسة الغورية + فراش المدرسة	١٥٠٠ درهم	(أوائل القرن العاشر الهجرى)
١٤ - خازن مكتبة مدرسة قانى باى	١٦ درهما	(أوائل القرن العاشر الهجرى)
١٥ - خازن مكتبة الإبشادى بالجامع الأزهـــر	٥أنصاف فضة	(أوائل القرن العاشر الهجرى)

وهذه البيانات المالية هى أقصى ما يمكن أن نصل إليه فى المكتبة الإسلامية.

التزويد والمجموعات فى المكتبة الإسلامية

يعتبر **الوقف** هو الطريق الرئيسى فى تكوين النواة فى أية مكتبة، ذلك أن الواقفين تعودوا أساساً على أن يوقفوا مجموعات كاملة على النحو الذى مر بنا وتنمو هذه المجموعات بعد ذلك بطرق أخرى مثل **النسخ** وقد رأينا من قبل كيف كانت بعض المكتبات الكبيرة تشتمل على قسم خاص للنسخ وكيف تخصص ميزانية خاصة للورق والحبر والأقلام التى تستخدم فى عملية النسخ هذه.

كذلك كانت **المصادرة والغنم** من بين وسائل تزويد بعض المكتبات كما هو الحال فى مكتبات الدولة مثل بيت الحكمة فى بغداد وقد مر بنا كيف كان هارون الرشيد يستولى على مجموعات الكتب من الدول التى يفتحها والمدن التى يحتلها وكذلك يفعل إبنه المأمون.

ولا نغفل **الإستهداء والإهداء** كمصدر هام أيضا من مصادر تزويد المكتبة الإسلامية بالمجموعات ذلك أن كثيرا من المؤلفين كانوا يؤلفون كتبا بعينها

ويهدونها لمكتبات محددة، كما كان أهل الخير يهدون كتبا يملكونها إلى المكتبات التى يرون أنها فى حاجة لها وقد رأينا من قبل أمثلة كثيرة على ذلك ولا داعى لتكرارها ثانية.

كذلك فإن من الطبيعى أن يكون الشراء مصدراً أساسياً من مصادر التزويد سواء عن طريق مكافأة المؤلفين عن أعمال يقدمونها للمكتبة أو عن طريق شراء كتب موجودة فى السوق قام الوراقون بتوريقها قصد بيعها للأفراد والمكتبات على السواء. وقد أنفق أحدهم ٣٠٠ ألف درهم على مكتبته.

وإذا كانت المكتبات تزود بالطرق السابق الإشارة إليها كلها أو جُلَّها أو بعضها فإن حجم المجموعات تفاوت تفاوتا بينا من مكتبة إلى أخرى وقد أشرت من قبل إلى أن بعض مكتبات الدولة قد وصل إلى ثلاثة ملايين مجلد مع إعترافنا الكامل بأن قسماً كبيراً من تلك المجموعات كان نسخاً مكررة، وقد رأينا أن بيت الحكمة وصل إلى نحو مليونى مجلد وأن دار العلم فى القاهرة كانت قد وصلت إلى مليون وستمائة ألف مجلد. وقد مر بنا أيضا أن رقم مائة ألف كان أمراً مألوفا حتى فى المكتبات الخاصة، بل إن بعض المكتبات المدرسية كانت تدور حول هذا الرقم. وإن كان الرقم الطبيعى للمكتبة المدرسية يدور بين عشرة آلاف وعشرين ألف مجلد.

لقد وصلتنا بعض التفاصيل عن الإتجاهات الموضوعية إلى جانب الإتجاهات العددية أتينا على جانب منها من قبل فقد قيل عن إحدى مكتبات الفواطم التى كانت فى أحد مجالس البيمارستان العتيق، كان فيها ما يزيد على مائة ألف مجلد فى سائر العلوم يطول الأمر فى عدتها وكان من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب فى العلوم القديمة، وألفان وأربعمائة ختمة قرآن فى ربعات بخطوط منسوبة زائدة الحسن محلاة بالذهب والفضة.. ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبرى.

ويخرج الدكتور يوسف العش من دراسته للمكتبات الخاصة الإسلامية بنتائج هامة من بينها أن المكتبة الشخصية كانت بالضرورة تصطبغ بتخصص صاحبها أو ميوله الدراسية ويستشهد على ذلك بأرقام بعض المكتبات الشخصية فمكتبة الخطيب البغدادى المؤرخ المحدث الواعظ المشهور تبلغ ٤٧٤ كتابا من بينها ٢٨١ كتابا متخصصاً فى مجالات إهتمامه على النحو الآتى:

١٥٨ كتابا	فى التاريخ
٦٥ كتابا	فى الحديث
٥٨ كتاباً	فى الوعظ والزهد
٢٨١ كتابا	أى أكثر من النصف

ومكتبة الكندى عالم اللغة والنحو والأدب تصل فى مجموعها العام إلى ٧٦١ كتاباً من بينها ٥٨٠ كتابا فى مجال إهتماماته التخصصية بما يعادل أكثر من ثلثى المجموعة الشخصية وقد وزعها الدكتور العش على المجالات الآتية:

١٤٠ كتابا	فى علوم القرآن
١٤٣ كتابا	فى اللغة
١٧٥ كتابا	فى النحو
١٢٢ كتابا	فى الأدب
٥٨٠ كتابا	فى التخصص

أما إبن عبد الهادى الذى كان متخصصاً فى الحديث والفقه فقد كانت مكتبته الشخصية تدور حول ٢٤٢ كتابا منها ١١٨ كتابا متخصصاً فى الحديث والفقه: ٤٣ كتابا فى الحديث و٧٥ كتابا فى الفقه.

ومن نفس هذا المنطلق نجد مكتبة إبن خير الأشبيلى الشخصية وقد وصلت إلى ١١٢٤ كتابا من بينها ٨٣٥ كتابا فى التخصص والإهتمام وتسير على النحو الآتى:

الحديث	٢٩٥ كتابا
الأدب	٢٤٩ كتابا
اللغة	١٣٣ كتابا
القراءات	١٠٨ كتب
النحو	٥٠ كتابا

٨٣٥ كتابا أى ما يقرب من ثلثى المجموعة الكلية لهذا العالم.

وللأسف تنقصنا مثل هذه الأرقام التفصيلية عن توزيع المجموعات فى المكتبات الأكاديمية والعامة والمتخصصة.

التصنيف فى المكتبة الإسلامية

يقينا عرفت المكتبة الإسلامية التوزيع الموضوعى للكتب على الرفوف أو على الخزائن بل عرفت التوزيع الموضوعى أحيانا على حجرات المبنى أو كما كانت تسمى بيوت المبنى فقد وردت نصوص كثيرة فى هذا المعنى، كما أن قرارات تكليف الخازن ووقفيات كثير من المكتبات الإسلامية تشير إلى هذا المعنى، وقد أتينا على جانب منها من قبل تحت عنوان اللوائح والتشريعات وحيث نصت إحدى الوقفيات على ضرورة أن يكون الخازن على معرفة بالتصنيف.

ورغم أنه لم تصلنا مكتبة كاملة بنفس ترتيبها الذى كانت عليه فى العصور الوسطى إلا أن الفهارس التى وصلتنا تشهد بما كان عليه ترتيب الكتب على الرفوف، وأنا أميل إلى الإعتقاد بأن نفس ترتيب الكتب فى القوائم والفهارس هو الذى كان معمولاً به على الرفوف لأن تلك القوائم كانت فى مبلغ علمى عبارة عن أدوات جرد يجب أن تسير بنفس ترتيب الكتب فى الخزائن على الأعم الأغلب.

وهناك من الشواهد ما يؤكد أن المكتبة الإسلامية فى العصور الوسطى عرفت التصنيف بالمعنى الذى نعرفه الآن على الأقل بالمعنى الفلسفى والببليوجرافى من

حيث أنه تقسيم منطقى لجزئيات المعرفة البشرية يتداعى من الأعم إلى العام إلى الخاص فالأخص فالأكثر خصوصية وهكذا، والذى يدعونى إلى هذا الاعتقاد هو أن طاشكبرى زادة قد أورد فى مفتاح السعادة ومصباح السيادة تعريفا للتصنيف فى القرن العاشر الهجرى ربما يكون استقاه من قرون سابقة عليه، يقول فيه «هو علم باحث عن التدرج من أعم الموضوعات إلى أخصها ليحصل بذلك موضوع العلوم المندرجة تحت ذلك الأعم».

ويبدو أن تقسيم الكندى لمكتبته الخاصة قد أرسى أسس تصنيف كثير من المكتبات التى جاءت بعده فقد قسم كتبه إلى ثلاثة قطاعات كبيرة إندرج تحت كل منها عدد محدود من الفروع فقد قسم قطاعاته إلى علوم الدين - علوم الأدب واللغة - علوم الفلسفة ولذلك جاءت فروعها على النحو الآتى:

* علوم القرآن - علوم الحديث - علوم الفقه.
* علوم اللغة والنحو والتصريف - علوم الشعر والأدب.
* علوم الأوائل ويقصد بها علم الفلسفة خاصة.

هذا التصنيف هو الذى نجده فى فهرس دار العلم ببغداد ومن ثم هناك من الشواهد ما يدل على أن المجموعات فيها وزعت على أساسه ولكن بتفاصيل أكثر:

* العلوم الدينية: القرآن والتأويل والتفسير والقراءات والعبادات والفرائض والتشريع على مختلف المذاهب والعقيدة والجدل وعلم الخلاف وكتب آل البيت.
* الآداب: الأنساب واللغة والأمثال والوصف والنحو والتصريف والعروض ودواوين الشعر الجاهلى والمخضرم والمحدث والحكايات والتاريخ والرسائل.
* علوم الفلسفة: الطب والفلك والفلسفة والهندسة والصنعة.

ونفس هذا التصنيف نصادفه كذلك فى مجموعات المكتبة الأحمدية فى حلب وإن انطوى على تفاصيل أكثر وبعض التغييرات حيث يسير على النحو الآتى:

* العلوم الدينية: القرآن والتفسير والقراءات والمدائح النبوية وأصول الفقه والفقه على مذاهب الأحناف (مذهب واقف المكتبة) والشافعية والمالكية والحنابلة والعقيدة والتصوف.
* الآداب: اللغة والنحو والصرف والبلاغة (المعانى والبيان) والمنطق والجدل والأدب النثرى وتعبير الرؤيا والأدب والشعر والحكايات.
* العلوم الفلسفية: الرياضيات وقياس المساحة والجبر والحساب النسبى والطب والفلك والفيزياء واللوائح الفلكية، وفن استعمال الأدوات الفلكية وعلم التنجيم والأخبار وعلم الأسماء والحروف والهندسة وعلم الفراسة.

والحقيقة التى لا مراء فيها ولا جدال أنه لم يثبت لنا بأى قدر من اليقين أن مكتبة إسلامية فى أى زمان أو مكان قد تبنت أو طبقت أى تصنيف فلسفى أو تصنيف ببليوجرافى رغم الكثرة الهائلة للتصانيف العربية للمعرفة البشرية والتى لم يخل منها قرن من القرون الهجرية إعتباراً من القرن الثانى الهجرى، ورغم فاعلية بعض التصانيف الببليوجرافية ومنها تصنيف ابن النديم فى الفهرست وتصنيف طاش كوبرى زادة نفسه فى مفتاح السعادة. وكانت كل مكتبة إسلامية تصطنع لنفسها التصنيف المناسب لها.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن كل كتاب كانت له علامة أو عبارة تربطه إلى الخزانة وربما الرف الذى يوضع فيه، إلا أنه لم يكن هناك ربط بين الفهرس وبين الرفوف ففى الفهارس التى وصلتنا لا نجد أى أثر لهذا الربط. وإن كان فهرس مكتبة جامع القيروان كما سنرى فيما بعد يشير إلى مكان وجود الكتاب فى المجموعة الكبيرة أو المجموعة الصغيرة فقط.

وفى فهرس مكتبة خاصة أوقفها صاحبها الشيخ شمس الدين محمد بن المرحوم جمال الدين عبد الله بن عبد العزيز المغربى المراكشى، ويرجع هذا الفهرس إلى ١٠ من شوال سنة ٧٧٨هـ نجد الفهرس ومن ثم مجموعات المكتبة

قد رتبت ترتيباً مصنفا برؤوس موضوعات واسعة، تسير على النحو الآتى:

التفسير (للقرآن)

القراءات

الحديث ومصطلحه

التصوف

الفقه

أصول الفقه

الفرائض والحساب

النحو

أصول الدين (التوحيد)

المنطق

الطب

التاريخ

اللغة

وابن حجر العسقلانى إشتغل خازنا لفترة فى مكتبة المدرسة المحمودية بعد عزل خازنها فخر الدين عثمان البكرى التلاوى ثم القاهرى المعروف بالطاغى سنة ٨٢٦هـ وقد عمل لها فهرستاً على الحروف فى أسماء التصانيف ونحوها وآخر على الفنون» ولكننا لم نعثر على أى من هذين الفهرسين.

وفى وثيقة نشرها الدكتور عبد اللطيف إبراهيم نجد فهرساً لمكتبة مسجد أوقفها الأمير محمد بك أبو الدهب. وقد بلغت الكتب فى هذه المكتبة قرابة ستمائة وخمسين كتابا. وقد وزعت هذه الكتب على نحو ثلاثين موضوعا عاماً تسير على النحو الآتى:

القرآن الكريم.

علم التفسير.
تفسير غريب القرآن.
الحواشى على تفسير القرآن.
علم القراءات.
علم الحديث.
شروح على كتب الحديث.
الحواشى على كتب الحديث.
علم الفقه الحنفى.
كتب الفقه الشافعى.
فتاوى الفقه الشافعى.
شروح كتب الشافعية وحواشيها.
كتب فقه المالكية.
شروح كتب فقه المالكية.
كتب مذهب الحنابلة.
كتب النحو.
حواشى كتب النحو.
علم المعانى.
شروح كتب المعانى.
علم المنطق شروحا وحواشى.
علم الصرف.
علم اللغة.
علم التوحيد.
علم الفرائض.
علم الحساب والجبر والمقابلة.

كتب التواريخ.
كتب الآداب.

ويشير الدكتور عبد اللطيف إبراهيم إلى أن التصنيف الذى اتبع فى هذا الفهرس ومن ثم فى هذه المكتبة كان له أثره فى الفهارس التالية ومنها فهرس المكتبة الأزهرية فى القاهرة وغيرها من مكتبات المعاهد الدينية.

أما عن كيفية وضع الكتب على الرفوف فإنها كانت توضع أفقية بعضها فوق بعض مما كان يعوق حتما عملية الإسترجاع، وطالما أن الكتب كانت ترفف هكذا فكان من الطبيعى أن توضع حسب الحجم فالكتاب الكبير يكون فى قاع الرف وفوقه الكتاب المتوسط وفى أعلى «الرصّة» يأتى الكتاب صغير الحجم. وقد نصح العلموى بهذه القاعدة فى ترفيف الكتب فقال:

«لا ينبغى وضع الكتب ذات الحجم الكبير فوق الكتب الصغيرة الحجم لاحتمال سقوطها عندئذ. ويلاحظ فى ترتيب الكتب الوضعيّة الحسنة، فيجب أن يوضع عقب [كعب] كل كتاب بالاتجاه المعاكس لعقب الكتاب الذى يليه لأن الطرف الآخر الذى يضم **شارة الكتاب** أعلى من الطرف الثانى الذى يكون مضغوطاً ومسحوباً بخيط».

وعندما تتساوى الكتب فى الحجم داخل القطع الواحد فى الفن الواحد، يقول العلموى فى هذا الصدد: يُعلَّى الأكثر قرآنا فالأكثر حديثا، فجلالة المصنف، فتقدمه فأكثرهما وقوعا فى أيدى العلماء، فأصحهما. وهو ما عرف عند العرب بالتنضيد.

وربما لهذا السبب كانت المصاحف تعزل لحالها حتى لا يعلوها كتاب آخر وتلك كانت قاعدة عامة مرعية وهى التى قادت حتما إلى الترتيب الموضوعى حيث يبدأ دائماً بعلوم القرآن وأولها النص القرآنى الكريم نفسه ثم علوم الحديث وعلى رأسها المتون وهكذا تتوالى علوم الدين ثم يليها علوم الدنيا أيا كانت.

ومن الطبيعى أيضا أن تكون واجهة الكتاب التى تحمل فى بدايتها البسملة والحمدلة والصلعمة إلى أعلى.

وربما كان الجاحظ هو الوحيد - فى حدود علمنا - هو الذى كان يرتب الكتب رأسياً لسهولة تناولها وقد قيل أنه كان حينما يعمل [يدرس أو يقرأ] يضع كتبه حوله على حرفها لأنه لا يستطيع المراجعة فيها وهى فى وضعها الأفقى المسطح (المنضّد).

ومن آداب ترتيب الكتب فى المكتبات ألا يوضع أى كتاب على الأرض لتحاشى الرطوبة العدو الأول للكتاب، وألا يتخذ منه وسادة أو تكئة.

الفهرسة والفهارس

يقصد بالفهرس ذلك البيان أو القائمة أو الثبت الذى يحصر ويسجل ويصف ويحدد مكان مقتنيات مكتبة ما أو عدة مكتبات فى وقت واحد. وعليه فقد تعددت وظائف الفهرس فى عصرنا على الوجوه الآتية:

١ - حصر وتسجيل ووصف المقتنيات.

٢ - تحديد مكان وجود كل قطعة داخل المكتبة لتيسير الوصول إليها.

٣ - تسهيل معرفة ما يوجد فى المكتبة من كتب لمؤلف معين.

٤ - تسهيل معرفة ما يوجد فى المكتبة من كتب بعنوان معين.

٥ - تسهيل معرفة ما يوجد فى المكتبة من كتب فى موضوع معين.

٦ - الإعلام الببليوجرافى العام عن كتب المكتبة.

لقد عرفت المكتبة الإسلامية الفهارس يقيناً بالأدلة العقلية والأدلة النقلية حيث وصلنا العديد منها ولو أنها لا تكون نسجياً عاماً. ولكن إلى أى حد تفى الفهارس الإسلامية بالوظائف الست المشار إليها بعاليه؟ وكيف كان الشكل الذى تقع فيه؟

لقد وقفنا على ثلاثة أشكال من أشكال الفهارس عند المسلمين: **الشكل الأول** على هيئة لفافة حيث كانت الفهارس عموما - وخاصة عندما يكون الفهرس عبارة عن وثيقة وقف - تكتب بهذا الشكل. **الشكل الثانى**؛ على هيئة دفتر أو كراس وهى شكل الكتاب العادى وقد ورثنا هذا الشكل من العصور الوسطى حتى القرن العشرين عندما دخلت إلى مكتباتنا الأشكال الأوربية. وهذا الشكل هو الآخر كان منتشرا بنفس القدر مع شكل اللفافة. **والشكل الثالث** نادر نسبياً وهو الشكل الذى عرفناه فى مصر فى مطلع القرن العشرين باسم الفهرس المحزوم أو الجزازات وهو الذى خرج من بطنه الفهرس البطاقى وكان العرب يسمونه فى العصور الوسطى باسم «**التذاكير**» حيث نصح ابن الصيرفى الخزنة فى زمنه باستخدام جزازة واحدة «تذكرة» تسجل عليها بيانات الكتاب الواحد ومن مجموع هذه الجزازات أو التذاكير تتألف قوائم بالكتب، وأكثر من هذا نجده فى «**قانون ديوان الرسائل**» ينصح بتسجيل أهم محتوات الكتاب - بعد البيانات الببليوجرافية - على كل تذكرة. وهذا الشكل من أشكال الفهارس أكثر مرونة وأيسر استعمالاً من شكلى اللفافة والدفتر ولست أدرى لماذا لم ينتشر، ربما كان ذلك لأن فهارس المكتبات وخاصة الموقوفة كانت أداة قانونية يحتج بها أمام الجهات الشرعية ومن ثم كانت اللفافة تحقق هذا الغرض بنفس القدر الذى يحققه الدفتر بينما الجزازات لأنه لا يمكن الإمساك بها وهى قابلة للزيادة والنقصان والعبث بها فلا يمكن أن يحتج بها أو يتم تداولها ونقلها من مكان إلى مكان ومن هنا لفظها مجتمع المكتبات الإسلامية ولم تصبح فى تاريخ الفهارس ظاهرة يعتد بها إلى أن أبرزتها الثورة الفرنسية عندما صادرت المكتبات الملكية والأميرية فى فرنسا واضطرت إلى تسجيل مفرداتها على جزازات ثم على بطاقات، وانتقل هذا الشكل من فرنسا إلى بريطانيا ثم إلى الولايات المتحدة حيث تبناه الأمريكيون وعمموه فى جميع أنحاء العالم إلى أن بدأ الفهرس المحسب فى الإنتشار فى نهاية قرننا العشرين وأخذ يزاحمه.

الأمثلة على الفهارس الملفوفة كثيرة جداً وقد وصلنا العديد منها. منها فهارس المكتبة الضيائية، وفهرست مكتبة المدرسة الشرفية فى حلب وفهرس مكتبة الشيخ شمس الدين محمد بن المرحوم جمال الدين عبد الله بن عبد العزيز المراكشى التى ألمحنا إليها من قبل وفهرست مكتبة مسجد الأمير محمد بك أبو الدهب وغير ذلك من الأمثلة.

والأمثلة على الفهارس الدفترية كثيرة أيضا وقد وصلنا العديد منها كذلك من بينها فهرس بيت الحكمة وفهرس مكتبات القصور حيث يقول المسعودى فى مروج الذهب «عرض على المهتدى دفاتر خزائن الكتب فإذا على ظهرها هذه الأبيات قالها المعتز وكتبها بخطه وهى...» وهذا هو الخليفة المأمون العباسى «قد دعا بفهرست كتبه وجعل يقلبه فلم يرد لهذا الكتاب ذكراً فقال كيف يسقط هذا الكتاب عن الفهرست» وكانت المكتبة المقصودة هى مكتبة بيت الحكمة والكتاب المقصود هنا هو كتاب جاويزان جرد. وقد سبق أن أشرت إلى فهرس مكتبة عضد الدولة البويهى الذى ذكره المقدسى حين قال «لكل نوع [من الكتب] بيوت وفهرستات فيها أسامى الكتب لا يدخلها إلا وجيه» كما قال ابن خلدون أن فهارس مكتبة قرطبة كانت مدونة فى ثمانمائة وثمانين ورقة وقال وليم درابر أنها كانت فى أربعة وأربعين مجلداً. وذكرت مصادر أخرى عن نفس الفهارس أن كل فهرس كان يقع فى عشرين ورقة. كما كانت فهارس مكتبة الصاحب بن عباد فى مدينة الرى تقع فى عشر مجدات، وأن مكتبة القاضى الفاضل التى أشرت إليها من قبل «إحتاجت إلى سبعة مجلدات لفهرستها».

هذه مجرد أمثلة فقط على كثير مما وصلنا من الفهارس الملفوفة والفهارس الدفترية للمكتبة الإسلامية.

وطالما أننا فى مقام الفهارس والفهرسة فلابد هنا من الإشارة إلى «قوائم الرفوف» التى عرفتها المكتبة الإسلامية على نطاق واسع؛ حيث كانت أسماء

الكتب تسجل فى قوائم وتلصق على باب كل خزانة لتدل على محتويات الخزانة لتسهيل إختزان وإسترجاع مفرداتها. وقد أشار المقريزى إلى تلك الظاهرة عندما تحدث عن مكتبات الفاطميين فى القاهرة.

هذا عن الشكل ولكن ماذا عن المضمون؟ كيف كانت المفردات فى الفهرس ترتب؟ وما هى بيانات الوصف الببليوجرافى عن كل كتاب؟

باستعراض النماذج التى وصلتنا من فهارس المكتبات الإسلامية فى العصور الوسطى وما بعدها أيضا نجد أن المفردات التى اشتملت عليها كانت ترتب فى نسقين لا ثالث لهما النسق الأول هو **النسق المصنف** أو الموضوعى على النحو الذى عالجناه فى الجزئية السابقة والنسق الثانى هو **النسق الهجائى** بعناوين الكتب ولم يثبت لنا أنه كان هناك ترتيب هجائى بالمؤلفين. ويجب ألا نخلط أبداً - كما ذهب الدكتور يوسف العش - بين فهارس المكتبات وفهارس الشيوخ. حيث كانت هذه الأخيرة يمكن أن ترتب بأسماء المؤلفين.

وقد أشرت من قبل إلى عينات من الفهارس المصنفة وتلك المرتبة هجائيا بأسماء الكتب. والمثال الجامع نجده عند إبن حجر العسقلانى الذى عمل خازناً لمكتبة المدرسة المحمودية إعتباراً من سنة ٨٢٦هـ «وعمل لها فهرستاً على الحروف فى أسماء التصانيف ونحوها وآخر على الفنون».

أما عن بيانات الوصف الببليوجرافى فإنها تفاوتت تفاوتاً بينا من فهرس إلى أخر ولكنها لا تتجاوز بحال من الأحوال بيانات قوائم الجرد وكما أشرت لم يكن هناك ربط بين بيانات الكتاب فى الفهرس ومكان الكتاب فى الخزائن.

وربما كانت البيانات الأساسية فى جل الفهارس الإسلامية هى: عنوان العمل، اسم المؤلف مختصراً وبعض بيانات الوصف المادى والأمثلة الآتية تدل على ذلك:

- ثلاثة وأربعون دفتراً من النوادر لأبى محمد بن أبى زيد فى الطبق من الكاغد مغشاة بالرق بخط صقلى مكتوب عليها: حبس بمدينة القيروان على من يقول بقول مالك وأصحابه».

- دفتر من الكاغد فى نصف الطبق من المستقصية لما فى موطأ مالك مما لم يروه وهى ليحيى بن مزين.

- موطأ مالك بن أنس - رضى الله عنه - رواية سحنون بن سعيد فى جزء واحد بخط مشرقى، مسطرة عشرين. فى الطبق من الكاغد الشرقى، جميع أبوابه وأسماء الكتب فيه مكتوبة بالذهب مغشى بجلد أحمر ترهل بطانة حرير أزرق وعليه مكتوب ذكر التحبيس على جامع القيروان.

وهناك المزيد من التفاصيل عن الفهرسة والفهارس الإسلامية فى العصور الوسطى وما بعدها فى كتابنا (موسوعة الفهرسة الوصفية للمكتبات ومراكز المعلومات).

أما عن الشخص المسئول عن إعداد الفهارس فإنه فى الأعم الأغلب كان الخازن وقد مر بنا كيف كانت الخبرة بالتصنيف والفهرسة مطلوبة للتعيين فى وظيفة الخازن هذه. وفى بعض الأحيان كان صاحب المكتبة نفسه فى حالة الوقف هو الذى يقوم بإعداد الفهرس على النحو الذى صادفناه فى مكتبة دار العلم التى أوقفها سابور بن أردشير فى بغداد؛ وكما فعل أيضا ابن عبد الهادى فى المكتبة التى أوقفها. كذلك الحال فى المكتبات الشخصية التى كانت فهارسها بالضرورة من إعداد أصحابها كما هو الحال فى مكتبة الكندى الخاصة.

الخدمات المكتبية فى المكتبة الإسلامية

كانت المكتبة الإسلامية تفتح أبوابها للمستفيدين فترات طويلة من اليوم. وكانت بعض المكتبات تفتح كل أيام الأسبوع بما فيها الجمع والعطلات. وهناك مكتبات مثل المكتبة الأحمدية فى حلب كانت تفتح أبوابها أربعة أيام فقط فى الأسبوع وهى أيام: الأحد والإثنين والثلاثاء والخميس. وإن كانت هناك مكتبات تفتح فقط ثلاثة أيام أو يومين فى الأسبوع على النحو الذى صادفناه فى المكتبة العثمانية فى حلب التى كانت تفتح يومى الإثنين والخميس أسبوعيا.

ومن الحالات النادرة مكتبة تكية عبد الغنى بحلب التى كانت تفتح أبوابها

فقط يوم الثلاثاء وهو يوم عطلة طلاب العلوم الشرعية من الصباح إلى العصر. أما يوم الخميس فقد كانت تفتح صباحاً فقط.

وكانت الخدمات التى تقدم للمستفيدين تتفاوت من مكتبة إلى أخرى ولكنها على العموم كانت تدور حول:

١ - تيسير الإطلاع الداخلى.

٢ - تيسير الإعارة الخارجية.

٣ - تقديم خدمات الإستنساخ.

٤ - تقديم تسهيلات الإقامة الكاملة.

كان الأصل فى المكتبة الإسلامية هو تقديم تسهيلات الإطلاع الداخلى وكانت الرفوف فى الأعم الأغلب رفوفا مغلقة ولم يكن يسمح بالتجول الحر بين الرفوف إلا فى حالات قليلة ووجود ألفة وثقة بين الخازن والمستفيدين. وكان المناول يقوم بوظيفة توصيل الكتب من الخزائن إلى المستفيدين فى قاعات المطالعة، حيث كانت قاعات المطالعة منفصلة عن قاعات المخازن. وكانت قاعات المطالعة تجهز بالأثاث الكافى والمناسب للمطالعة والإستنساخ فقد كانت هناك الأرائك التى يجلس عليها القراء للقراءة كما كانوا يجلسون على الأرض المفروشة بالبسط والحصر ويضعون الكتب على أرجلهم كما يجلس الكاتب المصرى. كما كانت هناك الوسائد لجلوس المستفيدين أو إتخاذها مناضد لعرض الكتب وهى ما نعرفه فى أيامنا بالمجلس العربى؛ وربما كان القارئ يسند ظهره إلى الحائط. وفى كثير من المكتبات كانت هناك مناضد (طاولات) وكراسى أو أرائك وخاصة لتيسير عمليات النسخ.

وكان المناول يقدم للقارئ كتابا واحدا فى المرة الواحدة فإذا انتهى منه استرده وقدم له كتابا آخر وهكذا.

وكثير من المكتبات الإسلامية كانت تتجاوز خدمة الإطلاع الداخلى إلى خدمة الإعارة الخارجية. ولكنها كانت فى الأعم الأغلب مشروطة بالرهن. وقد

رأينا فى الباب الأول موقف الأفراد أصحاب المكتبات الخاصة أو الكتب الفردية من مسألة الإعارة هذه. ولكن الأمر بالنسبة للمكتبات الأخرى كان مختلفاً تماماً حيث كان يسمح بتلك الإعارة عن طيب خاطر ولكن لضمان رد الكتب فى مواعيدها كان لابد من وجود ضمان لذلك وهذا الضمان هو:

أ - إيصال يؤخذ على المستعير؛ أو

ب - رهن بقيمة الكتاب أو أعلى من قيمة الكتاب.

فهذا هو إبن الحاجب يشترط ألا يخرج الكتاب من المكتبة التى أوقفها إلا مقابل «تذكرة حسنة». وفى مكتبة المأمونية ببغداد كان لابد من دفع تأمين أو رهن يساوى قيمة الكتاب المستعار. وفى مكتبة ابن البزورى بدمشق وقد عرضنا لها سابقاً وجب أن يكون الرهن ضعف قيمة الكتاب. بينما فى مكتبة رباط نجم الدين فى بغداد إشترط أن تفوق قيمة الرهن قيمة الكتاب.

وفى حالة المكتبات المدرسية كان المدرس أحيانا يكفل طلابه فى استعارة الكتب من المكتبة، حتى يجنبهم دفع الرهن أو التأمين.

وكانت بعض المكتبات تمنع الإعارة الخارجية منعا باتاً فهذا هو تاج الدين الحسينى يحدد فى وقفيات كتبه «لا يخرج هذا المجلد لا برهن ولا بكفيل».

بعض المكتبات كانت تحدد فترة الإعارة الخارجية كما فعل ابن خلدون فى وقفية مكتبته فى جامع القرويين حيث حددها بمدة شهر. وبعض المكتبات كانت تجعلها أياما بحسب عدد أوراق الكتاب وهى مدة طويلة جدا قد تصل إلى عام كامل إذا كان الكتاب فى عدد من المجلدات. وكانت بعض المكتبات تحدد المدة على حسب الظروف والمستعير والكتاب المستعار.

وكان من إجراءات الإعارة عدم إعارة المستعير كتابا ثانيا إلا بعد رد الكتاب الأول. ومطالبة المستعير برد ما لديه إذا تأخر وكانت هناك حاجة إلى الكتاب.

وكان من أخلاقيات الإستعارة عدم تعريض الكتاب المستعار للتلف وعدم إستعمال العنف والغلظة فى قراءته، ومن حق المستعير نسخ الكتاب أو أجزاء منه، وربما جاز للقارئ تصحيح الأخطاء الموجودة فى الكتاب إذا كان خطه حسناً. وعدم إعارته لطرف ثالث.

وفى وقفية إبن خلدون المشار إلهيا تلخيص حاذق لموقف الإعارة الخارجية:

«لايجوز إعارة الكتاب إعارة خارجية إلا إذا كان المستعير شخصاً ذا سمعة جيدة وأميناً وشريطة أن يدفع رهنا مناسباً وأن يرد الكتاب فى مدة أقصاها شهران».

وقد ألمحنا مرارا من قبل إلى أن المكتبات الكبيرة كانت تتيح خدمات الإستنساخ حيث تسمح بالإستنساخ داخل المكتبة وكانت هناك قاعات إستنساخ فيها أماكن وأثاثات معدة لذلك، وفيها الأحبار والأقلام والورق لمن لا يملك إمكانيات الإستنساخ، وقد رأينا كيف أن ميزانيات تلك المكتبات (كما هو حال دار العلم بالقاهرة) كانت تتضمن بنوداً خاصة بذلك.

كذلك كانت المكتبات الأكاديمية تتيح الإقامة الكاملة بما فى ذلك تقديم الأكل والشرب للمستفيدين وخاصة هؤلاء الذين يرتحلون طلبا للعلم ولم يكن الأمر قاصراً على الشخصيات الكبيرة مثل ابن خلدون وياقوت الرومى وأبى العلاء المعرى وإبن سينا وإنما انسحب ذلك أيضا على الشخصيات العادية التى تحتاج إلى الإقامة فى المكتبة لفترات طويلة.

* * *

تلك قصة الكتاب الإسلامى والمكتبة الإسلامية فى العصور الوسطى بسطتها فى تلك العجالة، وإن بلغت مئات الصفحات، ذلك أن العمل الكامل والصورة الدقيقة عن الكتب والمكتبات فى الإسلام لم تكتب بالصورة المرضية بعد. إن

مصير المكتبة الإسلامية هى نفسها مصير الكتاب الإسلامى. الحرق والتخريب والمصادرة والسرقة والنهب والتهريب إلى الخارج. وليتنا نفيق من الغيبوبة التى رانت علينا قرونا طويلة ونعيد مجد الكتاب الإسلامى والمكتبة الإسلامية ولا أقول مجد الكتاب المصرى القديم ومكتبة رمسيس الأكبر القديمة!!.

❁ ❁ ❁

مصادر الكتب والمكتبات عند المسلمين

رأيت أن أجمع فى هذا الثبت مصادر البابين معاً لأن قسما كبيراً من المصادر كان يكتب عن الكتب والمكتبات فى وقت واحد وليس هناك ما يبرر تكرار تلك المصادر مرة تحت الباب الأول (**الكتاب الإسلامى**) ومرة ثانية تحت الباب الثانى (**المكتبة الإسلامية**).

كذلك فإن الجانب الأكبر من هذه المصادر هو مصادر قديمة، كتب تراث وأقله مصادر حديثة ولذلك فلم أجد مبرراً لعزل المصادر القديمة عن تلك المعاصرة ورتبت مفردات الفئتين معاً فى سياق هجائى واحد بأسماء المؤلفين وجريا على قواعد الفهرسة فإن الاسم العربى القديم يدخل بالجزء الأشهر لقبا أو نسبة أو كنية والإسم العربى الحديث يدخل بالصيغة الطبيعية له.

١ - إبن الأثير: عز الدين أبو الحسين على بن محمد. الكامل فى التاريخ . - بيروت: دار صادر، ١٩٨٢ .

٢ - إبن أبى أصيبعة: موفق الدين أبو العباس أحمد. عيون الأنباء فى طبقات الأطباء؛ المعرف بمعجم الأطباء. بيروت: دار الفكر، ١٩٥٦ . وكذلك طبعة بيروت تحقيق نزار رضا . - بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٦٥ .

٣ - إبن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك. الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس، تحقيق عزت العطار الحسينى. - القاهرة: مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، ١٩٥٥ .

٤ - إبن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة. - القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٤٣ .

٥ - إبن جلجل: أبو داود سليمان بن حيان. طبقات الأطباء والحكماء/ تحقيق فؤاد سيد. - القاهرة: المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، ١٩٥٥.

٦ - إبن جماعة: محمد بن إبراهيم. تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم. - بيروت: دار الكتب العلمية؛ ١٣٥٤هـ (مصورة بالأوفست عن طبعة حيدر آباد الركن: دائرة المعارف العثمانية).

٧ - إبن خلدون: عبد الرحمن. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر. - القاهرة: دار الطباعة الخديوية، ١٢٨٤هـ.

٨ - إبن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. - القاهرة: مكتبة النهضة المصرية؛ ١٩٤٨.

٩ - إبن الفوطى: أبو الفضل عبد الرازق. الحوادث الجامعة والتجارب النافعة/ تحقيق مصطفى جواد. - بغداد: المكتبة العربية، ١٩٣٢.

١٠ - إبن مسكويه: أبو على أحمد بن محمد. تجارب الأمم وتعاقب الهمم. القاهرة: شركة التمدن الصناعية، ١٩٤٥.

١١ - إبن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحق. الفهرست/ تحقيق شعبان عبد العزيز خليفة ووليد محمد العوزة. - القاهرة: العربى للنشر والتوزيع، ١٩٩١.

١٢ - أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى. كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين. - القاهرة: مطبعة وادى النيل، ١٢٨٧هـ.

١٣ - أحمد شلبى. تاريخ التربية الإسلامية. - بيروت: دار الكشاف، ١٩٥٤.

١٤ - أحمد فريد رفاعى. عصر المأمون. - ط٢. - القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٨.

١٥ - السيد السيد النشار. تاريخ المكتبات فى مصر: العصر المملوكى. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣.

١٦ - الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب. البيان والتبيين/ تحقيق حسن السندوبى. - ط٤ . - القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٥٦.

١٧ - الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن محبوب. كتاب الحيوان/ تحقيق فوزى عطوى. - دمشق: مكتبة النورى، ١٩٦٨.

١٨ - جرونباوم، جوستاف. حضارة الإسلام/ ترجمة عبد العزيز جاويد. - القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، ١٩٦٠.

١٩- جورجى زيدان. تاريخ التمدن الإسلامى. - ط٤ . - القاهرة: مطبعة دار الهلال، ١٩٢٢.

٢٠ - حاجى خليفة: مصطفى بن عبد الله. كتاب كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون. - بيروت: مكتبة المثنى (نسخة مصورة).

٢١ - ديورانت، ول. قصة الحضارة/ تعريب أحمد بدران. - القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر. ١٩٥٠.

٢٢ - الذهبى: شمس الدين محمد بن أحمد. تذكرة الحفاظ. - ط٤. - بيروت: دار احياء التراث العربى، ١٩٥٨.

٢٣ - سعيد الديوة جى. بيت الحكمة. - ط٢.- الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٢.

٢٤ - طاشكبرى زادة: أحمد بن مصطفى بن خليل. مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم/ تحقيق شعبان عبد العزيز خليفة و وليد محمد العوزة.- القاهرة: العربى للنشر والتوزيع، ١٩٩٢.

٢٥- عبد اللطيف إبراهيم. دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية: من الوثائق العربية. - القاهرة. - مطابع دار الشعب، ١٩٦٢.

٢٦ - عبد الله الحبشي. الكتاب في الحضارة الإسلامية. - الكويت: شركة الربيعان. ١٩٨٢..

٢٧ - القفطي: جمال الدين علي بن يوسف. تاريخ الحكماء/ تحقيق جوليوس ليبرت. - ليبزج، ١٩٠٣.

٢٨ - كوركيس عواد. خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة ١٠٠٠هـ . - ط٢.- بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨٦.

٢٩ - المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم/ تحقيق مارجوليوث. - ليدن: بريل، ١٩٠٦.

٣٠ - المقري: أحمد بن محمد التلمساني. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب/ تحقيق إحسان عباس. - بيروت: دار صادر، ١٩٦٨.

٣١ - المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي. المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية. - بيروت: مكتبة إحياء العلوم، د.ت.

٣٢ - ميتز، آدم. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. تعريب عبد الهادي أبو ريدة. - ط٢.- مزيدة ومنقحة. - القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٨.

٣٣ - ناجي معروف. تاريخ علماء المستنصرية.- بغداد: جامعة بغداد، ١٩٦٥.

٣٤ - النعيمي: عبد القادر. الدارس في تاريخ المدارس/ تحقيق جعفر الحسني. - دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٥٣.

٣٥ - ياقوت الرومي: أبو عبد الله شهاب الدين بن عبد الله الحموي الرومي. معجم الأدباء/ تحقيق أحمد فريد رفاعي.- القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٣٦.

٣٦ - ياقوت الرومى: أبو عبد الله شهاب الدين بن عبد الله الحموى الرومى. معجم البلدان. - القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٠٦.

٣٧ - يحيى محمود ساعاتى. الوقف وبنية المكتبة العربية: إستبطان للموروث الثقافى. - الرياض: مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، ١٩٨٨.

٣٨ - يوسف العش. دور الكتب العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر فى العصر الوسيط/ ترجمه عن الفرنسية نزار أباظة ومحمد صباغ. - دمشق: دار الفكر، ١٩٩١.

٣٩ - Thompson, J.W. Medaeval Libraries.- New York: Hafner, 1957.

❁ ❁ ❁

الباب الثالث

الكتب والمكتبات في الشرق الأقصى

مقدمة الباب الثالث

يتناول الباب الثالث تاريخ الكتب والمكتبات فى الشرق الأقصى: الصين - كوريا - اليابان. ونظراً لأن التقسيمات التاريخية العامة لهذه المنطقة لا يمكن إخضاعها للعصور العامة حسب تصورنا الأساسى لها على النحو الذى قدمناه فقد رأيت أن من المنطقى أن يعالج الكتاب والمكتبة فى تلك المنطقة معالجة متصلة منذ ظهـــرا حـــتى نهايـة النصـف الأول أو مطلـع النـصف الثانى من قرننا العشـــرين؛ وعلى سبيل المثـــال فإن الكتاب يمكن تتبعه فى الصين وكوريا منذ العصور القديمة التقليدية أى منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية القرن الخامـس الميلادى وكذلك المكتـبة يمكن تتبع إرهاصاتها فى تلك الفترة فى هذين البلدين.

بينما فى اليابان فإن الكتاب - فى حدود معلوماتنا حتى الآن - لا يمكن تتبعه قبل القرن الثامن الميلادى، فاليابان ليس لها عصور قديمة وعصورها الوسطى لا تمتد لما قبل القرن الثامن الميلادى وبقيت غارقة فى العصور الوسطى حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً، ومن هذا المنطلق أجد نفس لسلاسة العرض وسلامته أن أعالج الكتب والمكتبات فى تلك المنطقة على إتصال والتجاوز عن التقسيمات التاريخية التقليدية.

لقد قسمت هذا الباب إلى ثلاث كراسات: الأولى تتعلق بالكتب والمكتبات فى الصين؛ والثانية تتعلق بالكتب والمكتبات فى كوريا والثالثة تتعلق بالكتب والمكتبات فى اليابان. وقد حاولت جهد الطاقة حسب توافر المعلومات أن اكون نمطيًا فى عناصر المعالجة تحت كل دولة منها. اللغة والكتابة وما يتصل بهما - مواد الكتابة وأدواتها - تطور الفكر أى محتويات الكتب نفسها - الضبط الببليوجرافى للانتاج الفكرى - التصنيف والفهرسة - المكتبات باعتبارها مستودعات الإنتاج الفكرى والتى تمثل جُلَّ همِّنا فى هذا البحث.

والحقيقة أن معالجة هذه الدول الثلاث فى هذا السياق إنما ينطلق من وجود خصائص وسمات عامة مشتركة بينها جميعاً وملامح فارقة تميز الواحدة منها عن الأخرى فى نفس الوقت. وربما ترجع السمات العامة إلى التأثير الصينى الكبير على المنطقة والصبغة التى لونتها بها بسبب التفوق الحضارى العظيم، والتاريخ العريق للصين.

الكراس السابع عشر

الكتب والمكتبات في الصـــين

عندما يذكر مصطلح الشرق فإنه ينصرف إلى الشرق الأقصى ومن ثم فإننا سوف نعالج هنا الانتاج الفكرى والمكتبات فى ذلك الشرق أى شرقى قارة آسيا وعلى وجه الخصوص ثلاث دول هى الصين واليابان وكوريا. وهى دول على الرغم من وجود اختلافات ذات بال فيما بينها إلا أنها تمثل فيما بينها عناصر اتفاق تميزها كمجموعة عن غيرها من مناطق العالم. وسوف يدور هذا البحث حول الجزئيات الآتية فى كل دولة من الدول الثلاث؛ مبتدئين فى هذا الكراس بالصين:

١- التاريخ العام للنشر، تاريخ اللغة، ونظام الكتابة. تاريخ الكتب وملامحها الخاصة.

٢- العلامات الفارقة فى تاريخ الفكر ومؤسسات البحث العلمى (المكتبات).

٣- الجهود والأدوات البيليوجرافية.

٤- التصنيف والفهرسة.

٥- واقع ومستقبل الإنتاج الفكرى.

الكتابة الصينية وتطورها

سبق الإنتاج الفكرى المكتوب فى الصين، نقل المعلومات من جيل إلى جيل ومن مكان إلى آخر عن طريق التواتر والمشافهة. وبدأ تدوين المعلومات فى الصين - كما فى كثير من الدول - بطريقة بدائية عن طريق «العقد» التى تعقد فى الحبال بأشكال مختلفة. وتلا تلك المرحلة مرحلة التصوير، وجاء بعد ذلك الكتابة التصويرية التى ماتزال موجودة حتى الآن فى جذور الكتابة الصينية الحالية.

ويقال أن الكتابة الصينية إخترعها رجل يدعى تسانج تشيه كان يعمل فى بلاط الإمبراطور الأصفر هوانج تى (بين القرنين الثامن والعشرين والسابع والعشرين قبل الميلاد) . ومع ذلك فإن أول أثر صينى مكتوب يرجع فقط إلى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد (١٥٠٠ق.م) على شكل نقوش فوق عظام الحيوانات وقواقع السلاحف والأوانى البرونزية.

ولقد قسم التاريخ الصينى القديم إلى ثلاث أسرات هى أسرة هسيا (٢٢٠٥-١٧٦٦ق.م) ، أسرة شانج (١٧٦٦ - ١١٢٢ق.م) وأسرة تشو (١١٢٢-٢٢١ق.م) . وبينما لانجد أى أثر حضارى أو أثر مكتوب يدل على أسرة هسيا، إلا أن هناك آثارا مادية وآثارا مكتوبة ووثائق تدل على أسرتى شانج وتشو والحقيقة أن الآثار المكتوبة الأولى التى وصلتنا من أسرة شانج عبارة عن روشتات طبية مكتوبة على عظام وقواقع اكتشفت سنة ١٨٩٩، وتدل على طريقة الكتابة التى كانت سائدة منذ ثلاثة آلاف سنة مضت. كما تكشف عن أن اللغة الصينية قد أخذت شكلها الحالى منذ سنة ١٤٠٠ق.م. كما أن فحص الوثائق والسجلات الصينية المكتوبة الباكرة يدل دلالة قاطعة على أن الكتابة الصينية هى كتابة مقطعية تصويرية أكثر منها كتابة صوتية أبجدية. وبتعبير آخر فإن وحدات الكتابة الصينية التى يسمونها حروفا ليست إلا تصاوير أكثر منها أصواتا ومخارج.

إن الكتابة الصينية تقوم على أربعة أركان **أولها**: هو التمثيل التصويرى للكلمات بأشياء مادية أساسا فالشمس دائرة يتوسطها فى المركز نقطة ثم تطورت بعد ذلك لتصبح على هيئة مستطيل مع شرطة أفقية فى الوسط. **وثانيها**: الرمز (إيديوجرام) ذلك أن بعض الأفكار لا يمكن التعبير عنها بأشياء مادية كما هو الحال فى المعانى المجردة كالفضيلة والرذيلة والأدب وكما هو الحال فى الأرقام، وبالتالى يُخترع لها صور وأشكال فالواحد يعبر عنه بشرطة والإثنان يعبر عنه بشرطتين.والثلاثة يعبر عنه بثلاث شرط وهكذا والنقطة فوق خط معناها فوق بينما النقطة تحت الخط تعنى أسفل. **وثالثها**: الإفتراض حيث

توضع صورتان معا لتعطيا معنى ثالثا فشجرتان متجاورتان تعطى معنى (الغابة) وصورة لطفلين تعطى معنى التوأم. ورابعها : التمثيل الصوتى (فونوجرام) الذى يمزج بين المعنى أو الدلالة والصوت فعنصر الدلالة يعطى الفئة العامة للأشياء التى تنتمى إليها الكلمة، بينما العنصر الصوتى يعطى صوت الحرف. وعلى سبيل المثال فلكى نكتب كلمة محيط تكتب كلمة غنم التى تتفق معها فى الصوت (يانج) ويضاف إليها صورة الماء. وكلا الغنم والماء فى الأصل صورتان ماديتان ولكن تم المزج بينهما لأنهما متفقان فى النطق. وكثير جدا من الكلمات الصينية المكتوبة تنتمى إلى هذه الطائفة. والنطق فى معظم تلك الكلمات هو نطق تقريبى وليس على وجه التحديد والحقيقة أنه لدينا عدة طرق للكتابة الصينية الآن، وأقدم تلك الطرق هى المسماة «بالكتابة على القواقع والعظام» والتى وجدت فى ظل أسرة شانج. وهذا الأسلوب فى الكتابة هو أسلوب تصويرى بحت. ومايزال هذا الأسلوب يستخدمه الخطاطون للدلالة على مهارتهم فى الكتابة بخط تقليدى قديم. والأسلوب الثانى فى السياق التاريخى للكتابة الصينية هو مايطلق عليه (الكتابة على المعدن) أو خط الخاتم العظيم وقد وجد هذا الخط على الأوانى البرونزية التى عثر عليها من أواخر أسرة شانج وأسره تشو. والكلمات هنا أكثر تقدما وتحديدا من الكتابة فى الفترة السابقة عليها.

وفى ظل حكم أسرة (شى إن) الذى بدأ سنة ٢٢١ق.م التى وحدت الإمبراطورية الصينية لأول مرة تحت حكم واحد، ورغم قيام الإمبراطور شيه هوانج تى (٢٢١ - ٢١٠ق.م) أول أباطرة هذه الأسرة، بحملة لحرق الكتب، وضع رئيس وزرائه لى سسو (توفى ٢٠٨ق.م) معايير محددة لتوحيد الخط الوطنى الصينى. وهو الخط الذى يسمى باسم (الخاتم الصغير) لأنه تطور من خط الخاتم الكبير وعوامل التشابه بينهما قائمة إلا أن الخطوط فيه أصغر وأنعم وأسلس وأكثر انتظاما وأكثر تدويرا.

وقد استمر خط الخاتم الصغير فى الإستخدام للأغراض الرسمية والحكومية خلال أسرة هان (٢٠٢ق.م - ٢٢٠م) . ولكن فى أغراض الحياة اليومية كان

يحل محله خط آخر أطلق عليه (خط الكتبة) . وخط الكتبة هذا يكشف عن تطور عظيم فى الكتابة الصينية واستخدامها كفن من الفنون الزخرفية وحيث استخدم كل إمكانيات الفرشاة كأداة للكتابة. وقد وصلتنا نماذج من هذا الخط ومازال حية إلى الآن على شرائح من الخشب والغاب كانت تجمع معا بحبال لتشكل كتبا تطوى على هيئة أكورديون.

ومع انتشار إستخدام الفرشاة واستغلال كل إمكانياتها ظهر خط جديد مختلف تماما أطلق عليه إسم «خط العشب» . ويعزى هذا الخط إلى موظف فى بلاط أسرة هان يدعى شيه يو الذى عاش قبل الحقبة المسيحية بجيل واحد. وخط العشب هذا هو فى حقيقة أمره نوع من أنواع الإختزال وتشبيك حروف مع بعضها هى فى الأصل حروف متفرقة، كما أنه من جهة أخرى يختصر الحروف. وخط العشب هذا هو فى الواقع خط شخصى يعتمد على الفنان الذى يكتبه فقد يكون ناعما سلسا منتظما أو وحشيا غير منتظم تبدو فيه الخشونة، إعتمادا على الفنان ومزاجه وطريقته. وفى السنوات الأخيرة طور الخطاطون تحت تأثير من البوذية والتاوِّية خطا آخر من هذا الخط سمى «العشب المجنون» وهو إسم يعطى فكرة حقيقية عن هذا الخط.

وفى فترة الأسر الست (٦١٨ - ٩٠٧م) دخل إلى المسرح خط جديد، أصبح الخط الشائع فى كل الصين مايزال مستخدما إلى اليوم عرف باسم (الخط المنتظم) وهو خط إشتق معدلا من (خط الكتبة) وسماته الأساسية تكمن فى انتظام حروفه وسهولتها ورغم ذلك فإنه فى هذا الخط توجد فروق فردية من خطاط لآخر. وهو خط واضح يدعو إلى الثقة وبسبب أنه منتظم فإن من السهل تعلمه والسيطرة عليه وبسبب خصائصه الجمالية فإنه يستخدم كعناصر زخرفية.

وآخر أشكال الخط الصينى هو ما يطلق عليه (الخط الجارى) وهو الذى ظهر مباشرة بعد نهاية أسرة هان. وهو يمثل توفيقا بين رتابة وانتظام (الخط المنتظم) وفوضى (خط العشب) حيث كثير من الحروف يمكن شبكها معاً، وكثير من

الحروف محددة أكثر مما هو الحال فى خط العشب، وفيه للوهلة الأولى نوع من السلاسة والحركة.

وبصفة عامة فلقد تطور الخط الصينى من الأسلوب المعقد إلى الأسلوب البسيط من اللاإنتظامية إلى الرتابة والنظامية، من الخطوط الرسمية إلى الخطوط الحرة، من البطء إلى السرعة فى التنفيذ. ولقد سار تطور الخط الصينى فى إتجاه موازٍ لتطور مواد الكتابة وإتساع مجالات الإتصال. وبعد قيام الثورة الصينية وتأسيس جمهورية الصين الشعبية بذلت الحكومة الصينية جهودا جبارة لتبسيط الخط الصينى لتسهيل حملات محو الأمية. ويعتبر البعض تبسيط الخط الصينى على أنه ميلاد خط جديد ولكن بدون إسم هذه المرة.

التطور التاريخى للغة الصينية

ينقسم تاريخ اللغة الصينية إلى ثلاث مراحل كبرى رئيسية: المرحلة القديمة (١٥٠٠ق.م - ٢٠٠م) ، المرحلة الكلاسيكية (٢٠٠م - ١٩٢٠م) ، المرحلة الحديثة (١٩٢٠ -) وتنقسم المرحلة القديمة داخليا إلى فترات: فترة النبوة (أسرة شانج ١٧٦٦ - ١١٢٢ق.م) ، فترة اللغة المهجورة (أسرتا تشو وتشى إن، ١١٢٢ - ٢٠٦ق.م) ، فترة لغة هان (أسرة هان ٢٠٦ق.م - ٢٢٠م) . ولغة النبوة لم تصلنا إلا من خلال النقوش القصيرة على العظام وقواقع السحالف. أما اللغة الصينية المهجورة فلا نجدها إلا فى بعض النقوش البرونزية وقليل من الوثائق الكلاسيكية وبعض الشعر الكلاسيكى وكتابات بعض الفلاسفة والأدباء المهمين. وقد تطورت لغة هان تطورا عظيما سواء فى الكلمات المقطعية أو الأفعال أو الأسماء، واختفت أفعال وتصريفات كثيرة من جهة أخرى. وقد إتخذت لغة الجنوب على نهر يانجتسى مسارا خاصا نحو اللغة الصينية الأثرية المهجورة وطورت أسلوبا لغويا خاصا بها. ولغة هان المتأخرة تطورت إلى الصينية الكلاسيكية والتى لم يدخل عليها سوى تطوير محدود عبر فترة طويلة من الزمن.

والمشكلة الأساسية فى اللغة الصينية أنها تتغير بصفة مستمرة وتحدث نفس التغيرات فى اللغة المكتوبة ومن ثم فإن اللغة الكلاسيكية لم تعد تعنى شيئا كثيرا عندما تقرأ بصوت مرتفع وفقدت معناها كلغة ولم تعد أداة إتصال بين الناس رغم أنه قد أنتج بها شعر عظيم ونثر أعظم وقطع فلسفية من أبدع ما أنتجت البشرية فى كل عصورها وأثرت فى الغرب تأثيرا عميقا.

واللغة الصينية الحديثة يمكن ردها إلى أربعة أصول متداخلة: تقاليد قص القصص البوذى (وقد وصلتنا هذه القصص من خلال ترجماتها السنسكريتية) ، لغة ما بعد الكلاسيكية المكتوبة، لغة الحديث المعيارية خلال إمبراطورية تشى انج (لغة ماندارين) ، لغة بكين الدارجة (غير المكتوبة) . هذه الأصول الأربعة هى التى شكلت الإتجاه نحو إيجاد لغة صينية وطنية لكل الصين. وقد استعير مصطلح لغة وطنية من الإتجاه اليابانى الذى بدأ فى مطلع القرن العشرين وقد بدأت فى سنة ١٩١٥ لجان عديدة تتشكل وتعمل فى هذا الإتجاه وتعتبر حركة مايو الرابعة سنة ١٩١٩، الحد الفاصل الذى أنهى وجود اللغة الكلاسيكية وأرسى أسس اللغة الصينية الوطنية. وعندما قامت جمهورية الصين الشعبية قننت هذه اللغة واتخذت التدابير لتطبيقها بنجاح وجعل اللغة الصينية المعيارية الحديثة مفهومة فى كل أنحاء الجمهورية. ويعتبر هذا العمل هو أكبر خطة لغوية فى التاريخ جعلت مئات الملايين من البشر يتحدثون لغة واحدة سواء جاءت أصولها من لغة الماندارين أو غير الماندارين، صينية كانت أو غير صينية. ومن خلال هذا المجهود الضخم أمكن بدء حملة محو الأمية على النطاق القومى وحمل العلم إلى أعداد هائلة من البشر ينتمون إلى جماعات عرقية وسلالات متفاوتة.

مواد الكتابة وأدواتها فى الصين

أدوات الكتابة الصينية هى الورق والفرشاة والحبر وحجر الحبر والتى يشار إليها هناك بمصطلح «الذخائر الأربعة للاستوديو». وكانت هناك عناية كبيرة فى إنتاجها وقد بلغ الإهتمام بها غايته فى القرن الحادى عشر الميلادى. وكان صناع هذه الذخائر الأربعة يلقون احتراما بالغا بسبب صنعتهم الراقية.

وقبل إختراع الورق فى الصين مع بداية القرن الثانى الميلادى كانت الكتابة تتم على العظام والقواقع والحجر، واليشب (حجر كريم) والصلصال والفخار والغاب وألواح الخشب والحرير. وقد صنعت الأنواع الأولى من الورق من لحاء الشجر والقنب والخرق البالية. وبعد فترة أصبح الغاب هو المادة الخام الأساسية فى صناعة الورق. وهناك أنواع عديدة من الورق إستنادا إلى المادة الخام المستعملة فى الصناعة وطريقة التصنيع وبعض أنواعه خشن يمتص الحبر بسهولة وسرعة كالإسفنج وبعضه ناعم أملس يقاوم الحبر.

وتكشف الفرشاة التى ابتدعت فى الصين فى العصر الحجرى الجديد والفخار المزخرف (فى الألف الثالثة والثانية ق.م) ، عن فن راقٍ فى الزخرفة بالفرشاة. وهناك عديد من الشواهد على الزخرفة بصبغات قرمزية اللون موجودة على عظام ترجع إلى فترة النبوة وأقدم الفرشاة كانت تصنع من الغاب وشعر الأرنب وقد عثر عليها فى موقع تشو الأثرى فى تشانجشاه (مقاطعة هونان) . وكانت حوامل الفرشاة تصنع غالبا من الغاب أو الخشب فى الأعم الأغلب وإن استخدمت مواد أخرى مثل حجر اليشب والعاج والبورسلين أو خشب اللك وغيرها من المواد الثمينة. أما لبدة الفرشاة فكانت تصنع من شعر الحيوانات وغالبا شعر الغزلان والماعز والأرانب البرية والذئاب ونادرا ما كانت تصنع من شعر الخيول أو الخنازير أو الجمال أو الفئران أو البشر، أوريش الطيور. ولبدة الفرشاة الصينية دقيقة ومرنة أكثر من فرشاة الرسم الغربية وذلك ضرورى لكتابة الشرطة المائلة التى تكثر فى الكتابة الصينية.

ولم يستخدم الصينيون الحبر حتى نهاية أسرة هان (حوالى القرن الأول والثانى للميلاد) على الرغم من استخدام نوع من الصبغة السوداء للرسم بالفرشاة على الفخار فى العصر الحجرى الجديد (فى الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد) كما استخدم اللك الأسود فى الكتابة والدهان فى نهاية أسرة تشو. أما الحبر فقد صنعوه بداية من خليط السناج والصمغ وتتشكل من هذا الخليط عجين يشبه الصلصال يوضع فى قالب من خشب ويجفف وعندما يجف تماما

يصير إخراجه من القالب (وقد يسمى كعكة الحبر) ويستعمل عن طريق طحنه على الحجر وخلطه أو حله بالماء العذب. وعندما يتحول السائل إلى اللون الأسود فإن الحبر يكون جاهزا للإستعمال.

وأقدم أحجار الحبر التى وصلتنا ترجع إلى نهاية أسرة هان وكانت تعد من طين الأرض على الرغم من أن أحجار الحبر كان يمكن أن تصنع من مواد أثمن مثل حجر اليشب الكريم والذى يفضله الصينيون. وهناك أحجار ناعمة تقتطع من محاجر توان تشى فى مقاطعة كوانجتونج تستخدم اليوم وتعتبر أفضل أحجار الحبر. وغالبا ما يحفر تصميم ما على وجه حجر الحبر الذى ينعم بشدة. ويفضل الصينيون صناعة الحبر أولا بأول بدلا من ترك الحبر السائل لفترات طويلة.

تاريخ الكتاب الصينى

أول عهدنا بمواد الكتابة فى الصين هى النقوش التى عثرنا عليها والمكتوبة على القواقع والعظام والبرونز فقد كان لدى شعب شانج إعتقاد راسخ بأن البقايا الأرضية للحيوانات الميتة لها قوة حفظ الاتصال بين عالمى الموتى والأحياء. ومن هنا استخدموا العظام وقواقع السلاحف. وقد وجهت على هذه المواد أسئلة عن الطقس والصيد والحرب وغيرها من الموضوعات إلى أموات شعب شانج. ومن حسن حظنا أن هذه السجلات كانت تنقش على عظام النبوءات حاملة التواريخ وإسم طالب النبوءة ونص السؤال وكذلك النبوءات ومدى تحققها ودقتها طبقا للأحداث التى تتلو.

هذه السجلات ليست كتبا بالمعنى السليم الدقيق. ولكن طبقا للخروم التى وجدناها فى قواقع السلاحف التى وصلتنا يمكننا أن نستنتج أنها كانت تضم معا على هيئة صفحات بدوبارة أو نحوها لتعطى شكلا ما من أشكال الكتب. وقد وصلنا عدد ولو أنه قليل من العظام والقواقع تحتوى على نقوش ليست نبوءاتية. لقد بدأت هذه العظام والقواقع كوسائل إتصال بدون كتابة فى مطلع

الأمر ثم بعد ذلك أصبحت وسيطا يحمل نص النبوءة وبعدها أصبحت مادة لكتابة معلومات ذات طبيعة عامة. ومع كل هذا فإن تيسر مواد أكثر ملاءمة للكتابة قطع سباق تطور هذا الوسيط بسرعة. ورغم أن ممارسة النبوءات إستمرت بعد زمن شعب شانج، إلا أن تسجيل النبوءات وغيرها من النقوش كان من الطبيعى أن يتحول إلى وسائط أخرى مثل الخشب والغاب. وعلى الرغم من أن صب وحفر النقوش الصينية جاد على مواد معدنية من أنواع مختلفة فإن أول نوع صادفناه من الكتابات المعدنية كان على أوان برونزية من أسرتى شانج وتشو. ولدينا كتابات مصبوبة ونقوش محفورة على برونز ترجع إلى فترة ما قبل تشى إن. وهذه الكتابات المصبوبة هى فى معظمها عبارة عن صكوك ملكية. وقد وصلتنا كذلك نصوص طويلة من عهد اسرة تشو تحتوى على أكثر من مائة كلمة. ومن هنا يذهب العلماء إلى إعتبار تلك البرونزيات هى الشكل الأول للكتاب الصينى.

ولقد كانت كتب أسرة تشو البرونزية هذه تنتج لمجموعة من الأسباب أوسع من الأسباب التى نصادفها فى أسرة شانج. إذ أن بعض برونزيات أسرة تشو كان يعد ليوجه إلى السلف وبعضها كان يعد لتسجيل الأحداث الهامة مثل الرحلات الإمبراطورية والإنتصارات فى الحروب أو للإحتفال بالمناسبات المختلفة مثل الزفاف. كما سجلت نصوص القوانين والمعاهدات والتشريعات الأخرى على تلك المادة المتينة. ومع ذلك فقد كان الإستعمال الشائع للبرونزيات هو استخدامها كميدالية يعلقها الرجل حين يحصل على ألقاب شرفية. وبعد فترة من الزمن إتضح أن البرونزيات لم تعد قادرة على حمل كميات كبيرة من المعلومات وغدت زخرفية أكثر منها مادة علمية. وعندما تفسخت الإمبراطورية فى النصف الثانى من أسرة تشو الذى شهد إستقلال ممالك كثيرة صاحب ذلك حاجة ملحة إلى مزيد من السجلات المكتوبة. وكان يمكن إشباع تلك الحاجة عن طريق الخشب والغاب والحرير التى كانت أرخص وأكثر ملاءمة من البرونز الغالى الصلب ولذلك أصبحت البرونزيات بالتدريج

أقل أهمية لتسجيل الوثائق القانونية والتاريخية. وقد هبطت إستخدامات البرونز فى الكتابة سريعا بعد توحيد الصين تحت حكم أسرة (تشى إن) وفى أواخر عهد أسرة هان حل الحجر تماما محلها.

الغاب والخشب والحرير

لقد إستخدم الغاب والخشب والحرير فى الكتابة منذ وقت مبكر فى ظل أسرة شانج.

وقد ظهرت كلمة كتاب على عظام النبوات والبرونزيات لتفيد ضم قطع من الغاب أو الخشب معا بحبل لتؤلف فيما بينها عملا فكريا. وقد إستمر استخدام هذا الشكل من الكتب حتى بعد أن اخترع الورق لفترة طويلة ربما حتى القرن الرابع والخامس الميلادى وإن أقدم الكتابات على تلك المواد الثلاث ترجع إلى فترة ولايات وارنج (٤٦٨ - ٢٢١ق.م) . إلا أننا لم نعثر إلا على عدد قليل من كتب الغاب والخشب التى ترجع إلى ما قبل أسرة هان، ولكن خلال فترة حكم هذه الأسرة عثرنا على آلاف من قطع الغاب والخشب المنقوش بكتابات. وقد إكتشفت أكبر كميات من تلك النصوص بين ١٩٢٧ - ١٩٣٤ على يد البعثة الصينية - السويدية. وكان عدد قليل فقط من الـ ١٠٣٣٠ قطعة المكتشفة على غاب والكثرة الغالية على خشب الحور والصفصاف.

وأكبر إكتشاف لكتب الغاب هو ذلك الذى حدث سنة ١٩٧٢ حيث وجدت ٤٩٤٢ شريحة غاب فى إثنتين من مقابر أسرة هان ترجع إلى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد. هذه المجموعة تضم فيما بينها سبعة أعمال فلسفية وعسكرية منها كتاب سون بن (فن الحرب) الذى فقد منذ ما يربو على ١٧٠٠سنة. وقد جرت إكتشافات أخرى حديثة فى مقابر أسرة هان رقم ٣،١ فى منطقة شانج شا فى هونان. وفى كل من تلك المقابر وجد سجل حاصر لما وجد فى المقبرة من مقتنيات بعنوان (كتاب ما أرسل للمقبرة) كما عثر على عمل طبى على شرائح غاب فى المقبرة رقم ٣.

وكان يتم الحصول على شرائح الغاب وذلك بشق عود الغاب إلى شقين بالطول بحيث يكتب عمود من الكتابة الرأسية فى كل شق. وكانت عملية إعداد الغاب تنطوى على تجفيف العود (قتل الخضرة) وذلك لإزالة اللون الأخضر الموجود على ظاهر العود بتمرير العود على النار. والكتابة على الغاب كانت تتم بالفرشاة والحبر وبعد ذلك تضم الشرائح معا (تجلد) بصفين أو أكثر من الخيوط لتكون فيما بينها كتابا أو مجلدا. وكانت شرائح الخشب كذلك تضم معا لتؤلف مجلدا أو مجلدات ينطوى عليها عمل واحد كما هو الحال فى شرائح الغاب. ومن الطريف أن شرائح الخشب كان يمكن أن تصغر إلى الواح صغيرة لتستخدم فى كتابة الخطابات والمقالات الصغيرة السريعة والسجلات محدودة الحجم.

ورغم أن قماش الحرير كان قد صنع فى الصين منذ وقت باكر فى العصر الحجرى الجديد، إلا أنه لم يستخدم كمادة للكتابة حتى فترة (الربيع والخريف) بين ٧٢٢ -٤٨١قبل الميلاد، ورغم أنه لم يلغ وجود الغاب والخشب كمواد للكتابة على الرغم من قوة تحمله وأنه أخف حملا وألطف شكلا من كلا الخشب والغاب، وربما يرجع ذلك إلى أنه مقارنة بهما كان مرتفع الثمن ولم يتوافر بالكميات الضخمة مثلهما. كذلك فإن من الصعب محو الكتابة من على الحرير، بينما يسهل ذلك تماما فى الغاب أو الخشب بسكين أو نحوه. ولكن من جهة ثانية قدم الحرير مادة رائعة لتسجيل الرسوم والخرائط لايصلح معهما الغاب. وربما كان ذلك السبب فى أن النماذج الأولى التى عثرنا عليها لقماش الحرير فى ولايات وارنج كانت رسومات أو نصوصا مصورة. ولقد عثرنا فى مقابر أسرة هان، رقم ١، ٣ على رسومات من حرير، كما إشتملت المقبرة الثالثة على ثلاث خرائط من حرير. لقد أمدتنا المقبرة رقم ٣ بأفضل نماذج للكتب الحريرية الصينية حيث وجدنا فيها قطعا من الحرير تضم كلمات تصل إلى مائة وعشرين ألف كلمة. وكان كثير من تلك الكتابات تدور حول الفلك، النبوءات، التاريخ. وفى معظم الأحيان كان اللون الأحمر الزاهى يستخدم لتسطير الحرير إلى أعمدة كل منها ما بين ٦ - ٧مم وهى نفس عرض العمود

فى شرائح الغاب. وربما كان تأثير الشكل القديم للكتاب العمودى قائما على عمود الحرير. ومن بين وجوه الشبه الأخرى بين كتات الغاب وكتاب الحرير أنه يلف على هيئة لفافة. وربما كان كتاب الحرير يقسم إلى وحدات كل وحدة فى لفافة. هذه الوحدة تقابل فى زماننا الفصل أو الباب وربما الجزء أو المجلد فى بعض الأحيان، بنفس طريقة تقسيم كتب الغاب حيث كل شريحة تمثل فصلا. وكانت لفافة الحرير شبيهة فى وجوه عديدة للفافة الورق الصينية التى سنتناولها بعد قليل. وكما اختفت كتب الغاب والخشب بالتدريج بعد إختراع الورق، حدث هذا بالنسبة لكتب الحرير أيضا حيث قاومت الورق فترة من الزمن حتى زمن الأسرات الست أى لمدة بضع مئات من السنين بعد إختراع الورق، حيث كانت لفافات هذه المواد جميعا تشاهد جنبا إلى جنب على رفوف المكتبات الصينية.

النقش على الحجر

كتب الصينيون كذلك على الحجر ومن أشهر الكتب الحجرية القديمة الإسطوانات الحجرية العشرة التى عثر عليها بالقرب من فنج هسيانج فى شنسى وترجع إلى بداية أسرة تانج (ربما فى عهد شنج - كوان بين ٦٢٧ - ٦٤٩م) . ويشتمل كل حجر من هذه الأحجار التى يطلق على كل منها إصطلاح «الجلمود المدور»، على قصيدة غنائية من الشعر الراقى المنغم فى حوالى سبعين كلمة لكل منها.

إن هذه الإسطوانات الحجرية ربما تكون قد أعدت فى ولاية (تشى إن) فى وقت ما فى فترة تشو الشرقية. لقد كان النقش خاصية من خواص (تشى إن) حيث وصلتنا مجموعتان من الأحجار التذكارية القديمة نعرف يقينا أنها فى عهد حكام (تشى إن) ففى سنة ٣١٣ق.م قام الملك (هوى ون) بصب لعناته على تشو الذى خرق عهده مع تشى إن وجاءت تلك اللعنات فى ثلاثة أحجار. وبعد مائة سنة قامت تشى إن بتوحيد الصين، وبهذه المناسبة نقش الإمبراطور الأول سبعة نصب تذكارية وزعها على الجبال المختلفة. وقد كتبت تلك النقوش التى تصف إنجازاته بخط الخاتم الصغير وقام بهذا العمل وزيره (لى سسو).

أما فى ظل أسرة هان فقد استبدل الجلمود المدور بعمود الحجر. وأهم أثر وصلنا من هذا النوع: الكلاسيكيات الحجرية حيث نقشت بين ١٧٥، ١٨٣م سبعة نقوش كونفوشيوسية بخط الكتبة على مايقرب من ٤٦ عمودا حجريا. تعرض فى الأكاديمية الوطنية فى (لو يانج). وقبل إنشاء تلك الأعمدة كانت النصوص الرسمية محفوظة فى المكتبة الإمبراطورية فى لان تاييه بالقصر وكان الإطلاع على تلك النصوص محدودا. وكان المدرسون وتلاميذهم يعتمدون على مخطوطات مكتوبة بخط اليد. وبسبب أخطاء النسخ وإختلاف القراءات، كانت النزاعات العلمية تنشأ بين المدارس المختلفة. ويقال أن الدارسين كانوا يرشون الموظفين الرسميين فى قصر لان تاييه لكى يطلعوهم على النصوص الرسمية للمقارنة مع النسخ الشخصية. ولقد استخدمت الكلاسيكيات ضمن النصوص المعيارية الكونفوشيوسية.

ولقد حفرت تلك النصوص فى عدد من الأحجار فى ظل الأسرات المتعاقبة كما كانت النصوص البوذية أيضا والنصوص التاوية تحفر أو تنقش على تلك المادة الصلبة وإلى جانب تلك النصوص ذات الصبغة الدينية،كتبت على الحجر شواهد القبور والأحداث التاريخية ومعلومات معمارية وهندسية.

لقد كانت لهذه النقوش الحجرية قيمة كبيرة ليس فقط لمحتوياتها الدينية أو التاريخية أو الأدبية ولكن لقيمتها الباليوجرافية. وينظر البعض إلى تلك الأحجار ذات المعلومات على أنها كانت فى حد ذاتها مكتبات. وكانت هذه الأحجار هى سوابق الكتل الخشبية التى قادتنا إلى الطباعة فيما بعد عن طريق الحفر البارز على الخشب.

الكتاب الورقى فى الصين

يعزى إختراع الورق إلى الخصىٍّ تساى لون الذى رفع تقريره سنة ١٠٥م إلى الإمبراطور يشرح فيه أنه نجح فى صناعة الورق من لحاء الشجر والقنب والخرق البالية وشباك الصيد القديمة. ومع ذلك فنحن نعلم أن صناعة الورق

من حبال القنب وخرقه البالية كانت موجودة فى عهد هان - وو - تى (١٤٠ - ٨٧ق.م). وكان هناك ما يشبه الورق يصنع من الحرير قبل تقرير تساى لون. ومع كل هذا فإن الورق لم ينتشر تصنيعه إلا بعد أن صنع فى ورشة إمبراطورية تحت إشراف تساى لون ولم يتغلب على منافسيه - الغاب والخشب والحرير - إلا فى عهد الأسرات الست.

والنماذج الأولى من الكتاب الورقى الصينى إستمدت شكلها من لفافة الحرير. وكانت النصوص تكتب على فروخ من ورق مساحتها فى العادة ٢٤ - ٣٠سم عرضا × ٤٠ - ٤٨ طولا. وكان الجرافيت يستخدم غالبا فى تقسيمها إلى أعمدة ويستوعب العمود الواحد فى المتوسط ١٧ كلمة (صورة) . ولكن وصلتنا نماذج من اللفافات تحمل من ٢٠ إلى ٢٤ كلمة فى العمود الواحد. ولم تكن هناك قاعدة محددة لعدد الأعمدة فى الفرخ الواحد وعادة ما كان يكتب على وجه واحد فقط من الفرخ وإن كانت بعض التعليقات على الأعمال الكلاسيكية تسجل على الظهر. وكان هناك حرد المتن الذى يسجل إسم الناسخ بل ومشترى الكتاب وتاريخ النسخ، وعدد الكلمات وصانعى الورق وقراء التجارب وكل من له دور فى إنتاج الكتاب، كان يمكن أن نجد أسماءهم فى آخر فرخ. وكان ذلك يصدق أكثر ما يصدق على اللفافات البوذية التى يخطرنا حرد المتن فيها كذلك عن دوافع المشترين. وكانت الفروخ تلصق ببعضها البعض من الأطراف لتكون اللفافة ويلحق بآخر فرخ مقبض أى عصا لتسهيل الطى والفرد وكان المقبض يصنع غالبا من الخشب أو البورسلين، أو المرجان أو العاج أو غيرها من المواد. وقد جرت العادة على تقوية أول فرخ إما بقطعة من الحرير أو فرخ ورق إضافى فى بداية اللفافة لحماية النص (مثل الغلاف فى الوقت الحاضر) وقد تراوح طول اللفافة بين بضعة أقدام وحتى تسعين قدماً ولكن المتوسط الغالب كان بين ١٥ ـ ٢٠ قدماً وكانت اللفافة تطوى من اليسار إلى اليمين وتربط بشريط من حرير يلصق بالحافة اليمنى من مقبض اللفافة. وقد وجدت لفافات تحتوى الواحدة على أكثر من عمل، ولكن فى العادة كان

الكتاب الواحد يقع فى لفافة واحدة وربما فى عدة لفافات. ولحماية اللفافات وأيضا لوضع اللفافات ذات الصلة معاً كان يستخدم جراب من الحرير أو القطن أو الغاب المنسوج مع القماش لهذا الغرض. وكان الجراب الواحد يستوعب حتى عشرة لفافات. وربما كانت هناك جرابات تستوعب أكثر أو أقل من هذا العدد. وعندما كانت اللفافات توضع على الرفوف دون جراب كان من الضرورى أن يتدلى منها جزازة تربط إلى مقبض اللفافة للتعريف بالعمل وتحمل رقمه بين أقرانه على الرف. وربما كانت هذه الجزازات تلون بألوان مختلفة لتوضيح المجال أو الفئة التى ينتمى إليها العمل.

لقد استقينا أغلب معلوماتنا عن الشكل المادى للفافات من آلاف المخطوطات التى عثرنا عليها فى بداية هذا القرن فى تونج هوانج فى كانسو. وهذه الخبيئة المكتشفة تضم عشرين ألف لفافة معظمها عبارة عن كتابات بوذية باللغة الصينية. والمخطوطات ترجع بين ٤٠٦م وربما مبكراً قليلاً عن هذا التاريخ وحتى الربع الأول من القرن الحادى عشر.

ولم تكن كل المخطوطات التى عثرنا عليها فى تون - هوانج على شكل لفافات وإن غلب عليها. فقد كانت هناك كتيبات تتألف من عدة أفرخ منفصلة وكتب على وجهيها. وبعض الكتب وجدت مطوية على شكل جداول مواعيد القطارات أو الأوتوبيسات ولم تكن ملفوفة. وهذا النوع من التجليد كان - وما يزال - منتشراً بين البوذيين ولذلك يطلق عليه إسم «تجليد سوترا». وكان ثمة نوع شبيه من التجليد أطلق عليه (لف الريح) يتم بواسطة إضافة فرخ آخر من الورق فوق الفرخ الأول والفرخ الأخير وذلك لحماية فروخ الكتاب من التفسخ. وكان تجليد سوترا أو لف الريح مجرد تحسينات دخلت على اللفافة وذلك لتتحمل كثرة الإستخدام.

تطور الطباعة فى الصين

إنتشر فى الصين فن الطباعة بالكتل الخشبية والذى يعرف باسم الزيلوجرافيا

وقد تطور هذا النوع من الطبع عن عمليات أخرى سبقته مثل استخدام الأختام فى الحصول على بصمات موحدة من نص ما، الحصول على نسخ محبرة من نقوش حجرية، بصم التصميمات والرسومات على القماش والمنسوجات وغيرها من المواد. وقد عثر فى سنة ١٩٦٦ على ما يعتقد أنه أقدم كتاب مطبوع بهذه الطريقة فى دير بوذا بمدينة كيونجو التى كانت عاصمة لكوريا تحت حكم سيللا (٦٦٨ - ٩٣٥م). وهذا الكتاب يحمل عنوان (تعاويذ سوترا فى النقاء الكامل والنور الساطع). ويعتقد أن النص قد طبع فى النصف الأول من القرن الثامن الميلادى وهو يشتمل على رقى وتعاويذ واقية من الأذى والشرور وتعليمات لكيفية إستخدامها. ولدينا نماذج من رقى وتعاويذ واقية وصلتنا من نفس هذا الكتاب طبعت فى اليابان بين ٧٦٤ و٧٧٠م. وبنفس الطريقة فإن أول تعويذة صينية فردية وصلتنا، ربما تكون هى تلك التى وجدت فى مقبرة شينج - تو ريشوان سنة ١٩٤٤ والتى يرجح أنها ترجع إلى ٧٥٧م. أما أقدم الكتب الصينية الكاملة التى وصلتنا حتى الآن فهو كتاب (ماسة سوترا) وسوترا بلغة تلك المنطقة هى الحكمة أو تعاليم بوذا الدينية والمؤرخ سنة ٨٦٨م؛ والذى عثر عليه السير أوريل ستين فى تون هوانج سنة ١٩٠٧.

وهناك بعض القرائن التى تكشف عن أن الطباعة بالكتل الخشبية قد دخلت إلى الصين قبل بناء دير بوذا المشار إليه بقرن أو أكثر حيث يعتقد أن ذلك الدير شيد سنة ٧٥١م وثمة إعتقاد فى أن هذا النوع من الطباعة قد أخترع فى الهند أو التبت ومن هناك إنتقل إلى كوريا والصين واليابان. وأيا كانت منطقة المنشأ فإن الطباعة بالكتل الخشبية لم تنتشر كوسيلة لاستنساخ النسخ إلا فى القرن التاسع الميلادى. وقد وجدت أرضا خصبة للإزدهار فى الصين دون غيرها. ولقد كشفت عن أنها وسيلة ناجعة فى إنتاج أعداد كبيرة من النسخ الشعبية من تعاليم بوذا، كما استخدمت لإنتاج النسخ من أعمال أخرى يحتاجها الناس بشدة مثل التقاويم، أدلة الصلوات والأدعية، القواميس وربما الأشعار للشعراء المشهورين مثل (بو تشو - ئى ٧٧٢ - ٨٤٦م). ولقد حققت

هذه الطباعة نجاحا كبيرا فى القرن العاشر الميلادى عندما أصدر الإمبراطور مينج تسونج ٩٢٦ - ٩٣٣م، فى نهاية أسرة تانج قراراً بطبع الكلاسيكيات الكونفوشيوسية بواسطة هذه الكتل الخشبية. وعلى الرغم من أن الطباعة بالكتل الخشبية لم تحل تماماً محل النسخ اليدوى إلا أنها أصبحت بسرعة الوسيلة الأساسية لإنتاج الكتاب فى الصين.

ولم تكن أوائل المطبوعات المطبوعة بهذه الطريقة على شكل كراس وإنما على شكل لفافات كما هو الحال فى تعاويذ سوترا الكورية وماسة سوترا الصينية المؤرخة ٨٦٨م. وقد أخذت الكتب المطوية على هيئة الأوكرديون فى الإنتشار ومعها التجليد المقوى للورقة الأولى والأخيرة. واستمر الطبع على وجه واحد فقط من الورقة، وعندما نفرّ أوراق الكتاب المطوى بهذه الطريقة نفاجأ بعد كل صفحة مكتوبة بصفحتين خاليتين، وقد أدى ذلك بالتدريج إلى محاولة الطبع على الناحيتين والتجليد بالخيط والغلاف السميك للأوراق وقد بدأ ذلك على استحياء ثم أصبح ظاهرة ملموسة فى القرن السادس عشر وتطور بعد ذلك ليصبح الأصل فى إنتاج الكتاب الصينى الآن.

لم يقتصر أمر الطباعة بالكتل الخشبية على إنتاج النصوص وحسب وإنما امتد كذلك إلى إنتاج الصور والرسوم، وأصبحت فنا راقياً فى ظل أسرة سونج، ودخلت عليها تطويرات رائعة مثل الطباعة بألوان متعددة على النحو الذى حدث فى ظل أسرة يوان. وأكثر من هذا فإن الصينيين لم يكونوا قادة فقط فى فن الزيلوجرافيا ولكن أيضا فى فن الطباعة بالحروف المتحركة؛ ففى القرن الحادى عشر فى ظل أسرة سونج أى قبل إختراع الطباعة المتحركة فى أوربا بأربعة قرون قام رجل يدعى (بى شنج) بتصميم حروف متحركة من الصلصال المحروق. وربما إستخدمت بعد ذلك حروف متحركة خشبية فى عهد أسرة سونج أيضا. وبينما حروف الصلصال لم تثبت لإختبار الزمن فقد إستمرت حروف الخشب فى الإستعمال حتى أسرة (شرانج). وفى خلال أسرة منج أدخلت حروف النحاس واستخدمت فى طباعة (دائرة معارف شى انج.

الكبرى) كما تطور الأمر إلى خلط الصفيح بالزنك بالرصاص واستخدامها فى الطباعة على يد طابعى هذه الأسرة أيضا ولكن كل ذلك لم يفت فى عضد استخدام وسيادة الكتل الخشبية أو يتحداها إلى أن بدأ الطابعون الصينيون يتحولون عنها فى القرن التاسع عشر بعد عودة الطابعين المبعوثين من أوربا. ومن الواضح أن الحروف المتحركة لم تقدم مزايا تذكر لكتابة تصويرية مثل الكتابة الصينية، تشتمل على آلاف من الصور المختلفة المعبرة عن كلمات وليس عن أصوات كما هو الحال فى الأبجديات.

واليوم يبدو الكتاب الصينى كنظيره الغربى فى الطباعة والتجليد رغم الكتابة التصويرية. وقد بدأ فى الكتاب الصينى إستخدام علامات الترقيم بعد حركة مايو الرابعة فى نهاية العقد الثانى من هذا القرن. وفى ظل جمهورية الصين الشعبية أصبحت النصوص تطبع من اليسار إلى اليمين فى سطور أفقية وإن لم تختف الأعمدة الرأسية التقليدية فى الكتابة الصينية.

الملامح الفارقة فى الكتاب الصينى

انواع التاليف

فكرة التأليف فى الصين مختلفة إلى حد ما عنها فى الغرب فإلى جانب الأعمال التى يؤلفها الأفراد هناك التأليف الجماعى الذى يقوم به مجموعات من الباحثين يعملون معاً تحت إشراف أجهزة الإمبراطورية وفى معظم الأحوال لا تذكر أسماؤهم فى العمل. وكثير من الأعمال القديمة مجهولة المؤلف، أو ترتبط تاريخيا بأشخاص لم يؤلفوها. وعلى سبيل المثال فإن «الكلاسيكيات الثلاثة عشر» التى تنسب إلى كونفوشيوس يعتبرها الباحثون مجهولة المؤلف، بينما يذهب آخر إلى نسبة بعضها فقط إلى كونفوشيوس نفسه.

ومع تأسيس جمهورية الصين الشعبية فى سنة ١٩٤٩ والتركيز على العمل التعاونى، نشر عدد كبير من الأعمال بأسماء هيئات ومعاهد ومؤسسات وفوق كل هذا لجان وقد أدى ذلك إلى إنتكاسة ما كان قد ظهر فى مطلع القرن

العشرين من تأليف فردى والذى شجع عليه إنتشار التعليم وتحديث الطباعة وطرق إنتاج الكتاب.

والملمح الفريد فى التأليف الصينى ربما يكمن فى «الأسماء الشخصية»، ومثل كثير من شعوب جنوب شرقى آسيا فإن الصينيين يقدمون أسماء العائلة أولاً متبوعة بالأسماء الأولى والألقاب (إن وجدت). وعلى سبيل المثال فإن ماوتسى تونج هو فرد فى عائلة ماو الذى إسمه الأول تسى تونج. وربما يلجأ بعض الصينيين الذين يعيشون فى الغرب إلى تقليد الغرب فيعيدون ترتيب أسمائهم مثل الغربيين على نحو ى.ر. تشاو؛ فوللر تنجفو تسيانج.

ونظراً لأن هناك أسماء عائلات أكثر إنتشاراً مثل: تشانج؛ وانج؛ لى؛ تشاو فإن قسماً كبيراً من السكان فى الصين يندرجون تحتها ولا نندهش إذا كان عدد أسماء العائلات هناك تعد فقط بالمئات. والغالبية العظمى من أسماء العائلات هناك تتألف من مقطع واحد وهناك عدد محدود من أسماء العائلات تتألف من مقطعين مثل أور يانج؛ كونج رسون وغيرهما.

وفيما يتعلق بالأسماء الأولى فإن الموقف معقد أكثر. فالإسم الأول قد يتألف من مقطع واحد مثل (لى بو، توفو) أو من مقطعين مثل (كيو مورجو؛ وانج أنجشيه) وكثير من الشخصيات التاريخية واللامعة يشار إليها وتعرف باسم شهرة (دلع)، أو لقب أو إسم قلم أكثر من أسمائهم الحقيقية مثل سو تشيه (١٠٣٦ - ١١٠١م) الذى عرف أكثر باسم (سو تونج - بو) ومثل تاوتسى إن (٣٧٢ - ٤٢٧م) الذى عرف باسم (تاو يوان - منج). وكثير من كتاب القصص الشعبيين فى قرننا هذا عرفوا بأسمائهم القلمية مثل لوهسون (١٨٨١ - ١٩٣٦م) لاوشى (١٨٩٨ -).

عنوان الكتاب الصينى وحدود المتن

معظم الكتب الصينية القديمة والجديدة على السواء لها بيان عنوان يقوم مقام صفحة العنوان فى الكتب الغربية، يتضمن على الأقل إسم الكتاب وإسم

المؤلف. وعناوين الكتب الصينية قد تكون دالة تماما على محتوياتها وقد تكون فضفاضة أو مضللة. والعنوان (شأنه شأن حرد المتن) يطبع بخط يختلف عن خط النص نفسه.

وطالما أن الطباعة بدأت فى الصين فليس مستغربا أن يكون أول حرد متن مطبوع قد جاء من الصين. وهو يظهر فى أول كتاب مطبوع وهو كتاب (ماسة سوترا) الذى طبع أول ما طبع بالكتل الخشبية ويحمل تاريخ طبع يناظر ١١ مايو ٨٦٨م. وحرد المتن هذا يعرِّف براعى نشر الكتاب وليس بطابع الكتاب.

وفى فترة إزدهار الطباعة فى ظل أسرة سونج (٩٦٠ - ١٢٧٩م) كان هناك خمسون مطبعة وصلنا ذكرها ترجع إلى تلك الفترة. وقد زاد إستخدام حرد المتن باطراد فى تلك الحقبة. وتقليديا يظهر حرد المتن فى الكتاب الصينى فى نهايته مثل كل الكتب (وهو الذى انتقل إلى صفحة العنوان بعد ذلك تحت تأثير الكتاب الغربى). ويظهر حرد المتن فى الكتاب الصينى داخل أطر تشبه الأختام تشاهد عادة فى الرسوم الزيتية الصينية. ويتفاوت حجم ومحتويات حرد المتن تفاوتا كبيرا. ومن بين البيانات التى نصادفها فيه: سنة النشر، إسم المطبعة، مكان الطبع، الراعى (إذا وجد). وكان الناشرون التجاريون أحيانا يضيفون نوعا من المديح أو التقريظ لعملهم. أما الكتب الصادرة عن هيئة حكومية فكانت تجنح نحو حرد المتن القصير. ولكن مع مرور الوقت أصبح هناك نوع من التوحيد فى حرد المتن والميل إلى النمطية.

وحرد المتن - مثل أختام الرسوم الزيتية - كانت فى كثير من الأحيان عرضة للتزوير، ذلك أن حرد المتن المزور أو المحرف كان يستخدم لزيادة قيمة الكتب وإظهارها على أنها أقدم مما هى عليه أو إظهاره على أنه من طبع شركة عريقة.

وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر بأن التقويم الصينى يختلف تماماً عن التقويم الجريجورى الغربى وأن السنوات هناك تعد بدورات ستينية (كل دورة

٦٠ سنة) وكان الحساب يتم على أساس سنى حكم الأباطرة فى السلطة مثل (السنة الثالثة من حكم كانج هس). وهناك عدد من الكتب المرجعية التى تحول من التاريخ الصينى إلى التاريخ الغربى.

القطع والتجليد فى الكتاب الصينى

بناء الكتاب الصينى وملامحه المادية مسألة معقدة نسبياً عن الكتاب الغربى. وقد جاد علينا الزمان بعشرات الأسماء التاريخية التى ظهرت فى مجال تجليد الكتاب الصينى عبر القرون وسوف نمر هنا على أهم هذه الأسماء فقط. فالكتب الباكرة التى ترجع لعدة قرون قبل ميلاد السيد المسيح كانت عبارة عن شرائح طويلة من الغاب أو الخشب وكانت هذه الشرائح تربط بعضها إلى بعض طوليا بخيط أو دوبارة وكانت كلمات النص تسير فى عمود واحد رأسى من أعلى إلى أسفل داخل الشريحة الواحدة. ومن ثم كان يمكن فرد أو طى الكتاب بسهولة ويدوّر الكتاب لاختزانه. وقد إشتق الكتاب الصينى إسمه من هذا الشكل. وعندما تتقطع الحبال المجلّدة للشرائح وتختلط الشرائح فإن من الصعب إعادة ترتيبها الترتيب الصحيح وبالتالى ربما يؤدى ذلك إلى قراءة خاطئة لنص الكتاب.

وكما أشرت من قبل كانت قطع الحرير تستخدم فى تسجيل المعلومات.. وقد كشفت الحفريات الأثرية التى أجريت مؤخرا فى الصين عن نصوص حفظت بعناية شديدة فى مخطوطات من حرير ترجع إلى أوائل عهد أسرة هان (٢٠٦ ق.م - ٢٣م). وقد استمر الحرير مادة للكتابة حتى مع دخول الورق فى مطلع القرن الثانى الميلادى.

أما الكتب الورقية الأولى فكانت عبارة عن فروخ ورق تلصق معاً من الأطراف بحيث تشكل فى النهاية لفافة تلف حول ماسك من خشب (أو أية مادة ثمينة مثل العاج). وقد شاع إستعمال هذا الشكل من أشكال الكتب حتى أسرة تانج (٦١٨ - ٩٠٧م)؛ ثم بالتدريج حلت محلها المطويات أو الأوراق

التى تطوى عدة مرات. وفى البداية كانت الأوراق تطوى وتدعم من الخارج بأوراق أخرى بحيث تكون الحواف المطوية على هيئة كعب للكتاب وبعد ذلك أصبحت تلك الحواف تلصق معاً بمادة لاصقة، ثم أصبحت الطيات تتم من الحافة الأمامية وليس الخلفية وأصبحت تلك الحواف هى التى تلصق معاً. ومن أشهر أنواع التجليد هو طى كل فرخ من منتصفه أى من مركز النص المطبوع ثم لصق جميع الأطراف المطوية من ظهر أو كعب الكتاب فيما عرف فى الصين باسم (تجليد الفراشة) لأن هذا الكتاب عندما يفتح فإن جميع أوراقه تفرد إلى الخارج منبثقة من الكعب كما يحدث فى حالة أجنحة الفراشة. وكان الكتاب بهذا الشكل يجلد بجلدة سميكة من الخارج ويوضع رأسيا على الرف ويشبه الكتاب الغربى فيما عدا أن صفحاته كانت صفحة مطبوعة وصفحة خالية. وقد وجد أن وضع ورق ملوى بطول كعب الكتاب فى الفتحات الموجودة به يقوى تجليد المجلد. وفيما بعد إستبدلت الأوراق الملوية هذه بشرائط من حرير فى مواضع أربعة من الكعب تجعله أقوى وهو الأسلوب الذى ساد إلى اليوم وكان قد أصبح شائعا منذ القرن السادس عشر.

والمجلدات التى تكون أوراقها الخارجية (الغلاف) أسمك ورقا من ورق الداخل أى النص، كان يدرج عليها شريط من الورق يحمل عنوان الكتاب على الغلاف الأمامى (الأيمن، الذى هو فى نظر الغرب الخلفى حيث أن الكتاب الصينى يفتح من اليمين إلى اليسار). وكان مجلدان أو أكثر من هذه المجلدات توضع معاً بين لوحين على شكل صندوق يفتح من فوق ومن تحت وذلك بقصد مزيد من الحماية. وقد جرت العادة على كتابة إسم الكتاب ورقم المجلد على الجزء السفلى من كل صفحة. وربما كانت الألواح الحاوية للمجلدات تطعم بالعاج أو العظم مما يضفى جاذبية خاصة عليها.

ونتيجة لاستعمال الورق أصبح وزن الكتب خفيفا، وربما عرّضها ذلك لأكل الحشرات والأرضة ولذلك دأب المجلدون على استخدام مواد معدنية وخضرية طاردة للحشرات فى المعجون الذى يجلدون به، كما كانت صناديق وألواح الكتب تصنع من أخشاب ذات رائحة نفاذة طاردة للحشرات.

واليوم تطبع الكتب الصينية، بأشكال صينية تقليدية وبأشكال غربية حديثة والأشكال الصينية غالبا ما تستخدم فى إعادة طبع الكتب الكلاسيكية والكتب الحديثة ذات الطبيعة الخاصة. وعندما طبعت المخطوطات الخاصة بالكاتب الصينى لو هسّون فى ظل الجمهورية الشعبية طبعت بالشكل التقليدى. أما الكتب الحديثة فإنها تطبع على غرار الكتاب الغربى بسطور أفقية تسير من اليسار إلى اليمين، وتغلف أحيانا بغلاف ورقى وأحيانا تجلد بجلدة سميكة.

تاريخ المكتبات فى الصين

كشفت الحفريات الأثرية التى تمت فى عشرينات قرننا فى العاصمة الصينية القديمة آن يانج هونان (فى شمالى الصين)، عن التاريخ الحقيقى لأسرة شانج (١٧٦٦ - ١١٢٢ق.م) وخلصت هذا التاريخ إلى حد كبير من الأسطورة التى كانت تغلفه. ويعتقد كثير من الباحثين أن مجموعات عظام النبوءات التى وجدت فى الموقع إنما هى جزء من مجموعات أرشيفية لهذه الأسرة. وربما كان لأسرة شانج كتب مصنوعة من الغاب والخشب يسجلون فيها البيانات والمعلومات ويحفظونها فى قصورهم مما يدخل فى عداد المكتبات والأرشيفات. ولأن تلك الكتابات كانت على مواد أضعف من العظام والبرونز فإنها لم تصمد طويلاً لعوادى الزمن.

ورغم أنه لم يصلنا من أسرة تشو (١١٢٢ - ٢٢١ ق.م) إلا عدد قليل من النصوص المكتوبة، إلا أننا نعرف أن مواد الكتابة قد تزايد إستخدامها فى تلك الفترة الإقطاعية. وكانت هناك أرشيفات فى البلاطات الملكية والإقطاعيين كذلك. وعلى عكس عظام النبوءات التى سادت فى عهد اسرة شانج، كانت أرشيفات أسرة تشو تتعلق أساساً بالعلاقات بين الولايات. وتعتبر مجموعة «طقوس تشو» التى وجدت فى دواوين الإنشاء، المصدر الرئيس لنا على كيفية إدارة الأرشيفات خلال فترة أسرة تشو. ويعتقد أن الفيلسوف لاو تزو (ولد فى نحو ٦٠٤ق.م) الذى خدم فى بلاط تشو، كان أول أمين مكتبة وأرشيفى فى

الصين. ومهما يكن من أمر فإن مجموعة «طقوس تشو» ينظر إليها على أنها وصف نموذجى للإجراءات الحكومية والبيروقراطية الرسمية وليس لدينا أدلة مادية ملموسة للتثبت من صحتها. ولم يثبت لنا أنه كانت لأسرة تشو مكتبة مركزية. ولكن وجد هناك أشخاص لديهم مكتبات أو قل مجموعات خاصة. وكان من بين هؤلاء الأشخاص (مو تى) فى القرن الخامس - الرابع قبل الميلاد؛ مؤسس الماوية الذى كان يرتحل وفى صحبته حمل خمسة بعير من الكتب. ومن بينهم أيضا سوتشى إن (الذى توفى ٣١٧ق.م) والدبلوماسى فى فترة ولايات وارنج.

الإمبراطورية الموحدة: تشى إن و هان

قام أول أباطرة إمبراطورية تشى إن (٢٢١ - ٢٠٩ ق م) باقتراح من وزيره لى سسو فى سنة ٢١٣ ق.م بحرق الكتب التى اعتبرها معادية لحكمه. وبعد ذلك التاريخ بسبع سنوات إحترقت عاصمة تشى إن، هسيان - يانج. وكلا الحدثين أديا بالقطع إلى دمار كبير لمجموعات من النسخ النادرة من الكتب التى كانت موجودة فى مكتبات وأرشيفات المدينة، وإن كان من حسن حظنا أن قام هسياو هو (توفى ١٩٣ ق.م) وزير ليوبانج (٢٤٧ - ١٩٥ ق.م) مؤسس أسرة هان (٢٠٦ ق.م - ٨م)، قام بإنقاذ ما أمكن إنقاذه من الكتب قبل إحتراقها فى هسياو - يانج. ويعزى إلى هسياوهو بناء مكتبتين فى فترة أسرة هان: تعرف الأولى بصالة شيه - تشو والثانية بصالة تيان - لو. وفى هذه المكتبة الثانية قام ليو هسيانج (٨٠ - ٨ ق م تقريبا) وإبنه ليوهسين (توفى ٢٣م) على التوالى بإعداد أول ببليوجرافية صينية مشروحة وأول فهرس صينى مصنف.

لقد بدأت عملية البحث عن الكتب المفقودة، مباشرة بعد قيام أسرة هان فى ظل حكم الإمبراطور (وو) ١٤٠ - ٨٧ ق.م. ومن هنا نشأت مجموعات إمبراطورية جديدة إلى جانب المكتبتين اللتين أنشأهما هسياو هو. بيد أن هذه الجهود راحت سدى عندما احترقت العاصمة تشانج - آن فى سنة ٢٤م إبان الثورة التى اندلعت ضد مغتصب العرش وانج مانج (٣٣ ق.م - ٢٣م).

وفى أواخر عهد أسرة هان (٢٣ - ٢٠٢م) تمت محاولات لرأب صدع مجموعة الكتب الإمبراطورية ووضعت فى عدد من المستودعات. وكما قام (سسو - ما تشى اين) (١٤٥ - ٨٦ ق.م) باستخدام المجموعات الإمبراطورية فى تأليف كتاب: **السجلات التاريخية**، قام أمين المكتبة اللامع (بان كو) ٣٢ - ٩٢م. ومن بعده أخته بان تشاو بجمع تاريخ أسرة هان. وفيما بعد هذا الزمن كانت المكتبات الإمبراطورية تسهم بطريق مباشر فى كتابة التاريخ الرسمى للأسر السابقة وتحفظ سجلات الأسر الجارية المتعاقبة. ومن أبرز ملامح (تاريخ أسرة هان) والذى تكرر فى الأعمال التاريخية المتوالية إدراج قائمة ببليوجرافية بالمصادر التى إعتمد عليها.

سقوط الإمبراطورية وتفسخها: الأسرات الست

تقدمت المجموعات الإمبراطورية ونمت نمواً عظيما فى نهاية أسرة هان ولكن هذه المجموعات منيت بثلاث «كوارث ببليوجرافية ومكتبية» فى سنوات ضعف هذه الأسرة. الكارثة **الأولى**. فقدان كثير من الكتب عندما إحترقت العاصمة لويانج خلال الثورة التى قامت فى عهد هسيان تى (١٨٩ - ٢٢٠م)، **والثانية**. فقدان كميات أخرى كثيرة من الكتب عندما فرت الحكومة والموظفون الرسميون إلى تشانج - آن. **والثالثة**. نشوب الحريق فى المكتبة الامبراطورية عندما إحترقت تشانج آن فى سنة ٢٠٨م. هذه الكوارث الثلاثة بهذا الحجم الكبير أدت إلى حد ما إلى تقدم وازدهار المكتبات الشخصية التى جاءت فى موعدها مع اختراع الورق بديلا للحرير. ومن حسن الحظ أن المكتبات الخاصة هذه كانت تحوى نسخاً من الأعمال التى احترقت فى مكتبات الدولة.

ورغم الفوضى والإضطرابات التى عمت الصين بعد سقوط أسرة هان الأخيرة ولمدة تزيد على ثلاثة قرون ونصف فإن البلاد لم تعدم وجود مكتبات كبيرة فى بلاطات الأسر الحاكمة والتى تعاقبت سريعا على حكم البلاد. ولكن للأسف فإن معظم هذه المكتبات أصابه الدمار والتخريب خلال الحروب. فى

سنة ٢٧٩م قام هسّون هسّو (٢٣١ - ٢٨٩م) ومساعده تشانج هوا (٢٣٢ - ٣٠٠م) بفهرسة ما يقرب من ٣٠,٠٠٠ مجلد فى مكتبة أسرة تشن الغربية مستخدمين فى ذلك نظاما للتصنيف الرباعى، كان القاعدة والنموذج للفهارس الصينية المتعاقبة. وبعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ قلصت الهجمات البربرية والغزوات الوحشية تلك المجموعات إلى نحو ثلاثة آلاف مجلد فقط. هذه المجموعات النواة نمت بعد أكثر من ثلاثة قرون فى عهد أسرة ليانج إلى نحو ١٤٠,٠٠٠ مجلد كى تتبدد شذر مذر فى سنة ٥٥٤م فقط.

ولم تكن تلك العصور المظلمة المعتمة لتخلو من بصيص من نور. فقد كان هناك شخصان على الأقل يفتحان مكتبتيهما لجمهور القراء. وفى سنة ٤٨٣م، إستعار أحد الباحثين ألفى مجلد من مكتبة أسرة تشى؛ ولأول مرة فى تاريخ الصين يسمح لمواطن بأن يستعير من المكتبة الإمبراطورية. وفى خلال هذه الفترة أيضاً بدأت الكتب البوذية والتاوية تظهر فى فهارس المكتبات الإمبراطورية، وهى حقيقة لها أهميتها الكبرى تدل على أن الكتب البوذية على وجه الخصوص إصبحت عديدة بصورة غير عادية.

ومن نقاط الضوء أيضا فى تلك الفترة أنه بدأ فى عهد الأسرات الست (٢٢١ - ٥٨٩م) العمل فى المكتبة الكهفية البوذية الشهيرة فى هوبيه. وهنا كانت تتم عملية حفر النصوص على أحجار الكهف على أوسع نطاق. لقد كانت الكلاسيكيات الكونفوشيوسية تحفر على الأحجار فى نهاية أسرة هان وتوضع على جوانب الأكاديمية الوطنية وهو الأمر الذى تكرر ست مرات على مدار القرون وكانت سادس وآخر مرة بين ١٧٩١ - ١٧٩٤م. وقد جرت العادة كذلك على حفر النصوص التاوية على الحجر. إلا أن الكتابات الدينية البوذية هى التى تشكل الجزء الأكبر من مجموعة كتب الحجر هذه.

إعادة توحيد الإمبراطورية: أسرة سوى و تانج

وفى سنة ٥٨٩ للميلاد أعيد توحيد الصين تحت حكم أسرة سُوِى؛ وقبل أن

تستكمل أسرة سوى سيطرتها، كتب نُوِى هونج (ت ٦١٠م) مذكرة إلى الإمبراطور سُوِى عن تخريب المكتبات الذى حدث فى الماضى، واقترح عدة طرق لتنمية المجموعات فى مكتبة قصر سُوِى. ونتيجة لذلك بدأت خطة طموحة لتوثيق واستنساخ الكتب من المكتبات والمجموعات الخاصة. وفى خلال حكم الإمبراطور يانج تى (٦٠٤ - ٦١٨م) سجلت المجموعات فى المكتبة الإمبراطورية فى قصر تشانج - آن إرتفاعا كبيرا فى حجم المجموعات إذ بلغت نحو ٣٧٠,٠٠٠ مجلد.

وفى عهد أسرة تانج (٦١٨ - ٩٠٧م) إستمرت نفس الجهود لتنمية المجموعات، وقد حدثت زيادة هائلة فى التزويد خلال النصف الأول من حكم هسوان تسونج (٧١٢ - ٧٥٥م). ولكن إبان الثورة التى قام بها آن لو - شان وشيه سسو - منج فى منتصف القرن الثامن الميلادى فقدت المجموعات بعض مجلداتها، ومرة أخرى فقدت المكتبة جزءا من مقتنياتها أثناء ثورة هوانج تشاو (٨٧٤ - ٨٨٤م) والاضطرابات التى وقعت فى فترة الأسرات الخمس (٩٠٧ - ٩٦٠م). وقد لاحظ أوُ - يانج هسيو (١٠٠٧ - ١٠٧٢م) مؤلف كتاب «تاريخ أسرة تانج الجديد» أنه حتى عهده كانت المكتبات الإمبراطورية قد فقدت نصف كتبها حتى نهاية عهد هسيان تشونج. ولقد كانت أسرة تانج من الأسر التى ازدهرت فيها المكتبات الشخصية إزدهاراً كبيراً. لقد كانت هناك كذلك مكتبات فى الأديرة. ولما كانت تلك المكتبات بطبيعتها تضم الكتابات الدينية أساساً إلا أنها لم تعدم مجموعات مدنية وعلمانية أيضاً. ولما جاءت الطباعة بالكتل الخشبية دخلت الكتب والمكتبات الصينية طوراً آخر.

الأسرات الخمس وسونج: تأثير الطباعة

فترة الأسرات الخمس (٩٠٧ - ٩٦٠م) شأنها شأن فترة الأسرات الست كانت من الفتن والاضطرابات بحيث لم تكن لتساعد على النمو والإزدهار المستمر غير المتقطع للمكتبات. ومع ذلك فإنه فى تلك الفترة إستخدمت الكتل

الخشبية لأول مرة فى طباعة الكلاسيكيات الكونفوشيوسية. وطالما سجلت المصادر أن طابعا واحدا إستطاع أن يطبع بين ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ فرخ مضاعف فى اليوم الواحد فإن هذه الطريقة لابد وأن يكون لها تأثير عظيم على نمو وازدهار المكتبات الصينية وحماية كثير من الأعمال من الإندثار والتى لم تكن لتنجو من كوارث عصر المخطوطات.

وخلال معظم عهد أسرة سونج الشمالية (٩٦٠ - ١١٢٦م) عرفت المكتبة الإمبراطورية الرئيسية باسم (صالة تشونج - وين)، وكانت تتألف من عدة مستودعات للكتب فى مبنى واحد بالعاصمة: بيين - لنج (كيا - فنج حاليا). وفى مطلع القرن الحادى عشر ظهرت مكتبتان أخريان من حجم معقول إحداهما فى المدينة المحرمة والأخرى فى الحديقة الإمبراطورية. ومن المؤسف أنه فى تلك الفترة دمرت النيران الجانب الأعظم من مجموعات مكتبة صالة تشونج - وين، ذلك أنه بعد الحريق أعد فهرس مشروح للمجموعات الباقية حين أعيد تنظيمها ولم نجد فيها سوى ٣٤٤٥ عنوانا فى ٣٠٦٦٩ مجلداً. وفى السنوات الأخيرة لأسرة سونج الشمالية زادت المجموعات فى المكتبة الإمبراطورية إلى ٦٠٧٥ عنوانا فى ٧٣٨٧٧ مجلداً، فقد معظمها عندما احتل تشين العاصمة بيين لنج سنة ١١٢٦م وأنهى حكم أسرة الشمال.

وفى سنة ١٠٨٠م أصبحت المكتبة الإمبراطورية رسمياً أحد الأجهزة الحكومية الأكاديمية. وفى بعض سنوات القلق الباكرة من حكم أسرة سونج الجنوبية (١١٢٧ - ١٢٧٨م)، أنشئت مكتبة جديدة فى الجنوب. وعندما أنشئت مكتبة امبراطورية جديدة فى العاصمة المؤقتة لين - آن (حاليا هانج - تشو) سنة ١١٤٣ - ١١٤٤ كانت مجموعاتها كبيرة إلى حد ما. وإلى جانب المكتبات الحكومية، كانت هناك المكتبات الشخصية على غرار ما وجد فى قرون سابقة. كما ظهر نوع جديد تحت وطأة الطباعة هو المكتبات المدرسية، التى أخذت تنمو حثيثا.

فترة الحكم الأجنبى: أسرة يوان

أهتمت الأسر الثلاث التى تعايشت معاً مع أسرة سونج والتى سبقت أسرة يوان المنغولية (١٢٨٠ - ١٣٦٨)، بإنشاء المكتبات وتنمية مقتنياتها من الكتب. فقد قامت أسرة لياو (٩٠٧ - ١١٢٥م) بإنشاء المكتبة الوطنية فى عام ١٠٥٤م. وكانت قبل ذلك بقرن قد استولت على مكتبة أسرة شين المتأخرة (٩٣٦ - ٩٤٦م) إحدى الأسر الخمس المشار إليها بعاليه. أما أسرة هسيا الوسط (١٠٣٨ - ١٢٢٧م) فقد بحثت عن الكتب وحصلت عليها من أسرة سونج الشمالية فى عدد من المناسبات. وأسرة تشن (١١١٤ - ١٢٣٤م) فقد أنشأت مكتبة وكانت لديها عدد من المطابع الحكومية والأهلية المنتجة.

وفى القرن الثالث عشر ورث المغول مكتبات أعدائهم، أسرتى تشن وسونج الجنوبية. وفى سنة ١٢٧٣م أى قبل الهزيمة النهائية لسونج الجنوبية بست سنوات وضع التنظيم النهائى لمكتبة يوان الرئيسية. وبعد سنوات قليلة جمعت الكتب لها من مختلف أنحاء الصين الجنوبية ووجهت نحو عاصمة المغول الجديدة بكين. وازدهرت عمليات الطباعة إزدهاراً كبيرا ونمت المكتبات المدرسية نمواً ملحوظاً خلال فترة يوان.

العصر الحديث الباكر: أسرة منج

فى سنة ١٣٦٨ إنتهى حكم أسرة يوان فى الصين واستولى أحد جنرالات منج تامى تسو القادرين ويدعى هسو تا (١٣٣٢ - ١٣٨٥م) على كتب الحكومة المهزومة فى بكين وشحنها إلى عاصمة منج فى نانكنج. وفى سنة ١٤٠٣ بدأ العمل فى دائرة المعارف التذكارية وزيادة مجموعات المكتبة الرئيسية (صالة وين - يوان) لتواكب هذا المشروع العملاق. وفى سنة ١٤٢١م نقل الإمبراطور يونج - لو عاصمته إلى بكين. ونقلت نسخة من كل كتاب فى المكتبة الرئيسية إلى مكتبة أخرى فى العاصمة الشمالية. وقد سجل أن الكتب المنقولة شغلت مائة حاوية نقلتها عشر سفن. وبعد عشرين عاماً أعد يانج شيه - تشى (١٣٦٥ -

١٤٤٤م) فهرساً بالمجموعات فى صالة وين يوان، ظهر منه أن مجموع المجلدات فى المكتبة بلغ ٤٢,٦٠٠ مجلد. وقد أعد فهرس آخر لمكتبة منج الإمبراطورية فى سنة ١٦٠٥م تحت عنوان (فهرس خزانة الكتب) حصر ٢٥٥٢ عنوانا.

وكما كان الحال فى الأسر السابقة كانت هناك مكتبات فى الإدارات الحكومية وفى المدارس وفى الأديرة. كما استمرت المكتبات الشخصية فى الازدهار خاصة فى المناطق المعروفة الآن باسم كيا نجسو و تشكيانج والتى كانت لفترات طويلة مراكز للطباعة والحركة الفكرية. وعلى سبيل المثال قام ماو تشن (١٥٩٩ - ١٦٥٩م) فى تلك المناطق بطبع ٦٠٠ عنوان فى أكثر من ٨٤٠٠٠ نسخة كانت فى مكتبة (تش - كو - كو). ومن بين المكتبات الشخصية الشهيرة مكتبة فان تشى إن (١٥٠٦ - ١٥٨٥م) التى كانت تقع فى منطقة ننج بو وكان اسم المكتبة تيان - إ - كو. ولم يكن فان تشى مهتما بالطباعة إهتمام ماو تشن؛ ولكن مبنى مكتبته كان يعتبر نموذجا على المكتبات الشخصية التى أسست فى عهد الإمبراطور تشين - لونج (١٧٣٦ - ١٧٩٥م) من الأسرة التى تلت. وقد أعد لهذه المكتبة فهرس سنة ١٨٠٣ - ١٨٠٤م؛ سجل فيه ٤٠٩٤ عنوانا فى ٥٣٧٩٩ مجلداً ويتضمن الفهرس كذلك مجموعة من التعليمات عن استخدام المكتبة.

فترة حكم أسرة ما نشو - تشى إنج

عندما سقطت أسرة منج، عانت المكتبة بعض الخسائر ولا نعرف على وجه التحديد كم من المجلدات ورثتها أسرة مانشو عندما استولت على الحكم (١٦٤٤ - ١٩١١). ولكننا نعرف أن خطة للتزويد أقرها الإمبراطور كانج هس (١٦٦٢ - ١٧٢٢). وكانت الكتب التى تشترى ترسل إلى أكاديمية هان - لين. ولم يحدث إهتمام حقيقى بالمكتبات إلا فى عهد الإمبراطور تشى إن - لونج (١٧٣٦ - ١٧٩٥م). وكان إنشاء مكتبة **الكنوز الأربعة** قد تم بين ١٧٧٣ - ١٧٨٢. وقد بدأ الفريق المنوط بهذا العمل بإعداد جرد مفصل للمجموعات

الإمبراطورية، كما بذلت جهود ضخمة لجلب الكتب من جميع أنحاء الإمبراطورية.

وبينما العمل يجرى على قدم وساق فى مكتبة الكنوز الأربعة كان قصر وينى - يوان قد تم بناؤه سنة ١٧٧٥م فى بكين. وبالتالى وضعت فيه أول نسخة من تجميع المكتبة. ومكتبة الكنوز الأربعة هى فى الواقع مجموعة شاملة تضم ٣٤٦١ عنوانا فى ٧٨١٧٨ مجلداً. وقد أعد الفريق فهرساً ضم مداخل ٦٧٩٣ عملاً إضافيا فى ٩٣٦١٨ مجلداً. ولكن هذا التجميع لم يطبع. وقد أعدت بعده ست مجموعات أخرى تباعاً. وقد وضعت هذه المجموعات فى ستة مستودعات أعدت خصيصاً لهذا الغرض فى أنحاء متفرقة من الإمبراطورية وللأسف الشديد لم تصلنا من المجموعات السبع سوى خمس فقط. ومن بين هذه الخمس واحدة فقدت عدداً محدوداً من عناوينها، والثانية دمرت جزئيا أثناء ثورة تاييه بنج (١٨٥٠ - ١٨٦٤) ولم تتم إعادة بنائها حتى ١٩٢٤. أما الثلاثة الباقية فقد دمرت منها تماما إثنتان، خلال ثورة تاييه بنج وواحدة سنة ١٨٦٠ عندما احتل الفرنسيون والبريطانيون بكين.

لقد كانت هناك مكتبات إمبراطورية أخرى، إثنتان منها كانتا تتألفان من مختصر لمكتبة الكنوز الأربعة تم إنجازه قبل إتمام العمل الكامل، ومكتبة أخرى أنشئت خلال حكم تشيا - تشى انج (١٧٩٠ - ١٨٢٠) وتألفت من مجموعات غير موجودة أساساً فى مكتبة الكنوز الأربعة. كما كانت هناك مكتبة أخرى فى «مكتب كتابة التاريخ» كانت غنية فى تقاويم البلدان خاصة.

وأصبحت المكتبات الخاصة كثيرة جدا فى تلك الفترة بحيث لا يمكن حصرها. ولابد أن نشير هنا إلى أن تشيكيانج وكيانجسو قد استمرا فى قيادة البلد فى المكتبات الشخصية على النحو الذى قاما به فى عصر أسرة منج. ولقد خلف محبو الكتب فى ظل أسرة تشى انج إسهامات عظيمة فى مجال نقد النصوص، الطباعة، ترميم الكتب، إعادة بناء المجموعات المخربة والمفقودة وغيرها من المجالات مما يعد تراثا ينهل منه دارسو الوقت الحاضر.

حتى نهاية عصر تشى انج كان جل المكتبات الصينية موصداً فى وجه العامة. وكانت المجموعات الإمبراطورية يقتصر إستعمالها على الأباطرة وموظفى الدولة فقط. وكانت المجموعات الخاصة قاصرة على مالكيها فقط مع وجود إستثناءات قليلة حيث كان البعض يفتحها للجمهور على نحو ما أشرت إليه سابقاً. وكان طلاب العلم يستخدمون بطبيعة الحال مكتبة الأكاديمية. ولكن الجموع الغفيرة لم يكن لديها مجموعات لإستخدامها عندما تريد. وكان هناك إحساس عام بأن هذه الأمة فى حاجة إلى نظم مكتبية مستفيضة لكى تبعث من سباتها.

التحديث والتغيير - الصين الجمهورية

فى سنة ١٨٩٦ عقب هزيمة الصين فى الحرب الصينية اليابانية (١٨٩٤ - ١٨٩٥) إقترح لى توان فن (١٨٣٣ - ١٩٠٧) نشر المدارس وطلب إنشاء المكتبات فى بكين وعواصم الأقاليم. وبعد سنتين تحولت بعض أكاديميات الأقاليم إلى مدارس عصرية وكليات. وفى سنة ١٩٠٢ نادى لو تشن - يو (١٨٦٦ - ١٩٤٠) بتعميم إنشاء المكتبات فى عموم الدولة. تلك المكتبات زودت بالكتب اليابانية والغربية كذلك إلى جانب الكتب الصينية. وفى نفس السنة قامت مارى اليزابث وود (١٨٦٢ - ١٩٣١) وقد كانت أمينة مكتبة أمريكية ضمن بعثة لتدريس اللغة الإنجليزية فى الصين، بتأسيس مكتبة وون فى وو - تشانج فى هوبيه، كما بذلت جهودا عديدة لتطوير وتحديث المكتبات الصينية من خلال المنح الأمريكية.

وفى سنة ١٩٠٥، أنشئت أول مكتبة إقليم فى هونان، وبعدها توالى إنشاء المكتبات فى أنحاء البلاد مع تطور نظام التعليم وانحسار التعليم التقليدى الذى يقوم على التلقين. وفى سنة ١٩٠٩ صدر أول قانون للمكتبات العامة الصينية، أصدرته حكومة تشى إنج. وبمقتضى هذا القانون أنشئت المكتبة الوطنية فى بكين والتى وضعت خطتها لبسط المكتبات العامة فى كل عاصمة إقليمية وفى المقاطعات المختلفة داخل الولايات. ونتيجة لهذا التخطيط أنشئ عدد من المكتبات العامة فى الأقاليم قبل سقوط هذه الأسرة سنة ١٩١١.

وفى ظل الجمهورية الجديدة التى قامت، أصبحت وزارة التعليم هى المسئولة عن المكتبات العامة، ومن ثم وضعت فى سنة ١٩١٥، اللوائح التى تنظم إنشاءها وإدارتها. وفى عام ١٩١٦، أصبحت المكتبة الوطنية مكانا لإيداع نسخة واحدة من كل كتاب يصدر فى الصين تحت مظلة حق المؤلف.

وفى العشرينات قامت المراكز التعليمية الشعبية باقتناء مجموعات صغيرة من الكتب والمجلات والجرائد، تلك المراكز الثقافية أنشئت على نطاق واسع فى عموم الصين. وإلى جانب تلك المجموعات كانت هناك المكتبات المسافرة التى تجرها الثيران على عربات خشبية. وقد ساعد ذلك كله ملايين الصينيين على الإستفادة من الكتب المطبوعة والدخول إلى عالم الفكر لأول مرة فى حياة الصين.

لقد أنشئت مكتبة عامة كبرى سنة ١٩٢٢ فى متحف القصر الوطنى فى بكين لتضم بالدرجة الأولى مجموعات تشى انج الإمبراطورية مثل مكتبة الكنوز الأربعة وغيرها من المجموعات. وفى منتصف الثلاثينات أنشئت المكتبة الوطنية المركزية فى العاصمة الجديدة نانكنج. وكان من بين وظائفها طباعة المطبوعات الرسمية وكانت تعتبر فى نفس الوقت مكان إيداع لها. وإلى جانب نمو المكتبات الوطنية الإقليمية ومكتبات المقاطعات ومكتبات المدن، حققت الصين الجمهورية تقدما هائلاً فى مجال مكتبات الكليات والجامعات. وعلى سبيل المثال جامعات ينتشنج؛ تسنجهوا؛ سون يات - سن؛ بكين. كذلك كانت المعاهد ومراكز البحوث والأكاديميات تمتلك مكتبات عظيمة القدر تحقق أهدافها البحثية. وعلى سبيل المثال آلت مجموعات الوثائق التى حفظها لو تشن - يو من الدمار والتى كانت موجودة فى خزائن الأرشيف الإمبراطورى لأسرة تشى انج، آلت هذه المجموعات إلى مكتبة معهد التاريخ واللغة.

ومن الصعب الدخول فى تفاصيل المعاناة التى عانتها المكتبات الصينية التى ازدهرت بين ١٩١٦ - ١٩٣٦، إبان الحرب الصينية اليابانية الثانية (١٩٣٧ -

١٩٤٥). ويكفى القول هنا أنه بين ١٩٢٥ - ١٩٣٦، إزداد عدد المكتبات إلى ثمانية أضعافها أى من ٥٠٢ مكتبة إلى ٤٠٤١ مكتبة ولكن فى سنتين فقط من سنوات الحرب دمرت ٢٥٠٠ مكتبة حسب تقديرات إتحاد المكتبات الصينية. وفى سنة ١٩٤٥ قدرت خسائر المكتبات الجامعية ومكتبات الكليات بنحو ٥٠٪ أى تناقصت من ٥,٥٠٠,٠٠٠ مجلد إلى ٢,٨٠٠,٠٠٠ مجلد فقط. وفى سنة ١٩٤٣ هبط عدد المكتبات إلى ٩٤٠ مكتبة وهى نفس الكارثة التى سجلها ينوهونج منذ ١٣٥٠ سنة قبل سنة ١٩٤٣. وعقب تلك الحرب، جاءت الحرب الأهلية داخل الصين والتى قضت على المزيد من المكتبات.

لقد قام الوطنيون عقب الحرب الأهلية بنقل جزء من مقتنيات المكتبة الوطنية المركزية ومكتبات متحف القصر الوطنى وأكاديمية سينيكا إلى تايوان حيث استأنفت تلك المكتبات نشاطها بعد سنة ١٩٤٩. وبالإضافة إلى تلك المكتبات قامت تايوان بانشاء ١٨ مكتبة عامة و٢٩٥٢ مكتبة مدرسية و٩٩ مكتبة كلية وجامعة وعدد كبير من مكتبات البحوث والمكتبات المتخصصة بلغ مجموع مقتنياتها بحلول ١٩٧٥، سبعة عشر مليونا من المجلدات.

جمهورية الصين الشعبية

فى خلال عقد واحد من قيام الثورة الشعبية العظيمة فى الصين حدثت طفرة فى إنشاء المكتبات فى الصين الشعبية حيث كانت الصورة فى سنة ١٩٦٠ تسير على النحو الآتى:

مكتبات عامة تحت إشراف وزارة الثقافة	٩٤٠
مكتبات النوادى الثقافية	٢٦٥٧
مكتبات إتحادات العمال	٢٥٤١٩
المكتبات الريفية	٢٨٨٤١٩
المكتبات الشعبية	٣٨٤٧
مكتبات الكليات التابعة لوزارة التعليم	٢٣٥
مكتبات الأكاديمية الصينية للعلوم	١٠١
المجموع الكلى	٣٢١,٠٧٥

وفى نفس تلك السنة كان عدد المجلدات المقتناة فى تلك المكتبات يصل إلى نحو ٢٧٠ مليوناً وهو عدد متواضع إذا قسم على عدد المكتبات فإنه يعنى نحو ٨٥٠ مجلداً فقط للمكتبة الواحدة وإذا قيس بعدد سكان الصين الشعبية آنذاك فإنه يبدو ضئيلا للغاية. وإذا علمنا أن المكتبة الوطنية فى بكين كان مقتنياتها فى تلك السنة تصل إلى ٥,٦٦٠,٠٠٠ مجلد، فإننا ندرك على الفور أن معظم المكتبات وخاصة المكتبات العامة كانت صغيرة للغاية. ويجب أن نؤكد على أن الإحصائيات السابقة لم تضم المكتبات المدرسية العالية والمتوسطة والإبتدائية وكذلك المصالح الحكومية والوحدات العسكرية.

ومن الطريف أنه خلال الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى التى قامت فى الصين فى نهاية الستينات أغلقت المدارس والمكتبات. وكانت مكتبات المصانع ومكتبات الإدارات الحكومية (وهى الأكثر إستعمالا من قبل سكان المدن الصينية) تطهر من الكتب الأجنبية والترجمات الصينية للكتب الأجنبية خاصة الغربية والروسية، كما كانت تطهر من الإنتاج الفكرى الصينى عن الإقطاع والرجعية. ونفس هذه الإجراءات الرقابية أجريت على سائر أنواع المكتبات الصينية. ومن المؤكد أن عملية التزويد فى تلك المكتبات قد عانت كثيراً فى تلك السنين خاصة وأنه لم يكن ينشر شئ فى تلك السنين إلا ما يتصل بالثورة والعقيدة الثورية. وعلى سبيل المثال فإنه بين ١٩٦٦ و١٩٦٩ طبع ٣/٤ مليار نسخة من كتاب ماو تسى تونج (الكتاب الأحمر الصغير) الذى يتضمن مقتطفات من أقواله وأفعاله. وقد تقلص دور أكبر مكتبة جامعية فى الصين مكتبة جامعة بكين من مساندة البحث العلمى والعملية التعليمية، إلى مجرد مروج لفكر الزعيم ماو والنظريات الشيوعية الأخرى «والصراع الطبقى والإنتاج والتجريب العلمى» والتى عرفت آنذاك «بالحركات الثورية الثلاث» وكانت الكتب خارج هذه الدائرة لا تستخدم إلا تحت شروط خاصة.

،ورغم كل تعقيدات الموقف فإن الصين الشعبية لم تعزل نفسها تماماً عن التطورات العلمية والفكرية الدولية الجارية فى العالم من حولها وبدأت فى

تنظيم برامج للعلاقات الدولية منذ مطلع الثمانينات وبدأت تنفتح على العالم وعلى سبيل المثال كان للمكتبة الوطنية فى بكين برنامج تبادل مع نحو ٤٠٠٠ هيئة ومكتبة خارجية فى نحو ١٣٠ دولة من بين هذه الهيئات ٣٠٠ على الأقل فى الولايات المتحدة وحدها. وأعيد فتح المكتبات التى أغلقت وخطط لبرنامج واسع لبسط المكتبات وتوسيع نطاقها. وكانت إستضافة الصين الشعبية لمؤتمر إتحاد جمعيات المكتبات ومؤسساتها (إفلا) سنة ١٩٩٦ درساً فى التنظيم وكرم الضيافة.

تطور مؤسسات الفكر الصينى

أمهات الكتب الصينية

فى الكتابات الباكرة التى عثرنا عليها حتى الآن على «عظام النبوءات» التى ترجع إلى عهد أسرة شانج (١٧٦٦ - ١١٢٢ ق.م) ما يؤكد أن اللغة الصينية كانت قد تطورت فعلاً إلى لغة مكتوبة. وهذه الكتابات كما أسلفت عبارة عن تسجيل لأسئلة توجه من الملك لأسلافه يسألهم النصح واستجاباتهم لهذه الأسئلة بما فى ذلك نتائج هذه العرافة إن سلبا وإن ايجاباً. وإلى جانب النصوص المصبوبة على الأوعية البرونزية، هناك آثار أخرى أدبية ترجع إلى فترة تشو (١١١٢ - ٢٤٩ ق.م). لقد كانت تشو دولة شبه إقطاعية فى شمال غرب شانج قامت بهزيمة حكامها سنة ١٠٢٧ق.م. ومن بين الوثائق الصينية الباكرة تعليمات أحد وزراء تشو الموجهة إلى نبلاء شانج المهزومين.

ومن بين الكتب الصينية الباكرة التى جمعت فى مجموعة واحدة ما يعرف «بالأمهات الخمس» أو «الكلاسيكيات الخمس». وفى الحقيقة لقد كانت ستاً، بيد أن «كلاسيكية الموسيقى» فقدت فى وقت مبكر. وأولى هذه الكلاسيكيات «كلاسيكية الأغانى أو كتاب الشعر» وتتألف من نحو ثلاثمائة أغنية تبدأ من القرن العاشر إلى القرن السابع قبل الميلاد. وكثير منها قصائد حب بسيطة، وبعضها قصائد سياسية وترانيم طقسية. والكلاسيكية الثانية «هى كلاسيكية

الوثائق أو كتاب التاريخ» وهى تتضمن بعض الوثائق شبه التاريخية وخطب تبدأ من القرون الأولى لأسرة تشو. والكلاسيكية الثالثة هى «كلاسيكية التغير أو كتاب العرافة» وهى من الكلاسيكيات المخضرمة التى تجمع بين عصرين. وقد بنيت حول الأشكال الثمانية المثلثة والأشكال الأربعة وستين المسدسة والتى تمثل نظاما للعرافة أو التنبؤ بديلاً لنظام عظم الكتف. أما الكلاسيكية الرابعة فهى «حوليات الربيع والخريف» التى تعزى إلى كونفوشيوس. وهى سجل زمنى بالأحداث الرئيسية كما وقعت فى بلاد دولة «لو» أو كما سجلت هناك بين السنوات ٧٢٢ ق.م.- ٤٨١ ق.م. والكلاسيكية الخامسة هى «سجل الطقوس أو كتاب الشعائر» وهو عمل متأخر، ربما يرجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد، وقد جمعت فيه كل أو أهم الطقوس التى مورست فى القرون السابقة على هذا التجميع.

وجدير بالذكر أن مصطلح «كلاسيكى» عند الصينيين ويكتب عندهم بصورة «يغلف»، يعنى أمهات الكتب القديمة التى شكلت إطار الفكر الصينى ونمطته وكذلك أرست قوانين الكونفوشيوسية التى لافكاك منها. وخلال فترة حكم (وو - تى) من أسرة هان ١٤٠ - ٨٧ ق.م، وباقتراح من أحد أقطاب الكونفوشيوسية قامت الحكومة باعتناق الكونفوشيوسية عقيدة للدولة، ودين لها. ومنذ ذلك التاريخ وصاعداً أصبحت الكونفوشيوسية الفلسفة الرسمية لأكثر من ألفى سنة فى التاريخ الصينى. وقد أصبحت الكلاسيكيات الكونفوشيوسية هى أساس معظم المناهج الدراسية والتعليمية فى مؤسسات الدولة. ولم يكن هناك فقط خبراء لكل «كلاسيكية» بل كانت هناك مدارس مختلفة لكل منها تفسيراتها وشروحها لكل كلاسيكية؛ بل وأكثر من ذلك كان هناك نظام تصنيف خاص بكل كلاسيكية. وإلى جانب الكلاسيكيات الخمس. تعرضت الكلاسيكية الكونفوشيوسية إلى إضافة أعمال جديدة من جيل إلى جيل. لقد ظهرت مجموعة أخرى من الكلاسيكيات عرفت باسم «الكلاسيكيات الثلاثة عشر» التى حفل بها المفكرون بعد عهد أسرة سونج (٩٦٠ - ١٢٧٩م).

وهى تتضمن الكلاسيكيات الخمس الأساسية ولكنها تعتبر حوليات الربيع والخريف ثلاث كلاسيكيات منفصلة، هى على التوالى: شروح وتعليقات كونج - يانج؛ شروح وتعليقات كو - ليانج التى هى عبارة عن تعليقات بسيطة تبدأ بالقرن الأخير لأسرة تشو؛ شروح وتعليقات تسو، الذى هو عبارة عن تأريخ منفصل لدولة «لو». وبالإضافة إلى كلاسيكية «سجل الطقوس» أضيفت كلاسيكيتان أخريان فى نفس موضوع الطقوس من نفس التاريخ؛ وهما «المراسيم والشعائر» و«طقوس تشو». وأخيرا هناك ٤ قطع أخرى تكمل القوانين الثلاثة عشر، هى على التوالى [منتخبات أدبية لكونفوشيوس]، [كتاب منج تسو] وهما من فصيلة الأعمال الحوارية؛ [كلاسيكية فليال بيتى] التى ترجع إلى القرن الأول أو الثانى قبل الميلاد والتى تعتبر النص الأول فى تدريس علم الأخلاق فى التعليم الإبتدائى؛ والرابعة هى [إيره يا] وهى عبارة عن تجميع للمصطلحات والتعبيرات الشائعة من النصوص الأدبية والأمهات وهذه الكلاسيكية تشير إلى بدء تجميع المعاجم اللغوية.

وثمة مجموعة أخرى من الكلاسيكيات تعرف باسم «الكتب الأربعة». وقد نتجت هذه الكتب الأربعة من الجهد الذى قام به «تشوهسى» ١١٣٠ - ١٢٠٠م وهو رائد من رواد الكونفوشيوسية الجديدة فى فترة سونج الجنوبية والذى دعا إلى أن المعرفة كلها يجب أن تنشد أينما نجدها. وأن هناك كتباً بالذات تحتوى داخلها على المعرفة الحقة الأساسية وتستحق إهتماماً خاصاً. وإلى جانب المنتخبات الأدبية لكونفوشيوس وكتاب منج تسو؛ أضاف هذا المفكر فصلين من سجل الطقوس هما التعليم العظيم وقانون التواضع؛ لتصبح هذه الأعمال الأربعة هى أساس تعلم المعرفة وتحصيل العلم. ولمدة سبعة قرون تالية كانت هذه الكتب الأربعة هى الكتاب الدراسى الرئيسى فى المدارس الصينية تستقى منها الإختبارات الرئيسية للوظائف المدنية.

أنماط الكتابات التاريخية الرئيسية

الصينيون عموما أصحاب عقلية تاريخية، وهم من جيل إلى جيل لديهم إدراك عميق بأنهم ممثلون على مسرح التاريخ وهم حساسون لحكم التاريخ عليهم فى المستقبل. وفى التصنيف الببليوجرافى التقليدى تمثل الكتابات التاريخية القسم الثانى الأكبر بعد الكلاسيكيات. وتنقسم الكتابات التاريخية التى تضم التاريخ - الجغرافيا - التراجم - الحوليات - الأنساب وغيرها من الموضوعات ذات الصلة إلى ثلاث فئات رئيسية.

الفئة الأولى والتى تأتى فى البداية هى **تواريخ الأسر** وتبدأ بالسجلات التاريخية من ١٤٥ - ٨٦ق.م؛ أى من تاريخ سسو - ما تشى إن وتستمر مع التاريخ الصينى حتى حوليات آخر أسرة إمبراطورية وهى أسرة تشى انج ١٦٤٤ - ١٩١١. وبصفة عامة فإن تاريخ كل أسرة حاكمة هو استمرار ويبنى على الخطة العامة والتقسيمات الرئيسية لأسرة سسو - ما تشى إن. ويبدأ عادة بثبت زمنى لفترات حكم الحكام المتعاقبين ثم يتبع ذلك عرض للأحداث فى القطاعات المختلفة زمنيا أيضا مثل الحكومة، الطقوس، الموسيقى، التنجيم، الأدب، ويختتم بتراجم الأشخاص ذوى الحيثيات فى الأسرة وكذلك نصادف مقالات جغرافية عن الشعوب والبلدان الأجنبية فى مختلف أنحاء العالم.

الفئة الثانية. الحوليات. وربما كان أساس هذا النوع من الكتابات هو ما وجد فى الكلاسيكية «حوليات الربيع والخريف». وهذا النوع من الكتابات التاريخية يتضمن عرضا زمنيا للأحداث داخل فترات محددة. ولعل أشمل عمل من هذا النوع هو [المرآة الشاملة للأداة الحكومية] الذى كتبه سسو - ماكوانج (١٠١٨ - ١٠٨٦م) وهو عرض زمنى مستفيض يغطى السنوات بين ٤٠٣ق.م - ٩٥٩م فى نحو ٣٠٠ فصل. وبسبب إمتيازه وتفوقه فى الأسلوب والمحتويات صدر نحو ٣٦ عملاً تلحقه وتكمله عبر القرون التى تلت من بينها كتاب تشوهسى [مخطط وتفاصيل المرآة الشاملة] والذى يتضمن النقاط الرئيسية فى التاريخ مع

بيانات دقيقة وشروح للفلسفة الكونفوشيوسية. وهو أشهر هذه الملاحق جميعا. وهو النص الأساسى فى التاريخ الصينى.

الفئة الثالثة هى الروايات الكاملة التى تعرض التاريخ بكامل تفاصيله. وغالبا ما ينتقى الكتاب فى هذه الفئة موضوعا أو حقبة ثم يعالجها معالجة تاريخية دقيقة بنفس الطريقة أو الأسلوب الذى نصادفه فى الغرب. وقد يقال بأن «كلاسيكية الوثائق» تنطوى على بذور هذه الفئة من الدراسات التاريخية. ومهما يكن من أمر فإن العمل الذى ألفه يوان شو (١١٣١ - ١٢٠٥م) والذى لخص فيه وحرر فيه المجلد الكبير الذى كتبه سسو - ما كوانج المشار إليه سابقاً. وجاء تحت عنوان جديد هو «الروايات الكاملة للمرآة الشاملة» وعندما قدمه لإمبراطور سونج لاقى تقديرا كبيرا ووزع على المؤسسات التعليمية. ولقد كان نموذجا أحتذى فى الأسر المتعاقبة على حكم الصين.

هذه الفئات الثلاث تمثل الكتابات الصينية التاريخية الرئيسية. وهناك يقينا كتابات أخرى تنتمى إلى الكتابات التاريخية ولكنها لا تندرج تحت أى من هذه الفئات الثلاث، يدخل فيها المطبوعات الحكومية، التقارير الرسمية، السجلات، المعاهدات والإتفاقيات السياسنية.

المدارس المائة: فى فترة تشو المتأخرة

كان كونفوشيوس (٥٥١ - ٤٧٩ ق.م) المصلح الأول الذى ثار على التقاليد وكان المعلم الأول للفلسفة التى أتى بها، وبعده كانت هناك وفرة فى المدارس الفلسفية ومن ثم فى معلمى الفلسفة. وفى الخمسمائة سنة الأخيرة من حكم أسرة تشو والتى أطلق عليها كذلك إصطلاح الربيع والخريف (٧٧٢ - ٤٨١ ق.م) و ولايات وارنج (٤٠٣ - ٢٢١ ق.م) كانت هناك علامات إنتقالية فى التاريخ الصينى، علامات تحطم فيها النظام القديم ولكن لم ينشأ فيها نظام جديد. ففى سبيل توسيع النفوذ السياسى والمنافسة الجادة مع الخصوم حاول حكام الولايات المختلفة بشتى الطرق الحصول على خدمات المفكرين

والأشخاص الموهوبين. وعلى ضوء الكوارث والمعاناة التى كانت تحل أحيانا، وعلى ضوء الرخاء والإستقرار الذى كان يحل أحيانا أخرى كان المفكرون والمتعلمون يندبون عادة لتقديم النصح والمشورة لحل المشاكل. وقد أدى هذا وذاك إلى ازدهار المدارس الفكرية وتطورها. لقد قال (سسو - ما تشى إن) الذى يطلق عليه مؤرخ الصين العظيم عن تلك الحقبة: «لقد ظهرت فيها مائة مدرسة» لقد دارت هذه المدارس حول مجالات مختلفة من الفكر: علم الكون، العلوم العسكرية، الزراعة، العلوم البحتة، الطب، فلسفة الأخلاق، فلسفة السياسة... لقد كان من بين الفلاسفة العظماء: كونفوشيوس؛ لاوتزو (ولد فى نحو ٦٠٤ ق.م)؛ تشوانج تزو (القرن الرابع قبل الميلاد)، مو تزو (أيضا القرن الرابع قبل الميلاد) منج تسو (٣٧٢ - ٢٨٩ ق.م) هسّون تزو (٣٤٠ - ٢٤٥ ق.م) وهان فاى تزو (ت ٢٣٣ ق.م) وأعمالهم فى الواقع لها أهمية خاصة ليس فقط لمحتوياتها الفلسفية ولكن أيضا لقيمتها الأدبية.

وأحسن الأعمال عن كونفوشيوس والكونفرشيوسية هى الكلاسيكيات الصينية التى تؤكد على أهمية أخلاق المرء وكرامته. أما التاوية فإنها تركز على الإعتدال فى ممارسة الحياة اليومية. لقد كانت مدرسة ثورية ضد الأخلاقيات الجامدة التى سار عليها خلفاء كونفوشيوس. أما البوذية التى دخلت إلى الصين فى وقت ما من بداية أسرة هان (٢٠٢ ق.م - ٩م)؛ فقد اختلطت بالتاوية وغدت مدرسة فلسفية تنافس الكونفوشيوسية فى الصين عقر دارها. أما منج تزو وهسّون تزو وغيرهما فقد تأثروا تأثرا بالغا بتعاليم كونفوشيوس. ويعتبر «كتاب منج تسو» من أطول وأعمق الكتب ذات القيمة الأدبية والتحليل النفسى العميق وقد ترك أثرا عميقاً فى الكونفوشيوسية ويعتبر العمل الثانى فيها بعد منتخبات كونفوشيوس الأدبية. وقد خلف لنا هسّون تزو سلسلة من المقالات بالغة التنظيم تكشف عن تقدم منطقى هائل عما صادفناه فى كتاب منج تزو. وهناك تناقض بين الإثنين حول مفهوم طبيعة النفس البشرية. ولقد لعب كل منهما دوراً أساسياً فى الفلسفة الكونفوشيوسية. أما رجال القانون والمشرعون

فإنهم كانوا ممارسين أكثر منهم منظرين ومن ثم لم يخلفوا لنا مدرسة فكرية ينتمون إليها. وكتاباتهم التى وصلتنا إنما جمعت من خلال أعمال الآخرين الذين آمنوا بدور القانون فى حفظ النظام داخل المجتمع والإنضباط فى الأداء الحكومى. وكان هناك عملان باكران فى مجال القانون أولهما كتاب القانون الذى ألفه كوان تشونج (الذى توفى سنة ٦٤٥ ق.م) رئيس الوزراء فى دولة تشى إى وكتاب اللورد شانج الذى وصلنا مجهول المؤلف من القرن الثالث قبل الميلاد. وعلى أية حال يعتبر هان فاى تزو القانونى الأول فى كتابه الذى يحمل نفس إسمه والذى عرض فيه لفلسفة القانون وأهميته فى حياة الشعوب. أما فيما يتعلق بممارسة القانون نفسه فلا أحد يضارع لى سسو (توفى ٢٠٨ ق.م) الذى ساعد حاكم ولاية تشى إن فى تأسيس أول إمبراطورية صينية.

لقد كانت الكونفوشيوسية؛ والتاوية والماوية والتشريعية هى أكبر أربعة مدارس فكرية قبل توحيد الصين تحت حكم أسرة تشى إن (٢٢١ - ٢٠٧ ق.م). وكانت هناك إلى جانبها مدارس أصغر بطبيعة الحال. لقد إعتقد الزراعيون أن كل القيم المادية تنبع من الأرض وأن الفلاحين وحدهم هم المنتجون. لقد وضع الثنائيون النظرية القائلة بأن أساس الكون هو التضاد والقوى المتضادة، ولكن المتكاملة: الخير والشر وأن كل الأشياء فى العالم تتألف من خمسة مكونات أساسية هى: المعدن، الخشب، الماء، النار، الطين. وأخيرا كانت هناك مدرسة الأسماء التى تماثل فى اليونان مدرسة السفسطائيين الذين يعشقون الجدل لذات الجدل. وقد أرست هذه المدرسة أسس علم المنطق الحديث وبسبب تركيزها على العلاقات الإنسانية فشلت فى تطوير مادتها إلى علم من العلوم البحتة.

لقد شكلت الكلاسيكيات الصينية الجسم الرئيسى للإنتاج الفكرى الصينى القديم فى التاريخ والفلسفة وإن جاء إلى جانبها مئات الآلاف من الأعمال الفردية والأعمال المجمعة التى أبدعها مؤلفون من مشارب مختلفة وفى كل مجالات الأدب مثل النثر والشعر والرواية والقصص القصيرة. ومن المعترف به

أنه مع سنة ١٧٥٠م نشرت كتب كثيرة فى الصين أكثر مما نصادفه فى أى مكان آخر فى العالم. ولقد ساعدت ملايين المجلدات التى نشرت هناك على بناء قاعدة صلبة للحياة الفكرية الصينية.

ويقول أحد المصادر الأمريكية أنه بينما كان جورج واشنطون وزملاؤه يناضلون فى سبيل الإستقلال، كان الصينيون ينشرون من الكتب أكثر من كل أقطار الأرض قاطبة.

التصنيف والفهرسة فى الكتب الصينية

ليس بمستغرب على الشعب الذى إخترع الورق والطباعة أن يلتفت فى فترة مبكرة إلى مشكلة تصنيف الكتب. والفكر الصينى القديم ملىء بخطط التصنيف لدرجة تدعو إلى الاعتقاد بأن العقل الصينى جبل مسبقاً على أن يقسم وأن ينظم الظواهر الكونية. والنصوص الكلاسيكية تمدنا بأمثلة لا حصر لها على التصنيف: ثالوث السماء والأرض والإنسان؛ الطبقات الثمانى للسماء؛ الفنون الستة؛ الفضائل الست؛ عشرة آلاف شئ للخلق؛ المائة مدرسة للفسلفة. وكان من الملامح المميزة للفلسفة الصينية القديمة «تصحيح الأسماء» التى كانت تتعلق أساساً بأسماء الأعلام ومشكلاتها. وكان هسُون تزو (٣٤٠ - ٢٤٥ق.م) واحداً من كبار الذين تصدوا لقضية تصحيح الأسماء ودعا إلى جمع الأشياء معاً حسب درجة تشابهها وفصلها على حسب درجة إختلافها». وفى ظل هذا المناخ كان الاتجاه نحو التنظيم والذى قاد إلى أول أعظم نظام تصنيف للكتب فى القرن الأول قبل الميلاد.

كان ليوهسين (ت ٢٣م) إبنا لأحد الرقباء الحكوميين وقد وجه إهتمامه الأكبر لجمع وتلخيص الكتب المستفيضة، وقد إستأنف العمل الذى لم يتمه أبوه وهو تطوير نظام تصنيف «المراتب السبع». وكانت هذه المراتب السبع هى: الخلاصة العامة؛ الفنون الستة؛ الفلاسفة؛ الشعر؛ العلوم العسكرية؛ العلوم البحتة والعلوم التطبيقية؛ الطب. وقد صنف كل الكتب فى زمانه تحت واحدة من هذه الرتب السبع والتى كان كل منها يتفرع إلى فروع من ثلاثة إلى عشرة.

وكان هذا التصنيف السُباعى هو الذى ساد الصين حتى القرن الثالث الميلادى. وعلى الرغم من أن نظام التصنيف الكامل الذى وضعه ليوهسين قد ضاع فى زوايا التاريخ بعد القرن العاشر الميلادى، إلا أن الدارسين أعادوا بناءه فقد نسخه واقتبسه إلى حد قريب، كبير المؤرخين فى أسرة هان، «بان كو» ٣٢ - ٩٢م فى قسم البيليوجرافيا الموجود فى كتابه (تاريخ أسرة هان الأولى). حذف بان كو الخلاصة العامة والتى لم تكن فى حد ذاتها قسماً قائماً بذاته بقدر ما كانت مقدمة واستخدم باقى الرتب حيث وجد النظام مايزال صالحا للإستخدام حتى ذلك الوقت.

وإحتذاء لهذه السابقة قام الباحثون فى مختلف الأجيال بوضع أنظمة للتصنيف معتمدة على نظرية الرتب السبع. ومن بينها «العروض السبع»؛ «السجلات السبعة»؛ «الأخاديد السبعة» كلها أضافت أو حذفت من التفريعات الموجودة فى نظام ليو كى يلائم أكثر واقع البيليوجرافيا التى تستخدمه.

وبينما كانت نظرية التقسيم السباعى للمعرفة علامة ملحوظة فى التصنيف، إلا أنه كان فيها بعض نقاط الضعف، فتحت أحد فروع الفلاسفة وضع ليو: «القصاصون» ودس بينهم بعض رواة الأحداث التاريخية ممن نطلق عليهم إسم الإخباريين. ونحن نعرف أن فن القصص لم يكن قد تطور آنذاك ويبدو أن ليو لم يعرف أنذاك كيف يتعامل مع العدد المحدود من القصص فاضطر إلى وضعها تحت الفلاسفة.

أما جوان هسياو - هسّو (٤٧٦ - ٥٣٦م) واضع تصنيف «السجلات السبعة» المذكور سابقاً فقد وجد من المناسب تعديل نظام ليو عن طريق وضع التاريخ فى رتبة مستقلة فى حين أن التاريخ فى تصنيف «الرتب السبع» قد وضع تحت رأس (الكلاسيكيات)، ولكن الزيادة الكبيرة فى الكتابات التاريخية جعلت من المناسب عند جوان وضعها فى قسم قائم بذاته. كما أن جوان وضع الكتابات العسكرية ضمن فروع الفلاسفة: البوذيين والتاويين والذين كان لهم فى ذلك الوقت شأن عظيم فى الحضارة الصينية.

إنتشار نظام التصنيف الرباعى

قام شنج مو (٢١٣ - ٢٨٠م) فى القرن الثالث الميلادى، وكان يعمل أمين المكتبة الإمبراطورية فى عهد أسرة (وييه)، قام بتجميع فهرس لمجموعات المكتبة الإمبراطورية. ووضع كل الأعمال تحت أربعة أقسام هى: الكلاسيكيات؛ الفلسفة؛ التاريخ؛ الأدب. وقد سيطر هذا النظام على الببليوجرافيات الصينية حتى الوقت الحاضر. ولابد من التنبيه على أن هذا النظام هو إعادة ترتيب لنظام ليوهسين. فالكتب فى العلوم العسكرية والعلوم البحتة والتطبيقية والطب جمعت جميعها تحت رأس الفلسفة. وفصل التاريخ عن الكلاسيكيات. ورغم أن هذا التصنيف لم يكن ثورياً فقد تميز بالبساطة والشمول ولذلك إنتشر بشكل كبير.

وفى سنة ٢٧٩م قام باحث يدعى هسًون هسو بإعداد فهرس (السجل الجديد) لمكتبة تشين. هذا الفهرس فريد فى نوعه حيث طبق فيه الحروف الأربعة الأولى من الكتابة الصينية وهى بالنطق العربى [تشيا، إى، بنج، تنج] كرموز لأقسامه الأربعة. وقد جرى عليه تعديل هام بين ٣٤٥ و٣٥٧م قام به لى تشو أونج عندما غير ترتيب الأقسام ووضع التاريخ قبل الفلسفة وظل مستخدما بهذه الكيفية حتى الوقت الحاضر. وقد أعد أكثر من دستة فهارس رسمية باستخدام هذا التصنيف حتى نهاية فترة الأسر الجنوبية والشمالية فى سنة ٥٨٩م. وفى سنة ٦٥٦م قام أحد المؤرخين الحكوميين باستخدام التصنيف الرباعى لأول مرة فى تاريخ الأسرات؛ ثم استخدم بعد ذلك فى التواريخ الرسمية المتعاقبة مع أقل القليل من التعديلات فى الفروع الداخلة تحت الأقسام الرئيسية الأربعة.

والحقيقة أن تقنين التصنيف الرباعى لم يتم قبل القرن الثامن عشر، حين قام تشى يون (١٧٢٤ - ١٨٠٥م) وثلاثة آخرون من الباحثين وبدعم إمبراطورى بالإشراف على نحو عشرين ألف باحث لتجميع (مكتبة الكنوز الأربعة) والتى ضمت نحو ٣٦ ألف مجلد وقد أعد لها فهرس مشروح رتبت

مداخله. البالغة عشرة آلاف ترتيباً مصنفاً حسب هذا النظام الرباعى بتفريعاته التى بلغت نحو تسعة وتسعين فرعاً. وبينما يمكن أن نسمى هذه المجموعة اشمل وأكمل مجموعة فى حينها، إلا أنها صنفت بنظام كلاسيكى لا يصلح للأفكار الجديدة وغير كاف للمكتبة الحديثة.

ولما لم يكن هناك فى الصين سوى التصنيف السباعى، ثم التصنيف الرباعى اللاحق عليه، فإنهما قد سيطرا على المشروعات الببليوجرافية. أما الخروج على هذين التصنيفين فقد جاء من جانب تشنج تشياو (١١٠٤ - ١١٦٢م) وهو مؤرخ أسرة سونج، عندما أعد (السجل الكامل لكل الكتب)، وصمم نظاما للتصنيف من ١٢ رتبة رئيسية قسمها إلى مائة قسم وهذه إنقسمت بدورها إلى ٤٣٢ شعبة؛ وداخل كل شعبة رتبت الكتب فى ترتيب زمنى. وكان بذلك أشمل وأدق نظام تصنيف تشهده الصين قبل العصر الحديث.

نظم التصنيف الصينية الحديثة

وعندما خرجت الصين من عزلتها وإحتكت بالغرب دخل على إنتاجها الفكرى ومدارسها الفكرية مجالات جديدة لم تكن موجودة من قبل وبالتالى جرت محاولات عديدة لإدخال الموضوعات الجديدة فى التصانيف القديمة وإنشاء نظم جديدة للتصنيف.

وكان أول نظام للتصنيف الغربى يدخل إلى الصين هو تصنيف ديوى العشرى فقد ظهرت مقالة بالصينية تشرح النظام سنة ١٩٠٩. ولم يدخل نظام مكتبة الكونجرس إلى الصين حتى ١٩٢٩. وبعد فترة من إستخدام ديوى العشرى إتضح أن النظام يقصر عن الوفاء باحتياجات الموضوعات الصينية التقليدية. وقد كرس كثير من الباحثين والببليوجرافيين جهودهم ومواهبهم لتعديل هذا النظام وتطويره فى الصين. وتضمنت التعديلات بصفة عامة إضافة فروع جديدة إلى النظام باستخدام الخانات الخالية بين (٠٠٠ - ٠٠٩) وإضافة علامات + و- إلى الأرقام والمزج بين الأرقام والرموز فيه. حتى مع هذه

التعديلات وجد أن النظام غير ملائم للمواد الصينية. ولذلك قام دنج - يو دو سنة ١٩٢٥ باقتراح نظام شامل للتصنيف يتسع للموضوعات الصينية وغير الصينية. وقام نفسه بعمل تعديل لنظام ديوى العشرى وضع بمقتضاه الموضوعات الصينية فى الفروع بما يستوعبها وبما كان الملمح الرئيسى فى هذا التعديل. وقد طبق هذا التعديل على نطاق واسع فى المكتبات الصينية.

معظم التصانيف الصينية الحديثة تقوم على تسعة أو عشر أقسام رئيسية ومعظمها عشرى الأساس. ولعل من بين أهم النظم الحديثة كان النظام الذى وضعه الفرد كايمنج تشو وى أمين مكتبة شرقى فى معهد هارفارد - ينشنج بجامعة هارفارد. وهو نظام تساعى الأقسام يرمز لكل قسم رئيس برمز مكون من أربعة أرقام (فيما عدا الكلاسيكيات التى رمز لها بثلاثة أرقام فقط). وقد أشار د. تشو وى إلى أن هذا النظام يستمد أصوله من نظام التصنيف الرباعى الذى كان موجودا فى القرن الثالث الميلادى وأثر فى نظام تصنيف مكتبة الكونجرس. وقد استخدم النظام لتصنيف المقتنيات الصينية واليابانية فى مكتبات جامعة هارفارد واستخدمته جامعات كثيرة فى الولايات المتحدة لتصنيف مجموعات جنوب شرقى آسيا فيها.

لقد طبق نظام تصنيف مكتبة الكونجرس على كثير من مجموعات جنوب شرقى آسيا التى تكونت فى الستينات. وهناك أربعة تصانيف كبرى تستخدم فى المكتبات الصينية الآن. وهذه الأنظمة هى: نظام مكتبة جامعة الشعب الصينى؛ نظام المكتبات المتوسطة والصغيرة؛ نظام ليو كو - تشون؛ نظام الأكاديمية الصينية للعلوم. أما مكتبات تايوان فإنها تستخدم نظام ديوى العشرى؛ نظام ليو كو - تشون؛ ونظام لاى يونج - هسيانج؛ وهى الأنظمة الأكثر إنتشاراً وشيوعا هناك.

ممارسات الفهرسة الوصفية فى الصين

للصينيين علامات بارزة فى مجال الفهرسة الوصفية وبصمات فى ممارستها ففى القرن السادس عشر الميلادى دعا، تشى تشن - يى (١٥٦٥ - ١٦٢٨م)

وهو مؤرخ من أسرة منج، إلى استخدام المداخل التحليلية فى فهرسة الكتب. ومن بعدُ قام تشانج هسوش - تشنج (١٧٣٨ - ١٨٠١) وهو باحث من أسرة تشنج باستخدام إحالة «أنظر أيضا» فى الفهارس التى أعدها. كما أن الأسلوب الببليوجرافى الذى إستخدمه الببليوجرافيون الصينيون منذ فترة طويلة يعد من أقدم الأساليب فى فهرسة الكتب. ومع دخول علم المكتبات الحديث فى الصين، أصبحت قضية الفهرسة أكثر تعقيداً ففيما يتعلق بالمواد الغربية، هناك كثير من التقنينات والقواعد المستخدمة فى الغرب والتى يمكن إقتباسها وتطبيقها فى المكتبات الصينية المقتنية للكتاب الغربى. أما بالنسبة للمواد الصينية فإن من الضرورى تعديل وتطوير هذه القواعد بما يتلاءم مع ظروف الكتاب الغربى. ومنذ بداية العشرينات ظهرت مقالات عديدة هامة عن فهرسة الكتب فى المجلات الهامة. وكان أول كتاب كامل عن موضوع فهرسة الكتب هو ذلك الذى نشره دنج يو دو سنة ١٩٢٦. والحقيقة أن كثيرا من الكتب الصينية مشكوك فى نسبتها لمؤلفيها أو منحولة. وتنتشر الأسماء المستعارة وأسماء القلم إنتشاراً كبيرا بين المؤلفين. كذلك فإن إستقاء البيانات الببليوجرافية عن الكتاب الصينى يعتمد على حرد المتن أكثر من إعتماده على صفحة العنوان. وبات من الواضح أنه لابد من إعداد تقنين خاص لفهرسة الكتب الصينية، لتغطية الإحتياجات الخاصة التى لم تتناولها التقانين الغربية. وفى إصدار ديسمبر ١٩٢٩ من دورية فصلية علم المكتبات الصينية نشر ليو كو - تشون وهو مكتبى صينى بارز مسودة مبدئية من «قواعد لفهرسة الكتب الصينية». ولقد لعبت هذه القواعد دوراً مؤثرا فى التقنينات التى وضعتها المكتبات فى الصين لفهرسة كتبها إن لم يكن تأثيرا كليا فهو على الأقل تأثير جزئى. وبعد ذلك تأتى الإضافة القيمة التى وضعها ألفرد كايمنج تشو وى المشار إليه سابقاً والذى وضع كتابه القيم «كيف تفهرس الكتب الصينية» سنة ١٩٣١ والذى يتعلق أساساً بفهرسة الكتب الكلاسيكية. وأول قائمة رؤوس موضوعات صينية نجدها فى كتاب هو تو - يوان «فهرسة الكتب» والتى ظهرت بداية على دفعات فى فصلية مكتبة

جامعة كانتون سنة ١٩٣١؛ حيث أدرك المكتبيون الصينيون حاجتهم الملحة إلى قائمة رؤوس موضوعات على غرار قائمة سيرز وقائمة مكتبة الكونجرس. وبسبب تعقيدات المصطلحات الصينية كان من الحتمى أن تكون هناك قائمة رؤوس موضوعات مقننة ومقبولة من جانب المكتبات الصينية المختلفة. ولهذا فإن التحليل الموضوعى برؤوس الموضوعات ليس من الأمور التى تمارسها المكتبات الصينية.

لقد قامت مكتبة بكين بالتعاون مع مكتبة جامعة الشعب الصينى والمكتب الصحفى فيها بإنتاج وتوزيع بطاقات الفهارس على المكتبات الأخرى منذ سنة ١٩٥٨. وقواعد الفهرسة المطبقة فى تلك البطاقات هى الموجودة فى كتاب (الفهرسة فى المكتبات) التى نشرها سنة ١٩٥٧، ليو كو ـ تشون وإثنان من زملائه. كذلك قامت المكتبة الوطنية المركزية فى تايوان بوضع قواعد الفهرسة الخاصة بها سنة ١٩٦٥. أما ممارسة عملية فهرسة الكتب الصينية فى المكتبات الأمريكية فقد قننت منذ ١٩٥٨ عن طريق رومنة المدخل الرئيسى فقط مع بقاء بيانات الوصف على حالها الصينى والتوريق باللغة الإنجليزية وكذلك الملاحظات. ولقد حافظ التقنين الأنجلو - أمريكى على بعض التفاصيل الببليوجرافية التى تساعد على إدماج البطاقات أو المداخل فى الفهرس العام بصرف النظر عن تعدد اللغات المستخدمة.

ترتيب الأشكال الصينية

يعتبر نظام الكتابة فى الصين منذ بداية تاريخها واحداً من الملامح المثيرة من وجهة نظر الغرب. فعلى الرغم من أن الشعب الصينى قد تعرض لحضارات ذات كتابة أبجدية لأكثر من ألفى سنة إلا أن الصينين لم يفكروا فى تغيير نظام كتابتهم إلا فى نهاية القرن التاسع عشر. لقد أصبح إصلاح اللغة والكتابة قضية جدلية حارة فى العشرينات والثلاثينات من ذلك القرن. وكان تعامل الغرب مع علم الصينيات يتم أساساً من خلال نظم معينة للنقحرة.

ولكن السؤال الذى كان يطرح نفسه وبشدة هو كيف يرتب الصينيون حروفهم لأغراض ترميز التصنيف، وكانت لهذا السؤال دائما أهمية خاصة فى أية ببليوجرافية أو فهرس صينى.

إن أقدم القواميس الصينية وهو (ايره يا) والذى يرجع إلى أسرة هان أو بعدها بقليل ينقسم إلى تسعة عشر قسما موضوعيا (على سبيل المثال. المنازل، الطيور، النباتات. . .) وترتيب الأشكال فى مجموعات على حسب معانيها يبدو ترتيباً بدائياً وغير عملى. ولكن يبدو أن هذا النظام هو سلف الأنظمة الحديثة التى ترتب حسب الجذور طالما أن الجذور الموجودة فى كل شكل تعتبر المفاتيح إلى المعانى. وعلى العموم فإن طريقة (ايره يا) لم تستخدم مرة ثانية.

وهناك طريقة ثانية لترتيب الأشكال وذلك عن طريق النغمة (مخارج الكلمات)، أى الصوت. والعمل الرئيسى الذى يتبع هذه الطريقة يرجع إلى أسرة شى انج وهو مجمع الأفكار الأدبية والتعبيرات الذى يحصر نحو عشرة آلاف شكل ويرتبها تحت أكثر من مائة قسم صوتى، وهذا يعنى فى حقيقة الأمر كذلك أن كل قسم يشتمل على عدد كبير جدا من الأشكال مما يحول دون الإسترجاع السريع للأشكال.

ويمكن ترتيب الأشكال الصينية عن طريق البنية وهناك عدة أساليب داخل هذه الطريقة كما يمكن ترتيب الأشكال حسب الجذور أى الجزء الأصلى من الشكل الذى هو فى حد ذاته شكل، أو حسب عدد الشرط أو تتابع الشرط أو حسب نظام رقمى.

ورغم أن نظام الجذور كان مستخدما فى ترتيب وحدات الكتابة الصينية لعدة قرون كثيرة إلا أنه لم يقنن إلا بعد أن صدر القاموس الكبير فى عهد أسرة تشى انج وقد ثبت عدد الجذور عند ٢١٤ جذراً ويسجل القاموس نحو خمسين ألف وحدة. وما يزال هذا النظام فى التجذير سائداً حتى اليوم وأكثر الأنظمة شيوعاً وانتشاراً؛ حتى القواميس التى لها خط تنظيم أول غير جذرى تميل إلى

أن يكون لها كشاف بالجذور. والترتيب بالجذور ليس مسألة سهلة ومع ذلك فإن الجذور تتغير كثيرا فى حالة الإندماج وهناك عدم إتفاق على إدراج بعض الوحدات تحت جذور معينة. كما أن ترتيب الأشكال تحت مجموعات الجذور ليس مقننا ومتفقا عليه، ومن ثم فلا يعرف القارئ أين يجد بالضبط شكلاً معيناً. ومن بين متاعب هذا النظام أن بعض الوحدات قد تظهر تحت أكثر من جذر لأن لها أكثر من شكل. ومن ثم لا يمكن تحديد جذرها إلا بطريقة تعسفية.

ومن الأنظمة المعمول بها فى ترتيب وحدات الكتابة الصينية نظام **الشُرَط** أو **خطوط الشكل** وهو نظام بسيط بيد أنه غير دقيق. ذلك أن الشكل الواحد من وحدات الكتابة الصينية يتألف من شرطة واحدة (جرة قلم) إلى أكثر من ثلاثين شرطة. ويقوم هذا النظام على ترتيب الأشكال بعدد الجرات المكونة للشكل ومن ثم ينتج لدينا عدد ضخم من الأقسام داخل القاموس فالأشكال ذات الشرطة الواحدة تأتى أولاً تليها الأشكال ذات الشرطتين وهكذا. والمشكلة الأساسية الأخرى أنه داخل العدد الواحد من الشرط ليست هناك طريقة منطقية لترتيب الأشكال بناء عليها على الرغم من أن ترتيبها على أساس الجذور قد يساعد كثيرا فى هذا الصدد. بل إن من المشاكل المتعلقة بهذه الطريقة مشكلة الخلاف فى عدد الجرات داخل الشكل الواحد فقد يختلف العدد من شخص إلى شخص. وبسبب هذه المشاكل وغيرها فإن طريقة الشرط ليست عملية وليست دقيقة تماماً.

أما **النظام الرقمى** فى ترتيب وحدات الكتابة الصينية فقد يطلق عليه أحيانا نظام الأركان الأربعة طالما أن الشكل الواحد يكتب داخل مربع حقيقى أو تخيلى وبالتالى يمكن للمرء أن يستخدم هذا المربع فى تقسيم الشكل. وطبقا لهذا النظام نصادف عشرة فئات من الأشكال حسب موضع شرط الشكل داخل المربع. وكل شكل حسب موضعه داخل المربع يعطى رقماً حسب الركن الذى يقع فيه ومن هناك يكون الرقم رباعيا ترتب به الأشكال داخل القاموس. ورغم

أن هذا النظام أقل عرضة لمشاكل الأنظمة السابقة إلا أن من الصعب فهمه واستيعابه ومن ثم تعلمه والسيطرة عليه. ولقد أستخدم هذا النظام فى ترتيب الكشافات فى عدد كبير من الكتب المرجعية ولكن كثيرا من الصينيين ليسوا على ألفة به. ورغم أن القاعدة هى أن الرقم يكون رباعيا إلا أن ثمة طريقة أكثر تعقيدا من هذا النظام تجعل الرقم سداسياً إستخدمت فى عدد من الكشافات التى نشرها معهد هارفارد - ينشنج. ومركز الدراسات الفرنسية الصينية.

ولعل آخرالطرق المتبعة فى الترتيب هى طريقة **الكشاف السريع** التى إبتدعها قاموس «لِنْ يوتانج» المعنون (قاموس اللغة الصينية - الإنجليزية الحديثة) والذى نشرته الجامعة الصينية فى هونج كونج سنة ١٩٧٢. هذا النظام يرتب الأشكال الصينية أولاً حسب الأجزاء العلوية الشمالية وداخلها بالأجزاء السفلى اليمينية وتسمى الأجزاء الشمالية العلوية بالمبدئيات أى التى تبدأ بها الكتابة، والأجزاء السفلى اليمينية تسمى بالختاميات أى التى تختتم بها كتابة الشكل. والمبدئيات الشمالية والختاميات اليمنى التقليدية تمثل ٣٣ حرفاً من الأبجدية الصينية وهى مفتاح نظام الكتابة كله. وتنقسم هذه المبدئيات والختاميات إلى عشرة مجموعات من (٠٠-٩٠). وهذه الأرقام تقابل الأشكال الصينية. ويعتبر هذا النظام نوعاً من تحسين أداء نظام الأركان الأربعة.

نقحرة الكلمات الصينية

وربما كانت المشكلة الكبرى التى تواجه الباحثين فى مجال الصينيات والدراسات الصينية الحديثة أيضا (ولكن لأسباب مختلفة) هى مشكلة نقحرة الكلمات الصينية. وكما رأينا من قبل فإن كل خطط التصنيف التى وضعت لتضم الموضوعات الصينية جاءت غير دقيقة وغير متسقة. حيث لا يوجد حتى الآن نظام شامل ومقبول عالميا لرومنة الأسماء الصينية. فالأشكال الصينية نفسها من الصعب تعلمها. وقد دعا التقدميون الصينيون إلى نبذ الكتابة

الصينية وإستبدالها بالأبجدية اللاتينية. وما تزال القضية حتى الآن من القضايا الجدلية الساخنة التى لا يهدأ لها أوار.

لقد جرب الإيطالى العظيم الجزويتى ماتيوريتشى (١٥٥٢ - ١٦١٠م) وكثيرون جاءوا بعده إلى الصين، كتابة اللغة الصينية بالحروف اللاتينية. كما جرت محاولات أخرى جادة فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين فى نفس هذا الاتجاه أى نقحرة الكلام الصينى بحروف لاتينية على غرارماحدث فى اللغة التركية عندما نبذت الأبجدية العربية وإستبدلتها بالأبجدية اللاتينية مع أن مشاكل الكتابة العربية غاية فى الضآلة قياساً بالكتابة الصينية. ولقد خرج من بطن الأشكال الصينية نفسها فى سنة ١٩٣٠ حروف صوتية أطلق عليها إصطلاح «الرموز الصوتية» وقد نجح هذا النظام فى إعادة تكوين الأصوات الصينية ولم يلق سوى قبول محدود لأن أصوله ليست غربية ومن ثم بقى معزولاً. ورغم كل ذلك فقد إستخدمت الأبجدية الجديدة فى عدد من القواميس الحديثة وتستخدم فى تايوان لتعليم أطفال المدارس النطق السليم للأشكال الصينية. واستخدامه وفائدته فى الببليوجرافيات محدود جداً.

لقد حاول ى. ر. تشاو وضع نظام لرومنة الكلمات الصينية سنة ١٩٢٨، حيث ترجم الأصوات إلى حروف لاتينية وقد أطلق عليه إسم (رومنة اللغة الوطنية). وقد استخدم هذا النظام فى بعض القواميس والكتب المقررة الدراسية. ولم ينتشر أبدا لأنه غير متسق وصعب تعلمه والسيطرة عليه.

أما نظام نقحرة الكلمات الصينية المستخدم فى الغرب فهو المسمى بنظام وادى - جايلز. وهو مستخدم فى الغرب منذ القرن التاسع عشر؛ وهو أفضل نظام فى مجال الصينيات ولذلك إستعمل على نطاق واسع فى المكتبات الأمريكية للإنتاج الفكرى الصينى. ورغم الإعتراف بنقاط الضعف الكثيرة الموجودة فيه ورغم المحاولات الكثيرة لإصلاحها وتعديله، فإنه إنتشر ومن عيوبه الأساسية أن به بعض الأصوات المختلفة المتقاربة بنفس الحروف اللاتينية.

وبسبب ذلك العيب الجوهرى دخل إلى الخدمة نظام آخر فى منافسة شديدة للنظام السابق يطلق عليه إسم نظام «بِنْيِنْ» والذى طبق سنة ١٩٥٨؛ كنظام رسمى لجمهورية الصين الشعبية. ومن مميزاته الأساسية أنه يحدد لكل صوت صينى حروفاً لاتينية مختلفة بدلاً من تلك المتشابهة فى نظام وادى - جايلز. وعلى الرغم من أن هذا النظام رسمى حكومى فإنه لم يستخدم فى الببليوجرافيات وفهارس المكتبات، وما تزال الأعمال المرجعية المنشورة حاليا فى الصين تستخدم فى كشافاتها واحداً من أشكال الكتابة الصينية التى ألمحنا إليها من قبل. وفى الغرب بدأ بعض الباحثين فى التحول إلى نظام «بِنْيِنْ» وأستخدامه فى مطبوعاتهم العلمية كما لجأ إليه بعض اليابانيين لنفس الغرض؛ إلا أن ذلك لم يفت فى عضد نظام وادى - جايلز الذى ما تزال له الغلبة. ومع ذلك يبدو أن نظام «بنين» هو موجة المستقبل فى القرن القادم. وهذا يعنى أن المكتبات التى تقتنى الإنتاج الفكرى الصينى عليها أن تعدل فهارسها طبقا للنظام الجديد.

الكتاب الصينى فى العقود الأولى للثورة الشيوعية

الثورة الشيوعية التى دخلت إلى الصين سنة ١٩٤٩، أحدثت تحولات جذرية فى كل جوانب الحياة فى الصين. وكان نشر الكتاب جانباً من هذه التحولات. وحتى قبل تأسيس جمهورية الصين الشعبية أدرك الشيوعيون أهمية محو الأمية ونشر الكتب لمساعدتهم فى نضالهم من أجل الثورة أو من أجل تقديم المعلومات التكنولوجية الأساسية للفلاحين. ولتحقيق ذلك أنشئت (شركة كتاب الصين الجديدة) سنة ١٩٤٢. ومنذ سنة ١٩٤٥ نشرت هذه الشركة ١٢٤ كتابا فى المتوسط بعدد من النسخ يدور حول ستمائة ألف نسخة كل سنة. وكان عدد كبير من الكتب سياسياً ومن بينها كتب ماركس، لينين، ماو تسى تونج؛ كما كان من بينها كتب دعائية.

ولما قامت الثورة سنة ١٩٤٩، أصبحت شركة كتاب الصين الجديدة دار النشرالرسمية للحزب الشيوعى وكانت الوحيدة المسئولة عن توزيع كتبها فى عموم الصين. وفى سبتمبر ١٩٥٠ عقد «المؤتمر الوطنى الأول للمطبوعات» والذى نظمته إدارة المطبوعات تحت إشراف «لجنة الشئون الثقافية والتعليمية في الحزب».

وقد حضر هذا المؤتمر ممثلون لأكثرمن ٣٠٠ شركة نشر من الصين الأم (وفى ذلك الوقت كان أكثر من ٧٠٪ من دور النشر مركزاً فى شنغهاى وجدها تليها فى الكثافة بكين). وكان الهدف الرئيسى من المؤتمر هو تركيز عملية النشر برمتها فى جهة واحدة أو تحت مظلة واحدة. ولذلك كان لابد من فصل عمليات الطبع والنشر؛ التوزيع عن بعضها (والتى كانت حتى ذلك الوقت تتم جميعها من دار النشر). وأن يكون هناك تخصص بين بعض دور النشر. وقد إستقر الأمر على أن تكون شركة الكتاب المذكورة هى المحتكر الوحيد لتوزيع الكتاب فى عموم القطر. وكانت فروعها الكثيرة المنتشرة فى جميع أنحاء الصين مسئولة عن توزيع الكتب المحلية والوطنية على السواء وفصل عن هذه الشركة وفروعها وظيفتا الطبع والنشر؛ وبالتالى أصبحت فروع هذه الشركة هى المتحكمة فى القراءات العامة.

وبالإضافة إلى ذلك أعلن المؤتمر أن جميع دور النشر العامة والخاصة يجب أن تضع خطة طويلة الأجل للنشر وتقدمها لإدارة المطبوعات.

وكان من بين نتائج هذا المؤتمر خطة لحرق الكتب دامت بين ١٩٥٠ و١٩٥٣ . وقد بدأت عملية الحرق هذه فى دار (المطبعة التجارية) المحترمة ذات التاريخ العريق فى شنغهاى حيث تم إعدام آلاف من الكتب التى تمثل «الثقافة الإقطاعية السامة» إما عن طريق حرقها فى النار أو بيعها دشتاً لشركات تصنيع الورق لإعادة تصنيعها. وقد نجحت حركة «التطهير» هذه للغاية إذ تمكنت من تدمير آلاف الأطنان من الكتب!!.

ومن النتائج الأخرى الحادة لهذا المؤتمر تقليص عدد دور النشر الخاصة حيث أنه بين ١٩٥١ و١٩٥٥ إندمجت ٥٣ دار نشر خاصة فى أربعة دور فقط مشتركة بين القطاع الحكومى والخاص ولم يأت عام ١٩٥٦، إلا وكانت دور النشر الخاصة كلها قد إختفت.

وإعتباراً من ١٩٥١ فصاعداً، أعطيت الأولوية لنشر كتب العلوم والإقتصاد فى جل دور النشر. ولم تنجح تماماً عملية تخصص كل دار فى مجال معين أو مجالات تحدد لها وإستمر التكرار فى نشر الموضوع الواحد قائماً بين الدور. وفى خلال السنوات الست التى تلت سنة المؤتمر، زاد عدد الكتب المنشورة فى الصين الأم من ١٢٠٠٠ عنوان إلى ٣٠,٠٠٠ عنوان. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك إرتفاع ملحوظ فى حجم الطبعات بما يعكس الجهود الجبارة التى بذلت لمحو الأمية وتوفير الكتب للجموع. بيد أنه إعتباراً من ١٩٥٩ مال عدد العناوين إلى التناقص ولكن حجم الطبعات إستمر فى الارتفاع.

ولكن الخلط إستمر فيما يتعلق بمن له السلطة فى تقرير المادة العلمية التى تنشر وعدد النسخ التى تطبعها الدور المختلفة وعلى سبيل المثال نشر فى سنة واحدة خمسون كتابا عن تربية الخنازير نشرتها سبع وعشرون دار نشر. وكان جزء من هذه المشكلة يعود إلى رغبة شركة الكتاب فى توزيع أكبر كمية ممكنة من الكتب دون أدنى إعتبار لطبيعة المادة العلمية أو تحمل السوق. كما كان هناك فيض من الكتب السياسية على سبيل المثال وفقر مدقع فى الكتب الثقافية والأعمال الأدبية المتميزة.

وتتضمن الببليوجرافيا الوطنية كل الإنتاج الفكرى الصينى، منذ ١٩٤٩ وإن كانت قد صدرت منذ أغسطس ١٩٥١، من كتب ونشرات ومصورات وقد إستمرت هذه الببليوجرافية دون إنقطاع فى بكين حتى الثورة الثقافية وقد بلغت إصدارتها حتى ذلك الوقت ٢٨٦، إصدارة وبعد ست سنوات من التوقف، استؤنفت الببليوجرافيَّة فى يونية ١٩٧٢، على أساس كل شهرين بدلاً من

شهرية؛ ثم عادت شهرية مرة ثانية من يناير ١٩٧٣. وترتب فى ترتيب موضوعى، هجائيا برؤوس الموضوعات. والدارس للاتجاهات العددية والنوعية للببليوجرافية الوطنية الصينية يشعر بالزيادة الكبيرة فى عدد العناوين وعدد النسخ وتنوع الموضوعات وقد حظيت كتب التكنولوجيا بالزيادة الأكبر: من ٧٪ إلى ٣٤٪ من مجموع ما نشر. كما نلاحظ التراجع الوئيد فى كتب الإنسانيات والعلوم الاجتماعية.

وعادة ما يكشف فحص هذه الببليوجرافية عن غلبة واضحة لكتب التكنولوجيا والسياسة، كما يكشف عن أن الإهمال التقليدى للأدب قد إستمر وإن لم يترك الأدب كلية. والأدب الصينى الحديث يعتبر فى الواقع مرآة للتحول الإجتماعى فى الصين الجديدة وينتقد هذا النوع من الأدب خارج الصين بشدة حيث يفتقر إلى القيمة الفنية والحبكة الأدبية الحقيقية ولكن الصينيين يعتبرونه أدبا وفنا رفيعا يوصلونه إلى الجموع. ومن الطريف أن يتحول الفلاحون والعمال الذين كانوا أميين من فترة وجيزة إلى أدباء، شعراء وقصاصين وتنشر أعمالهم بدرجة عالية من الإهتمام. ومن الطبيعى أن يلتفت إلى أعمال قدامى اليساريين فيعاد نشر أعمالهم كما حدث مع لو هسًون (١٨٨١ - ١٩٣٦) الكاتب اليسارى الشهير قبل الثورة والذى أعيد نشر أعماله مرات ومرات فى العقود الأولى للثورة الشيوعية. هذا بينما لم يلتفت كثيراً إلى الكلاسيكيات الصينية. وكان يفضل دائماً الأعمال التى تعطى صورة شائهة للنظـام الرأسمالى والإقطاعى. وقد نشرت قلة من الأعمال الأدبية الراقية كما نشرت الروايات الصينية فى ثوب جذاب. وقد أعيد النظر فى بعض كتب التاريخ القديمة وتواريخ الأسر وأعيد تحريرها ونشرها. كذلك صدر عدد من الدراسات الحديثة عن الأدب الصينى القديم وقد جاء كثر من هذه الدراسات على مستوى علمى راقٍ وإن كان يلتزم بالخط الشيوعى العام.

وتمثل القواميس خروجاً على الخط العام السابق فقد أعيد نشر الكثير من قواميس ما قبل ١٩٤٩، إلى جانب عدد من القواميس الجديدة تماماً والمنقحرة

بحروف رومانية أو التى تتبع نظام الحروف المبسطة وظهر بعضها فى طبعات جيب شعبية. كذلك نشر عدد من قواميس اللغات الأجنبية من بينها قواميس مصطلحات علمية وتكنولوجية.

وظهر نوع من الكتب بين المطبوعات الصينية الجديدة ظهوراً واضحاً هو «الكتاب المصور» يشبه إلى حد كبير الكتاب الكوميدى الغربى. هذه الكتب تشتمل على مساحة كبيرة من الصور المأخوذة غالبا عن كتل خشبية، وعلى مساحة محدودة جدا من نص قصصى غالبا. بعض هذه الكتب إستمد قصصه من الكتب الكلاسيكية مثل قصة (كل الرجال إخوة) ولكن أكثرها يدور حول الصراعات اليابانية الكورية الفيتنامية. وتهدف هذه الكتب إلى نشر التعلم والأفكار السياسية بين المارقين حديثا من الأمية، ومع حلول سنة ١٩٥٩ كان هناك من تلك الكتب نحوعشرين ألف عنوان فى ٦٠٠ مليون نسخة؛ وإستمر هذا النوع من الكتب فى الزيادة. ولقد إستفادت الأقليات الخمسون الموجودة فى الصين منذ ١٩٤٩، إستفادة نشرية على الأقل، حيث وضعت إحتياجاتهم فى الحسبان عند النشر الموجه. ففى سنة ١٩٥٣ أنشئت «دار النشر القومية» لتناول نشر القضايا الخاصة بالأقليات وبلغاتهم ومن الطريف أنه فى بعض الأحيان كان يتم إختراع أشكال لكتابة تلك اللغات؛ وحتى سنة ١٩٦٣ كانت دار النشر القومية قد نشرت نحو ثلاثة آلاف عنوان فى مليونين ونصف المليون من النسخ بلغات تلك الأقليات.

وهناك نوعان آخران من الكتب يحسن أن نتوقف أمامهما برهة. **الكتب الأجنبية والمترجمات**. إذ تم نشر عدد كبير من الكتب الأجنبية - التى تتناول التاريخ، والسياسة والعلم على وجه الخصوص - وذلك باللغة الصينية. كما قامت مطبعة اللغات الأجنبية فى الصين بنشر كميات كبيرة من الأعمال الصينية بأكثر من عشرة لغات أجنبية. وحتى سنة ١٩٥٧ كان هناك أكثر من ٤٠٠ عنوان بأكثر من خمسة ملايين نسخة من هذه الكتب وتم توزيعها فى أكثر من

سبعين دولة. ويتصدر الترجمات بطبيعة الحال أعمالُ الزعيم ماو تسى تونج، إلى جانب بعض كلاسيكيات قليلة ظهرت فى لغات أجنبية.

فى إصدارة يناير ١٩٧٥ من دورية «أخبار النشر» التى تصدرها الشركة المتحدة للنشر فى هونج كونج تحت إشراف مركز الصين للنشر [وهى وكالة مركزية مقرها بكين مسئولة عن توزيع الكتب الصينية فى الخارج]؛ فى تلك الإصدارة؛ تقرر الشركة أن ٨٤٠٠ كتابا صينيا فى ٢,١ مليار نسخة نشرت فى الصين من يناير إلى سبتمبر ١٩٧٤. وكانت هذه هى المرة الأولى التى تنشر فيها أرقام رسمية. وطبقا لذلك التقرير الموجز تضم الكتب المنشورة أعمالاً عن الماركسية واللينينية وفلسفة ماو تسى تونج وفكره، وأعمالا متنوعة فى الزراعة، العلوم، التكنولوجيا، الطب، التاريخ؛ السياسة؛ الاقتصاد؛ الشئون الدولية؛ الفلسفة؛ العلوم الاجتماعية؛ الفنون؛ الآداب؛ كتب الأطفال، انتقاد الكونفوشية والبوذية؛ تاريخ الصراع بين رجال القانون ورجال الكونفوشية، ويركز التقريرعلى أن كثيرا من الكتب المنشورة فى تلك الفترة كتبها عمال وفلاحون وجنود. وكانت دور النشر الرئيسية هى مطابع الشعب فى بكين، مطابع أدب الشعب فى بكين أيضاً، ومطابع الشعب فى شنغهاى.

الكتاب الصينى فى تايوان

تايوان جزء من الصين ولكن عندما قامت الثورة الشيوعية سنة ١٩٤٩ فر صن يات سون إلى تلك الجزيرة الكبيرة وإستقل بها عن الصين الأم وكانت تعرف آنذاك باسم جزيرة فورموزا وتغير إسمها إلى تايوان بعد فترة ولكن كما عادت هونج كونج سوف تعود تايوان إلى حضن الصين الأم ولهذا السبب فإنها عادة تعالج كجزء من الصين ولو أن النظام الاجتماعى مختلف عما فى الصين الأم.

ونظراً للتطورات الإقتصادية والإجتماعية والتعليمية فى تايوان تطورت صناعة النشر فى الجزيرة تطوراً سريعاً فى العقود الأولى بعد الثورة الشيوعية فى الصين الأم، حيث إرتفعت صادرات الكتب من تايوان إلى الدول الأجنبية من أقل من

نصف مليون نسخة إلى نحو ستة ملايين ونصف المليون من النسخ بين سنتى ٦٣/ ٦٤ و٧٣/ ٧٤. وفى يونية ١٩٧٥ كان فى تايوان نحو ١٢٦٠ دار نشر مسجلة فى مكتب المعلومات الحكومى وهو تابع للحكومة المركزية وهو مسئول عن العلاقات العامة ووسائل الإعلام بما فى ذلك صناعة النشر.

وكانت أهم دور النشر فى تايوان شركة تشنج تشونج للكتاب؛ المطبعة التجارية؛ شركة تشونج هوا للكتاب، مخزن كتب الشباب؛ مصلحة الصين الثقافية؛ شركة صان مِنْ للكتاب؛ شركة الكتاب الدولى؛ المطبعة الأدبية. وفى مجال الكتب الدراسية كان من بين الدور الكبرى: شركة كتاب تايوان؛ شركة فو هسنج للكتاب؛ شركة كتاب الطالب؛ شركة كتاب الشرق الأقصى، التى تخصصت فى نشر كتب الأطفال المدرسية.

وازدهرت كذلك فى تايوان صناعة نشر الدوريات ففى الثلاثين من يونية ١٩٧٥ كان هناك ١٣٧٥ دورية جارية فى تايوان. وتعتبر ريدرز دايجست الصينية من أوسع الدوريات إنتشاراً هناك بعدد من النسخ يدور حول ١٣٠,٠٠٠ نسخة فى ذلك الوقت من العدد الواحد؛ يأتى بعدها مجلة «التاج»، ومجلة «التجارة العالمية» ثم «عالم التجارة» ثم «العالم الاقتصادى» وكذلك حظيت مجلات المرأة بنصيب وافر مثل «مجلة المرأة» و«عالم المرأة» و«المرأة الجديدة». ومجلات المرأة جميعها شهرية وتدور نسخها حول ٤٠,٠٠٠ نسخة من العدد الواحد.

وفيما يتعلق بالإنتاج السنوى الكلى من العناوين لا نصادف رقما دقيقاً. وإن كان رقم ٤٠٠٠ عنوان هو المتوسط العام فى منتصف السبعينات وربما كان سبب إضطراب الأرقام هو عدم إلتزام الناشرين هناك بالمادة الثانية والعشرين من قانون المطبوعات الذى يطلب إيداع نسخة من كل مطبوع فى إدارة المطبوعات بالدولة ونسخة فى المكتبة الوطنية المركزية. ويبدو أن كثيرا من المطبوعات لم يتم إيداعها. ولعل أهم مصدر عن معلومات النشر فى تايوان هو «الببليوجرافية الوطنية الصينية» التى تتوفر على تجميعها ونشرها، المكتبة الوطنية المركزية

والتى لا تدرج سوى الكتب التى تم إيداعها بها؛ ومن ثم تسقط الكتب التى لا تودع من الإحصاء.

ولتلافى هذا القصور جرى إصدار ببليوجرافية تجارية. وقد قام مكتب المعلومات الحكومى بإصدار أول طبعة منها تحت عنوان «الفهرس العام للكتب المنشورة فى جمهورية الصين» سنة ١٩٧٤؛ مع إقتراح ملحق سنوى له. ومن الواضح أنه كان عبارة عن تجميع لقوائم مطبوعات الناشرين. وقد ضمت تلك الإصدارة نحو ثلاثين ألف عنوان بما فى ذلك الكتب والنشرات والدوريات والمواد السمعية البصرية موزعة على أربعة أقسام كبيرة هى: الببليوجرافية الصينية؛ كتب الأطفال؛ الكتب الغربية؛ الملحق. والمدخل الأساسى بطبيعة الحال هو الناشر حيث تسجل مطبوعات كل ناشر تحت إسمه حسب عدد الشرط فى إسمه الصينى. والجزء الخاص بالببليوجرافية الصينية مصنف حسب تسع رتب و٩٩ فرعاً تحتها. والبيانات الببليوجرافية تحت كل عمل تشمل إسم الكتاب، وإسم المؤلف والثمن والناشر. والملحق تضاف فيه أدلة بالناشرين وعناوينهم.

من بين الثلاثين ألف مدخل المسجلة فى ذلك الفهرس العام هناك تسعة آلاف كتاب بالصينية واللغات الغربية؛ معظمها عبارة عن كتب مرجعية وكتب دراسية وإعادة طبع للكتب نادرة وأوائل المطبوعات. وتوزيع الكتب فى الببليوجرافية الصينية تم تعسفيا حسب عدد الكتب تنازليا. والرتب التسع التى صنفت تحتها الكتب هى:

١ - التاريخ والجغرافيا.
٢ - العلوم الإجتماعية.
٣ - العلوم التطبيقية.
٤ - المعارف العامة.
٥ - اللغة والأدب.
٦ - العلوم الطبيعية.

٧ - الفنون.

٨ - الفلسفة.

٩ - الديانات.

وقد رتبت الكتب فى قسم (الكتب الغربية) بنفس الطريقة أيضا على تسعة رتب وكانت الكتب الأجنبية فى تلك الإصدارة قليلة نسبياً وعددها على الرتب تنازليا جاء على النحو الآتى:

أ - العلوم الطبيعية	٢١٨ كتاباً.
ب - العلوم التطبيقية	١٧٣ كتاباً.
ج - العلوم الإجتماعية	٩٧ كتاباً.
د - اللغة والأدب	٨٥ كتاباً.
هـ - التاريخ والجغرافيا	٢٥ كتاباً.
و - المعارف العامة	٢١ كتاباً.
ز - الفنون	١٧ كتاباً.
ح - الفلسفة	١٥ كتاباً.
ط - الدين	كتاب واحد
المجموع	٦٦٢ كتاباً

ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد أن تايوان لم تصدق على الإتفاقية الدولية لحق المؤلف، ولذلك منع إستيراد الكتب الأجنبية والتسجيلات الموسيقية المعاد نشرها فى تايوان بدون ترخيص. وبالتالى لم يسجل فى هذا القسم من الفهرس العام الأعمال المعاد نشرها؛ بينما الأعمال الصينية المعادة مسجلة بالتفصيل فى القسم الصينى.

أهم المصادر

١ - شعبان خليفة. الكتاب الدولي: دراسة مقارنة في النشر الحديث .- القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٢.

٢ - Barnett, A. Doak. Uncertain passage: China's transition to the Post - Mao Etra .- Washington, D.C. Brookings Institute Press, 1974.

٣ - Clubb, O.Edmund. Twentieth Century China .- Newyork: Columbia University Press, 1972.

٤ - DeCrepingy, Rafe R. China: This Century .- Newyork: St. Martin's Press, 1975.

٥ - Ho, Ping-ti. The Cradle of the East: An Inquiry into the indigenous origins of techniques and ideas of Neolithic and Early Historic China: 5000 - 1000 B.C. Chicago: University Press, 1976.

٦ - The General Survey of the China Society for Library Science.- Beijing: Bibliography and Document Publishing House, 1996.

٧ - HSU, Immanuel C.Y. The rise of Modern China .- 2nd ed.- New-York: Oxford University Press, 1975.

٨ - Hucker, Charles O. China's Imperial Past: An Introduction to Chinese History and Culture.- Stanford : Stanford University Press, 1975.

٩ - Libraries in China: Papers presented on the occasion of the tenth anniversary of the Library Association of China .- Peking, 1935.

١٠ - Nunn, G. Raymond. Publishing in Mainland China .- Cambridge (Mass): MIT Press, 1966.

١١ - Taam, Cheuk - woon. the Development of Chinese Libraries under the Ch'ing Dynasty, 1644 -1911 .- Shanghai: Commercial Press, 1935.

١٢ - The Vigorous advancement of libraries in China .- Beijing: Bibliograply and Document Publishing House, 1996.

الكراس الثامن عشر

الكتب والمكتبات في كوريا

تتعرض هذه الدراسة للإنتاج الفكرى الكورى بمعناه الواسع عبر التاريخ، أى ما أبدعه المؤلف الكورى باللغة الكورية (أو الصينية) على امتداد تاريخ كوريا حتى النصف الأول من القرن العشرين قبل التمزق الكورى وباعتبار أن دراسة النصف الثانى من القرن العشرين تقع أساساً فى نطاق دراسة الواقع أو دراسة المناطق ولها مدخل مستقل. وتتضمن دراسة الإنتاج الفكرى الكورى تحليل حركة نشر الكتب وتطورها، تطور اللغة الكورية، تطور الطباعة فى كوريا، العلامات المضيئة على مسار التاريخ الفكرى الكورى، الضبط الببليوجرافى والببليوجرافيات الكورية، المكتبات ونظم المعلومات الكورية حتى النقطة المحددة، مشاكل حقوق التأليف والرقابة.

ولتيسير تناول الموضوع عبر التاريخ فإننا نقسم المعالجة إلى الأطوار التاريخية الكورية المعروفة. حيث ينقسم ذلك التاريخ إلى خمسة أطوار هى: كوريا القديمة - فترة الممالك الثلاثة و سيللا الموحدة - فترة كوريو - فترة كوريا ييجو - كوريا الحديثة.

فترة كوريا القديمة تغطى القرون منذ أقدم العصور حتى القرن الأول قبل الميلاد وتنتهى بظهور الممالك الثلاثة؛ سيللا الموحدة فى سنة ٥٧ ق.م، كوجوريو سنة ٣٧ ق.م. ، بايكش فى سنة ١٨ق.م؛ والتى استمرت هكذا حتى التوحيد.

وفترة الممالك الثلاثة وسيللا الموحدة تبدأ حين قامت سيللا بتوحيد بايكش سنة ٦٦٠م و كوجوريو سنة ٦٦٨م وأسست سيللا الموحدة التى إستمرت حتى ٩٣٥م. وكانت عاصمة الدولة الموحدة سيللا هى كيونج - جو فى جنوبى كوريا. إذن إمتدت الفترة الثانية من التاريخ الكورى نحو ثمانية قرون كاملة.

لقد برزت إمبراطورية كوريو سنة ٩١٨م وخلفت سيللا سنة ٩٣٥ وإمتد حكمها حتى سنة ١٣٩٢م، أى نحو أربعة قرون.ونصف. وقد إتخذت من سونجدو (كايسونج الآن) عاصمة لها.

أما كوريا ييجو فقد بدأت سنة ١٣٩٢م وانتهت بإلحاق كوريا باليابان سنة ١٩١٠م وكانت العاصمة سيول.

أما كوريا الحديثة فرغم أنها تبدأ مع الحرب العالمية الأولى إلا أن الإنفتاح على العالم - مع إنفتاح اليابان - فى ستينات القرن التاسع عشر تعتبر إرهاصات لكوريا الحديثة.

أصول اللغة الكورية وتطورها

تطورت اللغة الكورية منذ خمسة آلاف سنة حتى اليوم. ويتكلم هذه اللغة اليوم نحو سبعين مليون كورى وتعتبر اللغة الحادية عشرة من حيث عدد المتحدثين بها فى العالم. ولقد وقع جدل شديد حول إنتماء هذه اللغة حتى بين الكوريين أنفسهم. ولكن الجدل لم يحسم حتى اليوم سؤال إلى أية عائلة لغوية تنتمى اللغة الكورية. ويعتقد أن البنية الأصلية للغة الكورية قد شكلت فى الجزء الجنوبى من كوريا فى فترة مبكرة من التاريخ الكورى. ولكن بعد فترة تأثرت اللغة الكورية بلهجات تونجوسيك الشمالية. وبصفة عامة يسود الإعتقاد القوى بأن اللغة الكورية - طبقا لخصائصها - تنتمى إلى عائلة لغات : أورال - ألتاى وخاصة فرع تونجوسيك.

إن الخصائص العامة للغة أورال - ألتاى تكمن فى وجود ثلاث مجموعات من الحروف المتحركة: الجامدة، اللينة، المتوسطة. والحروف المتحركة الجامدة واللينة تنسجم مع بعضها فى النطق عندما تتركب معاً فقط، ولكن مع غيرها لا تنسجم. بينما الحروف المتحركة الوسط فإنها تتركب مع كليهما بسهولة سواء الجامدة أو اللينة. ومن هذا المنطلق فإن اللغة الكورية تشترك فى هذه الخصائص مع كل لغات عائلة ألتاى الأخرى. أما فيما يتعلق بالحروف الصامتة

فإن اللغة الكورية - شأنها شأن كل لغات عائلة ألتاى أيضا - تبدأ بحرف صامت واحد؛ وخلافا لما هو موجود فى لغات عائلة ألتاى الأخرى فإن اللغة الكورية لا يمكن أن تبدأ بحرف الراء أو الآى (إلا إذا كانت اللفظة دخيلة منقحرة). كما تفتقر اللغة الكورية إلى الأصوات اللاتينية ف، ڤ، زد، چ، والضاد العربية والشين بالنطق الروسى. وفيما يتعلق بالنحو الكورى فإنه يقف فى منطقة وسط بين نحو اللغة الصينية ونحو اللغات الهندور أوربية. فالكلمات الصينية الدالة على الأفكار مثبتة لاتصرًّف بينما الكلمات الهندو - أوربية يجرى تصريفها ولكنها ليست مثبتة ثبات الأرقام والحال. وكذلك الأسماء الكورية الدالة على الأفكار مثبتة. والكلمات المثبتة يلحق بها أدوات تؤدى الوظائف النحوية والصرفية. والأفعال فى اللغة الكورية والصفات غير مثبتة بل يمكن تصريفها.

لقد إستمرت عملية تشكُّل اللغة الكورية وبنائها ربما من زمن البداوة الكورية حتى نهاية فترة سيلَّلا أول مملكة متحدة فى كوريا. وفى خلال فترة كوريو تأثرت اللغة الكورية تأثراً مباشراً بلهجات أهل الشمال الكورى (تونجوسيك). وإعتباراً من القرن الخامس عشر قام دعاة الكونفوشيةودارسوها بدراسة وإعتناق اللغة الصينية القديمة فى القراءة والكتابة وفى نفس الوقت أحلَّوا كثيراً من الكلمات الصينية محل الكلمات الكورية ولذلك دخلت كلمات صينية كثيرة جداً فى اللغة الكورية الراقية، بينما حافظت اللغة الكورية الخالصة على نفسها بين العامة والنساء فى كتاباتهم وأحاديثهم. ومع إنحسار التأثير الصينى فى نهاية القرن التاسع عشر (١٨٩٤) وإنفتاح كوريا على النظام التعليمى الأجنبى بدأت اللغة الكورية تتوحد كلغة وطنية.

الكتابة الكورية وتطورها

من اللافت للنظر أن كوريا التى إحتكت إحتكاكا مباشراً بنظم أجنبية كثيرة للكتابة مثل الصينية؛ والكتابة السنسكريتية؛ والكتابة اليابانية والكتابة المنغولية، لم تطور لنفسها أبجدية خاصة بها مثل الآخرين. وربما كان من سوء الحظ أن

تجاور كوريا الصين التى وجدت فيها واحدة من أعظم حضارات العالم. وعندما نمعن النظر فى نظام الكتابة الكورية نشعر بأن الثقافة الصينية قد أثرت فيه تأثيراً كبيراً وعلى حد تعبير الكوريين أنفسهم عطلت ملكات الخلق والإبداع عند الكوريين وربطت المثقفين والعلماء الكوريين إليها ربطا شديداً؛ ليس فى الإتجاهات فقط بل فى الكتابة واللغة أيضا على نحو ما ألمحنا إليه سابقاً.

لقد دخلت الثقافة ونظام الكتابة الصينية إلى كوريا سنة ١٠٨م، عندما أسست الصين، تحت حكم أسرة هان، المستعمَرات الصينية فى شمالى كوريا. وطبقا للسجلات الكورية القديمة يقال بأنه فىَ فترة تاتج جون كانت اللغة الكورية تكتب بخط سرى طلسمى (سنسا) تجعل معانى الكلمات فضفاضة وغير مفهومة فى كثير من الأحيان مما أضطر الكوريون معه إلى ترجمة تلك السجلات بالكتابة الصينية التصويرية فى فترة كوجوريو. وهناك سجلات تكشف عن وجود الحروف الكورية سنة ٣٧ق.م. وطالما أنه لا يوجد دليل أو قرينة حتى الآن فلا يمكن القول بوجود نظام كورى للكتابة قبل دخول الكتابة الصينية إلى كوريا كما أشرنا فى مطلع القرن الثانى الميلادى. ومن خلال إستقرائنا لتطور نظام الكتابة الكورية نشعر بأن الدخول المبكر للكتابة الصينية إلى كوريا كان عائقاً حقيقياً أمام تطوير نظام كورى خالص ووطنى للكتابة. ذلك أنه بسبب وجود نظام الكتابة التصويرية الصينية الجاهز فلم يكن لدى الكوريين حافز لتطوير نظام خاص بهم بل على العكس من ذلك ناضلوا من أجل إستخدام النظام الصينى التصويرى لتسجيل كتاباتهم الصوتية. وفى سنة ٦٩٢م قام الباحث الكورى فى الصينيات، سول شونج بتطوير نظام لتسجيل الأصوات اللغوية الكورية بواسطة الكتابة التصويرية الصينية على غرار الطريقة اليابانية (مانيو كانا) وقد عرفت طريقة سول شونج بالإسم الكورى (ايدو). لقد كان على الكوريين أن يبذلوا جهوداً غير عادية وعبر فترة طويلة من الزمن لكرينة الثقافة الصينية. وحيث أن الكتابة الصينية والكتابات الصينية كان لها الغلبة والتفوق فقد بقى نظام (ايدو) محدود الاستخدام بين عامة الناس. ولم

ينتشر هذا النظام وإنحصرت وظيفته فى تسهيل قراءة الكتابة الصينية وإعتبر مفاتيح لها. وساعد الطلاب فى فهم اللغة الصينية التى كتب بها المفكرون الكوريون. ولقد إستمر النظامان فى الكتابة حتى نهاية القرن التاسع عشر. ولكن للأسف لم يتطور أيهما أو مزيج منهما ليصبح خطاً كوريا وطنيا محضاً كما حدث بالنسبة لليابان فى خطها المعروف بإسم (كانا).

وبينما كان ذلك كذلك تطور نظام آخر للكتابة العلمية عرف بإسم (هانجول) وهو نظام فريد فى نوعه، تم إبتكاره على يد مجموعة من الباحثين الكوريين تحت إشراف الملك (سيجونج) (١٤١٨ - ١٤٨٥م) والذى كان حاكما كونفوشيا عظيما. والذى قاد أول ثورة ثقافية فى تاريخ الفكر الكونفوشى. وقد كان معارضا لنظام الكتابة الصينى حيث أدرك أنه صعب جدا فى تعليم عامة الناس. ولقد أراد أن يوصل تعاليم كونفوشيوس للمجتمع الكورى وأيضا تعاليم بوذا من خلال أداة إتصال ثورية غير معقدة. ولذلك أشرف على وضع أبجدية (هانجول) وهو إختراع علمى دقيق لا يحدث إلا مرة واحدة فى التاريخ الإنسانى. وهذه الأبجدية تألفت أساساً من ٢٨ حرفاً (١٧ منها صوامت، ١١ صوائت). ولكنها تطورت منذ ذلك التاريخ فأصبحت الآن ٢٤ حرفاً فقط (١٤ صوامت، ١٠ صوائت).

بيد أنه مما يؤسف له أن تقدم إستخدام هانجول فى الكتابة قد إعترضته عوائق كثيرة من بينها أن هذا الإختراع لم يلق تأييداً وتقديرا من جانب المثقفين الكوريين الذى كانوا منغمسين حتى آذاتهم فى الثقافة الصينية ذات اليد العليا ومتأثرين فى ذلك بعقدة النقص. وللأسف جاء الإعتراض الأكبر من جانب الباحثين والدعاة الكونفوشيين الذى إعتقدوا أن الكتابة الصينية هى كتابة مقدسة وأن إختراع أبجدية هانجول قد يقود العامة إلى البربرية. ومن بين العوائق، أن خجلت الطبقات العليا ومن بينها طبقة الحكام من إستخدام أبجدية هانجول ومن ثم فقد إنحصر إستخدامها بين النساء والطبقات الدنيا. ومن العوائق كذلك أنه منذ البداية حصرت عملية نطق الكلمات الكورية وكتابتها

لتلائم المربع الصينى التقليدى للكتابة. ومن العوائق أيضاً أن أبجدية هانجول لم تبق نقية تماماً بل إمتزجت مع مرور الوقت بالحروف الصينية. ومن معوقات إستخدامها أنها كانت تكتب راسية وليست أفقية. وأخيرا جاءت صعوبة تطويع هذه الأبجدية أو عدم وجود محاولات جادة لتطويعها مع الآلات الكاتبة والحاسبات الآلية مما أبقى عليها خطية أساساً. وتبقى عملية إختراع هذه الكتابة سنة ١٤٤٣م علامة بارزة فى تاريخ الفكر الكورى وإن لم يكتب لها الإنتشار والتطور كخط وطنى كورى.

تاريخ الكتب والطباعة فى كوريا

قبل ظهور الكتاب بمعناه التقليدى فى كوريا، ظهرت هناك - كما فى معظم الدول - بعض النقوش على الحجارة والصخور. لقد بنى أول **نصب تذكارى للكلمات المقدسة** (سنسا بى) سنة ١٨٥م وما زال قائماً حتى اليوم فى شمالى كوريا (كوريا الشمالية بعد التقسيم) وقد كتبت المعلومات بالحروف الصينية وهى عبارة عن رسالة تذكارية موجهة لآلهة الجبل. أما أضخم حجر تذكارى والمسمى **بحجر الملك كوانجايتو التذكارى** (٣٧٤ - ٤١٢م) فقد أقيم فى منشوريا سنة ٤١٤م فى الذكرى التاسعة عشرة لملك كوجوريو الذى حارب القوات اليابانية وانتهى بتوحيد ممالك كوجوريو وسيلّلا وكايا الكورية. وثمة وثيقة أخرى حجرية قديمة وهو نصب القَسَمْ (إيمسن سوجيسوك) **والذى يعتقد أنه** قد تم بناؤه بين ٦١٢ و٥٥١ق.م. ويشتمل هذا النصب على ٧٢ كلمة (شكلا) صينية فى خمسة سطور تصف كيف أن البطلين رهنا حياتهما أمام السماء من أجل أن يعم السلام أرض الوطن. وكانت هناك أيضا عدة نقوش هامة فى عهد الممالك الثلاثة.

وبعد الإنتقال إلى مرحلة الكتاب المكتوب على مواد منقولة كان الطبيعى أن يكون الكتاب مخطوطاً شأنه فى ذلك شأن الوثائق. كانت الكتابة تتم بالفرشاة والحبر الهندى قبل إختراع الطباعة. ولقد شاعت كتابة الكتب خلال فترة

الممالك الثلاثة وكانت فى معظمها كتب كونفوشية وبوذية، بيد أنه للأسف لم يصلنا منها سوى كتاب واحد يرجع إلى تلك الفترة. لقد وصلنا من فترة سيلّلا جزء من سجل المواليد فى ظل تلك الأسرة وربما كان الكتاب الوحيد الذى وصلنا عن تلك الفترة. ووصلنا كتاب آخر جامع للأعمال الأدبية الشخصية للكاتب الكورى (وون شون - سوك: أو أنجوك) الذى عاش فى نهاية أسرة كوريو. وهناك مخطوطات أخرى كثيرة وصلت إلينا ولكنها متأخرة كتبت جميعا فى عهد أسرة (يى).

النشر والطباعة فى كوريا

قبل إختراع الورق كان من الطبيعى أن يستخدم الكوريون مواد بيئية فى الكتابة فاستخدموا قطع الخشب وألواح الخشب وعيدان الغاب ولحاء الشجر. وكانت بعض الكتب المسجلة على تلك المواد ثقيلة الوزن جافية الحجم بحيث تحتاج إلى بضعة عربات لحملها. ورغم أن الحرير كان يستخدم كمادة للكتابة إلا أن أسعاره كانت عالية للغاية لهذا الغرض. وكان إختراع الورق فى الصين سنة ١٠٥م حلاً لكثير من مشاكل الكتابة وتدوين المعلومات فى المنطقة بأسرها. وصناعة الورق من لحاء الشجر والقنب الهندى والخرق البالية وشباك الصيد، بقيت حبيسة فى الصين فترة طويلة لم تخرج إلى جاراتها إلا بعد عدة قرون ومن ثم لم تعرف كوريا الورق الصينى إلا فى القرن السابع. وبالتالى ساعد فى نهاية أسرة سيلّلا وبعد دخول الطباعة والحاجة إلى كتب الكونفوشية والبوذية، على زيادة عدد الكتب المطروحة وكان إنتاج الورق وإستهلاكة فى ذلك الوقت خارج حدود التصور.

لقد حدث فى فترة كوريو تطور فى إختراع الطباعة يعدل ويوازى إختراع الورق فى الصين ويواكب إنتاج الورق الكورى (الورق الكورى كان الصينيون يطلقون عليه الورق الشرقى). وكان هناك طلب كبير على الورق الكورى فى الصين بسبب المواد الخام طويلة التيلة التى يصنع منها حيث تتوافر أشجار التاك

هناك وحيث شجعت الحكومة الكورية المواطنين على زراعة هذه الأشجار لصناعة الورق. وفى سنة ١٤١٥م قامت حكومة ييجو برئاسة الملك تايجونج بإنشاء مصنع ضخم للورق كان عدد الفنيين فيه فيما تذكر المصادر الكورية يصل إلى ٨١ فنيًا. وكان على الحكومات المحلية أن تزرع أشجار التاك بكثرة لتقديمها للحكومة المركزية لسد حاجة هذا المصنع.

ولقد تعددت أسماء الورق الكورى تعدداً كبيراً تبعا لعدة متغيرات منها المواد الخام المستخدمة، الحجم؛ اللون؛ العلامة المائية وأيضا إستخدامات الناس له:ـ

أ - طبقا للمادة الخام المستخدمة: ورق العشب؛ ورق الأرز؛ ورق التاك؛ ورق الأناناس.

ب - طبقا للحجم: ورق كبير؛ ورق كبير جدا؛ ورق صغير؛ ورق صغير جدا، ورق الثلاث طبقات؛ ورق الطبقتين؛ ورق الطبقة الخفيفة.

ج - طبقا للون : ورق البودرة؛ ورق بياض القطن؛ الورق الأبيض؛ الورق الأصفر؛ الورق الأزرق؛ الورق الأحمر؛ الورق الأخضر؛ الورق الفضى، ورق الشمع؛ الورق الذهبى.

د - طبقا للعلامة المائية: ورق علامة العشب؛ ورق العلامة الأخضر الغامق (المزرّق) ورق كيكادا (زير الحصاد)؛ ورق اللفافة.

هـ - طبقا لاستخدام الناس: ورق نصف مطوى؛ ورق الظروف؛ ورق الأرضية، ورق الحائط.

ومع ذلك فإنه نتيجة للسيطرة الصارمة على صناعة الورق وسوء معاملة الفنيين من جانب الحكومة المركزية فى كوريا إنحط إنتاج الورق نوعاً وكما فى عهد أسرة (يى) ثم تحللت هذه الصناعة بالتدريج.

ومن المعروف أن الطباعة بكتل الخشب هى إختراع صينى إنتشر فى ظل سنوات حكم الحاكم الصينى هسوان تسونج (٧١٢ - ٧٥٦) من أسرة تانج. إلا

أن السلطات الكورية تزعم بأن أقدم طبع بكتل الخشب (زيلوغرافيا) كان فى كوريا بين ٧٠٤ و٧٥١م. وقد بنى هذا الإدعاء بعد إكتشاف (سوترا داراني) وهى تعاليم دينية مطبوعة محفوظة الآن فى معبد تبَلْجوك فى كيونجو. وفى خلال فترة كوريو بعدما أصبحت البوذية العقيدة الوطنية، وكذلك كان يتم تشجيع دعاة الكونفوشية، زادت الحاجة إلى الكتب التى تبسط وتشرح كتب هاتين العقيدتين مما أدى إلى السعى وراء تجميع ونشر الكثير من الكتب والنصوص البوذية والكونفوشية والكتب التى تدور حولهما. وإلى جانب الكتب والنصوص فى هذا المجال شجعت الطباعة على نشر كتب فى الأدب والتاريخ للباحثين والمفكرين خارج نطاق الدين.

وكان لاستيراد تريبيتاكا من الصين أثر كبير فى توسع الطباعة بالكتل الخشبية وتطويرها فى كوريا كما كان لغزو منطقة خيتان سنة ١٠١١م أثر آخر فى مملكة كوريا لتطوير تلك الطباعة. ذلك أنه لحماية الوطن بقوة التعاليم البوذية إعتباراً من سنة ١٠٢١ ولمدة ستين عاماً نشرت الحكومة ستة آلاف مجلد من التعاليم الأصلية لبوذا (تريبيتاكا). كما قام البطريرك البوذى الشهير (ويشوؤن) بإعداد كتل خشبية لنحو ١٠١٠ أجزاء فى ٤٧٤٠ مجلداً كملحق للتعاليم الأصلية (تريبيتاكا) فى خلال سبع سنوات فقط وحيث أتمها سنة ١٠٩٦م. وللأسف تحولت هذه الكتل جميعا إلى رماد خلال الغزو المنغولى سنة ١٢٣١م. وبدأت حكومة كوريو فى منفاها فى جزيرة كانجهوا سنة ١٢٣٦ فى حفر الكتل الخشبية مرة ثانية وإستغرق العمل عشر سنوات لإنجاز كتل لعدد من المجلدات وصل إلى ٦٨٠٥ مجلدات. ويحفظ لنا معبد هايين فى مقاطعة كايونجبوك ٨١,٦٥٨ كتلة خشبية تمثل أكبر مجموعة كتل خشبية فى العالم.

وقد يكون من المفيد أن نتوقف أمام المواد والعمليات المستخدمة لإنتاج الكتل الخشبية. وفيما يتعلق بالمواد فقد إستخدم الصينيون خشب الكمثرى الأحمر، بينما إستخدم اليابانيون والكوريون خشب شجر البتولا، وإن لم يقتصر الكوريون على خشب البتولا بل إستخدموا كذلك الأخشاب الصينية. وبعد

تقطيع الخشب بالمقاسات المطلوبة كان الخشب يغلى فى ماء مالح وبعد تجفيفه تبدأ عملية حفر الحروف عليه بالطريقة البارزة. ولو أن الحفر تم دون جفاف الخشب تماماً فإن الحروف يمكن أن تتكسر أثناء الحفر وربما تنكمش المسافات بين الحروف وتصبح السطور غير متوازنة وغير متساوية. لقد تم تعلم هذه المبادئ الأساسية من التجربة مع كتاب (الكنوز الوطنية لكوريا).

ولما كان إعداد الكتل الخشبية عملاً يستهلك وقتا وجهداً كبيرين وطاقة إنسانية لاحد لها، لطباعة عدد محدود من النسخ وأكثر من هذا لكتاب واحد. كان عدد النسخ أحيانا ينزل إلى عشرين أو ثلاثين نسخة ولا يربو فى معظم الأحيان عن بضعة مئات قليلة، وغالبا قد لا يعاد طبع الكتاب. وللتغلب على هذه المشكلة كان لابد من إختراع نوع من الحروف المتفرقة أو المتحركة، إلا أن الحاجة الفعلية آنذاك لم تكن قائمة وكافية؛ وهى الظروف التى توافرت فى كوريا فى القرن الثالث عشر، ذلك أن فيض الكتب الواردة من الصين فى عهد اسرة سونج إلى كوريو فى القرن الثانى عشر نبه الأذهان إلى وجود سوق لدى الشعب إلى الكتب وكانت رغبة الحكومة فى جمع الكتب وإنشاء المكتبات قد بلغت الذورة فى القرن الثانى عشر. ومن جهة ثانية كان من نتيجة تصدير الكتب بهذه الكثافة من الصين إلى كوريا أن طالب بعض موظفى الحكومة الصينية بوقف هذا التصدير لأسباب أمنية قومية صينية وأيضا لوقف إستنزاف الثروة الفكرية الصينية. وعلى الجانب الكورى كانت الطباعة فى كوريا قد أصبحت إستثماراً قومياً نتيجة إعادة الطبع المتكررة سريعاً لكتاب تريبيتاكا وبنسخ كثيرة. ومن جهة رابعة كان فن الطباعة قد تطور كثيرا عما قبل وبلغت التكنولوجيا ذروة عالية. من جهة خامسة كان الإتصال البرى بين صين اسرة سونج وكوريا قد توقف تماماً بواسطة قوات تشن التى إحتلت الجزء الشمالى من الصين بين سنتى ١١٢٥ - ١٢٣٤. والعامل السادس الدافع إلى ضرورة التحول: قامت حكومة كوريو فى مطلع القرن الثانى عشر بنشاطات طباعية مكثفة بإنشاء مكتب حكومى ضخم للطباعة فى الأكاديمية الوطنية وبعدها

أصبحت كوريا تصدر الكتب إلى صين أسرة سونج ولياو. وسابع العوامل الدافعة للتحول إلى الحروف المتحركة جاء من النقص الحاد فى الخشب الصلب اللازم لإعداد الكتل الخشبية، وربما كان له نصيب كبير فى إختراع الحروف المتفرقة من المعدن. وباختصار شديد: كانت الحاجة إلى مزيد من الكتب؛ وتوقف إستيراد الكتب من الصين؛ وتقدم تكنولوجيا طباعة الكتب وشح الخشب اللازم لإعداد الكتل، كل هذه العوامل مجتمعة أدت إلى تطوير جذرى فى فن الطباعة الكورية.

وقبل إختراع الطباعة بالحروف المتحركة المعدنية جربت حكومة كوريو حروفا غير معدنية كانت أساساً قد طورت فى الصين باستخدام الخشب أو الطين المحروق والصلصال. ففى منتصف منتصف فترة أسرة كوريو تقريباً طبعت مجموعة قصائد صينية بحروف متحركة من خشب، إلا أن الطباعة بالحروف الخشبية لم تكن شائعة فى تلك الفترة لأنها لم تكن عملية. ولكنه فى سنة ١٢٣٤م تم طبع كتاب «القواعد المعتمدة للشعائر التفصيلية» من حروف مصبوبة صبا معدنيا وذلك فى جزيرة كانجهوا. وفى نفس الوقت تم طبع كتاب المؤلف صون (مذهب تشان البوذى) من حروف مصبوبة من معدن أيضاً. ولكن لم تصلنا نسخ من هذا الكتاب الثانى. ولكن وصلنا خبره من الطبعة التى طبعت له من كتل خشبية والتى أعيد حفرها من الصبة المعدنية سنة ١٢٣٩م.

ورغم زعم الباحثين الكوريين بأنهم وراء إختراع الحروف المتحركة المعدنية سنة ١٢٣٤م أى قبل يوحنا جوتنبرج بمائتى سنة، فإن محاولتهم الأولى فيما يبدو لم تنجح بحيث تعمم وتصبح إختراعاً لأنه طوال القرن والنصف التى تلت تلك المحاولات من ١٢٣٤ - ١٣٩٢، حين قام الملك كونجيانج بإنشاء المؤسسة التى عالجت قضية صب الحروف والطباعة المعدنية، لم تحدث أية محاولات لصب الحروف مرة أخرى. وفى الحقيقة أنه فى بداية أسرة ييجو فى سنة ١٣٩٥ تم طبع كتاب (شرح قانون منج الأكبر) عن طريق حروف متحركة خشبية وليس من صبة معدنية. ولكن بعد إنشاء مكتب صب الحروف ومكتب

صناعة الورق فى سنة ١٤٠٣م فقد تم صب عشرات الآلاف من الأبناط المعدنية وطباعة الكثير من الكتب بواسطتها؛ وكانت هذه هى أول محاولات ناجحة فى الطباعة بالحروف المعدنية المتحركة وقد سميت «أبناط كاييمى». وحتى فى ذلك الوقت كانت طرق الطباعة ماتزال بدائية. ولإعداد نص ما للطباعة كان يتم إختيار الأبناط المناسبة وتوضع فوق لوح من النحاس الأحمر وكان يصب عليها شمع أصفر مصهور لتثبيت الحروف. وبسبب أن صبة الشمع كانت لينة وكان من السهل تحرك سطور الأبناط فقد كان من الضرورى إعادة تثبيت الحروف والسطور، ولذلك كانت عملية الطباعة بطيئة ولم يكن بالإمكان طبع سوى عدد قليل من النسخ يومياً ولحل هذه المشكلة قام الملك سيجونج بنفسه بدراسة العملية وأعاد صب الحروف النحاسية وصمم أخاديد فى اللوح النحاس تستقر فيه السطور المصبوبة لكى يمكن الإمساك بها دون حراك. وبذلك تحسنت عملية الطباعة بالتدريج وأمكن طبع عشرين نسخة فى اليوم (١٤٢٠م). وتذكر المصادر الكورية أن أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ بنط كبير تم صبها سنة ١٤٣٤م.

لقد كان هناك أنواع عديدة من الأبناط، تصنع لمناسبات خاصة فى سنوات متفاوتة لمطبوعات ذات أهمية معينة وكانت تطلق عليها جميعا أسماء محددة لكل منها مثل البنط الذى أشرت إليه من قبل وهو «كاييمى» ١٤٠٣م. ولكن للأسف بعد هذا الازدهار النسبى تدهورت الطباعة بين ١٥٩٢ و١٥٩٨ خلال حرب كوريا مع اليابان. وقد تم الإستيلاء على الأبناط المعدنية المصبوبة، ونقلت إلى اليابان والصين لاستخدامها هناك. وبعد إنتهاء الحرب قامت حكومة ييجو مرة ثانية بإعادة صب أبناط جديدة سنة ١٦١٧ ولكن سرعان ما نشبت الحرب مرة أخرى مع المانشو فتدهورت الطباعة مرة أخرى. ومضت خمسون عاما من الإضطرابات قبل أن تقوم الحكومة بصب سلسلة من الأبناط المختلفة فى مناسبات خاصة على مراحل كل بضعة سنوات.

وكانت الحكومة تمارس نوعاً من الإحتكار على طباعة الحروف المعدنية المتحركة هذه، وبالتالى لم يحدث أى تطور لماكينات الطباعة وأجهزة صب

الحروف، كما لم يحدث تطوير يذكر فى فنيات وطرق الطبع نفسها. من جهة أخرى قام الدارسون الكونفوشيُّون والأسرات الراقية بطبع سجلاتهم ووثائقهم الخاصة باستخدام حروف متفرقة من السيراميك أو اليقطين.

وكما رأينا سبقت الطباعة الكورية بالحروف المعدنية المتحركة، الطباعة الأوربية بنحو قرنين من الزمان إلا أنها لم تتطور فى مدارج التقدم كما حدث فى أوربا. وهكذا رغم نشوء هذا النوع من الطباعة فى كوريا إلا أن التطوير والتحديث لفنيات الطباعة جاءت من اليابان. فقد أنشئ مكتب الطبع الحكومى سنة ١٨٨٣ بناء على اقتراح باك يونج - هيو وتوفر على إدارته أحد الفنيين اليابانيين، وقام المكتب بنشر الجريدة الرسمية بعنوان (أخبار سيول). وقد توقفت عن الصدور سنة ١٨٨٨م. وفى سنة ١٨٨٥ جاءت بعثة تبشيرية إلى كوريا وطبعت الكتاب المقدس بالخط الكورى واللاتينى (باللغة الإنجليزية). وفى سنة ١٨٩٥، أصدر أحد الأفراد دورية بعنوان (الجريدة المستقلة) باللغتين الكورية والإنجليزية. وفى سنة ١٨٨٨م قام أحد القساوسة الفرنسيين بنقل مكتب طبع الكتاب المقدس من اليابان إلى سيول وأدخل تكنولوجيا طباعية جديدة إلى كوريا كانت من نتيجتها صب ثلاثة أنواع من أبناط الحروف الكورية. ومنذ ذلك التاريخ قامت شركات طباعة متعددة بتطوير أبناط كورية مختلفة. لقد كانت آلات الطبع آنذاك تدار باليد، وتدار بالقدم وبعد فترة أصبحت تدار بالقوى البترولية.

وبعد سنة ١٩٤٥، إستفاد الكوريون من التسهيلات الطباعية اليابانية وجلبوا بعض أجهزة الطباعة من الولايات المتحدة. ولقد إستورد الكوريون من اليابان أحدث تكنولوجيا الطباعة فى الستينات. وبعد إنشطار كوريا إلى إثنين كان من الطبيعى أن تتقدم كوريا الجنوبية تقدما مذهلاً فى الطباعة كما هو الحال فى سائر المجالات؛ بينما تتخلف كوريا الشمالية تخلفا شديدا شأنها شأن جل الدول التى كانت شيوعية.

الملامح الخاصة للكتاب الكورى

يقصد بالملامح الخاصة هنا الخصائص المميزة للكتاب الكورى القديم مقارنة بأقرانه الصينية واليابانية على وجه خاص. وأول ما نلاحظه هو التشابه بين الكتاب الكورى والكتاب الصينى والياباني فى الشكل واللغة وأسلوب الكتابة بل وأيضا فى المحتويات. والكتب الكورية القديمة تكاد تتطابق مع الكتب الصينية بحيث يصبح التمييز بينهما صعبا للغاية. ولو أن مجموعات المكتبات الكورية صنفت تبعا للغات بصرف النظر عن المؤلفين والمحتويات فإن ٩٩٪ من الكتب الكورية القديمة التقليدية سوف تذهب إلى المجموعة الصينية، كما تذهب كل الكتب الإنجليزية عن كوريا لتوضع فى مجموعة اللغات الغربية؛ ويبقى ١٪ فقط من الكتب الكورية المكتوبة بخط هانجول أو بخط مختلط من الكورى والصينى يمكن إعتبارها كتبا كورية.

وفيما يتعلق بشكل الكتاب الكورى مقارنا بشكل الكتاب الصينى فإنه يقع فى أربعة أشكال مختلفة: **التجليد مزدوج الورقة** بغلاف مؤلف من قطعتين؛ **تجليد الفراشة** فردى أو زوجى الورقة بغلاف من قطعة واحدة؛ **تجليد الأكورديون**؛ **التجليد الرأسى**. ومن هنا نجد أيضا تطابقاً شديداً بين الكتاب الكورى والكتاب الصينى. ولا يوجد بينهما سوى إختلافات طفيفة فالغلاف الكورى أسمك كثيرا من الغلاف الصينى والياباني وتصميمه أكثر روعة منهما. وأغلفة الكتب الكورية مصنوعة بعناية وطبقاتها عديدة من الورق الكورى مثل ورق الكرتون وغالبا ما تزخرف بزخارف نباتية ووردية وتحمى بطبقة من الشمع.

ورغم أن التجليد بخيط الدوبارة كان واحداً فى الكتب الكورية والصينية واليابانية، إلا أن الكتب الصينية واليابانية كانت عادة ما تخاط بغرزتين أو ثلاثة أو أربعة بينما الكتب الكورية كانت فى الأعم الأغلب تخاط بخمس غرز. ومن هنا كانت الجلود الكورية أخف وأمتن.

وثمة إختلاف بين الكتب الصينية والكورية يكمن فى الفواصل التى يتم طى الفرخ بناء عليها ليكون الفرخ ورقتين (فرخ زوجى) تتألف كل ورقة من وجه وظهر. وتعمد الكتب الصينية إلى كتابة العنوان أو الديباجة وعدد الصفحات على الفواصل، بينما الكتاب الكورى يعمد إلى طبع تصميمات معينة على تلك الفواصل يسمونها هناك بذيل آلسمكة. ومن هنا تعتبر تلك التصميمات والمسافات على الفواصل من الخصائص الهامة المميزة للكتاب الكورى وتفيد جدا فى تحديد تاريخ إنتاجه ونشره.

وهناك ملمح هام وخطير فى الكتاب الكورى لابد من الإلتفات إليه بأعلى قدر من الإهتمام وهو تاريخ النشر فى الكتب الكورية القديمة، ذلك أنه قد جرت العادة فيها على كتابة تاريخ النشر طبقا لسنوات حكم **الأباطرة الصينيين** (وليس الكوريين). ومع ذلك فإنه إعتباراً من سنة ١٦٣٧ عندما قام المانشو بالاستيلاء على صين أسرة منج، قبل الكوريون حكم المانشو واستخدموا سنوات حكم الأباطرة المانشو فى تسجيل تواريخ نشر الكتب وأيضا فى الوثائق الرسمية. وإعتباراً من سنة ١٨٩٧ نجد بعض المطبوعات تحمل تواريخ تبدأ من تاريخ تأسيس أسرة (يى) أى سنة ١٣٩٢م. وأخيرا خلال فترة الحكم اليابانى لكوريا (١٩١٠ - ١٩٤٥) أصبحت تواريخ نشر الكتب الكورية أكثر إزعاجاً ذلك أنهم فى محاولة لتجنب إستخدام التواريخ اليابانية، إستخدم التقويم السنوى الغربى مع النظام القديم أو الجديد الستينى بواسطة الكوريين المتعصبين لوطنهم، على الرغم من أن التأريخ بسنوات حكم الأباطرة اليابانيين كان مستخدما فى الأوراق الرسمية.

البحث العلمى فى كوريا

من المفهوم أن بلداً صغيرا مثل كوريا مجاوراً للصين - الدولة القوية ذات الحضارة - لابد وأن يكون شديد الحساسية للتأثيرات الأجنبية. لقد كان الباحثون والدارسون الكوريون حساسين تجاه الصين طوال العصور التاريخية وكانوا يقبلون الأشياء الصينية دون نقاش واستوعبوا الثقافة الصينية فى عقولهم

بأسلوب أعمى ومن هنا لم ينج سوى عدد قليل جدا من المفكرين الكوريين وطوروا ثقافتهم الكورية وخلصوها من الفكر الأجنبى.

ومن هنا فإنه على الرغم من إختراع الأبجدية الكورية هانجول ذلك الإختراع الثورى فى حينه فى تلك المنطقة، لم يقابل ذلك الإختراع إلا باعتراض مستميت من جانب الباحثين الموجهين صينياً. وهذا الإعتراض المستمر بل وعدم الإحترام للكتابة الكورية، أدى إلى تعويق تطور اللغة الكورية. وأكثر من هذا فإنه فى ظل صراع القوى كانت الأبجدية هانجول ضحية وحظر إستخدامها تحت حكم الأمير يونسان فى مطلع القرن السادس عشر. وهكذا فإن هانجول لم تعش إلا فقط من خلال المساعدة فى دراسة الكونفوشية والبوذية بترجمة نصوصهما إلى اللغة الكورية بهذا الخط؛ ومن خلال دراسة الأدب الصينى بتجميع القواميس الصينية وكتاب النطق والمعنى بالكتابة الهانجولية؛ ومن خلال دراسة الكتب الزراعية وكتب حرير القز والكتب الطبية المكتوبة بهذا الخط؛ ومن خلال القصص الشعبى ورسائل النساء المكتوبة بهذه الأبجدية.

ولم تتم سوى دراسات محدودة للغة الكورية قبل سنة ١٨٩٥، عندما بدأت الحرب الصينية اليابانية ومن ثم ضعف التأثير الصينى على كوريا. وساعتها أعلنت اللغة الكورية لأول مرة لغة وطنية للكوريين. وهنا بدأت الدراسات حول اللغة الكورية من جانب باحثين مختلفين فى مطلع قرننا العشرين. ومن بين الرواد فى هذا النوع من الدراسات يجب أن نذكر: تشو سى - جيونج وبحثه (قواعد اللغة الكورية) سنة ١٩١١؛ كيم يون - جيونج وبحثه (تاريخ الكتابة واللغة الكورية) ١٩٣٨. وربما كان هذان العملان هما أول دراستين عن اللغة الكورية تستخدمان المنهج الحديث فى البحث اللغوى. أما الباحث تشوئى هايون - بايى فله دراستان إحداهما بعنوان: دراسة هانجول سنة ١٩٤٢؛ والثانية سابقة عليها بعنوان: قواعد اللغة الكورية سنة ١٩٣٦. وهما أكثر الدراسات منهجية عن اللغة الكورية وكتابة هانجول. وعن اللغة الكورية القديمة هناك الدراسة الممتعة التى أبدعها الباحث يانج تشو - دونج بعنوان: دراسات

فى الأغانى الشعبية القديمة سنة ١٩٤٢. وصدر أول قاموس كورى سنة ١٩٤٠ توفر على إعداده وقام به: هونج كى - مون بعنوان: تاريخ تطور أبجدية هانجول سنة ١٩٤٦.

وربما كان أعظم إنجاز حققته اللغة الكورية هو تبنى خطة توحيد اللغة الكورية سنة ١٩٣٣ كثمرة جهود جماعية مضنية قام بها إتحاد اللغة الكورية. لقد كانت عملية ثورية تخلصت بها اللغة الكورية من أسر النمط التقليدى للثقافة الشرقية. ودخل عليها مبدأ تقطيع الكلمات وتوحيد الهجاء، كما كانت النية قد إتجهت إلى التخلص من الحروف الصينية من الكتابة الكورية وأسلوب الكتابة الرأسية وأخيرا وضع معايير موحدة للغة الكورية. وبعد تحرير كوريا من الإحتلال اليابانى سنة ١٩٤٥، تم تنفيذ هذه الخطة بكل نجاح إذ قام الباحثون فى كوريا الشمالية بتخليص الكتابة الكورية من الحروف الصينية سنة ١٩٤٩، والتخلص من أسلوب الكتابة الرأسية سنة ١٩٥٦. ثم تطبيق سياسة تنقية اللغة الكورية نفسها من الألفاظ الدخيلة فى السبعينات. مع أنه من المؤسف أن هذه الخطة لم تستطع تحويل الكتابة الهانجولية من كتابة مركبة الهجاء إلى كتابة ألفبائية الهجاء.

الضبط البيليوجرافى للكتاب الكورى

يعتبر نظام الضبط البيليوجرافى الكورى من أحسن نظم الضبط البيليوجرافى وإن ظهر فيه شئ من التكرار أحيانا. وطبقا لقانون المطبوعات الكورى وقانون حق المؤلف فإن كافة المطبوعات، حكومية كانت أو تجارية أو خاصة لابد من ايداعها فى المكتبة الوطنية المركزية. وهذه المكتبة تجمع وتنشر البيليوجرافية الشهرية المعنونة «القائمة الشهرية لنسخ الإيداع» و«تقرير السياسة الوطنية للمواد المرجعية» وكلاهما ينشر من سنة ١٩٦٨ - وفى سنة ١٩٧٢ حل محلهما «معلومات الإنتاج الفكرى». وفى نفس الوقت تقوم المكتبة الوطنية المركزيةبنشر الفهرس السنوى الوطنى بمطبوعات الإيداع منذ سنة ١٩٦٣. وهو مقسم إلى:

المطبوعات الحكومية - الكتب - الدوريات. وتحت كل قسم منها تصنف المفردات.

وفى منافسة مع المكتبة الوطنية المركزية قامت مكتبة الجمعية الوطنية (البرلمان) الكورية أيضا بنشر تقرير كل أسبوعين بالمطبوعات الجديدة بين ١٩٦٧ و١٩٦٩، وقد حل محله آخر بعنوان تقرير المواد الجديدة كل إسبوعين ١٩٦٩ - . كذلك يقوم إتحاد الناشرين الكوريين بنشر المجلة الشهرية للمطبوعات الجديدة منذ سنة ١٩٤٧ - . ومن هذا العمل الشهرى يصدر الإتحاد، الكتاب السنوى للمطبوعات الكورية منذ سنة ١٩٥٧ - . وهو يشبه دليل الكتب الموجودة فى السوق الذى يصدر فى الولايات المتحدة. كما تقوم مكتبة الجمعية الوطنية الكورية بنشر قائمة بالمطبوعات الحكومية منذ سنة ١٩٦١ - .

يضاف إلى ذلك خدمات التكشيف التى تتعلق بمقالات الدوريات، فتقوم مكتبة الجمعية الوطنية الكورية بإعداد كشاف الدوريات الكورية منذ ١٩٦٣ وإن تغير عنوانه الكورى منذ سنة ١٩٦٩. كذلك قام إتحاد المكتبات الكورية بإعداد كشاف للدوريات الكورية بين سنتى ١٩٦٠ - ١٩٦٢. كما قامت مكتبة الجمعية الوطنية بإعداد كشاف راجع للدوريات من ١٩٤٥ وحتى ١٩٥٩. وبالتالى فإن الدوريات الكورية تكون قد كشفت من ١٩٤٥ حتى الآن. كذلك تقوم مكتبة جامعة يونسى ومكتبة جامعة سونجميونج للمرأة بإعداد كشافات بالمؤلف - والعنوان - والموضوع لدوريات كورية مختارة ومتخصصة.

وإلى جانب هذه الأدوات قام إتحاد المكتبات الكورية بنشر قائمة بمحتويات الدوريات الكورية (إحاطة جارية) بين ١٨٩٦ - ١٩١٠. كما قام چ ماك رى إلرود بنشر ثلاثة كشافات موضوعية وهى: كشاف الجرائد الإنجليزية المنشورة فى كوريا ١٨٩٦ - ١٩٣٧ (سنة ١٩٦٦)؛ كشاف محتويات دوريات اللغة الإنجليزية المنشورة فى كوريا ١٨٩٠ - ١٩٤٠ (سنة ١٩٦٥)؛ كشاف محتويات دوريات اللغة الإنجليزية المنشورة فى كوريا ١٩٤١ - ١٩٦٨ (سنة ١٩٦٩). كذلك هناك كشافات جارية كاملة للدوريات الحديثة.

الببليوجرافيات الكورية القديمة

أقدم ببليوجرافية كورية وصلت إلينا هى ببليوجرافية الكتابات البوذية فى كوريو، سونج، لياو، اليابان وقد تم تجميعها سنة ١٠٩٠م، ولعل أول ببليوجرافية منهجية مشروحة ومتوازنة هى ببليوجرافية كيم هيو المعنونة: ببليوجرافية كوريا العامة التى تمت سنة ١٦٣٧. وهى تشتمل على ٦٧٠ عملاً مختاراً منذ سيلّلا حتى القرن السابع عشر كذلك قام سو يو - جو فى سنة ١٧٩٦م بتجميع ببليوجرافية «قائمة الكتب المحفورة» وهى عبارة عن حصر بكتب الكتل الخشبية التى طبعت حتى ذلك التاريخ وحالتها وكمية الورق التى لزمت لطبع نسخة واحدة من كل كتاب مدرج فى القائمة.

وعلى النطاق المحلى نصادف «فهرس الكتلَ الخشبية فى مناطق الجنوب الثلاثة» الصادر فى سنة ١٧٥٩م وهو ببليوجرافية لاغنى عنها لما صدر من كتب الكتل الخشبية فى ولايات جنوب كوريا الثلاثة: تشووللا؛ تشونج شونج؛ كيونجسانج. وثمة فهرس محلى آخر هو «فهرس كتب كل مقاطعة» سنة ١٨٤٠. وهو كتاب مخطوط يضم كل الكتب التى طبعت من الكتل الخشبية فى كل مقاطعة بذاتها. وهناك «فهرس الكتب المقتناة فى أكاديميات ييجو الخاصة» وقد نشر سنة ١٩٦٩. وهو قائمة بالمجموعات التى كانت مقتناة فى الأكاديميات المحلية الخاصة.

الببليوجرافيات النوعية

تنشر فى كوريا ببليوجرافيات نوعية تقتصر على نوعيات معينة من الأعمال الفكرية وعلى سبيل المثال هناك: الببليوجرافيا المشروحة بالكتب المرجعية الكورية التى صدرت سنة ١٩٧١، والتى توفر على تجميعها اتحاد المكتبات الكورية وإن كانت تكشف عن ضعف فى الأعمال المرجعية الكورية الحديثة. وهناك أيضا «الببليوجرافيّة الكورية المشروحة» التى أعدتها جامعة كوريا فى نفس سنة ١٩٧١، وهى قطعة علمية فذة بين الببليوجرافيات الكورية وتضم

٥٢٦٧ عنوانا من الكلاسيكيات الكورية المنشورة حتى ١٩١٠ وقد حلت محل ببليوجرافية الستين عاماً اليابانية عن الكلاسيكيات الكورية والصادرة ١٩١٩. وقد توفر كيم ياكسيل على إعداد ببليوجرافية بعنوان «ببليوجرافية الكتب المنشورة خلال فترة أسرة سيلّلا وكوريو» وقد نشرت سنة ١٩٦٤ وتشتمل على ٧٣٥ عملاً موزعة على الولايات: كوجوريو؛ بايكش؛ سيلّلا؛ كوريو. وقد أضيفت فى آخر فصل من فصولها أسماء الأغانى الشعبية الكورية. وقد قامت المكتبة الوطنية المركزية بإعداد قائمة بالكتب النادرة الكورية بعنوان «ببليوجرافية الكتب الكورية النادرة» وتضم ٦٠٠ عنوان نادر نشرت مطبوعة أو مخطوطة حتى ١٥٩٢م فى كوريا وفيها عدد من الكتب الصينية واليابانية النادرة، أيضاً. وهناك «فهرس الكتب القديمة» الذى أعدته المكتبة الوطنية المركزية سنة ١٩٧٠ وهو فهرس جزئى بالمجموعات القديمة التى تقتنيها تلك المكتبة. وهناك على الجانب الآخر «فهرس الكتب الكورية» الذى أعدته كذلك المكتبة الوطنية المركزية ونشرته سنة ١٩٦٤ ويضم الكتب التى نشرت بين ١٩٤٥ - ١٩٦٢ واقتنيت بالمكتبة. وهناك كذلك «حوليات الكتب الكورية» التى أعدها يون بيونج تايى ونشرت سنة ١٩٧٢. وهى عمل علمى منهجى عن الكتب الكورية بين ٥٤٥ و١٩١٠م.

وثمة ببليوجرافيات مشروحة عن نوعيات من الكتب الكورية لعل أكبرها الببليوجرافيا المختارة المشروحة جيداً والمعنونة «كتب كورية مشهورة» والتى نشرت سنة ١٩٧٠. وهى قطعة ثمينة بين المراجع الكورية. وهى تضم أكثر من ١٥٠ كتابا كوريا من أحسن الكتب من فترة سيلّلا وحتى فترة ييجو؛ وكل تعليق يتضمن ترجمة طويلة لحياة المؤلف وتحليلاً نقديا مطولاً لمحتويات الكتاب. وقد ألحق فى نهاية الببليوجرافية فصل بالإنجليزية عبارة عن تلخيص للعمل كله. وثمة ببليوجرافيّة أخرى عن أحسن الكلاسيكيات الكورية نشرت سنة ١٩٦٩، وهى عبارة عن مقالات ببليوجرافية عن الكتب التى ألفها أحسن مائة مؤلف كورى. ولعل أعظم الأعمال الببليوجرافية التجميعية هى تلك التى

أعدتها جامعة كوريا على حلقتين هما: «الببليوجرافيا المشروحة بالكتب الكورية» سنة ١٩٧١. و«الببليوجرافية المشروحة بالكتب والمقالات الكورية» ١٩٧٣. والأولى تضم تعليقات على ٥٢٤٧ كتابا من أهم الكتب الكورية المنشورة قبل ١٩١٠؛ والثانية هى ثمرة برنامج لمدة ست سنوات لحصر وتسجيل ووصف المقالات والكتب المنشورة بين ١٩١٠ و١٩٧٠ وصدرت فى ستة مجلدات والمفردات وزعت على موضوعات واسعة.

من الببليوجرافيات النوعية المميزة تلك التى تحصر وتسجل وتصف الدوريات. ومن بينها «ببليوجرافية الدوريات الكورية» والتى صدرت سنة ١٩٦٦. وفيها دراسة قيمة عن تاريخ الدوريات الكورية وقائمة بكل الدوريات التى نشرت بين ١٨٨٣ و١٩٤٥. وهناك ببليوجرافيا أخرى توفر على إعدادها تشو صون - جا بنفس العنوان «ببليوجرافية الدوريات الكورية» وتحصر الدوريات التى نشرت بين ١٨٩٦ و١٩٤٥ وقد صدر هذا العمل سنة ١٩٦٥ وجرى تجميع هذه الببليوجرافية من واقع المجموعات الدورية الموجودة فى المكتبات الثمان الموجودة فى سيول. وتوفر إتحاد المكتبات الكورية على إعداد «القائمة الكاملة بمحتويات الدوريات فى نهاية أسرة يى» والتى نشرت سنة ١٩٦٧. وهى مجموعة من قوائم مجتويات الدوريات الصادرة باللغة الكورية بين ١٨٩٦ و١٩١٠. كما قام نفس الإتحاد سنة ١٩٦٦ بإعداد «قائمة بأسماء الجرائد والمجلات الكورية» وتضم بيانا بكل الدوريات الصادرة داخل كوريا؛ والدوريات الكورية الصادرة خارج كوريا. وترتيب الجرائد والمجلات هنا فى تسلسل زمنى خلال الفترة المغطاة بين ١٨٨٣ و١٩٤٥.

ويقودنا الحديث عن الضبط الببليوجرافى النوعى كذلك إلى إستعراض أهم الكشافات التى تحلل المحتويات أكثر مما تصف من الخارج. ومن بين تلك الكشافات كشاف «حوليات أسرة يى» الذى يتضمن السجلات والوثائق اليومية للحكومة على مدى ٥٠٠ سنة فى ٤٨ مجلداً. وقد تم تكشيفها فى سنة ١٩٦٤ طبقا لرؤوس موضوعات تاريخية، أسماء الأشخاص، أسماء الأماكن، أسماء

الهيئات والمؤسسات وأسماء الحوادث السياسية، الإقتصادية، الدبلوماسية، العسكرية، الإجتماعية، التعليمية، الدينية، وأيضا أسماء الكتب. وهناك كشاف «تاريخ الممالك الثلاثة» الذى أعد سنة ١٩٥٦ ووزعت مواده على سبع فئات: الأسماء الشخصية؛ أسماء الأماكن؛ المؤسسات الحكومية؛ الألقاب الحاكمة؛ أسماء المعابد البوذية، أسماء الكتب؛ متفرقات. وهناك كشاف «تاريخ كوريو» المرتب على أربع فئات: الأسماء الشخصية؛ أسماء الأماكن؛ أسماء المؤسسات الحكومية؛ متفرقات. والكشاف الرابع الهام هو كشاف «جريدة تونجا» الذى يحلل هذه الجريدة فقط فى الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٣١ فى أربعة مجلدات برؤوس موضوعات. وهذا الكشاف هو أهم عمل للتاريخ اليومى للإحتلال اليابانى. ومن المؤسف له أن تحليل وتكشيف بقية الأعداد قد توقف بسبب الخلافات السياسية بين شطرى كوريا.

وتعتبر الفهارس الموحدة من أدوات الضبط الببليوجرافى الهامة وهناك فهرس موحد كورى يعتبر من العلامات البارزة فى تاريخ الببليوجرافيا الكورية وهو (الببليوجرافيا العامة للكلاسيكيات الكورية) التى توفرت عليها مكتبة الجمعية الوطنية وقد استغرق العمل فى هذا الفهرس عشر سنوات كاملة. ويحصر هذا الفهرس أكثر من ٣٧٠٠٠ عمل مع بيانات وصفية قصيرة ورقم ورمز مكان وجود الكتاب فى أى مكان فى العالم. وللتعرف على أى كتاب كلاسيكى كورى نشر قبل ١٩١٠ يجب أن يرجع إلى هذا الفهرس.

الببليوجرافيات الأجنبية للكتاب الكورى

إنجذب كثير من الأجانب نحو الكتاب الكورى فانكبوا على إعداد ببليوجرافيات لحصره وتسجيله ووصفه ولكل منهم دوافعه ومبرراته الخاصة. ومن بين هؤلاء موريس كورانت الذى أعد عمله الشهير «الببليوجرافيا الكورية» باللغة الفرنسية (١٨٩٤ - ١٨٩٧) ويعتبر أول عمل من نوعه عن الكتاب الكورى فى نهاية القرن التاسع عشر وقد قدم لها بدراسة فلسفية عميقة عن الثقافة والفكر فى كوريا. وقد حاول فى هذا العمل فصل الإنتاج الفكرى

، الأصيل عن الإنتاج الفكرى الكورى الموجه صينياً وذلك بتضمين هذا
الروايات المكتوبة بخط هانجول والتى إعتبرها المفكرون الكوريون فترة
من الزمن سقط متاع بين الإنتاج الفكرى الكورى. ويكمل هذا العمل
ـرافية التى توفر عليها مارك ترولوب بعنوان «الكتب الكورية ومؤلفوها»
نشرت فى **وقائع الفرع الكورى من الجمعية الملكية الآسيوية** (مج٢، سنة
). كما يكملها «الببليوجرافيا الجزئية بالإنتاج الفكرى الغربى عن كوريا»
ـى نفس **الوقائع** مج ٢٠ لسنة ١٩٣١. وتضم هذه الأخيرة ٢٨٨٢ كتابا
ومقالاً عن كوريا باللغات الغربية وقد توفر على تلحيقها أ. جومبيرتز
ـمبيرتز، كذلك فى **الوقائع**، مج ٢٤ لسنة ١٩٣٥.

ـم ب هـ. هازارد وزملاؤه بنشر «دليل الدراسات الكورية» سنة ١٩٥٤.
م ب. سلبرمان سنة ١٩٦٢ بنشر «اليابان وكوريا». والعملان عبارة عن
ـرافيتين مشروحتين وهما معاً باللغة الإنجليزية.

ـفرت مكتبة الحاكم العام على إعداد ونشر «ببليوجرافية الكلاسيكيات
ـة» سنة ١٩١٩ وتعتبر أشمل الببليوجرافيات الأجنبية المشروحة عن كوريا
لك الوقت وقد حل محلها وإستوعبها عمل آخر قامت به جامعة كوريا
سنة ١٩٧١ بعنوان (الببليوجرافية المشروحة بالكتب الكورية) ويكمله
مايماكيوساكو بعنوان (ببليوجرافية كتب كوريا القديمة) وقد نشر بين
– ١٩٥٧. وهو ببليوجرافية أخرى مشروحة عن الكلاسيكيات الكورية
اليابانية وهو نتاج عمل مضنٍ ومسح مستفيض للمكتبات الشخصية
ـية فى اليابان وكوريا ومنشوريا. ومن أسف جاء بدون كشافات
ماله شاق. ويعتبر العمل الذى قام به ساكوراى يوشييوكى بعنوان
ـجرافيا الدراسات الكورية) من أهم الأعمال اليابانية عن الدراسات الكورية
١٨٦ و١٩١١ ونشر سنة ١٩٤١. ومن الطريف فيه أنه يتضمن قوائم
ـات الكتب التى يدرجها.

ـمت مكتبة الجمعية الوطنية بإعداد «ببليوجرافية المطبوعات الكورية باللغات

الغربية بين ١٨٠٠ - ١٩٦٣» ونشرتها سنة ١٩٦٧ وتجمع بين دفتى عمل واحد، أربعة ببليوجرافيات مستقلة قامت بها مكتبة الكونجرس؛ يى صون - هوى؛ كونج يونج - صون.

الكتب الكورية فى الخارج

تقتنى بعض المكتبات خارج كوريا مجموعات لها شأنها من الكتب الكورية ومن ثم تعد لها الفهارس التى تحصرها وتعرف بها. ومن بين هذه المكتبات مكتبة الكونجرس التى قامت بإصدار «فهرس لغات الشرق الأقصى» الذى نشر سنة ١٩٧١ ويتضمن نحو ٣٥٠٠٠ كتاب كورى قامت مكتبة الكونجرس باقتنائها وفهرستها بين ١٩٥٨ و١٩٧٠. كذلك فإن بعض الكتب الكورية التى نشرت بين ١٩٤٥ و١٩٥٠ تم إدراجها فى الببليوجرافية التى أصدرتها سنة ١٩٥٠ بعنوان: «كوريا: الببليوجرافيا المشروحة بمطبوعات لغات الشرق الأقصى».

كذلك توفرت مكتبة جامعة هارفارد - ينشنج سنة ١٩٦١ بنشر فهرس مقتنياتها الكورية: «الفهرس المصنف بالكتب الكورية» ويضم هذا الفهرس نحو ٣٢٠٠ عنوان فى ٦٥٠٠ مجلد. وقد تم إصدار ملحق له سنة ١٩٦٦ يحتوى على ٣٢٠٠ عمل أخرى أيضا فى ٦٥٠٠ مجلد.

وفى فرنسا تم إعداد «ببليوجرافية بالكتب الكورية فى المكتبات الفرنسية» توفر عليها (يى أوك) ونشرتها فى كوريا مكتبة الجمعية الوطنية سنة ١٩٦٩. وفى اليابان قامت مدينة أوساكا سنة ١٠١٧ بنشر ببليوجرافية «فهرس الكتب الكورية». وفى عام ١٩٣٩ نشر «فهرس المجموعة الكورية بمكتبة تويو» وقد بنى أساساً على مجموعة مايما كيوساكو الخاصة. وفى سنة ١٩٦٩، أعد فهرس لواحدة من أقوى المجموعات الكورية، توفر عليه تشاوينج فانج بعنوان: «مكتبة اسامى: فهرس وصفى». وكانت هذه المجموعة ملكية خاصة لشخص يدعى اسامى رنتارو ثم إشترتها مكتبة شرقى آسيا بجامعة كاليفورنيا. وتتضمن ٩٠٠

عنوان من أنفس الكتب الكورية المطبوعة والمخطوطة وفروخ وكراسات ممحوة يصل عددها إلى ٤٠٠٠ فرخ. كذلك فإن المجموعة الكورية فى مكتبة تنرى فى اليابان كانت فى الأصل ملكية خاصة للمدعو ايمانيشى ريو.

المكتبات ونظم المعلومات الكورية

تاريخ المكتبة الكورية

لايمكن أن ينفصل تاريخ المكتبات فى أى مكان عن تاريخ الكتب، فطالما كانت هناك حركة لنشر الكتاب فلابد وأن تكون هناك مكتبات تعمل على حفظ وتنظيم الإنتاج الفكرى أيا كان مستوى تلك المكتبات، وأيا كانت تسميتها. وفى ظل الممالك الثلاثة كانت الكتب الصينية بما فيها كتب الديانة الكونفوشية والبوذية الأمهات تستورد إلى كوريا، كما كان كثير من الكتب ينتسخ ويؤلف وينشر. ومن المحتمل أن تكون هناك فى تلك الفترة مكتبات تحفظ وتنظم تلك الأعمال من بينها مكتبة الأكاديمية الوطنية حيث كان يتم إعداد موظفى الحكومة ومكتبات المعابد البوذية. ولكن لم يصلنا أى من تلك المكتبات أو أخبار يقينية عنها.

فترة أسرة كوريو

قام ملك كوريو الأول سنة ٩١٨م بإنشاء مكتبة القصر كى يجمع فيها الكتب وييسر الإفادة منها وكانت تلك المكتبة على غرار المكتبات الصينية وكان الإسم الكورى لتلك المكتبة هو (نايسوسونج) ثم تغير اسمها إلى (بيسوسونج) فى سنة ٩٩٥م، ثم إلى (بيسوجام) فى وقت لاحق. وكان يتوفر على إدارة المكتبة: أمين مكتبة، مساعد أمين المكتبة، معاون، وكاتب. وكان إستخدامها قاصراً فقط على الأرستقراطية وطبقة الموظفين الرسميين فى الدولة. وفى ظل حكم الملك سونج جونج أنشئت مكتبة أخرى أطلق عليها (سوسو ون) سنة ٩٩٠ فى بيونج يانج وذلك لجمع الكتب وطباعتها. ومن اللافت للنظر أن الكتب فى هذه المكتبة كانت تتاح للطلاب. وفى عهد الملك مونجونج أنشئت مكتبة ملكية

(اوسو ون) فى مدينة كايسونج، وأمر الملك سوكشونج سنة ١١٠٥م بإنشاء مكتبة للأكاديمية الوطنية (سوجوكبو) وأن تنقل الكتل الخشبية الخاصة بأمهات الكونفوشية من مكتبة بيسو سونج المشار إليها إلى مكتبة سوجوكبو هذه لتقوم على نشرها. وقد قيل أن آلافا بعد آلاف من الكتب كانت تخزن فى قاعات: إمشون جاك؛ تشونجيون جاك؛ بومون جاك. وكما ألمحنا سريعا من قبل فإن إبان الغزو المنغولى نقلت كل الكتب إلى جزيرة كانجهوا.

ولم يكن حكام كوريو راغبين فقط فى إنشاء المكتبات وإنما متحمسين كذلك لجمع الكتب لها. ففى سنة ٩٩٠م على سبيل المثال تم جلب ٢٥٠٠ مجلد من تريبيتاكا (الكتابات الدينية المقدسة) فى ٤٨١ صندوقاً من دولة سونج؛ وفى سنة ١٠٢٧م قام يى مون تونج بجلب ٥٩٧ مجلداً من كانجنام فى جنوب الصين. وقام الملك سونجونج بتأسيس مكتب الكتب البوذية الذى إشترى أربعة آلاف مجلد من لياو وسونج فى الصين ومن اليابان كذلك. وتوفر المكتب على نشر تلك الكتب. وفى سنة ١٠٨٥م قام نفس الملك سونجونج بالحصول على ألف مجلد من الكتب البوذية. وعندما شاع فى الصين خبر الإقبال الشديد من جانب حكام كوريو على الكتب الصينية إعترضت البيروقراطية الصينية على نقل الكتب من الصين إلى كوريا. وعندما علم إمبراطور سونج الصين، تشى تسونج سنة ١٠٩١م بوجود طبعات نادرة من الكتب فى كوريا أرسل قائمة بالكتب المطلوبة إلى كوريا تضمنت ١٢٨ عنوانا لم تكن متوافرة فى أى مكان فى الصين فى ذلك الوقت. وفى سنة ١٠٩٣م بعث الملك الكورى سونج جونج كتاب (الوخز بالابر) وهو من الأمهات التى وضعها هوانج تى، إلى الصين لينشر هناك حتى تعم فائدته هناك. وإلى جانب هذا كله فقد تم شراء «دائرة معارف السلام الكبير» فى ألف مجلد وكتاب «الوصفات الطبية المقدسة» من الصين.

فترة أسرة ييجو

قام سيجونج رابع ملوك أسرة ييجو فى كوريا بإنشاء دار الحكماء وزودها بالكتب، وجُمع فيها الباحثون الشبان فى الدراسات الكونفوشية. كذلك كانت

قاعة تطوير الكونفوشية مزودة بمجموعات من الكتب يستخدمها نصحاء الملوك في مجال الكونفوشية. وفى عهد هذا الملك قام يانج سونج جى وهو باحث كونفوشى بتقديم خطة مفصلة لإنشاء مكتبة ملكية عظيمة ولكن الخطة لم تخرج إلى حيز التنفيذ. لقد أمر الملك يونج جو سنة ١٧٧٦م ببناء مكتبة ملكية فى حديقة سرية فى قصر تشانج دوك وقد تم بناؤها سنة ١٧٨١م. وكان الهدف منها حفظ الكتابات الملكية والخطوط واللوحات الزيتية والتعليمات والأختام وكافة الكنوز والذخائر والكتب القديمة والجديدة على السواء. ولقد ضمت هذه المكتبة حسب الإحصاء الدقيق ١٢٨٢٨٤ كتاباً نقلت فيما بعد فى سنة ١٩٣٠، إلى مكتبة جامعة كييجو الإمبراطورية. كما قامت الحكومة بإنشاء أربعة مكتبات وطنية تاريخية (هكذا سميت: ساكو) فى كل من سيول؛ تشونج جو؛ سونجو جو؛ تشونجو. وكانت الأعمال التاريخية الهامة والوثائق تستنسخ ويبقى الأصل فى سيول وتوزع النسخ على المكتبات الثلاث الأخرى. وخلال الحرب الكورية اليابانية (١٥٩٢ - ١٥٩٨م) دمرت ثلاث من هذه المكتبات ونجت المكتبة الموجودة فى تشونجو. وربما كانت فكرة النظام المكتبى الرباعى هذه هى أصل النظام المكتبى الرباعى فى الصين إبان أسرة تشى انج.

كانت هناك فى عهد أسرة ييجو خمس مدارس وطنية فى سيول: الأكاديمية الوطنية؛ المدرسة الشرقية؛ المدرسة الغربية؛ المدرسة الشمالية؛ المدرسة الجنوبية. وإلى جانب تلك المدارس فى العاصمة كانت فى كل مقاطعة مدارسها العامة. وكانت هناك فى نفس الوقت مئات عديدة من الأكاديميات الخاصة توفرت على إنشائها عائلات الطبقة العليا المحلية. وكانت لكل مدرسة وأكاديمية من تلك المؤسسات مكتبتها الخاصة بها. وبعضها كانت مكتبات مهداة من الملوك إلى تلك المؤسسات العلمية.

وفى نهاية أسرة يى، بين ١٩٠٦ - ١٩٠٩ بدأ السياسيون الكوريون فى تنظيم مكتبة إمبراطورية كورية ترتبط بالحركة الوطنية السياسية، إلا أن الإستعمار اليابانى، أحبط تنفيذ المكتبة وذلك لعزمه ضم كوريا إلى اليابان.

وفى ظل الحكم اليابانى لكوريا بين ١٩١٠ - ١٩٤٥م، كان هناك فقط ٤٩ مكتبة عامة فى كل كوريا حتى سنة ١٩٣٠ وقد إرتفع العدد إلى ستين مكتبة سنة ١٩٣٨. وقام اليابانيون سنة ١٩٣٢ بإصدار قانون المكتبات. وكان باك بونج - سيك وتشو تشانج - سو أول أمينى مكتبة مؤهلين. وكانت أكبر المكتبات فى كوريا فى تلك الفترة مكتبة الحاكم العام ومكتبة السكك الحديدية. وكانت هاتان المكتبتان تفتحان لعدد محدود من الجمهور العام، بينما المكتبات العامة يستخدمها أساساً الطلاب الذين يستعدون لامتحانات القبول بالكليات.

المكتبات الكورية بعد ١٩٤٥

حدث إزدهار ملحوظ فى ميدان المكتبة الكورية بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية فى أغسطس سنة ١٩٤٥. فقد تحولت مكتبة الحاكم العام إلى مكتبة وطنية تضم ثلاثمائة ألف مجلد وثمانين موظفاً. ولم تلبث أن التأمت جراح المكتبات الكورية وتأخذ فى النمو حتى داهمتها الحرب الكورية وعوقت نموها حتى سنة ١٩٥٣ ثم أعيد فتح المكتبة الوطنية. وأعيد فتح بعض المكتبات العامة بلغ عددها سنة ١٩٥٥، إثنتى عشرة مكتبة وازداد العدد إلى سبع عشرة مكتبة سنة ١٩٥٧، بينما وصل عدد مكتبات الكليات والجامعات إلى ٤٣ مكتبة سنة ١٩٥٥، زادت إلى ٦٥ مكتبة فى سنة ١٩٥٧. وطبقا لإحصاء سنة ١٩٥٧ لم يكن فى كوريا آنذاك سوى ١٢٤ مكتبة بمجموعات تدور حول ثلاثة ملايين مجلد وعدد العاملين فيها نحو ٧٥٠ موظفاً.

ومن بين العوامل التى أثرت فى نمو عدد المكتبات الكورية ونمو مجموعاتها وخدماتها لابد وأن نتوقف أمام **وزارة التعليم الكورية** التى وضعت معياراً يحتم وجود ثلاثين مجلداً فى مكتبة الجامعة لكل طالب، وأصرت أيضا على تنافس المصالح والإدارات الحكومية والمؤسسات الخاصة فيما بينها على إنشاء المكتبات المتخصصة أسوة بالنظام المكتبى فى الولايات المتحدة. كذلك كان لإصدار قانون المكتبات الكورية سنة ١٩٦٣، أثره الهام فى دعم مسيرة المكتبة الكورية. ومن

الظواهر الطريفة فى هذا الصدد إهتمام قاع المجتمع بإنشاء المكتبات وعلى سبيل المثال كانت هناك حركة إنشاء المكتبات الريفية التى بدأت سنة ١٩٦٠ والتى تولى الدعوة لها وتنفيذها إتحاد المكتبات الكورية الصغيرة؛ بحيث لم تأت سنة ١٩٧٤ حتى كان هناك فى كوريا ٣٥٠١١ مكتبة ريفية صغيرة منتشرة فى عموم القطر. والجدول التالى يكشف عن تطور عدد المكتبات فى كوريا، ولا تظهر فى الجدول المكتبات الريفية الصغيرة المشار إليها ولا مكتبات المدارس.

السنة	نوع المكتبات	عدد المكتبات	عدد المقاعد	المجموعات	عدد المستفيدين	تداول الكتب
١٩٥٥	العامة	١٢	١٧٨٤	٤٧٦,٨٤٤	–	–
	المتخصصة	١٥	٥٢٧	١٨٧,٣٧٤	–	–
	الجامعية	٤٣	٤١٩٤	١,٢٩٧,٠٨٤	–	–
١٩٦٠	العامة	١٧	٢٦١٤	٢١٧٥٨٤	٦١٦٨٨٦	٢٧٨٨٠٨
	المتخصصة	٤١	١١٢٣	٤٨٨٥٢٤	١٩٧٢٤١	١٨٦٤٠٨
	الجامعية	٦٧	١٤٥١٠	٢,٧٥١,١٢٤	٢,١٨٥٧٦٤	٢,٧٧١,٨٦٤
١٩٦٥	العامة	٤٩	٨٩٠٩	٦٩٤,٥١٥	–	٨٩٧,٥٩٦
	المتخصصة	٧١	٢٧٢١	٦٢٣,٨٥٠	–	١,٣٥٦,٥٠١
	الجامعية	١٠٩	٢٨٢٣١	٣,٩٥١,٣٧٩	–	٤,٠٢١,٨٠٣
١٩٧٠	العامة	٥٩	١٣٧١٨	١,٠٠١,٧٤٥	٣,٣٠٣,٩٩٦	١,١١٩,١٧٢
	المتخصصة	١٣٥	٣٤١١	١,٦٧٤,٦٦٨	٥٩٦,٩٦٨	٧١٣,٧٩٦
	الجامعية	١٢٩	٣٣٢٧٢	٥,١٥٨,٧٠٢	٥,٣٦٠,٤٥٩	٧,١٩٨,٩٥٠

ومن العقبات التى تحول دون التقدم السريع للمكتبات الكورية - وغيرها فى دول مختلفة - أن الناس لا تفهم دور المكتبة فى التنمية الوطنية الشاملة. وفى المكتبات الجامعية خاصة يعامل المكتبيون مثل الكتابيين حيث تنخفض مرتباتهم ووظائفهم إنخفاضاً مزريا ويقوم على إدارة المكتبات الجامعية أساتذة غير متخصصين فى الأعم الأغلب.

وتتأسف المصادر الكورية على وجود مكتبتين وطنيتين فى بلد صغير مثل كوريا. فكما ذكر من قبل تحولت مكتبة الحاكم العام إلى مكتبة وطنية سنة ١٩٤٥ وسميت بالمكتبة الوطنية المركزية بحكم القرار الجمهورى (الرئاسى) الصادر فى ٦ مايو سنة ١٩٤٩. وخلال الحرب الكورية عندما كانت الحكومة فى المنفى فى بوسان، أنشئت مكتبة الجمعية الوطنية (البرلمان) سنة ١٩٥١ كمكتبة متخصصة لخدمة أعضاء الجمعية الوطنية فقط كما هو الحال فى معظم مكتبات البرلمانات. وعند عودة المكتبة من المنفى إلى سيول أسس لها مبنى جديد. واتسع دورها بعد ذلك لتقوم بدور وطنى مثل مكتبة الكونجرس، ولتنافس فى هذا الصدد المكتبة الوطنية المركزية. ولقد أصبحت مكتبة الجمعية الوطنية الآن فى وضع متميز ومتفوق كثيرا على المكتبة الوطنية المركزية سياسياً وماليا وتشريعياً وفى جوانب أخرى كثيرة. ولأن المكتبة الوطنية المركزية تتبع وزارة التعليم فإنها ليست من القوة بحيث تلعب دور المكتبة الوطنية ككل المكتبات الوطنية فى العالم، بينما تحتل مكتبة الجمعية الوطنية مبنى جديداً داخل مبنى الجمعية والذى يعتبر أكبر مبنى مكتبة ربما فى كل الشرق الأقصى.

وفيما يتعلق بالشطر الثانى من كوريا وأعنى به كوريا الشمالية فإننا لا نعرف شيئاً كثيراً عن عدد المكتبات بها أو تنظيمها وحجم مجموعاتها وإدارتها والعمليات الفنية فيها؛ وربما لا نعرف أولا يريدون لنا أن نعرف سوى دورها فى دعم أيديولوجية كيم إيل سونج فى تطوير الإقتصاد الإجتماعى من خلال ثورة تكنولوجية. لقد أنشئت مكتبة الجمعية الوطنية فى كوريا الشمالية فى ١٣ من اكتوبر ١٩٤٦ وتوفرت على نشر «الببليوجرافية العامة لأمهات الكتب الكورية» سنة ١٩٥٥؛ وبعض الترجمات المختارة لأمهات الكتب الكورية. ويدور تنظيم المكتبة فى فلك المكتبة الروسية وتنقسم إلى أقسام موضوعية. وتقدم المكتبة الخدمات المرجعية فى داخل المكتبة كما تعير مقتنياتها للقراء خارج جدران المكتبة ربما من خلال البريد ومن خلال خدمات سيارات الكتب. كما يستفيد من خدمات المكتبة الجماعات السياسية المختلفة. وقد ذكرت التقارير أن

المكتبة قد طورت برنامجا للتبادل مع أكثر من أربعة آلاف مكتبة فى أنحاء متفرقة من العالم وربما تكون مكتبة الكونجرس هى المكتبة الوحيدة فى العالم الحر التى تقيم علاقات تبادل مع مكتبة كوريا الشمالية.

وإضافة إلى هذه المكتبة فإن كل مقاطعة وكل مديرية وكل مدينة لها مكتبتها التى تقوم بتوصيل الكتب مباشرة إلى العاملين فى مواقع عملهم. وفى العشرين من شهر أكتوبر ١٩٧٠ أنشئت مكتبة العلوم فى جامعة كيم ايل سونج والتى جهزت بحيث تستوعب ألف قارئ فى وقت واحد. كذلك أنشئت قاعات قراءة عامة كثيرة لخدمة المزارع الجماعية، إعتباراً من سنة ١٩٧٣ وذلك بهدف نشر المعلومات الزراعية وخاصة التكنولوجية بين الفلاحين.

أما فيما يتعلق باتحاد المكتبات الكورية فقد أنشئ سنة ١٩٤٧ بمبادرة من عدد قليل من المكتبيين الكوريين الذين دربوا على العمل المكتبى فى اليابان للعمل فى مكتبة الحاكم العام. ولكن جاءت الحرب الكورية وعطلت مسيرته وشتتت أعضاءه. ومن هنا دعت الحاجة إلى إقامة إتحاد جديد وفعلا أنشئ اتحاد المكتبات الكورية الجديد فى إبريل سنة ١٩٥٥ بهدف لم شمل المكتبيين من جديد بما فى ذلك كل المكتبيين من المكتبات الجامعية والكليات والمكتبات المدرسية والمتخصصة والعامة، للعمل على تطوير الخدمة المكتبية فى عموم القطر الكورى. وهو ينشر مجلة شهرية لسان حاله من ١٩٥٧.

تطور نظام التصنيف الكورى

كما رأينا من قبل، حرص الحكام الكوريون على جمع الكتب للمكتبات التى ينشئونها. وكانت كل أسرة حاكمة تحرص على إنشاء مكتبات متعددة لإستخداماتها الخاصة. ولكن للأسف لم تصلنا معلومات عن كيفية ترتيب المجموعات فى تلك المكتبات وأى نظام تصنيف كان يستخدم فى تنظيم الكتب وعلى أى نمط كانت الببليوجرافيات والفهارس تعد. ولكن طالما أن الصين قد طورت نظامين للتصنيف وهما تصنيف الرتب السبع، وتصنيف الرتب الأربع

فإن من الضرورى أن يكون الباحثون الكوريون على علم بهما. ومن واقع الببليوجرافيات التاريخية القليلة التى وصلتنا يمكن القول بشدة بأن هذه الببليوجرافيات قد صنفت على أساس التصنيف رباعى الرتب.

ومن المعروف أن ببليوجرافيةٌ كوريا العامة هى أول وأقدم ببليوجرافيةٌ فى كوريا، وقد توفر على تجميعها كيم هيو بعد الحرب الكورية اليابانية ١٥٩٢ - ١٥٩٨م بعد زيارات عديدة للمكتبات الشخصية فى مقاطعة كيونج سانج على وجه الخصوص وهى تغطى الكتب من فترة سيلّلا حتى منتصف فترة أسرة (يى) مع تعليقات مستفيضة. والتصنيف المتبع فى هذه الببليوجرافية بنى على تصنيف تانج رباعى الرتب وليس على التصنيف سباعى الرتب لأن هذا الأخير لم يكن قد ظهر قرب إنتهاء إعدادها فى سنة ١٦٣٧.

وكذلك فإن تصنيفا قريبا من نفس التصنيف الرباعى قد إستخدم فى الفهرس العام لمكتبة كيوجانج جاك الذى تم إعداده بواسطة سوهو - سو سنة ١٧٨١م بأمر من الملك تشونج جو. ولما كانت هذه الكتب الصينية أصلاً مودعة فى مراكز تخزين الكتب الأربعة لمكتبة يولجوجوان فمن المحتمل أن يكون ذلك قد تم قبل عام واحد من وضع نظام تشوإنج الرباعى الجديد. الرتب الأربع فى فهرس كيوجانج جاك قسمت بعد ذلك إلى أربع وثلاثين شعبة كنوع من التوسط بين التبسيط المخل والتفصيل الممل. وكان جامع الفهرس يخشى أن تؤدى التفريعات الكثيرة إلى تشتيت المفردات وإلى غموض العمل.

وهناك توليفة أخرى من التصنيف الرباعى، إستخدمت فى فهرس الكتل الخشبية المشار إليه سابقا والذى أعد سنة ١٧٩٦م، حيث أنه طبقا لأمر الملك تشونج جو قام سو يو - جو بعمل مسح للكتل الخشبية وأعد قائمة بالكتب المحفورة فى كوريا. وقد قسم هذا الفهرس إلى: الأمهات الكونفوشية؛ التاريخ؛ الفلسفة؛ الآداب. وترتيب الأقسام هنا مختلفة عن التوليفات المتعددة للتصنيف الرباعى؛ وعلى سبيل المثال فإن الأعمال والمختارات الملكية الكورية سبقت ما عداها من الأعمال وقسمت إلى سبعة عشر فرعاً.

وبعد إنفتاح كوريا على العالم الخارجى بدأ تصنيف الكتب فى التغير. وعلى سبيل المثال فإن ببليوجرافية موريس كورانت التى أشرنا إليها من قبل والمعنونة (الببليوجرافيا الكورية) صنفت إلى رتب مختلفة تماماً عن الرتب المألوفة فى التصانيف الشرقية التقليدية حيث وزعت المفردات الكورية فيها على تسعة أقسام رئيسية هى: التعليم؛ اللغة؛ الكونفوشية؛ الآداب، الأخلاقيات والعادات؛ التاريخ والجغرافيا؛ العلوم والفنون؛ الديانات؛ العلاقات الدولية. كما جاءت التفريعات من هذه الأقسام الرئيسية منطقية أيضاً. وهذا هو أول تطبيق جيد لفكر التصنيف الغربى على الكتب الكورية.

وبعد دخول الفكر والعلم الغربى الحديث إلى كوريا دخل المفهوم الغربى فى تصنيف الكتب أو ما يمكن أن يسمى بالتصنيف المكتبى إلى التصنيف المكتبى الكورى وظهر ذلك جليا فى جداول التصنيف التى وضعتها مكتبة الحاكم العام سنة ١٩٢٤، حيث بدأ تأثرها الواضح بتصنيف ديوى العشرى على الرغم من وجود إختلافات فى ترتيب الأقسام الرئيسية.

وفى سنة ١٩٣٤ عندما بدأ تصنيف الكتب الأوربية فى مكتبة جامعة كييجو الإمبراطورية (التى أصبحت الآن جامعة سيول الوطنية)، إستخدم نظام مزيج من تصنيف مكتبة الكونجرس وتصنيف ديوى العشرى. والإختلاف بين النظام الهجين ونظام مكتبة الكونجرس يكمن فى الآتى:

١ - إستبعاد حرفين من الحروف المستخدمة فى تصنيف مكتبة الكونجرس لأسباب معينة.

٢ - لم يتبع نفس ترتيب الموضوعات الموجود فى تصنيف مكتبة الكونجرس.

٣ - تسير الأقسام الرئيسية فى النظام الهجين على النحو الآتى: الأعمال العامة - الفلسفة - الدين - التربية - الفنون الجميلة - الأدب - اللغة - التاريخ - التراجم - الجغرافيا - القانون - السياسة والإستعمار - الإقتصاديات

- التجارة والإتصالات - المالية العامة - علم الإجتماع - الإحصاء - الرياضيات والعلوم الطبيعية - الطب - الهندسة والصناعات - الزراعة - العلوم العسكرية والبحرية - الدوريات المجلدة - الدوريات غير المجلدة. وبذلك يصل عدد الأقسام الرئيسية إلى أربع وعشرين قسماً رمز لكل منها بحرف من حروف الأبجدية اللاتينية فى ترتيبها الهجائى ولم يستخدم حرفا O و I كما ألمحت سابقاً.

وأول تصنيف كورى خالص هو **التصنيف العشرى الكورى** الذى وضعه البروفيسور باك بونج - سيك سنة ١٩٤٧؛ وهو مواطن كورى صميم. وقد وضع على هدى من جداول التصنيف العشرى الخاصة بمكتبة الحاكم العام وجداول تصنيف ديوى العشرى وترتيب الموضوعات والفروع يختلف عن الإثنين معاً. والمستوى الأول من الأرقام (٠ - ٩) للأقسام الرئيسية والمستوى الثانى من الأرقام للشعب، بينما المستوى الثالث من الأرقام هو للفروع؛ والمستوى الرابع للأغصان أو الموضوعات الخاصة المتفرعة من الفروع. وعيوب هذا التصنيف يمكن بسطها على النحو الآتى:

أ - الإفتقار إلى المنهجية والمنطق فى ترتيب الأقسام والشعب والفروع.

ب - الإفتقار إلى تقسيمات الشكل والمكان واللغة وغيرها ولذلك لم يكن كفؤاً فى التطبيق العملى.

ولذلك قام إتحاد المكتبات الكورية بوضع تصنيف آخر بنفس الاسم (التصنيف العشرى الكورى)، سنة ١٩٦٤؛ وتم تنقيحه وتلحيقه فى مايو ١٩٦٦ وما يزال مستخدما حتى الآن. والحقيقة أن هذا التصنيف خليط عجيب من تصنيف ديوى العشرى وتصنيف نبوّن اليابانى العشرى والتصنيف العشرى العالمى وتصنيف مكتبة الكونجرس. وعلى أية حال فهو أوسع التصانيف إستخداما فى كوريا.

التوثيق ونظم المعلومات فى كوريا

يفهم التوثيق فى كوريا على أنه علم المكتبات إذ هو عندهم علم وممارسة جمع واختزان وتنظيم وتيسير الإفادة من مصادر المعلومات. أى أنه مجموعة عمليات مترابطة ومتتابعة تشمل جمع البيانات وتنظيمها ومعالجتها أو بمعنى آخر تركيم المعلومات بقصد إختزانها كخطوة أولى؛ الإختيار؛ الترجمة؛ النصنيف؛ التكشيف؛ التحرير؛ الرقن؛ التصحيح؛ الطبع؛ التجليد؛ بث وتوزيع المعلومات لأغراض البحث العلمى كخطوة ثانية ثم البث الإنتقائى للمعلومات كمرحلة ثالثة. تقديم آخر المعلومات للمستفيدين المسجلين قبل إختزانها وأخيرا ربط المستفيدين بمركز المعلومات عن طريق الإتصال السلكى (التليفون) أو اللاسلكى (الراديو والتليفزيون)؛ ثم الخط المباشر كمرحلة أخيرة.

ومن هذا المفهوم للتوثيق فإن معظم المكتبيين الكوريين الذين تعلموا علم المكتبات العام يمارسون بعض الأنشطة المتعلقة بعمليات التوثيق بيد أن ٩٩٪ من المكتبيين الكوريين يقفون عند المرحلة الأولى فى ممارسة عملية التوثيق لأن جل المشاكل المكتبية فى المكتبات الكورية تتم معالجتها يدويا بواسطة القوى البشرية. ومع ذلك فإن هناك قلة من المكتبات هى التى تمارس عمليات من المرحلة الثانية وعلى رأسها مكتبة الجمعية الوطنية والمكتبة الوطنية المركزية. وهناك قلة قليلة من مراكز المعلومات الكورية هى التى أدخلت الميكنة (منتصف السبعينات حيث هذه الدراسة تاريخية بالدرجة الأولى) فى عملياتها مثل وكالة المخابرات المركزية الكورية؛ المركز الكورى للمعلومات العلمية والتكنولوجية؛ المعهد الكورى للعلوم والتكنولوجيا.

ونتعرض باختصار هنا لما يقوم به المركز الكورى للمعلومات العلمية والتكنولوجية منذ سنة ١٩٦٣ من عمليات. ذلك أن هذا المركز يلعب دور المركز الرئيسى للمعلومات العلمية فى كوريا. وهو يقوم بجمع تلك المعلومات من مختلف بلدان العالم على إتساعه ويكرس جهوده لتقديم الإحاطة الجارية وبحث الإنتاج الفكرى والإستنساخ كما يلعب دوراً كبيراً فى مجال تقديم

المشورة للمؤسسات التى تطلبها بشأن التوثيق ويقاس حجم إنجازات هذا المركز بكميات المستنسخات التى يقدمها للمستفيدين والتى بلغت فى سنة ١٩٧٤ نحو ٦٨٠٠٠ حالة أى عشرة أضعاف ما كان عليه الحال فى سنة ١٩٦٨، رغم أن عدد العاملين لم يزد فى نفس الفترة عن ١,٦ مرة عما كان عليه سنة ١٩٦٨، وبالتالى فإن نسبة الخدمة قد بلغت القمة فيما يمكن أن تقدمه القوى البشرية.

ولقد وضع المركز خطة ثلاثية يقدم فى خلالها نظام معلومات آلى مبنى على الحروف الكورية - الصينية، وينشئ بنك معلومات على أساس قواعد بيانات أجنبية يستوردها بداية من الخارج؛ ويوسع تقديم خدمة المعلومات عن طريق نظم المعلومات الإستشارية المسافرة ومراقب المعلومات الميدانى؛ وكذلك تحديث نظم الإستنساخ.

إن المشكلة التى واجهت المركز الكورى للمعلومات العلمية والتكنولوجية فى تلك الفترة نظام معلومات الحرف الكورى - الصينى والذى أطلق عليه (ت ٣٠١١) إذ كان يتطلب أجهزة خاصة لإدخال تلك الحروف إضافة إلى الأبجديات الأخرى المختلفة والعلامات التى تختزن فى الحاسب الكهربائى (آنذاك)، كما يتطلب أجهزة خاصة أيضاً لاسترجاع المعلومات وطبع المخرجات. وهذا النظام كان وقتها يتألف من أ - لوحة مفاتيح للإدخال بالحروف الصينية (ت٣٠١١) ب - وحدة تصحيح الأخطاء جـ - وحدة تحويل الشرائط المغنطة د - وحدة الذاكرة و - طابعة حروف صينية.

وكان السؤال الذى يطرح نفسه دائما فى تلك الفترة (منتصف السبعينات) هو لماذا تستخدم كوريا نظام معلومات الحروف الصينية ولديها أحسن أبجدية وأكثرها علمية فى منطقة جنوب شرقى آسيا بل إنها أبسط وأكثر ملاءمة للحاسب الآلى من الأبجدية اللاتينية ولماذا يظل الكوريون أسرى للثقافة الصينية والفكر الصينى؟ ولماذا لا يستطيعون إستغلال إمكانيات أبجديتهم مباشرة وربطها بالعالم الغربى العلمى؟ ولماذا لايجرؤ الكوريون على كسر

حواجز الثقافة الشرقية. إن على كوريا أن تطور لوحة المفاتيح الأبجدية للآلات الكاتبة والحاسبات الآلية. ومن الطريف أن العلماء الكوريين يسيرون فى الاتجاه العكسى لتطوير لوحة مفاتيح إدخال مركبة للآلات الكاتبة والحاسبات الآلية.

كتابة هانجول الكورية والرومنة

لقد قامت كوريا دون جاراتها بتطوير ثورى فى اللغة الكورية على الرغم من المضايقات اليابانية فى الثلاثينات، لقد وضعت كما أن أشرنا قواعد توحيد نظام النطق وتقطيع الكلمات؛ حيث كان النظام اللغوى فى هانجول أكثر تطوراً وثورية مما أقدم عليه الصينيون واليابانيون فى لغتيهم. لقد إستمر تعليم الأجيال الشابة بعد سنة ١٩٤٥ بنظام الكتابة الكورى النقى رغم المعارضة الشرسة من جانب السياسيين المحافظين الذين سعوا سعيا حثيثاً لتدمير نظام كتابة هانجول عن طريق محاولة ترميم نظام الكتابة القديم المتهرئ وغير المنتظم؛ وأيضا من جانب الصحفيين وأصحاب المؤسسات الصحفية الذين لم يشاءوا التحول عن الحروف الصينية الموجودة فى مطابع صحفهم.

وعلى الرغم من كل ما فى الخط الجديد هانجول من مميزات قامت الحكومة الكورية أخيراً فى ١٦ من أغسطس ١٩٧٢ بقلب سياستها التقدمية إزاء هذه الكتابة وأدخلت ١٨٠٠ حرفٍ صينى فى نظام التعليم المدرسى وشجعها على ذلك الرأى العام الصحفى وبعض الدارسين الكوريين التقليديين فى مجال اللغة والتاريخ الكورى؛ حيث اشتكى هؤلاء من أن نظام هانجول فى الكتابة بدون الحروف الصينية شديد السهولة فى تعلمه وبالتالى لا يمثل تحدياً فى العملية التعليمية.

إن على العكس من ذلك كان يجب على الشعب الكورى أن يتخذ خطوة إيجابية نحو إعتناق النظام الصوتى الأبجدى. ولو أنه إعتنق ذلك النظام الأبجدى لأحدث ثورة ثقافية كورية محضة، ولاتخذ خطوة جبارة نحو تحقيق الهوية والذاتية الكورية ذلك أن الكتابة الصينية هى أكبر عقبة فى سبيل تطوير ثقافة كورية أصيلة وذاتية.

أما فيما يتعلق برومنة الكتابة الكورية فإنها لا تؤسس مشكلة خطيرة بالنسبة للشعب الكورى خطورتها بالنسبة للشعب الصينى أو اليابانى. فقد أدرك الصينيون أن العيوب الحادة الموجودة فى نظام كتابتهم ومشكلة لغتهم الصينية هى مشكلة داخلية ومشكلة خارجية فى نفس الوقت ولكن مشكلة رومنة اللغة الكورية هى مشكلة فقط بالنسبة للأجانب وخاصة الغربيين. والرومنة فى الوقت الحاضر للغة الكورية تتراوح بين عدة كتابات منهجية قليلة وألف دراسة غير منهجية. وفى هذه الدراسات الأخيرة تختلف الرومنة على سبيل المثال بالنسبة لاسم الشخص الواحد من سطر إلى سطر ومن صفحة لأخرى ومن فصل إلى فصل ومن حالة إلى حالة فى كل مرة يكتب فيها الاسم. ومن جهة ثانية فإن محاولات نقحرة هانجول إلى الأبجدية الغربية بدأت على يد البعثات التبشيرية فى القرن السابع عشر. ولأن ذلك النظام من نظم الكتابة الكورية كان سهل التعلم والاستيعاب فإنهم لم يحاولوا رومنته. ولقد شعر عدد قليل من الدارسين الكوريين والبعثات التبشيرية الكاثوليكية بالحاجة إلى نظام مقنن لنقحرة أسماء الأشخاص والأماكن وبعض كلمات كورية محددة كان من الصعب ترجمتها إلى اللغات الأجنبية.

لقد قام بعض الباحثين الغربيين بوضع قواعد لرومنة اللغة الكورية من بينهم الباحثان ج.م. ماك كويون وإ.أ. رايشاور فى بحثهما «رومنة اللغة الكورية بناء على البنية الصوتية» وقد نشر هذا البحث فى وقائع الفرع الكورى من الجمعية الملكية الآسيوية. مج ٢٩ سنة ١٩٣٩. ثم بُسِّط النظام فى «جداول ماك كويون - رايشاور لرومنة اللغة الكورية» والتى نشرت فى نفس الوقائع مج ٣٨ لسنة ١٩٦١. وتلا ذلك فريد لوكوف الذى نشر كتابه «الكورية المنطوقة» بين سنتى ١٩٤٥ - ١٩٤٧ وقد استخدم فيه نظامه الخاص فى الرومنة. كما قامت أكاديمية العلوم فى كوريا الشمالية بتطوير نظامها الخاص بالنقحرة فى الخمسينات مما دفع كوريا الجنوبية هى الأخرى إلى تطوير نظامها الخاص بالنقحرة تحت إشراف وزارة التعليم سنة ١٩٥٩. وبينما كان صامويل مارتن

ومساعدوه يعدون القاموس الكورى - الإنجليزى كان لابد لهم من تطوير نظامهم الخاص فى النقحرة والذى أطلقوا عليه إسم نظام ييل وقد إستخدموه فى قاموسهم الذى نشر سنة ١٩٦٧.

ومن وجهة نظر المستفيدين والمستخدمين لهذه الأنظمة المختلفة فإن نظام ماك كيوون - رايشاور يعتبر أكثرها منطقية وأكاديمية. وقد إستخدمت مكتبة الكونجرس هذا النظام فى فهرسة كتب اللغة الكورية كما إنتشر على نطاق واسع بين المكتبات الأمريكية وبين الباحثين على النطاق الدولى. ومع كل ذلك أعلنت الحكومة الكورية فى العاشر من إبريل لسنة ١٩٧٢ عن تغيير أسماء الأماكن سنة ١٩٧٢، إلى نظام روك للنقحرة.

ومهما يكن من أمر فليس هناك نظام رومنة واحد يستطيع نقحرة كتابة هانجول بطريقة مثالية. ولا يعيب نظام ماك كويون - رايشاور إلا أنه لغوى إلى حد كبير يحاول أن يعبر عن نطق اللغة الكورية من خلال رومنتها والمبالغة فى استخدام الرموز الدالة على النطق مما لا دلالة له عند عامة الناس، وباختصار فإنه شديد التعقيد ومن ثم صعب الإستخدام. ومن جهة ثانية فإن نظام روك هو أسهل الأنظمة وأبسطها فى الإستخدام رغم أن بعض النقحرة فيه تتجاهل الظاهرة الصوتية الكورية. ومن جهة ثانية فإن مشكلة نظام ماك كويون - رايشاور الأخرى هى أن بعض الكلمات طالما نقحرت فإن من الصعب ردها إلى أصلها الكورى، بينما نظام روك لا توجد فيه مثل تلك المشكلة. ويقترح البعض دراسة النظامين ومقارنتهما ومن أحسن ما فيهما معاً يمكن الخروج بنظام جديد.

إتجاهات النشر الحديث فى كوريا ومشكلاته

بعد أن إنتهى الحكم اليابانى لكوريا، تركت البلد فى حالة من الاستنزاف والإرهاق فى جميع جوانب المجتمع الكورى نتيجة للإستغلال المطلق والتعويق المستمر لمقدرات الشعب الكورى وإحداث نوع من الإضطراب فى الإتصال بين طبقات الشعب بسبب الكسر بين اللغة الكورية ونظام كتابتها. وكان على

الكوريين أن يبدأوا من جديد بستة ناشرين فقط هم الذين واصلوا العمل رسميا فقط تحت الحكم اليابانى. ولم يلبث خمسة ناشرين آخرين أن لحقوا بهم فى نشاطات النشرالمختلفة. وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك فى ذلك الوقت سوى ثمانى مطابع فقط فقد كان عليها أن تستبدل الأبناط اليابانية بأبناط كورية. ولأن مصانع الورق كانت تعمل فقط لسد حاجة الحرب فلم يبق للنشر سوى كميات قليلة من الورق تركها اليابانيون ومن النوع الردئ للغاية.

وبعد تحرير كوريا مباشرة فى أغسطس سنة ١٩٤٥، أغرقت الشوارع الكورية بطوفان من الكتب اليابانية التى كانت مملوكة لليابانيين، ولكن الشعب الكورى نظر إليها على أنها قمامة وسط شعور الكراهية والعداء التى يكنها لليابانيين. وكانت هناك حاجة ماسة وتعطش شديد إلى الكتاب الكورى ولكنه لم يكن موجوداً وبالتالى إرتفعت أسعار الكتب القليلة التى طرحت فى تلك الظروف إرتفاعا رهيباً. وفى أكتوبر سنة ١٩٤٥ عندما طلبت الحكومة العسكرية الأمريكية تسجيل كل الناشرين تقدم للتسجيل نحو ٤٥ ناشراً. وفى السنوات التى تلت ذلك أخذت الحكومة العسكرية فى تشجيع النشر وذلك بإتاحة الورق اللازم وآلات الطباعة ومواد الطباعة، رغم أنها حاولت ممارسة نوع من الرقابة على المطبوعات. وإن كانت هذه الرقابة فيها حرية وديمقراطية مقارنة بما كان عليه الحال من قبل. ولقد إنقسمت دوائر النشر الكورية إلى يسار ويمين طبقا لانتماءاتهم السياسية مما أدى إلى إضطراب شديد فى النشر والمجتمع على السواء.

وإذا استعرضنا إحصاءات إنتاج الكتب بين ١٩٤٥ و١٩٧٥ سنجد الإرتفاعات والإنخفاضات بين السنوات المختلفة الواقعة فى هذه العقود الثلاثة فقد كان عدد الكتب المنشورة فى سنة ١٩٤٥، أربعة فقط إرتفعت فى سنة ١٩٤٦، إلى ٤٣٩ كتابا ثم إلى ١٧٥٤ سنة ١٩٤٩ ثم هبطت إلى نحو ١٩٥ كتابا سنة ١٩٥٠ وبدأت فى الإرتفاع التدريجى ولكنها لم تصل إلى معدل سنة ١٩٤٩ إلا سنة ١٩٦٠ وفى سنة ١٩٦٢ دار المعدل حول ثلاثة آلاف ثم إنخفض

إعتباراً من سنة ١٩٦٧ وفى سنة ١٩٧٢ زاد إلى نحو ٤٥٠٠ كتاب ثم انطلق بعد ذلك لأكثر من سبعة آلاف عنوان فى منتصف السبعينات. وقد بلغ المجموع الكلى للعناوين فى ثلاثة عقود إلى نحو سبعة وستين ألف كتاب.

ومن الصعب فى تلك الفترة حقيقة الخروج بموشرات عن الموضوعات التى عالجها الإنتاج الفكرى الكورى وذلك بسبب عدم وجود معايير موحدة لتصنيف الكتب حيث تصنف أحيانا عشوائيا وأحيانا حسب النظام العشرى وأحيانا ثالثة حسب تصنيف اليونسكو ولكن منذ ١٩٦٢ حاول إتحاد المكتبات الكورية تقنين تصنيف الكتب طبقا للتصنيف العشرى الموحد. ولم يبدأ إستقرار تصنيف الكتب إلا إعتباراً من سنة ١٩٦٩؛ وذلك حسب الموضوعات التى ينطوى عليها التصنيف العشرى ثم حسب تواريخ النشر وعدد النسخ وعدد الصفحات والثمن.

والحقيقة أن نمو المطبوعات فى كل موضوع يختلف من سنة إلى سنة ولكن بصفة عامة يسير ترتيب المجالات على النحو الآتى:

الآداب ـ العلوم الإجتماعية ـ الفلسفة ـ الديانات ـ العلوم الطبيعية ـ التاريخ. وكما هو الإتجاه العام فإن الإنسانيات تتفوق كثيرا على العلوم. كما أن كتب الأطفال وكتب الإستعداد لامتحانات قبول المدارس تتفوق على ما عداها من فئات الكتب.

أما فيما يتعلق باتجاهات العناوين والنسخ فإن سنة ١٩٤٦ قد شهدت نشر خمسمائة عنوان بمتوسط عشرة آلاف نسخة لكل عنوان أى حوالى خمسة ملايين نسخة. ولكن مع زيادة عدد العناوين سنة بعد أخرى فإن عدد النسخ من العنوان هبط إلى ٥٠٠٠ نسخة لكل عنوان فى سنة ١٩٤٨ و ٣٠٠٠ نسخة فى سنة ١٩٤٩ بل وصل حده الأدنى فى سنة ١٩٥٦ بمتوسط ألف نسخة لكل عنوان. وعندما نزل عدد النسخ المطبوعة من كل عنوان فإن الأسعار قد إرتفعت بطبيعة الحال وبالتالى كسدت تجارة الكتب وأفلس الكثير من الناشرين ومتاجر الكتب وأغلقت أبوابها وإستمرت حالة الإفلاس نحو أربعة سنوات.

وبسبب هذا الكساد إضطرت صناعة النشر إلى إبتداع نظام القسط الشهرى فى تسديد أثمان الكتب والبيع بالأجل مما أدى إلى إلتئام تجارة الكتب وعودة الحال إلى ما كانت عليه. وفى نهاية الخمسينات كان نظام القسط الشهرى والبيع بالأجل قد استتبا مما أرسى أساساً قوياً لبعض الناشرين لإقامة مشروعات نشرية قوية وأدى بالضرورة إلى تنافس رائع بين الناشرين لنشر الأعمال متعددة المجلدات، ولكن هذا التنافس الرائع لم يلبث أن إنعكس بآثار سلبية على نوعية الكتب المنشورة والشكل المادى لها ومع دخول التكنولوجيا المتقدمة فى الطباعة وماكينات الطبع المعقدة وخاصة اليابانية منها صحح هذا المسار فى منتصف الستينات. ولهذا فإنه مع نهاية الستينات وأوائل السبعينات ظهر إلى جانب الأعمال متعددة المجلدات نشر الكتب ذات المجلد الواحد والموضوع الواحد وفى كوريا اليوم هناك نحو ثلاثين ناشراً يركزون عملهم على هذا النوع من النشر. ومازال بيع الكتب بالأجل وعلى أقساط سائدا بين تجار الكتب وفى نفس الفترة إزداد نشر كتب الثقافة العامة من حيث العناوين وإنخفض من حيث عدد النسخ للعنوان الواحد. ولكن يلاحظ أنه فى الفترة بين ١٩٦٦ و١٩٧١، انخفض عدد العناوين والنسخ على السواء.

وتبعا للإحصاءات الكورية نفسها كان هناك فى سنة ١٩٧٢، أكثر من ألفى ناشر مسجلين، وهو أعلى رقم وصل إليه عدد الناشرين فى تاريخ النشر الكورى. ولكن يلاحظ أن ثلث هذا العدد فقط هو الذى كان نشطاً فى عمليات النشر. وطبقا لدراسة أجريت سنة ١٩٧٤ على ١٠٠٧ ناشرين كان من بينهم ٢٥ ناشراً بنسبة ٣٪، كان عمر دورهم ٢٥ سنة، وأن نصف عدد دور النشر لم يزد عمرها على خمس سنوات، والخمس على عشرة سنوات، والسدس على خمس عشرة سنة. وهذا يعنى أن مسألة دخول وخروج دور النشر إلى ومن السوق مسألة لا يمكن التنبؤ بها.

ويمكن القول بأن تذبذب عدد المطبوعات وحركة النشر عموماً إنما يرجع للظروف الإجتماعية غير الملائمة. ذلك أنه بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة عطلت الإضطرابات الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والصراعات الأيديولوجية

التى نشبت بين الصفوة، عطلت عملية النشر وعوقت حركته: كما أضافت الحرب الكورية ١٩٥٠ ـ ١٩٥٣ عوامل جديدة لتعطيل نمو حركة النشر فى الدولة. كذلك يعزى إلى الناشرين أنفسهم بعض جوانب الفشل ذلك أن الناشرين الكوريين عموما يعتمدون على الحظ أكثر من الإدارة العلمية للمشروعات النشرية، ودراسة السوق والقيام بالدراسات الإستطلاعية ودراسات الجدوى. كما أنهم غير مسلحين بمعرفة مجتمع القراء وسلوكهم إزاء شراء الكتب وعادات وإتجاهات القراءة لديهم. كما يركز كل الناشرين فى كوريا الآن على الكتب العامة وكتب المناسبات التى لا يمكن بناء أى نوع من التوقعات عليها. ولا يمكننا القول بأن ثمة تخصصات بارزة بين الناشرين الكوريين وأنهم يجنحون عموما نحو النشر العام.

ويعتبَر الأطفال فى كوريا أكبر قاعدة قرائية بين المجتمع الكورى. تليهم فى ذلك شريحة طلاب المدارس الثانوية والإعدادية (المدارس العليا)، أما الشريحة التى ترد فى المرتبة الثالثة فهى شريحة طلاب الكليات والمدرسين والمهنيين. وفى استطلاع لخصائص القراء وإتجاهاتهم نحو الكتب تبعا للشرائح السابقة نجد أ ـ يميل الأطفال أكثر ما يميلون إلى كتب الكرتون. ب ـ طلاب المدارس العليا (إعدادى وثانوى) يميلون إلى الروايات الكورية والأجنبية. ج ـ الكبار يميلون إلى الكتب العامة وكتب التثقيف الذاتى. د. الكبار فى منتصف العمر يميلون إلى الأدب الأجنبى المترجم أكثر مما يميلون إلى الأدب الكورى الخالص.

وفيما يتعلق بالشطر الشمالى من كوريا أى كوريا الشمالية فإن كل الإحصاءات تغلف بسرية تامة حتى بالنسبة لخبراء الدراسات الكوريين الشماليين أنفسهم وبالتالى فإن الأرقام المتعلقة بالنشر هى الأخرى تدخل فى باب الأسرار. وبناء على التقارير المنشورة خارج كوريا الشمالية يمكن أن نخرج بالمؤشرات الثلاثة الآتية عن المطبوعات فى الشطر الشمالى: ـ

١ ـ أن جميع جوانب المطبوعات فى كوريا الشمالية هى نتاج الإعتماد على الذات سواء فى المادة العلمية أو مواد الطباعة أو أدوات الطباعة أى الأجهزة والآلات نفسها ولهذا فإن نوعيتها رديئة قلبا وقالبا.

٢ ـ من فحص مقتنيات مكتبة الكونجرس من كتب كوريا الشمالية وفهارس مطبوعات كوريا الشمالية يتضح أن عدد الكتب المنشورة قد بدأ فى الازدياد التدريجى منذ سنة ١٩٥٥ وإستمر إتجاه الزيادة حتى ١٩٦٦ ثم بدأ الانخفاض الحاد بعد تلك السنة.

٣ ـ تتجاهل كوريا الشمالية مسألة التنويع فى الكتب المنشورة وتركز على الزيادة فقط فى عدد النسخ من كل عنوان بالنسبة بعدد محدود من الكتب وعلى سبيل المثال: هناك ٣٥ عنواناً كتبها أو كتبت عن كيم ايل سونج طبع منها ١٤,٢٦,٠٠٠ نسخة سنة ١٩٧١، ٤٩ كتابا أخرى من نفس النوعية طبع منها ١٨,٦٨٠,٠٠٠ نسخة سنة ١٩٧٢. وكانت هناك ٨١ كتابا عن التربية من منظور ثورى طبع منها ١٠,٠٩١,٠٠٠ نسخة فى سنة ١٩٧١. و٨٥ كتابا من نفس النوعية طبع منها ١١,٣٠٩,٠٠٠ نسخة سنة ١٩٧٢. وبتعبير آخر فإن هدف المطبوعات فى كوريا الشمالية ليس التركيز على تنويع عدد الكتب التى يقرؤها الفرد وإنما عدد الأفراد الذين يقرأون هذا العدد المحدود من الكتب.

الرقابة على المطبوعات فى كوريا

تقول المصادر الكورية أنه تاريخيا لا يوجد فى العالم مفكرين أكثر تململا وأكثر قلقاً من المفكرين الكوريين. إنهم يتنافسون من أجل أيديولوجية واحدة فقط تساند قوة واحدة فقط، هى القوة الرسمية التى تقف خلفها قوة أجنبية. ولذلك فإنه عندما تنهار تلك القوة الأجنبية تنهار الأيديولوجية. لقد كررت كوريا هذا النمط على مدار التاريخ وبصفة مستمرة وعلى سبيل المثال كان ذلك مع «البوذية» و«الكونفوشية» و«الديمقراطية». لقد ساد هذا التقليد عندما سيطرت الكونفوشية على الأيديولوجية فى عهد أسرة يى. وكان ضغط هذه

الأيديولوجية الرسمية نادراً ما يترك الفرصة لأى تفكير حر مستقل أن ينمو أو يلمع؛ حتى المفكرين المستقلين داخل الكونفوشية إعتبروا خونة فى نظر الكونفوشيين الأورثوذكس كما إختفى التاويون بين المفكرين دون أدنى مقاومة من جانبهم.

وقد عمق الحكم اليابانى تلك الرقابة الكورية التقليدية؛ ذلك أن اليابانيين مارسوا بنجاح شديد الضغوط على المفكرين الكوريين باستغلال ذلك التقليد الكورى فى قهر المنشقين بوصفهم بصفة «الفكر الخطر» . وعندما خطط المفكرون الكوريون لمقاومة القهر اليابانى «لحرية التعبير والإجتماع» فى يولية ١٩٢٤، سحق المنشقون وبقسوة وأغلقت الصحف لأنها ساندت برامج المنشقين على صفحاتها. وكل المطبوعات المعادية للحكم اليابانى روقبت وأوقف صدورها. وقد إستغل اليابانيون بنية الأسرة الكورية والترابط بين أفرادها وراقبوا ليس فقط المنشقين وإنما جميع أفراد أسرهم وأقاربهم ومارسوا ضدهم أسوأ أنواع القهر الفكرى ووصفوهم بأنهم «مخلون بالواجب».

وخلال السنوات بين ١٩٤٥ - ١٩٤٨ فى ظل الحكومة العسكرية كانت سياسة الولايات المتحدة مع المعارضين للديمقراطية فاترة مما أدخل المجتمع الكورى فى ضروب شتى من الفوضى. وخلال الحرب الكورية تم سحق السكان المعارضين فى كوريا الشمالية ولم يسمح للشيوعيين الكوريين أن ينافسوا على السلطة. ومن جهة ثانية فإنه خلال الحرب الكورية أخمد المعارضون الشيوعيون تماما فى كوريا الجنوبية. وبعد الحرب وتحت وطأة التأثير الأمريكى أصبحت «الديمقراطية» عقيدة وحيدة لأيديولوجية المجتمع الكورى. وأصبح التنافس هو فقط فى كيفية جعلها الأيديولوجية المطلقة بحيث أصبحت حكومة لى غير الديمقراطية تسعى لتدمير نفسها. ولم تعش الحكومة الجمهورية الثانية لأكثر من عام واحد بسبب التنافس فى سبيل العقيدة الديمقراطية.

وهكذا فإنه إعتباراً من ١٩٦١، بدأت الحكومة الكورية فى الجنوب فى إعادة

النظر فى الطرق التقليدية للرقابة على المطبوعات والأيديولوجية. ومن ثم فقد شكلت (لجنة أخلاقيات الصحف) للرقابة على الصحف سنة ١٩٦١. وفى السنة التالية شكلت (لجنة أخلاقيات) للرقابة على الراديو والتليفزيون. وفى يونية سنة ١٩٦٥ طلب وزير التعليم من إتحاد الناشرين الكوريين وضع قواعد ذاتية للمطبوعات غير القانونية، بعدها أعلن الإتحاد عن سبع قواعد لضبط المطبوعات فى اكتوبر من نفس السنة. وفى سبتمبر سنة ١٩٦٧ وضعت ١٤ مادة فى لائحة اخلاقيات نشر الكتب، وضعتها لجنة أخلاقيات نشر الكتاب الكورى. وفى النهاية قامت وزارة التعليم بوضع الرقابة على المطبوعات كلية فى يدها بحلول يولية ١٩٦٨. ولم يأت يناير ١٩٧٠ حتى كانت **لجنة فحص المطبوعات** قد شكلت كى تفحص كل المطبوعات الكورية.

قانون حق المؤلف الكورى

بينما تفرض قوانين الحكومة سطوتها القوية التقليدية على الشعب فى كوريا فإن فكرة الحقوق المشروعة للفرد على المجتمع غير واضحة وغير ملموسة والفضل فى ذلك يرجع إلى طريقة الكونفوشية فى التفكير عن الأخلاق والقانون. وهكذا أيضا فكرة حقوق الفرد فى كتابات ومطبوعات الآخرين. وبالتالى فإن حق المؤلف فى كوريا ليس حق الملكية الوارد فى المفهوم الغربى، ولكنه مجرد حق أخلاقى فى المفهوم الكونفوشى. وسأسوق على ذلك مثلا متطرفاً فحين يسوق أحد المؤلفين شخصا إلى المحكمة لأنه خرق حق المؤلف فإن المحكمة لن تحاول حل المشكلة والقصاص من الجانى وإنصاف المجنى عليه ولكنها سوف تنصحهما بتسوية الخلاف بينهما بالود والتراضى خارج المحكمة. ومعظم الكوريين يعتبرون التقاضى بالقانون المدنى أمام المحاكم رذيلة سواء كسب المتقاضى أم خسر. يضاف إلى ذلك أن التقاضى فى كوريا مضيعة للوقت والمال ولذلك يحاول كثير من الناس تجنب الدخول فى متاهاته.

وفى يونية ١٩٥٥ قدم إلى الجمعية الوطنية مشروع قانون حق المؤلف، وتقدم إتحاد الناشرين هو الآخر بمشروع مختلف إلى نفس الجمعية وبدأت الجمعية

النظر فى القانون فى ديسمبر ١٩٥٦ . وإعترض إتحاد الناشرين على ذلك ولكن بعد مناقشة يسيرة أقر القانون وأعلن فى يناير ١٩٥٧ . ولسبب أو لآخر أرجأت الحكومة وضع القانون موضع التنفيذ وبعد سنتين أعلنت المذكرة الإيضاحية والتعليمات الإدارية اللازمة لتنفيذ القانون وذلك فى ابريل ١٩٥٩ . وبدأت وزارة التعليم فى تطبيق القانون فى أغسطس سنة ١٩٦٠ بين مؤيدين للقانون ومعارضين له. وكان آخر إقتراح بتعديله قد نشر فى مجلة الكتب الكورية فى يولية ١٩٦٤ ، ولم تحدث فيه تعديلات أو تغييرات.

يتألف قانون حق المؤلف الكورى من ٧٥ مادة لكى يحمى حقوق المؤلف الكورى. وإذا أمعنا النظر فيه نجده تقليد لقانون حق المؤلف اليابانى القديم الذى قصد به أن يقيد الفكر اليابانى ومع هذا فإن اليابان قد نقحت قانون حق المؤلف القديم هذا ووضعت قانونا جديداً سنة ١٩٧٠ ؛ ومع ذلك فإن كوريا لم تحاول تنقيح قانونها المأخوذ من القانون اليابانى القديم أسوة باليابان. ولأن القانون الكورى ملىء بالقصور فى جوانب كثيرة فإن إتحاد الناشرين الكوريين يضغط على الحكومة لتنقيحه.

والحكومة الكورية ليست واقعة تحت ضغط إتحاد الناشرين الكوريين وحسب بل هى أيضاً واقعة تحت ضغط الناشرين الأجانب وخاصة إتحاد الناشرين الأمريكيين. وتحت ضغط من الناشرين الأمريكيين باسم منظمة اليونسكو قامت وزارة التعليم بدعوة ممثلين عن إتحاد الناشرين الكوريين لمناقشة اشتراك كوريا فى الإتفاقية الدولية لحق المؤلف. ولكن سرعان ما رفض الناشرون الكوريون مجرد مناقشة الموضوع على أساس أنه لم يحن وقته. وقامت الشعبة الوطنية الكورية لليونسكو بدراسة الرأى العام حول الموضوع ونشرته فى إحدى الجرائد فى أغسطس سنة ١٩٦١.

وفى ربيع سنة ١٩٦٦ قام الإتحاد الأدبى الكورى باقتراح إشتراك كوريا فى الإتفاقية الدولية لحماية حقوق المؤلف وعضده فى ذلك رأى عام قوى. وإن كان

ذلك ضد رغبة إتحاد الناشرين. ولذلك قام إتحاد الناشرين بالهجوم الشديد على جهل الإتحاد الأدبى الكورى. وكان رأى إتحاد الناشرين فى ذلك أن حماية حقوق المؤلفين الأجانب لا تنصرف فقط إلى الأعمال الأدبية المكتوبة وإنما تنصرف كذلك إلى التسجيلات الصوتية؛ والموسيقى والفنون والأعمال الدرامية ومجالات أخرى عديدة.

وقبل المؤتمر الدولى السابع والثلاثين لاتحاد الكتاب والذى إنعقد فى سيول فى الثامن والعشرين من يونية سنة ١٩٧٠، أشار وزير الشئون الثقافية الكورى فى مؤتمر صحفى إلى إمكانية إنضمام كوريا إلى الإتفاقية الدولية لحماية حقوق المؤلفين ولم يصدر أى رد فعل رسمى إزاء هذه التصريحات من جانب إتحاد الناشرين الكوريين.

وطبقا للأسباب التى يبديها الناشرون الكوريون لاعتراضهم على الإنضمام لتلك الإتفاقية فإن من حق كوريا أن تحمى الصالح العام فى صناعة النشر الوطنية. وبمعنى آخر يجب أن تحمى كوريا نفسها من الغزو الأجنبى لصناعة النشر فى كوريا. ففى المقام الأول فإن اللغة الكورية ليست لغة عالمية مثل اللغة الإنجليزية وكثير من اللغات الأوربية الأخرى التى تستخدم على نطاق دولى واسع. وفى المقام الثانى فإن النشر الكورى لم يصل إلى المستوى الدولى المطلوب وفى كلتا الحالتين فإن كوريا ليست فى وضع يؤهلها للمنافسة الدولية فى مجال النشر وتجارة الكتب. وعلى الجانب الآخر فإن عدم إنضمام كوريا إلى الاتفاقية الدولية لحماية حقوق المؤلفين يجعل الناشرين الكوريين والمترجمين يستفيدون من إعادات الطبع وعمليات الترجمة دون دفع عوائد للمؤلفين والناشرين الأجانب الذى يسطون على كتبهم.

ومن هنا تبدو وجاهة الإعتراض على إنضمام كوريا للإتفاقية الدولية؛ ومع ذلك فإن المشكلة الحقيقية المتعلقة بالإتفاقية الدولية لاهى تتعلق بالصالح الوطنى العام لكوريا والذى يحاول إتحاد الناشرين الكوريين التعلل به ولا بحقوق

المؤلفين الأجانب الذى يحاول الناشرون الأجانب التمسك به. ولو أن كوريا إنضمت للإتفاقية الدولية فإنها لن تخسر شيئاً سوى إعادة الطبع للكتب الأجنبية المزورة والمكسب غير المشروع للأفراد المترجمين من وراء الترجمة. وفى الحقيقة فإن الناشرين الأجانب الذين لا يرغبون فى طبع الكتب الكورية أو بيع الكتب الأجنبية داخل كوريا لن يقوموا بغزو للنشر الكورى وربما يحفزون النشر الكورى وينشطونه عن طريق طبع كتب أجنبية كثيرة فى كوريا بأرخص الأسعار وهو الهدف الرئيس للناشرين الأجانب. ولذلك يتعجب المرء لماذا لا يقبل الكوريون الإنضمام للإتفاقية الدولية لحماية حقوق المؤلفين. إن المشكلة الحقيقية تكمن فى عقلية الشعب الكورى. فلو قبلت كوريا الإتفاقية الدولية فكم من الكوريين سوف يستمرون فى الحياة ككوريين بثقافة كورية متكاملة وفى ظل طوفان المطبوعات اليابانية الذى لا يقاوم.

الرقابة من خلال قانون حق المؤلف الكورى

بالنسبة للحكومة الكورية فإن قانون حق المؤلف لا يهمها لحماية حقوق المؤلفين الأفراد بقدر ما يهمها فى تحقيق الأمن القومى؛ فالكتاب الكوريون ليس لهم الحق فى أن يكتبوا، ولا الناشرون الكوريون من حقهم أن ينشروا أى إنتاج فكرى دون إذن مسبق من الحكومة. وفى الولايات المتحدة يكون للمؤلف الحرية المطلقة فى أن يودع أعماله فى مكتب حق الطبع وذلك من أجل حماية حقوقه، بينما فى كوريا فإن الناشرين والمؤلفين مطالبون بأن يودعوا أعمالهم فى خلال سبعة أيام: أن يودعوا نسختين فى مكتب المطبوعات الرسمى التابع لوزارة الثقافة والإعلام وإلا وقع المخالف تحت طائلة العقاب. وبمعنى آخر سواء قبل الناشرون والمؤلفون الكوريون قانون حق المؤلف أو إعترضوا عليه فإنهم لابد وأن يحصلوا قبل النشر على إذن مسبق من الحكومة لإضفاء الشرعية والحماية على مطبوعاتهم.

وإضافة إلى هاتين النسختين فلابد من تقديم نسختين أخريين للمكتبة الوطنية المركزية كنسخ للإيداع فى خلال ثلاثين يوما من النشر وإلا تعرض

المخالفون للعقوبة وهى دفع غرامة خمسة أضعاف ثمن الكتاب مع عدم الإخلال بالإيداع. وإلى جانب هذه النسخ الأربع فإن لمكتبة الجمعية الوطنية الحق فى الحصول على نسخة تضم إلى مجموعاتها «علامة على حسن النية».

وخلاصة القول فإن قانون حق المؤلف فى كوريا أو تعليمات النشر إن جاز لنا إستخدام هذا المصطلح لم يقصد به حماية حقوق الناشرين أو المؤلفين ولكن قصد به أن يكون أسلوباً غير مباشر فى الرقابة على النتاج الفكرى وتحسس أفكار الناس فى ظل الأيديولوجية الجديدة.

أهم المصادر

1 - Allen, H.N. An old book on Korea.- Korean Repository. vol. 4, January, 1897. pp 15 - 17.

2 - Courant, Maurice. Introduction to: Bibliographie Coréenne. translated by W. Massey Royds.- Paris: Libraire de La Societé Asiatique de l'École des Langues Orientales Vivantes, 1894 - 1899. 3 vols. with a supplement in one volume.

3 - Dallet, Charles. Traditional Korea .- New Haven: Human Relations Area files, 1954.

4 - Gale, James Scarth. History of Korean People.- Seoul: Taewon Publishing Co., 1972.

5 - Gale, James Scarth. "The influence of China upon Korea." Korea Branch of the Royal Asiatic Society. vol. 1, 1900. pp 1 - 24.

6 - Hatada, Takashi. A history of Korea / translated by Warren W. Smith and Benjamin H. Hazard .- Santa Barbara: American Bibliographical Center., 1959.

7 - Korea: Its people and culture.- Seoul: Hakwon - Sa, 1970.

8 - McCune, Evelyn. The Arts of Korea: An illustrated History .- Rutland: Charles Tuttle, 1962.

9 - McCune, George and E.O. Reischauer. "The Romanization of the Korean language, based upon its phonetic structure". Korea Branch of the Royal Asiatic Society, vol. 29, 1939. pp 1 - 59.

10 - Progressive Scholars at the close of the feudal age of Korea.- Pyongyang: Ministry of Culture and Propaganda, 1959.

11 - Republic of Korea. UNESCO Korean Survey.- Seoul: Tong - a Publishing Co. 1960.

12 - Sohn, Pow- Key. Early Korean Typography.- Seoul: Korean Library Science Research Institute, 1960.

13 - Trollope, Mark Napier. "Book production and printing in Korea" Korea Branch of the Royal Asiatic Society, Vol. 25, 1936. pp. 101 - 108.

14 - Trollope, Mork Napier. "Korean books and their authors".- Korea Branch of the Royal Asiatic Society, vol. 21, 1933. pp1-55.

15 - Weems, C.N. (edt.). Hubert's History of Korea .- New York: Hillary House, 1962.

الكراس
التاسع
عشر

الكتب والمكتبات في اليابـــان

يعتبر الإنتاج الفكرى اليابانى واحدا من أعظم الآداب العالمية سواء من حيث الكم أو الكيف. فاليابان لها تقاليدها العريقة فى مضمار ليس فقط الشعر، والقصص والدراما وإنما أيضا لها إسهاماتها العالية القدر فى المذكرات الشخصية وكتب الرحلات والخواطر الفكرية المتنوعة. بل إن القراء يجدون فى الأدب اليابانى الكلاسيكى متعة خاصة نظرا لطبيعته العالمية، ورغم أنه أدب ذاتى، شفاف وعاطفى أكثر منه فكرى وأخلاقى.

ورغم أن الأدب اليابانى قد تأثر كثيرا ومباشرة بالأدب الصينى ويدين له بالكثير إلا أن خصائصه وسماته تختلف كثيرا عن خصائص وسمات الأدب الصينى. والإختلاف لايكمن فقط فى أن النثر اليابانى يصطبغ بصبغة أنثوية تقليدية فى اليابان على عكس الأسلوب الصينى الأكثر موضوعية ورمزية والذى يصطبغ بصبغة رجالية أكثر. ولكن الإختلاف أيضا يكمن فى أن الرواية اليابانية تسبق الرواية الصينية بقرون كثيرة كما تطورت المسرحية اليابانية بطريقة مختلفة تماما. ولما كان الشعر اليابانى لا علاقة له بالشعر الصينى، فإن الشعر اليابانى له أشكال مختلفة. ولأن اللغة اليابانية تفتقر ألى النبرة الحادة القاطعة، والنغمة المعبرة ذات المعنى، والتنوع فى الأصوات، فإن الشعر التقليدى لايتميز عن النثر إلا فى تركيب الأبيات، التى تأتى فى خمسة إلى سبعة مقاطع. فكل الكلمات اليابانية (فيما عدا المقتبسة وخاصة من الصينية) تتركب من ساكن - متحرك - ساكن متحرك، وتنتهى غالبا بواحد من الحروف المتحركة الخمس البسيطة. وهذا النمط من اللهجة اليابانية تعطى نوعا من الرتابة للشعر اليابانى بل وحتى لبعض النثر. ومن جهة ثانية، ربما كانت اللغة اليابانية واللغة

الكورية قريبتى الصلة ولكن التأثير الفكرى الكورى على اليابان لايكاد يحس على الرغم من أن الكوريين قد لعبوا دورا هاما جدا فى نقل الفكر الصينى إلى اليابان.

الإنتاج الفكرى اليابانى الباكر (حتى سنة ٧٩٤م).

أصول الإنتاج الفكرى اليابانى غير معروفة لنا على وجه اليقين وذلك لفشل اليابانيين فى وضع نظام للكتابة خاص بهم، وعندما وضعوه إستمدوا أصوله من الكتابة الصينية، ذلك أنهم عندما تشبعوا بالحضارة الصينية فى القرون الأولى بعد الميلاد تبنوا أشكال الكتابة الصينية كنظام لهم فى الكتابة. وبعد أن استخدموا الكتابة الصينية فى تسجيل معلوماتهم، طوروا بالتدريج نظاما لهم عن طريق نقحرة الأصوات اليابانية بالأشكال الصينية بأسلوب تقريبى. وأقدم إنتاج فكرى يابانى مكتوب يرجع إلى القرن الثامن الميلادى ففى «سجلات الأمورالقديمة» و «حوليات اليابان» نجد أكثر من ١٢٠ أغنية مسجلة بهذه الطريقة المنقحرة. و «سجلات الأمور القديمة» كتب سنة ٧١٢م بخليط من اللغات فهو يستخدم الحروف الصينية بالنطق أحيانا وبالمعنى أحيانا أخرى رغم أنه رسميا تسجيل حكومى لتاريخ اليابان. وهو أقدم مجموعة أساطير، وخرافات وتواريخ وقصص تاريخية وأنساب ويغطى الفترة منذ خلق البشرية حتى سنة ٦٢٧م. وهذا العمل غنى جدا لدراسة اللغة اليابانية القديمة وتاريخ اليابان والفولكلور اليابانى. ومن الواضح أنه كانت هناك أعمال فكرية قبل السجلات منها أعمال أدبية شعرية ودينية وتواريخ ولكنها إعتمدت على المشافهة والتواتر. وبعضها سجل فى هذه السجلات وغيرها من المدونات ولكن أغلبه إندثر أو شوه لإعتماده على التواتر. وهناك تأريخ آخر رسمى بنفس الإسم (حوليات اليابان) كتب فى سنة ٧٢٠م يغطى تاريخ اليابان منذ بدء الخليقة حتى سنة ٦٩٧م وقد كتب أساسا باللغة الصينية ومن ثم لايكشف عن الأسلوب الأدبى اليابانى؛ رغم أن بعض الأسماء والقصائد كتبت باللغة اليابانية. من جهة أخرى نجد فى (مجموعة العشرة آلاف ورقة) التى جمعت فى وقت ما بعد سنة ٧٥٩م، نجد العديد من الكلمات الصينية بنفس النطق اليابانى إستخدمت

على التبادل مع الكلمات والمقاطع اليابانية. وفى نفس الوقت إستخدمت بعض الكلمات الصينية لتمثيل الكلمات اليابانية لنفس المعنى.

تعتبر مجموعة الألف ورقة فى حقيقة الأمر مجموعة رائعة من الشعر تضم ٤٥١٦ قصيدة كتبها ما لايقل عن ٤٥٠ شاعرا. ومن بين هذه القصائد قصائد كتبها ناس من عامة الشعب: فلاحون، صيادون، حرس حدود... إضافة إلى قصائد النبلاء وعلية القوم والشعراء المحترفين. وعلى النقيض من هذا نجد نماذج رائعة من الشعر الكلاسيكى من النوع البالغ الرقى، البالغ التأثير، وقوة هذا الشعر تتأتى من الإخلاص فى التعبير. ونلاحظ فى هذا العمل أن عواطف الشعراء قوية وهم يعبرون بحرية وبطريقة مباشرة عن أفراح وأتراح وحب وأشواق ومشاكل الحياة اليومية. وتتفاوت القصائد تفاوتا كبيرا فى أسلوبها ومادتها فهى تضم أغانى الأعياد، قصائد السفر والرحلات، قصائد الطبيعة والحب وقصائد الوطنية والبطولة، قصائد الفخر ونغمات العمل وهمهماته. وغالبية القصائد من شكل (تانكا) ذات المقاطع الواحدة والثلاثين. ولكن من بينها أيضا القصائد الطويلة ذات ٢٦٢ بيتا (تشوكا). وقصائد تشوكا الطويلة تتألف من مقاطع سباعية وخماسية تنتهى بسطر طويل من سبعة مقاطع. ولأن هذه القصائد لاتقل عن ١٥٠سطرا فإنها تسمح للشعر بأن يتناول موضوعات طويلة لايمكن معالجتها فى القصائد القصيرة (تانكا).

ومن جهة ثانية هناك عمل شبيه هو (كانيوزو) الذى كتب سنة ٧٥١م وهو عبارة عن مجموعة من القصائد الصينية كتبها رجال البلاط اليابانى. ولأن هذه القصائد تحاول تقليد الشعر الصينى، فقد جاءت رسمية وخشنة وصينية تقريبا فى مشاعرها. وتعكس بلا شك قبضة التقاليد الصينية على الأرستقراطية اليابانية.

الأدب الكلاسيكى: فترة هيان (٧٩٤ - ١١٩٢م).

لقد كان نقل بلاط الدولة إلى العاصمة الجديدة هيان (كيوتو الآن) إيذانا ببدء عصر جديد من الإنتاج الفكرى الخصب والأدب الرائع، رغم أن الأدب

فى تلك الفترة بقى أرستقراطيا تأليفا وإستهلاكا، إذ كتبته حفنة قليلة من علية القوم وكانت تقرؤه قلة قليلة أيضا من علية القوم فى وحول العاصمة هيان، يدورون جميعا فى حلقة محدودة: النهر بالنسبة لهم هو فقط نهر كاموجادا والجبل بالنسبة لهم هو جبل هنران وهما المعالم الرئيسية حتى اليوم لمدينة كيوتو والقمر دائما يبزغ ويغيب فى جبال كيوتو لقد كان الأدب يتم تداوله بين مجموعة صغيرة من المثقفين هى التى تنتجه وهى التى تستهلكه.

وكان تطوير طريقة بسيطة لكتابة اللغة اليابانية عن طريق تمثيل الأصوات، وتطبيق هذه الطريقة على النثر بما لم يحدث من قبل على مجموعة قصائد الألف ورقة، كان ذلك عاملا مساعدا فى دخول القصص والحكايات وكتابة المذكرات الشخصية إلى الأدب اليابانى بل وأدى أيضا إلى تنقية الشعر نفسه. وعلى الرغم من أنه كان هناك فى هذا العالم رجال ونساء ذوى مكانة أدبية مرموقة، فقد ظل الرجال مشدودين إلى الأسلوب الحكومى المحكوم بالوثائق المكتوبة بالحروف الصينية؛ والطريقة المتبعة فى قرض الشعر الصينى. وكان على النساء وحدهن أن يجربن الكتابة بالخط اليابانى الجديد المتقلب الذى لا يثبت على حال. وأكثر من هذا فإن سيطرة عشيرة فوجيوارا على البلاط من خلال تزويج بناتهم من الأباطرة أضفى أهمية خاصة على بلاط الإمبراطورة ووصيفاتها. هؤلاء النسوة الشابات شبه الأرستقراطيات اللاتى عملن فى البلاط شاركن مشاركة فعالة فى الأنشطة الأدبية، وقد إنتشر بينهن الخط اليابانى الجديد الذى أطلق عليه خط كانا ثم منهن انتشر بين الرجال أيضا مما سهل إلى حد كبير إنتشار النثر بين الناس. ومهما يكن من أمر فقد كان أدب فترة هيان أدبا أرستقراطيا، نسائيا فى أحيان كثيرة شديد الحساسية والشفافية تجاه الناس والأشياء.

لقد كانت الكتابات الباكرة فى هذه الحقبة كلها تقريبا بالصينية، ذلك أن الثقافة الصينية نفسها كانت تفيض على اليابان من شبه القارة الصينية. وفى الفترة بين ٨١٤، ٨٢٧م تم تجميع ثلاث مجموعات من الشعر الصينى تحت رعاية البلاط الإمبراطورى اليابانى مما وضع الشعر اليابانى فى الظل لفترة

طويلة. ومع ذلك فإن الشعر اليابانى الذى نشأ فى أحضان الخاصة الأرستقراطية قد أخذ فى الذيوع والانتشار مع نمو إستخدام خط كانا، وحيث بدأ تجميع مجموعات خاصة من الشعر اليابانى بهذا الخط فى حوالى سنة ٨٨٠م وإن كان الشعر اليابانى بهذا الخط قد انتشر على نطاق واسع من خلال مجموعة الأشعار الإمبراطورية التى كتبت سنة ٩٠٥م بهذا الخط. إن مجموعة الشعر الإمبراطورية هذه أكثر رقيا من مجموعة الألف ورقة التى أشرنا إليها من قبل، وإن كانت أقل منها إسرافا فى العواطف. ولذلك حظيت هذه المجموعة الإمبراطورية بتقدير خاص وانكب الدارسون عليها بحثا ودراسة. هذه المجموعة فيها الحبكة الشعرية والصبغة أكثر من سابقتها وهى أكثر تنوعا فى الموضوعات، والتنغيم فيها أكثر من أصالة الفكر وتعكس تأثير البوذية على المجتمع اليابانى.

لقد تطور فن الرواية اليابانية فى مطلع القرن الحادى عشر وتمثله فى ذلك خير تمثيل (رواية جنجى) التى كتبتها موراساكى شيكيبو، الوصيفة فى بلاط الإمبراطورة. هذه الرواية لاينظر إليها على أنها أحسن قطع الأدب اليابانى فقط بل أهم أول رواية فى عالم الأدب على الإطلاق. وهناك روايات أخرى نشرت فى تلك الفترة بعضها يتصل بالواقعية وبعضها خيالى مبنى على الأساطير والخرافات. كما وجد فى هذه الفترة القصص الشعرى القصير.

ومن فئات الكتابات اليابانية فى تلك الفترة أيضا نصادف **المذكرات الشخصية والمجاميع** والتى إنتعشت وإزدهرت أيما إزدهار فى تلك الفترة من السلم والرخاء. ومن بين المذكرات الشخصية هناك «مذكرات توسا» سنة ٩٣٥م التى كتبها الشاعر كى نو تسورايوكى. و«مذكرات جوسامير» التى كتبتها زوجة أحد رجالات البلاط. ومذكرات ساراشينا سنة ١٠٦٠م وكتبتها وصيفة فى البلاط الإمبراطورى والتى إنتقلت من الريف ألى البلاط فى العاصمة وغير ذلك كثير. أما المجاميع فإنها لم تكن لتدور حول موضوع واحد وعادة لعدد من الكتاب، وربما تأتى على شكل مقالات تعليقية على نواحى مختلفة فى الحياة لكاتب واحد ويمثلها بأناقة شديدة (كتاب المخدة) بين ٩٩٥ -١٠٠٤م الذى كتبته سى شوناجون وهى سيدة بلاط، تلك الكاتبة المتألقة ذات الثقافة الواسعة

المتحررة والحساسية والشفافية المفرطة تعلق فى كتابها على حياة الأرستقراطية فى العاصمة بكل المرارة والسخرية وخفة الدم.

وفى نهاية هذه الفترة ظهرت الأعمال التاريخية التى تسرد الوقائع التاريخية بطريقة قصصية. ومن بين أعمال تلك الفترة سلسلة «المرآة» التى تصف الوقائع مع تعليقات سريعة من جانب المؤلفين الذى كانوا غالبا قساوسة أو رجال بلاط. ومن بين كتب السلسلة (قصة المجد بين ٨٨٨-١٠٩٢م)، (المرآة الكبرى. تغطى من ٨٥٠-١٠٢٥)، (مرآة الحاضر تغطى من ١٠٢٦-١١٧٠) ونشرت ١١٧٠م.

الأدب الوسيط ١١٩٢ - ١٦٠٠

تتسم هذه الفترة بالقلق السياسى والحروب بين الطوائف العسكرية التى حكمت البلاد. مما دعا كثيرا من أفراد الشعب الذين أصيبوا بالإحباط الشديد من جراء الفوضى التى عمت البلاد، إلى إعتناق البوذية أملا فى الخلاص وتحقيقا للسلام النفسى وأدى بالتالى إلى ظهور طوئف دينية

كما أدى ظهور العسكرية الأرستقراطية إلى إضافة بعد جديد للحياة اليابانية. لقد أدى الإنقلاب السياسى والإجتماعى المصحوب بالإقتصاد الإقطاعى، إلى إنهيار الأخلاق القديمة ومفاهيم القيم وفتح الباب أمام قيم جديدة ونظرة مختلفة إلى الحياة. وفى نفس الوقت بدأت الأرستقراطية القديمة فى الإختفاء من السلطة بل ومن الإنتاج الفكرى، ومن ثم بدأ القساوسة (وهم رجال منفصلون أصلا عن الحياة والعالم من حولهم) والهواة من الطبقات الوسطى والدنيا فى سد الفراغ الفكرى بفنون جديدة وآداب مختلفة، إنتشرت بسهولة فى عموم اليابان بما لم يحدث من قبل. لقد خفتت العواصم القديمة: نارا و هيان كمراكز ثقافية وبرزت أديرة البوذية وبلاطات الأسر العسكرية فى أقاليم الدولة كمراكز جديدة لرعاية الفنون والآداب. ونشأت فى تلك الفترة (قصص الحرب) ووصلت إلى جموع القراء فى أنحاء اليابان، وبدأ هنا أيضا نوع من الأدب الأرستقراطى الجديد ولكنه من نوع آخر.

لقد غلبت كتابات القساوسة على الإنتاج الفكرى اليابانى فى عصره الوسيط. كما سادت النزعة القدرية المشوبة بالحزن والدعوة إلى التمسك

بالأخلاق، قصص الحرب فى تلك الفترة، وكان الرواة الشعبيون يجوبون البلاد يحكون تلك الروايات. ومن قصص الحرب الشهيرة فى تلك الفترة (روايات هايكى ١١٩٠ - ١٢١٩) والتى تغطى سنوات ١١٣٢ - ١٢١٣م. وهناك قصص حرب أخرى تغطى فترة هوجن ١١٥٦م، وفترة حروب هيجى بين ١١٥٩ - ١١٦٠. وهناك قصص (سجل السلام الكبير) عن ظهور وسقوط الإمبراطور جو - دانجو وإعتلاء أسرة اشيكاحا للعرش.

وتوصف تلك الفترة أيضا بأنها العصر الذهبى للأدب الشعبى الروائى والتى من بينها قصص شعبى بوذى. وقد جمع منها فى تلك الفترة ١٩٦ رواية شعبية. وهى تعكس رغبة شديدة فى حب الإنسانية وفهم الرجال. ومن المجموعات الهامة أيضا مجموعة (مختارات من تعاليم تن ١٢٥٢) التى تحتوى على قصص شعبية تشرح عشر مبادئ أخلاقية مستمدة من البوذية.

وشاع فى هذه الفترة كذلك المجموعات الشعرية التى غلب عليها التشاؤم ورنة الحزن البوذية. ويرى أثر البوذية وتعاليمها الفلسفية بوضوح فى شعر تلك الفترة. وفى النصف الثانى من الحقبة ظهر نوع من الشعر عرف باسم الشعر الموصول، وقد نضج فيه إلى حد كبير. كما ظهر نوع فريد من الدراما فى هذه الفترة بلغ أوجه ونضجه فى نهايتها. ولم يكتف اليابانيون فى تلك الفترة بتأليف الدراما بل ومثلوها على مسرح بسيط وقد إنتشرت مسرحيات الأرواح البشرية والعفاريت إنتشاراً واسعا وكان الممثلون يلبسون لها الأقنعة الدالة والملابس المعبرة مصحوبين بجوقة من الموسيقيين والمغنيين.

الأدب اليابانى فى فترة توكوجاوا ١٦٠٠ - ١٨٦٧.

مع إنتهاء الحرب الأهلية بعد موقعة ١٦٠٠ الفاصلة كانت ملامح فترة توكوجاوا قد تبلورت وأرست أسس نحو ٢٦٠ عاما من السلام والرخاء. وبينما خلدت طبقة الساموراى إلى الراحة والإستهلاك فى مدنهم القلاعية، جاءت فرصة عامة الشعب فى المدن الحضرية للظهور والتطور، كما تطور إقتصاد المال

بتطورهم. وعلى الرغم من المكانة العالية لطبقة الساموراى فى السُلَّم الإجتماعى لفترة توكوجاوا، إلا أنهم ثبتوا على دخل محدد من قبل الدولة يتفاوت فقط داخل هذه الطبقة. ولكن هذا الدخل لم يضمن لهم حياة إقتصادية سهلة فاضطروا إلى التقوقع والسلبية والمثالية والمحافظة. وعلى الجانب الآخر مال التجار وعامة سكان المدن - الذين رغم وضاعة أصلهم كون بعضهم ثروات هائلة - إلى أن يكونوا واقعيين وإيجابيين ومنتجين. وكانت الفروق بين هاتين الطبقتين فى النزعات الأدبية والفكرية واضحة تماما. أما طبقة العسكريين مع رجال البلاط والقساوسة فقد حملوا تقاليد الأرستقراطية التى سادت فى الفترة السابقة: الشعر على الطريقة الصينية، ودراسة النصوص الكلاسيكية اليابانية والصينية. لقد بدأوا دراسة الكونفوشية وخاصة مدرسة تشوهسى؛ وعلى أثر هذه الدراسة أحلوا البوذية محلها كأساس فكرى وروحى لهم. ولم يظهر أثر التعاليم الأخلاقية للبوذية إلا متأخرا بين أوساط العامة فى المدن، على شكل أوامر ونواه. لقد إنتشر حب البحث والدراسة من الأرستقراطية إلى العامة وبالتالى توسعت القاعدة الفكرية فى الأمة بسرعة وقد ساعد على ذلك تطور مدارس المعابد ومدارس البيئة وتكنولوجيا الطباعة. وعلى الرغم من أن طبقة الساموراى قد وضعت أسس البحث العلمى الحديث فى مختلف الموضوعات، وأن طبقة رجال البلاط حافظت على الشعر الكلاسيكى حيا، فإن هذه الطبقة لا هى أنتجت أدب الساموراى ممثلا للعصر ولا هى أنتجت شعرا يابانيا ذا قيمة. فى مجال الأدب إنتمت هذه الفترة إلى عوام المدن الذين -من خلال واقعيتهم وحياتهم العملية - أنتجوا أعمالا تتسم بالعذوبة والنزعة الإنسانية مما أضفى عليه جاذبية دولية تدوم طويلا.

وبرز فى هذه الفترة كتاب حازوا شهرة كبيرة من أمثال ماتسو باشو (١٦٤٤-١٦٩٤) والذى إشتهر بكتابه **الطريق الضيق إلى الشمال العميق**. الذى يصف فيه رحلته إلى الشمال اليابانى مع حكايات شيقة على طول الطريق. ومن بينهم أيضا يوسابوسون (١٧١٦ - ١٧٨٤م) وكوبايشى ايسا (١٧٦٣ - ١٨٢٧).

لقد أطلق على روايات تلك الفترة إسما طريفا هو (كتب القصص). وبينما كتبت الروايات فى الفترة الكلاسيكية للأرستقراطية القارئة فإن كتب القصص فى فترتنا هذه كتبت للجموع. وتقع كتب القصص هذه فى عدة فئات تبعا لمحتوياتها بالدرجة الأولى . الفئة الأولى (قصص العالم الطافى) وأشهر كتاب فى هذه الفئة مجموعة إيهارا سيكاكو (١٦٤٢-١٦٩٢) المعنونة «الرجل الذى كرس حياته للحب ١٦٨٢» وهى أفضل ما أنتجت الفترة من نثر. وفصولها الأربعة والخمسون تصف حياة البطل العاطفية من سن السابعة حتى سن الستين. ولنفس المؤلف مجموعة قصصية واقعية بعنوان «مخزن اليابان الخالد ١٦٨٨» عن كيفية كسب المال والإحتفاظ بالثروة. وقد جاء بعد سيكاكو عديدون مشوا فى هذا الاتجاه ولكن هذه الفئة كلها من القصص خفت حدتها فى نهاية القرن الثامن عشر وظهرت خطوط أخرى لكتب القصص هذه، وظهرت فئات أخرى مثل «كتب القراءة»؛ «كتب المتعة»؛ كتب الفكاهة» وكتب القراءة كانت بنفس أسلوب القصص الشعبى الصينى وكانت أبرز الأعمال فى هذه الفئة هى كتب يوايدا اكينارى (١٧٣٤-١٨٠٩) الذى كتب مجموعة شهيرة مؤلفة من تسعة قصص عفاريت بعنوان «حكاية ضوء القمر والمطر١٧٧٦» كما كان من بين القصاصين المهرة فى هذه الفئة سانتو كايودن (١٧٦١-١٨١٦) وتاكيزاوا باكين (١٧٦٧-١٨٤٨). ومن الكتاب الذين برزوا فى فئة كتب الفكاهة نجد جيبنشا ايكو (١٦٤٤-١٤٩٤).

ومن بين المسرحيين الذين كتبوا لمسرح العرائس فى تلك الفترة نجد شيكاما تسو مونزايمون (١٦٢٣-١٧٢٥). وسواء كانت مسرحياته من مسرحيات الفترة أو من المسرحيات التاريخية أو المسرحيات المحلية، فإنها جميعا أكثر من رائعة. ولقد صور فى المسرحيات المحلية طبيعة النفس البشرية والتى تتضمن إنتحار العشاق. أما مسرحيات العرائس فقد إتخذت شكلها النهائى فى نهاية القرن السادس عشر .

الأدب الحديث ١٨٦٨- .

عام ١٨٦٨ فى حياة اليابان يمثل بداية مرحلة الانفتاح على العالم الخارجى ومحاولة جادة ومخلصة لتحديث الدولة تحت شعار إما القوة وإما الإنقراض. ولذلك بدأسباق اليابان للحاق بما عرف بالقوى الغربية فى ذلك الوقت. وقد قادت تلك الرغبة الشعب اليابانى على طريق مرهق وسريع لبناء الأمة مع فترات إحباط وتوقف ودمار كان أصعبها الهزيمة الرهيبة أمام الحلفاء فى سنة ١٩٤٥، ولكنها سرعان ما جددت نفسها مثل الفونكس وتماسكت وإنطلقت حتى بعد أزمة البترول. النكسات والإحباطات والانتصارات والإزدهارات والتقدم كلها إنعكست على الإنتاج الفكرى والأدب اليابانى منذ ١٨٦٨.

وبسبب التحولات السياسية والإقتصادية والإجتماعية العديدة التى حدثت بعد سنة ١٨٦٨ تغيرت التركيبة الإجتماعية للطبقات، تلك التركيبة التى كانت تضع طبقة الساموراى فى أعلى السلم الإجتماعى وطبقة التجار فى أسفل هذا السلم، تغيرت تلك التركيبة، رسميا وفعليا بالتدريج السريع. ويعنى هذا التغير أن أدبا قوميا يمكن أن ينشأ ويصلح لكل الطبقات. وكانت الرغبة الملحة فى الإطلاع على الصحف والمجلات الغربية من العوامل التى ساعدت على نشر الأدب بين الجموع. كما كانت هناك رغبة من جانب الشعب اليابانى فى أن يتعلم ويجرب الفكر الجديد والأشياء الجديدة. لقد ظهر فى مجال الأدب دراما جديدة وشعر جديد ولكن التطور الحقيقى حدث فى ميدان الرواية والقصة القصيرة.

وبعد فترة من إستيراد الأدب الغربى من خلال الترجمة والتقليد بدأ الكتاب اليابانيون فى إستيعاب وتمثل المثل الأدبية الجديدة مثل الواقعية والرومانسية والطبيعية التى كانت سائدة فى الغرب. وقد صدر سنة ١٨٨٦، أهم عمل نقدى تحليلى لفن الرواية، للمؤلف اليابانى تسوبوتشى شويو (١٨٥٩ - ١٩٣٥) بعنوان (روح الرواية). وكانت أول محاولة ناجحة لوضع النظرية الخاصة بالواقعية موضع التنفيذ فى رواية يابانية كانت رواية [السحب المندفعة

١٨٨٧-١٨٨٩] التى كتبها الكاتب المبدع فوتاباتى شيماى (١٨٦٤-١٩٠٩). وفى هذه الرواية التى تعتبر أول رواية يابانية من النوع الجديد يعرض الكاتب حياة نوع جديد من الأبطال يواكب المجتمع الجديد من خلال معاناة الألم لفقد حبه وفقد عمله وعطف الناس عليه. وقد كان الكاتب متأثرا إلى حد كبير بالكتاب الروس، كما قام بترجمة عظيمة بالعامية لعملى تورجنيف اللقاء، صدفة.

ومن بين من قدموا إسهامات طيبة فى هذه الفترة الباكرة من الأدب اليابانى الحديث يجب أن نتوقف أمام مورى أوجاى (١٨٦٢-١٩٢٢) الذى يعتبر رائد الرواية الرومانسية. لقد قضى اوجاى أربع سنوات فى ألمانيا بين ١٨٨٤-١٨٨٨، طبيبا عسكرياً وعندما عاد إلى اليابان أدخل معه الأفكار الجمالية والفلسفية والأدبية التى تعرض لها أثناء إقامته فى أوربا. وقد تضمنت كتاباته قصص الحب والقصص التاريخى وقصص الساموراى.

ومن الكتاب الجديرين بالذكر فى تلك الفترة والذى يرتبط بمورى اوجاى، ناتسومى سوسيكى (١٨٦٧-١٩١٦) الذى بدأ حياته دارساً للأدب الإنجليزى فى الجامعة الإمبراطورية فى طوكيو، ثم درس فى بريطانيا بين ١٩٠٠ و١٩٠٣.

ولقد إنتعش الأدب اليابانى إنتعاشاً عظيما فى الربع الأول من القرن العشرين بدخول دماء كثيرة إليه وبروز أسماء لامعة كثيرة فى سمائه؛ إلا أنه. خلال الثلاثينات وحتى نهاية الحرب فى سنة ١٩٤٥، لم يعد المناخ العام فى اليابان مهيئاً للإنتاج الأدبى. وحيث بذلت الحكومة اليابانية كل جهودها لكبت أية كتابات أو تعبيرات أو مشاعر معادية للحرب أو غير ملائمة للعصر. وقد إضطر الكتاب فى معظم الأحوال إلى أن يضعوا أقنعة مفتعلة على وجوههم ولم يجرؤ أى منهم على أن يبدى عداءه للحرب. وتعاطف بعضهم مع الحرب ولزم معظمهم الصمت. وبعد الحرب جاءت الفرصة الذهبية لنشاطات أدبية موسعة وغير عادية. وإستأنف الكتاب الراسخون نشاطاتهم الأدبية من جديد، وظهر عدد كبير من الأدباء الجدد. وبرز من بين هؤلاء الكاتب اليابانى الذى

عرف على المستوى الدولى ميشيما يوكيو (١٩٢٥-١٩٧٠) الذى كان روائيا ألمعيا وكاتب مسرحية من الطراز الأول وناقداً أدبيا فذاً وظل يكتب حتى يوم وفاته ومن بين أعماله: اعترافات القناع ١٩٤٩؛ معبد المخروط الذهبى ١٩٥٦؛ بحر الخصوبة ١٩٦٩ - ١٩٧١.

وبينما تطور الفن القصصى: الرواية والقصة القصيرة تطوراً كبيراً فإنه لم يحدث نفس التطور بالنسبة للشعر والدراما واليوم نجد الشعر التقليدى جنبا إلى جنب مع الشعر الحر، وتجارب أخرى حديثة. كذلك فإن الدراما لم تتطور حيث يسيطر الكابوكى على المسرح اليابانى حتى الآن.

الضبط البيليوجرافى للإنتاج الفكرى اليابانى

تتوافر للإنتاج الفكرى اليابانى شبكة من البيليوجرافيات التى تحصر وتسجل وتصف هذا الإنتاج من جوانب عديدة ومن ثم يمكن التعرف عليه. ونأتى هنا على أهم عناصر هذه الشبكة. وبعدها نستعرض كيف تصنف وتفهرس الكتب اليابانية. وقبل الدخول فى عناصر الشبكة البيليوجرافية نلقى نظرة فوقية طائرة على حجم الإنتاج الفكرى اليابانى الذى تحصره هذه الشبكة وكيف تطور، رغم أن هذه الدراسة هى دراسة تاريخية بالدرجة الأولى.

تكشف إحصائيات اليونسكو ومن قبلها إحصائيات الأمم المتحدة عن أن اليابان هى واحدة من أكبر خمس دول منتجة للكتب فى العالم حيث تتنافس هى والمملكة المتحدة على المرتبتين الرابعة والخامسة وذلك بعد الاتحاد السوفيتى المنحل والولايات المتحدة وألمانيا ويربو إنتاج اليابان حاليا فى نهاية القرن العشرين على خمسين ألف عنوان. ويكشف التطور التاريخى للإنتاج الفكرى اليابانى عن أن هذا الإنتاج يتضاعف كل عشرين سنة وتعتبر صناعة النشر اليابانية من أقوى الصناعات فى العالم وهى دائماً الأولى فى مجال كتب الأطفال. وإذا حللنا الإنتاج الفكرى اليابانى حسب موضوعاته المختلفة يمكننا ترتيبه على النسب المئوية الآتية تنازليا وبالتقريب:

الآداب	٢٢ ٪
العلوم الإجتماعية	٢٠ ٪
الفنون	١٠ ٪
الهندسة	٩ ٪
التاريخ	٨ ٪
العلوم البحتة	٨ ٪
كتب الأطفال	٧ ٪
الفلسفة	٥ ٪
الصناعة	٤ ٪
كتب مرجعية	٣ ٪
اللغات	٢ ٪
المعارف العامة	٢ ٪

ورغم أن النشر الحديث فى اليابان لا يزيد عن قرن إلا قليلاً إلا أن الإنتاج الفكرى اليابانى يربو عمره الآن على ١٢٠٠ سنة حيث أن أقدم كتاب يابانى وصل إلينا يرجع إلى سنة ٧١٢م. وكان أول كتاب مطبوع وصلنا فى العالم من اليابان هو كتاب «مليون باغودة» (الباغودة هى المعبد). وتذكر المصادر الثقاة أن اليابان قد أنتجت نصف مليون عنوان قبل دخول الطباعة الحديثة إليها منذ قرن تقريباً.

ويصل عدد الدوريات الصادرة فى اليابان الآن من مختلف الأنواع نحو ثلاثين ألف عنوان.

وفى هذا الإطار من الإنتاج الفكرى يتحرك الضبط البيليوجرافى فى اليابان. ويأتى على رأس التنظيم البيليوجرافى البيليوجرافيّة الوطنية وتحمل عنوان **«المطبوعات الجارية»** وهى تصدر الآن أسبوعيا وتجمع سنويا تحت عنوان: **«البيليوجرافية الوطنية لليابان»** والتى تتوفر على نشرها مكتبة الدايت الوطنية

التى تتمتع بحق الإيداع القانونى لكافة المطبوعات اليابانية بحكم القانون الصادر فى سنة ١٩٤٨ تحت إسم قانون مكتبة الدايت الوطنية؛ والذى بدأ العمل به فى سبتمبر سنة ١٩٤٨، وقد تتفاوت فترات الإيداع إلى أن أصبحت أسبوعية إعتباراً من يونية ١٩٥٥.

بدأت «**المطبوعات الجارية**» شهرية من اكتوبر ١٩٤٨ إلى يونية ١٩٤٩ بعنوان «تقرير الإضافات الشهرية، ثم تغير الإسم إلى «فهرس العناوين المنشورة فى اليابان» من يولية ١٩٤٩ وحتى يونية ١٩٥٥ ثم تغير الإسم إلى المطبوعات الجارية أو تقرير الإضافات الأسبوعية» من ١٨ يونية ١٩٥٥ - . وتنقسم إلى قسمين وملحق: القسم الأول للمطبوعات التجارية والثانى خاص بالمطبوعات الرسمية أو الحكومية، والملحق خاص بالدوريات ويصدر فى آخر إصدارة كل شهر.

أما «**البيليوجرافية الوطنية لليابان**» والتى تصدر كذلك عن مكتبة الدايت الوطنية فى طوكيو فقد بدأت صدوراً فى سنة ١٩٥١ وهى عبارة عن تجميع للإصدارات الأسبوعية من «المطبوعات الجارية» مع إضافة أية عناوين لا تكون قد أدرجت بها مع ملاحظة أن الإصدارة السنوية الأولى والثانية تغطيان الفترة بين إبريل ١٩٤٨ - ديسمبر ١٩٤٩، والثالثة تغطى ١٩٥٠ وصدرت سنة ١٩٥١ كما أشرت سابقاً.

وفيما يتعلق بالإنتاج الفكرى اليابانى قبل سنة ١٩٤٨ فإنه قد حصر فى ببليوجرافية بعنوان **الفهرس العام للكتب اليابانية**، وهو يقوم مقام الببليوجرافية الوطنية حيث أنه أشمل وأعمق قائمة بالكتب المكتوبة والمحررة والمترجمة باليابانية منذ أقدم العصور وحتى ١٨٦٧م. ويكمل ذلك فهارس مكتبة الدايت الوطنية حتى ظهور الببليوجرافيّة الوطنية لليابان؛ مما يجعل الكتاب اليابانى كله تحت الضبط الببليوجرافى منذ ظهر حتى وقتنا.

والتفاصيل الآتية نقدمها لسلسلة الببليوجرافيات التى أصدرتها مكتبة الدايت

الوطنية قبل الببليوجرافية الوطنية لليابان وبعد الفهرس العام للكتب اليابانية:

- الفهرس العام للكتب اليابانية .- طوكيو: ايوانامى شوتن، ١٩٦٣ - ١٩٧٨ .- ٨مج يضم ٥٠٠,٠٠٠ عنوان نشرت قبل ١٨٦٨ . وقد بنى على مقتنيات ٤٢٦ مكتبة فى اليابان، سواء من المخطوطات أو المطبوعات.

- فهرس كتب مكتبة الدايت الوطنية المطبوعة فى فترة ميجى.- طوكيو: مكتبة الدايت، ١٩٧١ - ١٩٧٦ .- ٦مج.

يضم نحو ١٢٠,٠٠٠ عنوان طبعت فى فترة أسرة ميجى بين ١٨٦٨ - ١٩١٢ . ومعظم الكتب المسجلة هنا جاءت من المكتبة الملكية لأسرة ميجى التى كانت تضم نسخة إيداع من كل كتاب صدر فى تلك الفترة. كما يضم أيضا بعض الكتب التى زودت بها مكتبة الدايت وترجع إلى تلك الفترة مما لم يوجد فى المكتبة الإمبراطورية. وقد حذف من هذا الفهرس الجرائد والمجلات حيث سجلت فى ببليوجرافية خاصة كما سنرى فيما بعد. ومن هنا يقوم هذا الفهرس مقام الببليوجرافية الوطنية اليابانية للكتب بين ١٨٦٨-١٩١٢ .

- فهرس العنوان للكتب اليابانية والصينية الموجودة بالمكتبة الإمبراطورية.- طوكيو: المكتبة الإمبراطورية، ١٨٩٩ - ١٩٦٢ .- ١٢مج.

المجلد الأول يضم مقتنيات المكتبة منذ ١٨٩٣ وتتوالى المجلدات حتى مقتنيات ١٩٤٠ . ولأن هذا الفهرس يسجل الكتب المودعة فى وزارة الشئون الداخلية منذ ١٨٧٥ (تاريخ حق المؤلف) فإن هذا الفهرس يقوم مقام الببليوجرافيّة الوطنية بين ١٩١٢ - ١٩٤٠ .

- الفهرس المصنف بالكتب اليابانية والصينية فى المكتبة الإمبراطورية والمكتبة الوطنية: يناير ١٩٤١- مارس ١٩٤٩ .- طوكيو: مكتبة الدايت الوطنية، ١٩٦٤ .

وهو إستمرار لفهرس المكتبة الإمبراطورية المشار إليه بعاليه ويسجل ٣٢٨٩٠ عنواناً جديداً وردت إلى المكتبة فى تلك الفترة.

أما عن ببليوجرافيات الدوريات فتمثلها الفهارس الآتية التى أعدتها كذلك المكتبة الوطنية وتكمل سلسلة ببليوجرافيات الكتب.

- قائمة مكتبة الدايت الوطنية بالجرائد.- طوكيو: مكتبة الدايت الوطنية، ١٩٧٠. وتضم هذه القائمة نحو ٣٠٠٠ جريدة مودعة فى المكتبة الوطنية وترجع بداياتها إلى منتصف القرن التاسع عشر.

- فهرس الدوريات بمكتبة الدايت الوطنية، ١٩٧٣ مع فهرس الدوريات الصينية والكورية .- طوكيو، مكتبة الدايت الوطنية، ١٩٧٤.

هذا العمل عبارة عن طبعة منقحة وموسعة للطبعة المبدئية التى صدرت فى سنة ١٩٦٩ تحت عنوان قائمة الدوريات بمكتبة الدايت الوطنية. وتضم ٢٥٨٢٩ دورية يابانية.

وإلى جانب الببليوجرافية الوطنية بكل حلقاتها السابقة هناك **ببليوجرافيات تجارية**. ومن أهمها **«أخبار النشر»** التى يصدرها فى طوكيو شوبان نايوسوشا منذ ١٩٤٦. وهى قائمة مصنفة بالكتب التجارية الجديدة، تصدر ثلاث مرات فى الشهر. وهناك أيضاً «الكتاب السنوى للنشر» ويصدر فى طوكيو منذ سنة ١٩٥١ لنفس الناشر السابق، إذ هو تجميع سنوى لنفس القائمة سالفة الذكر.

أما الببليوجرافيات التجارية الراجعة فمن بينها **فهرس كتب إتحاد تجار الكتب في طوكيو** ١٨٩٣ - ١٩٤٠. ويقع فى تسعة مجلدات. وهناك **الكتاب السنوى** للنشر الذى صدر فى طوكيو ١٩٢٦ - ١٩٢٨ فى ثلاثة مجلدات والكتاب السنوى للنشر ١٩٢٩ - ١٩٤٠ فى إثنى عشر مجلداً؛ والكتاب السنوى للنشر ١٩٣٠ - ١٩٤١ فى إثنى عشر مجلداً. الكتاب السنوى للنشر ١٩٤٢ فى مجلد واحد؛ الكتاب السنوى للنشر ١٩٤٣ - ١٩٤٨ فى ثلاثة مجلدات. الفهرس الموحد للكتب الجارية ١٩٤٤.

كذلك حظيت المطبوعات الحكومية بسلسلة متلاحقة من الببليوجرافيات

الخاصة بها رغم إدراجها كما رأينا فى الببليوجرافية الوطنية. وهى فى معظمها من إعداد مكتبة الدايت الوطنية. ومن أهم تلك الببليوجرافيات:ـ

- الفهرس الموحد بالمطبوعات الحكومية.- طوكيو: مكتبة الدايت الوطنية، ١٩٥٢ - ١٩٦٠، ٨مج.

- المطبوعات الحكومية: فهرس مشروح - طوكيو: مكتبة الدايت الوطنية، ١٩٧١.

- مطبوعات حكومة اليابان: فهرس مشروح، ابريل ١٩٧٠- مارس ١٩٧٤.- طوكيو: مكتبة الدايت الوطنية، ١٩٧٥.

- التقرير الشهرى بالمطبوعات الحكومية.- طوكيو: مكتب الطبع بوزارة المالية، ١٩٥٧- .

- دليل المطبوعات الحكومية.- طوكيو: مكتبة الدايت الوطنية وإتحاد المكتبات المتخصصة، ١٩٥٣ - . سنوى.

- وتتسع شبكة الببليوجرافيات اليابانية إتساعا كبير بحيث تغطى إلى جانب ما سبق، فهارس المقتنيات وقوائم الدوريات الجارية والراجعة والمترجمات بل والمطبوعات الممنوع تداولها والآلاف من الببليوجرافيات الموضوعية والشكلية والفئوية. مما إستدعى وجود الطبقة الثانية من الببليوجرافيات المعروفة بـ ببليوجرافيات الببليوجرافيات. وأهم هذه الببليوجرافيات:

- ببليوجرافيا الببليوجرافيات/ إعداد كيتارو أمانو.- طوكيو: جاناندو، ١٩٧٣- . ٤مج.

وتقع فى أربعة مجلدات، الأول يضم ٢١٥ ببليوجرافية نشرت قبل ١٨٦٧، ٦٣٣٥ ببليوجرافية عامة نشرت بين ١٨٦٨ و١٩٦٥. مج٢، ٣ للببليوجرافيات المتخصصة ومج٤ عبارة عن كشافات.

وقد سبق هذه الببليوجرافية أخرى بعنوان: ببليوجرافية الببليوجرافيات

العالمية التى أعدها ماميا شوتن فى اوساكا ١٩٣٣. كما أن هناك باباً بعنوان: «البيليوجرافيات الحديثة والمطبوعات عن الكتب» فى دورية «أخبار تجارة الكتب القديمة اليابانية».

فهرسة وتصنيف الكتب اليابانية

جل المكتبات اليابانية تعتمد اليوم فى تصنيف الكتب على **تصنيف نيبُّون العشرى**، وعلى **قواعد نيبُّون للفهرسة**، فى فهرسة الكتب. وتصنيف نيبوّن العشرى قدم لأول مرة سنة ١٩٢٨، على يد كيوشى مورى ونشرت أول طبعة منه فى السنة التى تلت (١٩٢٩). وتتوالى الطبعات وعلى سبيل المثال صدرت الطبعة السابعة سنة ١٩٦١. لقد بنى مورى هذا التصنيف على تصنيف ديوى العشرى وتطبيق مبادئه العشرية على الأقسام الرئيسية فى تصنيف كتر الموسع ليتمكن من تسكين الموضوعات اليابانية والصينية التى لا مكان لها فى صلب كل منهما. وقد أجرى مسح فى سنة ١٩٦٤، قام به إتحاد المكتبات اليابانية كشف عن أن ٥٨٤ مكتبة من مجموع ٦٣٤ مكتبة عامة (٩٢٪) وأن ٣٧٩ مكتبة كلية وجامعة من أصل ٤٨٦ مكتبة (٧٨٪) تستخدم هذا التصنيف.

ومما يجدر ذكره أن مكتبة الدايت الوطنية فى طوكيو والتى نشأت سنة ١٩٤٨ بدأت بتطبيق تصنيف نيبّون العشرى للكتب اليابانية والصينية؛ وتصنيف ديوى العشرى للمطبوعات الغربية. وقد طورت نظاما خاصاً بها تحولت إليه إعتباراً من سنة ١٩٦٩. ونظامها فى الواقع يشبه من حيث المبدأ تصنيف مكتبة الكونجرس فهى تستخدم حرفا أو إثنين للأقسام الرئيسية ثم بعد ذلك تستخدم الأرقام من ١ - ٩٩٩ لتغطية الفروع فى مقتنياتها للسنوات الخمس عشرة الأولى. وبطاقاتها المطبوعة التى توزعها تغطى هذا التصنيف إلى جانب تصنيف نيبّون العشرى.

وفيما يتعلق بالفهرسة الوصفية تستخدم **قواعد نيبُّون للفهرسة** والتى طورت سنة ١٩٦٥ لفهرسة الكتب اليابانية والغربية على السواء وهى متأثرة جزئيا

بقواعد إتحاد المكتبات الأمريكية فى مداخل المؤلف والعنوان لسنة ١٩٤٩. وقواعد مكتبة الكونجرس للفهرسة الوصفية لنفس سنة ١٩٤٩.

وطبقا لهذه القواعد تندرج بيانات الوصف الببليوجرافى للكتب اليابانية وغيرها من كتب الشرق الأقصى تحت مداخل بالأشكال الصينية (الحروف الصينية: كانجى) والخط اليابانى الصوتى: كانا. وبالنسبة لترتيب المداخل فإن كل المداخل بالحروف الصينية أى الأشكال مع أرقام القراءة التى تكرر بالخط اليابانى أو الرومنة على يمين المدخل الصينى من أعلى البطاقة لتوضيح القراءة ومن ثم موضع الترتيب. وفى نهاية السبعينات تمت مراجعة قواعد الفهرسة هذه على ضوء التقنين الدولى للوصف الببليوجرافى. وأى إنحراف عن تلك القواعد الدولية لأسباب محلية يصاغ بطريقة لا تعرقل التبادل الدولى لبيانات الفهرسة. وكان الإتجاه فى أن تكون البطاقة الرئيسية هى بمدخل العنوان الموحد وليس بمدخل المؤلف الرئيسى والذى أقرته مبادئ مؤتمر باريس. ومن هنا فإن مدخل العنوان الموحد سوف يقدم فقط بيانات الوصف دون حاجة إلى مدخل المؤلف، واسم المؤلف يمكن إدراجه بسهولة داخل بيانات الوصف. وأية مداخل ضرورية يمكن إدراجها فى المتابعات. وأى مدخل محلى يمكن إدراجه فوق المدخل الموحد.

من جهة أخرى فإن المجموعات اليابانية فى مكتبات أمريكا الشمالية تصنف بتصنيف مكتبة الكونجرس. لقد سجل فى سنة ١٩٧٠، أن ٣٦ مكتبة بها مجموعات يابانية إستخدمت تصنيف مكتبة الكونجرس، بينما ثمان مكتبات إستخدمت تصنيف هارفارد - ينشنج، وأن ١٢ مكتبة إستخدمت تصنيفات أخرى. وفى هذه الفئة الثالثة كان ضمن التصانيف الأخرى، تصنيف ديوى العشرى وتصنيف نيبُّون. أما فيما يتعلق بالفهرسة الوصفية فالغالبية الساحقة تستخدم القواعد الأنجلو أمريكية والفصل السادس المعدل ثم التقنين الدولى للوصف الببليوجرافى. وبيانات الوصف تقدم بخط الكانجى الصينى وخط الكانا اليابانى. أما لأغراض صف المداخل فإن المداخل الرئيسية تكتب بالحروف الرومانية كما يرومن أيضا عنوان العمل.

نقحرة الكلمات اليابانية

هناك نظامان أكثر شيوعا الآن فى نقحرة الكلمات اليابانية وهما: نقحرة مجلس الوزراء (كونراى) ونقحرة هيبورن. والفرق الأساسى بين الإثنين يكمن فى أن نظام هيبورن هو نقل صوتى للكلمات اليابانية كما تنطق بحروف إنجليزية؛ أما نظام مجلس الوزراء فهو نظام منطقى يمثل البنية اللفظية للكلمات اليابانيةوالتى لا نصادفها فى أية لغة أجنبية.

وقد بدأ نظام هيبورن لرومنة الكلمات اليابانية فى «قاموس يابانى - إنجليزى» الذى وضعه جيمس كورتيس هيبورن (١٨١٥ - ١٩١١) والذى نشر لأول مرة سنة ١٨٦٧ فى شنغهاى. ونشرت طبعته الثالثة سنة ١٨٨٦ مع تغيير شامل فى نظام الرومنة وهو النظام الذى تبنته جمعية الحروف الرومانية ومن ثم أطلق عليه إسم جديد هو روما جيكاى أو نظام هيبورن المعدل والذى تُعوِّل عليه مكتبات أمريكا الشمالية فى تعاملها مع الكتب اليابانية وهو المثبت فى قاموس كينكيوشا الجديد: يابانى - إنجليزى. كما قام المعهد الوطنى الأمريكى للمعايير بإقرار هذا النظام المعدل وتبناه فى معايير النظام الوطنى الأمريكى لرومنة اليابانية وذلك فى ١٨ من اكتوبر سنة ١٩٧١. وإن كان قد أدخل عليه بعض تعديلات طفيفة أدخلت فى طبعة ١٩٥٤ من قاموس كينكيوشا المشار إليه.

ومن جهة أخرى فإن نظام كونراى (مجلس الوزراء) يرجع إلى سنة ١٨٨٥ عندما وضع آيكتسو تاناكاديت (١٨٥٦ - ١٩٥٢) نظام نيبّون للرومنة كى يحل محل نظام هيبّورن السائد. وبعد سبع سنوات من المناقشات المستفيضة والتعديلات التى قام بها مجلس خاص شكل لهذا الغرض من قبل وزارة التعليم اليابانية، أصدر مجلس الوزراء فى ٢١ من سبتمبر ١٩٣٧ بيانا يعلن فيه أن نظام نيبون المنقح لرومنة اليابانية قد ووفق عليه كنظام رسمى من قبل الدولة. وقد أطلق عليه آنذاك إسم نظام كوكوتاى (المرخص به من قبل الحكومة) ثم أطلق عليه بعد فترة إسم نظام مجلس الوزراء (كونراى)؛ وقد سادت فترة من

الخلط والتردد فى تطبيقه بعد الحرب إلى أن أصدر مجلس الوزراء تأكيدا بأنه النظام الرسمى فى التاسع من ديسمبر سنة ١٩٥٤.

وكما هو متوقع فإن مكتبة الدايت الوطنية لابد وأن تستخدم النظام الحكومى وهو نظام كونراى. ومع ذلك فإن نظام هيبّورن مايزال مستخدما بواسطة الكثير من الهيئات الرسمية والخاصة فى اليابان ومن بينها وزارة الخارجية؛ وزارة التجارة الدولية؛ وزارة الصناعة؛ مكتب السياحة اليابانية؛ وجريدة تايمز اليابانية. وقد عرضت قضية رومنة اللغة اليابانية أمام اللجنة الفنية رقم ٤٦ المنبثقة عن المنظمة الدولية للمعايير ولكنها لم تتخذ فيها قراراً.

إن مشكلة أساسية تتعلق برومنة اليابانية هى مشكلة تجزئ الكلمة: فالجمل والعبارات اليابانية لا تقسم إلى كلمات عندما تكتب فإلى أى حد أو عند أى موضع يجب أن تقسم فى حالة النقحرة، تلك مشكلة، حولها خلاف واسع حتى بين الفقهاء اليابانيين فى اللغة اليابانية أنفسهم. والمثل يأتى من جملة: (إيكاسيتاكارا) التى ترجمتها بالعربية «طالما أننى تركته يذهب» فإنها يمكن أن تقطع بأربعة طرق مختلفة:

١ - ايكاسيتاكارا (بدون تقطيع)

٢ - ايكاسيتا كارا

٣ - ايكاسى تاكارا

٤ - ايكا سى تا كارا

وهذه وجهات نظر أربعة من علماء اللغة اليابانية اليابانيين أنفسهم. ومن المعروف أن التقطيع غير السليم للجملة حال النقحرة سوف يغير المعنى الأصلى فى اليابانية.

وبالنسبة لتقطيع الكلمات اليابانية فإن المكتبات فى أمريكا الشمالية حاليا تستخدم فى «قواعد فهرسة إتحاد المكتبات الأمريكية ومكتبة الكونجرس: إضافات

وتغييرات ١٩٤٩ - ١٩٥٨. - واشنطن: مكتبة الكونجرس، ١٩٥٩». تستخدم الدليل المعنون: «لغات الشرق الأقصى: دليل الرومنة والكبتلة وعلامات الترقيم وتقطيع الكلمات للغات الصينية واليابانية والكورية». ولكن هذا الدليل ليس شاملاً وليس دقيقا بما يكفى لتقديم التوجيهات المتسقة والموضوعية للرومنة. كذلك فإن المعهد الوطنى الأمريكى للمعايير قد قبل الخطوط التوجيهية الموجودة فى هذا الدليل ولكنه وجَّه له إنتقادات ووصفه بأنه غير كاف وغير دقيق فى مقدمة «النظام الوطنى الأمريكى لمعايير رومنة اللغة اليابانية» حيث ورد فيها ما نصه «مايزال الشوط طويلاً وشاقاً حتى نصل إلى حلول مرضية لكل المشاكل الكامنة وراء تقطيع الكلمات الصينية - اليابانية».

ولابد وأن نضيف هنا أن اليابانية المنقحرة لايمكن أن تحل تماما محل يابانية كانجى أو كانا المشار إليهما من قبل. وبالضرورة فإن قواعد الفهرسة الحالية تحتم إستخدام الخط اليابانى على الأقل فى الوصف الببليوجرافى.

ولابد من الإشارة هنا إلى برنامج الولايات المتحدة المعروف باسم **البرنامج الوطنى للتزويد والفهرسة** الذى بدأ سنة ١٩٦٦، وإمتد إلى اليابان فى مايو ١٩٦٨. وفى ظل هذا البرنامج يقوم مكتب مكتبة الكونجرس فى طوكيو بإرسال بطاقات فهارس مكتبة الدايت الوطنية مع المطبوعات اليابانية إلى مكتبة الكونجرس فى واشنطون. ويقوم مكتب طوكيو بداية بإضافة المداخل المرومنة فوق بطاقات مكتبة الدايت المبدئية، وتقوم مكتبة الكونجرس فى واشنطون بالفهرسة الموضوعية والتحرير النهائى للبطاقات على نحو ما تقوم به فى أنحاء متفرقة فى العالم والتى تحصل على مطبوعاتها. وبالنسبة لليابان فإن تلك البطاقات النهائية يعاد إرسالها إلى طوكيو لإعادة رقنها لأن جسم البطاقة لابد من كتابته بالخط اليابانى ثم تعاد إلى واشنطن باعتبارها البطاقات الأم بحيث يصير إستنساخها وتوزيعها على المكتبات الداخلة فى البرنامج. والإعتماد على هذه البطاقات أساسى فى المكتبات التى تقتنى مجموعات باللغة اليابانية وذلك لصعوبة تدبير مفهرس محلى لتلك المواد. فالمطبوعات التى تطلبها مكتبة

الكونجرس لها وللمكتبات المشتركة معها فى البرنامج تأتى من ثلاثة مصادر هى: **مورد تجارى** بنظام الطلب المفتوح يعقد مع البرنامج المشار إليه، **مكتبة الدايت الوطنية**، **الناشرون** مباشرة حيث يقوم مكتب مكتبة الكونجرس. بالإتصال ببعضهم مباشرة. ويتراوح ما تحصل عليه مكتبة الكونجرس من ١٢ ألف إلى ١٥ عنوان فى السنة وتقوم بتوزيع بطاقات الفهرسة على المكتبات الراغبة والمقتنية لتلك المواد.

المكتبات فى اليابان

لا نستطيع للأسف أن نتتبع تاريخ المكتبات فى اليابان لأبعد من القرن السابع الميلادى، كما أن معلوماتنا عن المكتبة اليابانية حتى فى العصور الوسطى هى معلومات عامة وخطوط عريضة، ذلك أن الحضارة اليابانية هى فى مجملها حضارة حديثة وليست بنفس عراقة الحضارة الصينية أو حتى الحضارة الكورية. فاليابان لها حاضر وليس لها ماض. والثقافة اليابانية هى نتاج ثلاث حضارات: الحضارة الصينية التى دخلت إلى اليابان أول ما دخلت عن طريق كوريا؛ وحضارة الهند البوذية ثم الحضارة الغربية.

ويمكننا تتبع المكتبة اليابانية فى مكتبة معبد هوريوجى فى ايكاروجا بالقرب من نارا. وهذا المعبد بناه شوتوكو - تايشى (٥٧٤ - ٦٢٢م) حوالى سنة ٦٠٧م. لقد كان شوتوكو - تايشى أميرا نائبا للأمبراطورة سويكو سنة ٥٩٣م. وكان من الرواد الأوائل فى الحياة السياسية والفكرية لليابان. وكان قد درس البوذية والكونفوشية والإدارة العامة والحكومية على يد القساوسة والأساتذة الكوريين. وفى سنة ٦٠٣م أسس النظام الحكومى الطبقى الرسمى الذى تألف من إثنتى عشرة درجة. وفى سنة ٦٠٤م وضع أول دستور يابانى (المسمى بدستور المواد السبعة عشر). لقد درس علوما كثيرة داخل مبنى خاص ملحق بالمعبد المشار إليه كان يطلق عليه (يوميدونو)، وصورة الأمير والمبنى مرسومتان الآن على ورقة النقد من فئة الألف ين. ومن هنا كان يوميدونو أول مكتبة فى

تاريخ اليابان. وفى ذلك الوقت كان نقل الثقافة الصينية إلى اليابان عبر كوريا قد بدأ يخفت وكذلك عمد الأمير إلى إرسال الدارسين اليابانيين والقساوسة إلى الصين مباشرة لدراسة وإستيعاب الثقافة الصينية بما فى ذلك دراسة الإدارة العامة والحكومية. ومن ثم فقد كان من أوائل المبعوثين مباشرة إلى الصين يابانيان هما: اونو - نو- اموكو سنة ٦٠٦، ٦٠٧م و اينوجامس - نو - ميتا سوكى سنة ٦١٤م. وطبقا للسجلات الصينية الرسمية الراجعة إلى أسرة (سُوِى) فإن أول بعثة يابانية إلى الصين حدثت سنة ٦٠٠م. وبعد حلول أسرة تانج محل أسرة سوى إستؤنفت البعثات الدراسية اليابانية إلى الصين فى السنة الثانية من حكم الإمبراطور جومى سنة ٦٣٠م وإستمرت حتى بلغ عدد المجموعات المسافرة إلى هناك مالا يقل عن عشرة مجموعات حتى سنة ٨٣٤م. وقد توقفت البعثات بعد ذلك، عندما إعترض سوجاوارا - نو - ميكيزين (٨٤٥ - ٩٠٣م) على الذهاب إلى الصين مبعوثا سنة ٨٩٤م، فوق العادة لليابان.

وفى نهاية فترة أسرة أسوكا حدث إنقلاب حاول إدخال إصلاحات (تاييكا) سنة ٦٤٥م. وكان بطلا هذا الإنقلاب الأمير ناكانوو و ناكاتومى - نو - كاماكو. وقد تم نقل العاصمة من اسوكا (فى نارا) إلى ستسو: الموجودة الآن فى اوساكا وولاية هيوجو). وقد تمركزت الحكومة حول الإمبراطور حيث كانت تحتذى نظام أسرة تانج فى الصين. وقد أصبح ناكانوو (٦٢٦ - ٦٧١م) الإمبراطور تنجى فى سنة ٦٦٢م. وتسمى ناكاتومى - نو- كاماكو باسم فوجيوارا - نو- كاماتارى (٦١٤ - ٦٦٩م) مؤسس أسرة فوجيوارا ذات النفوذ السياسى الضخم.

ويمكننا أن نتلمس آثار إصلاحات تاييكا فى القوانين والقرارات التى صدرت فى عهد تايهو والتى صدرت سنة ٧٠١م على يد الإمبراطور مونمو. ونتيجة لأحد هذه القوانين أنشئت إدارة حكومية باسم (مكتبة التدوين والكتب). كانت وظيفتها الأساسية تدوين تواريخ الدولة وتجميعها والتأريخ للأسرة الملكية الحاكمة ونسخ المخطوطات وتجليد الكتب وإستيراد نوعيات الورق الممتازة والحبر

الصينى وفرشات الكتابة. هذه الإدارة الحكومية أنشأت فيما بعد مصنعا للورق لإنتاج الأنواع الجيدة من الورق. وفى جميع الأحوال أنيط بهذه الإدارة نشر وحفظ الكتب. وكان أقدم عملين صدرا عن هذه الوكالة وأقدم عملين فى كل اليابان كما قدمنا هما (سجل الوقائع القديمة) سنة ٧١٢م و(حوليات اليابان) سنة ٧٢٠م. هذا المكتب بعد عدة أجيال أصبح يقوم بوظيفة المكتبة والأرشيف الوطنى بعد أن تراكمت فيه الكتب والسجلات والوثائق.

وأول مكتبة تفتح للجمهور العام فى اليابان هى مكتبة (أُون - تايى) والتى أنشئت فى نهاية القرن الثامن الميلادى فى ولاية نارا حيث قام المدعو (ايسونوكامى - ياكاتسوجو) بتحويل سكنه السابق إلى مكان للمطالعة سنة ٧٧٠م وجمع فيه كتبا غير بوذية وفتحه للشباب الراغبين فى الدرس والإطلاع.

وبسبب الندرة النسبية للكتب غير البوذية، كان من الممكن فى هذه المكتبة قراءة الكتب الكونفوشية المقدسة مثل (المختارات الأدبية). ومن هنا لعبت هذه المكتبة دوراً هاماً كمؤسسة تربوية. ولكن للأسف لم تستمر هذه المكتبة العامة لأبعد من وفاة مؤسسها (إيسونوكامى - ياكاتسوجو) سنة ٧٨١م.

وكان لإنتقال العاصمة من نارا (تسمى الآن هييجو) إلى كيوتو (اسمها الآن هييان) سنة ٧٩٤م على يد الإمبراطور كانمو تأثيرها البالغ على تطور الأحداث فى فترة هييان والتى انتهت بتأسيس الحكومة الإقطاعية فى كاماكورا على يد مينا موتو - نو- يوريتومو سنة ١١٨٥م. وفى خلال فترة هييان هذه - وخاصة بعد توقف التبادل الثقافى الرسمى مع الصين - إضطرت اليابان إلى تطوير نظام ثقافى وفكرى خاص بها أو على الأقل أخضعت الثقافة الوافدة إليها لظروفها الخاصة. ولما كانت تلك الفترة هى «فترة الأرستقراطية فقد قام النبلاء بإنشاء مدارس خاصة لتربية أبنائهم وتعليمهم ليصبحوا موظفى الدولة مستقبلاً. وكانت هناك مكتبات ملحقة بتلك المؤسسات التعليمية وفى تلك المكتبات كانت هناك مجموعات خاصة توضع فى خدمة الطلاب. مثل مدارس كانجاكو- إن؛

والقسيس كوكايي؛ فوميكورو وغيرها ومما يذكر أن مدرسة كانجاكو - إن، قد أسست سنة ٨٢١م وإستمرت لأكثر من ٤٦٠ سنة. كذلك فإن الأسرة الإمبراطورية إستمرت على التقليد القديم الذى يقضى بإنشاء معابد تلحق بها مكتبات تضم الكتب البوذية.

وكانت ثانى أقدم المكتبات العامة فى اليابان قد أقامها المواطن سوجاوارا- نو- ميكيزين وعرفت باسم كوبايي - دِنْ (بيت زهور البرقوق الأحمر)، إشارة إلي أنه أقامها فى منزله وذلك لأن الدولة لم تكن تهتم أنذاك بفتح مثل هذه المكتبات للإستخدام العام.

ولابد من الإشارة هنا أيضا إلى أن حقبة هييان هذه كانت الحقبة التى تم فيها تطوير وتبسيط الحروف الصينية وإستخدامها فى الكتابة وإستخدام الرموز ذات الدلالات الصوتية على النحو الذى أشرنا إليه فيما سبق وأعنى بهما إدخال هيراجانا وكاتاكانا. ولهذا الأمر دلالته الخطيرة فى جعل القراءة والكتابة عملية أسهل وأيسر وإشاعتهما بين الجموع، مما أدى حتماً إلى زيادة الإنتاج الفكرى وتشجيع الفنون والآداب بدرجة كبيرة.

المكتبات فى اليابان بعد القرن الثامن الميلادى

على الرغم من أن الكتب المطبوعة المتعلقة بالبوذية والكونفوشية كانت تستورد من الصين مباشرة أو عن طريق كوريا، فقد كانت الطريقة الرئيسية لاستنساخ الكتب فى اليابان تتم عن طريقة الخطاطة باليد وهى عملية مستهلكة جداً للوقت والجهد. ومثل هذه التضحية بالوقت والجهد يمكن أن تفهم فقط فى ضوء نسخ الكتب الدينية بقصد الحصول على الثواب الأبدى من وراء كل حرف وكل كلمة تكتب باليد والقلب والعقل التى يقدمها الناسخ فى سبيل الحياة الأخرى. مثل هذه العقيدة ومثل هذا السلوك كان يبذل أيضا مع كتابة ونسخ تعاليم كونفوشيوس رغم عدم وجود حياة أخرى فى هذا الدين. وعلى الرغم من أنه كان عملاً مضيناً إلا أنه كان يتم بكل الإخلاص والحيطة والحذر

الواجين. ولم تدخل الطباعة بالكتل الخشبية التى عرفت فى الصين وكوريا إلى اليابان إلا فى القرن الحادى عشر وعلى إستحياء شديد. والإستثناء الوحيد لدخول الطباعة مبكراً إلى اليابان هو طبع التعاليم البوذية المعروفة (دارانى - سوترا فى المليون برج) سنة ٧٧٠م. فقد طبع من هذه التعاليم أربعة أنواع مع صلوات الإمبراطورة كوكن لبوذا وإستعمل فيها مليون لفافة ورق (٥,٥ × ١٧ - ٥٠سم) طبعت وخزنت فى مخروطات الأبراج. وقد وزعت هذه النسخ على جموع الناس فى كل أنحاء اليابان من خلال المعابد الرئيسية مثل: هوريو - جى وتودايى - جى. وقد كتبت هذه النسخ بطريقة نمطية بحيث تضم الواحدة منها مجموعة من التعاويذ المقدسة فى ١٥ - ٤٥ سطراً وفى كل سطر خمس كلمات. وتعتبر أقدم عمل مطبوع فى اليابان على الإطلاق. ولسنا على يقين مما إذا كانت قد طبعت بكتل خشبية أو كتل معدنية.

وبينما كان النبلاء يتمتعون بحياة ثقافية وفكرية راقية فى كيوتو، كانت طبقات العسكريين (البوشى أو الساموراى)، تقوى نفوذها وقوتها العسكرية بالتدريج وخاصة فى الأقاليم. وقد قام إثنان من الساموراى: تاييرا - نو- موساكادو فى الشرق وفوجيوارا - نو- سوميتومو فى الغرب بالثورة ضد الحكومة المركزية فى وقت واحد بين ٩٣٦ - ٩٤٠. ولقد سحقت الثورة التى عرفت باسم زيوهايى - تنجيو - نو- ران على يد قادة الساموراى الآخرين أنفسهم. وقد نتج عن ذلك تقليص سلطة الحكومة المركزية. وفى سنة ١١٨٥م قامت أسرة مينا موتو بالإستيلاء على السلطة فى اليابان بعد سحق أسرة تاييرا. وقد أطلق على فترة القرون الأربعة التى تلت فى كاماكورا وبعدها فى كيوتو (مورو - ماتشى) إسم الفترة الإقطاعية الأولى تمييزا لها عن الفترة الإقطاعية الثانية حين انتقلت حكومة شوجونيت إلى طوكيو (وكان إسمها حينئذ ادو) وقد إتبع قادة الإقطاعيين وحلفاؤهم التقاليد والفنون العسكرية التى تؤكد على الشجاعة والإقدام. كما كان الولاء العام وطاعة الوالدين من القيم العالية بينهم، رغم أنهم لم يلبثوا أن طوروا قيما أخرى جديدة أضافوها إلى تلك

القيم الرفيعة. وكانت نتيجة ذلك أن أخذت الثقافة والفكر فى كاماكورا يزدهران. كما كان شاعر كاماكورا الشهير مينا موتو- نو- سانيتومو الذى نظم قصائده على غرار مانيو؛ ولمذهب زن البوذى، الوارد من الصين، أثرهما فى الحياة الثقافية والطبقة العسكرية فى ذلك الوقت. وقد أنشى المركز الثقافى كاناراوا - بونكو بالقرب من كاماكورا قرب نهاية القرن الثالث عشر على يد هوجو - نو- سانيتوكى. وكان أساسه أن يعمل كمكتبة. كذلك أسست مدرسة اشيكاجا فى اشيكاجا بمقاطعة توتشيجى سنة ١٤٣٢م حيث كانت تدرس الفنون العسكرية وأمهات الكتب الصينية والطب. وكانت المكتبة المدرسية جزءا أساسياً فى هذه المدرسة وقد قدم هذه المكتبة توكوجاوا - ايواسو أول حاكم (شوجون) فى ايدو. وكانت حكومة ايدو المحلية قد أسست سنة ١٦٠٣ على يد هذا الرجل جمّاع الكتب. وعلى الرغم من أن فترة حكومة توكوجاوا يشار إليها على أنها فترة الحكومة الإقطاعية الثانية إلا أنها فى الواقع كانت فترة إنتقال حقيقية من الإقطاع إلى الفترة الحديثة. وفى الواقع قامت أسرة توكوجاوا بتشجيع إنشاء المكتبات والمدارس وقد حذا أمراء الإقطاع حذوهم فى هذا العمل. وعلى سبيل المثال فإن مكتبة نايبكاكو - بونكو (أحد فروع مكتبة الدايت الآن) كانت فى الأصل مكتبة شخصية لأسرة ايواسو. وقد إشتهرت فى تلك الفترة أيضا مكتبات شوكو - كان - بونكو فى ميتو وسونكايى - كاكو - بونكو فى كانازوا. وخلال تلك الفترة كانت الطبقات الأخرى خلاف الطبقة الأرستقراطية وطبقة الساموراى (كان المجتمع فى ظل أسرة توكوجاوا مقسماً إلى أربع طبقات إجتماعية: العسكريون [الساموراى أوشى]؛ والفلاحون [نو]؛ والحرفيون [كو]؛ والتجار [شو]. (وكان العسكريون أعلى طبقة والتجار أدنى طبقة) تتمتع هى أيضا بنصيبها من الرخاء والإزدهار الإقتصادى والإجتماعى وإنتشر التعليم وإتسعت رقعته كما إزدهرت حركة النشر وإتسعت رقعته مما دفع الباحثون بل والتجار إلى المساهمة فى إنشاء المكتبات. وأكثر من هذا فإنه ما بين منتصف القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر، أصبحت المكتبات مفتوحة للجمهور العام فى مختلف أنحاء اليابان وأصبحت إعارة الكتب وتداولها بين

أفراد طبقة التجار ظاهرة. بيد أن الإقبال على إستعمال الكتب والإستفادة منها لم ينتشر على نطاق واسع بسبب ضيق الموضوعات التى كانت تعالجها والقيود الكبيرة التي كانت موضوعة على تداولها والتى تحمل المستعير مسئولية كبيرة إزاءها. وكان حجم المجموعات فى المكتبات صغيرا بطبيعة الحال كذلك. وعلى سبيل المثال فإن مكتبة موميجيياما - بونكو التى ربما كانت أكبر مكتبة فى ذلك الوقت باليابان كان فيها حسب السجلات ٤٧٣٨ عنوانا، ٧٨ لفافة، ٤٦١٥ ملزمة غير مجلدة باللغة الصينية و٥٩٢ عنوانا، ٢٠٠ لفافة باللغة اليابانية.

وكان ارتياد تلك المكتبة (والتى كانت تسمى سابقا فوجيمى - تايى - بونكو) مسألة معقدة الإجراءات للغاية؛ ولذلك كان يطلق عليها من حين لآخر مكتبة الكشك السرى فى موميجييابا. وكانت مكتبة الإعارة للتجار كتلك التى وجدت فى ناجويا باسم تايسو فى نهاية فترة توكوجاوا تفرض رسوم إعارة ولكنها كانت مع ذلك متاحة للجميع وكانت مجموعات مكتبة تايسو هذه مخزنة فى ثلاثة مخازن. وكانت عمليات الإعارة والخدمات المكتبية تتم للجميع ليس فقط للجمهور العام من الطبقات الدنيا والمتوسطة ولكن أيضا بين الطبقة الأرستقراطية وطبقة الساموراى. ولأن رسوم الإعارة لمدة عشر أيام كانت تصل فى هذه المكتبة إلى سدس ثمن الكتاب فإننا يمكن أن نتوقع أن الإقبال على إستعارة الكتب كان محدوداً. وكانت مكتبات الإعارة فى إيدو واوساكا تفرض رسوما أعلى من رسوم مكتبة تايسو وكانت مجموعاتها مجموعات ترفيهية أكثر منها بحثية.

ومن ثم فلا عجب أن يندهش يوكيتشى فوكوزاوا (١٨٣٥ - ١٩٠١م) رائد التربية الحديثة فى اليابان عندما زار المكتبات الوطنية والعامة فى الولايات المتحدة وأوربا سنة ١٨٦٠ و١٨٦٣ على التوالى والتى وصفها فى كتابه (الأحوال الثقافية والإجتماعية فى الغرب) الذى نشره باليابانية سنة ١٨٦٦. ومن المعروف أن اليابان لم تبدأ إنفتاحها على العالم إلا فى نهاية القرن التاسع عشر.

إصلاحات أسرة ميجى ودور المكتبات فى تحديث وتطوير اليابان

أدخلت أسرة ميجى إصلاحات جذرية فى النظام السياسى والإدارى للدولة بدءا من سنة ١٨٦٧، إلى الحد الذى جعل المراقبين ينظرون إلى هذه الإصلاحات على أنها ثورة وليست مجرد إنقلاب أو إصلاح. ففى سبيل القضاء على النظام الإقطاعى التقليدى، أدخل نظام التجنيد الإجبارى فى يناير ١٨٧٣ ووضع نظام جديد للضرائب على الأراضى الزراعية فى اكتوبر ١٨٧٣م. وبدأ تذويب الفروق بين الطبقات الإجتماعية تدريجياً حتى ١٨٧٦ مما مهد الطريق نحو ديمقراطية حقيقية. ومن هذا المنطلق ظهر شكل جديد للمكتبات فى اليابان. ففى سنة ١٨٧٢، أنشئت مكتبة شوجاكو - كان (المكتبة الإمبراطورية فيما بعد) فى يوشيما (طوكيو) كأول مكتبة حديثة تفتح أبوابها للجمهور العام. وكانت المكتبة تقتنى وتعرض الإنتاج الفكرى المحلى المودع بحكم قانون الإيداع بعد سنة ١٨٧٥. وإحتذاءً للمكتبة الوطنية الإمبراطورية قامت الحكومات المحلية بإنشاء مكتبات حديثة فى الولايات. وفى سنة ١٨٩٢م أسس إتحاد المكتبات اليابانية وتمت الموافقة على قانون المكتبات بواسطة البرلمان الإمبراطورى سنة ١٨٩٩م. ولم تأت سنة ١٩٠٢ حتى كانت هناك ٦٧ مكتبة عامة تفتح أبوابها لجموع القراء وبعد ربع قرن فقط من هذا التاريخ كانت هناك ٤٣٠٦ مكتبات فى جميع أنحاء اليابان. ولكن هناك ما يشير إلى أن تلك الزيادة الكبيرة فى إنشاء المكتبات لم يستتبعه بالضرورة زيادة مماثلة فى إستخدام الكتب والمكتبات بين الجمهور؛ ونتج عن ذلك ضعف تأييد الجمهور لتلك المكتبات سواء التأييد المعنوى والمادى ومن ثم خدمات مكتبية غير كافية بالتبعية.

ومع كل ذلك فقد إستمرت المكتبة الإمبراطورية ومئات من المكتبات العامة فى النمو الوئيد حتى سنة ١٩٣٦ حين دخلت اليابان الحرب. لقد بلغت مقتنيات المكتبة الإمبراطورية ٢٩٤,٣٤٤ مجلداً فى نهاية سنة ١٨٩١ وإستمرت فى الزيادة المتئدة، ففى سنة ١٩٠٦ بلغت المقتنيات ٤٦٣,٠٠٠ مجلد وفى سنة

١٩٢٦ **بلغت** ٦٧٠,٠٠٠ مجلد وفى سنة ١٩٤٨ وصلت إلى ١,٠٤٧,٠٠٠ مجلد، أى قبل إدماجها فى مكتبة الدايت (البرلمان) الوطنية بسنة واحدة. ومع هذا فإن الزيادة فى عدد القراء والمستفيدين لم تكن بذات بال لأن الطاقة الإستيعابية ظلت كما هى دون توسع يذكر وكان عدد المقاعد صغيرا محدوداً منذ البداية؛ فبالنسبة للمكتبة الإمبراطورية كان عدد القراء فى سنة ١٨٨٦: ٣٥,٣٤٦ قارئاً، إرتفع إلى نحو ٧٤,٠٣٤ فى سنة ١٨٩٦ وفى سنة ١٩٠٧، إلى ٢٠٦,٠٦١ قارئاً وفى سنة ١٩١٧، إلى ٢٣٩,٩٣٠ قارئاً وبلغ ذروته سنة ١٩٣٣ حين بلغ ٤٢٨,٨٨٨ قارئاً. ولأن المكتبة لم تسمح بالإعارة الخارجية فقد كان على القراء أن ينتظموا فى طوابير طويلة قبل فتح باب المكتبة بوقت طويل. ومع ذلك فإن بعض المكتبات العامة مثل مكتبة اوساكا العامة كانت توسع طاقتها الإستيعابية بين حين وآخر عدة مرات لمواجهة الأعداد المتزايدة من القراء. وكانت المكتبات الأكاديمية تقدم خدمات مكتبية أكثر للقراء من المكتبات العامة. وكانت مكتبات الجامعات الإمبراطورية فى كل من طوكيو وكيوتو وعدة مكتبات جامعية أخرى، تقدم خدمات واسعة وإن إقتصرت على أعضاء هيئة التدريس دون الطلاب فى تلك الجامعات.

لقد كانت هناك مجموعات متخصصة ممتازة فى المصالح الحكومية والمصانع. ولو أن عدد المستفيدين من تلك المكتبات كان محدوداً، إلا أن الخدمات كانت شخصية ومباشرة. وفى سنة ١٩٢٨، أنشئت مكتبتان حكوميتان ضمتا مجموعات كاملة من الإحصائيات والتشريعات منذ ١٨٧١م.

لقد كان فى اكاديمية تايكوكو - جاكوشى - إن (التى أسست سنة ١٨٧١ تحت اسم طوكيو - جاكوشى - إن وكان أول رئيس لها هو يوكيتشى فوكوزاوا) مكتبة متخصصة عظيمة. كما كان فى مجلس البحث العلمى الذى أسس سنة ١٩١٩ كذلك مكتبة متخصصة قوية وقد أعيد تنظيم هذا المجلس مرة أخرى تحت إسم (مجلس علوم اليابان) بعد ١٩٤٩ وطور مكتبته المرجعية تطويرا عظيما ووضعها فى خدمة الباحثين.

من جهة أخرى أنشئت مكتبة بحثية للدراسات الشرقية سنة ١٩١٧ تحت إسم تويو - بونكو عمل بها أمناء مكتبات متميزون من أمثال ميكونوسوكى ايشيدا وتايكايى ايواى.

هذه المكتبات الخمس المتخصصة التى أنشئت فى تلك الفترة الباكرة هى الآن فروع لمكتبة الدايت الوطنية. وهناك أيضا مكتبات متخصصة أخرى فى اليابان مثل: مكتبة تنرى المتخصصة فى الديانات والتاريخ والببليوجرافيا والتى أسست سنة ١٩١٢، ومكتبة اوهارا التذكارية المتخصصة فى الدراسات الإجتماعية والتى أنشئت فى اوساكا سنة ١٩١٩ ولكنها ألحقت بجامعة هوساى فى طوكيو سنة ١٩٤٩، وكذلك مكتبة فوجيوارا التذكارية المتخصصة فى التكنولوجيا والتى أسست سنة ١٩٢٧ والتى أصبحت نواة مكتبة التكنولوجيا فى جامعة كينيو سنة ١٩٤٩.

لقد إتحد أمناء المكتبات المؤهلون المهنيون فى المكتبات الجامعية والمتخصصة مع إخوانهم فى المكتبات العامة وأسسوا إتحاد المكتبات اليابانية منذ سنة ١٨٩٢ من أجل تطوير مهنة المكتبات ومن أجل تعميق التفاهم المشترك والمتبادل فى مهنة المكتبات باليابان.

البعث المكتبى فى اليابان بعد الحرب

إستمرت عملية إعادة بناء ما خربته الحرب من مكتبات بهدوء شديد لمدة عشرة سنوات. ولكى يعاد تنظيم المكتبة الوطنية (المكتبة الإمبراطورية) تحت اشراف وزارة التعليم كان لابد من إنشاء المكتبة القوية المؤثرة (مكتبة الدايت الوطنية) فى سنة ١٩٤٨، كما صدر قانون المكتبات العامة سنة ١٩٥٠ والذى أكد على مبدأ إنشاء مكتبات عامة بدون مقابل وأمناء مكتبات مؤهلين تأهيلاً مهنياً. كما أنشئ مركز اليابان للمعلومات العلمية والتكنولوجية سنة ١٩٥٧ لتقديم المعلومات الجارية بمقابل وإستعانت اليابان بخبراء ومستشارين فى المكتبات والمعلومات من الولايات المتحدة لإنشاء مكتبات نموذجية فى اليابان مما

قدم إسهامات لها خطرها وشأنها فى تطوير الحركة المكتبية وتحسينها باليابان. كما قامت البعثات التعليمية الأمريكية فى اليابان بدور فعال فى هذا الصدد فى سنوات ١٩٤٦ و١٩٥٠. وعلى الجانب الآخر قام كثير من أمناء المكتبات اليابانيين بدراسة علم المكتبات الحديث فى الخارج وخاصة فى الولايات المتحدة. وأصبحت إدارة المكتبة اليابانية موجهة أكثر وأكثر نحو خدمة المستفيد بدلاً من الحفاظ على المصادر. ولم يعد المستفيدون هم هؤلاء الصفوة المحظوظة ذات الإمتيازات، ولكن أيضا القارئ العام ورجل الشارع اليابانى. وأصبحت كل المكتبات العامة تقريباً مفتوحة الرفوف وتعير كتبها خارج جدرانها بلا قيود. وإستخدمت شبكة واسعة النطاق من المكتبات المتنقلة لتقديم الخدمات المكتبية على نطاق واسع للقرى النائية. ويلعب الطلاب الآن دوراً هاما فى إختيار الكتب التى يرغبونها وفى الحصول على الخدمات المكتبية التى تسد إحتياجاتهم الدراسية.

ويجرى الآن على قدم وساق فى اليابان الأخذ بالمواصفات القياسية فى العمليات والخدمات المكتبية كما يجرى أيضا فى سباق مع الزمن إعداد أدوات العمل الأساسية فى المكتبة اليابانية وذلك بفضل الجهود المتواصلة والتعاونية البناءة من جانب إتحاد المكتبات اليابانية، وإتحاد المكتبات المتخصصة، وجمعية نيبون للتوثيق.

أهم المصادر

١ - American National Standards Institute. American National Standard System for the romanization of Japanese.- New York: ANSI, 1972.

٢ Andrew Y. Kuroda. Bibliographical Control for Asian Studies: present status and future d evelopment in Japanese. Foreign Acquisitions Newsletter. no32, october, 1970.

٣ Association For Asian Studies - Committee on East Asian Libraries. Newsletter. no 35, November, 1971.

٤ - Chandler, George. Libraries in the East. London: Seminar Press, 1971.

٥ - National Diet Library. Newsletters. no 41 July 1975.

٦ - Nippon Toshokankyokai. Libraries in Japan .- Tokyo: Japan Library Association.

٧ - Tung, Louis Watanebe. Library development in Japan .- library Quarterly, I, II. vol. 26 no 2,3. 1959.

قائمة المحتويات

صفحة

الباب الثانى : المكتبة الإسلامية